سلسلة الأنوار الإلهية 5

رياض الرقائق وحياض الحقائق على صلاة القطب الفائق مولانا عبد السلام بن مشيش

رضي الله عنه وقدس الله سره

إعداد

الدكتور محمد بن محمد المهدي التمسماني



سلسلة الأنوار الإلهية

(5)

رياض الرقائق وحياض الحقائق

على صلاة القطب الفائق

مولانا عبد السلام بن مشيش

رضي الله عنه وقدس الله سره

إعداد

الدكتور محمد بن محمد المهدي التمسماني



الكتاب : رياض الرقائق وحياض الحقائق على صلاة القطب الفائق مولانا عبدالسلام بن مشيش

Title : RIYĀḌ AR-RAQĀ'IQ WA ḤIYĀḌ AL-ḤAQĀ'IQ 'ALĀ ṢALĀT AL-QUṬB AL-FĀ'IQ MAWLĀNĀ 'ABDULSALĀM BIN MAŠĪŠ

التصنيف : تصوف

Classification: Sufism

المؤلف : الدكتور محمد بن محمد المهدي التمسماني

Author: Dr. Mohammed ben Mohammed Al-Mahdi Al-Timsamani

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	512	عدد الصفحات
Size	17×24 cm	قياس الصفحات
Year	2017 A.D. - 1438H.	سنة الطباعة
Printed in	Lebanon	بلد الطباعة لبنان
Edition	1st	الطبعة الأولى

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah, Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.O.Box 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Solh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



ISBN-13: 978-2-7451-6870-2
ISBN-10: 2-7451-6870-3

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الأحد الواحد الغفار والصلاة والسلام على مَنْ منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، سيدنا محمد المختار، وعلى آله وأصحابه الكرام الأخيار.

أما بعد، فإن صلوات العارفين بالله رضي الله عنهم أجمعين على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً، والملفت للنظر أنه لم تحظ صلاة بشروح كثيرة وكبيرة كما حظيت به صلاة الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش قدس الله سره الشهيرة بالصلاة المشيشية.

بتوفيق من الله، نسختُ بيدي كتاب شيخي العارف بالله سيدي محمد المرون قدس الله سره "شموس الأنوار ومعادن الأسرار على صلاة القطب الأكبر مولانا عبد السلام بن مشيش".

وسيراً في نفس الاتجاه، أي جمع عدد مهم من شروح الصلاة المشيشية في كتاب واحد، طلبتُ من شيخي العارف بالله سيدي حمزة شقور نفعنا الله ببركاته، في شهر أكتوبر 2007م، أن يأذن لي في كتاب جديد جامع لشروح أخرى للصلاة المشيشية، فأعطاني الإذن ودعا لي بالتيسير، وبشّرني بأن هذا الكتاب ستكون عدد صفحاته أكبر من عدد صفحات كتاب (شُموس الأنوار).

كتاب "شُموس الأنوار ومعادن الأسرار على صلاة القطب الأكبر مولانا عبد السلام بن مشيش"، يشتمل على أحد عشر شرحاً وخمسة أمزاج وتعليق على الصلاة المشيشية.

هذا الكتاب "رياض الرقائق وحياض الحقائق على صلاة القطب الفائق مولانا عبد السلام بن مشيش"، يشتمل على تسعة شروح (مع مقدمتين للشارح سيدي ابن زكري) ومزج للصلاة المشيشية.

في هذا الكتاب، إضافة إلى شروح المشيشية، نجد مواضيع جديدة: (نظرة على

الصلاة المشيشية، بعض أسانيد الصلاة المشيشية، إطلالة على الشروح المعروفة للصلاة المشيشية، أسانيد شراح الصلاة المشيشية، كيف أتت الصلاة المشيشية، كيف أتت بعض شروح الصلاة المشيشية، كيف أتت بعض شروحِ مزْج الصلاة المشيشية المسمى "الوظيفة الشاذلية").

هذه الشروح مِنْ مَدَد سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، فهي رياض مونقة، تُسْقَى بحياض أنواره صلى الله عليه وسلم المتدفقة. نسأل الله تعالى أن ينفعنا ببركات صاحب الصلاة المشيشية رضي الله عنه وببركات الشارحين رضي الله عنهم، فتُسْقَى من تلك الحياض، ونتنزه في تلك الرياض.

قال صلى الله عليه وسلم (مَنْ لَم يشكر الناس لَم يشكر الله)، ولذا أتوجه بالشكر إلَى كلِّ من سيدي أحمد بُوحُزمَة الذي أمدني بشرحيْن للصلاة المشيشية وإلى سيدي عبد الواحد اللُّغَيْبِش الذي أمدّني بشرحيْن آخريْن للصلاة المشيشية.

نسأل الله تعالى أن يسهل في كتاب ثالث حول شروح المشيشية، لتستمر هذه المسيرة مسيرة جمع جُلِّ شروح الصلاة المشيشية بإذن الله سبحانه وتعالَى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله صلاةً تليق بك منك إليه كما هو أهله، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالَمين.

الدكتور محمد بن محمد المهدي التمسماني

الرباط 17 فبراير 2009م



الباب الأول
إطلالات على الصلاة المشيشية وعلى شروحها

ترجمة الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش

تفادياً للتكرار، أحيل من أراد ترجمة الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش قدس الله سرّه إلَى بداية شرح سيدي محمد بن عبد السلام بناني للصلاة المشيشية، وإلَى بداية شرح سيدي عبد الرحمن العياشي للصلاة المشيشية، وإلَى شرح سيدي ابن زكري لقول مولاي عبد السلام بن مشيش في صلاته المشيشية (اللهم ألحقني بنسبه وحققني بحسبه)، والشروح الثلاثة موجودة داخل هذا الكتاب.

هذا ومَنْ أراد الاطلاع على ترجمة مفصَّلة للشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش، فعليه بكتابِي (الإمام مولاي عبد السلام بن مشيش: ترجمته وبعض آثاره) وهو كتابي الثاني ضمن (سلسلة أعيان من شيوخ الشاذلية بالمغرب).

الصلاة المشيشية

أَللَّهُمّ صَلِّ عَلَى مَنْ مِنْهُ انْشَقَّتِ الأَسْرَارُ، وَانْفَلَقَتِ الأَنْوَارُ، وَفِيهِ ارْتَقَتِ الحَقَائِقُ، وَتَنَزَّلَتْ عُلُومُ آدَمَ فَأَعْجَزَ الخَلاَئِقَ، ولهُ تضاءَلَتِ الفُهُومُ فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا سَابِقٌ وَلَا لَاحِقٌ، فَرِيَاضُ المَلَكُوتِ بِزَهْرِ جمالِهِ مُونِقَة، وَحِيَاضُ الجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَة، ولا شيء إلا وهو به مَنُوط، إذ لولا الواسطة لذَهَبَ كما قيل المَوْسُوط، صلاةً تليق بك منك إليه، كما هو أهله. أَللّهمّ إنه سِرُّكَ الجامع الدّالُّ عليك، وحجابُكَ الأعظَم القائم لك بين يَدَيْك. أللّهمّ أَلْحِقْنِي بِنَسَبِهِ، وحَقِّقْنِي بِحَسَبه، وعَرِّفْنِي إيّاهُ معرفةً أَسْلَمُ بها مِنْ مَوَارد الجهل، وأكْرَعُ بها من مَوَارِدِ الفَضْل، وَاحْمِلْنِي على سبيله إِلَى حَضْرَتِكَ، حَمْلاً مَحْفُوفًا بنصرتك، وَاقْذِفْ بِي على الباطل فأدْمَغَهُ، وَزُجَّ بِي فِي بِحَارِ الأَحَدِيَّة، وانْشُلْنِي مِنْ أَوْحَالِ التوحيد، وَأَغْرِقْنِي فِي عَيْنِ بَحْرِ الوَحْدَة، حتّى لا أرى ولا أسْمَعَ ولا أجِدَ ولا أُحِسَّ إلا بِها، واجْعَلِ الحِجَابَ الأعظَم حياةَ رُوحي، ورُوحَهُ سِرَّ حَقِيقَتِي، وحَقِيقَتَهُ جَامِعَ عَوَالِمِي بِتَحْقِيق الحق الأول، يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن، اسْمَعْ ندائي بما سَمِعْتَ به نداء عبدك زكرياء، وانْصُرْنِي بك لك، وَأَيِّدْنِي بك لك، واجْمَعْ بيني وبينك، وَحُلْ بَيْنِي وبين غَيْرِك، الله الله الله، إن الذي فرض عليك القرآن لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾، ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

نظرة على الصلاة المشيشية

الصلاة المشيشية يمكن أن نجزئها إلى قسمين:

- **القسم الأول** يتضمن الصلاة على سيد الوجود صلى الله عليه وسلم: (اللهم صل على مَنْ) إلى قوله (صلاةً تليق بك منك إليه كما هو أهله)، ويتخلل هذه الصلاةَ الثناءُ على سيد الوجود صلى الله عليه وسلم والتعريف ببعض أوصافه الباطنة:

1- مِنْهُ انْشَقَّتِ الأَسْرَارُ

2- وَانْفَلَقَتِ الأَنْوَارُ

3- وَفِيهِ ارْتَقَتِ الحَقَائِقُ

4- وَتَنَزَّلَتْ عُلُومُ آدَمَ

5- فَأَعْجَزَ الخَلَائِقَ

6- ولهُ تَضَاءَلَتِ الفُهُومُ

7- فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا سَابِقٌ وَلَا لَاحِقٌ

8- فَرِيَاضُ الْمَلَكُوتِ بِزَهْرِ جمالِهِ مُونِقَة

9- وَحِيَاضُ الجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوارِه مُتَدَفِّقَة

10- ولا شيء إلا وهو به مَنُوط، إذ لولا الواسطة لذَهَبَ كما قيل المَوْسُوط

11- أللَّهمَّ إنه سِرُّكَ الجامع

12- الدَّالُّ عليك

13- وحِجَابُكَ الأعظَم

14- القائم لك بين يَدَيْك.

- **القسم الثاني من الصلاة المشيشية،** كله دعوات:

1- اللَّهمَّ أَلْحِقْنِي بِنَسَبِهِ

2- وحَقِّقْنِي بِحَسَبِه

3- وعَرِّفْنِي إيَّاهُ معرفةً

4- أَسْلَمُ بِها مِنْ مَوَارِدِ الجهل

5- وأكْرِعْ بِها من مَوارِدِ الفَضْل

6- وَاحْمِلْنِي على سبيله إلى حَضْرَتِكَ

7- حَمْلاً مَحْفُوفًا بنصرتك

8- وَاقْذِفْ بِي على الباطل فأدْمَغَهُ

9- وَزُجَّ بِي فِي بِحَارِ الأَحَدِيَّة

10- وانْشُلْنِي مِنْ أوْحَالِ التوحيد

11- وَأَغْرِقْنِي فِي عَيْنِ بَحْرِ الوَحْدَة

12- حتّى لا أرى ولا أسْمَعَ ولا أجِدَ ولا أُحِسَّ إلا بِها

13- واجْعَلِ الحِجَابَ الأَعظَم حياةَ رُوحي

14- ورُوحَهُ سِرَّ حَقِيقَتِي

15- وحَقِيقَتَهُ جَامِعَ عَوَالِمِي بِتَحْقِيقِ الحق الأول

16- يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن، اسْمَعْ ندائي بِما سَمِعْتَ به نداء عبدك زكرياء

17- وانْصُرْنِي بك لك

18- وَأيِّدْني بك لك

19- واجْمَعْ بيني وبينك

20- وَحُلْ بَيْنِي وبين غَيْرِك، الله الله الله

21- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾.

بعض أسانيد الصلاة المشيشية

قال سيدي عبد الله الميرغني في شرحه للصلاة المشيشية:

(وقد أجازني بقراءتها بعد الصبح وبعد المغرب العلامة الفهامة شيخنا الشيخ شبلي المالكي كان الله لي وله، وقيل تقرأ مرة ثالثة بعد العشاء. وقد أحببت أن أذكر سند الشيخ أحمد النخلي لها تبركاً، إذ ذكر أنه أخذها عن الشيخ محمد بن علاء الدين البابلي، وقال: وقد أخذ شيخنا محمد البابلي رحمه الله تعالى هذه الصلاة عن الشيخ سالم السنهوري عن النجم الغيطي عن شيخ الإسلام زكريا عن العزّ عبد الرحيم بن الفرات عن التاج عبد الوهاب بن علي السبكي عن والدي التقي عليّ بن الكافي السبكي عن الشيخ ابن عطاء الله عن الشيخ أحمد بن عمر المرسي عن أبي الحسن الشاذلي عن مؤلفها سيدي عبد السلام بن مشيش نفعنا الله تعالى به وبهم أجمعين).

قال سيدي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن العياشي في شرحه للصلاة المشيشية:

(وهذه الصلاة المباركة أرويها عن شيخنا سيدي حمزة بن عبد الله، عن والده أبي سالم سيدي عبد الله، عن سيدي عبد القادر بن علي الفاسي، عن عمه العارف بالله أبي زيد عبد الرحمن الفاسي، عن أبي عبد الله القصار، عن الأستاذ التسولي، عن الإمام ابن غازي، عن محمد ابن أبي القاسم بن يحيى السراج، عن أبيه، عن جده، عن أبي القاسم الترجي، عن اليافعي، عن الميلي، عن ياقوت الحبشي، عن الشيخ أبي العباس المرسي، عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي، عن مؤلفها القطب مولاي عبد السلام بن مشيش، نفعنا الله بهم).

قال سيدي سليمان الحوات في كتابه "الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة":

(سند الشيخ التاودي ابن سودة للصلاة المشيشية.

وأما سند شيخنا أبي عبد الله التاودي بن سودة رضي الله عنه للصلاة المشيشية:

فأخذها عنه بلا واسطة روحانية كما سبق.

وأخذها أيضاً عن الشيخين الأخوين أبي العباس أحمد بن الطاهر وأبي عبد الله محمد بن الطاهر بن عبد الوهاب الحسنِي العَلَمي العبد السلامي، عن أبيهما، عن جدهما، أباً عن أب إلَى القطب أبِي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، وقد سبق رفع نسبهما إليه في ترجمتهما من هذا الباب.

وأخذها أيضاً عن شيخه أبِي زيد عبد الرحمن العيدروسي، عن جده المولَى شيخ العيدروسي، عن الحسن العجيمي المكي، عن الصفي القشاشي، عن أحمد الشناوي، عن أبيه علي الشناوي، عن أبيه عبد القدوس، عن علي الخواص، عن إبراهيم المتبولي، عن يوسف البرنسي، عن السيد أحمد البدوي، عن أبِي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه).

الشروح المذكورة في كتاب "شموس الأنوار" وفي هذا الكتاب

- **كتاب** (شُموس الأنوار، ومعادن الأسرار، على صلاة القطب الأكبر، مولاي عبد السلام بن مشيش) لشيخي سيدي محمد المرون رضي الله عنه، يتضمن:

شرح شيخي سيدي محمد المرون (ت عام 1416 هـ/1996م)

وشرح سيدي أبي بكر البناني (ت عام 1284 هـ)

وشرح سيدي محمد الحراق (ت عام 1261 هـ)

وشرح سيدي أحمد بن عجيبة (ت عام 1224 هـ)

وشرحين لسيدي مصطفى البكري (ت عام 1162 هـ)

وشرح سيدي أحمد بن عبد الوهاب الوزير (ت عام 1146 هـ)

وشرح سيدي ابن زكري (ت عام 1144 هـ)

وشرح سيدي عبد العزيز الدباغ (ت عام 1131 هـ)

وشرح سيدي الحسن الزياتي (ت عام 1023 هـ)

وشرح سيدي محمد الخروبي (ت عام 963 هـ)

وتعليق سيدي عبد الرحمن الفاسي (ت عام 1036 هـ)

ومزج سيدي عبد الحميد أفندي الشيمي

ومزج سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني (ت عام 1327 هـ)

ومزجين لسيدي محمد المعطى بن الصالح الشرقاوي (ت عام 1180 هـ)

ومزج سيدي أبي المواهب الشاذلي (ت عام 882 هـ).

- **وأما كتابي** "رياض الرقائق، وحياض الحقائق، على صلاة القطب الفائق، مولاي عبد السلام بن مشيش"، فيتضمن:

شرح سيدي محمد الخلانجي (ت عام 1283 هـ)

وشرح سيدي محمد بدر الدين الحسيني الحمومي (ت عام 1266 هـ)

وشرح سيدي أحمد الصاوي (ت عام 1242 هـ)

وشرح سيدي الطيب ابن كيران (ت عام 1227 هـ)

وشرح سيدي عبد الله بن إبراهيم الميرغني (ت عام 1207 هـ)

وشرح سيدي ابن حيون الخمسي الزرويلي (ت عام 1180 هـ)

وشرح سيدي محمد بن عبد السلام، بن حمدون، بناني (ت عام 1163 هـ)

وشرح سيدي عبد الرحمن بن محمد العياشي (ت عام 1149 هـ)

وشرح آخر لسيدي ابن زكري (ت عام 1144 هـ)

ومزج سيدي عبد الله بن الصديق (ت عام 1413 هـ).

كلمة سيدي عبد الصمد العشاب حول شروح الصلاة المشيشية

قال سيدي عبد الصمد العشاب في كتابه

"القطب الرباني مولاي عبد السلام بن مشيش":

(الصلاة المنسوبة للشيخ عبد السلام بن مشيش، نص فريد بين التصليات التي سجلها أدب التصوف منذ أواخر القرن السادس الهجري حتّى الآن.

نص فريد في عباراته المنتقاة، ومعانيه الراقية، تنساب فيه العبارات في رقة وعذوبة، محملة بدفق الإيمان وصفاء المحبة، التي ما إن تخالطها الروح وتستعذبها المسامع حتّى تحلق بصاحبها في أجواء من السمو، وملكوت الجمال.

ولا غرو أن يكون هذا النص كذلك، لأنه صادر عن عالِم عارف، وبليغ أريب، اجتهدت صروف الزمن في طمس آثاره، فلم يصل إلينا منها إلا هذه التصلية وبضعة أقوال برواية الآخذين عنه وأبرزهم كما هو معروف، الإمام العالِم أبو الحسن الشاذلي رحمه الله.

لقد اكتشف العلماء جمالية مبنى ومعنى هذه التصلية، فراحوا يعتنون بها شرحاً وتعليقاً وإيضاحاً. ولعل أقدم من تناولَها بالشرح، العلامة محمد بن أحمد بن داوود التونسي المعروف بابن زغدان المتوفى عام 881 هـ 1476م.

وتوالت شروحها على يد علماء أجلاء من المغرب والمشرق أمثال العلامة العارف محمد بن علي الخروبي الطرابلسي المتوفّى عام 963 هـ 1555م، والعلامة عبد الرحمن بن ملا حسن الكردي المعروف بأبي عصبة المتوفى عام 1195 هـ 1781م وغيرها مِما سنذكره بعد.

على أن أغلب هذه الشروح لا يزال مخطوطاً لم يكتب له الانتشار عن طريق الطبع، بعضها نال شهرة كبيرة، وبعضها بقي مغموراً في طي السجلات).

(ختاماً لِهذا البحث، أثبت جرداً بالشروح التي توصلت إلَى معرفتها خلال البحث في كتب الفهارس والمراجع المعنية، أذكرها كالتالي:

أ- الشروح المخطوطة:

1- شرح أبي الخير زين الدين عبد الرحمن بن عبد الله البغدادي الشافعي الشهير بالسويدي، المتوفى عام 1200 هـ 1786م.

2- شرح الشيخ عبد الرحمن بن ملا الكردي القادري المعروف بأبي عصبة المتوفى عام 1195 هـ 1781م.

3- شرح الشيخ حسن بن علي بن أحمد المدابغي المنطاوي الأزهري، المتوفى عام 1170 هـ 1756م، وهو مختصر لشرح ابن زكري.

4- شرح الشيخ أبي الطيب الحسن بن يوسف بن مهدي الزياتي الفاسي، المتوفى عام 1023 هـ 1614م.

5- شرح الشيخ أحمد بن عبد الوهاب الغساني المتوفى عام 1146 هـ 1733م.

6- شرح الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن حمدون بناني، المتوفى عام 1163 هـ 1749م.

7- شرح الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري المتوفى عام 1144 هـ 1731م.

8- شرح الشيخ محمد الحراق، المتوفى عام 1261 هـ 1845م.

9- شرح أبي زيد عبد الرحمن بن محمد العياشي.

10- شروح أربعة للشيخ مصطفى بن كمال الدين الصديقي البكري المتوفى عام 1099 هـ 1688م.

11- شرح الشيخ محمد بدر الدين الحسيني الشاذلي، سماه "الكواكب المستنيرة في حل ألفاظ الصلاة المشيشية الشهيرة".

12- شرح الشيخ محمد بن أحمد بن عيسى الخمسي الزروالي المعروف بابن حيّون.

13- شرح الشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن داوود التونسي، المعروف بابن زغدان، المتوفى عام 881 هـ 1476م، سماه "تضمين صلاة ابن مشيش".

14- العقود الإبريزية على طرر الصلاة المشيشية، للعلامة محمد المرير دفين تطوان عام 1398 هـ 1978م.

15- شرح الصلاة المشيشية للعلامة سيدي التهامي الوزاني المتوفى بتطوان عام 1392 هـ 1972م.

ب- الشروح المطبوعة:

16- شرح أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي، المتوفى عام 963 هـ 1555م، وقد طبع ضمن كتاب "حصن السلام بين يدي أولاد مولاي عبد السلام" للأستاذ الباحث السيد عبد السلام اللهيوي، طبع سنة 1978م.

17- شرح الشيخ أحمد بن عجيبة، طبع بالعرائش سنة 1981م.

18- شرح الأستاذ السيد محمد بن عبد السلام بن عبود، طبع بتطوان عام 1982م.

فهذه ثمانية عشر شرحاً، أحد عشر منها لعلماء من المغرب، وسبعة لعلماء المشرق).

القول:

- عدد الشروح التي ذكرها سيدي عبد الصمد العشاب، ثمانية عشر، بل هي في الحقيقة إحدى وعشرون شرحاً، لأنه ذكر أن لسيدي مصطفى بن كمال الدين الصديقي البكري أربعة شروح. 18+ 3 = 21.

- عدد الشروح المخطوطة التي ذكرها سيدي عبد الصمد العشاب خمسة عشر، بل هي في الحقيقة ثمانية عشر.

- نحمد الله تعالى ونشكره، على أن عدداً من هذه الشروح المخطوطة قد تم طبعها في كتاب شيخي سيدي محمد المرون "شموس الأنوار ومعادن الأسرار على صلاة القطب الأكبر مولانا عبد السلام بن مشيش"، وعدداً من هذه الشروح ستطبع ضمن هذا الكتاب "رياض الرقائق وحِياض الحقائق على صلاة القطب الفائق مولانا عبد السلام بن مشيش".

- لسيدي ابن زكري شرحان للصلاة المشيشية: أحدهما مذكور في كتاب "شموس الأنوار"، والشرح الآخر مذكور في هذا الكتاب "رياض الرقائق".

أسانيد شراح الصلاة المشيشية

- فيما يتعلق بكتاب "شموس الأنوار ومعادن الأسرار على صلاة القطب الأكبر مولانا عبد السلام بن مشيش"، انظرْ في ختام مقدمتي لذلك الكتاب، تجد أسانيد شارحي الصلاة المشيشية الذين ينتمون إلى الطريقة الشاذلية (سيدي محمد المرون، سيدي أبو بكر البناني، سيدي محمد الحراق، سيدي أحمد بن عجيبة، سيدي أحمد بن عبد الوهاب الوزير، سيدي عبد الرحمن الفاسي، سيدي الحسن الزياتي، سيدي المعطى بن الصالح الشرقي، سيدي الخروبي).

سيدي أبو المواهب الشاذلي ينتمي إلى الطريقة الوفائية الشاذلية.

- بعض أسانيد شراح الصلاة المشيشية في هذا الكتاب.

- أخذ سيدي عبد الله بن الصديق الطريقة عن أبيه سيدي محمد بن الصديق، عن سيدي محمد بن إبراهيم، عن سيدي عبد الواحد بناني، عن سيدي محمد أيوب، عن سيدي الحاج أحمد بن عبد المومن، عن مولاي العربي الدرقاوي.

- أخذ سيدي محمد الخلانجي عن سيدي محمد الحراق، عن مولاي العربي الدرقاوي، عن سيدي علي العمراني الجمل، عن سيدي العربي بن عبد الله، عن أبيه سيدي أحمد بن عبد الله، عن سيدي قاسم الخصاصي، عن سيدي محمد بن عبد الله (وهو أب سيدي أحمد بن عبد الله)، عن سيدي عبد الرحمن الفاسي، عن أخيه سيدي يوسف الفاسي، عن سيدي عبد الرحمن المجذوب، عن سيدي علي الصنهاجي، عن سيدي إبراهيم أفحام، عن سيدي أحمد زروق، عن سيدي أحمد الحضرمي، عن سيدي يحيى القادري، عن سيدي علي بن وفا، عن أبيه سيدي محمد بحر الصفا، عن سيدي داوود الباخلي، عن سيدي ابن عطاء الله، عن سيدي أبي العباس المرسي، عن سيدي أبي الحسن الشاذلي، عن مولاي عبد السلام بن مشيش، عن سيدي عبد الرحمن المدني، عن سيدي تقي الدين الفقير، عن سيدي فخر الدين، عن سيدي نور الدين، عن سيدي تاج الدين، عن سيدي شمس الدين، عن سيدي زين الدين القزويني، عن سيدي إبراهيم البصري، عن سيدي أحمد المرواني، عن سيدي سعيد، عن سيدي سعد، عن سيدي فتح السعود، عن سيدي سعيد الغزواني، عن سيدي جابر، عن سيدنا الحسن السبط، عن أبيه سيدنا علي كرم الله وجهه، عن سيد الوجود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

- قال سيدي محمد بن عبد السلام بناني في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية:

(وتتصل لنا طريقته رضي الله عنه عن شيخنا الإمام جمال الإسلام أبي عبد الله محمد بن شيخ المشايخ أبي محمد عبد القادر الفاسي عن عبد الله أبي زيد عبد الرحمن بن محمد عن الشيخ النظار أبي عبد الله القصار عن الشيخ سيدي رضوان عن سيدي سعيد القاصمي السفياني عن القلنسوي عن الواسطي عن الميرومي عن الشيخ أبي العباس المرسي عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي عن سيدي عبد السلام بن مشيش).

- أخذ سيدي أحمد الصاوي الطريقة الخلوتية عن سيدي أحمد بن محمد الدردير العدوي، عن سيدي محمد بن سالم الحفناوي، عن سيدي مصطفى البكري (له أربعة شروح على الصلاة المشيشية كما سبق ذكره)، عن سيدي عبد اللطيف الحلبي، عن سيدي مصطفى أفندي الأدرنوي، عن سيدي علي قِرا باشا أفندي، عن سيدي إسماعيل الجرومي، عن سيدي عمر الفؤادي، عن سيدي محيي الدين القسطموني، عن سيدي شعبان القسطموني، عن سيدي خير الدين التوقادي، عن سيدي جلبي سلطان الأقسدائي الشهير بجمال الخلوتي، عن سيدي محمد بهاء الدين الأرذنجاني، عن سيدي يحيى الباكوبي، عن سيدي صدر الدين الخياني، عن سيدي عز الدين، عن سيدي محمد مبرام الخلوتي، عن سيدي عمر الخلوتي، عن سيدي أخي محمد الخلوتي، عن سيدي إبراهيم الزاهد التكلاني، عن سيدي جمال الدين التبريزي، عن سيدي شهاب الدين محمد الشيرازي، عن سيدي ركن الدين محمد النجاشي، عن قطب الدين الأبهري، عن أبي النجيب السهروردي، عن سيدي عمر البكري، عن سيدي وجيه الدين القاضي، عن سيدي محمد البكري، عن سيدي محمد الدينوري، عن سيدي ممشاد الدينوري، عن سيدي أبي القاسم الجنيد البغدادي، عن سيدي سري السقطي، عن سيدي معروف الكرخي، عن سيدي حبيب العجمي، عن سيدي داود الطائي، عن سيدي الحسن البصري، عن سيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كيف أتت الصلاة المشيشية؟

قال العارف بالله سيدي محمد المرون في شرحه للصلاة المشيشية في كتابه "شموس الأنوار ومعادن الأسرار على صلاة القطب الأكبر مولانا عبد السلام بن مشيش":

"أخذ - مولاي عبد السلام- ابن مشيش عن الإمام المدني الطريقة والوسيلة والقطبانية، فقال له الإمام المدني قدّس الله سرّه: ها أنت وربّك ونبيّك يقظة لا منامًا، وفي هذا الوقت قال - مولاي عبد السلام- ابن مشيش: يا رسول الله قلتَ في ليلة الإسراء لربك عند انصرافك من حضرته: يا ربّ لكل قادمٍ تحفة، وأنا يا رسول الله ما تحفتِي عند انصرافِي منْ حضرتك؟ فقال يا ابن مشيش قُلْ: اَللَّهمَّ صَلِّ على مَن منه انشقّت الأسرار وانفلقت الأنوار وفيه ارتقت الحقائق".

"لمّا فرغ ابن مشيش من هذه الصلاة وأراد السفر إلى المغرب قلّدهُ شيخه الغوث سيدي عبد الرحمن المدني بالقطبانية في الروضة بحَضْرَةِ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمحضر الصحابة وبمحضر أهل التصريف وأهل الديوان".

كيف أتت بعض شروح الصلاة المشيشية؟

1- كيف أتى شرح سيدي أبي بكر البناني؟

قال سيدي أبو بكر البناني في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية:

(فيقول العبد الفقير، الذليل الحقير، أبو قحافة أبو بكر بن محمد بن عبد الله بن عبد السلام البناني، الرباطي دارًا ومولدًا، الدرقاوي نسبة، الدباغي طريقة، كان الله له، هذا شرح لطيف على الصلاة المنسوبة للقطب الجامع مولانا عبد السلام بن مشيش، نفعنا الله بذِكره وأفاض علينا من سيب فيضه آمين، ندبني إليه شيخنا ووسيلتنا إلى ربّنا صاحب المواهب الربّانية والعلوم اللدنية أبو الفيض وأبو الفضل الشريف الحسني مولانا عبد الواحد ابن مولانا علال ابن مولانا إدريس الملقّب بالدباغ رضي الله عنه بعد أن قال لي: أرجو الله أن يرشدك إلى طريق التحقيق، فامتثلت أمره، وارتكبت مَطيّة قَصْده، وقيّدت عليها ما فتح الله به في هذه الأوراق، وإني معتذر لمَن طالعه بأن ما سطّرته كله بطريق الجبر والقهر في باطني مع ما رزقني الله من قوة التعبير عنها والحمد لله..... وسَمَّيته "الفتوحات الغيبية في حلّ ألفاظ الصلاة المشيشية").

2- كيف أتت تكملة شرح سيدي محمد الحراق؟

سيدي محمد الحراق شرحَ الصلاة المشيشية، لكن لَم يُكمل شرحَه، وأكمل باقي الشرح تلميذُه سيدي محمد بن العربي الدلائي.

قال سيدي محمد بن العربي الدلائي، مقيّد شرح شيخه للصلاة المشيشية:

(إلى هنا [وانْصُرْني بك لك] انتهى شرح الشيخ- سيدي محمد الحراق- رضي الله عنه، ثم ظهر لي بعد أن استَخَرْتُ الله تعالى أن أُتِمّ الفائدة بشرح هذه الكلمات الباقيات، إذ الشيء الكامل أولى من المَبتور، فَحَاذَيْتُها بإشارة خَفِيّة وعبارة لطيفة، متطفّلاً على أهل الخير، وأقحمتُ نفسي خلال هذين الإمامين: أعني المصنّف والشارح رضي الله عنهما، عسى الله تعالى أن يفيض علينا من مَددهما وبركاتهما ما يرقّينا به إلى مراتب السعادة، ويكرمنا من فضله بالحُسنى والزيادة).

3- كيف أتى شرح سيدي أحمد بن عجيبة؟

قال سيدي أحمد بن عجيبة في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية:

(فهذا شرح لطيف، على تصلية القطب الجامع سيدي عبد السلام بن مشيش، نفعنا الله بذكره، وأفاض علينا من سيب فيضه آمين، نَدَبَني إليه شيخنا العارف الربّاني

قدوة السائرين ومُرَبّي الواصلين، سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسني، فأجبته إلى ذلك، رجاء التحقيق بمحبته، والشرب من فيض مدده).

4- كيف أتى شرح سيدي مصطفى البكري المسمّى "الروضات العرشية في الكلام على الصلوات البشيشية"؟

قال سيدي مصطفى البكري في مقدمة شرحه "الروضات العرشية، في الكلام على الصلوات البشيشية":

(فيقول أفقر الأنام، وأفقر الخُدْام، مصطفى بنُ كمال الدين، الصدِّيقي نسبًا، الخلوتي الحنفي مذهبًا ومشربًا: قد ورد عليَّ كتاب جسيم نفيس، بعد عصر يوم الخميس، الثاني أو الحادي عشر من شهر شعبان المبارك الغُرّة والآخِر، الحاوي بنسبته لسيد البشر أعظم المفاخر، الذي هو من شهور ألف ومائة وأربعة وثلاثين من مُحِبٍ وَدُود كدود، في صَلاحه كدود، حبُّه رابي، مشروبه صافٍ محققٌ ومشروبُ غيره كالشراب الشرابي، أعني به صديقنا الشيخ عبد الله بن أحمد الشاذلي الشرابي، كان الله له وأفناه به عنه، وحَقَّقَهُ بشهوده وَفَكَّ قيوده مَنًّا منه، يتضمن طلب شرح الصلوات النبوية المنسوبة لابن مشيش الداني، من حضرات التهاني، وقد اعتنى بشرحها سيدي محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الهمام، والعارف الكامل المقدام، فأحببت أن أُرسل إليه شرحه، ثم حُبِّبَ إليَّ أن أسرح سرحه، وأجتني من رياضه الزاهرة، وأقتني بدائع غياضه الباهرة، وأضمّ إلى ذلك فوائد شرائد، تعود على من اعتدَّ بها بالعوائد، وصرت أقدم رجلاً وأُؤخر أخرى، لعِلْمي أن عدم التقدم بي أحرى، إذ لست من أهل الميدان وفرسانه، وأبطاله المعدودين للشدائد المُدْلَهِمّة المظلمة وشجعانه، غير أني مُعتَرِف بالقُصُور، مُغْتَرِف من بحر أهل المعالي والقصور، ثم إني استخرتُ الله واستجرت بجنابه من الخطأ والخطل والميل، ولُذْتُ وعُذتُ به من شهود القوة والحِيَل، وسمّيتُ ما أكتبه بالروضات العرشية في الكلام على الصلوات البشيشية).

5- كيف أتى شرح سيدي أحمد بن عبد الوهاب الوزير؟

قال سيدي أحمد بن عبد الوهاب الوزير في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية:

(وقد طلب مني شرحها مَنْ له محبّة في جنابه الرّحيب، وممّن رتع في مَرْبَعه الخصيب، وله في ذلك قريحة، ونيّة صادقة صحيحة، وهو السيِّد الأسعَد، الموفَّق المبارك الأهْدى الأرْشد، أبو عبد الله سيدي محمد ابن سيدنا ومولانا، ونعمة الله التي أوْلانا، سيدي أحمد ابن الشيخ الإمام العارف بالله سيدي محمد بن عبد الله رضي الله

عنهما، وجعلَ هذا النُّجْل ممن يقتفي نَهجَهُما، فاعتذرتُ أوّلاً وتعلَّلْتُ من قصور الباع، وكَوْن هذا الأمر لا يُستطاع، ثم كَرَّرَ ذلك عليَّ، وأشار إليَّ، فتجشّمت وقلت القدرة صالحة، ويَدُ الله مَانحة، وهذا من الأعمال الصالحة، والتجارات الرابحة، إنْ يَكُنِ العَوْن والتيسير، ممّن بيده تَيْسير كل عَسير، وهو نِعْمَ المَوْلَى ونِعْم النّصير).

6- شرح سيدي عبد العزيز الدباغ.

قال سيدي أحمد بن المبارك تلميذ سيدي عبد العزيز الدباغ، في كتابه "الإبريز":

(فمن ذلك أنه شرح لنا رضي الله عنه بعض الألفاظ من صلاة القطب الكامل الوارث الواصل مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه).

(واعلم وفّقك الله، أنّي لم يمكني أن أسأله رضي الله عنه كما أحبّ عن قوله: (فلم يدركه منّا سابق) إلى آخر ما كتبته في شرحه رضي الله عنه لهذه المواضع من هذه الصلاة المباركة لحضور بعض مَنْ لا يعتقد الشيخ رضي الله عنه في مجلسنا، فلم ينطلق لسانه رضي الله عنه كما سبق اعتذارنا غير ما مرة، ولو مشى الشيخ رضي الله عنه على ما سمعناه منه من أوّل الصلاة لسمعنا منه العجب العجاب، والله أعلم).

7- كيف أتى شرح سيدي الحسن الزياتي؟

قال سيدي الحسن الزياتي في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية:

(الحمد لله لما حبّب الله تبارك وتعالى إلينا تفضّلاً منه ورحمةً الصلاة على واسطة الوجود، سيّد كل والد ومولود، سيّدنا ومولانا محمّد ﷺ، ومجّد وعظّم، وشرّف وكرّم، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا، بتصلية حجّة الطريقة، وينبوع الحقيقة، أستاذ العارفين، ورافع لواء الواصلين، سيدي عبد السلام بن مشيش، رضي الله عنه، وزاده تكرمة وإنعامًا، كنت أتأمّل حال التّلاوة تراكيبها، كي يكون القلب متواطئًا مع اللّسان، ودمت على ذلك حينًا من الدّهر، ثم إني رأيت أن أرسم ما أُفهمت فيها في هذه الوريقات كي أُوعيه أكثر، ويكون عند المفكّرة أحضر، فامتثلت أمر هذا الوارد بهذا المقصد، فقيّدت ذلك لا على أنه كشف لشيء من أستارها، وافتضاض لجودة من أبكارها، بل وعلى أنّه جامع لما كان يخيّل إليّ فيها، وإنما هو ما حضرني ساعة قيّدت ذلك).

8- كيف أتى شرح سيدي محمد الخروبي؟

قال سيدي محمد الخروبي في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية:

(سألني شَرْح تصلية الشيخ المذكور حفيده السيد العابد، الصالح الزّاهد، سني

الطريقة، الباحث على تحقيق رسوم الحقيقة، الجبل الثابت، البحر الصامت، أبو حفص سيدي عمر بن عيسى بن عبد الوهاب الشريف الحسني، نفعنا الله به وبصالح نسبه آمين بمنّه وكرمه، فلم يسعني إلا إجابة داعيه، وتلبية مُناديه، وإن كنت لم أصْلُح لذلك؛ إذ لا قدرة لي على سلوك هذه المسالك، لكن اعتمدت على الربّ الذي لا يخيب من اعتمد عليه، واستندت إليه فيما أردته، إذ هو الذي يُعين مَن استند إليه، وبه سبحانه وتعالى أستعين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم).

9- كيف أتى شرح سيدي محمد الخلانجي؟

قال سيدي محمد الخلانجي في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية:

(وبعد فهذا إن شاء الله تقييد على تصلية القطب الشهير سيدي ومولاي عبد السلام بن مشيش، ندبتني إليه نفْسي فأجبتها بعد مشورة غوث الوقت القطب الشهير العارف بربه المجيد، شيخي ووسيلتي سيدي محمد بن محمد الحراق الشريف الحسني نفعنا الله به آمين، لقصد انتفاع بها عند الغفلة والإعراض مما هو مطلوب منها ومرغوب، وبقصد انتفاع وتذكيري من هو قاصر مثلي على علم بحر الوحدة المطلوب، اللهم بجاهك وجاه أشرف خلقك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انفع بهذا التقييد كل من نظره بعين الرضا وتأمله آمين).

10- كيف أتى شرح سيدي محمد بدر الدين الحمومي الحسني؟

قال سيدي محمد بدر الدين الحمومي الحسني في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية:

(فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى، محمد بدر الدين الحسني كان الله حالاً ومآلاً: "طلب منّي من يجب علي إسعافه، ولا يسعني خلافه، وهو الشريف الجليل سيدي الحاج أحمد الشاهد، خلد الله مآثره، وأبقى على مر الليالي مفاخره، أن أضع تفسيراً على الصلاة المشيشية، ثم لم يزل يرد الكلام علي، ويقوي الرغبة والتأكيد إلي، ولما تحققت وده، استحييت أن أرده، وشرعت في ذلك، والله المستعان، وسميتها بالكواكب المستنيرة في شرح الصلاة المشيشية الشهيرة. نسأله أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به كما نفع بأصله، بجاه صفوة الكون، وخيرته وآله).

11- كيف أتى شرح سيدي عبد الله بن إبراهيم الميرغني؟

قال سيدي عبد الله بن إبراهيم الميرغني في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية:

(فإنه لما كانت الصلاة المشيشية شريفة القدر، وعظيمة الخطر، لما حزته من الحقائق الإلهية والأسرار الربانية، وكان يتردد في الخاطر القاصر سنين، أن أشرحها شرحاً مبيناً

لحقيقة مرامه، وكنت متردداً في ذلك بين إحجامه وإقدامه، وقوي ذلك الخاطر الفاتر، وساعفته الأقدار والبشائر، شرعت بعون ربي مستغفراً من ذنبي وملتجأ لحبّي).

12- كيف أتى شرح سيدي ابن حيون الخمسي الزرويلي؟

قال سيدي ابن حيون الخمسي الزرويلي في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية: (إنّي قد شغفت بحب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم المنسوبة للولي الصالح، والقطب الواضح، والنور اللائح، والقطب الناصح، الذي عمت أنواره أقطار المغرب، وعم النفع بباقي حياته وبعد وفاته، نجل المصطفى صلى الله عليه وسلم وخليفته، ووارث نور علمه وشريعته، سيدي ومولاي عبد السلام بن مشيش، الشريف الحسني العلمي، أفاض الله علينا من بركاته، وأسعدنا يوم القيامة بصحبته، وأحببت أن أحلي بألفاظها لساني، وبمعانيها جناني، وأتكلم في معانيها بما يجريه المولى الكريم على لساني وبناني، وأحببت أن يدخلني ربّي في زمرة مؤلفيها وشارحيها).

13- كيف أتى شرح سيدي محمد بن عبد السلام بن حمدون بناني؟

قال سيدي محمد بن عبد السلام بناني في مقدمة شرحه للصلاة المشيشية: (إنّي كنت مع الفقيه الجليل العالم النبيل الشريف المنيف مولانا عبد الرحمن ابن السيد الأفضل، الشريف النقيب الأمثل، مولانا عبد الواحد الطاهر الحسني الشبيهي الجُوطي، ببلاد الجريد بعد خروجنا وانصرافنا عن مدينة توزر مقفلنا من حج بيت الله الحرام وزيارة نبينا عليه الصلاة والسلام، وتفاوضنا في مسائل علمية وأحاديث شريفة نبوية وأحزاب وأذكار، بدا له أكرمه الله أن التمس منّي تقييداً على الصلاة الشهيرة المنسوبة للشيخ الإمام العارف بالله تعالى مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ونفعنا به، فتعللت بالتقصير والقصور. وأنّى لِمثلي التجاسر على التصدي لكلام الفحول الأقطاب البدور. ثم لم يزل يردد الكلام علي ويفوق سهام الطلب والترغيب والتأكيد إلي، فلم أجد بدا من إسعافه بما سعى فيه، واستخرت الله في ذلك واستعنته سبحانه على سلوك صعوبة هذه المسالك. فشرعت بحمد الله في تقييد هذه العجالة أوان السفر، بعد ارتحالنا من منْزل الشبيكة التي بقرب توزر يوم الأحد ثامن شوال سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف على وجه لطيف، ومنهج منيف، راجياً بذلك جزيل الأجر والثواب، من فيض مولانا الكريم الوهاب).

ملاحظة

كلٌّ من مزج سيدي عبد الله بن الصديق، ومزج سيدي عبد الحميد أفندي الشيمي، ومزج سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني، ومزجَيْ سيدي المعطى بن الصالح الشرقي، وتعليق سيدي عبد الرحمن الفاسي، ومزج سيدي أبِي المواهب الشاذلي، كلهم غير مسبوق بمقدمة، فلذا لا نعرف سبب ورودهم.

كيف أتت بعض شروح الوظيفة الشاذلية

الصلاة المشيشية مزجها أحد العارفين بالله، واسم المزج هو "الوظيفة الشاذلية"، وحظيت الوظيفة الشاذلية بعدة شروح.

1- كيف أتى شرح سيدي محمود أبي الشامات الدمشقي للوظيفة الشاذلية؟

قال سيدي محمود أبو الشامات:

(فيقول الفقير إليه تعالى (محمود أبو الشامات)، الدمشقي مولداً، الحنفي مذهباً، الشاذلي طريقة، العلويّ اليشرطي مشرباً وحقيقة: هذه رسالة لطيفة، علقتها على كلمات الوظيفة، لطلب بعض الإخوان، أصلح الله لي ولهم الحال والشأن. وحيث إني لم أقف على شرح لها بالتمام، اعتمدت على الإلهام، من الملِك العلّام، راجياً منه تعالى أن ينفع بها الخاص والعام، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير).

2- كيف أتى شرح سيدي مصطفى نجا البيروتي للوظيفة الشاذلية؟

قال سيدي مصطفى نجا البيروتي:

(وأمرت بتلاوة الوظيفة الشاذلية، ذات العبارات البديعة والإشارات اللطيفة، وكان من جملة أسباب الفوز بالأماني فهم المعاني، والعلم بما انطوت عليه المباني، أخذت في تفهم معانيها وتدبر مبانيها، فوجدتُها مشتملة على علوم لا يعقلها إلا العالِمون، ولا يدركها إلا المحققون، الذين هم بمعرفة الله تعالى متحققون. ونظرت إلى همتي فوجدتُها عن كمال الإدراك قاصرة، لا تقوى على خوض تلك البحار الزاخرة، واستخراج ما فيها من الجواهر، التي ظهرت على النجوم الزواهر، فأحجمت من بعد الإقدام، وما زلت واقفاً بمركز العجز في هذا المقام، إلى أن فتح الله الباب، ويسر الأسباب، ومنَّ بنيل المرام، وألهمني أن أقتبس من مشكاة أهل هذه الطريقة، الذين جنوا من رياض الشريعة ثمرات الحقيقة، وألتقط من فرائد فوائدهم التي بهرت الأنام، ومحت بصفاء أنوارها عن القلوب ظلمات الأوهام. ثم خطر لي أن أجمع ما أحرزته في كتاب، يكون كالشرح لهذا الورد العذب المستطاب، فتوكلت على رب العباد، وطلبت الإمداد من حضرة صاحب الإرشاد، وسلكت بتأليفه طريقة العاجزين، المستظلين بأفنان حدائق معارف الواصلين).

3- كيف أتى شرح سيدي مصطفى أبي ريشة البقاعي للوظيفة الشاذلية؟

قال سيدي مصطفى أبو ريشة البقاعي:

(فأقول، وأنا العبد الفقير المعترف بسقط متاعي، وتلفيق رقاعي، مصطفى بن محمد بن علي بن مصطفى بن درويش أبي ريشة البقاعي:

بينما أنا منزوٍ في كنّي، أستقطر الراح من دني، متحلٍّ بالمشهد الصافي، متخلٍّ من كل وصف منافي، إذ ورد لي الكتاب، من حضرة رفيع المقام عليّ الجناب، سيدنا ومولانا ومرشدنا الإمام الأعظم، والفرد الوارث المحمدي المعظم، السيد علي نور الدين بن يشرط الحسني الحسيني المغربي التونسي البنزرتي، متعنا الله بطول حياته، وأمدنا بعظيم هباته، وبه يأمرني بأن أعمل شرحاً بالحقائق على الوظيفة المنيفة، للطريقة الشاذلية العلية الشريفة، وأن أبادر به في الحال، من دون توانٍ ولا إمهال، وأنه يدعو لي بالتوفيق والفتوح، إذ باب الفيض الإلٰهي للطلاب مفتوح، فلم ألبث أن بادرت في الحال لإجابة الأمر المطاع، حال كوني لم يكن عندي خبر بما سيسطر في هذه الرقاع، ولا لي عن إجابة أمره الشريف اندفاع، ففوّضت الأمر للجوّاد المطلق، واتخذتُ وجهه قبلتي لما به انقلب مقلق، فها أنذا ألقي من مداد المدد الإلٰهي ما يلقى عليّ، وأرقم بقلمي ما يسوقه الوارد إليّ).

ترجمة سيدي عبد الله ابن الصديق

معلمة المغرب ص 5522:

(ابن الصديق، عبد الله بن محمد الغماري، ولد بمدينة طنجة سنة 1910/1328 وتلقى تعليمه الأول بالزاوية الصديقية على الفقيهين محمد البراق الأنجري ومحمد الأندلسي المصوري، وأخذ العلوم الشرعية واللغوية على شقيقه أحمد وعلى خاله أحمد بن عبد الحفيظ ابن عجيبة.

رحل إلى فاس سنة 1924/1343 لاستكمال دراسته، فالتحق بجامع القرويين وأخذ عن عدد وافر من العلماء، منهم الشيخ الحبيب المهاجي والسيد محمد بن الحاج السلمي ومحمد بن عبد الكبير بن الحاج السلمي والشيخ أحمد بن الجيلالي الأمغاري والشيخ أحمد القادري والشيخ محمد بن الحسن الصنهاجي والشيخ أبي الشتاء الصنهاجي وشيخ الجماعة مولاي عبد الله الفضيلي والشيخ الراضي السناني والشيخ العباس بناني والشيخ الحسين العراقي والشيخ عبد الرحمن بن القرشي. وفي أثناء دراسته ظهرت علامات نبوغه العلمي وشهد له بذلك عدد من شيوخه، ومن ذلك أنه ألف في هذه الفترة شرحاً للآجرومية يعتبر أوسع شرح لها.

ثم رجع إلى طنجة سنة 1927/1346 فدرس على والده الشيخ محمد بن الصديق، والتحق بمصر حيث انتسب إلى الأزهر الشريف سنة 1930/1349 فأخذ هناك عن عدد كبير من علماء مصر مثل الشيخ محمد حسنين مخلوف والشيخ محمد بخيت المطيعي والشيخ حامد جاد، وعلى شقيقه السيد أحمد الذي كان قد سبقه إلى مصر وغيرهم. وحصل على شهادة العالمية للغرباء سنة 1933/1352، ثم تقدم لامتحان الشهادة العالمية الأزهرية فحصل عليها سنة 1942/1361، وحصل على إجازات من عدد كبير من العلماء من المغرب ومصر والشام والعراق واليمن والهند وتركيا وتونس. وصار منذ ذلك الحين يدرس العلوم الشرعية بالجامع الأزهر بصفة تطوعية، ثم عينته وزارة الأوقاف المصرية مفتشاً على الدروس التي تلقى في الصحيحين بمساجد الرفاعي وسيدنا الحسين والسيدة زينب بالقاهرة سنة 1956/1376، وكانت نشاطاته العلمية

خلال إقامته بالقاهرة متعددة، فقد ألَف عدداً كبيراً من مؤلفاته هناك، كما كان يجيب على الأسئلة الشرعية والدينية ببعض المجلات المصرية، وكانت صلاته واسعة بعلماء مصر والمشرق. وبعد إقامة طويلة بمصر رجع إلى المغرب سنة 1390/1970 فاستقر بمدينة طنجة خطيباً بالزاوية الصديقية، ومدرساً للعلوم الشرعية بها، وقد أخذ عنه العدد الجم من طلبة العلم وكانوا يرحلون إليه من الآفاق.

كان الشيخ عبد الله بن الصديق عالماً فريداً من نوعه في تفننه في العلوم الشرعية واللغوية والمنطق، وإحاطته الواسعة بدقائقها، مستحضراً للنصوص وأقوال العلماء وحججهم في المسائل المختلفة، واسع الاطلاع على أدلة المذاهب الفقهية الإسلامية والعقائدية، دقيق الاستنباط، وقد انفرد بمسائل واجتهادات كثيرة في الأصول والحديث والتفسير، وكان يتمتع بذاكرة قوية وسرعة في البديهة. وقد وصل في علم الحديث بالخصوص إلى درجة عالية من التمكن حتى اعتبر حافظ العصر، حيث كان يستظهر أكثر من عشرة آلاف حديث بأسانيدها ومعرفة رجالها، وذلك ما تؤكده شهادات العلماء فيه، كما تظهره تآليفه التي تجاوزت المائة عنوان.

وكان إلى جانب هذا صوفياً سنياً غلب عليه الزهد والورع والانصراف عن الدنيا.

توفي رحمه الله بطنجة سنة 1413/1993).

ترجمة أخرى لسيدي عبد الله بن الصديق:

(ولد بطنجة سنة 1328 هـ، وحفظ القرآن الكريم، وأتقن رسمه وضبطه: حتى كان كبار القراء يرجعون إليه، وحضر على أخيه الأكبر السيد أحمد شرح الأزهري على الأجرومية، ثم ذهب إلى فاس للمرة الأولى فحضر على علماء جامع القرويين علوم العربية، والفقه المالكي، وصحيح البخاري، وعلم الفرائض، والتوحيد، والمنطق، وغير ذلك.

ثم رجع إلى طنجة فحضر على والده في كتاب مغنى اللبيب لابن هشام، وشروح التلخيص في البلاغة، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني بشرح أبي الحسن الشاذلي المالكي تلميذ السيوطي، وفي هذه الفترة كتب شرحاً للآجرومية يعتبر أكبر شرح لها، وكان يعرض على والده ما يكتب منه فيصلح له ما يخطئ فيه، فبلغ أكثر من عشرين ملزمة وهو أول مؤلفاته.

ثم عاد إلى فاس مرة أخرى فحضر شرح الخرشي على المختصر في الفقه المالكي وشرح الزرقاني عليه، وجمع الجوامع في الأصول بشرح المحلي، وتفسير الجلالين

بحاشية الصاوي. ثم رجع إلى طنجة.

وذهب إلى مصر فوصلها في 31 ديسمبر 1931م فحضر بالأزهر الشريف كتاب الأحكام للآمدي في الأصول، وشرح الإسنوي على منهاج البيضاوي في الأصول أيضا، وشرح المحلي على جمع الجوامع، وحضر تفسير البيضاوي، والشرح الكبير في فقه المالكية، وحضر فقه الشافعية بأمر والده، فحضر شرح المنهج لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وشرح الخطيب على متن أبي شجاع. وبعد سنة من وصوله إلى مصر تقدم لامتحان شهادة العالمية الخاصة بالغرباء فأخذها، ثم ابتدأ يدرس للطلبة في الأزهر الشريف فدرس لهم جمع الجوامع مرتين من أوله إلى آخره، كل مرة في مدة أربع سنوات، ودرس لهم الألفية بشرح المكودي فكان أول مدرس لهذا الشرح بالأزهر، ودرس كتاباً في الأصول اسمه سلم الوصول ودرس للطلبة علوم الامتحان التي يتقدم بها لشهادة العالمية وهي اثنا عشر علماً هي: النحو، والصرف، والبيان، والبديع، والمعاني، والأصول، والتفسير، والحديث، والتوحيد، والفقه، والمصطلح، والمنطق.

ولم يبق قطر إسلامي إلا وله فيه تلامذة، فمنهم بأندونيسيا وتركيا ويوغوسلافيا ورومانيا والجزائر والحجاز والأحساء والسودان والصومال والحبشة وسوريا وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا وساحل العاج وغير ذلك ممن يشتغلون بمناصب هامة من قضاء وخطابة وإفتاء وغير ذلك.

وفي أول وصوله إلى مصر ضاقت به الحال واشتدت عليه الغربة، فكتب إلى والده يخبره بذلك، فكتب إليه: اصبر فإنك ستكون عالماً كبيراً ومحققاً شهيراً وسيحتاج إليك علماء الأزهر، وقد كان.

وألف كتباً كثيرة تقرب من مائة، كما حقق كتباً علمية، فمن محققاته: المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي، وأخلاق النبي للحافظ أبي الشيخ ابن حيان، وتنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة لابن عراق، والبحر الزخار في فقه الزيدية، طبع في عهد الإمام يحيى، والمسانيد الثلاثة للسيوطي.

ولما ألف في الرد على الشيخ شلتوت كتابه "إقامة البرهان على نزول عيسى في آخر الزمان" قال له بعض علماء الأزهر إن ردك لا يعتد به عندنا لأنك لا تحمل شهادة العالمية الأزهرية، فتقدم لامتحان هذه الشهادة في خمسة عشر علماً وأدى الامتحان بنجاح، ولما انتهى منه قال له رئيس اللجنة وهو شيخ معهد الزقازيق: مبروك يا علّامة، وحامل هذه الشهادة تأتيه براءة ملكية من قصر عابدين، وهذه الشهادة تعادل الدكتوراه.

وأنشأ علماً لم يسبق إليه، وهو علم بدع التفسير، جعل له قواعد وأصولا في كتابه "بدع التفاسير"، كما أن كتابه "جواهر البيان في تناسب سور القرآن" هو ثالث كتاب في هذا العلم منذ أنزل القرآن الكريم، والكتابان الآخران هما "البرهان في تناسب القرآن" لأبي جعفر بن الزبير الأندلسي شيخ أبي حيان، والثاني "تناسب الدور في تناسب الآي السور" للسيوطي.

كما أن كتابه "تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة" ذكر فيها الخصال الأربعين التي أشار إليها حديث البخاري بتمامها، ولم يتمكن أحد من الشراح من جمعها بتمامها بل وصل أكثرهم جمعاً إلى خمس عشرة خصلة وناهيك بمن هم الكرماني، والعيني، وابن حجر، والقسطلاني، والسيوطي وغيرهم.

وهو الآن مقيم بمدينة طنجة بالمملكة المغربية، يدرس بزاوية والده رحمه الله تفسير النسفي ونيل الأوطار في الحديث وجمع الجوامع في الأصول.

وهو ينوي إنشاء مدرسة خاصة بتدريس هذه العلوم الدينية النافعة، أعانه الله لذلك وأطال حياته في خير وعافية، ونفعنا ببركاته في الدنيا والبرزخ والآخرة.

مزج الصلاة المشيشية للعارف بالله
سيدي عبد الله ابن الشيخ سيدي محمد بن الصديق
المتوفى عام 1413هـ/1993م

(اللّهمّ صلّ) وسلّم بفيض جودك الواسع الممدود، على قطب الوجود، وعين أعيان دائرة الشهود، المتوج بتاج ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ ﴾ **(على مَنْ مِنْه انشقّت الأسرار)** المودعة في نور روحانيته الموصوفة بـ (كنتُ نبياً وآدمُ بين الروح والجسد) **(وانفلقت الأنوار)** المشعة من ذاته على عالم الكون تهديه إلى الأبد ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ **(وفيه ارتقت الحقائق)** الممكنة الكامنة في عالم الثبوت، لأنه الإنسان الكامل الصفات والنعوت، **(وتنزّلت علوم آدم)** بتجلٍ ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝ ﴾ **(فأعجز الخلائق)** بلوغ مداه، كيف ولواء الحمد بيده تحته آدم ومن عداه، **(وله تضاءلت الفهوم)**، في سائر العلوم، بإفاضة (رأيتُ ربي في أحسن صورة فوضع يده بين كتفي، حتى وجدتُ بردها في نحري، فتجلى لي كل شيء وعرفت) **(فلم يدركه منّا سابق)** باجتهاد الأعمال، **(ولا لاحق)** أدركه فيض النوال، **(فرياض الملكوت بزهر جماله)** الساري في عالم الوجود **(مُونِقة)**، **(وحياض الجبروت بفيض أنواره)** المتلألئة في عالم الشهود **(متدفقة)**، **(ولا شيء إلّا وهو به منوط)**، في كل عروج وهبوط، **(إذ لولا الواسطة)** في وصول الإمداد، وحصول الإسعاد، **(لذهب كما قيل الموسوط)** بدليل (إنما أنا قاسم والله يعطي) ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ **(صلاة)** كاملة **(تليق بك)** من حيث ألوهيتك، صادرة **(منك)** من حيث ربوبيتك، تزجى **(إليه)** تكريماً لقدره العظيم، مصحوباً بخلعة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم

الشبه والترديد، إلى فضاء تنزيه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك)، **(وأغرقني في عين بحر الوحدة)** الشهودية، مع القيام بأداء حقوق العبودية ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾، **(حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحسّ إلّا بها)** تحققاً وتعلقاً بإتحاف عناية (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)، **(واجعل الحجاب الأعظم)** من حيث الإفاضة والتلقين **(حياة روحي)** ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۞ ﴾، **(وروحه)** من حيث التوصل والتمكين **(سرّ حقيقتي)** حتى أتذوق سر ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، **(وحقيقته)** من حيث الهداية واليقين **(جامع عوالمي)** الظاهرة والباطنة، في جميع أطوارها الجلية والخفية، لأتحقق بالوراثة النبوية، والخلافة المحمدية، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۞ ﴾ **(بتحقيق الحقّ الأوّل)** في التعين الأول، بإشارة (كنتُ أولَ الناس خلقاً، وآخرهم بعثاً، وجعلني فاتحاً وخاتماً) مع بشارة ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾، **(يا أوّل)** ليس لأوليته ابتداء، **(يا آخِرُ)** تقدس عن لحوق الفناء، **(يا ظاهر)** لا يلحقه خفاء، **(يا باطن)** تردى برداء العظمة والكبرياء، **(اسمع ندائي)**، مع ظهور فقري إليك والتجائي، **(بما سمعت به عبدك زكرياء)** واجعلني صادق القول وفياً، وارزقني قلباً تقياً من الشرك نقياً، لا جافياً ولا شقياً، **(وانصرني بك لك)** نصراً مؤزراً، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾، **(وأيّدني بك لك)** تأييداً مظفراً، حتى أكون في جماعة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾، **(واجْمَعْ بيني وبينك)** بقطع العلائق النفسانية، ومنع القواطع الشهوانية، حتى أتشرف بخطاب ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ ﴾، **(وحُلْ بيني وبين غيرك)**، حتى لا أشاهد في الكون إلا أثر إحسانك وبرك ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ **(ألله ألله ألله)** الله واحد أحد، الله وتر صمد، الله لم يكن له كفواً أحد، الله قوي قادر، الله عزيز قاهر، الله عليم غافر. **(إن الذي فرض عليك القرآن)**، وأوجب عليك البيان، **(لرادّك إلى معاد)**، يوم

تحق لك السيادة على جميع العباد، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾. (**ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا**)، واغفر لنا مغفرة عامة تجلو عن القلب كل صدا، ورقنا في معارج مدارج ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾. أللّهمّ صل وسلم على سيدنا محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، وشفيع المذنبين. اللهم اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك، على سيدنا محمد رسول الخير وإمام الهدى، ونبي التوبة، وعين الرحمة. اللهم اجعل أفضل صلواتك وأزكاها، وأجل تسليماتك وأنماها، على من أرسلته رحمة عامة وبعثته نعمة مهداة، سيدنا محمد الذي شرحت صدره، ورفعت ذكره، وقرنت اسمه باسمك، وجعلت طاعته من طاعتك، وخلعت عليه من وصفك ونعتك. اللهم ارزقنا تمام محبته واتباع سنته، والتأدب بآداب شريعته، والتمسك بأذيال آله وعترته، واحشرنا في زمرته، واجعلنا في الرعيل الأول من أهل شفاعته. اللهم إنا نتوسل به إليك، ونستشفع به لديك، أن تتقبل أعمالنا، وأن تحسن أحوالنا، وتنير بالمعارف قلوبنا، وتفرج من كدورات الأغيار كروبنا. ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾. ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. شهدنا بذلك وأقررنا به، فاكتب اللهم شهادتنا عندك، وأعظم جزاءنا عليها، وأكرم نزلنا بها، واجعلها حجتنا لديك يوم لقائك، ونجنا بها من سوء عذابك. ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ

وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾. ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾. ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (ثلاث مرات)، ثم المعوذتين ثلاثا، ثم ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ آمين. ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

ترجمة سيدي محمد الخلانجي

قال الفقيه داود عند ذكره لتلاميذ سيدي محمد الحراق:

(ومن كبار تلاميذه أيضا بحوز تطوان الشيخ الجليل العارف بالله سيدي محمد بن محمد الخلنجي، اليدري أصلا، الحوزي داراً ومدفنا. كان رحمه الله من التلاميذ الذين يحضرون الدروس العلمية بتطوان على الشيخ الحراق رحمه الله، ثم أخذ عنه الطريق الصوفية، وصار من كبار أصحابه وأسس زاوية بمدشر بني سالم، وأذن له شيخه في تلقين الأوراد فكان يلقنها بمحضره، وقد أخذ عنه كثير من أهل تطوان والقبائل القريبة منها، ثم بنى زاوية أخرى في تطوان بحومة السويقة، وهي المعروفة بزاوية الخلنجي، وقد توفي رحمه الله ودفن بزاويته في قرية بني سالم قرب تطوان صبيحة يوم الأحد سادس وعشري ربيع النبوي عام 1283 رحمه الله).

قال الأستاذ عبد الله المرابط الترغي في "معلمة المغرب" صفحة 3803:

(الخلَنْجي، محمد بن محمد بن يعقوب، شيخ صوفي، ولد بقبيلة بني يدر بأحواز تطوان في حدود العشرة الأولى من القرن الثالث عشر (19)، في أسرة عرفت بالفضل والعلم واشتهرت أيضا باسم ابن يعقوب.

نشأ في بلده بني يدّر فقرأ القرآن وحفظ المتون، ثم شرع في قراءة العلم على والده الشيخ محمد بن يعقوب اليدري، وكان من الشيوخ المدرسين، ولما ظهرت نجابته انتقل إلى تطوان لدراسة العلم. ويذكر من بين شيوخه التطوانيين الذين استفاد منهم الفقيه القاضي محمد بن محمد الجنوي (ت 1271) والشيخ الصالح الشهير محمد الحراق (ت 1261) وقد لازم هذا الأخير في دروس التفسير واعتمده شيخا في الطريقة الصوفية، فكان الحراق شيخه في علمي الظاهر والباطن.

وحدث أن عرض أهل بني سالم من حوز تطوان على الطالب محمد الخلنجي أن يشارط بقريتهم على إقراء أبنائهم القرآن، والإمام بمسجدهم، فوافقه شيخه محمد الحراق على ذلك، فانتقل إلى سكنى بني سالم، وظل مع ذلك وفيا لشيخه، فكان في كل جمعة يأتي إلى تطوان يحمل ما حصل عليه من مداخيل إقرائه إلى شيخه، فيصلي

صلاة الجمعة بالزاوية ثم يعود إلى عمله.

وقد اعتُبر محمد الخلنجي بعد وفاة الحراق التلميذ الأقرب إليه، فكان وارث سره. لذلك تصدّر للمشيخة وتربية المريدين، فبنى زاويته ببني سالم واستقطب الأتباع وأقام العمارة الصوفية بها، فكثر مريدوه من تطوان وبواديها، وعمد إلى بناء زاويته بحومة السويقة حينما أحس بفتور المشرفين على زاوية شيخه الحراق بتطوان في استقباله واستقبال أتباعه، وجعلها مأوى لفقرائه المقيمين والوافدين.

هكذا استقل الخلنجي بمشيخة الطريقة الدرقاوية بعد شيخه الحراق في تطوان وبواديها وتبعه كبار تلامذة الشيخ الحراق، وعمّر وقته وهو يقيم في بني سالم بإقامة حلقات الذكر والوعظ والتدريس، وتعاطى مع ذلك التطبيب بالأعشاب فكان مقصوداً لعلمه وبركته. وكتب شرحاً على تصلية الشيخ عبد السلام بن مشيش، وألّف في تفسير القرآن الكريم، وكانت له أشعار زجلية.

توفي بزاويته ببني سالم من حوز تطوان في شهر ربيع النبوي عام 1283/ يوليوز-غشت 1866. وما يزال ضريحه معروفا هناك يزار).

قال لي الشيخ سيدي علي الخلانجي، حفيد سيدي محمد الخلانجي:

- كرامة للشيخ محمد الخلانجي:

الشيخ سيدي محمد الخلانجي، أتى إليه ثلاثة فقراء، وكل واحد منهم يريد أن يأكل شيئا مُعَيَّنا. أتاهم الشيخ بثلاثة أنواع: الحوت والعسل والبيصار، وقال لهم ما نويتُم ها هو. كل واحد منهم وجد ما طلبه.

- الشيخ سيدي محمد الخلانجي اشترى حمّاماً وحَوّله إلى زاوية وأهداها لشيخه سيدي محمد الحراق.

- الشيخ سيدي محمد بن يعقوب الخلانجي، أصله من بني يَدْر قرب مولاي عبد السلام بن مشيش.

- موسم الشيخ سيدي محمد الخلانجي يقام في اليوم الموالي ليوم عيد الفطر.

- الشيخ سيدي محمد الخلانجي له قصيدة واحدة، وقال له شيخه سيدي محمد الحراق لا تزدْ عليها.

قال لي شيخي سيدي حمزة شقور

- سيدي محمد الخلانجي ليست له كرامات كثيرة.

- الشيخ الخلانجي له قصيدة بالدارجة لا بالعربية الفصحى. العارف بالله يعرف أن

المحبة عند الذين لا يقرؤون، ويعرف أن العالِم ضده، ولهذا جلُّ قصائد العارفين بالله بالدارجة لأن أكثر الذين يميلون إلى أهل الله هم ضعفاء في اللغة العربية.

- المكـان الـذي مـشى فيـه عـارف بـالله، يبقـى فيـه الـسر بعـد أن ينـام ذلـك العارف بالله.

الطائرات الإسبانية كانت تُرسل القنابل على قرية بني سالم، فهدمت المنازل، وأما دار الشيخ الخلانجي والزاوية الخلانجية لم يقع لهما شيء رغم القنابل. هذا لا يقع إلا لقطب على الأقل. الشيخ سيدي محمد الخلانجي قطب.

شرح سيدي محمد الخلانجي للصلاة المشيشية

(الحمد لله رافع مقام المتنصبين لنفع العبيد، الخافضين جناحهم للمستفيد، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين بدر الله المجيد، سيدنا ومولانا محمد ذي الفضل المديد، وعلى آله وأصحابه أولي الشرف الكامل والتفريد، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد فهذا إن شاء الله تقييد على تصلية القطب الشهير سيدي ومولاي عبد السلام بن مشيش، ندبتني إليه نفْسي فأجبتها بعد مشورة غوث الوقت القطب الشهير العارف بربه المجيد، شيخي ووسيلتي سيدي محمد بن محمد الحراق الشريف الحسني نفعنا الله به آمين، لقصد انتفاع بها عند الغفلة والإعراض مما هو مطلوب منها ومرغوب، وبقصد انتفاع وتذكيري من هو قاصر مثلي على علم بحر الوحدة المطلوب، اللهم بجاهك وجاه أشرف خلقك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انفغ بهذا التقييد كل من نظره بعين الرضا وتأمله آمين. ثم إني أقدم بين يدي هذا التقييد سند الشيخ صاحب هذه التصلية وسندنا المتصل به: فقد أخذ رضي الله عنه هذه الطريق عن شيخه أبي محمد سيدي عبد الرحمن المدني الحسني الملقب بالزيات لسكناه بحارة الزياتين، وكان الشيخ ابن مشيش في صغره انقطع للعبادة في مغارة بجبل العلم بعد أن أدركه الجذب وهو ابن سبع سنين فدخل عليه بعد مدة رجل عليه سيما الخير والصلاح فقال له أنا شيخك الذي كنت آمرك من وقت الجذب إلى الآن، ووصف له ما وصل إليه على يديه من المنازلات والمعارف وفصّل له ذلك مقاما مقاماً وحالا حالاً وعيّن لكل حال زمنه، ثم سئل رضي الله عنه بعد ذلك هل كان يأتيك أو كنت تأتيه؟ فقال كل قد كان، فقيل طيا لمسافة المكان أم سفرا؟ قال طيا، وأخذ شيخه المذكور عن عارف وقته القطب تقي الدين الفقير بالتصغير فيهما وهو من أرض العراق، وهو عن القطب فخر الدين، عن القطب نور الدين أبي الحسن، عن القطب تاج الدين، عن القطب شمس الدين بأرض الترك، عن القطب زين الدين القزويني، عن القطب أبي إسحاق إبراهيم البصري، عن القطب أبي القاسم أحمد المرواني، عن القطب أبي محمد سعيد، عن القطب سعد، عن القطب محمد فتح السعود، عن القطب سعيد الغزواني، عن القطب أبي محمد جابر، عن أول الأقطاب

سيدي الحسن، عن أبيه سيدنا علي بن أبي طالب، عن سيد الأولين والآخرين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم. ويتصل سندنا بهذا الشيخ من طريق شيخنا العارف بالله الغوث الشهير سيدي محمد بن محمد الحراق المذكور، عن شيخه مولاي العربي الدرقاوي الحسني، عن شيخه العارف بالله سيدي علي العمراني الحسني، عن شيخه العارف بالله سيدي العربي بن أحمد بن عبد الله، عن أبيه سيدي أحمد بن عبد الله، عن سيدي قاسم الخصاصي، عن العارف بالله سيدي عبد الرحمن الفاسي وعن سيدي محمد بن عبد الله الكبير والد سيدي أحمد، وهما عن القطب سيدي يوسف الفاسي، عن العارف بالله سيدي عبد الرحمن المجذوب، عن شيخه سيدي علي الصنهاجي المشهور بالدوار، عن شيخه سيدي إبراهيم أفحام، عن سيدي أحمد زروق، عن شيخه سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي، عن سيدي يحيى القادري، عن القطب سيدي علي بن وفا، عن والده سيدي محمد بحر الصفا، عن سيدي داود الباخلي، عن سيدي أحمد بن عطاء الله، عن القطب سيدي أبي العباس المرسي، عن القطب سيدي أبي الحسن الشاذلي، عن القطب الكبير العارف الشهير صاحب هذه التصلية التي قال في أولها:

[اللهم صل عن مَنْ منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار
وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق]

(اللهم) وهو اسم عَلَم مبني على الضم لأنه منادى محذوف حرف النداء منه وعُوض منه الميم وهذا هو الطي في هذا الاسم كما أشار إليه ابن مالك في ألفيته بقوله "والأكْثرُ اللهمّ بالتعويض"، وأما الجمع بين العوض والمعوض منه فيه أيضا فلا يجوز إلا في ضرورة الشعر كما أشار إلى ذلك أيضا بقوله "وَشَذَّ يا أللهم فِي قَرِيضِ".

قوله (صل) هو فعل أمر مبني على حذف آخره، والجملة طلبية وهي أن لا يتحقق مدلولها ومعناها إلا بعد النطق بها نحو اضرب فإنه لا يتحقق مدلولها معناه إلا بعد التلفظ به.

قوله (على من) الجار والمجرور متعلق بـ "صَلِّ"، ومَنْ موصول بمعنى الذي واقع على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ومعنى ذلك أن المصنف رضي الله عنه طلب من الله تبارك وتعالى أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم لأن الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - مطلوب من المكلف الإكثار منها والمواظبة عليها لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام (مَنْ صلى عليَّ مرة واحدة صلى الله عليه عشرا، ومن صلى علي

عشرا صلى الله عليه مائة) الحديث، فدليل هذا تحريض المكلف على الإكثار منها والمواظبة عليها، وحاصل كيفية عمل هذه الصلاة أن يكون الفرْق موجودا ظاهراً والجمع مشهودا باطناً أي بأن يكون الباطن يرى أن المصلِّي هو النور الأحدي على النور الأحمدي، فإذا طلبـت ذاتٌ من الذوات من الله تبارك وتعالـى أن يصلي عليـه - عليهِ الصلاة والسلام - فيكون معنى ذلك باطنا أن النور الأحمدي طلب من النور أن يصلي على النور الأحمدي. ثم إن الصلاة الواقعة من الله تبارك وتعالى رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين دعاء، وهي تشرف وتعظُم بشرف وعظم ما صدرت منه: ولذلك طلب المصنف من الله تبارك وتعالى أن يصلي عليهِ عليه الصلاة والسلام، ومن طريق أهل الظاهر أن في الصلاة على غير الأنبياء والملائكة ثلاثة أقوال بالجواز والمنع والكراهة وهذا في الاستقلال كقولك اللهم صل على فلان وأمَّا بالتبع كقولك اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذرياته فجائزة اتفاقاً، ومن طريقهم أيضا أن الصلاة عليهِ عليه الصلاة والسلام إحدى الأمور التي تجب على الإنسان مرة في عمره، ثانيها البسملة، ثالثها الحمدلة، رابعها الهيللة، خامسها التكبير، سادسها التسبيح، سابعها الحوقلة، ثامنها الاستغفار، ونظم هذه المسائل بعضهم فقال:

بـــسملة وحمدلـــة وهيللـــه ... تـــسبيح تكبيــر كـــذاك حوقلـــه
تـــصلية علـــى النبـــي الهـــادي ... ثـــم اســـتغفار فـــزت بالرشـــاد

وحاصل إخراج المكلف من هذا الوجوب عندهم أيضا هو لا بد أن يتلفظ بها بنية الوجوب إن قدر وإلا فنية الوجوب تكفيه، ومن طريق الإشارة عندي أنه لا بد في خروجه من الوجوب على كل حال في الهيللة مثلا من انصباغها بفِعْله وعظمه ودمه ولحمه وحركاته وسكناته واسمه وكله حتى يصير الجميع ذات لا إله إلا الله محمد رسول الله فيخرج من ربقة الأغيار والأكوان إلى فضاء الشهود والعيان وحينئذ يصلي الفرض الواجب عليه، وكذلك يقال في الباقين الثمانية، وأيضا فالممتثل المجتنب بما هو مصل بل هو نفس الصلاة لأنه لا يخرج عن القبضة المحمدية كذلك أيضا هو ذاكر بل هو نفس الذكر لأنه لا يخرج عن النور الإلهي، والحاصل أن المخلوق لا يخرج عن كلتا الجنتين جمالا وجلالا إلا باعتبار البطون والظهور، فمن أراد الله سبحانه حجبه وطرده وبعده أظهر له القبضة الجبروتية الفرعية وأبطن عنه الأصلية، ومن أراد الله سبحانه قربه وأنسه وحبه ولم يرد به الانتفاع للخلق أظهر له القبضة الجبروتية الأصلية وأبطن عنه الفرعية، ومن أراد الله سبحانه قربه وأنسه وحبه والانتفاع به للخلق وإتمام نعمه عليه الظاهرة والباطنة فيكون من الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ

سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ أظهر له باطن القبضة الجبروتية الأصلية وأبطن عنه الفرعية وأظهر له ظاهر القبضة الجبروتية الفرعية وأبطن عنه الأصلية فيصير ظاهره حرا وباطنه عبدا أو نقول باطنه سرا وظاهره نورا أو نقول باطنه شمسا وظاهره قمرا أو نقول باطنه جذبا وظاهره سلوكا أو نقول باطنه محقا وظاهره تعددا أو نقول باطنه سُكرا وظاهره صحوا أو نقول باطنه ملكوتا وظاهره مُلكا إلى غير ذلك، فإذا فهمت معنى كلتا الجنتين المتقدمتين وذقته وحققته وعرفته فهمت معنى قوله تبارك وتعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أي ما من شيء من الأشياء إلا وهو يسبح بحمده وبذكره تبارك وتعالى جلالا وجمالا، فمثال التسبيح والذكر الجمالي المعتبر والمطلوب شرعاً الصلاة والصيام والزكاة والحج والسمع والنظر والجلوس والقيام والحركة والسكون وغير ذلك من الأنوار الجمالية لله وبالله، ومثال التسبيح والذكر الجلالي الغير المطلوب والمعتبر شرعاً الكذب والغيبة والنميمة والزور والغش والحسد والرياء وغير ذلك من الأنوار الجلالية، وإنما سمى الجميع تسبيحاً وذكر الله لأنه لا شيء معه على التحقيق حتى يذكر ويسبح به. ثم إن كل نور من نوري الجمال والجلال إذا صدر من حقيقة وذات ازدادت قوة في ذلك النور الذي صدر منها جمالا كان أو جلالا، لأن الخير يجر بعضه بعضا، والشر يجر بعضه بعضا، ومعنى ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أي ما دمتم أنتم بأن كنتم تشاهدون نفوسكم وحسكم ولم تتطهروا وتقدسوا من جنابة غفلة رؤية الأغيار والأكوان، يعني وإذا تقدستم وتطهرتم وصرتم أسراراً من أسرار الألوهية ففهمتم تسبيح الأشياء كلها جمالا وجلالا قال تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ وقال أيضا ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية إلى غير ذلك من الآيات.

قوله رضي الله عنه (مِنْهُ) فالضمير عائد على من (انشقت) يعني المراد بالانشقاق ها هنا الظهور أي ظهرت (الأسرار) أي الأسرار الإلهية أو نقول المعاني الربانية أو نقول الحقائق النورانية أو نقول البواطن القيومية أو نقول الملكوتات القدوسية أو نقول الأصول الوحدانية أو نقول الإشراقات الديمومية أو نقول الجبروتات القعدودية أو نقول الرحموتات الشاملية أو نقول اللاهوتات القاهرية، وقد يشرح الأسرار بما يشرح به الأنوار وبالعكس، لأن القبضة المحمدية من النور الأحدي، والنور الأحدي هو أصل لها، وهي فرع عنه [قبَضَ قبضة من نوره فقال لها كوني محمداً]، وما ذكرته من الأصل

والفرع إنما هو بحسب الظهور والبطون كان هذا الفرع الظاهر وهو النور المحمدي كان مبطونا ومغيبا في النور الأحدي [كنتُ كنزاً لم أعرَف وخلقتُ الخلق لأعرَف]، وإلا فلا فرعا ولا أصلا ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝ ﴾، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الحقيقة أي فأنتم راجعون إلى نوره تبارك وتعالى لأنكم مأخوذون من نوره وهو القبضة المحمدية لأنكم فروع عنها، لولاه لم تُخرَج الدنيا من العدم.

(و) مَنْ منه (انفلقت) يقال انفلقت الآنية إذا زال بعضها من بعض، والمراد من الانفلاق هنا أيضا الظهور أي ظهرت (الأنوار) أي الأنوار المحمدية أو نقول الأشكال النبوية أو نقول الحِكم الفانية أو نقول الأكوان الوهمية أو نقول الأغيان الحجابية أو نقول الزخارف الحديثية أو نقول الفروع الباهلية أو نقول الجبروتات الفروعية أو نقول الأملاك الرافقية أو نقول الظواهر الاختيارية أو نقول الناسوتات الفياضانية إلى غير ذلك.

قوله رضي الله عنه (وفيه) أي النور المحمدي وهو القبضة المحمدية (ارتقت) وارتفعت وتفاوتت (الحقائق) أي ارتقى وارتفع بعضها من بعض في الجمال والجلال وإن كان في الحقيقة هذا عين هذا لأن حقائق الجمادات ليست حقيقة الحيوانات الغير الناطقة فلا هي متفاوتة وأيضا فإن حقيقة كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة متفاوتة فيما بينها، ألا ترى أن حقيقة النبي مثلا ليست كحقيقة الولي، وحقيقة الولي ليست كحقيقة الصالح، وحقائق عامة المسلمين ليست كحقائق عامة الكافرين، ويلزم من ارتقائها وارتفاعها وتفاوتها ارتقاء وارتفاع وتفاوت هذا النوع المحمدي في الجمال والجلال أيضا وإن كان هذا عين هذا في الفرعية التي هي القبضة المحمدية، ألا ترى أن شريعة النبي وهو المراد بالنور المحمدي ليست كشريعة الولي، وشريعة الولي ليست كشريعة الصالح، وشرائع عامة المسلمين ليست كشرائع الكافرين، وهكذا ولا يفهم هذا إلا من له ذوق سليم ممن تفضل الله عليه ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

(و) فيه أي بالنور المحمدي (تنزلتْ) أي أهبطت (علوم آدم) أي الشرائع والأكوان أو نقول الجبروتات الفرعية والملكية أو نقول التجليات والإحساس أو نقول العروش والظواهر إلى غير ذلك وذلك كزيد وعَمرو والكرسي والعرش والقلم والجنة والنار والصراط والميزان والحشر والنشر والروح والقلب والعقل إلى غير ذلك مما عمّه النور المحمدي وشملته القبضة المحمدية، وعلوم آدم التي أشار إليها المصنف رضي الله

عنه بقوله هي المشار إليها بقوله تبارك وتعالى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي أسماء المسميات كزيد مثلا فإنه اسم لهذه الحقيقة إلى آخر ما تقدم وغيره، (فأعجز) هذا النور المحمدي (الخلائق) أي صيّرهم عاجزين عن إدراك نفسه والإحاطة به.

[وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا
لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة]

(وله) أي عن النور المحمدي (تضاءلت) أي تقاصرت (الفهوم) أي العقول والقلوب والأرواح (فلم يدركه) أي لا يحيط به (منا) معشر الخلائق (سابق) ممن تقدم ظهوره ثم بطن ولا ممن هو ظاهر الآن ثم يبطن (ولا لاحق) ممن هو باطن ثم يظهر، لأن كل ذات وحقيقة برزت وظهرت وإن أدركت من هذا النور شيئا فمثل نقرة الطير من البحر حيث ظهورها بطن عنها أشياء قبل ظهورها وحين ظهورها وبعد ظهورها وحين بطونها.

ثم قال رضي الله عنه (فرياض) مبتدأ جمع روْض وهو أشرف الشيء وأفضله وأرفعه أي أشرف وأفضل وأرفع (الملكوت) وهو ما يدرك بالبصيرة أو تقول عالم السر أو نقول عالم البطون أو نقول عالم الجمع أو نقول عالم الحقيقة أو نقول عالم المعنى أو نقول عالم الذات أو نقول عالم الإيمان أو نقول عالم الشرب أو نقول عالم الري أو نقول عالم الكشف أو نقول عالم الحق أو نقول عالم الحب أو نقول عالم القرب أو نقول عالم الأنس أو نقول عالم الشهود أو نقول عالم الفناء أو نقول عالم البحر أو نقول عالم اللاهوت أو نقول عالم الأصل أو نقول عالم الحياة أو نقول عالم الجنة أو نقول عالم التفريد أو نقول عالم الخمر أو نقول عالم السكر أو نقول عالم الشمس أو نقول عالم النهار إلى غير ذلك (بزَهْر) أي بنور جماله عليه الصلاة والسلام أي بالزهر الجمالي فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، والزهر الجمالي هو أفضل النور المحمدي أو نقول أفضل عالم الحس أو نقول أفضل عالم البصر أو نقول أفضل عالم الملك أو نقول أفضل عالم الحجب أو نقول أفضل عالم الستر أو نقول أفضل عالم النسموت أو نقول أفضل عالم الأشباح أو نقول أفضل عالم الأغيار أو نقول أفضل عالم الأكوان أو نقول أفضل عالم السوى أو نقول أفضل عالم الفرع أو نقول أفضل عالم الفرْق أو نقول أفضل عالم الكأس أو نقول أفضل عالم الصفات أو نقول أفضل عالم النار أو نقول أفضل عالم الظهور أو نقول أفضل عالم التجلي أو نقول أفضل عالم العرش أو نقول أفضل عالم الإسلام أو نقول أفضل عالم الشرائع، إلى غير ذلك: وإنما نبهنا على هذا ليتبصر به أهل بدايات السر والسلوك إلى الله تعالى (مُونِقَة) خبر المبتدأ

أي متزينة والعكس وهو بخبر الأرفع والأفضل والأشرف من الملكوت بالعكس وهو أنه بزهر جلاله عليه الصلاة والسلام مونق وهو من نورٍ وزهرٍ أيضا، لأن لكل حقيقة شريعة، ولكل شريعة حقيقة، وعلى هذا فكل حقيقة وذات جمالية شريعتها ونورها وزهرها جمالية كما نبه عليه رضي الله عنه بقوله (فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة)، والعكس وهو كل حقيقة جلالية بالعكس وهو شريعتها ونورها وزهرها جلالية كما نبهنا عليه بقولنا والعكس وهو خير ويدل على ما نبهنا عليه كلامه رضي الله عنه ممن تأمله، فيكون حذف الواو مع معطوفها وهو جائز حيث لا لبس كما نبه عليه ابن مالك في ألفيته عاطفا له على حذف الباء مع معطوفها بقوله والواو إذ لا لبس، وحينئذ فكل شريعة تشرف بشرف حقيقتها، وكل حقيقة تشرف بشرف شريعتها، والعكس بالعكس، ولا ترى أن حقيقة النبي وذاته مثلا وشريعته وزهره ونوره ليست كحقيقة وذات الولي وشريعته وزهره ونوره بل هما متفاوتان في الجلال، ثم إن الخلائق متفاوتون في هذه القوام المتقدمة فمنهم العموم ومنهم الخصوص ومنهم خصوص الخصوص، ثم كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة تنقسم إلى ثلاثة أقسام وكل واحد من هذه الأقسام ينقسم إلى ثلاثة وهكذا إلى ما لا نهاية، وإنما عالم الرحموت فهو داخل في هذه العوالم كلها وفي الجبروت الآتي أيضا، لأن كل عالم من هذه العوالم لا يخلو من رحمة قوة وضعفا إلا أنه لا يعتبر منها إلا ما كان قويا وكذلك أطلق الله تبارك وتعالى في كتابه فقال ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي وسعت الأشياء كلها لأنه وإن حصل العذاب والألم هين مصحوب برحمة، ثم خصص تبارك وتعالى فقال ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي الرحمة القوية الكاملة المعتبرة للذين يتقون الخ الآية. أما عالم النفوس والعقول والقلوب والأرواح فعندي أنه من قبيل عالم الملك والأنوار والأكوان والأقمار لا من قبيل عالم الملكوت والإيمان والشهود والعيان، والله أعلم بغيبه.

ثم قال رضي الله عنه:[وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة]

(وحياض) وهو مبتدأ جمع حوْض فإنه من باب تسمية الحال باسم المحل أي عناصير وينابيع وشوارق وشموس وقُزر (الجبروت) أي الأصلي وهو القبضة الإلهية أو نقول الملك والملكوت أو نقول الحس والمعنى أو نقول النور والسر أو نقول القمر والشمس أو نقول الظاهر والباطن أو نقول الكأس والخمر أو نقول السلوك والجذب أو نقول الصحو والسكر أو نقول الطريقة والحقيقة أو نقول الشريعة والسريرة أو نقول السفينة والبحر أو نقول المحجوب والحاجب إلى غير ذلك، (بفيض) الجار والمجرور والمضاف متعلق بمتدفقة يقال فاض البئر إذا ازداد مما فيه على قدر ملئه (أنواره)

وشرائعه وطرائقه وأقماره وأزهاره عليه الصلاة والسلام أي وأسراره وحقائقه وبواطنه وشموسه عليه الصلاة والسلام، فيكون المصنف رضي الله عنه أيضا حذف الواو مع معطوفها وهو جائز (متدفقة) خبر المبتدأ، التدفق الرفع القوي شيئا بعد شيء، وكما أن حياض الجبروت الأصلي متدفقة بفيض الأنوار والأسرار، كذلك أيضا حياض الجبروت الفرعي وهو القبضة المحمدية هي أيضا متدفقة لفيض أنواره وأسراره عليه الصلاة والسلام، وكذلك أيضا حياض جبروتات هذه الفروع كجبروتات سائر الأنبياء والملائكة على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وكجبروتات الأولياء رضي الله عنهم هي أيضا متدفقة بأنواره وأسراره عليه الصلاة والسلام، قال البوصيري:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيَمِ

وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحِكَمِ

وقال أيضا (لولاه لم تُخرَج الدنيا من العدم)، وكذلك حياض جبروتات فروع الفروع كجبروتات الأيدي والأرجل والرؤوس والأجساد والأسماع والأبصار هي أيضا متدفقة بأنواره وأسراره عليه الصلاة والسلام، وهكذا إلى ما لا نهاية له ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾. ثم في إتيان المصنف رضي الله عنه بالملكوت والزهر والجبروت إشارة إلى أن الدين ذو ثلاثة الإسلام والإيمان والإحسان، لأن الله تبارك وتعالى كما جعل نور سماء الحس ثلاثة النجوم والقمر والشمس كذلك جعل نور سماء المعنى وهي متفاوتة في الاستضاءة كما لا يخفى على كل لبيب حذيق عارف.

ثم قال رضي الله عنه:

[ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط]

(ولا شيء) أي من الأشياء والأغيار والأكوان كلها (إلا وهو) ذلك الشيء (به) أي بذلك النور المحمدي (منوط) متعلق (إذ لولا الواسطة) أي القبضة الجبروتية (لذهب كما قيل الموسوط) هذه الأنوار والأكوان والأغيار كلها، فالنور المحمدي أصلٌ لها وهي فرع عنه، ويشير إلى معنى هذا قول البوصيري (لولاه لم تخرج الدنيا من العدم)

[صلاة تليق بك منك إليه كما هو أهله]

(صلاة) منصوب على المفعولية المطلقة بفعله المتقدم أي اللهم صل صلاة، والصلاة لغة الدعاء وبمعنى البركة والاستغفار وشرعا قال ابن عرفة: قربة فعلية ذات إحرام وسلام أو سجود فيدخل سجود التلاوة والصلاة على الجنازة انتهى، وإشارة الحضرة الإلهية والأسرار الربانية (تليق) أن تحسن (بك منك) بالله (إليه) الصلاة

والسلام (كما) أي كالشيء الذي (هو) عليه الصلاة والسلام (أهله) أي أهل له وهو عليه الصلاة والسلام أهل لكل خير وفلاح وشمس ومصباح وفتح ومفتاح وعطاء ومنح.

ثم قال رضي الله عنه:

[اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك]

(اللهم إنه) هذا النور المحمدي (سرك) لأنه مقتبس من نورك وقبضتك (الجامع) لحقائقك كلها وشرائعك بأجمعها (الدال) أي المرشد والمهدي بأقواله وأفعاله وأحواله ومقاماته وذاته عليه الصلاة والسلام لأن جميعه رحمة للعالمين كما قال تبارك وتعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (عليك) أي كل من فتح الله بصيرته ونور سريرته بخلاف غيره ممن ستر الله بصيرته وأظلمها فإنه وإن عمته دلالته ودعوته عليه الصلاة والسلام فإنه لا ينفع بذلك ولا يهتدي ولا يرشد بذلك كما قال تبارك وتعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ وقال أيضا ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾. ثم قال رضي الله عنه: (وحجابك الأعظم) أي الساتر والحاجب لحقيقتك بحيث لا تنكشف لأحد ولا تظهر إلا على يديه ومن بابه وطريقته وسنته عليه الصلاة والسلام لأنه باب الله كما أشار إليه بعضهم بقوله:

هو باب الله ما ثم وصول إلا من بابه

ويحتمل أن يكون عليه الصلاة والسلام حجابا لمن اتبعه عن الوقوع في المعاصي والضلال والبدع والاغتيال، ثم قال رضي الله عنه (القائم) المنتصب (لك بين يديك) أي أمامك فلا يدخل أحد إلا من بابه كما تقدمت الإشارة إليه في كلام بعضهم، أي ولا ينتهي أحد بعد الوصول والفناء والإيمان بك إلا إليه أيضا عليه الصلاة والسلام.

ثم قال رضي الله عنه:

[اللهم ألحقني بنسبه، وحققني بحسبه،
وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل]

(اللهم ألحقني) أي أدركني (بنسبه) أي الباطن أي بالنسبة والحال التي بينه عليه الصلاة والسلام وبين الله تبارك وتعالى باطنا وهو الشهود والعيان والحب والإيمان والأنس والإيقان والشكر والإحسان وعدم رؤية الأغيار والأكوان والأجرام والألوان والحس والنيران والشهوة والجنان، وعرفني وذَوِّقْني (وحققني بحسبه) أي الظاهر أي بأدبه وطريقته ونوره وزهره وجميع وظائف عبوديته عليه الصلاة والسلام حتى أعرف

وأذوق وأتحقق معناه ونتيجته وثمرته وفائدته، ثم قال رضي الله عنه (وعرفني) أي حققني وأيقني (إياه) عليه الصلاة والسلام أي هذا النور المحمدي: ظاهره بأنه نور وزهر وقمر وحكمة وشريعة وطريقة، وباطنه بأنه سر وخمر وسكر ولطيفة وسريرة وحقيقة (معرفة) وتحقيقا وإيقانا وهو الشهود والعيان واليقين والإيمان والإقرار بالحكمة والإحسان والزهر والإيقان، ثم قال رضي الله عنه تفسيرا للمعرفة وشرحا لها (أسلم) أي أنجو (بها) بهذه المعرفة (من موارد) جمع مورد وهو مكان الورود والشراب (الجهل) أي عمى القلب.

[وأكرع بها من موارد الفضل]

(وأكرع) الكرع الشرب على الفم وهو من شِيم اللهفان والعطشان (بها) أي بهذه المعرفة (من موارد) تقدم معناه (الفضل) أي شرح الصدر للعمل بوظائف الربوبية.

[واحملني على سبيله إلى حضرتك، حملا محفوفا بنصرتك]

(واحملني) أي اذهبْ بي (على سبيله) أي طريقه وسيره بأن يكون باطني مشاهدك ومعاينك ومتأنسا بك ومبسوطا، وظاهري قائما بوظائف عبوديتك وحكمتك وأدبك وشريعتك وزهرك ونورك، كما كان عليه الصلاة والسلام وإن كنت لا أبلغ درجته ومقامه عليه الصلاة والسلام (إلى حضرتك) أي أنسك وقربك وحبك ومجالستك (حملا) مفعول مطلق أي ذهابا (محفوفا) أي مشمولا ومحيطا (بنصرتك) أي قوتك وإعانتك وتأييدك.

[واقذفْ بي على الباطل فأدمغه، وزُجّ بي في بحار الأحدية]

(واقذفْ) أي ارمِ (بي على الباطل) الكون كله من حيث النظر إلى ذاته لأنه باعتبار النظر إلى ذاته عدم مظلم، وأما من حيث تجلي نور الحق عليه وظهوره فيه فليس بباطل بل هو نور مستنير، كما أشار إلى ذلك ابن عطاء الله رضي الله عنه: الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه (فأدمغه) أي فأصيب دماغه، والدماغ المخ. قوله (وزج) الزج الرمي (في بحار الأحدية) جمع بحر أي حقيقة، فالإضافة في بحار الأحدية بيانية، والأحدية مبالغة في الوحدة وهي تفريد الله تبارك وتعالى في ملكه ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

[وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة]

(وانشلني) انشل القلع (من أوحال) جمع وَحل وهو الطين والخضاض (التوحيد) التفريد، أي انشلني واقلعني من أوحال وخضاض وطين التوحيد والتفريد وهو توحيد أهل الدليل والبرهان أو نقول هو توحيد أهل الإسلام أو نقول توحيد أهل الملك، الخ،

ثم أزج وأرم في بحار حقائق التوحيد والتفريد بشهود أو عيانا وهو توحيد أهل الملكوت والإيمان والشهود والعيان، الخ، فالنشل مقدم على الزج وسابق عليه، أي طلب من الله تبارك وتعالى أن ينشله ويقلعه ثم يزج ويرم به، فإن الواو لا تفيد ترتيبا بل هي لمطلق الجمع كما أشار إليه ابن مالك في ألفيته واعطف سابقاً أو لاحقاً. في الحكم أو مصاحباً للزج، ولا غرابة في هذا بالنسبة لقدرة الله تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فقوله تعالى إنما هو حكاية عن كثرة السرعة جدا فقط لا أنه يقول له كن لأنه لا ترتيب ولا مهلة بين إرادة الله تبارك وتعالى لفعل شيء وبين فعله له. ثم قال رضي الله عنه (و) أي بعد النشل والزج في بحار الأحدية (**أغرقني**) أي غيبني (**في عين**) أي شريعة وسنة وسفينة (**بحر**) أي حقيقة (**الوحدة**) التفريد بالإضافة في عين بحر الوحدة بيانية، وشريعة البحر وسنته وسفينته هي القبضة المحمدية التي قبضها الله تعالى من نوره وقال لها كوني محمدا.

ثم قال:[حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها]

(**حتى لا أرى**) ظاهرا (**ولا أسمع**) ظاهرا (**ولا أجد**) ظاهرا (**ولا أحس**) ظاهرا ولا أتحرك ولا أسكن ظاهرا (**إلا بها**) أي بالشريعة والسنة والسفينة وهي القبضة المحمدية التي تكثفت وهو الحق الثاني يفنى مع تحقيق الحق الأول باطنا وهو النور الأصلي الذي لم تدخله صنعة التكوين، ويدل على هذا كلامه الآتي بأن يكون تناولي كله بها وهو توحيد أهل البقاء والعرفان والفضل والامتنان والجبروت الأصلي والإحسان.

ثم قال:[واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي]

(**واجعل**) أي صير (**الحجاب**) أي الساتر والمراد به الشريعة المحمدية (**الأعظم**) أي الأكبر لأنه لا حجاب ولا ساتر لله تبارك وتعالى أكبر من حجاب وساتر الأنبياء، لأن ابتداء السير إلى الله تبارك وتعالى إنما هو الشرائع فلا يدخل أحد على الله تبارك وتعالى بعكسها، ولهذا قال بعضهم: هو باب الله ما ثم وصول إلا من بابه، وهو معنى قول بعضهم (خضتُ بحرا) أي بحر الأبحر الوحدة (وقفتِ الأنبياءُ بساحله) أي شريعته، فابتداء السير بها أي الشريعة، والانتهاء إليها، والجمع منه وإليه ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾. قال (**حياة**) أي نفس وعين (**روحي**) أي لب شريعتي، والروح أمر من أمور ربي كما قال تبارك وتعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أي أمر من أمور ربي، لأن كل حقيقة مظلمة تأمر بالسوء والمخالفة والعصيان تسمى نفساً، سواء كان ذلك على سبيل النصيحة أو الكبر أو غير ذلك ولهذا قال تبارك

وتعالى في كتابه المبين ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ فالآية عامة، ثم إنْ كانت تأمر بالسوء على جهة النصيحة سميت باسم خاص وهو الشيطان، ولذلك تجد حقيقة الشيطان لا تأمر بالمخالفة إلا على سبيل النصيحة كما قال تبارك وتعالى ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ وقال أيضا ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكما تسمى حقيقة الجن بهذا الاسم كذلك حقيقة الآدمي الإنسان لقوله تبارك وتعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾، وإنْ كانت تأمر بالكبر تسمى أيضا باسم خاص وهو إبليس ولهذا تجد حقيقته لا تأمر بالمخالفة إلا على سبيل الكفر كما قال تعالى ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وقال أيضا ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ إلى غير ذلك. ثم إذا تنورتْ بالشرائع سميتْ عقلا، لأنها تعقل وحُبست وسُجنت بعقال وحبس وسجن الشرائع، ثم إذا ازداد نورها سميتْ قلبا لأنها تقلب بأن تتوارد عليها في بعض الأحيان خواطر الشهوات ولكنها معقولة ومزمومة بالشرائع، ثم إذا تنقلت عنها هذه الخواطر سميتْ روحا أي لأنها تروحنت وصارت في مقام الروحانيين لكنها لا زالت مسجونة ومحصورة فصاحبُها لم يخرج من مقام الملك والإسلام والأشباح والأنام لأنه لا زال محصورا ومسجونا في هيكل ذاته، ثم إذا أراد له الله المقام هو أعلى من عزرائيل بقبض روحه فيخرج من السجن والحصر إلى الاتساع والفضاء وهو مقام الإيمان والشهود والعيان وحينئذ تسمى سِرّاً لأن الله تبارك وتعالى رفع وكشف الحجاب بينه وبينها وقربها الله وأحبها فسميت باسم حبيبها ومقربها تعظيما لقدرها ورفعة وتشريفا لشأنها، (و) اجعلْ أي صير (روحه) أي لب شريعته عليه الصلاة والسلام (سر حقيقتي) أي سر سري لأن شريعة الخواص أخص من شريعة العوام، لأن شريعة الخواص عدم الميل إلى المخالفة ظاهرا أو باطنا وإنْ وقع ذلك منهم- وكان أمر الله قدرا مقدورا- فهو نادر والنادر لا حكم له، بخلاف العوام وإن كانوا لا يَصِلون إليها ظاهرا فقد يميلون إليها باطناً، والباطن أساسٌ وأصلٌ للظاهر كما ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال (إن الله لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم)، وورد أيضا في الأخبار إن الله تبارك وتعالى قال لسيدنا داوود عليه السلام يا داوود طهِّرْ ثيابك الباطنة وأما الظاهرة فلا تنفعك عندي، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بأن في الجسد مضغة إذا فسدت فسد

الجسد كله وإذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب، فالباطن أصل للظاهر، فإذا انهدم الأصل انهدم الفرع ولا عكس، لأن وجد الفرع إنما هو من شروط الكمال لا من شروط الصحة، (و) أي اجعل (حقيقته جامع) أي شامل (عوالمي) كلها بأن لا يفوتها شيء منها بأن تكون عوالمي كلها داخلة في خالص هذه القبضة غير خارجة عنها بأن تكون عيناه وذاته فيكون حينئذ نائباً وخليفته عن الله تبارك وتعالى في أرضه يأمر وينهى ويُبشر ويحذر ويهدي لمن شاء الله تعالى ويقرب، ويحب من امتثل واجتنب، ويكره من ضل عن الهدى وتجنب، فتكون في معنى قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ أي بشيرا لمن آمن بالجنة والشهود والعيان ونذيراً لمن جحد وألحد بالنار والأغيار والأكوان ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أي ما نحن عليه من الحق وقذف الباطل وهذا هو الجبروتي الفرعي.

تنبيهات ثلاث: الأول أن أنوار الله تبارك وتعالى متصرفة في بعضها بعضا، لكن تصرفها مختلف: فمنها ما هو متصرف حسا فقط، ومنها ما هو متصرف معنى فقط، ومنها ما هو متصرف معنى وحسا، فالأول لأهل الأغيار والأكوان والبعاد والهجران والنفوس والنيران، والثاني لأهل الفناء والإيمان والشهود والعيان والأنس والبستان، والثالث لأهل البقاء والعرفان والكمال والإحسان والفضل والامتنان، ثم إن التصرف المعتبر عند أهل الباطن إنما هو التصرف الثاني والثالث فقط لكن التصرف الثالث أقوى من الثاني لأنه كامل بخلاف الثاني لأنه ناقص، ثم كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة يتصرف فيما يسر الله له وقد رأى التصرف فيه من هذه الأنوار قوة وضعفا جلالا وجمالا مع الشهود أو عدمه حسا أو معنى أو معنى وحسا، لكن تصرفه مقصور على ما هو أدنى درجة منه ولا يتعدى طوره إلى ما هو أعلى منه ولا إلى ما هو في درجته لأن الهند البارد لا يقطع في الهند البارد مثله، فإذا علمت هذا وحققته علمت أن قطب الأقطاب وهو الغوث الصمداني متصرف في الجميع لأنه نائب عن الله تبارك وتعالى خليفته في أرضه يتصرف كيف شاء متى شاء، كما هو المنوب عنه في الأشياء الحسية كلها أي الأقطاب وغيرها لا يتصرف لها مع إرادته بخلاف ما أرادوه بلا كلها تحت قدمه وقهره وغلبته، لأن الله تبارك وتعالى لما أراد خلافته وإنابته طهره وقدسه تطهيرا وتقديسا تامين وأحبه وقربه إليه وأيده بروح القدس ونصره، بخلاف الأقطاب التي تحته لا تصرف لمن تحتهم مع إرادتهم وهم خلاف ما تحتهم، وهكذا إلى ما لا نهاية له، الا كل مَنْ هو أدنى لا تصرف له حسا ولا معنى مع الأعلى خلاف ما أرادوه وأما إذا لم

يرد الأعلى إرادته شيئا أو وافقه على ذلك، فيقع له التصرف، قوة وضعفا، جمالا وجلالا، مع الله الشعور أو عدمه، حسا أو معنى، أو حسا ومعنى، والله فوق كل ذي علم عليم.

الثاني اعلم أن أنوار الله تبارك وتعالى مجذوبة إلى الله تبارك وتعالى أي غير خارجة عن الحضرة الإلهية والنفحة الربانية والأسرار اللاهوتية، لكن جذبها متفاوت قوة وضعفا جلالا وجمالا مع شهود ذي الجذب المجذوب إليه ومع عدمه، ولكن الجذب المعتبر عند اصطلاح أهل الباطن إنما هو الجذب المشاهد صاحبه والمعاين المجذوب إليه أعم من أن يكون جلاليا أو جماليا قويا أو ضعيفا، كما أن أنوار الله تبارك وتعالى كلها مجذوبة إليه كذلك هي كلها سالكة إلى الله تبارك وتعالى أي غير خارجة عن الأنوار والأزهار والتجليات والأقمار، ولكن سلوكها متفاوت أيضا قوة وضعفا جلالا وجمالا مع الشهود ذي السلوك المسلوك إليه ومع عدمه، لكن السلوك المعتبر عند أهل الباطن إنما سلوك المقرب إلى شهود الله تبارك وتعالى وعيانه أعم من أن يكون قويا أو ضعيفا جلاليا أو جماليا.

الثالث اعلم أن المقام نتيجة الحال، والحال نتيجة العمل، والعمل نتيجة العلم به، فعلم العلم أصل وأساس لهذه الأشياء كلها. أما علم فائدة العلم وغايته فيحصل تارة قبل العمل وتارة معه وتارة بعده، وأما علم الحال فيحصل تارة بتوارد تلك الحال مرة بعد المرة، وأما علم المقام فيحصل برسوخ تلك الحال وثبوتها في الذات والحقيقة التي صدرت منها، وأما علم ذوق العلم فيحصل تارة معه وتارة بعده لا قبله. أما العلوم الأربعة الأول فيحصلها الإنسان ويدركها من ذاته وحقيقته بإلهام من الله تبارك وتعالى ومن ذات وحقيقة أخرى كشيخه مثلا إذا أخبره بحصولها له، وأما علم الذوق فلا يحصله الإنسان إلا من ذاته وحقيقته لا من ذاته وحقيقة أخرى لأنه وإن أخبره غيره لم يحصل له ذلك ذوقا.

قوله رضي الله عنه (**بتحقيق الأول**) أي الجبروت الأول أي الأصلي وهو متعلق بقوله واجعل، والباء بمعنى مع، أي اجعل الجبروت الفرعي جامع عوالمي مع تحقيق الجبروت الأصلي بأن أكون ناظراً إليها لا يحجبني أحدهما عن الآخر، ولا غرابة ولا منافاة بين النظر إلى الأصل وإلى الفرع، ألا ترى أن الناظر إلى فرع الشجرة يسعه النظر إلى أصلها لكنه غير لازم، لأن الإنسان قد ينظر إلى فرع الشجرة ولا ينظر إلى أصلها، والعكس بالعكس، وحينئذ فمن نظر إلى الجبروت الفرعي بخصوصه حجب عن الجبروت الأصلي والعكس بالعكس، والأول محجوب، والثاني ناقص، والجامع بينهما

كامل، وأيضا فمن نظر إلى فرع الفرع أو فرع فزع الفرع بخصوصه إلى ما لا نهاية له فقد ازداد بعداً بعد النظر إلى الفرع الأول بخصوصه بل الثاني أبعد من الأول وهكذا، وإذا كان كذلك فمن فنا في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بخصوصه فهو أقرب للأصل أي الفناء في الله ممن في الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنهما لأن الفناء في ذلك في فرع الفرع، وكذلك في الفناء في رأس الشيخ رضي الله عنه فهو بعيد من الفناء في جميع جسده وهكذا والله ولي التوفيق.

ثم قال (يا أول) بلا بداية (يا آخر) بلا نهاية (يا ظاهر) لكل شيء أي بصورة التعدد فيظن كل شيء، فمنْ أراد الله تبارك وتعالى طرْدَه وبُعْدَه وستره وحجبه أعطاه من ضعف القوة ما لا يستطيع القرب والوصول والنظر إليه لشدة ظهوره، ألا ترى أن الشمس مثلا لشدة نورها وضوئها كلما قرب الإنسان منها لا يستطيع النظر إليها لأنها ترفع بنورها عن نفسها، ومن أراد الله تبارك وتعالى سبحانه فلاحه وقربه ومحبته والجلوس بين يديه والأنس به ورفع الساتر والحجاب بينه وبينه وليس ساتر ولا حجاب وإنما هي قاهرية الحق تبارك وتعالى أعطاه من القوة ما يصادم به ويلاطم ويلاقي شدة هذا النور الإلهي، وليس ذلك إلا بعد أن تشتغل سريرته وقوته ونورانيته وبصيرته وتمتزج الأسماء بالأسماء والأفعال بالأفعال والصفات بالصفات والذات بالذات فيصير المتعدد متحدا ولا تعدد على التحقيق بل الظهور بصورة التعدد، فإذا حصل الامتزاج المذكور وقعت المصادمة والملاطمة والملاقاة لا قبل ذلك، إنما يعرف الله الله قال تعالى ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي الإحساس ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ أي الإحساس، قال فالحس لا يدرك المعنى والمعنى يدرك الحس لكنه يصير معنًى، وقال عليه الصلاة والسلام في حديث الإحسان بعد تقدم بعضه (فإن لم تكن) أي توجد بأسمائك وأفعالك وصفاتك وذاتك قرة أي المعنى لأنك صرت معنى المعاني (فإنه يراك) لكنك تصير معنى لأنه إذا رجع بالمعنى إلى الحس صار الحس معنى من حيث لا تراه أنت أي ما دمت حسا، فإذا تقدست وتطهرت واغتسلت من جنابة الأغيار والأكوان رأيته أقرب إليك من حبل الوريد. (يا باطن) عن من أراد الله سبحانه بطونه عنه وظهر كل شيء، أي فبظهوره بطن كل شيء، وببطونه ظهر كل شيء، فالعارفون الكاملون ظهر لهم فبطنوا باطنا وبطن عنهم فظهروا ظاهرا فجمعوا بين الأمرين جميعا، وغير الكاملين ظهر لهم ولم يبطن عنهم فبطنوا وصاروا ينكرون الحكمة ولا يصلون ولا يصومون إلى غير ذلك من ترك الشرائع أو ترك بعضها، والمحجوبون المبعدون

المطردون بطن عنهم فظهروا.

ثم قال (اسمع) أي استجب واقبل (ندائي) أي دعائي وتضرعي واضطراري (بما) أي بالشيء الذي (سمعت به نداء) ودعاء وتضرع واضطرار (عبدك زكرياء عليه السلام) وذلك كلما دخل المحراب أي الغرفة وهي أشرف البقاع على السيدة مريم عليه وعليها الصلاة والسلام وجد عندها رزقاً من أرزاق أهل الجنة فسألها من أين أتاها فقالت ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي بعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ أي رئيسا ﴿ وَحَصُورًا ﴾ أي ممنوعا من قرب النساء ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ إلى آخر الآيات.

(وانصرني) أي اهدني وأعني وقوني (بك) باطنا (لك) ظاهرا (واجمع بيني وبينك) بأن لا أحجب بي عنك ولا بك عني (وحُلْ بيني وبين غيرك) أي إذا وقع الحيلولة والبينونة الانفصامية بيني وبين غيرك حتى لا نراه ولا نشاهده باطنا وإنْ موجودا على جميع جوارحي ظاهرا.

(ألله) بتفخيم اللام وبمد الإشباع وفيه إشارة إلى مقام الإسلام والشرائع والملك والأنام (أللـه) بالتفخيم والإشباع أيضا وفيه إشارة إلى مقام الإيمان والشهود والعيان (أللـه) بالتفخيم والإشباع أيضا وفيه إشارة إلى مقام أهل الأدب والإحسان والفضل والامتنان، فالدين محصور في هذه الثلاث كما في حديث الصحيحين البخاري ومسلم. ثم اختلف أهل الظاهر كما في الحطاب وغيره هل هو اسم الله العظيم الأعظم كما اختلفوا أيضا في الصلاة الوُسْطَى وساعة الجمعة وليلة القدر وانفصل بعضهم على أن هذه الأربع كلها مخفية وأشار إلى ذلك في نظمه بقوله:

وأخفيت الوسطى كساعة جمعة كذا معظم الأسماء مع ليلة القدر

أما عند الصوفية رضي الله عنهم فلا شك أن اسم الله العظيم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى هو ألله، فمَنْ أخذه عن شيخ فاتح، ومؤدب ناصح، وداوم على الاشتغال به بجد واجتهاد، ونية صالحة وامتداد، فإن الله تبارك وتعالى يستجيب تضرعه، ويقربه إليه ويجلسه بين يديه، ويصير في مقام من إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، كما ورد في الخبر أنه تبارك وتعالى قال إني أردت أن أقول للشيء كن فيكون عبدي عبدي أطعني أجعلك إذا أردت أن تقول للشيء كن فيكون، انتهى بالمعنى. وأما

الصلاة الوسطى فالمراد بها والله أعلم هي الحضرة الإلهية والنفحة الربانية والشهود والعيان والفضل والإحسان، وأما ساعة الجمعة فقال بعضهم أوقاتنا كلها أعياد أي كلها ساعات الإجابة، وأما ليلة القدر فقال أبو العباس المرسي أوقاتنا هذه كلها ليلة القدر. ثم إن الذكر مطلوب من المكلف في كل ساعة وفي كل مكان وعلى أي حال كان، لكنه يشرف ويعظم بشرف البقاع والأزمنة والأحوال، كما أن المعصية كذلك أيضا، ولذلك أمر الله تبارك وتعالى بالذكر مطلقا غير مقيد كما قال تبارك وتعالى ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ وقال أيضا ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وقال أيضا ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾، وأمر به أيضا مقيدا أي غير مطلق للتنبيه على أنه يشرف بشرف البقاع والأزمنة والأحوال فقال ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ أي مساجد ﴿ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ﴾ أي البيوت ﴿ ٱسْمُهُۥ ﴾ تعالى ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ ﴾ تعالى ﴿ فِيهَا ﴾ أي البيوت ﴿ بِٱلْغُدُوِّ ﴾ مصدر بمعنى بالغدوات أي بكور النهار ﴿ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ أي عشايا النهار ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الخ. وأما من نهى عن ذكر الله في المساجد فيكفي في إهانته وسخافته وطرده وبعده وحجبه قوله تعالى ﴿ وَمَنْ ﴾ أي لا أحد ﴿ أَظْلَمُ ﴾ وأذنب وأقبح وأبشع ﴿ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ الآية، وأيضا الذكر المطلوب من المكلف لا فرق بين أن يكون صاحبه قائما أو قاعدا أو على الجنوب كما قال تعالى ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ المعلومات لأهل الظاهر ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي المعلومة لهم أيضا، أو نقول السماوات أي الحقائق والأرض أي أرض العبودية، ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ ﴾ حسا ﴿ وَٱلنَّهَارِ ﴾ حسا، أو نقول الليل الجلال والنهار الجمال أي القبض والبسط، ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ أي علامات ﴿ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي لذوي الألباب أي العقول ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الخ، وأيضا الذكر كما هو مطلوب من الإنسان ظاهرا كذلك مطلوب منه باطنا وورد في بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (تَفَكُّرُ ساعة خيرٌ من عبادة سبعين سنة) وقال أيضا (إذا أتيتم دياركم فأعلنوا بالذكر) أي اجهروا به، وما يستدل به العوام في إنكارهم وردهم على من يذكر الله جهراً وعلانية من قوله تبارك وتعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ ﴾ فأجاب عنه أهل الظاهر بأن هذه الآية نزلت قبل تعزز الإسلام وذلك أن الكفار كانوا حين سماعهم ذكر الله يسبونه فنزلت هذه الآية، وأما عند أهل الباطن فمعناها عندهم

شاهدْ ربنا في نفسك أي في ذلك وهذا معنى قولهم مَنْ عرف نفسه عرف ربه، وأما الذكر بالحركات والسكنات فلا أعلم دليلا في تقييده بالحركات دون السكنات أو بالعكس، بل كل ما ورد من الآيات والأحاديث كما تقدم كله مطلق وكذا ما تقدم بل لا أعرف في ذلك تقييدا أصلا، وما أنكره بعض أهل الظاهر من الذكر بالحركات فالمراد به والله أعلم إذا كانت الحركات لأجل الشهوات والرياء والدعوة والصنعة فصاحبُ حركاته حرام في الذكر فينبغي له ترك ذلك وإلا تكن حركاته كما ذكر لا معنى للنهي عنها لأن النهي عنها جهل كما أشار إليه أبو مدين الغوث رضي الله عنه بقوله:

فقل للذي ينهى عن الوجد أهله ... إذا لم تذق معنى شراب الهوى دَعْنا

إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا ... تراقصت الأشباح يا جاهل المعنى

أما تنظر الطير المقفص يا فتى ... إذا ذكر الأوطان حنَّ إلى المغنى

ويرقص بالأقفاص شوقا إلى اللقا ... فتضطرب الأعضاء في الحس والمعنى

كذلك أرواح المحبين يا فتى ... تهزها الأشواق للعالم الأسنى

أما سماع الشادين في حلق الذكر فقد اختلف فيه أهل الظاهر، ولا وجه لاختلافهم، بل من كان يزداد به قوة وقربة إلى الله تبارك وتعالى فهو مأمور به ومطلوب منه ومؤكد عليه حضوره ومقالته، والعكس بالعكس من أراد به قوة وقربة فلا يجنح إلى الفسوق والعصيان والمخالفة والطغيان، والظاهر أن ذكره ومقالته مطلوب بل سنة القوم إن كان بنية صالحة، وإلى معنى هذا أشار أبو مدين الغوث رضي الله عنه بقوله:

فيا حادي العشاق قُمْ واحْدُ قائما ... وزمْزمْ لنا باسم الحبيب وروحنا

وصنْ سرنا في سكرنا عن حسودنا ... وإنْ أنكرت عيناك شيئا فسامحْنا

فلا تلم السكران في حال سُكره ... فقد رفع التكليف في سكرنا عنا

فإنا إذا طبنا وطابتْ نفوسنا ... وخامرنا خمر الغرام تهتكنا

أما ذكر الله في الحِلَق فهو مطلوب شرعاً كما قال عليه الصلاة والسلام: إذا وجدتم رياضا من رياض الجنة فارتعوا، قالوا له وما رياض الجنة يا رسول الله؟ فقال: حلق الذكر. وورد منه أيضا عليه الصلاة والسلام أنه قال: المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وقال أيضا في حديث قدسي: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرٍ من ملئه، الحديث.

ثم قال رضي الله عنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ ﴾ أي أوجب ﴿ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي المعنى

الإلهي والسر الرباني والنور النوراني بحيث لا تستطيع رده حين يأتي به جبريل عليه الصلاة والسلام، وفي هذا المقام عند ربه عادماً الرد عن نفسه كما قال عليه الصلاة والسلام أنا لست مثلكم أبيت عند ربي يطعمني ويسقين، ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي بِغْتتك ونفسك، وفي هذا المقام يكون عند ربه مع الرد لنفسه كما قال عليه الصلاة والسلام إنما أنا بشر مثلكم آكل كما تأكلون وأشرب الخ الحديث، والله ولي المتقين. ثم قال رضي الله عنه: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

(ربنا) أي يا ربنا (آتنا) أي أعطنا (من لدنك) أي من عندك (رحمة) أي كاملة بأن يكون بقرار باطني معك دائما وقرار ظاهري قائما بعبوديتك دائما (وهيئ) أي يسر (لنا من أمرنا) أي من شأننا (رشدا) أي فلاحا وخيرا.

ثم قال رضي الله عنه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي القبضة الجبروتية الأصلية ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ أي أهل الملكوت والأنوار والشهود والأسرار والعيان والاستبصار، ودليل هذا قوله تبارك وتعالى ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾، وقيل المراد بهم أهل الأرواح، ولا يوصل بين هذين القولين إلا من له ذوق سليم ﴿يُصَلُّونَ﴾ تقدم شرح الصلاة ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي القبضة الجبروتية الفرعية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي الذين حصل لهم الإيمان الحقيقي الذي ينشأ عنه أمنهم من شهودهم هذه الأغيار والألوان والظواهر والأكوان لفنائهم عن شهودها وشهود أنفسهم وحسهم بشهود ربّهم وحسهم ومعبودهم إذا كانت لكم قوة ونصرة فأقررتم بهذه الحِكم والأنوار والشرائع والأقمار ﴿صَلُّوا۟﴾ أي أكثروا الصلاة ﴿عَلَيْهِ﴾ عليه الصلاة والسلام ﴿وَسَلِّمُوا۟﴾ أي بهذا ﴿تَسْلِيمًا﴾ أي تأمينا، والمراد قوموا بوظائف العبودية وآداب الربوبية على قدر ما تستطيعون.

وفي ابتدائه رضي الله عنه بالصلاة عليه، عليه الصلاة والسلام، واختتامه بها، إشارة إلى أن بداية السير إلى الله تبارك وتعالى إنما هي بالشرائع والأنوار والحِكم والأقمار، ونهايته أي بعد الفناء والوصول والعيان والاضمحلال والشهود والاستبصار والاستكمال وإلا سَبحا وإنما هي إليها أيضا.

انتهى ما مَنَّ الله به تبارك وتعالى وتكرم، وما منح من إلهام وتنعم، فالحمد لله الكبير المتعال، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين

والمرسلين وإمام المرسلين، ووقع الفراغ من تخريجه من المبيضة في اليوم السادس والعشرين من رمضان سنة ستين ومائتين وألف، والحمد لله رب العالمين.

فقد كتب بعون الله وحسن توفيقه الجميل هذا الكتاب السيد الفقيه محمد بن أحمد بن أحمد المهدي اخْرِيخَار الملقب بَازْوِيذَارْ[1] بخطه 26 جمادى الأولى عام 1423 هـ موافق 6 غشت 2002م، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً أجمعين آمين.

---

(1) (قوله "المُلقَّب بَازْوِيذارْ"، أي نسبة إلى قرية ازْيَاذَرْ التي تقع فوق قرية شُوِيخِينْ التي هي مقر الزاوية الخلنجية بناحية مدينة تطوان).

الفقيه سيدي محمد بن أحمد الملَقَّب ازْوِيذارْ هو إمام الزاوية الخلنجية.

ترجمة سيدي محمد بدر الدين الحسني الحمومي

قال سيدي محمد بن جعفر الكتاني في كتابه "سلوة الأنفاس":

(العلامة الشريف سيدي بدر الدين بن الشاذلي الحمومي.

الشريف الفقيه الأجل، العالِم العلّامة الأفضل، الزاهد الورع البركة الأواه، الخاشع الخاضع المتواضع لِمولاه، أبو عبد الله سيدي محمد، المدعو بدر الدين، ابن الشاذلي بن أحمد بن الحسين، المدعو ابن الحسن الحمومي.

كان رحمه الله عالِماً عاملاً، زكياً فاضلاً، خاشعاً خاضعاً، ذاكراً لربه متواضعاً، لم ير قط إلا ذاكراً أو تالياً، أو مدرساً أو مصلياً. وكان مجاب الدعوة زكي الأخلاق، عاملاً بما يرضي الخلاق، منقبضاً عن السلطان وذويه، تاركاً للكلام فيما لا يعنيه... وقد سمعت سيدنا الوالد يحكي أن الوزير الأعظم في وقته، كانت له وليمة وأتى إليه بنفسه يدعوه لَها، فامتنع ولَم يذهب إليه.

أخذ رحمه الله عن جماعة من الشيوخ، كالشيخ سيدي التاودي ابن سودة المري، والشيخ سيدي عبد القادر ابن شقرون، والعلامة سيدي محمد الرهوني.

وأخذ عنه هو وانتفع به جماعة من علماء عصره وغيرهم: كشيخ الجماعة سيدي محمد بن عبد الرحمن الفلالي. وقد رأيت بخط تلميذه العلامة أبي عبد الله سيدي محمد الطالب ابن الحاج، في كناش له ما نصه: "الحمد لله، سأل شيخنا الشريف البركة سيدي بدر الدين الحمومي الحسني شيخه العلامة سيدي محمد الرهوني عن نصاب الفضة والذهب: كم من درهم وكم من دينار في النصاب بالسكة السليمانية سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف؟ فأجاب: أما الفضة فأربعة وعشرون مثقالاً، وزنه هو بيده، والذهب ستة وأربعون ديناراً ونصف" هـ. ورأيت مقيداً ما نصه: "الحمد لله، سئل الفقيه العلامة سيدي بدر الدين ما نصه:

أسائل بدر الدين حبّي هل أتى	بغنضرة نص بقطع المجالس
وهل قطعها عون لبدعة جاهل	أجب سائلاً أنت المحلى بنافس

فأجاب رحمه الله:

جرى العرف أيها المحب بما ترى ... بعنصرة فاعلم بترك المجالس

وذاك من التقصير والبدع التي ... فشا ضرها على الفقيه المنافس

وإنّي لا أقوى على قطع بدعة ... كلعب بماء في رحاب المدارس

وإليه رضي الله عنه كان يرجع في وقته في مسائل الديانات وما يرجع إليها، ترد عليه بذلك المسائل الكثيرة، لعلمه وثقته وورعه.

وأخبرت أن رجلاً سأل مرة عن مسألة الفقيه سيدي عليا التسولي، ثم سأل عنها الفقيه سيدي محمد بن عبد الرحمن الفلالي فقال له: "اذهب إلى سيدي بدر الدين واعمل بما قال، ودع ما قاله لك غيره من التسولي وغيره".

وقد ألف رحمه الله تآليف عديدة، منها: شرحه "للشمائل"، وشرحه "للمرشد المعين"، وشرحه "للوظيفة الزروقية" وهو المسمى "بالمنح الذوقية في حل ألفاظ الزروقية"، وتأليف في السكر والآتاي.

وكانت ولادته سنة سبع أو ثمان وسبعين ومائة وألف، وتوفي بعيد نصف ليلة السبت الثامن من المحرم، فاتح سنة ست وستين ومائتين وألف، عما يقرب من التسعين سنة، وأثر فيه الكبر حتى رق عظمه وضعف جسمه، وكانت له جنازة عظيمة، حضرها عامة الناس وخاصتهم، وكسر العامة أعواد نعشه تبركاً، ودفن بحومة البليدة بمسجد بها، وضريحه هناك مشهور، عليه دربوز وكسوة، وهو مزار متبرك به.

ومما قيل في مدحه لبعض المدنيين:

لبدر الدين فضل ليس يخفى ... تضئ به الليالي المدلهمه

يريد الحاسدون ليطفئوه ... ويأبى الله إلا أن يتمه

شرح سيدي محمد بدر الدين الحسني الحمومي رضي الله عنه المتوفى عام 1266هـ ، المسمى "الكواكب المستنيرة في شرح الصلاة المشيشية الشهيرة"

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحمد لله الذي شرح قلوب أوليائه، لِمحبة حبيبه، وأفضل أصفيائه، سيدنا محمد عليه جواهر الحكم، ونوّر قلوبَهم وتنَزّهوا في رياض قدسه، وكساهم بكرامته حتّى تنعّموا بِمشاهدة أنسه، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله المطهرين من جميع العيوب.

وبعد: فيقول العبد الفقير إلَى الله تعالَى، محمد بدر الدين الحسنِي كان الله له حالاً ومآلاً: "طلب منّي من يجب علي إسعافه، ولا يسعنِي خلافه، وهو الشريف الجليل سيدي الحاج أحمد الشاهد، خلد الله مآثره، وأبقى على مر الليالي مفاخره، أن أضع تفسيراً على الصلاة المشيشية، ثم لم يزل يرد الكلام علي، ويقوي الرغبة والتأكيد إلَي، ولما تحققت وده، استحييت أن أرده، وشرعت في ذلك، والله المستعان، وسميتها بالكواكب المستنيرة في شرح الصلاة المشيشية الشهيرة. نسأله أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به كما نفع بأصله، بجاه صفوة الكون، وخيرته وآله.

شرح الألفاظ الواردة في الصلاة المشيشية:

ثم إن خطاب الشيخ في هذه التصلية المباركة يدل على علو مقامه في المعرفة، وعلى صدقه في المحبة، وعلى تمكنه في مقام الوصلة والقربة.

قال الخروبي: ولقد ضمن فيها معارف لطيفة، وأسرار شريفة، تؤذن بعلو قدر الرسول العظيم، وعظيم خصوصيته من المرسلين، صلى الله عليه وسلم، أحسن الشيخ فيها، في اللفظ والمعنَى، وضمن فيها كل مقصود أسنَى، أتى فيها بكل سر عجيب، ومعنًى غريب، فقال: **(اللهم)**، أي يا ألله، وإنّما جعل هذا الاسم العظيم في أول الدعاء لأنه جامع لِمعانِي صفات الله وأسمائه.

قال أبو رجاء العطاردي: في قولك اللهم تسعة وتسعون اسماً من أسماء الله.

قال النضر بن شميل: الميم فيه بِمثابة ميم الجمع، فإذا قلت "أللهم" فكأنك

دعوت الله بأسمائه الحسنَى كلها.

ومعناه أن الميم من علامة الجمع، فزيدت هنا لتشعر أن هذا الاسم اجتمعت فيه أسماء الله كلها، فكأنك قلت: يا ألله الذي له الأسماء الحسنَى، ولأجل هذا فتحت الميم لتكون بإزاء الفتحة في مسلمين، وشددت لتعادل الحرفين في مسلمين.

وقال سيبويه: شددت لتعادل حرف النداء المحذوف، وإنّما حذف لتضمنه معنَى البينونة المعنوية النفسانية، وحذفه يقتضي زوال ذلك.

كان الشيخ حال خطابه بهذه التصلية، حاله حال جمع غائب عن الفرق، وتعويض الميم من الياء يقتضي قوة الْهمة في الطب، والجزم والتعظيم والتفخيم.

(صَلِّ) أي زد نبيك تشريفاً على تشريف، وتعظيماً على تعظيم، وتكريماً على تكريم، وعلى هذا فمعنَى قوله تعالَى: ﴿ صَلُّواْ عَلَيْهِ ﴾ أي اطلبوا له زيادة فِي الرفعة والمكانة.

قال ابن عربِي: "فائدة الصلاة ترجع للمصلي لدلالتها على خلوص النية، وإظهار المحبة وغير ذلك، وللمصلي عليه أيضاً، لأن مواهب الله لا نِهاية لَها".

قال القرطبِي: "إن النبي صلى الله عليه وسلم يزيده الله رفعة وشرفاً بدعاء أمته له، وصلاتهم عليه، وأنه يشفع بذلك".

وقال القشيري: الأمر بالصلاة على النبِي صلى الله عليه وسلم إشارة إلَى أن العبد لا يستغني عن الزيادة من الله في وقت من الأوقات، إذ لا رتبة فوق مرتبته، وقد احتاج إلَى زيادة صلوات الله عليه.

وقيل: إن منفعة الصلاة والسلام راجعة إلينا فقط، فمهما دعا له يتقرب بِهما الداعي إلَى الله، وينفع بِهما نفسه، لا كسائر الأدعية التِي يقصد بِها نفع المدعو له.

وإليه ذهب العز بن عبد السلام والسنوسي، وجمع بينهما بأن الثاني تنبيه على الآداب في القصد، والأول إخبار عن كرم الله تعالَى، وعدم تناهي أفضاله.

وقد استند فِي هذا التوفيق بما ورد عن أبَي بن كعب: (قلت يا رسول الله إنّي أكثر الصلاة، كم أجعل لك من صلاتِي؟ قال: ما شئت. قلت: الربع، قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير لك. قلت: النصف، قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير لك. قلت: أجعل صلاتِي كلها لك، قال: إذاً تكفى همك ويغفر ذنبك).

وأجيب، بأن المنذري وغيره، فسّر الصلاة بالدعاء، أي إنّي أكثر الدعاء، فكم أجعل لك منه صلاة؟ وفيه أن هذا التفسير خلاف ظاهر العبارة. ولو أريد لقيل: وكم أصرف لك من دعائي؟ مثلاً.

ويؤيد ظاهر العبارة ما في العهود للشعراني، فإنه بعد أن ذكر الحديث عن كعب بن عجرة وتفسير المنذري المتقدم، ذكر عن أبي المواهب الشاذلي أنه قال: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، ما معنى قول كعب بن عجرة: فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: أن تُهدي ثوابها إليّ لا إلى نفسك". واستحسنه جماعة من الصوفية.

قال أبو المواهب التونسي: "قال لي المصطفى صلى الله عليه وسلم في مبشرة: أنت تشفع في مائة ألف، قلت: بم نلتُ هذا؟ قال: بإعطائك لي ثواب صلاتك".

وحجّ ابن الموفق حججاً، وأهدى ثوابه للمصطفى زاده الله عزاً وشرفاً، فرآه وقال له: هذه يد لك عندي أكافيك بها يوم القيامة، آخذ بيدك فأدخلك الجنة بغير حساب.

بل منهم من يجعل أعماله كلها هدية له صلى الله عليه وسلم، وهو من باب حسن النية، والتقرب لجنابه الكريم، وليس فيه سوء أدب.

وأما قول سيدي زروق: "ليس التقرب إليه إلا باتباع سنته، وإكرام قرابته، والصلاة عليه، لأنه غني عن أعمالنا". وإني لأرى ذلك سوء أدب، فليس بظاهر. والحديث المتقدم يرى للجواز، والمقصود من هدايا الفقراء إلى الأمراء والعظماء، التقرب بها إليهم، وإجلالهم، لا أنهم محتاجون لما يهدى لهم، والهدية على مقدار مهديها لا على قدر المهدَى له. والأعمال أنفس ما عند المهدي، وهي جهد مقل، فلا محذور في إهدائها مع رؤية قصوره، وعدم أهليتها. نعم إن استعظم ما أهداه كذا فسوء آداب، ويمكن حمل كلام سيدي زروق.

والحاصل أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، من أهم المهمات لوجوه منها:

ما فيها من التوسل إلى الله سبحانه بحبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾. ولا وسيلة إليه أقرب وأعظم من رسوله الأكرم.

ومنها أن الله أمرنا بها، وحضنا عليها تشريفاً له، وتكريماً، وتنويهاً بعلي جلاله وتعظيماً، ووعد من استعملها بحسن المآب، والفوز بجزيل الثواب، فهي من أنجح الأعمال وأرجح الأقوال، وأزكى الأحوال، وأحظى القربات، وأعم البركات، بها يتوصل إلى رضا الرحمن، وتنال السعادة والرضوان، وبها تجاب الدعوات، ويرتقى إلى أعلى الدرجات.

ومنها أنه عليه الصلاة والسلام محبوب عظيم القدر لديه، وقد صلى عليه هو وملائكته، فوجبت محبة المحبوب، والتقرب إلى الله بحبه وتعظيمه.

يـا مـن يريـد القـرب مـن مـولاه   اذكـر حبيبـه ولا تنـساه

ومنها ما فيها من شكر الواسطة في نعم الله علينا، فإنه صلى الله عليه وسلم هو الواسطة في نعم الله علينا إيجاداً وإمداداً في الدنيا والآخرة، كما قال البكري:

مـا أرسـل الرحـمن أو يرسـل   مـن رحمـة تـصعد أو تنـزل

فـي ملكـوت اللـه أو ملكـه   مـن كـل مـا يخـتص أو يـشمل

إلا وطـه المـصطفى عبـده   نبيـه المختـار المرسـل

واسـطة فيهـا وأصـل لهـا   يعلـم هـذا كـل مـن يعقـل

ومنها ما عرف، وجرب من تأثيرها في تنوير القلب، حتى إنّها تكفي عن شيخ التربية، وتقوم مقامه عند فقده، كما عند السنوسي والشيخ زروق.

ومنها ما فيها من سر الاعتدال الجامع لكمال العبد، وتكميله، ولذا كانت المثابرة على الأذكار يحصل الانحراف بها في الأوصاف، وتثير وهجاً وحرارة في الطباع، تخرج عن حد الاعتدال إلى الانحراف.

والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تذهب ذلك الوهج، وتقوي النفوس لأنّها كالماء، حتّى قالوا: "من فسد مزاجه بالمثابرة على ذكر اسم، فإصلاحه بأن يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إثر صلاة الصبح مائة مرة، بأن يقول: اللهم صل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله: صلاة تخرجني من ظلمات الوهم، وتكرمني بنور الفهم، وتوضح لي ما أشكل، إنك تعلم، ولا نعلم، وأنت علام الغيوب".

وثمراتُها ونتائجها كثيرة، عد منها في حدائق الأنوار، ما ينيف على الأربعين.

ومحصلها امتثال أمر الله، وموافقته سبحانه، وموافقة الملائكة، وحصول عشر صلوات من الله على المصلي واحدة.

قال ابن عطاء الله: "ومن صلى عليه مرة واحدة: كفاه هم الدنيا والآخرة".

فكيف بمن صلى عليه عشراً، ورفع عشر درجات، وكتب عشر حسنات، ومحا عشر سيئات، ورجاء إجابة الدعوات.

وقيامها مقام الصدقات، وكونها سبباً للشفاعة، وللغفران، ولكفاية العبد ما أهمه، ولقرب العبد منه عليه الصلاة والسلام، ولقضاء الحوائج ولصلاة الملائكة على المصلي، ولزكاة المصلي وطهارته، ولتبشير العبد بالجنة قبل موته، ولنجاته من أهوال يوم القيامة، ولرده صلى الله عليه وسلم على المصلي عليه، ولتذكر المنسي، وطيب المجلس، ومنع نتنه إذا لم يذكر فيه الله ورسوله، وأن لا تعود على أهله حسرة يوم

القيامة، ولنفي الفقر، ولنفي البخل عن المصلي إذا صلى عليه عند ذكره، وتأتي بصاحبها على طريق الجنة، وتخطئ بتاركها طريقها، وكونها سبباً لإتمام المهم الذي ابتدئ بحمد الله والصلاة على رسوله، وسبباً لفوز العبد بالجواز على الصراط، وسبباً لخروج العبد عن الجفاء بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، ولرحمة الله وللبركة، ولعرض المصلي عليه، وذكره عنده، وفيها انطباع صورته الكريمة في الذهن، وتكسب الحور والقصور، وتعدل عتق الرقاب، وترفع معها كل عبادة من غير انتقاد، بخلاف ما تصحبه الصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم، من العبادات، فلا بد من انتقاد الملائكة بالإخلاص، وعدمه وغير ذلك، والله تعالى أعلم.

(على) سيدنا محمد **(مَنْ)** أي الذي **(منه)** أي لا من غيره. **(انشقت)** أي انكشفت وظهرت للناس.

(الأسرار) أي المعارف الإلهية. والناس أهل إسلام وإيمان وإحسان، وأهل الإحسان أهل المراقبة والمشاهدة، وأصل جميعها العلم المشرق في القلب، المظهر لجميع الحقائق. وما اكتسب الناس ذلك، إلا منه عليه الصلاة والسلام، فمراتب السلوك ثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان. فالأول: مراتب الدين لعامة المؤمنين، والثاني: مدارج القلب لخاصة المؤمنين، والثالث: مدارج الروح لخاصة المقربين. وقد كانت هذه الأسرار التوحيدية قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، بحراً طامساً، وسماء عابساً، فبنوره ظهرت، وكانت الأنوار الإيمانية محجوبة بظلام الكفر، فبسره صلى الله عليه وسلم أشرقت بعدما كانت القلوب غافلة والأرواح جاهلة، فنبّه صلى الله عليه وسلم لِما كانت القلوب عنه غافلة، وعَلَّمَ الأرواحَ ما كانت له جاهلة.

ويحتمل المراد أنه صلى الله عليه وسلم أصل الموجودات، وعنصرها وأساسها، فالأشياء كلها خلقت من نوره، كما في حديث جابر رضي الله عنه، ويحتمل أنه أشار لما تضمنه حديث عمر بن الخطاب الذي صححه الحاكم من قوله تعالى لآدم (لولا محمد ما خلقتُك) وفي حديث آخر: (لولاه ما خلقتُك، ولا خلقت سماء، ولا أرضاً)، وحديث سلمان عند ابن عساكر من قوله تعالى: (ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنْزلتك عندي).

ولذا قال البوصيري:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة مَنْ ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

فهو صلى الله عليه وسلم السبب في إيجاد كل موجود، ويحتمل أنه أشار إلى أن أرواح العلماء والعارفين من النبيين والمرسلين وجميع عباد الله الصالحين، تتلقى العلم

والحكمة والمعارف الربانية والأسرار الملكوتية، من روحه صلى الله عليه وسلم.

فكل ما يرد على القلوب من المنح الإلهية، فمنه، وبواسطته صلى الله عليه وسلم، إذ هو الهادي، والمهدي لكل من اهتدى، وغيره من الهداة نوّابه وفروعه.

ويحتمل أن يكون أشار إلى أن الأسرار صارت به أسراراً، وبيان ذلك أن النفس والقلب والروح والسر أسماء مترادفة لمسمى واحد، وهو اللطيفة الربانية التي كان بها الإنسان إنساناً، لكن ما دام الإنسان في مقام الإسلام تسمى نفساً، فإذا تخلص منه إلى مقام الإيمان سميت قلباً. ثم إذا ارتقى إلى أول مرتبتي الإحسان، وهي المراقبة المشار لها بقوله صلى الله عليه وسلم: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) سميت روحاً. ثم إذا ترقى للمرتبة الثانية منه، وهي المشاهدة المشار إليها بقوله عليه الصلاة والسلام: (أن تعبد الله كأنك تراه)، سُمّي سراً. ولا شك أن هذا الترقي والانتقال لا يتوصل إليه إلا بواسطته صلى الله عليه وسلم، فبه تصير النفوس قلوباً ويتوصل للإيمان، وبه تصير القلوب أرواحاً ويتوصل للمراقبة، وبه تصير الأرواح أسراراً ويتوصل للمشاهدة، فالأسرار على هذا مستعمل في حقيقته العرفية.

ويحتمل أن يكون أشار إلى أنه عليه الصلاة والسلام السبب في أعمال البر الصادرة من العاملين كلها، أي ما هو منها باطن خفي، وما هو منها ظاهر جلي، إذ هو الهادي والمهدي، ولذا كانت أعمال العاملين التي أرشدهم إليها ودلهم عليها، في ميزانه، فأراد بالأسرار ما خفي، وبالأنوار ما ظهر.

ويحتمل أنه أشار إلى أنه عليه الصلاة والسلام مُمِدُّ أهل السماوات وأهل الأرض، فمنه إمدادات أهل الملك الباطن وأهل الملك الظاهر، ولا إشكال في هذا، لأنه واسطة الكل ورسول الجميع.

ويحتمل أنه أشار إلى أنه عليه الصلاة والسلام الممد للخاصة بعلم الباطن، ولعامة العلماء بعلم الظاهر، فهو الواسطة في علم الحقيقة الذي مَنْ خلا منه تفسق، وفي علم الشريعة الذي مَنْ خلا منه تزندق.

وإنّما لم نقتصر على أحد هذه الاحتمالات، لأن كلام الأولياء نفعنا الله بهم منطوي على أسرار مصونة، وجواهر مكنونة، لا يكشفها إلا هم، ولا تتبين حقائقها إلا بالتلقي عنهم.

ومنه عليه الصلاة والسلام **(انفلقت)** من انفلق، وهو شق الشيء وإبانة بعضه من بعض، أي استبانت وابتهجت **(الأنوار)** الإيمانية والمعارف الربانية.

والنور في الأصل كيفية تدركها الباصرة أولا، وبواسطتها، تبصر سائر المبصرات،

كالكيفية الفائضة عن النيرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لها. ويطلق على الوجود والروح والحياة، وعلى العلوم والمعارف التي بها إدراك السعادة وأسبابها، وما يتصل بذلك. وهذه المعارف كيفية عقلية تدرك بالبصيرة التي هي القوة العاقلة؛ فالنور إذا أشرق في القلب تصورت الأمور حسنها وسيئها، وكل على ما هو عليه، ووقع لذلك ظل في الصدر، هي صورة الأمور، فيأتي حسنها ويجتنب سيئها، وهو العلم النافع من نور القلب، خرجت تلك المعالِم إلى الصدر، وهي علامات الهدى، ولقوة الشبه بين النور الذي هو كيفية حسية تدرك بالبصر وبين العلوم والمعارف التي هي كيفية عقلية تدرك بالبصيرة. ولقوة الشبه مع ذلك بين البصر والبصيرة كان إطلاق النور على هذه العلوم والمعارف شائعاً مستغنًى فيه عن التشبيه، لقوة الشبه الذي صار به كالجنس الواحد علة سبيل الاستعارة التصريحية.

واعلم أن لعالَم المُلْك المسمى بالشهادة، وهو ما يدرك بالحس أنوار ثلاثة ظاهرة: نور النجم، والقمر، والشمس.

ولِعالَم المَلَكُوت المسمى بالغيب، وهو ما يدرك بِمبادئ العقل أنوار ثلاثة باطنة، فأنوار الملك تشاهد بالبصر، وأنوار الملكوت تشاهد بالبصيرة وهي: نور المعرفة، ونور الفهم ونور العلم. وبطلوع قمر الفهم في أفق التوحيد يشاهد قرب الحق، وبطلوع شمس المعرفة في أفق التفريد يقوى اليقين، ويلوح وجه المشاهدة. وأول نور يلد الصدر نور الإسلام، فإذا انشرح القلب به اتقدت فيه نور الإيمان، فإذا تقوى في القلب صار شهوداً وقوة إيقان، فإذا تقوى صار فراسة، فإن تقوى صار مشاهدة ثم صار معرفة.

هذا والمقامات: إسلام، وإيمان، وإحسان وله مرتبتان: مراقبة ومشاهدة. وهذه الأنوار كانت مطموسة بظلام الجهل وسحاب الشرك، فأكرم الله الخلق بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور، بعدما أشرفوا على الهلاك والثبور.

ولما كانت الأنوار إتماماً للأسرار، وهي أظهر منها، ناسبها الانفلاق وجعلت لمقام الخاصة، وهم أهل المراقبة، ولاختصاص خاصة الخاصة بالمقام الثالث، وهم أهل المشاهدة، ناسبه الأسرار وانشقاقها.

فكلامُ الشيخ من باب التدلّي، بدأ بمقام خاصة الخاصة، ثم تدلّى إلى مقام الخاصة.

ثم إن أريد انشقاق الأسرار وانفلاق الأنوار للسالك فالوَاوُ في كلامه لعطف السابق على اللاحق، وإن أريد للجذب فهي لعطف اللاحق، وإن أريد الأسرار للمجذوب والأنوار للسالك فهي لعطف المصاحب.

(وفيه) عليه الصلاة والسلام لا في غيره **(ارتقت)** من الارتقاء بمعنى الارتفاع. ولكون عقله عليه الصلاة والسلام أكمل العقول وأوسعها، اختص بأن ارتفعت فيه **(الحقائق)** أي حقائق جميع العلوم الظاهرة والباطنة، حتى عرفها كلها على ما هي عليه، أو مواهب الله الفتحية التي ترد على القلوب من خزائن الغيوب، ويعبر عنها في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام بالوحي، وفي حق الأولياء بالإلهام، فهي الحقائق العالية.

والمراد بارتقائها تلك العلوم فيه، كمالُ تحقيقها لديه، فإنه لا تحقيق يوازي تحقيقه عليه الصلاة والسلام، لاطلاعه على كنه دقائق العلوم وأسرارها، لأن علومه الوهبية عن مشاهدة وعيان، لا بالتعلم واكتساب العرفان.

ويحتمل أن يكون معنى ارتقائها فيه ملازمة النمو لها، والزيادة فيها، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾، ولم يزل عليه الصلاة والسلام يترقى في المعارف التي لا تتناهى، وكلما انتقل من مقام إلى أعلى منه، عدّ الكون في السابق قصوراً، فاستغفر.

وعلى كل حال، فقد شبهت العلوم بالشموس والأقمار، وطويت أركان التشبيه غير المشبه استعارة بالكناية، ودل على ذلك بذكر الارتقاء تخييلاً، وشبه عليه الصلاة والسلام بالسماء في المحلية لشروق الأنوار كناية أيضاً، ودل عليه بفي المناسبة للمشبه به.

وفيه **(تنزلتْ علوم آدم)** وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خصّ بعلم المسميات، وكان لآدم علم الأسماء كما قال البوصيري:

لك ذات العلوم من عالم الغيب ومنها لآدم الأسماءُ

ولما كانت الحقائق أشرف، وصفت بالارتقاء، ووصفت الأسماء بالتنزل النسبي المقابل لارتقاء الحقائق. وإلا فعلم المفاهيم عالي شريف، وناهيك بعلم اقتضى سجود الملائكة للمتصف به.

وبعبارة أخرى: فالذي كان لسيدنا آدم الأشياء التي عرضت عليه علم الأسماء باعتبار دلالتها، وذلك العلم المعبر عنه بعلم المفاهيم. ولسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم علم الحقائق، وفي ضمنه قطعاً علم المفاهيم فعرفها من الوجه الأعم، والأخص، وبالثاني اختص عن نبينا آدم عليه السلام.

ويحتمل أن علوم آدم هي معرفته بأسماء الأشياء، ومسمياتها وخواصها، وأصول العلم، وقوانين الصناعات، وتفاصيل آلاتها، وكيفية استعمالها. ونبينا صلى الله عليه

وسلم اختص عنه كغيره من الأنبياء، وزاد باتساع علمه، فأحاط بعلوم الأولين والآخرين، وعلم ما كان وما يكون إلى يوم الدين.

ففي شرح البردة للزركشي: وعن ابن عباس أنه لما ولد قال في أذن رضوان خازن الجنان: "أبشر، فما بقي لنبي علم إلا وقد أعطيته، فأنت أكثرهم علماً وأشجعهم قلباً".

وعلى هذا فمعنى تنزلت نزّلها الله إليه، فليس التنزل في مقابلة الارتقاء. ولا... مفهوم لآدم وإنّما أضيف العلوم التي نزلها الله إليه، لخصوص لآدم لبيان أنه صلى الله عليه وسلم تنزل فيه العلم المعجز لكافة الخلق. فإن علوم آدم أعجزت بها الملائكة حتّى قالوا: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾، فأضيفت له في مدحه صلى الله عليه وسلم إشارة لهذه النكتة، ويعلم حينئذ من اللفظ تنزل علوم غيره فيه، من كونه هو الأب الأكبر ومن تقادم عصره ومع ذلك تنزلت علومه فيه، فأحرى غيره ممن يليه، وعبر بجمع الكثرة لمناسبته للمقام، ومطابقته للواقع.

(فاعجز) صلى الله عليه وسلم **(الخلائق)** لارتقاء الحقائق فيه، وتنزل علوم آدم فيه، وكونه جمع علم الأولين والآخرين، وأتى بما لم يأت أحد بمثله، وأخبر بوقوع القرون السابقة وقصص الأمم الماضية، وبالمغيبات الآتية، مع أميته، وعدم قراءته، وكتابته كما قال القائل:

وإذا سألت عن العلوم فإنه ... لمدينة مفتوحة الأبواب

وقال غيره:

فإن تكن فاتح الخيرات طراً ... . قد ختمت المرسلين

علوم الآخرين علينا قصّت ... وقد أوتيت علم الأولين

(وله) اللام إما للتعليل، أو بمعنى عن، أو في الدالة على الظرفية، أي وعنه أو ولأجله أو فيه. **(تضاءلت)** أي تصاغرت وتقاصرت. **(الفهوم)** أي عقول الفهوم، أي لأجله تصاغرت الفهوم خضوعاً وإذعاناً، واعترفت بالقصور. أو عن إدراك حقيقته وكنه جلاله وجماله وعقله وعلومه وحلمه وخوفه ورجائه وتواضعه وعبوديته وشفقته ورحمته وجوده الحسّي والمعنوي، تقاصرت العقول، أو فيه خفيت ودقت الفهوم، وشبّهه صلى الله عليه وسلم ببحر عظيم سبحت فيه الفهوم فخفيت وغابت.

ولذا قال عليه الصلاة والسلام: (يا أبا بكر لا يعرفني حقيقة غير ربّي).

وروي عن أويس القرني رضي الله عنه أنه قال لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأيتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ظله. قالوا: ولا ابن أبي قحافة؟

فقال: ولا ابن أبي قحافة.

ولما ذكر هذا عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي نفعنا الله به، قال: صدق أويس رضي الله عنه، إن علياً رضي الله عنه كان مقامه إدراك نفْس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعثمان رضي الله عنه إدراك قلبه، وعمر رضي الله عنه إدراك عقله، وأبو بكر رضي الله عنه إدراك روحه، وحقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم السرُّ المكنون لا يطلع عليه إلا الله تعالَى.

(فلم يدركه منا سابق) في وجوده، **(ولا لاحق)** على سوابق شهوده.

قال الخروبي: حقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، سر لطيف من أسرار الحق تعالَى، لا يطلع عليه في هذه الدار سوى الرب جل جلاله، ولا يكشفه أحد غيره تعالَى، لا نبي مرسل، ولا ملَك مقرَّب، إذ حقيقته أحدية من السر المكنون، والأمر المصون الذي انفرد به تعالَى.

وما أدرك المؤمنون إلا ظاهر صورته المحمدية، وهو الذي عبّر عنه أويس القرني بالظل. ثم إن المؤمنين متفاوتون في إدراكهم، فكل أدرك من ذلك بحسب قربه منه.

وأعظم الناس إدراكاً، الخلفاء الأربعة، لأنهم أشد الناس قرباً منه صلى الله عليه وسلم، ولكن لَما اختلفت مقاماتُهم اختلف إدراكهم، فكل ذي مقام أدرك منه صلى الله عليه وسلم حقيقةً توافق مقامه، فعَلِي رضي الله عنه لما غلب عليه علمُ التشريع، وكان حاله الانبساط بِها كان حاله يقتضي إدراك نفس من ورث العلوم منه، وهو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الانبساط من شأن النفس، ولِهذا قيل: "لو حاولت النفس كل المحاولة على أن تصمت لما صمتت". وعثمان رضي الله عنه لما كان حاله التفكر في العلوم، كان حاله يقتضي إدراك قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن القلب من شأنه التفكر. وعمر رضي الله عنه لما كان شأنه التدبر في العلوم كان مقتضى حاله إدراك عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن من شأن العقل التدبر. وأبو بكر رضي الله عنه لما كان حاله الغالب علمُ الحقائق، وكان حاله الانقباض عليها، كان حاله يقتضي إدراك روح رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الروح من شأنِها الانقباض على العلوم الحقيقية، ولِهذا قيل: "إن الروح من شأنِها الصمت، فلو حاولت كل المحاولة على أن تنطق لما نطقت".

(فرياض) جمع روض أو روضة وهو مستنقع الماء، والموضع المعجب بالزهر والخضرة. وعالَم الْمُلْك هو ما يدرك بالحس والوهم، وعالَم الملكوت هو ما يدرك بالعقل والفهم.

وعالَم الجبروت هو ما من شأنه أن يدرك بالحس وما معه، أو بالعقل وما معه، لكن لا في الحال، بل ثاني حال، كما في الدنيا مما لم نصل إليه، وهما ولا فهما كتعلق الجسم بالروح، وهي به، وما هو في الجنة، إذ هو ما لا عين رأت ولا أذن سَمعت ولا خطر على قلب بشر، وستراه العيون وتسمعه الآذان وتعرفه القلوب.

ويقال: "الملك ما ظهر، والملكوت ما بطن، والجبروت جامع بينهما" كالإنسان ظاهره مُلْك، وباطنه ملكوت، وحيث جمع بينهما كان جبروتياً فيدرك بالبصر والبصيرة. وبعبارة عالَم الملك حضرة الأجسام، وهي مظهر الأفعال المشار إلَى بعضها بقوله تعالَى: ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ أي وتغني من تشاء وتفقر من تشاء، وتقوي من تشاء وتضعف من تشاء، وتقدر من تشاء وتعجز من تشاء، وتهدي من تشاء وتضل من تشاء، وتعلم من تشاء وتجهل من تشاء، وتسهل الأمور على من تشاء، وتعسرها على من تشاء، إلَى غير ذلك من التصرفات التي لا يعلمها إلا أنت.

فمظهر هذه الأمور حضرة للأجسام، وكلما كثرت الأجسام في محل كثر ظهور التصرفات فيه، ومن ثم اختار الأئمة الكبار سكنَى الْمُدن والأمصار لما فيها من أنواع الاعتبار والاستبصار.

وعالَم الملكوت حضرة الأرواح، وهي مظهر الصفات. وعالَم الجبروت حضرة الأسرار وهي مظهر أسرار الذات. فعلى هذا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو روح العوالِم الثلاثة، إذ به أشرقت واستنارت، فإنه مرآة التجلي، الذات للأسرار، والصفات للأرواح، والأفعال للأجسام، أي لطرق الإدراك منها التي هي السمع والبصر وما معهما، إذ هو المعرف بها، فسمعتها منه الآذان حيث أخبر بأنه تعالَى المنفرد بالتأثير، وبين أفعاله في الموت وما بعده والحشر والْميعاد وفي الأمم الماضية، وبلغ السامع لغيره، فسمعت منه الآذان بالمباشرة أو الواسطة، وأدت ذلك للقلوب فاعتقدته، وبه أبصرت الأبصار كثيراً مما هو خارق للعادة، وبلغ ذلك المشاهدون له لغيرهم، فشوهد ذلك فيه بالمباشرة أو الواسطة، ثم وصل للقلوب فاعتقدته، فبه شاهدت القلوب الأفعال من الله.

وبه تحلت الأرواح بشهود صفات الله، وبه شاهدت الأسرار الذات العلية.

فعالَم الملك و**(الملكوت بزهر)** وهو نور النبات واحدته زهرة، مثل تمر وتمرة. قالوا: ولا يسمَّى الزهر حتَّى يفتح.

(جماله) صلى الله عليه وسلم، أي حسنه الكثير، وهو كما للراغب ضربان: أحدهما جمال يحسن الإنسان في نفسه أو بدنه أو فعله، والثاني ما يصل منه إلَى

غيره. وقد اجتمعا فيه صلى الله عليه وسلم.

(مونقة) أي معجبة. يقال: أنق الشيء أنقا، من باب فرح فرحاً، أي راع حسنه وأعجب. ومعنى كلامه أن عالَم الملكوت متزين ومستنير بجمال النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لولاه ما وجد، وفيه من أنواع الجمال والتزينات ما لا يعلمه إلا الله، وكلها مقتبسة منه صلى الله عليه وسلم، لأن فيه النيرين: الشمس والقمر، وهما من نوره، وفيه النجوم وهي من نوره، وفيه البيت المعمور وهو من نوره، وسدرة المنتهى وقد قال في الحديث: (فغشيها من أمر الله ما غشيها، فتغيرتْ وصارتْ زمرداً أو ياقوتاً، فما أحد يستطيع أن ينعتها من شدة حسنها)، وفيه العرش والكرسي والقلم واللوح هي من نوره.

قال الغزالي في الإحياء: "للعرش ثمانون ألفاً من السرادقات، ولكل سرادق ثمانون ألف شرافة، وعلى كل شرافة ثمانون ألف قمر يهلل الله ويسبح ويقدسه، لو برز منها قمر واحد إلى الدنيا لعُبد من دون الله".

وفيه الملائكة وهم جواهر نورانية بسيطة قدسية مقدسة عن ظلمات الشهوات، طعامهم التسبيح، وشرابهم التقديس، لأنسهم بالله وبذكره، وفرحهم به وبطاعته، ومقرهم حضرة قربه ومشاهدته، وهم مخلوقون من نوره. وفيه الجنة وناهيك بما فيها من أنواع الجمال من القباب، والقصور من اللؤلؤ والياقوت والزمرد، وغير ذلك. والأنهار من العسل والخمر وغيرها، وأنواع اللباس والطعام، والحور العين والولدان، والأكواب والأباريق والأرائك، والعبقري، والرفارف. وكل ذلك من نوره.

شبه الملكوت المزهر به بالمتنزهات، أي الأماكن المرتفعة المتسعة، ودل على ذلك بإضافة الرياض إليه على حد أظفار المنية، وشبه جماله صلى الله عليه وسلم بغروس تلك الرياض، ودل على ذلك بإضافة الزهر له.

(وحياض) أصله حوض، قلبت الواو ياء للكسرة قبلها، وهو جمع حوض وهو ما يجمع فيه الماء ليعرف للسقي كالصهريج.

(الجبروت) وهو حضرة الأسرار، وهو مظهر أسرار الذات.

(بفيض أنواره متدفقة) ، أي منصبة انصباباً بشدة.

ومعنى كلامه أن حضرة الأسرار المعبر عنها بحياض الجبروت، امتلأت بما أفاض عليها من أنواره صلى الله عليه وسلم حتّى تدفقت من كثرة فيضان الأنوار المحمدية، فشبه الجبروت المنير به صلى الله عليه وسلم ببحر على حافتيه رياض تسقى من حياضه ودل على ذلك بإضافة الحياض إليه، كما شبهت أنواره صلى الله عليه وسلم بالماء الساقي، ودل على ذلك بإضافة الفيض لها.

فالجبروت بحر، وأنوار النبي صلى الله عليه وسلم ماء، والحياض الساقية تستمد منه، فظهر من هذا أن رياض الملكوت الذي هو حضرة أرواح العارفين تسقى من حياض الجبروت الذي هو حضرة أسرارهم، ووجهه أن شهود الصفات الذي مظهره عالَم الملكوت، إنّما يكمل بشهود الذات التي مظهره عالَم الجبروت، إذ به يحصل الفناء الأكبر، ويقوى القرب.

فإن مراتب الفناء ثلاثة:

فناء في الأفعال: بأن يشهد أن لا فاعل إلا الله.

وفناء في الصفات: بأن يشهد أن لا عالِم إلا الله، ولا قادر إلا الله.

وفناء في الذات: بأن لا يشهد موجوداً إلا الله.

ثُم هذا الكلام كالدليل لما قبله، أي إذا كانت رياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، فكيف لا تتصاغر الفهوم عنه، وتقصر عن الإحاطة به؟ وذلك أن العقول قاصرة عن الإحاطة بالملكوت والجبروت، فإذا كانت أنواره صلى الله عليه وسلم هي المبثوثة هنالك، وهي المشرقة المترجمة لذينِك العالَمين، وإنّما مثلنا بما اتضح غاية الاتضاح عجزها عن إدراكه، كما قال البوصيري:

وكيف يدرك فِي الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

ولما مدح الشيخ النبِيَّ صلى الله عليه وسلم، وأثنى عليه باستمداد عالَمي الملكوت والجبروت من زهر جماله وفيض أنواره، زاد في التبجيل والتعظيم، وترقى من مقام التخصيص إلى مقام التعميم، فقال:

(ولا شيء) من الحوادث، فلا شيء يختص بالإنسان الكامل، بل ولا بِمطلق الناس وبل ولا بِمطلق الجسم، فيعم الخلائق جنها وإنسها، وملكها، حيها وجمادها، سفليها وعلويها، محسوسها ومعقولها.

(إلا وهو به منوط) أي متعلق ومرتبط من كل جهة من حيث الوجود، ومن حيث الاستمداد. قال في الحِكَم: "نعمتان ما خلا موجود عنهما، ولا بد لكل مكون منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد".

وهو صلى الله عليه وسلم الواسطة فيهما، إذ لولا سبقية وجوده ما وجد موجود، ولولا وجود نوره في ضمائر الكون إلَى أن برز، لتهدمت دعائم الوجود، فسبحان مَنْ أهَّلَه لذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

فلا شيء إلا وهو به منوط، وبسره الساري محوط، فلا غنًى لأحد عن واسطته، **(إذ لولا)** وجود **(الواسطة)** وهو المصطفى زاده الله عزاً وشرفاً في كل صعود وهبوط

(لذهب) أي لفقد ولم يوجد باعتبار واسطته في نعمة الإيجاد، ولهلك وتلاشى بعد الوجود باعتبار واسطته في نعمة الإمداد.

وقوله **(كما قيل)** خبر لمبتدأ محذوف، أي وذلك كما قيل، أي كما ثبت وشاع أنه صلى الله عليه وسلم سبب الوجود، وإنه لولاه لم تكن الأكوان. وقول البوصيري:

وكيف تدعو إلَى الدنيا ضرورة مَنْ لولاه لَم تخرج الدنيا من العدم

سبقه إليه ابن الفارض حيث قال:

لولاك يا أحمد المحمود ما طلعت شمس ولَم تخرج الدنيا من العدم

وقوله **(الموسوط)** فاعل ذهب. وقوله (كما قيل) جملة معترضة بين الفعل والفاعل. والمراد بالموسوط كل موجود، ففي الحديث: (لولاه ما خلقت السماوات ولا الأرض، ولا الطول ولا العرض، ولا وضع ثواب، ولا عقاب، ولا خلقت جنة ولا ناراً، ولا شمساً ولا قمراً).

(صلاةً) اسم مصدر نوعي، لأنه موصوف بجملة **(تليق بك)**.

بين به أنه ليس مطلوبه مطلق الصلاة، بل صلاة تناسب عظيم مقداره عندك، وتناسب عظمتك وجلالك، صادرة **(منك)** إليك، أي لا على يد أحد من خلقك. فإن الملِك إذا أتحف أحد كبراء دولته، ووجه إليه هدايا، مع غلمانه وخدامه، ثم أعطاه هوية مخصوصة بيده، لم يعطه إلا أنفس وأطيب وأعظم مما بعث به على أيدي الوسائط. واستحضر هنا قوله:"على من منه انشقت الأسرار" الخ، فإنه بعد أن وصف المصلي عليه بتلك الصفات العظيمة، بيّن أن مطلوبه الصلاة التِي تليق بِمعاملة الله معه، كأنه قال الموصوف بتلك الصفات... إنه أعظم أصفيائك، وأقرب خواص أهل قربك، وأولاهم بعنايتك، وفضلك، صلّ عليه صلاة تليق بإحسانك إليه، وإنعامك عليه، وما ظنك بصلاة تليق بالله مع مَنْ منه انشقت الأسرار.

والحاصل أن الإحسان من الجليل العظيم، بجليل عظيم عنده لا يكون إلا جليلا عظيماً.

اللهم اجعل الصلاة اللائقة بك، تتوارد بتوارد الخلق الجديد، والفيض المديد عليه، وسلم سلاماً يجاري هذه الصلاة فيضه، وفضله **(كما هو أهله)**. الكاف للتعليل، أي لأجل الأمر العظيم الذي هو أهله ومستحقه، وهو صلى الله عليه وسلم أهل لأنْ يعامَل بكل أمر عظيم من الكمالات.

وفي الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال جزى الله عنا محمداً ما هو أهله، أتعب سبعين كاتباً ألْف صباح) وفي

رواية عند ابن ثابت: (ألفي صباح) بالتثنية.

وكان من حق الشيخ أن يزيد: وعلى آله شموس العلا وأصحابه والتابعين ومن تلا.

(اللهم إنه) صلى الله عليه وسلم **(سرك)**: هذا بيان لشيء مما أهله الله له مما اطلع عليه الشيخ رضي الله عنه.

ومن آداب من طلب لِمَلك من الملوك، أن يعامل وزيره، ويخلع عليه خلعه السنية أن يذكر محبته في الملك، وخدمته له، ومناصحته تأكيداً للطلب واعتناء بشأنه، وإن كان الملك عالماً بذلك، وللطالب منفعة في ذلك وحظ في الطلب لنفسه، بإظهار محبته لمحبوب الملك، وخدمته لخادمه ولكونه مرآة، ومظهراً لصفات الجمال، والجلال على جهة التعريف سمي سر الله، وسر الأسرار، وكنز الأسرار، ومعدن الأسرار الأكمل، والسر الأنور، والسر الأكمل، والسر الأبهى، والسر المحيط، وحضرة الأسرار **(الجامع)** لكل الأسرار.

ونورك الواسع لِجميع الأنوار، وبعبارة جامع لما افترق في غيره من المظاهر والمجالي، إذ هم مستمدون منه، وآخذون عنه، فكل تجل وظهور في النبيين والمرسلين والصديقين والعارفين، منه أخذ، وبواسطته كان، وهو صلى الله عليه وسلم دليلك **(الدال)** بك **(عليك)**، يربّي بأقواله وأفعاله وأفعاله، وهو قائد ركب عوالمك إليك، فهو صلى الله عليه وسلم الهادي من الضلالة، والمنقذ من الجهالة، ورد الخلق إلَى بابه الكريم، ونَهج بِهم الصراط المستقيم، وجميع الدعاة نوابه وخلفاؤه.

وهو أيضاً صلى الله عليه وسلم **(حجابك)** الذي حجبت به خلقك، فهو صلى الله عليه وسلم حجاب رحمة بين العبد وهيبة ربه، ولولا واسطته لم يستطع العبد تلقي أمر الله ونَهيه من واسطة الملَك، فأدرى من خطاب الله.

فَمعنَى كونه حجاباً، أنه حجب الخلق عن الاضمحلال والتلاشي والهلاك، أو حجب المؤمنين عن العذاب، بإرشادهم ودعائهم إلَى الإيمان.

ولما كان الأنبياء والمرسلون حجباً للخلق مشاركون لنبينا صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى، ولكنه أعظمهم في ذلك، وأبلغهم فيه، إذ عنه أخذوه، ومنه اكتسبوه، قال:

(الأعظم) فوصفه بالأعظمية، **(القائم لك)** أي لأجلك تعظيماً وإجلالاً. وقوله: **(بين يديك)** كناية عن القرب الشديد الذي اختص به عن غيره صلى الله عليه وسلم، فلا يصل واصل إلا إلَى حضرته الجامعة، ولا يهتدي حائر إلا بأنواره اللامعة.

(اللهم) هي كلمة توجه للمطلوب، وابتهال الحصول المرغوب، بالاسم الذي هو أعرف المعارف، وبه تنال المنح واللطائف.

(الحقني بنسبه) أي الديني، والمراد دوامه، فالمعنى: أدمْ لِحاقي به، وأبقه مستمراً أو كماله أو تمامه، إذ لا يقطع أحد بحصوله لنفسه. وأيضاً لا نِهاية للترقي فيه. ويحتمل أن يريد النسب الطيني، إذ لا يقطع به أحد لنفسه في نفس الأمر، مع أن شرطه الوفاة على الإسلام، وهو غيب، كما هو المعتقد في كل فضيلة وعد عليها في العقبى مما شرطه الإيمان.

ومن تحقق قبضة الحق، لا يسكن لوعد، فيتأكد على كل منتسب إليه صلى الله عليه وسلم، أن لا يركن للحاصل في الحال، بل يعتبر الأمر بتمامه وخاتمته من الدواهي، خصوصاً خوف خاتمة، وقد خاف منها فحول العلم والعمل.

ويحتمل أن يريدهما معاً، وهذا أفيد من جمع بين النسب الطيني والكمال الديني، فقد حاز الحظ الأوفر، والمقام الأكبر.

(وحققني بحسبه) أي بالتخلق بأخلاقه، أي اجعلني من المتقدمين به، المتبعين لسنته في أقواله وأفعاله، إذ بذلك يحصل كمال الوصول، ويثبت مقام المحبوبية الذي هو غاية الأماني، ومنتهى السؤال. وقد استجاب الله دعاء الشيخ رضي الله عنه.

(وعرفني إياه معرفة) أشهد بِها محياه، وأصير بِها مجلاه، كما يحبه ويرضاه.

وبعبارة معرفة تثمر لِي ثمرة، وتنتج لِي نتيجة، فإن المعرفة التي لا ثمرة ولا نتيجة لَها، ليست معرفة على الحقيقة. وبيَّن نتيجة المعرفة المطلوبة بِما يفيد كمالَها بقوله:

(اسلم بها من) ورود **(موارد الجهل)** أي من ورود مواقع الجهل بعوارفه، والمعرفة التِي لا جهل يضر معها، لا تكون إلا مع القرب والتقريب، وهي في حقه صلى الله عليه وسلم: اطلاع على الأسرار المكنونة، والأنوار المصونة.

والموارد جمع مورد، وهو مَحل الورود والسقي.

وشبه الجهل بالماء الضار، ودل على ذلك بإثبات الورود، واستفيد كونه ضاراً من لفظ الجهل، وعمّم فيه ليشمل بسيطه ومركّبه، وعمّم في الموارد المضافة له ليسلم من جميعها، أي أسلم من جميع موارد الجهل بك أو برسولك صلى الله عليه وسلم على ما يليق بحال العبد، فقد سأل المعرفة التامة المتضمنة للعلم.

(واكرع) أي أشرب بلا واسطة ولا آنية، كما يفعله المتعطش اللهفان، الشائق إلَى الورود، الراغب في الازدياد لكونه ظمآن. **(بها)** أي بتلك المعرفة الموصوفة **(من موارد الفضل)** وهي مشارب أرواح المقربين، وموارد أسرارهم التِي لا تدرك إلا بالْمنحة الإلَهية والعناية الربانية.

فقوله (من موارد الفضل) أي العلم به، وعبّر عن العلم به بالفضل لتمحضه أي

الفضل في الوهبِي، وأصالته في الكسب.

ويحتمل أن يراد بالجهل من موارد الجهل بالله، ومن موارد الفضل أي العلم بالله، لأن معرفته صلى الله عليه وسلم سبب في معرفة الله تعالَى.

ويحتمل أن يرادا معاً، وهو أفيد.

ويحتمل أن يكون أشار بالصفة الأولَى إلَى أنه سأل المعرفة التامة التِي لا جهل يضر معها. وأشار بقوله (أكرع بِها من موارد الفضل) أي إلَى الكرم والنوال والعطاء إلَى مقام الرضا والمحبوبية.

وشبه أيضاً العلم بالماء النافع، ودل على ذلك بالموارد، والنفع ليستفاد من لفظ الفضل.

ثم إن ما سلكه الشيخ نفعنا الله به، وطلبه من أجل ما يطلب، وأسنى ما يسأل ويرغب، فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو المرآة الكبرى للتجلي، والواسطة العظمى في التعريف للعالَم العُلْوي والسفلي، فمعرفته صلى الله عليه وسلم موصلة إلَى معرفة الله تعالَى، إذ هو باب الله الأعظم، ومفتاحه الأفخم، قال البكري:

وأنت باب الله أي امرئ أتاه من غيرك لا يدخل

ولذا قدم سؤال معرفته صلى الله عليه وسلم على قوله: (وزُجَّ بِي في بحار الأحدية) المتضمن معرفته تعالَى.

قال الشعرانِي: "ما في الوجود من جعل الله له الحل والربط دنيا وآخرة مثل النبِي صلى الله عليه وسلم".

وأيضاً فإن معرفته صلى الله عليه وسلم تثمر مقام المحبوبية عند الله؛ وذلك أن محبة الله للعبد على حسب محبة العبد له صلى الله عليه وسلم ومتابعته إياه، ومحبة العبد على قدر معرفته به واطلاعه على جماله وإحسانه، إذ لا سبب للمحبة إلا الجمال والإحسان، ولا شك أن لا جمال يشبه جماله ولا إحسان يماثل إحسانه وأفضاله، إذ كل نعمة واصلة إلَى كل منعم عليه أيا كان؛ فهي على يديه بواسطته صلى الله عليه وسلم. فلأجل ذلك طلب الشيخ معرفته، أي دوامها والترقي فيها، فمطلوبه المعرفة الخاصة التِي يتفضل الله بِها على الخاصة. ولذا خصصها بالصفتين المتقاطعتين على سبيل الترتيب لإفادة الأولَى: التخلية عن رذيلة الجهل، والثانية: التحلية بفضيلة العلم، والتخلية سابقة على التحلية.

ثم إن الشيخ أراد أن يسأل منه مطلب الصديقين القاصدين إلَى حضرة مولاهم جل جلاله، إذ غاية مقصودهم وأقصى مرادهم: الوصول إلَى الحضرة الربانية، فقال:

(واحملني) على نجائب لطفك، وركائب حنانتك وعطفك، وسر بي **(على سبيله)** أي سنه القويم، وصراطه المستقيم، **(إلى)** حضرته المتصلة بـ **(حضرتك)** الربانية القدسية المتجلية بتجليات محاسنه الإنسية.

وحضرته تعالَى عبارة عن موطن من مواطن القرب والمشاهدة، فإذا كان العبد على بساط القرب ومشاهدة الحق، مشاهداً لصفاته، سُمي ذلك الموطن حضرة الصفات، وإذا كان مشاهداً للأفعال سُمي الموطن حضرة الأفعال، وإذا كان مشاهداً لعظمة الذات سُمي الموطن حضرة الأسرار. فإذا أراد الله أن يبلغ السالك إلَى حضرته الكريمة حمله إليها على سبيل الاقتداء بالنبي الأكرم صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله وحركاته وسكناته. ثم إن الناس في مشاهدة قربه تعالَى منهم بواسطته صلى الله عليه وسلم على ثلاث مراتب:

الأولَى: موقف أهلها شهود شريعته، فهم يشهدون ما في التكليف من تحمل الأثقال، فتطول عليهم المسافات، ويبعد في حقهم الوصول لأنهم عاملون في الطريق، ويلازمهم الكمد والحزن، لِحملهم ما فرت من حمله السماوات والأرض، وأشفقن. وصاحب المرتبة وإن كان ذا حظ من القرب والخصوصية، لكن غيره أكمل منه، لأنه يشهد ما منه إلَى الله من أعمال وأقوال، فهو مثبت لنفسه، يشاهدها ويشهد الأقوال والأفعال منها.

الثانية: موقف أهلها شهود ذاته المطهرة، فمعرفته أتم من الأول، وصاحبها يشهد ما يجري على يده من الطاعات، من الله إليه، تفضيلاً وإحساناً، ويرى ضعف نفسه، وسقوط حوله وقوته، فيمده الله بالعون والنصر، ويلازمه الفرح والسرور، لأنه يشهد الهدايا من ملك الملوك إليه، ويخف عليه السير ويستحليه، لأنه محمول في محفات المنن، مروح عليه بنفحات اللطف، فخدمته جبلة، لا تعمل بخلاف الأولَى. ثم صاحب هذه المرتبة، وإن كان أكمل مما قبله، فغيره أكمل منه، لأنه مشاهد لنفسه حيث رأى الْهدية من الله إلَيها، وإن كان لا يشهد الأعمال منها، فقد بقيت فيه بقية.

الثالثة: موقف أهلها شهود روحه، وهو أهل الفناء التام، فهم يشهدون ما من الله إلَى الله، فهم بالله وفي الله وإلَى الله، قد حفّت بِهم نصرته، ولازمتهم حياطته. رزقنا الله من بركات الجميع، ما ينفعنا في الدنيا والآخرة بِمنه وكرمه.

وحاصل الفرق بين الثلاثة: قوة التعظيم الناشئة عن كثرة المعرفة، فإن لأهل شهود الروح من المعرفة، ما ليس لأهل شهود الذات، فلهم من التعظيم ما ليس لغيرهم. وهكذا أهل شهود الذات مع أهل شهود الشريعة.

وبقدر التعظيم تحسن النية ويسهل الاتباع، قال بعض العارفين: "بقدر ما يدخل في القلب من التعظيم والحرمة، تنبعث الجوارح للخدمة".

(حملاً محفوفاً) أي مقروناً ومصحوباً من جميع جوانبه بتأييدك و**(نصرتك)**، مكسواً بعوالِم أستارك، فأكون بك في سلوكي إليك لا بنفسي، فأكون محمولاً لا حاملاً، لأن حمل من في المقام الثاني مصحوب بالنصرة لكن لا من كل جانب.

ومعنى الاستعلاء على سبيله: أن يكون متمكناً منه قوياً على سلوكه، وهذه حقيقة الحمل على سبيله، أن يكون متمكناً منه قوياً على سلوكه، على ما يقتضيه ظاهر اللفظ، وأطلق في النصرة فلم يقل على نفسي وعلى الشيطان، لأن طلب النصرة على ذلك شأن أهل البدايات. وأما أهل النهايات فيقولون: "نحن عرفنا الله فكفانا من دونه".

وحذف المتعلق للتعميم، أي على كل شيء، حتّى تنفعل له المكونات، وتطيعه الأشياء، وتكون إرادته تابعة لإرادة الله تعالَى: ويندرج في عموم النصرة له، وبه للمريدين الإخوان، ومن يحتاج إليه، وتلك مرتبة الخلافة، فيصير الفقير بِهم غنياً، والخائف آمناً، والذليل عزيزاً، والضعيف قوياً.

(واقذفْ بي): القذف بالشيء دفعه، والرمي به أي ارم بِي.

(على الباطل): وهو كل ما سوى الله حتّى المقامات والأحوال.

(فأدمغه): أي أبطله: مضارع من دمغه يدمغه، إذا أصاب دماغه بالضرب وهو مقتل من المقاتل.

قال الخروبِي: "سأل رضي الله عنه أن يكون حجة من حجج الله الدامغة للباطل، وهذا مقام الوارثين الذين أقامهم الله تعالَى في مقام الخلافة، وجعلهم مصابيح الهدى، وأئمة يقتدى بِهم، فالحق يجري على لسانِهم: فبالله ينطقون، وبه يسمعون، وبه يبصرون، وعنه نائبون، وصاحب هذا المقام يكون آلة لإظهار الحق وخمود الباطل".

أي بأنواعه في جميع بقاعه.

فأدمغه، أي بالحق على الوجه الأحق، وهو منصوب بأن مضمرة في جواب الطلب.

فسأل رضي الله عنه أن يقذف الله به على الأغيار، ويدفعه على الأكوان، حتّى تنمحي عن مشاهدته، وتضمحل في نظره. أي طلب من الله دوام ذلك واستمراره. وأتى بـ (على) للاستعلاء: وإشارة إلَى أن يكون الدفع به من علو لأنه أقوى في الدفع، وأسند الدفع إلَى الله ليكون مدفوعاً بالله.

ولما تحقق الشيخ نفعنا الله به بمشاهدة روحه عليه الصلاة والسلام، أنتج له ذلك من المحبة، ما حمله على سؤال الرمي في بحار الأحدية، التي هي محل الفناء الكامل،

الذي تحصل معه الغيبة عن كل شيء حتّى عن نفسه فقال: **(وزُجَّ)**. الزج الرمي، أي ارم بي وأدخلني **(في بحار الأحدية)** المحيطة بكل مركبة وبسيطة، فالأحدية مبالغة في الوحدة لأنّها لا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة، بحيث لا يمكن أن تكون أشد ولا أكمل منها، قاله ابن عباد. وقد شبهها الشيخ بالماء المروي العظيم المستبحر المتلاطم الأمواج، تشبيهاً مضمراً في النفس، ودل ذلك بإضافة البحار إليها.

قال الخروبي: "ومقصد الشيخ بدعائه هذا، أن ينقل من حضرة الفرق إلَى حضرة الجمع، والمستغرق في هذه الحضرة مغرق في بحار الأحدية فلا يشهد إلا الله، فهو دائم الشهود، متصل الورود، منَزه الروح عن محل التفرقة ممنوحاً بالبقاء الدائم والفناء التام عن جميع العوالِم. وقد أعطي الجلوس على منبر التوحيد، ومنصة التفريد، فيعود نظره إليه، وجمعه عليه، فتفنَى الرسوم، ولم يبق إلا الحي القيوم".

(وانشلني) أي خلصنِي وسلمنِي من الزهوق في **(أوحال)** جمع وحل وهو الطين الخضخاض، أي اعصمنِي من الوقوع في مشبهات **(التوحيد)**، التِي زلت فيها أقدام كثيرة، فإنه إذا غرق العارفون فِي بِحار التوحيد وساروا فيها في سفن أسرارهم، تلاطمت عليه أمواجه، وهي تجري بِهم في موج كالجبال، فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، فآواه الله إلَى جبل السنة المحمدية، وعصمه من الاعتقادات الرديّة.

ومنهم من حال بينهم الموج فكان من المغرقين، ولبس عليهم الأمر، فقالوا بالحلول والاتحاد، عصمنا الله من ذلك الاعتقاد.

ومنهم من غلبت عليه الحقيقة، فادعى الجبر، ونفى الحكمة والأحكام.

فائدة: قال مكحول الدمشقي: "من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء فهو مرجئي، ومن عبد الله بالمحبة فهو موحد".

ومعناه: أن من عبد الله لمجرد الخوف من غير رجاء، فقد ضيّق وشدّد وسلك مسلك الحرورية أي الخوارج، إذ هم يكفرون بالذنب. ومن عبد الله لمجرد الرجاء من غير خوف، فقد سهل وفرط، وسلك مسلك المرجئة إذ هم يقولون: "لا يضر ذنب مع الإيمان". ومن عبد الله بالمحبة أي فيضر برفع بيته، ويعترف بالعبودية، ويحبه لذلك، وتغلب عليه الحقيقة، فقد سلك مسلك الجبرية القائلين بعدم الكسب والاختيار، وسلب فاعلية العبد بالكلية، وأنه مدفوع ومستعمل بكل وجه واعتبار، فلا تكليف إذاً حتّى يترتب عليه الخوف والرجاء.

ثم رجع الشيخ نفعنا الله به إلى سؤال البقاء بعد الفناء، ليصلح للخلافة، لأن صاحب الفناء الأكبر وإن كان كاملاً فهو غير أكمل، لعدم صلاحيته لتكميل غيره. فقال:

(واغرقني في عين) أي العين التي هي **(بحر الوحدة)**، لأنه يحصل معه الري، ولا يخشى على صاحبه التلف، إذ لا شك أن الغريق في بحر الأنوار الذي هو معاني الأسماء والصفات، لم يقف بساحل الآثار الذي هو موقف النجاة، كما قال أبو يزيد: "خضنا بحاراً وقفت الأنبياء بساحلها"، "وهذا اعتراف منه بالنقص والتقصير، لأن خوض البحر من الجهل بهوله، والوقوف بساحله من المعرفة بقدره، فالخائض ألقى بنفسه للهلكة، والواقف قائم فِي النجاة، ويمكنه من استخراج حليته وطعامه، ما لا يمكن للخائض"، قاله سيدي زروق.

وقيل معناه: وقفت الأنبياء بساحله من الجانب الآخر بعد قطعها سالمة.

(حتى لا أرى) إلا بِها **(ولا أسمع)** إلا بِها، **(ولا أجد)** من الوجدان إلا بِها، **(ولا أحس إلا بها)**، وذلك بالغيبة عن الخلق بشهود الملك الحق، ويفنَى عن الأسباب بشهود مسبّب الأسباب، وحينئذ يصير القلب واحداً بالله.

وقد فسر قوله عليه الصلاة والسلام: (إنّ الله وترٌ يحب الوتر) أنه يعنِي القلب المنفرد له، بحيث لا يرى في الدارين إلا هو، ولا يعرج على غيره، وينسى ذكر كل شيء عند ذكره، وبهذا يصح له التخلق بِمعنَى هذا الاسم الشريف، فيكون واحداً في عصره بين أبناء جنسه، وهذه المعاني تضيق عنها العبارة فتكفي فيها الإشارة.

(واجعل) اللهم **(الحجاب)** ال فيه للعهد، والمعهود قوله سابقاً "وحجابك الأعظم"، **(الأعظم)**، والمراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(حياة روحي) كشفاً وعياناً، إذ الأمر كذلك رحمة منه وحناناً.

والمعنَى: واجعل حجابك الأعظم حاجباً لروحي عما فيه هلاكها، فتكون حية به متنعمة في معرفتك بسببه، فإن من لم يحتجب بالنبِي صلى الله عليه وسلم وقع في المهالك، وماتت روحه وضاقت عليه المسالك.

والعارف، وإن وصل إِلَى حضرة القدس، ومورد الأنس، وفنَى في وجوده، في هيبة شهوده، ثم فنَى عن فنائه، وصار محواً صرفاً، فإنه لا غنَى له عن واسطة النبي صلى الله عليه وسلم.

قالوا: وبعد ثبوت الإيمان للعبد، لا يستغنِي عن خلفائه، ووسطائه صلى الله عليه وسلم من المشايخ المهتدين في التوصيل للمعرفة.

نعم بعد الوصول التام، يستغنِي عنهم، ولا يستغنوا عنه صلى الله عليه وسلم. فقد سئل الشاذلِي نفعنا الله به، فقيل له: من شيخك يا سيدي؟ فقال: "كنت أنتسب إِلَى الشيخ ابن مشيش، وأنا اليوم لا أنتسب إِلَى أحد، بل أعوم في عشرة أبحر: خمسة من

الأدميين: النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي نفعنا الله بهم، وخمسة من الروحانيين: جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل والروح".

فإذا تقرر هذا، فلا تغتر بما للشعراني في "درر الغواص عن شيخه سيدي علي الخواص"، فإنه ليس على ظاهره، وحاشى وكلا أن يكون قصده الاستغناء عن واسطته صلى الله عليه وسلم.

واجعل اللهم **(روحه)**، على حذف مضاف، أي شهود روحه صلى الله عليه وسلم **(سر حقيقتي)** ذوقاً وحالاً، أي اجعل شهود سر روحه شغل سر حقيقتي، فتكون حقيقتي سرّاً محمدية، والمراد بحقيقة الإنسان اللطيفة الربانية التي كان بها الإنسان إنساناً، وتسمى نفساً وقلباً وروحاً وسرّاً وباطناً، فهي أسماء لمسمى واحد، واختلاف الأسامي باختلاف الصفات، فإن مالت لجهة النقص سُميت بالنفس، وإن تخلصت من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان سُميت بالقلب، وإن تخلصتْ منه إلى مقام الإحسان ولكن بقي فيها أثر من النقص كأثر الجراحات بعد البرء سُميت بالروح، وإن ذهبت تلك الآثار وصفتْ سُميت بالسر، وإن أشكل الأمر سُميت بالباطن، قاله الساحلي.

وبه يتبين صحة الإضافة، وأن الشيخ نفعنا الله به طلب من الله أن لا تبقى حقيقته نفساً في مقام الإسلام ولا قلباً في مقام الإيمان ولا روحاً في المرتبة الأولى من مرتبتي الإحسان وهي أن تعبد الله مستحضراً أنه يراك، بل تصير بواسطة شهود روح النبي صلى الله عليه وسلم سِرّاً في المرتبة الثانية من مرتبتَي الإحسان وهي أن تعبد الله كأنك تراه، وهذه نكتة التعبير بالسر.

واجعل اللهم شهود **(حقيقته)** المحمدية **(جامع)** أي جامعاً **(عوالمي)** وهي النفس والقلب والروح والسر، فسأل من الله تعالى أن تكون عوالمه كلها منصرفة إلى شهود حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم الصادقة بعوالمه الشريفة وصفاته العالية المنيفة ومتوجهة إليها، أي اجعل شهود حقيقته جامعاً لعوالمي في جميع معالمي حالاً ومآلاً، وحقِّقْني بذلك، على ما هنالك.

(بتحقيق الحق الأول) يحتمل أن تكون الباء للتعدية متعلقة بحال مقدرة، أي معيناً لي على شهوده الآن في عالَم الأجسام، بأن تحقق لي الشهود السابق في عالَم الأرواح يومَ ألستُ بربكم، أي حققِ الحق الأول في الحالة الثانية التي هي إيداع الروح في الجسد حتى أصير من أهل الحق الثاني، أي حققه الآن حتى أستحضره وأستعين به على دوام الشهود، وذلك أن الإنسان يستعين بالسابق المعهود على ما هو من جنسه.

ويحتمل أن تكون الباء للمعية، أي مع تحقيق الحق الأول، وهو شهود الربوبية

والاستغراق فِي الوحدانية احترازاً من حال من يقع له الغلط فِي شهود الواسطة حتى يجعلها كالقصد وجعله أولاً باعتبار الذكر وباعتبار الْهداية لشهود الرسول ومعرفته، إذ لولا تعريفه تعالَى لَهم به ما عرفوه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ويحتمل أن تكون الباء للقسم، على حد أقسمت عليك ببسط يديك.

والحق الأول هو الله تعالَى، إذ هو السابق على كل حق، وهو حق سبحانه.

وفيه التفات من الخطاب إلَى الغيبة لِما تضمنه لفظ الحق الأول من العظمة والجلال.

ثُم استغاث الشيخ رضي الله عنه ونفعنا به فِي سؤال شهوده صلى الله عليه وسلم بهذه الأسماء الحسنَى لِما فيها من الدلالة على الإحاطة والتنْزيه والقيومية، فقال **(يا أول)** فليس قبلك شيء **(يا آخر)** فليس بعدك شيء **(يا ظاهر)** فليس فوقك شيء **(يا باطن)** فليس دونك شيء. وبعبارة هو ظاهر هي أن من طلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال، وباطن أي طلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال.

ثُم ذكر مطالبه الْمستغاث من أجلها فقال **(اسْمع)** سَماع قبول وإجابة **(ندائي)** أي دعائي **(بما)** أي بِجاه الاسم الذي **(سَمعتَ به نداء عبدك زكرياء)** عليه السلام حين قال ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾.

ومراده بِهذا السؤال طلب الوارث لسره حتى ينتفع به الْمؤمنون ليكونوا فِي ميزانه

والْمرءُ فِي ميزانه أتباعُه فاقدر إذاً قدْر النبي مُحمد

وقد استجاب الله له بتلميذه أبِي الحسن الشاذلِي رضي الله عنه فإنه قد اشتهرت طريقته وكثر أتباعه وعم النفع به، قال سيدي زروق رضي الله عنه: وقد تَمت كلمة الإجماع على استحسان طريقة الشاذلي وقد كان بعض أشياخنا من أهل الورع يقول "للحالف أن يحلف ولا يستثني على أن طريق الشاذلية عليها كانت بواطن الصحابة رضي الله عنهم"، وقال ابن عطاء الله رضي الله عنه:

تَمسَّكْ بِحب الشاذلية........ تدوم فحقق ذاك منهم وحصل

ولا تعدون عيناك عنهم فإنّهم شُموس هدى فِي أعين الْمتأمل

قال الساحلي: طريق الشاذلية مبنية على الصلاة على النبِي صلى الله عليه وسلم فقد قال سيدي الشاذلِي رضي الله عنه: صلاة واحدة عليه صلى الله عليه وسلم تفرج كل هم وشدة فِي الدنيا والآخرة، هـ

ثُم إن الشيخ سأل مطالب تنْزل كلها على الانحياش إلَى الله والاكتفاء به والاستناد

إليه والجمع به، وليس فيها شائبة غيْرية ولا ركون إلَى غير الأحدية، فقال:

(وانصرفني) أي أعنِّي **(بك)** أي بلا واسطة بيني وبينك، حتَّى لا يقع منِّي نظر إليه وأتخلص من رقية إحسانه، **(لك)** أي لأقوم بِحقوق خدمتك وتكاليفك الدينية ووظائفك الشرعية، لا لِحظوظ نفسي فقط، لأن العارف تكون حظوظه حقوقاً لله، فتصرفه بالنية التِي هي إكسير الأعمال يقلب أعيانَها، وإن كل ما أباحه الشرع من الأعمال إذا قارنته نية التقرب يصير طاعة، فليست الأوراد عند أهل المعرفة منحصرة فِي الصلاة والصيام والزكاة ونَحوها، بل حركاتُهم وتقلباتُهم كلها أوراد، إنّما الأعمال بالنيات.

ومن نصرة الله للعبد تأييده عند هيجان الفتن، فلا تؤثر فيه ولا تؤذيه، لأن الله يلقي السكينة في قلبه ليزداد إيماناً مع إيمانه. روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن لله عباداً يغذيهم برحمته ويحييهم فِي عافيته تَمر بهم الفتن كقطع الليل الْمظلم لا تضرهم. أي فَهُم فِي الفتن، والفتن لا تضرهم، وقال بعض العارفين: إن لله رجالاً كلما اشتدت ظلمة الوقت قويتْ أنوار قلوبهم فمثلهم كمثل الكواكب كلما قويت ظلمة الليل قوي إشراقها.

(وايدني) أي أعِنّي وقوني بتقوية بصيرتي الباطنة بقوة اليقين **(بك)** لأتصف بالعبودية على الحقيقة **(لك)** حتّى لا تحجبنا عنك الأغيار، ولا يكون لنا مع غيرك قرار.

وفي قوله (لك) دليل على اشتغاله بالله وإعراضه عن حظوظ نفسه، لأن الله إذا كان مؤيداً لعبده قوي يقينه وتوحيده عند نزول الْمرادات القهرية وحصل له الروح والرضا والتسليم لِما يجري به القضاء، حتّى تصير عنده البلية عطية، والْمحنة والنقمة عين الْمنحة والنعمة، وكان سيدي رضوان كثيراً ما يردد هذا البيت:

ولو بيد الْحبيب سقيت سُمّاً لكان السم من يده يطيب

ولذلك قال فِي الحزب الكبير: ولا نسألك دفع ما تريد الخ، وقال وانصرني باليقين والتوكل، فالتأييد والنصر بِمعنًى واحد.

(واجمعْ بيني وبينك) هذا طلب لِمقام الجمع، وهو استغراق العبد فِي نور الشهود، حتّى لَا يبقى له حظ فِي سوى الْمشهود، بتنْزيهه عن القيام مع الأغيار والاستئناس بشيء من الآثار، قال سيدي رضوان: مَنْ شاء عزة بلا هوان، غمض عينه عن الأكوان.

(وحُلْ بيني وبين غيرك) حتّى لا ألتفت إلَى كون من الأكوان. قال فِي الحِكَم

(كيف يشرقُ قلبٌ، صُوَرُ الأكوان منطبعة فيه)، فالأكوان قاطعة وحاجبة لأهل الجمع مكدرة لصفو مشربهم، فلذا سأل الشيخ رضي الله عنه دوام الحيلولة بينه وبين الأغيار، وأن يحرس قلبه بشروق الأنوار، قال بعض العارفين: إذا كان الله سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كي لا يسترق السمع منها، فقلبُ المؤمن أولَى بذلك لقوله سبحانه في الحديث القدسي "لَم تسعنِي أرضي ولا سَمائي ووسعنِي قلبُ عبدي المؤمن".

وفي سؤاله هذا المطالب دليل على إعراضه عن الأكوان، وعدم تعلقه بها في حين من الأحيان، قال في الحِكَم (فَرِّغْ قلبك من الأغيار، تَملأه بالمعارف والأسرار)، ومن ثَم قيل:

فاطرح الكونَ عن عيانك وامح نقطة الغين إنْ أردتَ تراني

(الله) منه بدأ الأمر **(الله)** إليه يعود **(الله)** واجب الوجوب وما سواه هالك مفقود.

قال الخروبي: أتَى الشيخ عقب مطالبه بلفظ الجلالة وكرّره ثلاثاً لفوائد، وأما تلفظه به عقب مطالبه فللتبرك به لأنه قطب الأذكار ومعدن الأسرار، وليكون به الاختتام كما به الافتتاح، وفيه إشارة إلَى أن كل شيء منه بدأ وإليه يعود ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾، وتكريره ثلاثاً ليثبت في الباطن معناه، ويتأسس في القلوب سره ومبناه، أو لأن اسم الجلالة تضمّن معاني أسماء الأفعال ومعاني أسماء الصفات ومعاني أسماء الذات، فإن من له هِمة في السلوك إذا ذكر اسم الجلالة ثلاثاً يترقى مقاماً من المقامات، فإذا قال الله أولاً يكون في مقام الإسلام، وإذا قاله ثانياً يكون في مقام الإيمان، وثالثاً في مقام الإحسان، فلا يكمل العدد إلا وهو في حضرة القدس، هذا حال أرباب المقامات.

وأما أرباب الأحوال، فإذا قاله أولاً يكون في حال البقاء، وثانياً في حال الفناء، وثالثاً في حال الفناء عن الفناء.

واعلم أن ذكر الاسم المفرد المعظم مجرداً عن التركيب بجملة، وهو ألله ألله، مِما اختاره السادات الصوفية واستعملوه بينهم، ولَهم في ذلك تأليف وترتيب على حسب الأحوال والمقامات، وذلك مِما يخصهم ولا يتعداهم ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾.

قال الغزالِي: ما دمت ملتفتاً إلَى ما سوى الله فلا بد من النفي والإثبات. وسئل الشبلي: لِم تقل ألله ألله ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: أستحي من ذكر كلمة النفي في حضرته. قال أبو الوفا: وتعليل هذا المذهب بأن نفي الشيء إنّما يحتاج إليه عند حضور ذلك الشيء بالبال، فمن لا يخطر بباله شريك لا يكلف بنفيه، والعارف الكامل لا يخطر بباله ولا خياله إلا الله، فيكفيه أن يقول ألله ألله.

ومنهم من اختار في البداية لا إله إلا الله وفي الانتهاء ألله، وهم الأكثرون، ومنهم من اختار الاسم المفرد ابتداء وانتهاء، ولكل حجج يطول ذكرها.

قال سيدي عبد القادر الفاسي نفعنا الله به: فعلينا بالتسليم والتصديق لِما قصرتْ عنه مداركنا من مذاهبهم والاستضاءة بأنوارهم، فاشدذ يدك على تسليم ما فعلوا، وظن خيراً، ولا تعبأ بمن عدل، إذ التصديق بطريقهم ولاية، والاعتراض على الأكابر جناية.

(إن الذي فرض) أوجب **(عليك)** أيها النبي تلاوة **(القرآن)** وإبلاغه والتحدي به والعمل بما فيه، يعني أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف ليثيبك عليه ثواباً لا يحيط به الواصف، **(لرادك)** أي بعد الْموت **(إلَى معاد)** أي مقام عظيم ومعاد ليس لغيرك من البشر، وتنكيره الْمعاد لذلك، فيا له من مرجع وهو الْمقام الْمحمود الذي وعدك ربك ويغبطك به الأولون والآخرون.

ويحتمل أن يراد إلَى معاد أي مكان هو لعظمته أهل لأن يقصد العود إليه كل من خرج منه وهو مكة الْمشرفة، أي بأن يراد رده إليها يوم الفتح، والله أعلم.

(ربنا آتنا من لدنك) أي مِنْ قِبَلك **(رحمة)** أي إكراماً خاصاً يوجب لنا الْمغفرة والرزق والأمن من الأعداء، كما يفعله الراحم بالْمرحوم والكريم بالْمكروم، وهذا دعاء أهل الكهف حين إيوائهم إليه وانقطاعهم إلَى الله تبارك وتعالَى بترك بلادهم وأموالهم وعشائرهم لما حصل لَهم من الأنس بالله **(وهيئ)** أي اجعلْ **(لنا من أمرنا)** الذي نحن عليه من تضييق الْملك الجائر بنا وبعثه فِي طلبنا، ومن مفارقة الكفر والْمثابرة على الطاعة **(رشداً)** أي موصلاً إلَى الْمطلوب من الخلاص فِي الدارين نصير بسببه راشدين مهتدين، أي اهدنا إلَى وجه الْمخرج مِما نحن فيه، وكأنّهم حين إيوائهم إلَى الكهف لَم يبن لَهم وجه الْمخرج لقول ابن منبه أنّهم لَما دخلوا الكهف قالوا نبيت هنا الليلة ثُم نصبح إن شاء الله فيكون الرأي.

ويحتمل أن يكون الْمعنَى اجعلْ لنا فِي أمرنا أي فرارنا ومفارقة قومنا هداية وخيراً، أي اجعلْ أمرنا كله خيراً.

وأتَى الشيخ رضي الله عنه بِهذا الدعاء، إشعاراً بِمفارقة الخلق وهجرانِهم والفرار منهم ونبذ الأغيار كلها، تعلقاً بالله وإقبالاً عليه وإيواء إليه، طالباً أن تَهب عليه نفحات رحمة ربه، ويكون أمره كله فِي ذلك رشداً وخيراً، وأن يكون له حظ من حال أهل الكهف فِي الخفاء عن الأضداد وعدم الشعور بالأغيار، فاستجاب الله دعاءه فلم يعرفه إلا الشيخ الشاذلي، ومن ثَم لازم رضي الله عنه قنة جبل مبالغة فِي الانفراد عن الأغيار، ثُم انسحبت الرحمة التي رحمه الله بِها على أتباعه وأتباعهم حتَى صارت الطريقة تنسب

إلى تلميذه الذي تخرج على يده، كما انسحبت رحمة أهل الكهف على كلبهم إذ صار يذكر بذكرهم.

صاحب ذوي الفضل تسعد من كرامتهم واخدمهم خدمة واصدقهم.....

وشاهدي كلب أهل الكهف مع ضعه من أجل صحبتهم في الوحي ذكراه

في التفسير أنّهم قالوا للراعي الذي تبعهم والكلب معهم: اصرف هذا الكلب عنا، فقال الراعي: لا يُمكنني لأنّي ربيته.

ويقال أنطق الله الكلب فقال: لِم تضربونني؟ فقالوا: لتنصرف عنا، فقال: لا يُمكنني أن أنصرف لأنه رباني. قاله الشاطبي.

ثُم ختم بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال **(إن الله)** جل جلاله وتقدس كماله **(وملائكته)** وهم أجسام لطيفة نورانية يسبحون الليل والنهار لا يفترون **(يصلون على النبي)** أي يعتنون بإظهار شرفه وعلو شأنه **(يا أيها الذين آمنوا)** خطاب لكل من آمن إيماناً شرعياً، والإيمان الشرعي هو المصحح لقبول العمل **(صلوا عليه)** أي اعتنوا أنتم بذلك وأنتم أولى بذلك وقولوا اللهم صل على سيدنا محمد **(وسلموا عليه تسليماً)** بأن تقولوا اللهم سلِّم عليه أي زده أماناً على أمان، وأتى بالآية تيمناً وتبركاً وإظهاراً لامتثال أمرها.

اللهم فصلِّ وسلِّم منا عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم، فإنا لا نقدر قدره العظيم، ولا ندرك ما يليق به من الاحترام والتعظيم، صلوات الله وسلامه وتحياته ورحماته وبركاته على سيدنا محمد، عدد الشفع والوتر وكلمات ربنا التامات المباركات.

ثُم ختم كلامه أيضاً بخاتمة الصافات: لقول علي رضي الله عنه مَنْ أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه **(سبحان ربك)** أي المستحسن إليك بإرسالك وإقامة الدليل الواضح على صدقك وتأييدك **(رب العزة)** أي الغلبة، وعزته تغلب كل شيء ولا يغلبها شيء **(عما يصفون)** مِما لا يليق بجلاله وكماله **(وسلامٌ)** أي أمان عظيم **(على المرسلين)** المبلغين عن الله الشرائع الواصفين له بِما هو أهله **(والحمد)** أي كل ثناء بالجميل مستحق **(لله رب العالمين)**.......

اللهم إنّي أسألك أن تنفع بهذا التقييد مَنْ كتبه أو قرأه أو حصّله أو سعى فِي شيء منه، بفضلك يا أرحم الراحمين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ووافق الفراغ منه آخر يوم من شعبان عام تسعة وثلاثين ومائتين وألف، وهي بحمد الله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ترجمة سيدي أحمد الصاوي

الأعلام، للزركلي:

(الصاوي. 1175- 1242 / 1761- 1825م.

أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي، فقيه مالكي، نسبته إلى صاء الحجر في إقليم الغربية بمصر. توفي بالمدينة المنورة. من كتبه: "حاشية على تفسير الجلالين - ط"، وحواش على بعض كتب الشيخ أحمد الدردير في فقه المالكية، و"الفوائد السنية - خ" شرح الهمزية البوصيرية، في دار الكتب).

معجم المطبوعات العربية والمعرَّبة، لسيدي يوسف إلياس سركيس:

(العارف بالله، الشيخ أحمد بن محمد الصاوي المالكي الخلوتي. مولده في صاء الحجر بشاطئ النيل من إقليم الغربية بمصر، وكان والده من كبار الأولياء.

حفظ القرآن في بلده، وانتقل إلى الجامع الأزهر في طلب العلم وذلك سنة 1187 هـ.

وله مؤلفات عديدة غير مطبوعة:

1- الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية على الصلوات الدرديرية.

2- بلغة السالك لأقرب المسالك، وهي حاشية على الشرح الصغير لأقرب المسالك لسيدي أحمد الدردير (فقه مالك).

3- حاشية على الجلالين - أولها: الحمد لله الذي أنزل الفرقان مصدقاً لمن بين هديه هدىً وبشرى للمتقين- بهامشها التفسير المذكور.

4- حاشية على شرح الخريدة البهية للشيخ أحمد الدردير.

5- حاشية لشرح تحفة الإخوان في علم البيان.

6- شرح منظومة الدردير لأسماء الله الحسنى).

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لسيدي محمد بن مخلوف:

(أبو العباس أحمد الصاوي الخلوتي، الإمام الفقيه، شيخ الشيوخ، وعمدة أهل التحقيق والرسوخ، العلامة المحقق، الحبر الفهامة المدقق، قدوة السالكين، ومربي المريدين. أخذ عن أئمة منهم الدردير والأمير الكبير والدسوقي).

شرح سيدي أحمد الصاوي المالكي الخلوتي

(ت عام 1241 هـ)

قال سيدي أحمد الصاوي في كتابه "الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية على الصلوات الدرديرية":

(اللهم صل): ارحم رحمة مقرونة بالتعظيم.

(على من) الموصول عائد على النبي صلى الله عليه وسلم، وأبهمه للعلم به لمزيد تعظيمه، لأن الإبهام قد يؤتى به للتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾، ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ ﴾ ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ ﴾ **(منه انشقت الأسرار)** صلة من، أي انفتح بابُ الأسرار، وهي جمع سر ضد الجهر، والمراد: اتضح به كل ما كان خفياً.

(وانفلقت الأنوار) أي انفتح باب الأنوار الحسية والمعنوية، وأل في الأسرار والأنوار للاستغراق، وتعبيره أولا بـ (انشقت) وثانيا بـ (انفلقت) تفنن، دفعاً للثقل. وهذا مأخوذ من حديث جابر المتقدم، فالأشياء قبل وجوده كانت مغلوقة أي معدومة، ففتحت أي وجدت بوجوده، فتكون من أي ابتدائية أي نشأت من نوره، أو تعليلية أي انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار من أجل وجوده.

(وفيه ارتقت الحقائق) أي في المصطفى ظهرت حقائق الأشياء، فهو بمنْزلة السماء، والحقائق بمنْزلة الكواكب.

(وتنَزلت علوم آدم) أي وفيه نزلت علوم آدم، والمراد بعلوم آدم: علمُ جميع الأسماء، فصار لا ينظر شيئاً إلا عرف اسمه، فأعجز بذلك الملائكة، حيث أمرهم الله تعالى بقوله جل ذكره: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، فعجزوا، فقال: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾، فجميع العلوم التي نزلت على آدم نزلت على المصطفى صلى الله عليه وسلم، وزاد علم حقائق المسميات.

(فأعجز): جميع.

(الخلائق): أي المخلوقات، ملائكة، وغيرهم، حتى آدم، فعلم آدم لم يعجز إلا الملائكة، وعلمه صلى الله عليه وسلم أعجز الأولين والآخرين.

وإن قلت: يلزم من علم الأسماء علمُ المسميات، فلا فرق بين علم آدم ونبينا.

فالجواب: أن آدم عُلِّمَ الْمُسميات إجمالاً، ونبينا صلى الله عليه وسلم علم الأسماء والمسميات تفصيلاً، فلذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رُفعت لِي الدنيا فأنا أنظر فيها كما أنظر إلى كفي هذه".

(وله تضاءلت الفهوم): أي تصاغرت أفهام الخلائق عن إدراك حقيقة النبي، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "لا يعلمني حقيقة غير ربي"، وهذا معنى قول البوصيري:

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يُرى ... للقرب والبعد فيه غير منفحم

فلذلك علله بقوله:

(فلم يدركه منا سابق ولا لاحق): أي معشر المخلوقين من أول الزمان إلى آخره، فلم يقف له أحد على حقيقة في الدنيا، وأما في الآخرة فتدرك حقيقته، لكشف الحجاب عن الخلائق، قال البوصيري:

إنما مثلوا صفاتك للناس ... كما مثل النجومَ الماءُ

وقال في البردة:

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته ... قومٌ نيامٌ تسلوا عنه بالحُلُم

(فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة): إضافة الرياض إلى ما بعده من إضافة المشبه به للمشبه.

والرياض: جمع روضة، بمعنى بساتين.

والملكوت: ما غاب عنا كالجنة والعرش والكرسي.

وإضافة زهر للجمال من إضافة المشبه به للمشبه أيضا، والزهر في الأصل اسم للنُّور الذي يكون في البساتين.

ومونقة: مزينة، فشبّه تزيينه للملكوت بتزيين الزهر للرياض، فكما أن البساتين مزينة بالزهر، فالملكوت مزين بجماله.

وحاصل ما في المقام أن العوالم أربعة:

عالم المُلْك: وهو ما ظهر لنا.

وعالم الملكوت: وهو ما غاب عنا من المحسوسات، كالجنة والنار والعرش والكرسي.

وعالم الجبروت: وهو عالم الأسرار، والعلوم والمعارف.

وعالم العزة: وهو ما اختص به من علم ذاته وصفاته.

(**وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة**): جمع حوض، وهو في الأصل: محل صب الماء، وتقدم أن الجبروت هو عالم الأسرار والعلوم.

والباء في (بفيض) بمعنى من.

والتدفق: الامتلاء، فشبّه قلوب العارفين بالحياض، وشبّه علومه بالبحر، فتلك الحياض أي القلوب متدفقة ممتلئة من ذلك البحر، الذي هو عِلْمُ النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى أن علوم الأولين والآخرين مكتَسَبة منه صلى الله عليه وسلم.

(**ولا شيء إلا وهو به منوط**): أي معلق، أي لا موجود إلا وهو مستعد من وجوده صلى الله عليه وسلم لأنه أصل الأشياء وأمها.

(**إذ لولا الواسطة، لذهب كما قيل الموسوط**): هذا علة لقوله: ولا شيء إلا وهو به منوط، وذلك لأنه الواسطة العظمى في وجود المخلوقات.

وليس المراد من قوله: قيل، صيغة التضعيف، وإنما المراد النسبة، أي كما قال العارفون قولاً قوياً يعتمد عليه، ومنه قول بعضهم:

وأنت باب الله أي امرئ أتاه من غيرك لا يدخل

(**صلاة تليق بك، منك إليه، كما هو أهله**): صلاة مفعول مطلق لقوله: صل.

وما بينهما اعتراض.

وقوله تليق بك: أي بجنابك وإحسانك.

ومنك إليه: أي واصلة منك إليه.

وقوله كما هو أهله: الكاف تعليلية، أي لأجل أنه أهله، لأنه لا يعرف قدره إلا أنت.

(**اللهم**): أي يا الله.

(**إنه**): أي المصطفى.

(**سرك**): أي المسمّى بهذا الاسم.

(**الجامع**): أي لجميع ما تفرق في غيره من الكمالات، والعلوم، والمعارف، والبركات، والمعجزات.

(**الدال عليك**): أي الذي يدل الخلائق ويوصلهم إليك، فمنهم مَنْ دله بواسطة كالأمم السابقة لأنه دلهم بواسطة الأنبياء لكونهم نُوّابه، ومنهم من دله بغير واسطة وهم من وجد في زمنه إلى يوم القيامة.

(**وحجابك الأعظم**): أي المانع الأعظم، فهو حجاب بين الله وبين خلقه، فلا يمكن

أحداً الوصول لله إلا بواسطته، أو حجاب بمعنى: مانع المضار الدنيوية والأخروية عن أمته.

والأعظم صفة لحجاب. وصفه بالأعظم، لأن الأنبياء حُجُب أيضاً لأممهم، فهو أعظمهم، وكذا الشيخ حجاب لتلميذه، فتلك حجب خاصة، والمصطفى صلى الله عليه وسلم هو الحجاب الكلي، ويسمّى بالبرزخ الكلي لكونه حجاباً وبرزخاً بين الخلق وربّهم كما تقدم.

(القائم لك بين يديك): أي الداعي الخلق إليك، من غير واسطة بينك وبينه، والمراد: أنه قائم بحضرة القرب المعنوي، منهمك في طاعتك.

ولما استحضر عظمة المصطفى صلى الله عليه وسلم بتلك الأوصاف المتقدمة التي لم تكن لمخلوق سواه، تضرع لربه بقوله:

(اللهم): أي يا ألله.

(ألحقني): أوصلني.

(بنسبه): هو دين الإسلام، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: آل محمد كل تقي.

(وحققني بحسبه): المراد بالحسب هنا التقوى، أي ارزقنا تقواك بطاعتك وطاعة رسولك، فأكون محققاً بها، فإن الحسب ما يفتخر به من مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، وقال البوصيري في حق آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم:

سدتم الناس بالتقى وسواكم ... سوّدته البيضاء والصفراء

(وعرفني إياه): أي يا ألله عرّفني ذلك الحبيب.

(معرفة): مفعول مطلق لقوله عرفني.

(أسلم بها): أي بسبب تلك المعرفة.

(من موارد الجهل): الموارد جمع مورد، وهو مكان ورود الماء.

والجهل: ضد العلم، والمراد الجهل الضار في الدين، فشبه الجهل بماء من سم، فكما أن السم مفسد للأبدان، فالجهل مهلك للأديان.

(وأكرع): أشرب.

(بها): أي بتلك المعرفة.

(من موارد الفضل): ضد الجهل، فقد شبه العلم النافع بالماء الزلال بجامع أن كلا فيه حياة، فإن العلم فيه حياة القلوب والأرواح، والماء فيه حياة الأجساد والأشباح، ففي كل من الجهل والفضل استعارة بالكناية وإثبات الموارد تخييل.

(واحملني على سبيله إلى حضرتك، حملاً محفوفاً بنصرتك): الحمل في الأصل هو الركوب.

والسبيل: الطريق.

فقد شبه الطريق بدابة تركب إلى دار الملك، وطوى ذكر المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الحمل.

والمعنى: اسلك بي طريقه، واجعلني عاملاً بشريعته، محفوظاً من كل عائق حتى أصل إليك بعنايتك.

(واقذف بي على الباطل فأدمغه): أي اجعل الحق معي، ومصحوباً بي، فأذهب به إلى الباطل فأدمغه، قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾. والباطل كل ما يشغل عن الله تعالى.

والمعنى: اجعلني مهدياً في نفسي، مهدياً لغيري.

(وزُجَّ بي في بحار الأحدية): أي أدخلني في توحيد الأحدية الشبيه بالبحر، وهو الفناء عن سوى الذات العليا، فلا يشهد سواها في ظاهره وباطنه، ويقال لصاحبها: هو في مقام الفناء، وفي عين الجمع، المعبر عنه بتجريد التوحيد.

(وانشلني): أي خلصني سريعاً.

(من أوحال): مخاوف.

(التوحيد): إنما قال ذلك عقب قوله: وزج بي، الخ، لأن صاحب الفناء إن لم تدركه العناية أنكر ثبوت الآثار، ومنها الرسل وما جاءوا به، والعالم برمته كما يقول الحلاج: "ما في الجبة إلا الله"، لأنه مشاهد للذات بدون الأسماء والصفات، والعوالم نشأت بمظهرها.

ومعنى تخليصه من تلك الأوحال، نقله لمقام البقاء، فلذلك قال:

(وأغرقني): أي واجعلني مستغرقاً.

(في عين): أي ذات.

(بحر): أي توحيد.

(الوحدة): وهو شهود الذات متصفة بالصفات، ويسمى صاحبه في مقام البقاء، وفي مقام جمع الجمع، فيستدل على الصنعة بالصانع، لكونه لا يشهد إلا الله وصفاته، والصنعة آثار صفاته، فلذلك قال:

(حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها): فيكون جامعاً بين مقام الفناء ومقام البقاء، كمن أحيي بعد الموت، قال أبو الحسن الشاذلي: "من لم يتغلغل في

علومنا مات مصراً على الكبائر" والمراد من لم يجمع بين المقامين الفناء ثم البقاء، وقال العارف بالله سيدي محمد بن وفا رضي الله عنه:

وبعد الفناء في الله كن كيفما تشا فعلمك لا جهل وفعْلُك ولا وزر

تنبيه:

قد علم مما تقدم من قوله: (واحملني على سبيله) إلى هنا ثلاثة مقامات:

1- مقام المحجوبين، السائرين إلى الله، المستدلين بالصنعة على الصانع، أفاده بقوله: واحملني على سبيله إلى حضرتك.. إلى آخره.

2- ومقام أهل الفناء المحض، الذين غرقوا في توحيد الأحدية، فلم يشهدوا سوى ذات الله تعالى، وقد أفاده بقوله: (وزج بي في بحار الأحدية). ولما كان مقام سكر، وخروج عن طور البشرية، وعن حد التكليف قال: وانشلني، الخ.

3- ومقام أهل البقاء بعد الفناء، وهم الذين يشهدون الصنعة بوجود الصانع، لكونهم شهدوا قبل شيء ذات مولاهم، وصفاته، وأسماءه، وقد أفاده بقوله: وأغرقني في عين بحر الوحدة..الخ.

وهذا معنى الحديث القدسي: (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل، حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها) الخ.

فأشار في الحديث إلى مقام السائرين بقوله: (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل).

وإلى مقام الفناء المحض بقوله: (حتى أحبه).

وإلى مقام البقاء بقوله: (فإذا أحببته كنت سمعه)...الخ. ومعناه كنت مشهوده قبل سمعه ومسموعه، وبصره ومبصره، ويده وبطشها، ورجله ومشيها، لكونه يشهدني قبل كل شيء، وهذي آثاري لا ترى له إلا بعد شهودي، وهو معنى قول بعض العارفين عن الحضرة العلية:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

فقوله (تلك آثارنا) أمرنا بالسير لمن يستدل بالصنعة على الصانع.

وقوله (فانظروا بعدنا) - أي بعد الفناء - فينا بسيركم إلينا (إلى الآثار) أي فاشهدوا آثارنا بعد شهودنا، وهذا مقام البقاء. وهذا المعنى هو الذي قال فيه سيدي عبد الغني النابلسي:

كل شيء عقد جوهر حلية الحسن المهيب

ولما كان كمال العبودية، وكمال التوحيد والمعرفة، لا يتم لصاحبه إلا بالاستقاء من

يد المصطفى صلى الله عليه وسلم قال:

(واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي): المراد بالحجاب هو المصطفى صلى الله عليه وسلم، كما تقدم أنه يسمى الحجاب الأعظم، وبالبرزخ الكلي، وبغير ذلك.

والمعنى: مدّ روحي من النبي صلى الله عليه وسلم، كما تمدّ العود الأخضر من الماء. فكما أن المياه حياة الأبدان والنباتات، هو صلى الله عليه وسلم حياة الأرواح وروحها، فالأرواح التي لا تشاهده ولا تستقي منه كأنها أموات، وهي أرواح أهل الكفر والعصيان.

(وروحه سر حقيقتي): أي اجعل روحه ذاكرة لإنسانيتي في الملأ الأعلى، وجد لي بكل خير، لأني إذا لم يتوجه إلي خسرت وندمت.

(وحقيقته جامع عوالمي): أي اجعل جميع أجزائي مشغولة به ظاهراً وباطناً، ولا أتعلق بغيره، بل أكون تابعاً له في كل ما أمر به ونهى عنه، كما قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: (لو غاب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين).

(بتحقيق الحق الأول): أي العهد الأول، يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾. يحتمل أن تكون الباء للقسم، والمعنى: أقسم عليك يا رب بتحقيق الحق الأول أن تستجيب لي ما دعوتك به.

ويحتمل أن الباء للمصاحبة متعلقة بالدعوات المتقدمة من قوله: (وزج بي) إلى هنا، فيصير المعنى: زج بي في بحار الأحدية زجة موافقة لتوحيدي الأول، وانشلني من أوحال التوحيد نشلة مصاحبة للتوحيد الأول، وأغرقني في عين بحر الوحدة غرقة موافقة للتوحيد الأول، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي جعلاً مصاحباً للتوحيد الأول، وهكذا.

(يا أول): الذي ليس قبله شيء، أو الذي لا افتتاح لوجوده.

(يا آخر): الذي ليس بعده شيء، أو الذي لا انقضاء لوجوده.

(يا ظاهر): الذي ليس فوقه شيء، أو الذي ظهر بصنعه وأفعاله.

(يا باطن): الذي ليس دونه شيء، أو الذي تحجب عنا بجلاله.

(اسمع ندائي): سماع قبول وإجابة.

(بما سمعت به نداء عبدك زكريا): أي بمثل ما سمعت به نداء عبدك زكريا، حيث قال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ عليهما الصلاة والسلام.

وإنما خص زكريا دون غيره من الأنبياء، لأنه طلب أمراً عظيماً وهو يحيى عليه السلام، فورثه في النبوة والعلوم والمعارف، فطلب الشيخ من الله أن يهبه خليفة، وارثاً له، مثل خليفة زكريا، فأعطاه الله القطب الكبير أبا الحسن الشاذلي، فورثه في الطريق والعلوم والمعارف.

(**وانصرني بك**): أي قوّني بحولك وقوتك.

(**لك**): أي لوجهك، لا لأغراض نفسي.

(**وأيدني بك**): أي بسر من عندك قوة وإيمان وصبر على البلاء، بحيث تصير البلايا عطايا، فأصير شاكراً على السراء، حامداً على الضراء.

(**لك**): أي لمرضاتك.

(**واجمع بيني وبينك**): أي أزل حجاب الغفلة وكل شاغل يشغلني عنك، ولا تحجبني عن مشاهدتك طرفة عين.

(**وحُلْ بيني وبين غيرك**): من كل قاطع يقطعني عنك، فالجمل الأربع متقاربة، والدعاء محل إطناب.

(**الله، الله، الله**): كرره ثلاثاً، إشارة إلى أن المراتب ثلاثة: توحيد الأفعال والصفات والذات، فإذا قال ألله شاهدَ أفعاله في خلقه، وإذا قالها ثانياً شاهد الصفات، فيشاهد أن الله متصف بكل كمال، وإذا قالها ثلاثاً ارتقى لمشاهدة الذات، فيشهدها بدون الصفات وهي مرتبة أهل الفناء، أو مع الصفات والأفعال، وهذه مرتبة أهل البقاء.

وقيل: الحكمة في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلقن أصحابه الذكر ثلاثاً.

وقيل: الحكمة في ذلك، أن درج المنبر النبوي ثلاث، فكان النبي صلى الله عليه وسلم كلما صعد على درجة قال: ألله، فاقتدى به.

وقيل: الحكمة في ذلك أن الله وتر.

وقيل: الحكمة في ذلك أن النفوس ثلاثة: أمارة، ولوامة، ومطمئنة.

فإذا قال (ألله) أولاً، خرج من الأمارة.

وإذا قال (ألله) ثانياً، خرج من اللوامة.

وإذا قال (ألله) ثالثاً، وصل إلى المطمئنة.

(**إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد**).

الحكمة في ذكر الآية، أن الآية قيلت للنبي صلى الله عليه وسلم، فكأن المصنف يقول: أصدقت وعد حبيبك فأصدقْ وعدي، بأن تلحقني به.

(**ربنا آتنا من لدنك رحمة**): أي أعطنا رحمة من عندك.

(**وهيئ لنا من أمرنا رشدا**): أي يسر لنا، والرشاد ضد الضلال والغي.

(**إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما**).

ختم بهذه الآية دليلاً لصلاته، فكأنه يقول: إنما وضعت تلك الصيغة، وصليت بها على النبي، وذكرته بتلك الأوصاف، لأن الله وملائكته يصلون على النبي، والمؤمنون جميعاً مأمورون بذلك، فاقتديت به، وامتثلت لأحوز الشرف.

ترجمة سيدي الطيب ابن كيران

قال سيدي محمد بن جعفر الكتاني في كتابه "سلوة الأنفاس":

(شيخ الإسلام، وعالم الأعلام، خاتمة المحققين، وحامل راية المدققين، أعجوبة الزمان، في الحفظ والتحصيل والإتقان، أبو عبد الله سيدي محمد الطيب، بن عبد المجيد، بن عبد السلام. ابن كيران، الفاسي داراً ومنشأ ومزارا.

تفرد- رحمه الله- في الدنيا بعلم الأصول والفروع، والمفردات والجموع، يعرف أكثر الفنون على نهج الاجتهاد، وهو- وإن لم يجتهد بالفعل، للقطع بانقطاعه- فقد كاد. أما العلل، فلا يقلد فيها، ولا يرى النظر الإجمالي يكفيها. وكان لسلاسة عبارته وفصاحة لسانه ينتفع به كل أحد، حتى النساء والولدان، ولكثرة حفظه وبراعته ومشاركته، لا يستغني عنه أحد حتى العلماء والسلطان.

وبالجملة فقد كان حافظا لا يجارى في العلوم كلها، تحسبه في كل الفنون أحد رؤسائها، وعلمه لا يدرك بالاجتهاد، وإنما يكون بخرق العادة من رب العباد.

بالحفظ قد قاد العلوم فما لَها	من مهرب عن ربقة الإذعان
إن مقفلات قد تعسر حلها	فاقصده مفتاحاً تفز ببيان
أو مظلمات دونها يقف الحجا	فاقصده مصباحاً تفز بعيان

أخذ رحمه الله عن أبي حفص الفاسي، وأبي عبد الله محمد بن الحسن البناني، وأبي عبد الله محمد التاودي ابن سودة المري، وأبي محمد عبد الكريم اليازغي، وأبي محمد عبد القادر ابن شقرون، وأبي عبد الله محمد بن طاهر الهواري، وسيدي زين العابدين العراقي الحسيني... وغيرهم، وأجازه خاتم الحفاظ بالديار المغربية أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي.

وأخذ عنه أقوام لا يحصون: كولده سيدي أبي بكر، وسيدي حمدون ابن الحاج، وأبي عبد الله الزروالي، وأبي عبد الله ابن منصور، وسيدي محمد التهامي ابن الحاج محمد البوري، وسيدي محمد بن الحسن أقصبي، وسيدي محمد المدني المغربي، وأبي العباس ابن عجيبة، وسيدي عبد القادر بن أحمد الكوهن، وسيدي محمد بن

عبد الرحمن الفلالي الحجرتي، وسيدي العربي بن محمد الدمناتي، والقاضي مولاي عبد الهادي بن عبد الله العلوي، وسيدي الوليد العراقي... وغيرهم ممن يكثر.

ومِنْ أجلِّ من أخذ عنه: السلطان الهمام، حامل ألوية الإسلام، عالم السلاطين، وعون الضعفاء والمساكين، منية السلوان، أبو الربيع مولانا سليمان، ابن مولانا محمد ابن مولانا عبد الله ابن مولانا إسماعيل الحسني العلوي السجلماسي، المتوفى بمراكش يوم الخميس ثالث عشر ربيع النبوي عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف، وولادته سنة ثمانين ومائة وألف، وبيعته سنة ست ومائتين وألف. وأخذ بسجلماسة عن سيدي عبد القادر ابن شقرون، وسيدي محمد بن طاهر الهواري، وأبي عبد الله محمد الطرنباطي، وسيدي حمدون ابن الحاج... وغيرهم ممن كان والده يوجهه إليه. ولما ارتحل إلى فاس، أخذ بها عن سيدي التاودي ابن سودة، واعتمد في علوم البلاغة والمنطق والعربية والتصريف سيدي عبد القادر ابن شقرون وصاحب الترجمة.

وألَّف- رحمه الله- أعني صاحب الترجمة، تآليف عديدة: كالتفسير لكتاب الله، من سورة النساء إلى قوله في سورة غافر: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝ ﴾، وتفسير الفاتحة، وطرف من البقرة؛ وشرح "الحِكَم"، وألفية العراقي في السيرة، وتوحيد "الرسالة" لم يكمله، وتوحيد "المرشد المعين"، وكتاب "العلم" من "الإحياء"، والعشرة الأخيرة من "الأربعين النووية" بأمر مَوْلوي، والصلاة المشيشية، ونصيحة أبي العباس الهلالي، ورسالة السلطان أبي الربيع مولانا سليمان في الكسب، وخريدة سيدي حمدون ابن الحاج في المنطق، وكراسة في أوجه (لو) وما يتعلق بها. وله حاشية على "المحاذي" لابن هشام عديمة النظير، إلا أنها لم تكمل، ونظم بديع في المجاز والاستعارات... وتآليفه كثيرة.

ولد رحمه الله عام اثنين وسبعين ومائة وألف، وتوفي بالشهدة عند صباح يوم الجمعة السابع عشر - على ما فيه فهرسته الكوهن - واعتمده من قال:

في جمعة يز المحرم شكا ... بدر لطيب فكل قد بكا

أو الرابع عشر- على ما في شرحي أرجوزته في الاستعارات لتلميذيه البوري وأقصبي- من محرم الحرام عام سبعة وعشرين ومائتين وألف، وحضر جنازته من الخلق ما يستغرب عادة وجودهم بفاس، بسبب أنه كان من عادة أهل فاس خروج غالب نسائهم وذراريهم لباب الفتوح في الجمعة التالية ليوم عاشوراء، فخرجت النساء بذراريهن على العادة، فاتفق أن مات في ذلك اليوم، ودفن بهذا الخارج بمطرح الأجلة،

بالروضة المذكورة منه، وسطها: فحضر جنازته من الرجال والنساء والصبيان خلق كثير قلَّ أن يتفق حضورهم لغيره. وقبره مزدج، ليس عليه بناء ولا غيره، وهو معروف عند كثير من الطلبة، مزار متبرك به. وذكر بعضهم أن تلميذه السلطان مولاي سليمان كان يتعاهد قبره ويدعو عنده. رحمه الله ونفعنا به. ترجمه في "إمداد ذوي الاستعداد"، وأشار لشيء من ترجمته غيره).

معلمة المغرب صفحة 6856

(محمد الطيب بن عبد المجيد ابن كيران، هو شيخ الجماعة بفاس، وأحد العلماء البارزين خلال عهد المولى سليمان (1792- 1822). يُجمع الذين ترجموا له أنه كان يعرف أكثر الفنون بالاجتهاد لا بالتقليد، وتشهد له على ذلك مؤلفاته التي أصبح البعض منها متداولاً بين طلبة القرويين والمدارس.

تتلمذ محمد الطيب ابن كيران على محمد التاودي بن سودة وعمر الفاسي ومحمد بن الحسن بناني ومن عاصرهم من علماء فاس. وقد اشتغل بالتدريس فكان من جملة تلامذته السلطان المولى سليمان الذي أصبحت تجمعه بشيخه علاقة حميمة. ومن الفنون التي درسها ابن كيران بفاس التفسير والمنطق والتصوف والنحو والبلاغة، وقد ألّف في كل هذه الفنون وغيرها. ومن أهم مؤلفاته: شرح توحيد المرشد المعين، وشرح الخريدة في المنطق، وحاشية على توضيح ابن هشام، وشرح على الحكم العطائية، وآخر على الصلاة المشيشية، ونظمه في المجاز والاستعارة مشهور بين الطلبة وقد شرحه أكثر من عالِم.

وكان محمد الطيب ابن كيران يتمتع باحترام كبير من طرف السلطان المولى سليمان الذي كان يستشيره في الكثير من المشكلات. ومما يدل على العلاقة الخاصة التي كانت تجمع بينهما تطابق مواقفهما المذهبية وهو ما يتجلى من خلال مؤلف اشتركا فيه، ويدور حول مسألة الكسب، كما يتجلى ذلك التطابق في ردهما على الدعوة الوهابية التي وصل صداها إلى المغرب عند بداية القرن التاسع عشر. ويظهر جليا من الرسالة التي حررها ابن كيران حول مسألة الكسب، وذلك بناء على توجيهات من المولى سليمان، أن كلاهما كان متشبثاً بموقف أهل السنة فيما يتعلق بخلق الأفعال ومسؤولية العبد عنها، وقد اختارا موقفاً وسطاً بين مذهب الجبرية ومذهب القدرية، وهو موقف أوجزه أحد العلماء في أن "أفعال العباد خلق للرب كسب للعبد". وتتضمن هذه الرسالة كذلك موقفهما من مسألة التكفير، حيث عارضا فكرة تكفير مرتكب

الكبائر، وهذا بالضبط ما جعلهما ينتقدان الوهابية ويُعارضان تكفيرهم للمتعلق بالأولياء.

وكان محمد الطيب ابن كيران من أوائل العلماء المغاربة الذين اطلعوا على آراء الوهابية وتصدوا للرد عليها. ويخبرنا أحد تلامذته ومعاصريه، أحمد بن عبد السلام بناني في كتابه الفيوضات الوهبية في الرد على الطائفة الوهابية أنه عندما رجع من الحج في سنة 1803 سلم إلى شيخه ابن كيران رسالتين منسوبتين إلى الوهابيين، وقد انتقلت الرسالتان بعد ذلك إلى يد السلطان فكلف ابن كيران بالنظر في محتواهما وتحرير رد في الموضوع، وقد كتب ابن كيران في ذلك رسالة تقع في حوالي خمسين صفحة فند فيها آراء الوهابيين وخاصة ما يتعلق بتكفير المتوسل بالأنبياء والأولياء. وفي سنة 1811 عندما قرر المولى سليمان إرسال ولده إبراهيم إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج كلف ابن كيران بتحرير جواب رسمي على المذهب الوهابي، وقد حرره وفقاً لتعليمات السلطان فجاء أقل عنفاً وتشدداً من مؤلفه السابق، لكنه يعكس نفس الموقف الرافض لتطرف الوهابيين ومغالاتهم في مسألة التكفير على الخصوص. وقد حمل المولى إبراهيم هذا الجواب معه، وكان بصحبته وفد من العلماء المغاربة كلفهم المولى سليمان باستطلاع آراء الوهابيين والتأكد من ممارساتهم.

توفي محمد الطيب ابن كيران في السنة نفسها التي حج فيها ولد السلطان (1812)، وتركت وفاته فراغاً كبيراً على مستوى النخبة العالمة بفاس. وبموته في سنة 1812/1227 فقد المولى سليمان أهم سند كان يتوفر عليه في صفوف العلماء، وقد ظهر أثر ذلك في تلاشي الصلات التي كانت تجمعه بالعلماء، خاصة بعد هزيمة زيان في سنة 1819 وخروج أهل فاس عن طاعة السلطان مباشرة بعد ذلك).

شرح سيدي الطيب بن عبد المجيد ابن كيران

المتوفى عام 1227 هجرية

قوله رضي الله عنه: **(اللهم صل)**

اسم الجلالة عَلَمٌ على الذات الأقدس الواجب الوجود، المستحق لكل كمال وجمال، الدال عليه تعالى دلالة جامعة لمعاني أسمائه الحسنى كلها ما علم منها وما لم يعلم، ولذلك يقال في كل منها إنه من أسماء الله تعالى ولا عكس. فهذا الاسم هو الذي تضاف إليه سائر الأسماء، ولا يضاف هو إلى غيره.

وإذا عُدّت أسماء الله تعالى أو ذُكرت، ذُكر أولها، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾، وقال: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ إلى آخر السورة. وقال صلى الله عليه وسلم: (إن لله تسعة وتسعين اسما).

وأيضا فهذا الاسم اسم، وسائرها صفات، فلذا جعلت تابعة له.

ومن خصائص هذا الاسم أنه ورد في الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمم، فلم تنكره أمة من بني آدم، بل هو جار على ألسنتهم من عهد آدم عليه السلام إلى انقضاء الدنيا.

أما الكتاب، فقد استفتحه سبحانه ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، وكثر كثرة لا تخفى على تال، لا سيما في سورة المجادلة، حتى قيل: لم تخل عنه آية من آياتها، بل قد يكرر في الآية الواحدة منها، وقد تكرر في القرآن ألفي مرة وخمسمائة وستين مرة.

وأما السنة، فقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح كتبه باسم الله، وخطبه بـ (الحمد لله) يعلِّم ذلك أمته، فاقتفى أثره العلماء، فما من مؤلف ولا مدرّس، ولا واعظ، ولا كاتب رسالة، ولا خطيب إلا وهم يفتتحون كلامهم باسم (الله).

وأما إجماع الأمم، فقد جاء في القرآن ذكر هذا الاسم عن المكذبين من قوم نوح وعاد وغيرهم، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ ﴾.

فدلّ ذلك على أنه ما من أمة قصّ الله تعالى علينا خبرها إلا وهي تذكر هذا الاسم وتعرفه، ولم ينكره إلا أفراد كنمروذ وفرعون وأشباههما من الدهرية.

وفي جعل هذا الاسم متواترا في الأمم، دائراً على ألسنتهم أبلغ حجة عليهم ومعهم، ومع كون الكفار كانوا بهذا الاسم كانوا لا يعرفون مدلوله كما يجب فلذلك أشركوا.

ومن خصائصه: أنه لم يتسمّ به إلا رب العالمين وخالقهم، وقد قبض الله تعالى عنه ألسنة المخلوقين وأفئدتهم فلم يجترئ أحد من الجهال على التسمية به مع شدة جرأتهم على اتخاذ الشركاء وأنواع الكفر. قال تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾. بل جعل الله سبحانه على الاسم من الهيبة والجلالة ما يقضي أن العارف به إذا سمعه خضع وذلّ وتضاءل، ولزم قلبه الخوف والخشية. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

ومن خصائصه: أنه لا يجزئ بغيره من الأسماء عنه في الأذان والإقامة والإحرام في الصلاة وسائر تكبيراتها، وفي مقاطع الحقوق.

ومنها: أنه إذا ارتفع من الأرض قامت الساعة. وهو أحد التأويلين في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة وعلى الأرض من يقول: الله).

ومنها: أن به الدخول في الإسلام والخروج من الدنيا.

أما الأول: فلقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله).

قال الفخر الرازي: لو أن أن الكافر قال: أشهد أن لا إله إلا الرحيم، أو الملك، أو القدوس، لم يخرج من الكفر، ولا يدخل في الإسلام إلا إذا قال: فلا إله إلا الله، أي: مع الإمكان.

وأما الثاني: فلكون الشهادة مطلوبة من العبد عند الاحتضار، وينبغي أن تكون آخر كلامه لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة).

ومنها: صحة كونه قافية لجميع القصيدة كالتي أولها: إن أبطأت...الخ.

قال في مرآة المحاسن: وليس ذلك من الإيطاء المعيب في القوافي لأن علة عيبه استثقال المعاد والدلالة على عجز الشاعر، وذلك منتف هنا، فإن هذه القافية لا أطيب ولا أحسن ولا أخف على اللسان والسمع والقلب منها. وفي التنزيل: ﴿ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ وهذا مما يندرج فيه، انتهى.

ومنها: زيادة ميم مشددة في آخره في النداء كما هنا، ثم قال الفراء: أصل (اللهم) يا ألله أمنا بخير، فاختصر، ورُدّ بأنها دعوى لا دليل عليها، وبأنه يستعمل في مواضع لا يصح فيها التقدير.

والصحيح: أن الميم عوض عن حرف النداء، فلا يجمع بينهما إلا شذوذاً.

وكانت مشددة لتكون من حرفين كـ (يا)، وكانت ميما وفي آخر لأنها مع كونها عوضا، تشعر بالتعظيم فهي كميم الجمع، ولذا قال النضر ابن شميل: إذا قلت اللهم فكأنما دعوت الله بأسمائه كلها. وقال الحسن البصري: اللهم مجمع الدعاء.

ولهذه الخصائص ذهب قوم إلى أنه اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، واختاره الفخر الرازي.

وعدم الاستجابة لكثير من الناس الداعين به لعدم استجماع شروط الإجابة التي من جملتها الاستغراق في معناه.

وأما الصلاة، فقال أبو العالية: معنى صلاة الله على نبيه: ثناؤه عليه عند الملائكة، وعند صلاة الملائكة عليه الدعاء. قال في فتح الباري: وهذا أولى الأقوال.

وعن ابن عباس: هي من الملائكة الدعاء بالبركة. وقيل: صلاة الله رحمته. وقيل: مغفرته.

وقال أبو بكر القشيري: صلاة الله على النبي تشريف وزيادة تكرمة، وعلى من دونه رحمة. وهذا يظهر الفرق بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبين سائر المؤمنين حيث قال في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾، وقال قبل ذلك في السورة المذكورة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾، ومعلوم أن القدر الذي يليق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك أرفع مما يليق بغيره.

وقال الحليمي في الشعب: معنى صلاة الله تعظيمه، وتعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته وتشفيعه في أمته وإبداء فضله بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿ صَلُّواْ عَلَيۡهِ ﴾ ادعوا ربكم بالصلاة عليه.

والذي شاع على الألسنة أن الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار أي دعاء به بدليل: ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أو بغيره بدليل: (الملائكة تصلي على أحدكم ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه)، ومن العباد: دعاء بعضهم لبعض.

واختار ابن هشام في المغني أنها بمعنى واحد، وهو العطف، لأن العطف بالنسبة

إلى الله تعالى رحمة، وإلى الملائكة استغفار، وإلى الآدميين دعاء بعضهم لبعض. ونحوه للسهيلي في كتابه المسمى بنتائج الفكر.

وحكم الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم: الوجوب مرة في العمر كالحج، والحمد، والنطق بكلمتي الشهادة، وذلك لأن الله تعالى أمر بالصلاة عليه في قوله: ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ وأطلق، فيحصل الامتثال بأقل ما تحقق فيه الماهية وهو المرة بناء على المختار من أن الأمر في ذاته لا يدل على وحدة ولا على تكرار بل مطلق، والمرة ضرورية، ويبقى الطلب بعد ذلك على جهة الاستحباب من غير تحديد إلا أنها تتأكد في مواضع:

منها: التشهد الأخير، وأوجبها الشافعية فيه، وعندنا - أي عند السادة المالكية- سنة أو فضيلة.

ومنها: إذا ذكر اسمه - صلى الله عليه وسلم- حتى أوجبها جماعة عند ذكره، واختاره ابن العربي لحديث: (من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ، فمات، فدخل النار فأبعده الله). أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة. وحديث: (رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل عليَّ) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم. وحديث: (شقي عبد ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ) أخرجه الطبراني من حديث جابر.

ومنها: عقب إجابة المؤذن، لحديث: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة). أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والنسائي من حديث كعب بن علقمة.

ومنها: عند دخول المسجد والخروج منه، لحديث أحمد عن فاطمة رضي الله عنها: (كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد ثم قال: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك).

ومنها: قبل القيام من المجلس، لحديث إسماعيل القاضي عن أبي سعيد: (ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب).

ومنها: عند الصباح والمساء، لحديث أبي الدرداء مرفوعا: (من صلى عليَّ حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة) رواه الطبراني.

ومنها: عند الوضوء لحديث سهل بن سعيد مرفوعا: (لا وضوء لمن لم يصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم) رواه ابن ماجه.

ومنها: عند طنين الأذن، لحديث أبي رافع مرفوعا: (إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصلِّ عليَّ وليقل: ذكر الله من ذكرني بخير) رواه ابن السني.

ومنها: عند نسيان الشيء، لحديث أنس: (إذا نسيتم شيئا فصلوا عليَّ تذكروه إن شاء الله) رواه المديني.

ومنها: عند زيارة قبره الشريف صلى الله عليه وسلم، لحديث: (من صلى عليَّ عند قبري سمعته) رواه ابن عساكر.

وورد الأمر بالإكثار منها يوم الجمعة وليلتها، فعن أوس بن أوس الثقفي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليَّ. قالوا: يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه ابن خزيمة وابن حبان.

وإنما أمرنا بالصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم لنقوم ببعض حق الواسطة جمعاً بين الحقيقة والشريعة، فإن كل خير وإن كان في الحقيقة من الله ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ لكن الشرع جاء بشكر الوسائط، ففي الحديث: (من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأله بوجه الله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافؤونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وفي حديث آخر: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله).

ولا شك أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الواسطة للعباد في كل خير ديني أو دنيوي كما يأتي أيضا إن شاء الله تعالى.

ويحصل لنا ما ورد في ذلك من المزايا والأجور، ففي حديث مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: (من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشرا).

قال ابن عطاء الله: من صلى الله عليه مرة واحدة كفاه هم الدنيا والآخرة، فكيف بمن صلى عليه عشرا؟

وعن أنس مرفوعا: (من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات). أخرجه النسائي.

وورد في أخرى عن أبي طلحة: جاء صلى الله عليه وسلم ذات يوم والبشرى في وجهه، فقلنا أما ترى البشرى في وجهك؟ فقال: أتاني جبريل فقال: يا محمد إن ربك يقول: أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشرا، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا.

وعن ابن مسعود مرفوعا: (إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة) أخرجه الترمذي.

وورد: (من صلى عليَّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب) ذكره في الشفاء. وفي رواية: (تصلي عليه) والصلاة في الكتاب بالكتابة وهو أظهر، أو القراءة وهو أرجى، قاله سيدي زرّوق.

وهل منفعة الصلاة والسلام راجعة إلينا فقط لدلالتها على خلوص النية وإظهار المحبة فهما دعاء على وجه التقرب إلى الله لا كسائر الأدعية التي يقصد بها نفع المدعو له، وبه قال ابن العربي والشيخ السنوسي، أو يزيده الله تعالى رفعة وشرفاً بدعاء أمته له، لأن العبد لا يستغني عن الزيادة من مولاه في وقت من الأوقات، وبه قال القرطبي والقشيري. ووفق العارف بالله أبو زيد الفاسي بينهما بأن الأول: تنبيه على الأدب في القصد، والثاني: إخبارٌ عن كرم الله تعالى وعدم تناهي أفضاله.

لكن يعكر على هذا التوفيق حديث الترمذي عن أُبَي بن كعب قال: (يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ما شئت، قلت: الربع؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير لك. قلت: فالنصف؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير لك. قلت: فالثلثين؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير لك. قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: إذاً تكفى همك ويغفر ذنبك). حديث حسن.

وقد قالوا إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقبولة قطعاً بخلاف سائر الأعمال فلا يقطع بقبولها، وممن نصّ على ذلك أبو إسحاق الشاطبي. ولذا قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليصلِّ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولاً وآخراً فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما.

وإنما أسندت الصلاة إلى الله تعالى لأنا لما كنا عاجزين عن مكافأته صلى الله عليه وآله وسلم وجب أن نرجع ذلك إلى المولى الكريم القادر الذي بيده خزائن النعم، فيطلب منه أن يصلي على هذا النبي الكريم، وقد أرشد صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك حين قالوا: (أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد

مجيد) كما رواه الشيخان وغيرهما.

قوله: (على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار)

فيه وجوه:

- **أحدها**: أن يريد أنه صلى الله عليه وآله وسلم مرآة لمعرفة العارفين، ومجلى ظهرت فيه أسرار الذات وأنوار الصفات لأهل البصائر واليقين، كلٌّ على حسب مقامه

وكلهم من رسول الله ملتمس   غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

فمداره صلى الله عليه وآله وسلم على التعريف بالله، قولا وفعلا، أما القول فواضح، وأما الفعل فلأنه مقتد بأفعال إله يثيب من استحق الثواب، ويعاقب من يستحق العقوبة، وكان دائم البشر، وأحسن الناس طبعا، وأكملهم عشرة، وأسرعهم رضا، وأبعدهم غضبا، وإذا انتهك شيء من محارم الله تعالى لم يقم لغضبه شيء. وأصل ذلك تبعية إرادته لإرادة الله تعالى، بمقتضى الخلافة والتمكين، فكان صلى الله عليه وآله وسلم متخلقا بمعاني الأسماء الحسنى.

قال صاحب المعارف: أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم لا تنحصر، ويدل لذلك قول عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: (كان- صلى الله عليه وسلم- خُلُقه القرآن)، فيه رمز غامض وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت أن تعبر بذلك، وكنَّتْ عن هذا المعنى بقولها: (كان خلقه القرآن) استحياء من سبحات الجلال، وستراً للحال بلطيف المقال، وهذا من وفور عقلها وكمال دينها.

وقال الورتجبي في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ...﴾ الآية: جعل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم مرآة لظهور ذاته وصفاته، وعلى هذا حمل بعضهم قوله: (من رآني فقد رأى الحق)، وهو أيضا معنى قوله إن النبي صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل، وأنه مخلوق على صورة الله، وعلى صورة الرحمن.

وقد ورد الخبر بذلك، ومن هنا سمي صلى الله عليه وآله وسلم بكثير من أسمائه تعالى كالرؤوف والرحيم والنور.

وقد أشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا المعنى في حق غيره بقوله - كما في الصحيح -: (خيار أمتي الذين إذا رؤوا ذكر الله).

وعبّر بـ (الأسرار) عما يبدو لخاصة الخاصة من شهود كمال الذات لشدة خفاء ذلك على غيرهم.

وأتى بـ (الانشقاق) مناسبة له، وبـ (الأنوار) عما يبدو لغيرهم من معاني الصفات لظهورها بالنسبة لأسرار الذات. وأتى بـ (الانفلاق) مناسبة أيضا لأنه أقوى، وكل ذلك

إنما هو بواسطته صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يتوصل أحد إلى شيء منه إلا به. ولابن زكري في هذا المعنى:

محمد مرآة أرباب الشهود والعارفون كلهم بذا شهود
وجه له الشهود تحظَ بالشهود وعند ذا تنظم في سلك الشهود

- **ثانيها**: أن يكون أشار إلى ما تضمنه حديث جابر وعمر رضي الله عنهما من أنه صلى الله عليه وآله وسلم أصل الموجودات وعنصرها وأساسها.

قال جابر: قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي.. أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء؟ قال: يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم، ولا جنة ولا نار، ولا ملك، ولا سماء ولا أرض، ولا شمس ولا قمر، ولا جني ولا إنسي، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قَسَمَ ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السموات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله، ومن الثالث نور ألسنتهم وهو التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وهذه القسمة لا توجب قسمة الماهية المحمدية، كما لا يوجب الاقتباس من السراج قسمته، ومن ثم جعله الله سراجاً في قوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾. ولم يشبهه في الآية بالشمس والقمر مع عموم إضاءتهما لعدم الاقتباس منهما، أو لغيبة نورهما بأفولهما، ونوره صلى الله عليه وآله وسلم لا ينقطع أبدا. ولا بنور الشمع، لأن الشمع للملوك والأغنياء فلا يصل الفقراء إليه غالبا، ووجوده صلى الله عليه وآله وسلم وإفضاله عام غير مقصور على قوم دون آخرين.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (يا عمر، أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله عز وجل أول كل شيء نوري، فسجد لله، فبقي في سجوده سبعمائة عام، فأول كل شيء سجد لله نوري ولا فخر. يا عمر، أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله العرش من نوري، والكرسي من نوري، واللوح والقلم من نوري، والشمس والقمر من نوري، ونور الأبصار من نوري، والعقل الذي في رؤوس الخلق من نوري، ونور المعرفة في قلوب المؤمنين من نوري، ولا فخر).

وفيه بيان أن أول ما صدر منه - صلى الله عليه وسلم - السجود لله، ومن ثم خرج من بطن أمه على هيئة الساجد. وبيان أنه أول ساجد، والسجود أقرب الحالات إلى الله كما ورد: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد).

وفي سيرة الجيلي نقلا عن كتاب التشريفات في المناقب والمعجزات قال: ولم أقف على اسم مؤلفه: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وآله وسلم سأل جبريل عليه السلام فقال: يا جبريل.. كم عُمِّرتَ من السنين؟ فقال: يا رسول الله لست أعلم غير أن في الحجاب الرابع نجماً يطلع في كل سبعين ألف سنة مرة، رأيته اثنين وسبعين ألف مرة. فقال صلى الله عليه وسلم: وعزة ربي أنا ذلك الكوكب. رواه البخاري، هذا كلامه.

والمراد بـ (الأسرار) على هذا، كليات الوجود أي حقائقها لخفائها في طي الجزئيات، وبـ (الأنوار) الجزئيات لظهورها، ولكون نوره صلى الله عليه وآله وسلم أول المخلوقات، وتفرع جميعها عنه، فسمي بذرة الوجود، والتشبيه بالبذرة ليس من كل وجه لأن ماهية نوره لم تنقسم ولم تنقص كما تقدم. ولابن زكري في هذا المعنى:

أنت أصل الوجود فالكل من ... فرش إلى العرش منك ما أزكاكا

لولا جاهك لم يكن كون ... ولدام انعدامه لولاكا

ولسيدي أحمد بن وفا[1] في صلاته: (اللهم صل على النور الأول). وله[1]:

سكن الفؤاد فعش هنيئاً ... يا جسد هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد

إلى أن قال:

روح الوجود حياة من هو واجد ... لولاه ما تم الوجود لمن وجد

عيسى وآدم والصدور جميعهم ... هم أعين هو نورها لما ورد

لو أبصر الشيطان طلعة نوره ... في وجه آدم كان أول من سجد

أو لو رأى النمروذ نور جماله ... عبد الجليل مع الخليل وما عند

لكن جلال الله جلَّ فلا يُرى ... إلا بتخصيص من الله الصمد

- ثالثها: أن يكون أشار إلى أنه سبب الوجود وعلته، لما رواه الحاكم في صحيحه (أن آدم عليه السلام رأى اسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم مكتوباً على العرش وأن الله تعالى قال لآدم: لولا محمد ما خلقتك). وفي حديث آخر: (لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضا). وعند ابن عساكر من حديث سلمان قال: (هبط جبريل

---

(1) الصلاة على سيد الوجود. والأبيات الشعرية، هي لسيدي علي بن وفا.

على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إن ربك يقول: إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيباً، وما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا). وإلى هذا أشار البوصيري بقوله: (لولاه لم تُخْرَجِ الدنيا من العدم).

و (مَنْ) على هذا: تعليلية. وقد تبين بما تقدم أنه صلى الله عليه وآله وسلم السبب في وجود آدم، وأن آدم من نوره خلق. ولهذا قيل إذا لقيه آدم يقول: يا ولد ذاتي ووالد معناي، يشير إلى أن روحه صلى الله عليه وآله وسلم أبو الأرواح، وهو معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أنا يعسوب الأرواح).

ولابن الفارض في تائيته على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

ولابن زكري:

وفي حضرة الأنوار نوره سابق وفيه بدا نور الوجود بلا مين

فمن ثم في حشر يناديه آدم أيا والدي روحاً وفي الذات أنت ابني

ثم مع سبق وجوده ووجود كل مادة هو سابق في نيل النبوة أيضا، وإن تأخر مبعثه في عالم الأجساد. فعن ميسرة الضبي قلت: (يا رسول الله متى كنت نبيا؟ قلت: قال: وآدم بين الروح والجسد) رواه أحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو نعيم. وصححه الحاكم.

والبينية كناية عن النفس، لأنك إذا قلت: داري بين الكوفة والبصرة فمعناه ليست في واحدة منهما، فاستعمل "بين" في لازم معناه كما صرح به في رواية: (لا آدم ولا ماء ولا طين).

وفي رواية: (وآدم بين الماء والطين). وفي أخرى: (وإن آدم لمنجدل في طينته) أي مطروح على الجدالة أي الأرض، وليس المعنى أن نبوته كانت ثابتة في علم الله كما قيل لأنه لا يختص به، بل المراد أن الله تعالى خلع على روحه صفة النبوة فقام به خلق آدم ونفخ الروح فيه، ولا بعد في هذا ولا غرابة.

بل قيل إنه صلى الله عليه وآله وسلم سابق على سائر الأنبياء روحاً لما مر، وجسدا، لأن مادة جسده صلى الله عليه وآله وسلم خلقت قبل سائر المواد، لما روى ابن الجوزي في الوفاء عن كعب الأحبار: أنه تعالى لما أراد أن يخلق محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمر جبريل عليه الصلاة والسلام أن يأتيه بالطينة البيضاء، فهبط في ملائكة الفردوس وقبض قبضة من موضع منيرة بيضاء فعجنت بماء التسنيم في معين الجنة

حتى صارت كالدرة البيضاء لها شعاع عظيم، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي والسموات والأرض حتى عرفته الملائكة قبل أن تعرف آدم عليه الصلاة والسلام.

وقيل لما خاطب الله السماء والأرض بقوله: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أجاب موضع الكعبة الشريفة ومن السماء ما يحاذيها.

وقد قال ابن عباس: أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سرة الأرض بمكة، انتهى. قيل: ومن موضع الكعبة دحيت الأرض، فصار صلى الله عليه وآله وسلم هو الأصل في التكوين والكائنات تبع له، ولذلك سمي أمياً لأن مكة أم القرى، وذرته أم الخليقة.

فإن قلت: هل يخالف هذا ما مر من أن طينته عليه الصلاة والسلام من تربة قبره الشريف؟

قلت: ذكر صاحب عوارف المعارف: أنه قيل إن الماء لما تموج رمى الزبد إلى النواحي، فوقعت جوهرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بموضع قبره بالمدينة، فكان صلى الله عليه وسلم مكيا مدنيا.

وبما تقدم من خلع وصف النبوة على روحه قبل خلق آدم تعلم أن رسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة، وأن الأنبياء وأممهم كلهم من أمته في الحقيقة، وأن قوله: (وبعثت إلى الناس كافة) لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبله أيضا. وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم ...﴾. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله عليه وآله وسلم لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه). وهو مروي عن ابن عباس أيضا، ذكرهما العماد ابن كثير في تفسيره. فيفهم منه أن سائر الرسل عليهم السلام مقتبسون من نوره، ونوابه فقط قبل ظهوره، فهو نبي الأنبياء، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: (لو كان موسى وعيسى حيين ما وسعهما إلا اتباعي). ويدل لذلك إمامته صلى الله عليه وآله وسلم بالأنبياء ليلة الإسراء، واختصاصه في الموقف العظيم بالشفاعة الكبرى.

وروي أنه (لما خرج آدم من الجنة رأى مكتوباً على ساق العرش وعلى كل موضع من الجنة اسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم مقرونا باسم الله تعالى، فقال: يا رب

هذا محمد من هذا؟ فقال تعالى: هذا ولدك لولاه ما خلقتك. فقال: يا رب بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد. فنودي: يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السموات والأرض لشفعناك).

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لي. فقال تعالى: يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: لأنك يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. قال الله تعالى: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك) رواه البيهقي في دلائله.

فإن قلت: إذا كانت نبوته وبعثه سابقة، فما الحكمة في تأخير ظهوره وكونه خاتم النبيين؟ قلت: في ذلك فوائد، منها: أن يكون هو المتمم لدائرة النبوة، والمحصل لكمالها، والمظهر لتمام حقيقتها. قال السهروردي: مثل النبوة دائرة لها وجود في الغيب وهو حقيقتها، ووجود في الشهادة هو صورتها ووجودها الخارجي، وهي مؤلفة من نقط على عدد الأنبياء، والذي ابتدأ وجودها الخارجي آدم، وكلما وجد نبي وجد جزء من الدائرة، ولا تظهر صورتها ولا تكمل حقيقتها وهيئتها إلا بالنقطة الأخيرة وهي النقطة المحمدية. وقد مثل النبي صلى الله عليه وآله وسلم النبوة ببيت فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه فقال: (مثلي ومثل الأنبياء ممن قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وكمّله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ هل وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين). وغيره في رواية جابر.

ومنها: أنه سبحانه أطلعه وأمته على مساوئ الأمم السابقة، وعلى العقوبات والمثلات التي نزلت بهم ليعتبروا بذلك، فجعل هذه الأمة معتبرين لا معتبراً بهم، ومتعظين لا متَّعظاً بهم، وجعلهم شاهدين على غيرهم فقال: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾. وستر عيوبهم عن غيرهم من الأمم، بل نوّه سبحانه بقدرهم وبقدر نبيهم في الكتب السابقة تنويهاً تمنى بسببه كليم الله موسى عليه السلام أن يكون من هذه الأمة. أخرج أبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن موسى عليه السلام لما نزلت عليه التوراة وقرأها، وجد فيها ذكر هذه الأمة، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها ظاهراً فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يجعلون الصدقة في

بطونهم يؤجرون عليها فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر حسنات فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت له سيئة، فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يؤتون العلم الأول والعلم الآخر فيقتلون المسيح الدجال فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: يا رب فاجعلني من أمة أحمد. فأعطى عند ذلك خصلتين، فقال: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾. قال: قد رضيت يا رب).

وأخرج أيضاً عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (أوحى الله تعالى إلى موسى نبي بني إسرائيل أنه من لقيني وهو جاحد بأحمد أدخلته النار. قال: يا رب...ومن أحمد؟ قال: ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منه، كتبت اسمه مع اسمي في العرش قبل أن أخلق السموات والأرض، وإن الجنة محرمة على جميع خلقي حتى يدخلها هو وأمته. قال: ومن أمته؟ قال: الحمّادون يحمدون صعوداً وهبوطاً وعلى كل حال، يشدون أوساطهم، ويطهرون أطرافهم، صائمون بالنهار، رهبان بالليل، أقبل منهم اليسير، وأدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله. قال: اجعلني نبي تلك الأمة. قال: نبيها منها. قال: اجعلني من أمة ذلك النبي. قال: استقدمت واستأخر ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال).

ولله در البوصيري إذ يقول:

ولك الأمة التي غبطتها ... بك لما أتيتها الأنبياء

رابعها: أن يكون أشار إلى أن أرواح العلماء والعارفين والمرسلين والنبيين وجميع عباد الله الصالحين تتلقى من روحه صلى الله عليه وآله وسلم العلم والحكمة، والمعاني الربانية، والأسرار الملكوتية، إذ روحه أبو الأرواح، فكل ما يرد على القلوب من التنزلات العرفانية والمنح الإلهية، منه وبواسطته، فهو الهادي والمهدي لكل من اهتدى، وغيره من الهداة نوّابه وفروعه. ويرحم الله القائل:

هو أهدى الهادين منا إلى الهدى ... وحبه أهدى الوارد المورد الأصفى

وآياته كالزهر والزهر نفحة ... وعداً فمن ذا يستطيع لها وصفا

ثم تتأثر القلوب بتلك الواردات الإلهية لقوتها وورودها من حضرة قهار فتنبعث

الجوارح للخدة من غير تكلف ولا معاناة، بل تصير الأعمال الصالحة إذ ذاك كالجبلة.
ورحم الله البوصيري إذ يقول فيه صلى الله عليه وسلم:

أَلِفَ النسك والعبادة والخلوة طفلاً وهكذا النجباء
وإذا حَلَّتِ الهداية قلباً نشطتْ للعبادة الأعضاءُ

وأعمال الجوارح هي المسماة بالأوراد، فالأوراد ناشئة عن الواردات، وهو معنى قول الحكَم: (فلولا وارج ما كان وِرْد) وقولها: (ما كان ظاهر ذِكْر إلا عن باطن شهود وفكر). وأما قولها: (قوم تسبق أنوارهم أذكارهم، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم) يعني المجذوبين والسالكين، فالمراد الأنوار القوية التامة، وهي متقدمة للمجذوبين، متأخرة للسالكين. وأما أصل النور فلا بد من تقدمه حتى للسالكين.

فعبَّر بـ (الأسرار) عن الواردات لخفائها، وبـ (الأنوار) عن الأوراد لظهورها، وكلاهما منه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولابن زكري في هذا المعنى:

واردات القلوب منك تلقاها الخصوص ففازوا بالأوراد
إنما القلب مضغة إن تحلى بصلاح سرى إلى الأجساد

خامسها: أن يكون أشار إلى الأسرار به صارت أسراراً، وبه تأهلت لكونها مطالع الأنوار، وذلك أن اللطيفة الربانية التي بها كان الإنسان إنساناً ما دام الإنسان في مقام الإسلام تسمى نفساً، فإذا تخلص منه لمقام الإيمان سميت قلباً، فإذا ارتقى إلى أول مرتبتي الإحسان وهي المراقبة المشار إليها بقوله صلى الله عليه وآله وسلم (فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك) سميت روحاً. ثم إذا ترقى للمرتبة الثانية وهي المشاهدة المشار إليها بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه) سميت سراً، ولا شك أن هذا الترقي والانتقال لا يتوصل إليه إلا بواسطته صلى الله عليه وآله وسلم، فبه تصير النفوس قلوبا بالإيمان، والقلوب أرواحاً بالمراقبة، والأرواح أسراراً بالمشاهدة، وقد تأهلت الأسرار لشروق شمس المعرفة فيها، وهي المراد بالأنوار، فقال في الحِكَم: (مطالع الأنوار القلوب والأسرار) أي والأرواح أيضا. ولابن زكري في هذا المعنى:

ما ترقى الرجال في القرب إلا باتباع الرسول قولاً وفعلا
به نالوا المنى وصار الذي قد كان مستصعباً عليهم سهلا

سادسها: أن يكون أشار إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم السبب في أعمال البر كلها، خفيها كالزهد والتوكل والصبر والرضا، وهو المعبر عنه بالأسرار، وجليِّها

كالصلاة والزكاة والصدقة والحج، وهو المعبّر عنه بالأنوار، إذ هو الهادي والمهدي، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، فإذاً أعمال المسلمين كلها في ميزانه، والمرء في ميزانه أتباعه، فاقدروا إذاً قدر النبي محمد.

سابعها: أن يكون أشار إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم الواسطة فيما يشاهده أهل عالمي الملكوت والجبروت، فالملكوت حضرة الأرواح التي تشهد فيها الصفات السنية، والجبروت حضرة الأسرار التي تشهد فيها الذات المقدسة العلية، فشبه ما يشهده في الثاني من حيث إن شهوده أعلى وأشد تمكناً في الوصول بـ (الأنوار) وما يشهده في الأول بـ (الأسرار).

ثامنها: أن يكون أشار إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم ممد أهل السموات وأهل الأرض، فمنه إمدادات أهل الملك الباطن، وأهل الملك الظاهر، إذ هو واسطة الكل، ورسول الجميع، والإجماع على أنه مرسل إلى الثقلين.

وذهب جمع من المحققين ورجحه التقي السبكي إلى أنه مبعوث إلى الملائكة، ونقل بعضهم الإجماع كما في المواهب.

وأشار القشيري في تفسير سورة الإسراء إلى أن حكمة عروجه إلى السماء تأدب الملائكة بآدابه إلى السماء عليه السلام حيث لم يقف مع مقام ولا حال ولا يلتفت إلى شيء من السوى، كما قال تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾ الآية.

وقد قيل إنه صلى الله عليه وآله وسلم مبعوث إلى الجمادات وسائر الحيوانات.

وقد سلّمت عليه الأحجار، وأجابت دعوته الأشجار، وكلمه الضب والجمل، وغير ذلك، ركب الله فيهم الإدراك فعرفوه وأذعنوا له.

روى الترمذي والدارمي والحاكم وصححه، عن علي بن أبي طالب قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا حجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله.

وروى البزار وأبو نعيم، عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: (لما استقبلني جبريل بالرسالة، جعلت لا أمرُّ بشجر ولا حجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله).

وعن جابر: (لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له).

وفي مسلم: (عن جابر بن سمرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إني لأعرف حجراً كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن).

وفي مستدرك الحاكم عن ابن عمر: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر، فأقبل أعرابي، فلما دنا قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أين تريد؟ قال: إلى أهلي. قال: هل لك إلى خير؟ قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. قال: هل لك من شاهد على ما تقول؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذه الشجرة. فدعاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي على شاطئ الوادي، فأقبلت تخدُّ الأرض خداً، فقامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها). رواه الدارمي أيضا بنحوه.

وعن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صاد ضبًا جعله في كمه ليذهب به إلى رحله فيشويه ويأكله، فلما رأى الجماعة قال: من هذا؟ قالوا: نبي الله. فأخرج الضب من كمه وقال: واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب، وطرحه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا ضب. فأجابه بلسان بيّن يسمعه القوم جميعا: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة. قال: من تعبد؟ قال: الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه. قال: فمن أنا؟ قال: رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك، فأسلم.

وفي حديث يعلى بن مرة الثقفي: (بينما نحن نسير مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ مررنا ببعير يسقى عليه، فلما رآه البعير جرجر، فوضع جرانه، فوقف عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أين هذا البعير؟ فجاءه. فقال: بعينه، فقال: بل نهبه لك يا رسول الله وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره، فقال: أما إذ ذكرت هذا من أمره، فإنه شكى إليّ كثرة العمل، وقلة العلف، فأحسنوا إليه) رواه البغوي في شرح السنة. والجران: مقدم العنق.

إلى غير هذا مما لا يحصى كثرة.

ومن كلام سيدي علي بن وفا: (وسرك المنزه الساري في جزئيات العالم وكلياته، علوياته وسفلياته). ولابن زكري في هذا المعنى:

محمد ممد كل العالمين ... أهل السموات وأهل الأرضين

مدده في العالم العلوي ... له سراية وفي السفلي

تاسعها: أن يكون أشار إلى أنه السبب في إدراك الأرواح يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ وإقرارها بالتوحيد، كما أنه السبب في الإقرار الثاني في العالم الجثماني.

وقد نقل البيهقي في الشعب عن علي رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا الأرواح إلى الإقرار يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ حين كانوا كالذر.

وروى أبو سهل القطان في جزء من أماليه، أنه صلى الله عليه وآله وسلم أول من قال بلى يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾. ولابن زكري في هذا المعنى:

لولاك ما اهتدت الأرواح يوم ألستُ حين خاطبها المولى لقول بلى
غشيها النور فاستبان الهدى فلم تجب بنعم ولم تلم بلا

عاشرها: أن يكون أشار إلى أنه ممد الخاصة وخاصتهم بعلم الباطن، وممد عامة العلماء بعلم الظاهر.

الحادي عشر: أن يكون أشار إلى أنه الواسطة في علم الحقيقة الذي من خلا عنه تفسق، وفي علم الشريعة الذي من خلا عنه تزندق.

الثاني عشر: أن يكون أشار إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم الواسطة في نيل النبوة والرسالة للأنبياء والمرسلين، وفي نيل الولاية والقرب للأولياء والمقربين، فشبه مدده الأول بالأسرار.

وقيل لما خلق الله نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمره أن ينظر إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به وقالوا: يا ربنا من غشينا نوره؟ فقال الله تعالى: هذا نور محمد بن عبد الله، إن آمنتم به جعلتكم أنبياء. قالوا: آمنا به وبنبوته. فقال الله: أشهد عليكم؟ قالوا: نعم. فذلك قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الآية.

وفي حديث عمر المتقدم: (وأنا الذي من أجلي أخذ الله ميثاق النبيين والرسل والأمم بإقرار نبوتي وفضلي، وأن يتواصوا به قرنا بعد قرن. فقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ في آخر الزمان اسمه محمد بن عبد الله ﴿ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ من نعته وصفته ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ فأقروا بذلك. قال الله عز وجل ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ ﴾ بأن خيرتي من خلقي وصفيي أحمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وحجة الله على الخلائق أجمعين ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ وعهدي وميثاقي؟ ﴿ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ﴾، ﴿ قَالَ ﴾ الله عز وجل: ﴿ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أن خيرتي من خلقي وصفيي أحمد، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون.

الثالث عشر: أن يكون أشار إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الواسطة في الاستدلال بالله على الأشياء الذي هو وظيفة الخاصة، والاستدلال بها عليه الذي هو وظيفة العامة. قال في الحِكَم: (شتان بين من يستدل به ويستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله، والمستدل عليه من عدم الوصول إليه وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه)، وأيضا قوله: (فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته ثم يردهم إلى شهود صفاته ثم يرجعهم إلى التعلق بأسرار أسمائه ثم يردهم إلى شهود آثاره، والسالكون على عكس هذا، فنهاية السالكين بداية المجذوبين، وبداية السالكين نهاية المجذوبين، فربما التقيا في الطريق). ولابن زكري في هذا المعنى:

نبينا ممد أهل الجذب مفيدهم بالخصب بعد الجذب

الرابع عشر: أن يكون أشار إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم ممد المشايخ والمريدين، وما يمد به الأولين أي وما يمد به الآخرين، فكان الأول سراً بالنسبة إلى الثاني، والثاني نوراً بالنسبة إلى الأول، وكل يشهده صلى الله عليه وآله وسلم ويتوجه إليه المدد منه على قدر حاله.

ولهذا قيل: زيارة الأولياء صورة فقط، ولا مزور في الحقيقة إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم مقتبسون من نوره وجداول من بحوره.

الخامس عشر: أن يكون أشار إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم المظهر لما أودعه الله في مكنوناته من الأسرار بعدما كانت مجهولة كقوله: (استنجوا بالماء البارد فإنه مصحة للبواسير) وقوله: (أكل السفرجل يذهب بطخاء القلب) أي كربه وثقله، وقوله: (أكل التمر أمان من القولنج) وقوله: (الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام) وقوله: (عليك بأول السوم فإن الربح مع السماح)، والمنير للأنوار المظهرة للموجودات، أعني الشمس والقمر والنجوم، فإنها من نوره خلقت.

السادس عشر: أن يكون أشار إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم السبب في فتح أبواب البصائر وأبواب الحواس بإدراك ما تدركه، إذ هو الواسطة في نيل العقل والحواس، وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم من كمال العقل في الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه. قال وهب بن منبه: قرأت في إحدى وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله عليه وآله وسلم إلا كحبة رملة بين رمل من جميع رمال الدنيا، وأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً. رواه أبو نعيم

وابن عساكر. ونقل في عوارف المعارف عن بعضهم أن العقل واللب مائة جزء، تسعة وتسعون في النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجزء في سائر المؤمنين، وربما كان صلى الله عليه وآله وسلم يرجع إلى رأي غيره تطييبا لخاطره.

السابع عشر: أن يكون أشار إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم الواسطة فيما حصل للمتحققين من العلماء من أسرار العلوم ودقائقها ولطيف نكتها، وما حصل لمطلقهم من ظواهر العلوم وما لا بد منه من قواعدها.

قوله رضي الله عنه: **(وفيه ارتقت الحقائق)**

فيه في الجملة وجوه.

منها: أن يراد بالحقائق علوم المعرفة بالله، واللام للاستغراق العرفي.

و(الارتقاء) لمعنى الظهور، لكن عبر بالارتقاء كما يعبر بالطلوع لعلو المحل، فقد جعل رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم سماء لطلوع شموس الحقائق، أي علوم المعرفة على طريق الاستعارة بالكناية، وفي الحديث: (إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية)، وفي آخر: (إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا) أخرجه البخاري عن عائشة.

ومنها: أن يراد بـ (الحقائق) جميع العلوم، فتكون اللام للاستغراق الحقيقي، ولما ركب فيه أكمل العقول وأوسعها، وسع عقله من العلوم والمعارف ما لم يتهيأ له عقل مخلوق. وبلغ من العلم بأحكام الله وتأديب خلقه وما يصلح معاشهم ومعادهم مبلغاً لم يحُم حوله أحد من الخلق.

ولا شك أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعلم بكل فن من فنون العلم من أهل ذلك الفن، وكيف لا؟ ومنه اقتبسوا، ومن بحره اغترفوا، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: (أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها)، وما من عالم ضربت له أكباد الإبل في أشتات العلوم العقلية والنقلية ممن تقدم أو تأخر إلا وكلامه قدوة له، وإشارته حجة له.

ومن تأمل حسن تدبيره صلى الله عليه وآله وسلم للعرب الذين كانوا كالوحش الشارد، كيف ساسهم واحتمل جفاهم، وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه، واجتمعوا عليه، وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم، واختاروه على أنفسهم، وهجروا في رضاه أوطانهم وأحباءهم من غير ممارسة سبقت، ولا مطالعة كتب يتعلم سير الماضين، تحقق أنه أعقل العلماء، وأعلم العقلاء. ولقد أحسن البوصيري إذ يقول:

ثم قام النبي يدعو إلى الله ... وفي الكفر نجدة وإباء

أمماً أشربت قلوبهم الكفر ... فداء الضلال فيهم عياء

ورأينا آياته فاهتدينا ... وإذا جاء الحق زال المراء

ولاتساع علمه صلى الله عليه وآله وسلم كانت تتفجر على لسانه ينابيع الحكمة، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: (أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصارا). وقد جمع الناس من كلامه المفرد الموجز البديع، الذي لم يسبق إليه دواوين، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين) وقوله: (السعيد من وعظ بغيره) وقوله: (إنما الأعمال بالنيات) قال الشافعي يدخل فيه نصف العلم، وقوله: (المجالس بالأمانات) وقوله: (ترك الشر صدقة) وقوله: (الحياء خير كله) وقوله: (سيد القوم خادمهم) وقوله: (من غشنا فليس منا) وقوله: (المستشار مؤتمن) وقوله: (الدال على الخير كفاعله) وقوله: (المؤمن من أمنه الناس) وقوله: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما حرم الله) وقوله: (النساء حبائل الشيطان). ولما ذكر ابن عطاء الله في كتابه "التنوير" حديث: (اتقوا الله وأجملوا في الطلب)، شرحه بعشرة أوجه، ثم قال: وليس القصد بها الحصر، إذ الأمر أوسع من ذلك، ولكن بحسب ما تأول الغيب، وأنعم به المولى سبحانه، وهو كلام صاحب الأنوار المحيطة، فما يأخذ الآخذ منه إلا على حسب نوره، ولا يأخذ من جواهر بحره إلا على قدر غوصه، وكل يفهم حسب المقام، والذي أقيم فيه، ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾، وما لم يؤخذ أكثر مما أُخِذ، واسمع قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا)، فلو عبّر العلماء بالله أبد الآباد عن أسرار الكلمة الواحدة من كلامه لم يحيطوا بها علما، ولم يقدروها فهما، حتى قال بعضهم: عملت بحديث سبعين عاماً وما فرغت منه، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه)، وصدق رضي الله عنه، ولو مكث عمر الدنيا أجمع وأبد الآباد لم يفرغ من حقوق هذا الحديث، وما أودع فيه من غرائب العلوم وأسرار الفهوم، وكيف لا يكون كلامه ينابيع حِكَم وقد برز من قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، الذي صح أن جبريل شقه واستخرج منه علقة فرمى بها وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم وثلج وبرد، ثم ملأه إيمانا وحكمة، كما وردت بذلك الأحاديث.

والمراد بـ (الارتقاء) في هذا الوجه: ارتفاع حقائق العلم بكمال التحقيق، إذ لا تحقيق يقارب تحقيقه فضلاً أن يساويه، لأن الله تعالى أطلعه على حقائق الأشياء على ما هي عليه، وعلوم العلماء لا تخلو عن احتمالات وظنون، ولهذا يخطئ بعضهم

بعضا، ويرد بعضهم على بعض، وتتبدل آراؤهم في المسألة الواحدة، وما أحسن قول الإمام مالك: كل كلام فيه مقبول ومردود إلا كلام صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام.

ولابن زكري في هذا المعنى:

محمـــد مطلـــع أنـــوار العلـــوم	مـــن شـــمس عرفـــان وبـــدر ونجـــوم
منـــه اســـتفادها الخـــصوص والعمـــوم	فانـــسب إلـــى علمـــه إطـــلاق العلـــوم
أطلعـــه اللـــــه علـــى الحقـــائق	فكـــل مـــا قـــد قالـــه مطـــابق
قـــد أوضـــح الـــسبل والطرائـــق	وبـــين النكـــت والـــدقائق

ويحتمل أن يراد ارتفاعها بكمال البث والانتشار لكثرة الآخذين عنه، والناقلين إلى غيرهم، فإنه أكثر النبيين أتباعاً يوم القيامة. وقد ورد أن أهل الجنة مائة وعشرون صفا، وعدد الصف لا يعلمه إلا الله تعالى، ثمانون صفاً منهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. أخرجه الترمذي وأحمد وغيرهما، عن بريدة وابن عباس وغيرهما.

وفي الحلية عن أبي هريرة رضي الله عنه: لما نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝ ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم: أنتم ربع أهل الجنة ثم قال: أنتم ثلث أهل الجنة، ثم قال: أنتم نصف أهل الجنة، ثم قال: أنتم ثلثا أهل الجنة.

ويحتمل أن يراد ارتفاعها فيه بكثرة الانتفاع به. وقد ترتب على تبليغه صلى الله عليه وآله وسلم ودعائه من أجناس العبادات وأنواعها وأصنافها وأفرادها ما لا يحيط به إلا من أحاط بكل شيء علما، فكم وقع على يده من زهد وصبر ورضا وشكر ومحبة وتوكل وغير ذلك مما لا يحصيه إلا من أحصى كل شيء عددا.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى: (إن مثل ما بعثني الله به من الهدى كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منه طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منهم أخرى إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه بما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به).

ويحتمل أن يراد ارتفاعها فيه باجتماعها له على التمام، فإنه علم علم الأولين والآخرين وأوتي علم كل شيء، ويكفيك استمداد اللوح والقلم من علومه إذ هما مخلوقان وعلمهما محصور، وهو صلى الله عليه وآله وسلم ممد المخلوقات، وله

علوم أخرى من ربه متزايدة أبدا. ويرحم الله البوصيري إذ يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ويحتمل أن يراد ارتفاعها فيه بعدم التعلم والاكتساب بل كان أمياً لا يعرف كتابة، ومع ذلك تفجرت منه بحور العلوم، كما قال البوصيري:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

ويحتمل أن يراد بارتفاعها فيه بانفعال القلوب لها، وأخذها بمجامعها حتى ألَّف بها بين الممنوعين المتباعدين المتشاجرين العرب والعجم، وبين طوائف العرب المتعادية، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾ الآية. ومن صفته في التوراة كما في حديث عبد الله بن سلام وكعب الأحبار: أجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة متشتتة وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجتْ للناس.

ويحتمل أن يراد ارتفاعها فيه بقدرته على الثناء الذي لا يقدر عليه أحد يوم القيامة، ففي حديث الشفاعة في الصحيحين: (فأنطلق إلى تحت العرش فأقع ساجدا، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سلْ تعطَ واشفع تشفع) الحديث.

ويحتمل أن يراد ارتفاعها فيه بملازمة النمو والزيادة: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾. ولم يزل ولا يزال صلى الله عليه وآله وسلم يترقى في المعارف، وكلما انتقل عن مقام إلى ما فوقه عدَّ الطور في السابق قصوراً فاستغفر، فمن ثم كثر استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم مع عصمته وقال: (إني لأستغفر الله في اليوم وأتوب إليه أكثر من سبعين مرة).

ويحتمل أن يراد ارتفاعها فيه بسلوك الطريق الأقوم، والسبيل الأنفذ الذي لا يعثر عليه إلا أعلم الخلق بالله، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يظهر الافتقار إلى الله تارة والاستغناء به أخرى جمعاً بين الصبر والشكر.

فتارةً شدَّ على بطنه الحجر من الجوع، عن أنس بن أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع صلى الله عليه وآله وسلم عن بطنه عن حجرين. قال الترمذي: هذا حديث غريب، وحديث أبي طلحة لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر، قال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: والذي نفسي بيده

لأخرجني الذي أخرجكما) الحديث رواه مسلم وغيره.

وتارةً أشبع ألفاً من صاع، عن جابر رضي الله عنه في غزوة الخندق قال: (لانكفأت إلى امرأتي فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً، فأخرجت جراباً فيه صاع شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها، وطحنت الشعير حتى جعلت اللحم في البرمة، ثم جئت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحت بهيمة لنا وطحنت صاعاً من شعير، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأهل الخندق أن جابراً صنع سؤراً فحيّ هلا بكم، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينتكم حتى أجيء برجال. فأخرجت له عجيناً فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: ادع خابزة فلتخبز معك واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها، وهم ألْف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو) رواه الشيخان.

وعن سمرة بن جندب أتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم قصعة فيها لحم فتعاقبوا بها من غدوة حتى الليل يقوم قوم ويقعد آخرون، فقال رجل لسمرة: هل كانت تمد؟ قال: ما كانت تُمَدُّ إلا من ههنا، وأشار بيده إلى السماء. رواه الترمذي وغيره وصححوه.

وينبغي أن تعلم أن جوعه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن ينقص شيئاً من قواه ولا من نعومة جسده، ولذا قال البوصيري رحمه الله تعالى:

وشد من سغب أحشاءه وطوى تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم

أي ناعم الجلد، بل كان جوعه صلى الله عليه وآله وسلم اختيارياً كما نبه عليه التاج السبكي، لا اضطرارياً.

وقد اختلف الصوفية: هل الأفضل إظهار الفاقة والاستغناء بالله؟

فقال سيدي زروق: والصواب إظهار هذا تارة وهذا أخرى، لأنه حاله صلى الله عليه وآله وسلم وقد خيره الله بين أن يكون نبيا ملِكاً أو نبيا عبداً، فاختار أن يكون نبيا عبدا وقال: أجوع يوما فأسأل وأتضرع، وأشبع يوما فأحمد وأشكر، أو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله رضي الله عنه: **(وتنزلتْ علوم آدم)**

أي معرفة أسماء المسميات المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾.

وبيان ذلك أن الموجودات لها حقائق أي ماهيات ومفهومات تفهم من اللفظ، فلها

حدود حقيقية بالاعتبار الأول، وحدود اسمية بالاعتبار الثاني، وأما المعدومات فإنما لها مفاهيم وحدود اسمية، وليس لها حقائق وحدود حقيقية. فالذي علمه آدم هو مفهوم الأسماء بحيث تمايزت عنده المسميات بعضها عن بعض، ولا يلزم من ذلك أنه اطلع على حقائق الموجودات وعلم تفاصيل ماهياتها، واختص نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بعلم المفهومات وبعلم الحقائق أيضا أي الاطلاع على كنه ماهيات الموجودات بحيث لم يبق فيها جهل بوجه من الوجوه. وظاهر قول الهمزية:

لـك ذات العلـوم مـن عـالم الغيـب ومنهـا لآدم الأسـماء

قال ابن حجر: وهو أن آدم إنما عرف مجرد الأسماء، وهو قول.

وقيل: عرف المسميات فقط. وقيل: عرفها. والصواب أنه الخلاف لفظي، فمن قال: عرف الأسماء أراد من حيث دلالتها على المسميات من حيث أنها مدلولة الأسماء.

وورد عن ابن عباس وابن زيد أن المراد في الآية أنه عرف أسماء ذريته وأنهم عرضوا عليه إنساناً إنسانا، وعرف أسماءهم. والتنزل نسبي في مقابلة الارتقاء، أو المراد أن علوم آدم التي ألقاها إلى بنيه من النبيين والمرسلين رفعت بموتهم وقبضهم ولم تبق على حقيقتها، ثم تنزلت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أو المراد أنه الموروث في عالم الأرواح، والوارث في عالم الأجساد، فعلوم آدم إليه ارتقت لما ورثها، ومنه تنزلت لما ورثت عنه صلى الله عليه وآله وسلم؛ ف (في) على هذا بمعنى (من)، وإلى المراد أن علوم آدم إنما تنزلت في الحقيقة في النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن نوره كان في جبين آدم، ومن ثم قيل إسجاد الملائكة لآدم لأصل النور المحمدي، فله كان السجود في الحقيقة، وتقدم قول ابن وفا: "لو أبصر الشيطان طلعة نوره"...البيت.

قوله رضي الله عنه: **(فأعجز الخلائق)**

يحتمل أن يكون الضمير لآدم، والفاء سببية، أو فيه في الحقيقة تنزلت علوم آدم لحلول نوره فيه؛ فلذلك أعجز الخلائق من الملائكة وغيرهم بالأحرى. ويحتمل أن يكون الضمير للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، أي حيث ارتقت فيه الحقائق، وتنزلت علوم آدم فقد أتى بما لم يأت أحد بمثله من جمعه علوم الأولين والآخرين، وإخباره بوقائع القرون السالفة وقصص الأمم الماضية والمغيبات الآتية، مع أميته وعدم قراءته وكتابته. ويرحم الله القائل:

قلبـي بنجـد نـازل بقبـاب فيهـا مليـح سـيد الأعـراب
عرضـت عليـه كنـوز الأرض فلـم يـرد علمـاً بـأن مـصيرها لـذهاب

وإذا سألت عن العلوم فإنه ... لمدينة مفتوحة الأبواب

ولآخر:

فإن تك فاتح الخيرات طراً ... فإنك قد ختمت المرسلين

فعلوم الآخرين عليك قصت ... وقد أوتيت علم الأولين

وفي بعض أحاديث المعراج مما ذكره ابن سبوع في "شفاء الصدور" عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: أتاني جبريل وكان السفير بي إلى ربي إلى أن انتهى إلى مقام، ثم وقف عند ذلك، فقلت: يا حبيبي جبريل في هذا المقام يترك الخليل خليله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبريل هل لك حاجة إلى ربك؟ قال: يا محمد سل الله لي أن أبسط جناحي على الصراط لأمتك حتى تجوز عليه. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ثم زج بي في النور، فخرق بي سبعين ألف حجاب، ليس فيها حجاب يشبه حجاباً، وانقطع عني حس كل ملَك وإنسي، فلحقني عند ذلك استيحاش، فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر: قف، فإن ربك يصلي. فبينما أنا أتفكر في ذلك، هل سبقني أبو بكر؟ فإذا بالنداء من العلي الأعلى: ادن يا خير البرية، ادنُ يا أحمد، ادن يا محمد، ليدن الحبيب. فأدناني ربي حتى كنت كما قال: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾، قال: ثم سألني ربي فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفي بلا تكييف ولا تحديد، فوجدت بردها، فأورثني الله علم الأولين والآخرين، فعلمٌ أخذ عليّ كتمانه إذ علم أنه لا يقدر على حمله غيري، وعلم خيّرني فيه، وعلم أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي، وعلمني القرآن، فكان جبريل عليه السلام يذكرني به. قال: ولقد عاجلت جبريل عليه السلام في آية نزل بها عليّ فعاتبني ربي وأنزل علي: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾، ثم قلت: اللهم إنه لما لحقني استيحاش قبل قدومي عليك سمعت مناد ينادي بلغة تشبه لغة أبي بكر، فقال: قف إن ربك يصلي، فعجبت من هاتين، هل سبقني أبو بكر إلى هذا المقام؟ وإن ربي لغنيٌ أن يصلي. فقال تعالى: أنا الغني عن أن أصلي لأحد وإنما أقول: سبحاني سبحاني سبقت رحمتي غضبي، اقرأ يا محمد: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ ﴾ فصلاتي رحمة لك ولأمتك، وأما أمر صاحبك، فإن أخاك موسى كان أنسه بالعصا، فلما أردنا كلامه قلت: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ ﴾، وشغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة، وكذلك أنت يا محمد لما كان بصاحبك أبي بكر أنسك،

وأنت خلقت وهو من طينة واحدة وهو أنيسك في الدنيا والآخرة، خلقنا ملَكاً على صورته يناديك بلغتك ليذهب عنك الاستيحاش لئلا يلحقك عن عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد بك. ثم قال الله تعالى: وأين حاجة جبريل؟ فقلت: اللهم إنك أعلم. فقال: يا محمد قد أجبته فيما سأل، ولكن فيمن أحبك وصحبك.

وعند ابن سبع أيضا في رواية أخرى: (وصلت إلى العرش فأبصرت أمراً عظيما لا تناله الألسن، ثم تدلدلت قطرة من العرش فوقعت على لساني، فما ذاق الذائقون شيئا قط أحلى منها، فأنبأني الله بها نبأ الأولين والآخرين، ونوّر قلبي، وغشي نور عرشه بصري، فلم أر شيئا فجعلت أرى بقلبي ولا أرى بعيني ورأيت من خلفي ومن بين كتفي كما رأيت من أمامي) الحديث.

قال في المواهب: والعهدة في هذا كله على ابن سبع.

ولغزارة علمه صلى الله عليه وآله وسلم، وقوة ذهنه، وثبات قلبه، اختصه الله بخصائص أوتيها أيضا وأمره فيها بالكتمان.

وقال السيوطي: أوتي صلى الله عليه وآله وسلم علم كل شيء إلا المسائل الخمس التي في الآية. وقيل: أوتيها أيضا وأمر فيها بالكتمان.

منها: رؤيته. قال النووي: الراجح عند الأكثر أنه رآه، لأن ابن عباس أثبته، وليس مما يدرك بالاجتهاد، فدل على أنه سمعه منه. وقال الطيبي: الراجح عند العلماء أنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء، وإثبات هذا ليس إلا بالسماع منه صلى الله عليه وآله وسلم، هذا مما لا ينبغي أن يشك فيه. وقال السبكي: الحق أنه رآه، وأن ذلك مخصوص به دون سائر الأنبياء. وقال المحلي: الصحيح أنه رآه.

وأنكرت الرؤية عائشة رضي الله عنها وعن أبيها. عن مسروق: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قفّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدّث أن محمدا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾، ومن حدثك أنه كتم شيئا من الوحي فقد كذب. ثم قرأت: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين.

وعن المروزي: قلت لأحمد: إنهم يقولون إن عائشة قالت (من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية). فبأي شيء يدفع قولها؟ قال: يقول النبي صلى الله

عليه وآله وسلم: (رأيت ربي)، وقول النبي أكبر من قولها، انتهى.

وأما الآية التي احتجت بها، فالمنفي الإحاطة، ولا يلزم من الرؤية الإحاطة.

وقيل: إنما رآه بعيني قلبه رؤية زائدة على العلم، وعلى أنه رآه بعيني رأسه درج العراقي في ألفيته في السيرة فقال:

ثم دنا حتى رأى الإله بعينه مخاطباً بشفاها

والصحيح أنها لم تقع لموسى بل هي خاصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قال في المراصد: ثم الذي قد صححوا في الرؤية أن ربنا اختص بها نبيه.

وقال بعض أهل الإشارة: لما سأل موسى عليه السلام ربه الرؤية ولم تحصل له البغية بقي الشوق يقلقه والأمل يعلله، فلما تحقق أن سيدنا محمداً الحبيب منح الرؤية وفتح له باب المزية أكثر السؤال ليسعد برؤية من قدَّره كما قيل:

وأستنشق الأرواح من نحو أرضكم لعلي أراكم أو أرى من يراكم

وأنشد من لاقيت عنكم عساكم تجودون لي بالعطف لي عساكم

فأنتم حياتي إن حييت وإن أمت فيا حبذا إن مت عبد هواكم

وقال آخر:

وإنما السر في موسى يردده ليجتلي حسن ليلى حين يشهده

يبدو ثناها على وجه الرسول فيا لله در رسول حين أشهده

وقال بعضهم: لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى عليه السلام أضاءت له أنوار نور الطور، فأسرع إليها ليقتبس، فاحتبس، فلما نودي به اشتاق إلى المنادي فكان يطوف في بني إسرائيل من يحملني رسالة ربي، ومراده أن تطول مناجاته مع الحبيب، فلما مر عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج ردده في أمر الصلاة ليسعد برؤية حبيب الحبيب. وقال آخر:

فما جلس الحبيب في مقام القرب ودارت عليه كؤوس الحب

ثم عاد وهلال ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ بين عينيه، وسر ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ ملأ قلبه وأذنيه، فلما اجتاز بموسى عليه السلام قال لسان حاله:

يا وارداً من أهيل الحي يخبرني عن جيرتي شنف الأسماع بالخبر

ناشدتك الله يا راوي حديثهم حدِّث فقد ناب سمعي اليوم عن بصري

فأجابه لسان حال نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرارٌ من النسيم إذا سرى

وأبـــاح طرفـــي نظـــرة أمّلتهـــا فغـــدوتُ معروفـــاً وكنـــتُ منكّـــرا

وقد اختلفوا: هل سمع صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج كلام ربه؟ فأثبت ذلك ابن عباس رضي الله عنهما، وجمع من السلف، والأشعري في جماعة من المتكلمين، وعليه مشى العراقي في البيت السابق، واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ قالوا معناه دون واسطة. ونفاه جماعة قالوا: والمراد بالعبد جبريل أو محمد، والموحي جبريل. قال الأُبي: والجزم يفتقر لقاطع، وإذا كان تكلم موسى عليه السلام لشرفه، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أولى، انتهى.

وظاهر الأحاديث والأخبار أن الله كلّمه بلا واسطة، ومن مكالمته صلى الله عليه وآله وسلم ما ذكر ابن مرزوق في شرح البردة قال: لما كان من ربه قاب قوسين قال: اللهم إنك عذبت الأمم بعضهم بالحجارة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ، فما أنت فاعل بأمتي؟ قال: أنزل عليهم الرحمة، وأبدل سيئاتهم حسنات، ومن دعاني منهم لبيته، ومن سألني منهم أعطيته، ومن توكل عليّ كفيته، وفي الدنيا أستر على العصاة، وفي الآخرة أشفعك فيهم، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه لم أحاسب أمتك. ولما أراد صلى الله عليه وآله وسلم الانصراف قال: يا رب لكل قادم سفر تحفة، فما تحفة أمتي؟ قال الله تعالى: أنا لهم ما عاشوا، وأنا لهم إذا ماتوا، وأنا لهم في القبور، وأنا لهم في النشور، انتهى.

ويحق على كل سامع شدة اهتمامه صلى الله عليه وآله وسلم بأمته، وشفقته عليهم، وطلبه لهم، أن تعظم محبته صلى الله عليه وآله وسلم في قلبه بأن يتأمل ذلك حق التأمل ويقول: مَنْ نحن حتى يعتني بنا هذا السيد الأعظم هذا الاعتناء؟ فيعظمه حينئذ ويوقره باتباع سنته ولزوم طريقته.

ومـن يـدعي حـب النبـي ولـم يكـن بـسـنته مستمـسكاً فهـو كـاذب

علامة حب المرء في النبي بأن يكن علـى مـنهج كانـت عليـه الحبائـب

فلا يسعى حينئذ إلا فيما يرضيه، ولا يحب أن يأتيه يوم القيامة إلا بما يحب أن يظهر على أمته، فإن المتبوع يسره ما يظهر على أتباعه من الخيرات والمزايا عند عرضهم عند سيده ومليكه. وناهيك بتفريح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإدخال السرور عليه.

وانظر إلى ما ذكره القرطبي في التذكرة من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: فإذا عصف الصراط بأمتي نادوا: وامحمداه، فأبادر من شدة إشفاقي عليهم، وجبريل آخذ

بحجزتي، فأنادي رافعاً صوتي: رب أمتي، رب أمتي، لا أسألك اليوم نفسي ولا فاطمة ابنتي.

ولفرحه صلى الله عليه وآله وسلم باهتداء أمته واعتنائه بهم عظم ثواب من دعا لأمته، حتى كان لمن قال كل يوم: (اللهم اغفر لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، اللهم ارحم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، اللهم اجبر أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم) أنه يكتب من الأبدال، لما فيه من تفريحه صلى الله عليه وآله وسلم بالاعتناء بأمته.

ومن عمل بهذه النية، كثر ثواب عمله وسهل عليه العمل لاستحضاره أنه يرضي محبوبه الجليل العظيم الوجيه الفخيم، فيخف عليه ما كان ثقيلا ويجود بما كان به بخيلا.

ويحتمل أن يكون المعنى: أنه الذي أعجز الملائكة وقت قولهم: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ إذ فيه على الحقيقة تنزلت العلوم، ويؤخذ إعجاز غيرهم بالأحروية. وهذا هو المعنى الأول، وإنما اختلف هنا في الضمير.

قوله رضي الله عنه: **(وله تضاءلت الفهوم)**

أي تصاغرت الفهوم عن إدراك حقيقته. واللام بمعنى: عن.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا أبا بكر، والذي نفسي بيده لا يعلمني حقيقة غير ربي.

وروي عن أويس القرني رضي الله عنه أنه قال لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأيتم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا ظله، فقالوا: ولا ابن أبي قحافة؟ قال: ولا ابن أبي قحافة.

ولما ذكر هذا الحديث عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه قال: صدق أويس رضي الله عنه، إن علياً كان مقامه إدراك نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعثمان إدراك قلبه، وعمر إدراك عقله، وأبو بكر إدراك روحه، وحقيقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السر المكنون لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى.

وأعظم إدراكاً له هؤلاء الخلفاء الأربعة، لكن لما اختلفت مقاماتهم اختلف إدراكهم، فعلي رضي الله عنه غلب عليه علم الشرائع، وكان حاله الانبساط بما لإدراكه نفس من ورث العلوم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والانبساط من شأن النفس، ولهذا قيل: لو حاولت النفس كل المحاولة أن تصمت ما صمتت، وقضاياه رضي الله عنه في استنباط الأحكام الخفية أكثر من أن تحصى، كقضية الفريضة المنبرية

قال جعفر بن محمد عن أبيه: كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا جلس جلس أبو بكر عن يمينه، وعمر عن يساره، وعثمان بين يديه، وكان كاتب سر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والسر محله القلب، والوحي كان ينزل على قلبه.

وعن عائشة وحفصة رضي الله عنهما وعن أبويهما: أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ادن، فأكب عليه ثلاث مرات يسارّه بالكلام، ويقول له: فهمت ما قلت لك؟ فيقول: نعم.

وعمر رضي الله عنه غلب عليه التدبر لإدراكه العقل الذي من شأنه التدبير، وقد وافق القرآن قوله في آيات متعددة، حتى قال علي: كنا نرى أن في القرآن كلاماً من كلام عمر ورأياً من رأيه.

وجاء يهودي يوماً إليه فقال: أرأيت قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ فأين النار؟ فقال لأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم: أجيبوه. فلم يكن عندهم فيها شيء، فقال عمر: أرأيت النهار إذا جاء أليس يملأ السموات والأرض؟ قال: بلى. قال: فأين الليل؟ قال: والذي نفسي بيده إنها لفي التوراة كما قلت.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الحق ينزل على قلب عمر ولسانه).

وقال ابن عمر: ما سمعت عمر يقول لشيء قط: إني أظنه، إلا كان كما يظن.

وكان جالساً يوماً في المسجد معه ناس، إذ مر رجل فقال له: أتعرف هذا؟ فقال: بلغني أن رجلاً أنبأه الله بظهر الغيب بظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم اسمه سواد بن قارب الذي من شأنه كذا وكذا؟ قال: نعم. قال: فأنت على ما كنت عليه من كهانتك. فغضب وقال: والله يا أمير المؤمنين ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت. فقال عمر: سبحان الله ما كنا فيه من الشرك أعظم من كهانتك، أخبرني عما أتاك به رئيك من ظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم. قال: بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان، إذ أتاني رئيي فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول:

عجبت للجن وتطلابها ... وشدها العيس بأقتابها

تهفو إلى مكة تبغي الهدى ... ما صادق الجن ككذابها

فارحل إلى الصفوة من هاشم ... فليس أعلاها كأذنابها

فقلت: دعني أنام، فأتى في الليلة الثانية وقال كما قال أولا، وأنشد:

عجبـــت للجـــن وتخبارهـــا وشـــدها العـــيس بأكوارهـــا

تهفـــو إلـــى مكـــة تبغـــي الهـــدى مـــا مؤمنـــو الجـــن ككفارهـــا

فارحـــل إلـــى الـصفوة مـــن هاشـــم بـــين زواحفهـــا وأحجارهـــا

فقلت: دعني أنام، فأتى في الليلة الثالثة كذلك وأنشد:

عجبـــت للجـــن وتجـــساسها وشـــدها العـــيس بأحلاســـها

تهـــوي إلـــى مكـــة تبغـــي الهـــدى مـــا طـــاهرو الجـــن كأنجاســـها

فارحـــل إلـــى الـصفوة مـــن هاشـــم واســـم بعينيـــك إلـــى راســـها

فوقع في عيني حب الإسلام، فلما أصبحت ركبت راحلتي، وانطلقت إلى مكة، فأخبرت أنه صلى الله عليه وآله وسلم هاجر إلى المدينة، فأتيته وسألت عنه، فقيل لي: في المسجد، فأتيته: فعقلت ناقتي فقال لي: ادنُ ادن حتى قمت بين يديه، فقلت: اسمع مقالتي يا رسول الله، فقال: هات، فأنشدت أقول:

أتـــاني نجيـــي بـــين نـــوم ورقـــدة ولـــم أكـــن فيمـــا رأيـــت بكـــاذب

ثـــلاث ليـــال قولـــه كـــل ليلـــة أتـــاك رســـول مـــن لـــؤي بـــن غالـــب

فشمرت عن ذيل الإزار ووسّطتْ بي الـــذعلب الوجنـــاء عنـــد الـــسباسب

فأشـــــهد أن الله لا رب غيـــــره أنـــك مـــأمون علـــى كـــل غائـــب

وأنـك أدنـى المرسلين وسيلة إلى الله يـــا ابـــن الأكـــرمين الأطايـــب

فمرنـــا بمـــا يأتيـــك مـــن وحـــي ربنـــا وإن كـــان فيمـــا جئـت شـيب الـذوائب

ففرح النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بإسلامي حتى عرف الفرح في وجوههم، فوثب عمر إليه وأكرمه، وقال: لقد كنت أحب أن أسمع هذا الحديث منك، فأخبرني عن رئيك هل يأتيك اليوم؟ قال: أما منذ قرأت القرآن فلا، ونعم العوض كتاب الله.

وأبو بكر رضي الله عنه غلب عليه إدراكه روح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والروح من شأنها الانقباض على العلوم الحقيقية، ولهذا قيل: الروح من شأنها الصمت، فلو حاولت كل المحاولة أن تنطق ما نطقت.

أخرج الملا في سيرته عن عمر قال: كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو وأبو بكر يتكلمان في علم التوحيد، فأجلس بينهما كأني زنجي لا أعلم ما يقولان.

وانظر سبقيته إلى فهم الأسرار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترك

التصريح بما يفهمه الذي هو من شأن الروح. ففي الترمذي من رواية أبي المعلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطب فقال: إن رجلا خيّره ربه بين أن يعيش في الدنيا ما شاء الله ويأكل من الدنيا ما شاء الله أن يأكل، وبين لقاء ربه، فاختار لقاء ربه، فبكى أبو بكر فعجبوا منه، فكان أعلمهم بما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: نفديك بآبائنا وأموالنا.

وانظر ثباته يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واستشهاده بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾، قالت عائشة: فوالله كأن الناس لم يعلموا هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس، فما تسمع نفراً إلا يتلوها.

ثم اعلم أن العقول قاصرة عن إدراك حقيقته الأحمدية، وإنما أدركت منه الصورة المحمدية. قال السهيلي: لم يكن محمداً حتى كان أحمداً حمد ربه فنبأه وشرّفه فلذا تقدم اسمه أحمد على اسمه محمد، فذكره عيسى عليه السلام فقال: ﴿ ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ وذكره موسى عليه السلام حين قال الله له: تلك أمة أحمد، قال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبعث كان محمداً، وكذا في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يلهمها فيكون أحمد الحامدين، ثم يشفع فيحمده على الشفاعة.

فترتب اسم محمد على اسم أحمد في الدنيا والآخرة، وإنما لم تصل العقول إلى معرفة حقيقته الأحمدية، لأن حمده وثناءه الأصلي على حسب معرفته، ولم يصلها ولا يصلها أحد.

وأيضا هو السابق، والأصل في الخلق والمعرفة والسجود والحمد، وغيره فروعه وجداوله، والفرع لا يحيط بالأصل.

ولظهور الصورة المحمدية اشتهر (محمد) أكثر من (أحمد) حتى قال بعضهم: محمد أشهر أسمائه بين العالمين وأشرفها إلى الصلاة والسلام عليه، وأكثرها سماعاً، ولهذا مع ظهور معنى المحبوبية فيه خصّ بكلمة التوحيد. وإنما كانت المحبوبية فيه أظهر لدلالته على ثنائه تعالى عليه في كتابه، وبألسنة الخلق التي هي أقلام الحق، وإن كانت في الأحمدية أيضا من حيث اختياره، فحمده ومعرفته في اسم أحمد أظهر، ولسبق الأحمدية سمي في السماء أحمد، لأن معرفة أهل السماء قبل معرفة أهل الأرض، ولعظيم أحمديته وكمالها، خص بخصائص من معناها، فسورة الحمد، ولواء الحمد الذي يستظل تحته كل حامد، والمقام المحمود، وشرع لأمته اختتام الأمور

بالحمد، ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. وسن عليه الصلاة والسلام الحمد عند انقضاء الأكل والشرب وقال عند انتهاء السفر: (آيبون لربنا حامدون)، وكذا عند الابتداءات المهمة. وفيه إشارة إلى أنه الفاتح الخاتم. ولعدم توصل أحد لمعرفة أحمديته حتى الرسل كما يفيده قوله: (لا يعلمني حقيقة غير ربي)، تضمن اسمه محمد بحساب الجمل عدة الرسل دون اسمه أحمد، ولعدم معرفة الخلق بأحمديته وبحمده تعالى القديم، ومعرفتهم بالمحمودية في الجانبين قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي اشتق الله تعالى اسمي من اسمه فالله محمود وأنا محمد ولا فخر، ولم يحكم بمثل هذا لأحد، لأن الخلق لا يعرفون معنى الأصل ولا الفرع، ولقد أحسن حسان رضي الله عنه حيث يقول:

أغـــــر عليـــــه للنبـــــوة خـــــاتم ... مـــن الله مـــن نـــور يلـــوح ويـــشهد
وضـم الإلـه اسـم النبـي إلـى اسـمه ... إذا قـال فـي الخمـس المـؤذن: أشـهد
وشـــق لـــه مـــن اســـمه ليجلـــه ... فـذو العـرش محمـود وهـذا محمـد

وفي ذكر الاشتقاق تنبيه على أن الفرع متضمن الأصل وزيادة، ولذا كانت صيغة اسمه محمد صيغة مبالغة بخلاف اسمه تعالى محمود، فالثناء عليه صلى الله عليه وآله وسلم متضمن حمد الله بخلاف العكس، ومن أثنى على عبد الملك من حيث هو عبده كان ذلك أدل على محبة الملِك من ثنائه على الملِك نفسه. ومن هنا قيل: إن الصلاة عليه أعظم العبادات لقوة دلالتها على قوة الامتثال. وتذكر قضية سجود الملائكة لآدم إلا إبليس مع عظيم عبادته قبل ذلك.

ولعدم معرفة الخلق بأحمديته أيضاً ومعرفتهم بصورة محمديته، خلق آدم وبنوه على صورته، ففي الحديث الذي أخرجه أبو مروان الطيبي: (يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله آدم وذريته على حروف هجاء اسمي)، فالوجه والرأس بمنزلة الميم، واليدان إذا مددتهما بمنزلة الحاء، والبطن بمنزلة الميم الأخرى، والرجلان بمنزلة الدال، فهو محمد ولا فخر، انتهى.

وكانت كتابته في الخط القديم هكذا: مـــحـــمـــد

وقال بعضهم:

لــه اســم صــوّر الرحـــمن ربـــي ... خلائقـــه عليـــه كمـــا تـــراه
لـــه رجـــل وفـــوق الرجـــل ظهـــر ... وتحـــت الـــرأس قـــد خلقـــت يـــداه

ولم يخلق سائر الحيوان والنبات وغيرهما على هذا الشكل لأنها مسخرة لبني آدم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾، ولا يستخدم اسم الحبيب.

ولعدم معرفتهم أيضا بأحمديته ومعرفتهم بمحمديته، كثر تصرفهم اسم محمد دون أحمد، ولهم في ذلك إشارات ورموز.

منها قول بعضهم: الميم معرفته بعلوم الأولين والآخرين. والحاء حياة العباد على يده بالإسلام بعد الكفر، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾، والميم مملكته أوسع وأعظم مما أعطي الرسل قبله، والدال دلالته لجميع الخلائق إلى الفردوس.

وقيل: الميم والحاء من "محق" أي أهلك، والميم الثانية والدال من "مد" أي بسط. أهلك الله به الكفر وبدده، وبسط به الإسلام في الأرض ومدده. قال الشاعر:

محمد نافح الإله بدينه ... عباداً طغوا في الأرض دينهم الكفر

وهدانا الإسلام طراً فلم يزل ... به النصر والإمكان والظفر والبشر

إلى غير ذلك.

ثم المادحون له صلى الله عليه وآله وسلم وإن بالغوا وأكثروا، معترفون بأنهم قد قصروا وقصروا، وكيف لا وقد أفصحت آي القرآن من تعظيمه بما يبهر العقول، وصرحت من عظيم صفاته بما لا يستطاع له الوصول، كقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وناهيك إفخاماً وتعظيما. وقال:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾. ولابن الخطيب التلمساني في هذا المعنى:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم ... والكون لم تفتح له أغلاق

أيروم مخلوق ثناءك بعدما ... أثنى على أخلاقك الخلاّقُ

وروي أنه أخبر بعد موته في النوم أنه غُفر له بسبب هذين البيتين.

ولابن الخطيب الأندلسي:

مدحتك آي الكتاب فما عسى ... يثني عليك نظم مديحي

وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً ... كان القصور قصارى كل فصيح

قال الزركشي: ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء كأبي تمام والبحتري وابن الرومي مدحه صلى الله عليه وآله وسلم، وكان مدحه عليهم من أصعب ما يحاولونه، فإن المعاني دون رتبته، والأوصاف دون وصفه، وكل علو في حقه تقصير، فيضيق على البليغ مجال النظم، وإنه لخليق بقول القائل:

فما بلغت كف امرئ متناولاً ... من المجد إلا والذي نال أطول

ولا يلغ المهدون في القول مدحة ... ولو صدقوا إلا الذي في أفضل

وفيه يقول ابن الفارض:

كملت محاسنه فلو أهدى السنا ... للبدر عند تمامه لم يخسف

وعلى تفنن واصفيه بمدحه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وليم أبو نواس على عدم مدح علي الرضا بن موسى الكاظم فقال:

قيل لي أنت أحسن الناس طراً ... في فنون من المقال النزيه

لك من جيد القريض مديح ... يثمر الدر في يدي مجتنيه

فعلى مَ تركت مدح ابن موسى ... والخصال التي تجمّعن فيه

قلت لا أستطيع مدح إمام ... كان جبريل خادماً لأبيه

دخل عليٌّ هذا نيسابور عليه مظلة، فتعرض له الحافظان أبو زرعة الرازي ومحمد ابن أسلم الطوسي، ومعهما من طلبة العلم والحديث ما لا يحصى، فسألوه أن يريهم وجهه ويروي لهم حديثاً عن آبائه، فاستوقف البغلة وأمر غلمانه، فكشف المظلة وأراهم طلعته المباركة، ثم قال: حدثني أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر، عن أبيه زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي بن أبي طالب قال: حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: حدثني جبريل قال: سمعت رب العزة يقول: (لا إله إلا الله حصني، فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي)، ثم أرخى الستر وسار، فعدُّ أهل المحابر الذين كانوا يكتبون فزادوا على عشرين ألفا.

قال أحمد: لو قرأت هذا السند على مجنون لبرئ من حينه، انتهى.

ورئي ابن الفارض في النوم فقيل له: لِمَ لَمْ تمدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم - أي تصريحا-؟ فأنشد:

أرى كل مدح في النبي مقصرا ... وإن بالغ المثني عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذي هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى

ولابن وفا:

ما شئت قل فيه فأنت مصدق ... فالحب يقضي والمحاسن تشهد

وفي البردة:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

الأبيات. وقال بعضهم:

أروم امتداح المصطفى فيصدني ... قصوري عن إدراك تلك المناقب
ومن لي بحصر البحر والبحر زاخر ... ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب
ولو أن أعضائي غدت ألسناً إذن ... لما بلغت في المدح بعض مآرب
ولو أن كل العالمين تألبوا ... على مدحه لم يبلغوا بعض واجب
فأمسكت هيبة لجلاله ... وخوفاً وإعظاماً لأرفع جانب
فرب سكوت كان فيه بلاغة ... ورب كلام كان فيه عتب لعاتب

وفي المعنى قيل:

مقامك يا إمام المرسلين ... تحير فيه مدح المادحين
فغاية ما نقول إذا اختصرنا ... فإنك أنت خير العالمين

وقال بعضهم:

ما أن مدحت محمداً بمقالتي ... لكن مدحت مقالتي بمحمد

ولابن زكري في هذا المعنى:

محمد مدحه مدح لمادحه ... إذ خدمة الجاه الأعلى غاية الشرف
فمدحه شرف وحمده شرف ... وذكره شرف أنعم بذا الشرف

ويندرج في عموم لفظه تقاصر الفهوم عن إدراك كنه جلاله، فلولا أنه كان يباسطهم ويتواضع لهم ويؤنسهم لما قدر واحد منهم أن يقعد معه أو يسمع كلامه لما رزقه الله من الجلالة والمهابة. وقد جاء إليه رجل فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة، فقال له: "هون عليك فإني لست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة"، فنطق الرجل بحاجته لما سكن روعته بقوله لست بملك.

وقوله تأكل القديد، أي وهو طعام أهل المسكنة.

وفي البردة: كأنه وهو فرْدٌ في جلالته..."البيت".

وتقدم قول ابن الخطيب.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: صحبته صلى الله عليه وآله وسلم، فما ملأت عيني منه حياءً وتعظيماً له؛ ولو قيل لي صفه لما قدرت.

وتقاصرها عن إدراك جمال صورته صلى الله عليه وآله وسلم:

قال بعضهم: لم يظهر لنا تمام حسنه صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه لو ظهر لنا لما كانت أعيننا تطيق رؤيته. وقال الإمام الخروبي: ما أدرك الناس حقيقة أمره إلا على قدر عقولهم البشرية، فما ظهر لهم من ذلك فهو نعمة عليهم ليعرفوا قدره ويعظموا أمره،

وما خفي عليهم من أمرهم فهو رحمة من الله بهم، إذ لو ظهر لهم مع عدم قيامهم بالحقوق لكان فتنة لهم، والله أرسله رحمة للعالمين، فكانت النعمة فيما ظهر، والرحمة فيما استتر.

وفي الحديث: (أعطي يوسف شطر الحسن)، قال العلماء: المراد شطر حسن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وفي حديث قال ناعته: (لم أر قبله ولا بعده مثله). وفي حديث البراء: (ما رأيت شيئا أحسن منه). وفي البردة:

منـزّه عـن شـريك فـي محاسـنه ... فجـوهر الحسـن فيـه غيـر منقسـم

ومما ينسب لعائشة:

وأجمـل منـك لـم تـر قـط عينـي ... وأكمـل منـك لـم تلـد النسـاء
خلقـت مبـرأ مـن كـل عيـب ... كأنـك قـد خلقـت كمـا تـشاء

ومما ينسب لها أيضا:

فلو سمعوا في مصر أوصاف حسنه ... لما بذلوا في سوم يوسف من نقد
وصحب زليخا لو رأين جماله ... لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه) رواه الترمذي وأحمد والبيهقي وابن حبان.

وفي البخاري: (سئل البراء: أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل القمر).

وفي مسلم من حديث جابر بن سمرة، وقال له رجل: أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟ فقال: لا بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديرا.

واعلم أن ما يقع في الأمداح من تشبيهه بالشمس والقمر والسراج، وكقول حسان:

متى يبد في الداجي البهيم جبينه ... يلُح مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد ... نظامٌ لحق أو نكالٌ لملحد

فالمراد به التمثيل بأحسن ما يعرف في الوجود، وإلا فهذه الأضواء من نوره خلقت وبه استنارت، ويرحم الله القائل:

... يضيء بك الوجود وليله ... فيه صباح من جمالك مسفر
فبشمس حسنك كل يوم مشرق ... وببدر وجهك كل ليل مقمر

وما أحلى قول القائل:

يقولون يحكي البدر في الحسن وجهه ... وبدر الدجى عن ذلك الحسن ينحطُّ

كما شبهوا غصن النقا بقوامه ... للغصن واشتطوا

وما أحسن قول سيدي محمد بن وفا رضي الله عنه:

كم فيه للأبصار حسن مدهش ... كم فيه للأرواح راح مسكر

سبحان من أنشاه من سبحاته ... بشراً بأسرار الغيوب يبشر

قاسوه جهلاً بالغزال تغزلاً ... هيهات يشبهه الغزال الأحور

هذا وحقك ما له من مشبه ... وأرى المشبه بالغزالة يكفر

فأمسكت هيبة لجلاله ... وخوفاً وإعظاماً لأرفع جانب

فخر الملاح بحسنهم وجمالهم ... وبحسنه كل المحاسن تفخر

وتقاصرها عن كمال إدراك عقله، وقد تقدم أن العقول كلها في جنبه كحبة رمل بين رمل الدنيا، وتقاصرها عن جاهه الأعظم، وناهيك بجاه من يقول عند تبري ذوي الجاه العظيم: (أنا لها).

وتقاصرها عن إدراك علومه كما مر، وفي التنزيل: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

وتقاصرها عن إدراك حلمه، وفي كلام لعمر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾، ولو دعوت علينا مثلها نهلكنا عن آخرنا، فلقد وطئ ظهرك وشج وجهك وكسرت رباعيتك، فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلت: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

وتقاصرها عن إدراك خوفه، وقد تقدم: (أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية). وكان صلى الله عليه وآله وسلم يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من الخوف، وخوف الأنبياء والرسل عليهم السلام مع أنهم في كمال دائما لرؤية الحال الأكمل، إذ ما من مرتبة إلا فوقها مرتبة فيعدون لحالهم نقصاً، فهو من باب حسنة الأبرار سيئات المقربين، كما حمل عليه: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾، أو لأن العظمة تذهلهم عن التأمين، كما قاله السيوطي في قول يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾.

وتقاصرها عن رجائه، لأن الله تعالى أطلعه من سعة رحمته وفيضان كرمه وجوده ما لم يطلع عليه أحداً، كما هو أعرف الخلق بصفات الجلال المقتضية للخوف، فهو أيضا أعرفهم بصفات الجمال المقتضية للرجاء، ورجاء الكُمَّل على قدر خوفهم إذ هما كجناح الطائر، وأيضا هو البشير والنذير.

وتقاصرها عن إدراك كنه عبوديته، والعبودية شهود عظمة الربوبية، وعدم الغفلة

عنها، وهو صلى الله عليه وآله وسلم أعظم الخلق في هذا المعنى.

وتقاصرها عن معرفة خصائصه، وقد ألف العلماء فيها، وما لم يعرفوا أكثر مما عرفوا.

وتقاصرها عن معرفة زهده، أي رفع همته عما سوى الله، ولقد أحسن البوصيري في قوله: وراودَتْه الجبال الشم..."الأبيات الثلاثة".

ومن أسمائه صلى الله عليه وآله وسلم "الزاهد".

وتقاصرها عن تواضعه، وفي الحديث: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله) رواه الترمذي. وبقدر التواضع تكون الرفعة، لأن (من تواضع لله رفعه) كما قيل:

تواضع تكن كالبدر لاح لناظره	على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تكن كالدخان يعلو بنفسه	إلى صفحات الجو وهو وضيع

وتقاصرها عن إدراك شفقته ورحمته، وفي التنزيل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾، وفيه: ﴿ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾. ولله در القائل:

إذا رمت مدح المصطفى شغفاً به	تبلد ذهني هيبة لمقامه
فأقطع ليلي ساهر الجفن مطرقاً	هوى فيه أحلى من لذيذ منامه
إذا قال فيه الله جل جلاله	رؤوف رحيم في سياق كلامه
فمن ذا يجاري الوحي والوحي معجز	لمختلفيه نثره ونظامه

وتقاصرها عن إدراك جوده الحسي والمعنوي، قال جابر وأنس وسهل بن سعد: (ما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فقال لا)، وعن أنس: (أن رجلا سأله فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى بلده وقال: أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة)، وقد أحسن حسان في قوله:

له راحة لو أن معشار جودها	على البر كان البر أقوى من البحر
له همم لا منتهى لكبارها	وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر

تنبيه:

بقدر كمال المعرفة به صلى الله عليه وآله وسلم يكون تعظيمه والخضوع له، فخضوع الأكمل له أشد من خضوع الكامل، وخضوع الكامل أشد من خضوع الناقص.

وفي لطائف المنن: أخبرني الشيخ مكين الدين الأسمر- وهو الذي شهد له الشيخ أبو الحسن بالخصوصية- قال: دخلت مسجد نبي بالإسكندرية، فوجدت النبي المدفون

هناك قائماً يصلي، وعليه عباءة مخطوطة، فقال لي: تقدمْ فصلِّ، فقلت له: تقدم أنت. قال: بل تقدم أنت فإنك من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولا ينبغي لنا التقدم عليه. فقلت له: بحق هذا النبي إلا ما تقدمت فصليت. قال: فأنا أقولها له وهو أسرع إلي ووضع فمه على فمي إجلالاً للفظة النبي كي لا تبرز في الهواء. قال: فتقدمت فصليت.

فانظر هذا التعظيم من عظماء خواص الخلق، وانظر أحوال الصحابة الذين هم أعرف الناس بعد الأنبياء كانوا رضي الله عنهم لا يتوضأ صلى الله عليه وآله وسلم إلا ابتدروا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقاً ولا يتنخم نخامة إلا تلقوها في كفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يمدون إليه النظر تعظيما له صلى الله عليه وآله وسلم.

ويحتمل أن تكون اللام بمعنى "في" الظرفية، شبه صلى الله عليه وآله وسلم ببحر عظيم سبحت فيه الفهوم فخفيت ودقّت، ففي الكلام كناية وتخييل.

ويحتمل أن تكون اللام تعليلية، أي تصاغرت الفهوم لأجله خضوعا وإذعانا.

قوله رضي الله عنه: **(فلم يدركه منا سابق ولا لاحق)**

يحتمل أن يكون "نا" ضمير العقلاء من الإنس والجن والملائكة. ويحتمل أنه خاص ببني آدم، إذ لا يتوهم إدراكه غيرهم بحقيقته للمباينة في الجنسية. وعليه...

فإن أراد بالسابق مَنْ سبق على وجوده الجسماني، وباللاحق ما تأخر عن وجوده الجسماني، ففيه تغليب بالنسبة لمن أخر وجوده عن زمان الشيخ أو عدم إدخاله للعلم بعدم إدراكه بالمقايسة. وإن أراد بالسابق مَنْ سبق على زمن الشيخ، وباللاحق مَنْ تأخر عن زمانه، فالتقدير: ولا يدركه لاحق، فالعطف جملي.

ويحتمل أن يكون الضمير خاصا بهذه الأمة، فإن أريد بالسابق صدرها كالصحابة، وباللاحق من بعدهم، فلا إشكال. وإن أريد السابق واللاحق باعتبار زمان الشيخ فالعطف أيضا جمل كما مر.

ويقال: كان القياس أن يقول لاحق ولا سابق، لكون العطف مقيداً، فإن عدم إدراك اللاحق أحرى. وأما على الوجهين الأولين فلأن معرفة الرسل أقوى، وأما على الأخير فلأن معرفة الصحابة أقوى.

ويجاب: بأن المراد إفادة التعميم مع قصر النظر على الأولية.

وقيل: إن المراد السابق في العلم به، واللاحق فيه. وفيه نظر.

قوله رضي الله عنه: **(فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة)**

عالم المُلْك: حضرة الأجسام، وهي مظهر الأفعال المشار إلى بعضها بقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ الخ، أي تغني من تشاء وتفقر من تشاء، وتقوي من تشاء وتضعف من تشاء، وتصحُّ من تشاء وتمرض من تشاء، وتهدي من تشاء وتضل من تشاء، إلى غير ذلك. وكلما كثرت الأجسام في محل كثر ظهور التصرفات فيه، فمن ثم اختار الأئمة الكبار سكنى المدن والأمصار لما فيها من أنواع الاعتبار والاستبصار.

وعالم الملكوت: حضرة الأرواح، وهي مظهر الصفات.

وعالم الجبروت: حضرة الأسرار، وهي مظهر أسرار الذات.

شبه حضرة الأرواح بمتنزهات، أي أماكن مرتفعة فيها رياض، استعارة مكنية وتخييلية. وكذا شبه جماله صلى الله عليه وآله وسلم بعروس تلك الرياض وأثبت له الزهر مكنية وتخييلية.

وحاصل المعنى أن عالم الملكوت مستنير بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ لولاه ما وجد، وبه تشاهد الصفات التي هو - أي عالم الملكوت- مظهرها.

وأيضا فإن في عالم الملكوت الذي هو مسرح الأرواح من أنواع الجمال ما لا يعلمه إلا الله، وكلها مقتبسة منه صلى الله عليه وآله وسلم، ففيه النيران للشمس والقمر، وهما من نوره، والبيت المعمور وهو من نوره صلى الله عليه وآله وسلم، وسدرة المنتهى وقد جاء في الحديث: (فغشيها من أمر الله ما غشي، فتغيرت وصارت زمرداً وياقوتاً، فما أحد يستطيع أن ينعتها من شدة حسنها). وفي رواية: (غشيها أجراد من ذهب). وفي أخرى: (فراش من ذهب). وكل ذلك من نوره صلى الله عليه وآله وسلم. وفيه العرش، والكرسي، واللوح، والقلم، وهي من نوره صلى الله عليه وآله وسلم. قال أبو حامد في الإحياء: (للعرش ثمانون ألفاً من السرادق، ولك سرادق ثمانون ألف شرفة، وعلى كل شرفة ثمانون ألف قمر يهلل الله تعالى ويسبحه ويقدسه، لو برز منها قمر واحد إلى الدنيا لعبد من دون الله، ولحرقها نوراً).

وفيه الملائكة، وهم جواهر نورانية بسيطة قدسية مقدسة عن الشهوات.

قال في المواهب: وروي (أن في السماء الدنيا وهي من ماء ودخان ملائكة وهم خلقوا من ماء وريح، عليهم ملك يقال له الرعد، وهو ملك موكل بالسحاب والمطر، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت.

وإن في الثانية ملائكة على ألوان شتى رافعين أصواتهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، وإن فيها ملكاً نصف جسده من نار، ونصف جسده من ثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفئ النار، وهو يقول: يا من أَلَّفَ بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك.

وإن في الثالثة وهي من حديد ملائكة ذوي أجنحة ووجوه شتى وأصوات شتى، رافعي أصواتهم بالتسبيح يقولون: سبحانك اللهم أنت الحي الذي لا يموت، وهم صفوف قيام كأنهم بنيان مرصوص، لا يعرف أحدهم لون صاحبه من خشية الله.

وإن في الرابعة وهي من نحاس ملائكة يضعفون على ملائكة الثالثة. وكذلك كل سماء أكثر عدداً من السماء التي تليها، وإن ملائكة السماء الرابعة قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من العبادة، يبعث الله الملك إلى أمر من أموره، فينطلق الملك ثم ينصرف فلا يعرف صاحبه الذي إلى جنبه من شدة العبادة، وهم يقولون: سبوح قدوس ربنا الرحمن لا إله إلا هو.

وإن في الخامسة وهي من فضة، ملائكة يزيدون على ملائكة الأربع سموات، وهم سجود وركوع لم يرفعوا أبصارهم إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة قالوا: ربنا لم نعبدك حق عبادتك.

وإن في السماء السادسة وهي من ذهب، جند الله الأعظم الكروبيون، لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، عليهم ملك له سبعون ألف ملك جنده، وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف جناح، وهم الذين يبعثهم الله في أموره إلى أهل الدنيا رافعو أصواتهم بالتسبيح والتهليل.

وإن في السماء السابعة وهي من ياقوتة حمراء من الملائكة ما يزيدون على ما تقدم، وعليهم ملك مقدم على سبعمائة ألف ملك، منهم جنود مثل قطر السماء، وتراب الثرى والرمل والسهل، وعدد الحصى والورق، وعدد كل خلق في السموات والأرض، ويخلق الله تعالى في كل يوم ما يشاء، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وإن حملة العرش ثمانية يتجاوبون لكل منهم وجوه شتى، وأعين شتى في جسده لا يشبه بعضها بعضا، رافعة أصواتهم بالتهليل، ينظرون إلى العرش لا يفترون، ولو أن الملك منهم نشر جناحيه لطبق الدنيا بريشة من جناحه، لا يعلم عددهم إلا الله.

وإن حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت رخيم، يقول أربعة منهم: سبحانك اللهم وبحمدك على حلمك بعد علمك، وتقول أربعة: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك) انتهى.

وكل ذلك من نوره صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الجنة، وناهيك بما فيها من أنواع الجمال من القباب والقصور من اللؤلؤ والياقوت والزمرد، وغير ذلك، والأنهار من العسل والخمر وغيرهما، وأنواع اللباس والطعام، والحور العين، والولدان، والأكواب، وما لا يعلمه إلا الله تعالى، والجميع من نوره صلى الله عليه وآله وسلم.

وجمال ذلك كله وحسنه وبهاؤه وبهجته ونضارته، مقتبسة من جمال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وشبه الجبروت المنير به صلى الله عليه وآله وسلم ببحر على حافتيه رياض تسقى من حياضه، ودل على ذلك بإضافة الحياض- جمع حوض- وهو ما يجمع فيه الماء.

وشبهت أنواره صلى الله عليه وآله وسلم بالماء الساقي، ودل ذلك بإضافة الفيض لها، فالجبروت الذي هو حضرة الأسرار التي تشاهد فيها جمال الذات باعتبار ما فيها من سعة المعارف والمواهب بحر، وأنوار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ماؤه، والحياض الساقية تستمد منه.

وحاصل المعنى أن عالم الجبروت مبتهج ومشرق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ لولاه ما وجد، وبه تشاهد أسرار الذات التي هي أي عالم الجبروت. ويحتمل أن كلا من الملكوت والجبروت من معناه.

وفي "الرياض" و"الحياض" استعارة تصريحية، شبهت أرواح العارفين التي حضرتها الملكوت بالرياض، وصرح بالمستعار، وشبهت أسرارهم التي حضرتها الجبروت بالحياض، وصرح أيضا بالمستعار.

و"مونقة" و"متدفقة" ترشيح للاستعارتين. وظهر من هذا أن رياض الملكوت تسقى من حياض الجبروت.

ووجهه أن شهود الصفات الذي مظهره الأول إنما يكمل بشهود الذات الذي مظهر الثاني، إذ به يحصل الفناء الأكبر. فإن مراتب الفناء ثلاث:

فناء في الأفعال بأن تشهد أن لا فاعل إلا الله، وفناء في الصفات بأن تشهد أن لا عالم ولا قادر إلا الله...وهكذا، وفناء في الذات بأن لا تشهد موجوداً إلا الله.

وهو معنى قول القائل:

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى   فكان فناؤه عين الفناء

فتكميل شهودك الصفات إنما يكون في عالم الجبروت، فلذلك جعل ساقياً لعالم الملكوت.

ويحتمل أن يكون في الكلام احتباك، والمعنى: فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياضه بفيض أنواره متدفقة، ورياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة وبزهر جماله مونقة، فلكل من العالمين رياض وحياض، وخص عالم الملكوت بالرياض وعالم الجبروت بالحياض كما مر.

وقد يقال في عالم الملك ما يدرك بالحس والوهم، وعالم الملكوت ما يدرك بالعقل والفهم، وعالم الجبروت ما شأنه أن يدرك بالحس وما فيه، أو يدرك بالعقل وما معه...كما في الجنة مما لم تصل إليه وهماً ولا فهماً، إذ فيهما ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسيرى ويسمع ويعرف.

ويقال الملك ما ظهر، والملكوت ما بطن، والجبروت جامع بينهما. الإنسان ظاهره ملك، وباطنه ملكوت، حيث جميع ما بينهما كان جبروتيا، وهذه العوالم الثلاثة أيضا بالنبي أشرقت وتهيأت للإدراك وتزينت، فبمدده الساري أدرك الحس والوهم والعقل والفهم.

ثم هذا الكلام كالدليل قبله، أي إنما تصاغرت الفهوم عن إدراكه صلى الله عليه وآله وسلم لأن العقول قاصرة عن الإحاطة بالملكوت والجبروت، وأنواره هي المبثوثة فيهما، والمزينة لهما، فما لم يحط بهما لم يحط به.

قوله رضي الله عنه: **(ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط)**

هذا تعميم بعض التخصيص، كأنه يقول: بل لا شيء من الأشياء، من إنس وجن وملَك وحي وجماد وسُفلي وعُلوي ومحسوس ومعقول، إلا وهو مرتبط بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومتعلق به من جملة الوجود والإمداد، وبالجملة فنعمتان ما خَلا كل موجود عنهما، ولا بد لكل مكوَّن منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، كما في الحكَم. والنبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الواسطة فيهما، إذ لولا سبقية وجوده ما وجد موجود، ولولا سريان نوره في الكون لانهدمت دعائمه.

فإن قيل: إذا كان كذلك، فكيف بقي الوجود بعد موته؟

قلنا: موت الأنبياء إنما هو انتقال من دار إلى دار، وهم بعد الموت أحياء على الحقيقة. ونقل السبكي في طبقاته عن ابن فورك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حي في قبره. ورسول الله صلى الله عليه وسلم أبد الآباد على الحقيقة لا المجاز.

وفي المواهب: لا فرق بين موته وحياته في مشاهدته لأمته، ومعرفته بأحوالهم ونياتهم وعزائمهم وخواطرهم.

وروى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب: "ليس من يوم إلا ويعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعمال أمته غدوة وعشية، فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم، فلذلك يشهد عليهم"، انتهى. يشير إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ وقوله: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾.

وقال السيوطي: حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قبره هو وسائر الأنبياء معلوم عندنا قطعاً لتواتر الأخبار بذلك. ثم استدل بما في مسلم عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر ليلة الإسراء بموسى يصلي في قبره، وما في البخاري عن عمار أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (إن لله ملكاً أعطاه أسماع الخلائق قائماً على قبري، فما واحد يصلي عليَّ صلاة إلا بلغنيها).

وناهيك في استيفاء الموجودات إليه أن العقول منه تستمد، وأن العالم بأسره مرحوم به، ولله در القائل:

ما أرسل الرحمن أو يرسل	من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه	من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده	نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها	يعلم هذا كل من يعقل

ومن جملة العالمين العرش على عظمته. قال ابن عباس ومجاهد: (السموات السبع والأرضون السبع، في جنب الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض) ونحوه في حديث أبي ذر. وقال بعض العلماء: للعرش ثلاثمائة وستون قائمة، وعرض كل قائمة عرض الدنيا سبعين ألف مرة، وبين كل قائمة وقائمة ستون ألف صحراء، وفي كل صحراء ستون ألف عالَم، وكل عالَم كالثقلين من الجن والإنس. وفي الترمذي من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده رضي الله عنهم: "أن ملَكاً يسمى خرافيائيل طار مقدار عشرين ألف سنة فلم ينل قائمة من قوائم العرش". وفي التحبير للقشيري أن ملَكاً قال يا رب أريد أن أرى العرش فزد في قوتي حتى أدرك العرش، فخلق الله له ثلاثين ألف جناح، فقال سبحانه- وهو أعلم- هل بلغت إلى أعلى العرش؟ فقال: لم أقطع بعد قائمة العرش، فاستأذن أن يعود إلى مكانه، فأذن له.

وفي كلام بعض أهل الإشارات: لما انتهى صلى الله عليه وآله وسلم إلى العرش تمسك العرش بأذيائه وناداه بلسان حاله: يا محمد أنت في صفائك آمناً من منعتك وأشهدك جمال أحديته، وأطلعك على جمال صمديته، وأنا الظمآن إليه، اللهفان عليه،

المتحير فيه، لا أدري من أي وجه آتيه، جعلني أعظم خلقه، فكنت أعظمهم منه هيبة، وأكثرهم فيه حيرة، فيا محمد، خلقني فكنت أرعد لهيبة جلاله، فكتب على قائمتي لا إله إلا الله فازددت لهيبة الله ارتعاداً وارتعاشاً، فكتب: محمد رسول الله، فسكن لذلك قلقي، وهدأ روعي، فكان اسمك لقاحاً لقلبي، وطمأنينة لسري، فهذه بركة اسمك علي، فكيف إذا وقع جميل نظرك إلي، يا محمد أنت المرسل رحمة للعالمين، ولا بد لي من نصيب من هذه الرحمة، ونصيبي يا حبيبي أن تشهد لي بالبراءة مما نسبه أهل الزور إلي، وتقوّله أهل الغرور علي، زعموا أني أسع من لا مثل له، وأحيط بمن لا كيف له، يا محمد من لا حد لذاته، ولا حد لصفاته، كيف يكون مفتقراً إلي؟ أو محمولا علي؟ أوجدني رحمة منه وفضلا، ولو محقني لكان حقاً منه وعدلا، يا محمد...أنا محمول قدرته، ومعمول حكمته. فأجابه لسان حال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: أيها العرش إليك عني، أنا مشغول عنك، ولا تكدر علي صفوتي، ولا تشوش علي خلوتي. فما أعاره صلى الله عليه وآله وسلم منه طرفاً، ولا أقرأه من مسطور ما أوحى إليه حرفاً، ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾. انتهى باختصار.

وكذا كل الملائكة ومنهم جبريل على عظمته. سئل بعض المشايخ عن عظمة الله عز وجل، فقال: ما تقول فيمن له عبد يسمى جبريل له ستمائة جناح، لو نشر جناحين منهما لستر الخافقين.

وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، كنت أخشى العاقبة ثم أمنت بها من ثناء الله علي بقوله: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾.

وقوله "شيء" مخصوص زائد على الإيجاد والإمداد الشاملين، ولذلك أجابه بالحظ المخصوص واقتصر على هذا لأنه أسنى المطالب.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي: جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو عين الرحمة. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ولبعض أهل الإشارات: "ميم" اسمه محمد الأولى إشارة إلى الملك الأول وهو الدنيا، والثانية إشارة إلى الملك الثاني وهو الآخرة. و"الحاء" إشارة إلى الرحمة، وسطت بينهما تنبيهاً على أن الملكين يتجاذبانها، فيستمدان منها، و"الدال" إشارة للدوام جاءت بعد ميم الملك الثاني، إشارة إلى تأبيده.

وفي الحديث: (أنا نبي الرحمة)، وتقدم حديث: (إنما أنا رحمة مهداة)، ولأمته من هذه الرحمة الحظ الأوفر، وفي الحديث: (أمتي أمة مرحومة)، وفي حديث أنس رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: (ألا إني لكم بمكان صدق حياتي، وإذا مت، فقال عمر: ماذا تصنع إذا مت؟ قال: لا أزال أنادي في قبري رب أمتي أمتي حتى ينفخ في الصور النفخة الثانية). وفي روضة الأزهار لسيدي عبد الرحمن الثعالبي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طيب النفس قلت: يا رسول الله ادع لي، فقال: (اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر، وما أسرّت وما أعلنت. فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك، فقال لها: أيسرك دعائي؟ فقالت: وما لي لا يسرني دعاؤك؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: والله إنها كدعائي لأمتي في كل صلاة) رواه ابن حبان في صحيحه، انتهى.

وعن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: قمت ذات ليلة أطلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد خرج من البيت فوجدته بالبقيع قائماً يقول: يا رب أمتي، وساجداً: يا رب أمتي. فقلت: يا رسول الله وأين القرآن؟ فقد نسيته لأجل هذه الأمة.

فلما سمع كلامي قال: يا عائشة أتعجبين من هذا؟ أقول ما دمت في الحياة: يا رب أمتي، يا رب أمتي، فإذا دخلت في القبر قلت: يا رب أمتي، فإذا نفخ في الصور أقول: يا رب أمتي.

ولهذا ونحوه، تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أحسن إلينا إحساناً لا يماثله إحسان محسن من آبائنا وأحبابنا وأقاربنا، إذ هو السبب في وجودنا، وبقاء مهجنا وأرواحنا، وتخليدنا في النعيم المقيم إن شاء الله تعالى.

ولعجزنا عن مكافأته على عظيم إحسانه، أسندنا الصلاة عليه إلى خالقه تعالى القادر على كل إحسان.

ومن عرف أن كل خير ديني أو دنيوي إنما وصل إلينا على يده صلى الله عليه وآله وسلم، وأن الإحسان الذي توسط لنا فيه لا يماثله إحسان. أحبّه صلى الله عليه وآله وسلم لا محالة، ففي الحديث: (جبلت القلوب على حب من أحسن إليها)، والمحسن وإن كان هو الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ لكن المسبب يتوقف على السبب، والموسوط يتوقف على الواسطة، فلولا الواسطة لذهب الموسوط.

وقوله: (كما قيل) لم يرد تضعيفاً بل أشار إلى أنه قول مشهور بين العقلاء، وهو ثابت في الحديث.

والناس متفاوتون في محبته صلى الله عليه وآله وسلم بحسب استحضار ما وصل

إليهم من جهته عليه الصلاة والسلام من النفع الشامل لخير الدارين، والغفلة عن ذلك، ولا شك أن حظ الصحابة رضي الله عنهم من هذا المعنى أتم لأن هذا ثمرة المعرفة وهم بها أتم.

وقد روى ابن إسحاق كما في الشفاء، أن امرأة من الأنصار قُتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقالوا: خيراً هو بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل- تعني صغيرة -. رواه البيهقي في الدلائل. وفي لفظ عند صاحب اللباب: حتى ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذت بناحية ثوبه ثم جعلت تقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ.

وذكر عياض أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من أهلي ومالي، وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإذا دخلت لا أراك، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾، فدعا به فقرأها عليه.

وفي حديث آخر: (كان رجل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إليه لا يطرف، فقال: ما بالك؟ فقال: بأبي أنت وأمي أتمتع من النظر إليك، فإذا كان يوم القيامة رفعك الله بفضله، فأنزل الله الآية).

وفي تفسير البغوي: نزلت الآية في ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه، يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما غير لونك؟ فقال: يا رسول الله ما بي من وجع ولا مرض، غير أني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى أراك،ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك لأنك ترفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبدا. فنزلت هذه الآية.

وكذا ذكره الواحدي في أسباب النزول، وعزاه للكلبي عن ثوبان.

وذكر مقاتل بن سليمان مثل هذا، وأن الرجل هو عبد الله بن زيد الأنصاري، وهو

الذي كان يعمل في جنة له، فأتى ابنه فأخبره أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توفي، فقال: اللهم أذهب بصري حتى لا أرى بعد حبيبي أحداً، فكفَّ بصره.

ومن علامات محبته صلى الله عليه وآله وسلم كثرة ذكره، إذ من أحب شيئا أكثر من ذكره، حتى قيل: المحبة دوام الذكر للمحبوب. ولآخر: ذكر المحبوب على عدد الأنفاس. ولآخر: للمحبة ثلاث علامات أن يكون كلامه ذكر المحبوب، وصمته فكر فيه، وعمله متابعة له.

ومن علامات محبته أيضا تعظيمه عند ذكره، والخضوع والانكسار لسماع اسمه.

كان جعفر بن محمد كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وآله وسلم اصفر لونه. وكان عبد الرحمن بن القاسم إذا ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم نظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم، ويجف لسانه في فمه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكان عبد الله بن الزبير إذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع.

ومن علامات محبته صلى الله عليه وآله وسلم كثرة التشوق إلى لقائه، إذ كل حبيب يحب لقاء حبيبه، حتى قيل: المحبة الشوق إلى المحبوب.

لما احتضر بلال نادت امرأته: واحسرتاه، فقال: واطرباه غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه. ولسيدي عبد الله جسوس:

أيا أمة المختار يا خير أمة ... تجافوا عن الدنيا وحنوا إلى القرب
ألستم بدار لا ترون حبيبكم ... وكيف يطيب العيش دون لقا الحب

ومن ذاق طعم المحبة اشتاق، وتأججت نيران الحب والطلب في قلبه، ويجد الصبر عن محبوبه من أعظم كبائره، كما قيل:

الصبر محمود في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يحمد

وعن زيد بن أسلم: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة يحرس، فرأى مصباحاً في بيت وإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول:

على محمد صلاة الأبرار ... صلى عليه الطيبون الأخيار
قد كنت بكّاءً قوّاماً بالأسحار ... يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجلس عمر يبكي، ثم قام إلى باب خيمتها فقال: السلام عليك- ثلاث مرات- ثم قال: أعيدي عليَّ قولك، فأعادته بصوت حنين،

فبكى وقال لها: وعمر لا تنسيه يرحمك الله. فقالت:

"وعمر فاغفر له يا غفار".

وقد حكي أنه رئيت امرأة مسرفة على نفسها بعد موتها، فقيل لها: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفر لي. قيل: بماذا؟ قالت: بمحبتي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشهوتي النظر إليه، فنوديت: من اشتهى النظر إلى حبيبنا نستحي أن ننزل به عذابنا، بل نجمع بينه وبين من يحبه.

ومن علامات محبته صلى الله عليه وآله وسلم حب القرآن الذي أتى به وهدى به واهتدى به وتخلق به، وإذا أردت أن تعرف ما عندك وعند غيرك من محبة الله ورسوله، فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه، أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء والطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي

أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن مسعود: (اقرأ عليَّ. قال: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ فقال: إني أحب أن أسمعه من غيري. فاستفتح وقرأ سورة النساء حتى بلغ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾، قال: حسبك. فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تذرفان من البكاء) رواه البخاري.

وهذا يجده من يسمع الكتاب العزيز بأذن قلبه، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾.

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى، يقولون: يا أبا موسى ذكّرنا ربنا، فيقرأ ويستمعون.

فلمحبي السماع القرآني من الوجد والذوق والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني.

ومن علامات محبته صلى الله عليه وآله وسلم محبة سنته وقراءة حديثه، فإن من دخلت عليه حلاوة الإيمان في قلبه، إذا سمع كلمة من كلام الله أو من حديث

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شربتها روحه وقلبه ونفسه، ويقول:

أشم منك نسيماً لست أعرفه ... كأن محياه جرت..... أردانا

فتعمه تلك الكلمة وتشمله، فتصير كل شعرة منه سمعاً، وكل ذرة منه بصراً، فيسمع الكل بالكل، ويبصر الكل بالكل، ويقول:

لي حبيب خياله نصب عيني ... سره في ضمائري مدفون

إن تذكرته فكلي قلوب ... وإن تأملته فكلي عيون

ومن أقوى أسباب إثارة الحب وتهييج الشوق سماع الصفات النبوية والشمائل المحمدية الزكية، كما قيل:

إذا ذكرت شمائل من إليه ... نظمت بين الورى خير الشمائل

رأيت العاشقين تميل إليه ... كأغصان تحركها الشمائل

ولسيدي عبد الرحيم البرعي رحمه الله تعالى:

وتأخذ قلبي نشوة عند ذكركم ... كما ارتاح صب خامرته خمور

أصوم عن الأغيار طراً وذكركم ... سحور لصومي في الهوى وفطور

ومدح رسول الله أصل سعادتي ... أفوز به يوم السماء تمور

نبي تقي أريحي مهاب ... بشير لكل العالمين نذير

إذا ذكر ارتاحت قلوب لذكره ... وطابت نفوس وانشرحن صدور

وللشيخ أبي مدين الغوث رضي الله عنه:

يحركنا ذكر الأحاديث عنكم ... ولولا هواكم في الحشا ما تحركنا

ولا سيما إن كانت تلك الصفات الجميلة الجليلة منظمة في سلوكها. وفي البردة:

فالدر يزداد حسناً وهو منتظم ... وليس ينقص قدراً غير منتظم

وفي الهمزية للناظم أيضاً رضي الله عنه:

فَتَنَزَّهْ في ذاته ومعانيه ... استماعاً إن عزَّ منها اجتلاء

واملأ السمع من محاسن يمليها ... عليك الإنشاد والإنشاء

ولا سيما الأصوات المطربة والألحان المعجبة.

وذكر الإمام أحمد وغيره أن الله تعالى يقول لداود: مجّدني بذلك الصوت الذي كنت تمجدني به في الدنيا. فيقول: كيف وقد أذهبته؟ فيقول: أنا أرده عليك. فيقوم عند ساق العرش ويمجده، فإذا سمع أهل الجنة صوته استفرغ نعيم أهل الجنة.

تنبيه: من اتصف بهذه العلامات التي ذكرناها فهو كامل المحبة لله ولرسوله، ومن

خالف بعضها فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم للذي حدّه في الخمر لما لعنه بعضهم وقال: "ما أكثر ما يؤتى به، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله".

وفيه رد على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر لثبوت النهي عن لعنه، وثبوت الأمر بالدعاء له.

وفيه أنه لا تنافي بين ارتكاب المنهي، وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله. وقول من قال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

مراده الحب الكامل، لكن ينبغي أن يقيد ثبوت محبة الله ورسوله في قلب العاصي بما إذا ندم، وأما إذا لم يبال بذلك ولم يعبأ به فهذا يخشى أن يطبع الله على قلبه.

تنبيه آخر: في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده). وفي صحيح ابن خزيمة: (من أهله وماله). وفي رواية أخرى زيادة: (والناس أجمعين).

وفي البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه. فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: الآن يا عمر) انتهى. ولعله رضي الله عنه استصغر ذلك إلا من نفسه قبل أن يراجع وجدانه، وتثبت وجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحب إليه من نفسه أيضاً فأخبره بذلك، والله أعلم.

تنبيه آخر: اختلف العلماء: هل المحبة أرفع أو الخلة؟ واحتج لأرفعية المحبة بأن الحبيب وصل إليه به لقوله تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾، والخليل بالواسطة لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. والخليل قال: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى ﴾، والحبيب قيل له: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ ﴾، والخليل قال في المحنة: ﴿ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾، والحبيب قيل له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾، والخليل مغفرته في حق الطمع لقوله: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾، والحبيب مغفرته متيقنة لقوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾. وفيه نظر لأن هذه الفروق ليست راجعة إلى مفهومي الخلة والمحبة والكلام في ذلك.

والصحيح أن الخلة أفضل لأنها أخص، إذ هي نهاية المحبة، ولهذا نفى صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون له خليل غير ربه مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر وغيرهم رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين.

وتحمل المحبة من الله في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث اتخذه حبيباً على نهايتها، فتكون مساوية للخلة.

ففي بعض أحاديث الإسراء أن الله تعالى قال: يا محمد سل. قال: يا رب إنك اتخدت إبراهيم خليلا، وكلّمت موسى تكليما. فقال له تعالى: ألم أعطك خيراً من هذا.... إلى قوله: واتخذناك حبيباً، أو ما في معناه. رواه البيهقي.

قال الزركشي في شرح البردة: وقد صح أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً).

ويدل أيضا على أن الخلة أخص، أنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين، وخلته خاصة بالخليلين.

ثم الناس في شهود واسطته صلى الله عليه وآله وسلم على أربع مقامات، كما قال الشيخ عبد الرزاق العثماني:

الأول: موقف أهله شهود شريعته، وهو لعامة المؤمنين.

الثاني: موقف أهله شهود ذاته، وهو للأولياء والصالحين.

الثالث: موقف أهله شهود روحه، وهو للشهداء والصديقين.

الرابع: موقف أهله شهود سره، وهو للأنبياء والمرسلين.

وأهل هذه المواقف كلهم معترفون بقصورهم عن نيل ما خص به صلى الله عليه وآله وسلم منها:

أما من كان معتمده شريعته، فهو واقف مع شهود وتكليف، وعلى القطع لم يطق الاحتواء على جميع لوازمها ولا القيام بشروط قاعدة واحدة من قواعدها، ففي الحديث: (إن هذا الدين متين خذوا منه ما استطعتم، ولن يشاد هذا الدين أحدٌ إلا غلبه)، ولم يقم بجميع اللوازم والحقوق إلا هو صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما من مشهده الذات، فهو واقف في مقام هيبة الجمال ولا سبيل له إلى إدراك حقيقتها بالبصر، فضلاً عن البصيرة لمانع قوة نوره صلى الله عليه وآله وسلم، كما امتنعت الأبصار عن إدراك حقيقة الشمس، يشهد لذلك قول حسان رضي الله عنه لما قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورجع إلى قومه وهم كفار قريش، قالوا:

صف لنا ما رأيت، وبذلوا له أموالاً على أن يهجوه بما يناسب بعضهم فيه، فقال:

لـما نظـرتُ إلـى أنـواره سـطعتْ ... وضعتُ من خيفتي كفي على بصري

خوفاً على بصري من حسن صورته ... فلست أبصره إلا على قدري

الأنوار من نوره في نوره غرقت ... والوجه منه طلوع الشمس والقمر

روحٌ من النور في جسم من القمر ... كحُلةٍ نُسجت في الأنجم الزهر

فقالوا له: ما هذا؟ فقال: هذا الذي رأيت، وعازٌ على الرجل أن يصف الكذب.

وكان رضي الله عنه يتحرى الصدق في شعره، وهو القائل:

وإنما الشعر لب المرء يعرضه ... على الرواة فإن كيساً وإن حمقا

وإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فصاحب مشهد ذاته صلى الله عليه وآله وسلم هو بين محو وإثبات، لأنه إذا نظر إلى صورة بشريته جملة شاهد بشراً سوياً، وإذا رام حصر أوصاف بشريته، تمنع عليه حصرها كما اعترفت بذلك الفحول. ولابن زكري في آخر همزيته:

قصِّر القول فالجناب رفيع ... من يطاوله أعجزته السماء

وارض بالعجز غاية فقديماً ... عجزت عن وصوله الشعراء

فلا يمكنه مع ذلك أن يقول إلا أنه بشر وليس كالبشر، كما يقال في حجر الياقوت حجر وليس كالحجر.

ووجه مشهد ذاته صلى الله عليه وآله وسلم أنه حجاب رحمة، بوجود ذاته الكريمة ظهر الإسلام وبطلت عبادة الأصنام، ومن حكمه شرعت الأحكام، ومن لسانه عرف الحلال والحرام، فلولا واسطة بشريته صلى الله عليه وآله وسلم لم يستطع أحد تلقي أمر الله ونهيه من واسطة الملَك، فأحرى من خطاب الملك. قال سبحانه من قائل: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، فانظر إلى عظيم مقاساته صلى الله عليه وآله وسلم في تلقي القرآن من جبريل، مع ما أودع الله فيه من القوة والاستعداد لذلك مما هو خارج عن طوق البشر، ومع ذلك رجع إلى خديجة رضي الله عنها في قصة بدء الوحي يرجف فؤاده ويقول: زملوني زملوني، وتارة يقول: دثروني دثروني، وقال لخديجة- لما زال عنه الروع-: لقد خشيت على نفسي. فقالت: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا.

وتارة يبقى له غطيط وعرق، وتارة يغيب عن حسه، والصحابة رضي الله عنهم ما تلقوه من بشريته لم يصعب عليهم ذلك، ومن بعدهم كذلك.

ووجه فنائه في الله تركُه لدواعي الهوى، واستقامته ظاهراً وباطناً على بساط التقوى، فهو عامل على أمر الله بواسطة المبلغ عن الله، وفناؤه غيبة لا سكر.

وأما من كان مشهده روحه صلى الله عليه وسلم، فهو واقف في مقام هيبة الجلال، وفناؤه حقيقي، لأن سره فارق عالم الخلق، واستوطن عالم الأمر تبعاً لمشهوده وهو روحه صلى الله عليه وآله وسلم، فهو ليس له مع غير الله قرار، ولا عما سواه إخبار.

وأما من كان مشهده سره صلى الله عليه وآله وسلم، فلا اطلاع لنا على ما بينه وبينهم من الأحوال إلا أنا نعتقد أنهم من بحره اغترفوا، ومن نوره اقتبسوا، كما أشار إليه البوصيري رضي الله عنه بقوله:

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ ... وأنه خير خلق الله كلهم

وكل آي أتى الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم

فإنه شمس فضل هو كواكبها ... يظهرن أنورها للناس في الظلم

أي يُظهرن أنوار التوحيد قبل ظهوره نيابة عنه، كما أن كُمَّل ورثته من أمته يدعون إلى الله تعالى تبعاً لدعوته، كما أشار إليه بقوله: (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل) أي في النيابة عنه في دعوة الخلق، ولم يرد تناسبهما في الاستمداد منه كما يكشف عنه قول أبي يزيد: حظ النبي زق من عسل، وما رشح حظ الولي.

وحاصل الأمر أن أسرار الأنبياء والأولياء كلها مطوية في حشو لمحة من مواهب سره صلى الله عليه وآله وسلم، ونقطة من فيض بحره، كما قال البوصيري:

وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحِكَم

وقد استبان أنه لا غنى لأحد عن واسطته صلى الله عليه وآله وسلم.

وجملة (وهو به منوط): حال من ضمير الخبر المقدر.

قوله رضي الله عنه: **(صلاةً تليق بك منك إليه كما هو أهله)**

(صلاة) معمول لـ (صلِّ) على أنه مصدر نوعي بيَّن به أن ليس مطلوبه مطلق الصلاة، بل صلاة مخصوصة تناسب عظيم مقداره عند الله تعالى، ولا يعلم مقداره إلا هو كما مر، فلا يمكن أحد تعيين هذه الصلاة وبيان حقيقتها، فالصفة مخصصة مخرجة لصلاة لا تناسب قدره، ولم ترفع الإيهام عن الموصوف بالكلية، وطلب الشيء لا يستدعي العلم بكنهه لجواز طلب المعلوم بوجه ما نحو: اللهم أعطنا في جنتك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فإن قلت: المناسب لهذا أن يقول: (تليق به).

قلت: بعد أن وصف المصلى عليه بأنه: "منه انشقت الأسرار" إلى آخر الصفات المتقدمة، بيّن أن مطلوبه الصلاة التي تليق بمعاملة الله معه، كأنه يقول: اللهم صلِّ على هذا الموصوف بهذه الصفات التي مؤداها أنه أعظم أصفيائك، وأقرب خواص أهل قربك وأولاهم بعنايتك وفضلك، صلاة تليق بإحسانك إليه، وإنعامك عليه، فهذه الصلاة المطلوبة من ملك الملوك الذي بيده خزائن الإفضال والإنعام، والإحسان والكرم، مما لا تناهي لأعظم العظماء عنده، وأكرم الكرماء عليه، فدلَّ على عظمة المصلي بقوله: "تليق بك". وعلى عظمة المصلى عليه بقوله: "على من منه انشقت الأسرار" الخ، فما أعظمها صلاة، وما أجلها، وما أفخمها.

وقوله: "منك إليه" أي لا على يدي أحد من خلقك، فإن الملك إذا أتحف أحد كبراء دولته، ووجه إليه هدايا مع غلمانه وخدامه، ثم أعطاه هدية مخصوصة بيده لم تكن إلا أنفس عطاياه وأعزها، وإن في ذلك من الاعتناء بالمهدى إليه، والدلالة على عظم مرتبته عند المهدي، وشدة قربه منه ما ليس في غيره، وفيه تأكيد للدلالة على عظيم هذه الصلاة باستحضار مدلولي الضميرين.

وقد تكون العطية على يد الواسطة ويبقى المعطى له عن شهودها وشهود غيرها شهود المعطي والاشتغال به، فيحصل له الاعتناء المذكور، وعلى هذا يتنزل قول سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه: "وتوَلَّ قبض أرواحنا بيدك"، إذ لا بد من واسطة ملك الموت.

وفي الخبر: (من واظب على قراءة آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة ومسنونة [كما في نوادر الأصول] كان الذي يتولى قبض روحه ذو الجلال والإكرام سبحانه). والمراد بذلك حفظها بالتجلي واستغراقها بالشهود، وسلب الشعور بالغير وفي ذلك غاية منيتها كما أشار إلى ذلك ابن وفا رضي الله عنه:

مـن مـات فيـك لـه الهـنا ولـه الحيـاة بـلا عنـا
إن المنيـة فـي الـهوى عنـد المحـب هـي الـمنا

وقال أيضاً رحمه الله:

إن الـذين أحـبهم أهـل الوفـا مـن مـات فـيهم عـاش عـيش وفـا
يلقـى بهـم سـبب الحيـاة بـروحهم يـا حبـذا تلـك منيتـي بمـضاء

وله أيضا:

يا فنائي وسلوي جملة   لكما ما دون حبي فخذا
ليس لي في غير حبي حاجة   أيها الغير تنَحَّ هكذا
أنا وصلي بحبي راحتي   فالذي يشغلني عنه أذى
فإذا غبت عن الغير بمن   هو محبوبي تحققت إذا
لم يكن في الحي حي بعد من   روحه تنشق من حبي شذا
كل شيء دون حبي هالك   فحياة الكل حبي حبذا
يا حبيبي ووجودي والذي   بوفاة لفؤادي آخذا
أنت لي روح وحب وهوى   وحياة وشراب وغذا

وأخرج الملا في سيرته عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لما أسري بي مررت بملك جالس على سرير من نور، وأحد رجليه في المشرق، والأخرى في المغرب، وبين يديه لوح ينظر فيه، والدنيا كلها بين عينيه، والخلق بين ركبتيه، ويده تبلغ المشرق والمغرب، فقلت: يا جبريل من هذا؟ فقال: هذا عزرائيل، تقدَّمْ فسلِّم عليه: فتقدمت وسلمت عليه، فقال: وعليك السلام يا أحمد، ما فعل ابن عمك علي؟ فقلت: وهل تعرف ابن عمي عليا؟ قال: كيف لا أعرفه وقد وكلني الله بقبض أرواح الخلائق خلا روحك وروح ابن عمك علي بن أبي طالب، فإن الله يتوفاكما بمشيئته) انتهى.

وانظر هذا مع ما جاء في استئذان ملك الموت عليه: ففي حديث جعفر بن محمد عن أبيه عند البيهقي في الدلائل أن جبريل قال: يا أحمد هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدمي بعدك. قال: ائذن له. ثم دخل ملك الموت، فوقف بين يديه فقال: يا رسول الله إن الله عز وجل أرسلني إليك، وأمرني أن نطيعك في كل ما تأمرني به، إن أمرتني أن أقبض روحك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها. فقال جبريل: يامحمد...إن الله قد اشتاق إلى لقائك، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: فامض يا ملك الموت لما أمرت به. فقال جبريل: يا رسول الله هذا آخر موطئي من الأرض، إنما كنت حاجتي من الدنيا. فقبض روحه.

وقوله: "كما هو أهله" أي لأجل الأمر العظيم الذي هو مستحقه، ولم يعين هذا الأمر لعدم اطلاعنا عليه فأبهمت الصفة، وفيه تفخيم كما في: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾، فالكاف تعليلية على حد: ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾، و"ما" موصولة اسمية عائدها المضاف إليه في أهله.

تنبيه: أخرج الطبراني وأبو نعيم وابن النجار والخطيب، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من قال جزى الله عنا محمداً ما هو أهله أتعب سبعين كاتباً ألف صباح). وفي رواية عند عبد الغفور النفزي: (ألفي صباح) بالتثنية.

قوله رضي الله عنه: **(اللهم إنه سرك)**

لما كان من آداب من طلب من الملك أن يعامل وزيره ويخلع عليه خلعه السنية أن يبين وجه استحقاق ذلك الوزير لذلك، كأن يذكّره محبته لذلك الملك وخدمته له ومناصحته إياه تأكيداً للطلب له واعتناء بشأنه، وإن كان الملك عالماً بذلك، وللطالب أيضاً منفعة في ذلك لإظهار محبته لمحبوب الملك وخدمته لخدمه، وذلك تعرض لمواهب الملك، واستجلاب لإقباله على الطالب، أشار الشيخ رضي الله عنه إلى بعض ما أطلعه الله عليه لما هو صلى الله عليه وآله وسلم أهله، ولكونه صلى الله عليه وآله وسلم مرآة ومظهراً لصفات الجلال والجمال على جهة التعريف كما سبق، سمي سر الله، وسر الأسرار، ولوح الأسرار، وكنز الأسرار، ومعدن الأسرار، ومهبط الأسرار، وحضرة الأسرار، والسر الأنوه، والسر الأنزه، والسر الأكمل، والسر الأبهر، والسر المحيط، وجامع أسرار التوحيد، ومبين أسرار الذات.

قوله رضي الله عنه: **(الجامع)**

لما افترق في غيره من الظاهر إذ كلهم مستمدون منه وآخذون عنه.

قال الإمام الخروبي: جميع أوصاف الأنبياء مجموعة في سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكل ولي كان على قدم نبي اتصف بأوصاف ذلك النبي، والولي المحمدي هو الكامل الجامع لأوصاف الأولياء كما اجتمعت أوصاف الأنبياء فيمن هو على قدمه صلى الله عليه وآله وسلم. وقال الرصاع عن بعضهم: أيد الله تعالى موسى باسمه "الرب" فقال: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾، وعيسى باسمه "المحيي"، وإبراهيم باسمه "الباطن" فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وأيد سيد الأكوان الجامع لخصال العرفان بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾، فقرن اسمه الجامع لمعاني الذات والصفات باسم نبوته.

ونقل عن بعضهم أيضاً أن ذاته صلى الله عليه وآله وسلم جمعت حقائق الموجودات، ونبوته جمعت سائر النبوات، ونوره جمع سائر الأنوار، وسره منه تفرعت الأسرار، ويومه جامع الأيام، وكتابه جامع لجميع الكتب المنزلة.

قوله رضي الله عنه: **(الدال عليك)**

أي بأقواله وأفعاله وأحواله، في عالم الأرواح والأجساد، كما سبق للكمال، وغيره من الدعاة نوابه وخلفاؤه.

قوله رضي الله عنه: **(وحجابُك)**

أي الذي حجبت به خلقك عن الفقد وعدم الوجود، باعتبار وساطته في نعمة الإيجاد، وعن الاضمحلال والتلاشي باعتبار وساطته في نعمة الإمداد، وهو حجاب رحمة بين العبد وهيبة ربه، إذ لا يستطيع الإنسان تلقي أمر الله ونهيه من الملَك فضلاً عن الملِك كما سبق.

أو هو حجاب للمؤمنين من العذاب بإرشادهم ودعائهم إلى الإيمان.

أو حجاب لهم بالتأليف بين قلوبهم من آفات التدابر والتقاطع، وحجابهم من نار الفرق والقطيعة حيث أوصل كلاً منهم إلى حظه من المشاهدة على اختلاف مراتبهم، أو حجابهم عن أخلاق الجاهلية، وما كانت عليه من أخلاق الضلال كقتل الجماعة بواحد، وقتل الأولاد خشية الإملاق، ووأد البنات.

أو حجاب للعقول عن العطب حيث عقلها بعقال شرعه عن النظر في حقيقة الذات المقدسة، فقال: (تفكروا في مخلوقاته ولا تتفكروا في ذاته).

قوله رضي الله عنه: **(الأعظم)**

إشارة إلى أن النبيين والمرسلين كلهم حجب للخلق بالمعاني المتقدمة، ولكن أعظمهم في ذلك وأبلغهم فيه نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إذ عنه أخذوا، ومنه اكتسبوه.

قوله رضي الله عنه: **(القائم)**

أي القائم أتم قيام بتكاليف الرسالة، وتوفية حقوقها، وقد شهد له تعالى بكمال التبليغ فقال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾، وقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة الوداع: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وتلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه. ثم قال: ألا هل بلَّغت؟ قلنا: نعم. قال: اللهم اشهد).

قوله رضي الله عنه: **(لك)**

أي لأجلك تعظيماً وإجلالا.

قوله رضي الله عنه: **(بين يديك)**

كناية عن شدة القرب الذي اختص به صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله رضي الله عنه: **(اللهم الحقني بنسبه)**

يحتمل أن يريد النسب الديني، والمطلوب دوامه وبقاؤه على حد قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾، والمطلوب حصول كماله والترقي فيه.

ويحتمل النسب الطيني، إذ لا يقطع أحد بحصوله لنفسه فيه في نفس الأمر، قاله العلامة العارف بالله سيدي عبد الرحمن الفاسي ولو إلا من كون شركه الوفاة على الإسلام، وهو غيب، وهكذا ينبغي أن الاعتقاد في كل فضيلة وعد عليها في العقبى فإن شرط ذلك عند الله وهو غيب غير مقطوع به لأحد إلا من ميزه النص، على أن من تحقق قبضة الحق لا يسكن لوعد، فيتأكد على كل متنسب إليه صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يركن للحاصل في الحال بل يعتبر الأمر بتمامه وختامه.

ويحتمل أنه يريدهما معاً، وهذا أفيد، لأن من جمع بين النسب الطيني والكمال الديني لا يشق له غبار. والوجه الثاني أوجه لقوله بعد:

قوله رضي الله عنه: **(وحققني بحسبه)**

فإن معنى سؤال كمال النسب الديني، أي حققني بالتخلق بأخلاقه، واجعلني من المهتدين بهديه، المقتفين بكتابه وسنته من أقواله وأفعاله وأحواله، إذ متابعته صلى الله عليه وآله وسلم موجبة للرحمة، قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، وموجبة للفلاح أي الفوز الأبدي ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، وموجبة للرفع إلى أعلى الجنان: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ الخ، وموجبة للمحبة من الله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، قال بعض السلف ادّعى قوم محبة الله فنزلت الآية.

ولهذه الوجوه حض صلى الله عليه وآله وسلم على التمسك بالكتاب والسنة، ففي حديث العرباض بن سارية: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة) أخرجه أبو داود والترمذي. وقال ابن مسعود: إن أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وإن ما توعدون لآت، وما أنتم بمعجزين.

وانظر شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم على اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم

في كل ورد وصدر، فقد خلعوا نعالهم لما خلع نعله، ونزعوا خواتمهم لما نزع خاتمه، وحسر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما عن ركبتهما في قضية جلوسهما على البئر كما فعل عليه الصلاة والسلام، وكاد بعضهم يقتل بعضاً من شدة الازدحام على الحلاق لما رأوه صلى الله عليه وآله وسلم حين حل من عمرته في قضية الحديبية، وكانوا يبحثون عن هيئات جلوسه ونومه وكيفية أكله وغير ذلك ليقتدوا به.

ولما سئل ابن عمر رضي الله عنهما عن كونه يصبغ بالصفرة ويلبس النعال السبتية ولا يحرم إلا في يوم التروية، ولا يلمس من الأركان إلا اليماني؟ أجاب بأنه استند في ذلك كله إلى ما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفعله، وأدار راحلته بموضع، واعتل بأنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفعل ذلك.

وقال عمر رضي الله عنه للحجر لما قبّله: قد علمت أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبّلك ما قبّلتك.

وقد ثبت عن بعض السلف قال السندي: وأظنه أحمد بن حنبل، أنه ترك أكل البطيخ وقال: يمنعني من أكله أنه لم يثبت عندي كيف أكله النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما كانت متابعته صلى الله عليه وآله وسلم هي المطلوبة من العبد كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾، بل جعل تعالى طاعة الرسول طاعة له فقال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾، لأن طلب التوفيق لها والإعانة عليها من الله هو أسنى المطالب وأعلى المآرب، ولذلك قال في الحكم: (خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك)، وهي الاستقامة ظاهراً وباطناً وهذا هو مطلب العارفين، كما أشار إليه في الحكم بقوله: (مطلب العارفين من ربهم الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية)، وهذا هو مضمون دعاء سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾، فهو مما يوجه اختياره للتكرر في الصلوات وفي ركعاتها.

قوله رضي الله عنه: (وعرّفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل وأكرع بها من موارد الفضل)

لما نابت المعرفة عن التعريف الذي هو مصدر الفعل المذكور، لأن مطلوبه حصول المعرفة به صلى الله عليه وآله وسلم، والتعريف لا يستلزم المعرفة، لأن ثبوت المطاوَع لا يستلزم ثبوت المطاوِع، ألا ترى أنا نقول: علّمته فلم يتعلم، فهذه نكتة الإنابة، كما أن النكتة في قوله تعالى: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ التنبيه على أن تبتله صلى الله عليه وآله وسلم

سبباً لتبتل غيره إذ هو القدوة، فكان في معنى التبتيل. وفصل الضمير في قوله: "إياه" والأرجح الاتصال نحو: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، تأدبا مع الحبيب لئلا يحمل ضميره في صورة التتمة فأتى بكلمة مستقلة.

وإنما سأل معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم معرفة تامة لأنه المرآة الكبرى للتجلي، والواسطة العظمى في التعريف للعالم العلوي والسفلي، فمعرفته صلى الله عليه وآله وسلم موصلة إلى معرفة الله تعالى، وعلى حسب معرفته تكون معرفة الله تعالى، إذ هو باب الله الأعظم.

وأنـــت بـــاب الله أي امـــرئ أتـــاه مـــن غيـــرك لا يـــدخل

ولهذا قدّم سؤال معرفته صلى الله عليه وآله وسلم على قوله: "وزُجَّ بي في بحار الأحدية" المتضمن لطلب معرفته تعالى.

وأيضا فإن معرفته تثمر مقام المحبوبية عند الله، فإن محبة الله لعبده على حسب محبة العبد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ومتابعته، ومحبة العبد له صلى الله عليه وآله وسلم على قدر معرفته واطلاعه على جماله ونواله، إذ لا سبب للمحبة إلا الحسن والإحسان، وقد تكاملا فيه صلى الله عليه وآله وسلم، فله كما تقدم الإحسان الذي لا يقدر على مكافأته به أمته أجمع، وله كما مر أيضا الحسن الذي بهر العقول كما قيل:

بهرت أهل الحس والحسن فانبهروا حتى كأنهما في الحي ما ظهروا

وصرت قطب جمال فاستمد من سنا وجهك النيران الشمس والقمر

ولله در القائل:

تكامل حسن الخلق فيمن أحبه فلله كم من عقل لنا حسنه سبى

ولقد أجاد من ضمَّن هذا البيت في قصيدة.

قال سيدي أحمد المرابي: كنا يوما مع سيدي رضوان، فجاء رجل شريف من مكة، فأراد زيارته فأخبرناه، وقرب الرجل منه ليسلم عليه، فأخذ رأسه وضمه إليه وجعل يبكي ويقول: يا رب هذه رائحة مكة يا رب هذا جاء من نحو الحبيب، يا رب إني أحب هذه الرائحة الطيبة. ثم أخذ يسأل الرجل عن تلك المعاهد والمواطن، ويشتاق إليها، فقال بعض الحاضرين:

يا قادماً من نحو رامة مرحباً شممت عليك الطيب من ساكني قبا

عن الجزع حدثني وكيف نسيمه وكيف غصون البان مال بها الصبا

أيحسب سكان الحجاز بأنني سلوت الذي قد حل في ذلك الخبا

فلا وحق بيت الله ما سلوته ... ولا كان لي قلب إلى غيره صبا

تخلل مني مسلك الروح حبه ... ألفت هواه والصبابة والصبا

... حسن فيمن أحبه ... وكم عقل لنا حبه سبى

رفعت عن العشاق ربوة حسنه ... سيظهر لي في الحشر من حبه نبا

ومن هذا أن بشر بن الحارث مر برقعة على وجه الأرض فرفعها فإذا فيها اسم الله، فاشترى طيباً بدرهم وطيبها، وجعلها في جيبه، فرأى قائلا في النوم يقول له: طيبت اسمنا فقد طيبنا اسمك في الدنيا والآخرة.

وقال بعض العارفين: بقدر ما يدخل القلب من التعظيم والحرمة تشبعت الجوارح للحكمة، وينشأ عن المعرفة مع التعظيم المحبة، كما تقدم، لما فيها من الاطلاع على المحاسن والكمالات.

وقد قالوا: يقطع المحب على بر الله ما لا يقطعه العابد سبعين سنة.

وروى أبو نعيم عن مسعر أن رجلا قال لابن عمر: يا أبا عبد الرحمن لوددت أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له ابن عمر: فكنت تصنع ماذا؟ فقال: كنت والله أومن به وأقبل بين عينيه. فقال له ابن عمر: ألا أبشرك؟ قال: بلى يا أبا عبد الرحمن. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (ما اختلط حبي بقلب عبد فأحبني إلا حرّم الله جسده على النار).

وفي الصحيحين وغيرهما عن جمع من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (المرء مع من أحب). وفي لفظ الطبراني في الكبير، والضياء المقدسي، عن أبي قرصافة عنه صلى الله عليه وآله وسلم: (من أحب قوماً حشره الله في زمرتهم).

وفي البخاري عن أنس أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة؟ فقال: وما أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله. قال: أنت مع من أحببت. فما فرحنا بشيء فرحنا بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنت مع من أحببت. قال أنس: فأنا أحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

بل رأى بعضهم في النوم ملائكة يكتبون أسماء المحبين، فقال لهم: بالله عليكم هل كتبتموني معهم؟ قالوا: لا. قال: فبالله عليكم اكتبوني ممن يحب المحبين. فكتبوه، فإذا بالنداء أن الله قد غفر لمحبه ومحب محبه. انتهى.

وأما المشاهد لسره صلى الله عليه وآله وسلم، فلا خبر لنا عنهم كما تقدم.

والمؤلف رضي الله عنه سأل المقامات الثلاث، فاحترز عن الأول بقوله:

(واحملني على سبيله إلى حضرتك)

فسأل أن يكون محمولا لا حاملا، واحترز عن الثاني بقوله:

(حملاً محفوفاً بنصرتك)

إذ حمل أصحابه مقرون بالنصرة لا محفوف بها من كل جانب، وشبّه سبيل السنة المحمدية بالبراق في التوصيل إلى الحضرة العلية، ودلّ على ذلك بإثبات الحمل، ففيه تكنية وتخييلية، ولم يقل: بالنصرة على نفسي والشيطان، لأن ذلك شأن أهل البدايات، وأما أهل النهايات فيقولون: عرفنا الله فكفانا من دونه، بل حذف المتعلق للتعميم، أي على كل شيء سواك، حتى تنفعل له المكونات، وتطيعه الأشياء، وتكون إرادته تابعة لإرادة الله تعالى.

وشمل أيضاً النصرة له وبه للمريدين والإخوان، وتلك مرتبة الخلافة: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، فيصير الفقير بهم غنيا، والخائف آمنا، والذليل عزيزا، والضعيف قويا.

وورد: (إن لله عباداً من نظر في أحدهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا). ولهذا قال الشيخ أبو الحسن: "واجعلنا سبب الغنى لأوليائك وبرزخاً بينهم وبين أعدائك".

قوله رضي الله عنه: **(واقذفْ بي على الباطل فأدمغه)**

القذف الرمي، والباطل كل ما سوى الله، (ألا كل شيء ما سوى الله باطلُ)، حتى المقامات، في الحِكَم: (ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، وإن إلى ربك المنتهى)، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾.

ومن كلام سيدي رضوان: وكن ممن لا تشغله المحبة عن المحبوب، ولا الصفة عن الموصوف، ولا المعرفة عن المعروف، ولا تكن كقيس ليلى فإنها لقيته يوماً في هيامه فكلمها صواحبها وقلن: أما ترين ما به بسببك؟ فتعرضت له، فلم يلتفت إليها فقالت له: أنا ليلى، فقال لها: إليك عني فقد شغلني عنك ما منك.

ولأبي الحسن الششتري:

فلا تلتفتْ في السير غيراً وكل ما ... سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا

وكل مقام لا تقم فيه إنه ... حجاب فجد السير واستمطر العونا

ومهما ترى كل المراتب تجتلى ... عليك فحد عنها فعن مثلها حدنا

وقال ليس لي في غير ذاتك مطلب — فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

ولبعضهم:

كل من يدعي الهوى — حمقه ليس له دوا
إنما الطب للذي — غاب حتى عن الهوى

وفي الحكم: (العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره). وأنشدوا:

الله قلْ وذرِ الوجود وما حوى — إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته — عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها — لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته — فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا — شيئاً سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالك — في الحال والماضي والاستقبال

ولسيدي رضوان رضي الله عنه:

أشغلاً بشيء وقد قال قائل — ألا كل شيء ما خلا الله باطل
أترغب في الدنيا وقد قال قائل — ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تضيع أياما وهي قلائل — ألا كل شيء ما خلا الله باطل
أتشغل نفساً بالهوى وهو زائل — ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قوله رضي الله عنه: **(وزُجَّ بي في بحار الأحدية)**

الأحدية أبلغ من الوحدة لأنها لا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يمكن إلا أن تكون أشد وأكمل منها، قاله ابن عباد. وشبهها الشيخ في نفسه بالماء الرواء العظيم المستبحر المتلاطم الأمواج، ودلَّ على ذلك بإثبات البحار، ففيه مكنية وتخييلية، لما تحقق بمشاهدة روحه صلى الله عليه وآله وسلم المنتج له ذلك من المحبة ما حمله على سؤال الرمي في بحار الأحدية التي هي محل الفناء الكامل التي تحصل معه الغيبة عن جميع الأغيار حتى عن الفناء، إذ من شهد نفسه موحداً فهو غير موحد عند أهل هذا الشأن.

قال قائلهم:

توحيد من ينطق عن نفسه — عارية أبطلها الواحد

وسأل الإلقاء في تلك البحار غير مبال بما قد يفضي إليه من التلف لأن "من كان في الله تلفه كان على الله خلفه".

إن كـان سـفك دمـي أقـصى مـرادكم فمـا غلـت نظـرة مـنكم بـسفك دمـي

وتقدم قول ابن وفا: "إن الذين صحبتهم..." الخ. وللحلاج:

سـقمي فـي الحـب عـافيتي ووجـودي فـي الهـوى عـدمي

وعـذاب ترضـون بـه فـي فمـي أحلـى مـن الـنغم

مـا لـضر فـي محبـتكم عنـدنا والله مـن ألـم

وهذا هو الوجود الحقيقي عند هذه الطائفة، حتى قال إمامهم الجنيد:

وجـودي أن أغيـب عـن الوجـود بمـا يبـدو علـيّ مـن الـشهود

قوله رضي الله عنه: **(وانشُلْني من أوحال التوحيد)**

تأدب منه في سؤال خوض بحار الأحدية واحتراز عما عرض من الاعتقادات الردية لمن لم يصحبه التأييد. علم عند ركوب البحر أن لا عاصم من أمر الله إلا من رحم، فاحترز عن حال من حال بينه وبين السنة المحمدية الموج فكان من المغرقين، وذلك أن من الناس من لبس عليه الأمر فقال بالحلول والاتحاد، ومنهم من غلبت عليه الحقيقة فادعى الجبر ونفي الحكمة والأحكام. ولقد أصاب من قال:

خـذ مـن كلامـي مـا يلـذ جنـاه ويـنم كالمـسك العتيـق شـذاه

ذكـر الإلـه الـزم هـديت لـذكره فيـه القلـوب تطيـب والأفـواه

واجعـل حـلاك تلقـاه إن أخـا الحجـا يـا صـاح مـن كانـت حـلاه تقـاه

ولتعمـل الأفكـار فـي ملكوتـه مـستغرقا فـي الكـشف عـن معنـاه

ولتخلـع النعلـين خلـع محقـق خـلا عـن الكـونين فـي مـسراه

ولـتفن حتـى عـن فنائـك إنـه عـين البقـاء عنـد ذاك تـراه

فـإذا بـدا لـك فـاعلم أنـك لـسته كـلا ولا أيـضا تكـون سـواه

شـيئان مـا اتحـدا ولكـن هـا هنـا سـر يـضيق نطقنـا عغـاه

أزل الحجـاب حجـاب قلبـك ينكـشف لـك سـر مـا قـد غـاب عنـك سـناه

إن الإلـه أجـل مـا يعـرف ومـن لا يـراه قـد اسـتبان عمـاه

فيـه يـراه ذوو البـصائر والنهـى مـا غـاب عـنهم لحظـة مـرآه

أنـى يغيـب ولـيس يوجـد غيـره لكـن شـديد ظهـوره أخفـاه

ويحتمل أن يكون سأل بقوله: "وزج بي في بحار الأحدية" حال أهل الجذب المستدلين بالله على الأشياء، وبقوله: "وانشلني من أوحال التوحيد" التخلص عما يعرض للسالكين المستدلين بالأشياء على الله من الشبهات.

قوله رضي الله عنه: **(واغرقني في عين بحر الوحدة)**

رجوع إلى سؤال البقاء بعد الفناء ليصلح للخلافة، وتكميل غيره فإن ذلك أكمل من استمرار السكر.

وفي الحكَم: (وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق، وفني عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب، فهذا عبد مواجه بالحقيقة، ظاهر عليه سناها، سالك للطريقة قد استولى عليه مداها، غير أنه غريق الأنوار، مطموس الآثار، قد غلب سكره على صحوه، وجمعه على فرقه، وفناؤه على بقائه، وغيبته على حضوره. وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً، وغاب فازداد حضورا، فلا جمعه يحجبه عن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يصده عن بقائه، ولا بقاؤه يصده عن فنائه، يعطي لكل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه) انتهى.

وأيضا من مزج شراب الحقيقة بماء الشريعة كان ذلك حافظاً له عن تعدي الحدود كما قيل:

ومــن فهــم الإشــارة فليــصنها وإلا ســوف يقتــل بالــسنان
كخــلاَّج المحبــة إذ تبــدت لــه شــمس المحبــة بالتــدان
فقــال أنــا الحــق الــذي لا يغيــر ذاتــه مــرُّ الزمــان

فسأل الشيخ الإغراق في العين التي هي مدد البحر حتى يكون ممدا لمن خاض لججه.

ويحتمل أنه يريد "بالزج في بحار الأحدية" الدفع لا على سبيل الإغراق بل على سبيل الركوب والمرور، ليعلم ما فيها من الذخائر، و"بالنشل من أوحال التوحيد" التخلص من شهود التوحيد من نفسه، لما مرَّ من أن صاحب هذا مفروق لاستشعاره موحِّدا وموحَّدا، و"بالإغراق في عين بحر الوحدة" جمع الجمع، فيكون الجمع في باطنه موجودا، والفرق على ظاهره مشهودا.

قوله رضي الله عنه: **(حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها)**

هذه غاية الإغراق المذكور وهو الغيبة عن الأكوان بشهود المكون فيها، كما قيل:

ألاحظــه فــي كــل شــيء رأيتــه وأدعــوه ســراً بــالمنى فيجيــب
مــلأت بــه قلبــي وســمعي ونــاظري وكلــي وأجزائــي فــأين يغيــب

وقد فسر قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله وتر يحب الوتر) فإنه يعني القلب المنفرد بحيث لا يرى في الدارين إلا هو، ولا يعرج على غيره.

إذا كنت من تهواه في الحسن واحداً فكن واحداً في الحب إن كنت تهواه

وحينئذ يدوم سروره وأنسه، ويصير في جنة معجلة.

ويرحم الله ابن الغرس إذ يقول:

سبحان من خرق الحجاب لعبده وهداه منهج قصده فرآه

سبحان من ملأ الوجود أدلةً ليلوح ما أخفى بما أبداه

سبحان من لو لم تلح أنواره لم تعرف الأضداد والأشباه

مولاي أنت الواحد الصمد الذي في حضرة الملكوت شاهدناه

مولاي أنسك لم يدع لي وحشة إلا محا ظلماتها بسناه

مولاي لا آوي لغيرك إنه حرم الهدى من لم تكن مأواه

مولاي عبدك لا يخاف تعطشاً أيخافه والحق قد رؤاه

أنت الذي خصصتنا بوجودنا أنت الذي عرّفتنا معناه

لم أفش ما أودعتنيه فإنه ما ذاق سر الحق من أفشاه

من كان يعلم أنك الفرد الذي بهر العقول فحسبه وكفاه

قوله رضي الله عنه: **(واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي)**

أشار إلى أن العارف لا غنى له عن واسطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن وصل إلى حضرة القدس، وفني عن وجوده في هيبة شهوده، وعن فنائه، وعن كل شيء. وقد قال الشيخ أبو العباس المرسي، وهو ممن لا نشك في قطبانيته كما شهد له الشيخ أبو الحسن وغيره بذلك: لو احتجب عني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين.

وقد ذكر غير واحد أن كل من حصلت له رحمة في الوجود أو خرج له قسم من رزق الدنيا والآخرة والظاهر والباطن، فإنما خرج له ذلك على يديه وبواسطته صلى الله عليه وآله سلم، وهو الذي يقسم الجنة بين أهلها، ولهذا عدُّوا من خصائصه أنه أعطى مفاتيح الخزائن.

قال بعض العارفين العلماء: وهي خزائن أجناس العالم، فلا يخرج من الخزائن الإلهية شيء إلا على يده صلى الله عليه وآله وسلم، وهو معنى اسمه الخليفة وخليفة الله.

نعم صاحب الفناء لا يشعر بواسطته وقت غيبته فيمن أفني عنه، والمتبقي إنما هو شعوره، وأما استمداده منه وتوجه الفتح له على يده فثابت في نفس الأمر، فإن نبه

بذلك بعد إفاقته اعترف به.

وقد ذكروا أن السالك بعد الوصول التام يستغني عن المشايخ ولا يستغني عنه صلى الله عليه وآله وسلم. وقد قيل للشيخ أبي الحسن الشاذلي: من هو شيخك يا سيدي؟ فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش، وأنا اليوم أعوم في عشرة أبحر، خمسة من الآدميين: النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، وخمسة من الروحانيين: جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل والروح.

ثم يجب أن يعرف السالك الواسطة ويقصدها من حيث هي واسطة، ولا يجعلها مقصدا فينقطع، وإنما ضلت النصارى بجعلهم الوسيلة مقصدا فادعوا لعيسى عليه السلام الألوهية والنبوة.

قال النيسابوري: صحّفوا في الإنجيل "عيسى نبيي وأنا ولَدته" فحرّفوا الأول بتقديم الباء الموحّدة، وخففوا اللام في الثاني، فلعنة الله على الكافرين.

ولله در البوصيري إذ يقول في النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

ولهذا نهاهم صلى الله عليه وآله وسلم أن يسجدوا له حين قالوا له عليه السلام: أفلا نسجد لك؟ فقال: (لو كنت آمر أحداً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها). فنهاهم عما عساه يبلغ بهم من العبادة.

ويشاكل هذا ما حكي عن بعض المشايخ أن مريدا صدق في محبته والاقتداء به لكنه توغل في التمسك به والوقوف معه فصار ذلك منه كالحجاب، فصعد يوماً معه على سطح فأمر بصرعه من فوق السطح فجاء يلوذ به، فدفعه عنه، فطرحوه. فحين كان نازلاً في الهواء انقطع رجاؤه منه، ففتح له.

وكثير يقع لهم الغلط في صحبة المشايخ فيرون النفع والضر منهم، غافلين عن جانب الربوبية حتى أن بعضهم ينقطع عنهم عند ظهور عجزهم له عن قضاء ما يريده.

و"ال" في "الحجاب" للعهد، والمعهود قوله "وحجابك الأعظم". أي اجعله حاجباً لروحي عما فيه هلاكها، فتكون حية متمتعة في معرفتك بسببه، فإن من لم يحتجب بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقع في المهالك، وابتدع وضلّ، وماتت روحه.

ولم يقل اجعله، لئلا يتوهم أن الضمير عائد إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حيث ذاته، مع أنه إنما كان حياة للأرواح من حيث إنه حجاب لها، فالمناسب التعبير بخصوص اسمه الحجاب. وإنما أعاد الوصف أعني "الأعظم" إشارة إلى أن مطلوبه

حياة تناسب عظميته، فما أعظمها مع ما في التصريح به من تكرير المدعى في مقام الثناء، او أنه مثل ان يكون على قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيكون جامعا لخصوصيات الأولياء، فإن الأولياء كما قال الإمام الخروبي على نحو درجات الأنبياء، فمنهم الموسوي، والعيسوي، والإبراهيمي، وهكذا، وكل ولي على قدم نبي اتصف بصفاته، والولي المحمدي هو الكامل الذي اجتمعت فيه أوصاف الأنبياء كما اجتمعت أوصاف الأنبياء، فيمر هذا الولي على قدمه وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلو لم يأت بالوصف لما احتمل اللفظ غيره، ولو لم يعلم أن (ال) للعهد.

قوله رضي الله عنه: **(وروحه سرٌ حقيقتي)**

حقيقة الإنسان اللطيفة النورانية التي كان بها الإنسان إنسانا، وتسمى نفسا في مقام الإسلام، وقلبا في مقام الإيمان، وروحا في أول مرتبتي الإحسان وهي المراقبة، وسرّاً في ثانيها وهي المشاهدة، وباطناً إن أشكل الأمر، كذا للساحلي.

فطلب المصنف رضي الله عنه أن يصير حقيقته سراً في مقام المشاهدة بواسطة شهود روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فتخرج عن كونها نفسا وقلبا وروحا.

وفي الكلام حذف مضاف في موضعين، والتقدير: واجعل شهود روحه تنقل سر حقيقتي بأن تصير حقيقتي سراً بواسطة ذلك الشهود.

قوله رضي الله عنه: **(وحقيقتَه جامعَ عوالمي)**

العوالم: النفس والقلب والروح والسر. سأل أن تكون كلها منصرفة ومتوجهة إلى شهود حقيقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصادقة بعوالمه الشريفة.

أي اجعل شهود حقيقته جامعاً لعوالمي.

قوله رضي الله عنه: **(بتحقيق الحق الأول)**

متعلق بحال مقدر، أي معيناً لي على شهوده الآن في عالم الأجساد بأن تحضر قلبي الشهود السابق في عالم الأرواح يوم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ حتى أستحضره وأستعين به على دوام الشهود.

وقد تقدم أن نوره أشرف على الأرواح حينئذ وأنه دعاها إلى التوحيد في ذلك الوقت، وأنه أول من أجاب بـ﴿ بَلَىٰ ﴾، فالحق الأول الشهود السابق.

ويحتمل أن الباء للمعية، والحق الأول شهود الربوبية.

والمعنى اجعل حقيقتي متوجهة إلى شهود حقيقته صلى الله عليه وآله وسلم مع عدم الغفلة عن شهود الربوبية، والاستغراق فيها، فيكون احترازاً عما يغلط في شهود الواسطة فيجعلها مقصداً كما سبق، وأولويته باعتبار الذكر أو الهداية إلى معرفة

الرسول، إذ لولا تعريف الله عباده به ما عرفوه، و﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾. اللهم لولا أنت ما اهتدينا.

ويحتمل أن الباء للقسم الاستعطافي، و(الحق الأول) الله سبحانه، إذ هو السابق على كل شيء، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة على كل شيء.

والتحقيق: بمعنى التحقق في الوجود، أي أسألك بوجودك يا الله.

قوله رضي الله عنه: **(يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن)**

استغاث في سؤال شهوده صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الأسماء الحسنى لما فيها من الدلالة على الإحاطة والقيومية والتنزيه.

فالأول: السابق على كل شيء لقدمه، كان الله ولا شيء معه.

والآخر: الباقي الذي يستحيل عدمه، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾.

والظاهر: الواضح الربوبية بالدلائل.

والباطن: المحتجب عن الأفهام، الذي لا يحيط به تكييف، فما وصل إليه العقلاء حتى العارفون من ظهوره ومعرفة جلاله وجماله وإن كان كثيراً فهو بالنسبة إلى ما خفي عنهم يسير.

وانظر قول سيد العارفين وخطيب المرسلين صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)، مع أنه أفنى عمره في الثناء عليه، وعلم كل مثن ما أثنى وما يثني عليه، وملئت التآليف بثنائه، بل الخزائن المملوءة بالتآليف، ومع ذلك قال ما قال، فهو تعالى كما قيل: فلا يحيط به عقل فيدركه، جلُّ المهيمن عن الإدراك، وتاهت عقول ذوي الألباب، وقد كلَّت وضلت بحار العقل والفكر، وإذا كان الإنسان لا يحيط بصفات ذاته، فكيف بباريه تعالى؟

ومن قصيدة الشيخ ابن غانم المقدسي:

أين منك الروح في جوهرها	أتراها هل ترى كيف تجول
أين منك القلب في قالبه	وهو بيت الرب حقاً إذ يقول
أين نور العقل والقلب إذا	غلب النوم فقل لي يا جهول
هذه الأنفاس لا تعرفها	لا ولا تدري متى عنك تزول
أنت لا تدري صفات ركبت	فيك حارت في خفاياها العقول
فإذا كانت خفاياك التي	بين جنبيك بها أنت ضلول
كيف تدري من على العرش استوى	لا تقل كيف استوى كيف النزول

إذ تقـل: كيـف؟ فقـد مثلتـه أو تقـل: أيـن؟ فقـد رمـت الحلـول

هـو لا أيـن ولا كيـف لـه وهـو رب الكيـف والكيـف يـزول

وهـو فـوق الفـوق لا فـوق لـه وهـو فـي كـل النـواحي لا يـزول

جـلَّ ذاتـاً وصـفات وسـما وتعـالى جـده عمـا أقـول

قوله رضي الله عنه: **(اسمعْ ندائي بما سمعتَ به نداء عبدك زكريا)**

أي اسمعه سماع قبول وإجابة، وأراد- والله أعلم بهذا- طلب الوارث لسره حتى ينتفع به المؤمنون، ويكونوا في ميزانه، والمرء في ميزانه من اتبعه، فاقدر إذاً قدر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذا خص زكريا عليه السلام من بين النبيين لطلبه الوارث بقوله: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي ﴾ وقوله: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾.

وقد استجاب الله تعالى للشيخ بتلميذه الشيخ أبي الحسن، فاستمرت طريقته، وكثر أتباعه، وعمَّ النفع به. ونقل ابن الصباغ عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه أنه قال: دخلت العراق واجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي، فما رأيت مثله، وكنت أطلب القطب، فقال لي بعض الأولياء: تطلب القطب بالعراق وهو ببلادك، ارجع إلى بلادك تجده. فرجعت إلى بلاد المغرب إلى أن اجتمعت بأستاذي أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه.

وقال الشيخ زروق: كان بعض مشايخنا من أهل الورع يقول للحالف أن يحلف ولا يستثني أن طريق الشاذلية عليها كانت بواطن الصحابة رضي الله عنهم.

ومدحه الإمام البوصيري بقوله:

إن الإمـام الشـاذلي طريقـه فـي الفـضل واضـحة لعـين المهتـدي

فانقـل ولـو قـدماً علـى آثـاره فـإذا فعلـت فـذاك أخـذ باليـد

وقال أيضا فيه وفي تلميذه الشيخ أبي العباس المرسي:

شـرفاً لـشاذلة ومرسـية سـرت لهمـا الرياسـة مـن أجـلِّ رئـيس

مـا أن نـسبت إليهمـا شـيخيهما إلا جلوتهمـا جـلاء عـروس

قوله رضي الله عنه: **(وانْصرني بك لك)**

طلب أن ينصره الله به، أي منه إليه، لا على أيدي الوسائط والأسباب، غير الواسطة العظمى لتكون النصرة أتم وأكبر. وقد تقدم قوله للشيخ أبي الحسن: يا بني عوض ما تقول يا رب سخر لي خلقك، قل: يا رب كن لي، أترى إذا كان لك يفوتك شيء؟ فما

هذه الجبانة؟

وأن تكون نصرته لك للقيام بحقوقه وخدمته لا لحظوظ نفسه، وذلك أن العارف حظوظه حقوق، لأنه يتصرف بالنية، والنية إكسير العمل، فتنقلب أعيانها، فيأتي المباحات بمقاصد حسنة تصيرها قربات، فيترتب عليها الأجور والمثوبات، كأن يأكل ويشرب بنية التقوى على عبادة ربه، وينكح بنية تكثير المسلمين، وهكذا، ويكون لهم في العمل الواحد نيات كثيرة، فيعظم ثوابها بحسبه، لأن (الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى).

وقد جاء رجل لأبي بكر الشبلي رحمه الله تعالى وقال: يا سيدي إني أريد الحج فأوصني بما ينفعني، وادع الله لي. قال: اجعل رفقاءك الملائكة، وأنيسك القرآن، وزادك اليقين، ومقصدك الله، وإذا طفت البيت طف بقلبك وسرك، زوّدك الله التقوى.

فلما حج الرجل أقبل للشبلي يتبرك به وبدعائه، فقال له الشبلي: ما الذي نويت حين أحرمت؟ قال: عملت ما عمل الناس وما نويت شيئا.

قال: نويت أنك تجردت من ثياب المخالفة والعصيان وأقبلت على عبادة الرحمن؟ وأنك نزعت ثياب الدنيا ولبست ثياب الآخرة كما يفعل بالميت؟

قال: لا. قال: فما أحرمت.

وهل نويت بطوافك أنك تطوف بعرش الرحمن وتطلب العفو والغفران؟ قال: لا.

قال: فما طفت.

وهل نويت حين استلمت الحجر الأسود أنك تبايع الله وتعاهده أن لا تعصيه أبدا؟

قال: لا. قال: فما استلمت.

وهل نويت حين سعيت بين الصفا والمروة أنك تسعى بين صفوف يوم القيامة حافياً عرياناً ترغب الله في فكاك رقبتك من النار؟

قال: لا. قال: فما سعيت.

وهل نويت حين نحرت هديك أنك نحرت إبليس الشهوات بسكين المخالفات فلا تطيعه أبدا؟

قال: لا. قال: فما نحرت.

وهل نويت حين حلقت رأسك وجمعت شعرك بين يديك أنك جمعت ذنوبك كلها صغيرها وكبيرها، حقيرها وجليلها، ورميتها عنك فلا تعود لمثلها أبداً كما لا يعود شعرك إلى رأسك؟

قال: لا. قال: فما حلقت.

وهل نويت حين رميت الجمرات أنك رميت من قلبك جميع الشهوات؟

قال: لا. قال: فما رميت.

يا هذا..... ارجع وحُجَّ، فإنك لم تحج. انتهى.

ومن النصرة: نصرتهم في وقت هيجان الفتن، حتى لا تؤثر فيهم وإن كثر المؤذون لهم، بإلقاء السكينة في قلوبهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

قال الشيخ أبو الحسن: وانصرنا باليقين والتوكل عليك.

وفي الحديث: (إن لله عباداً يغفر لهم برحمته ويحييهم في عافيته، تمر بهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرهم).

قوله رضي الله عنه: **(وأيِّدني بك لك)**

طلب رضي الله عنه قوة اليقين وجوهر التوحيد حين نزول المرادات القهرية، وحصول الروح والرضا حتى تصير البلية عطية.

قال الأستاذ أبو علي الدقاق: جرِبْتُ مرة، وكنت في وحشة من ذلك. فدخلت الحمام ففتح على قلبي شيء من الرضا فكنت ألثم كل واحدة من تلك القروح، فخرجت ولم يبق لها أثر.

فإذا شهد الإنسان أن ذلك من محبوبه تلقاه بالقبول. ومن أمثالهم: الحجر من يد الحبيب تفاحة. وقال سيدي رضوان رضي الله عنه- يردد هذا البيت-:

ولو بيد الحبيب سقيت سُمّاً ... لكان السم من يده يطيب

وفي الحكَم: (ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه هو المبتلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عوّدك حسن الاختيار).

وفي التنوير: إنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره.

وقال: ولنا في هذا المعنى:

وخفف عني ما ألاقي من العنا ... علمي بأنك المبتلي لي والمقدر

وما لأمري عما قضى الله معدل ... ولي له منه الذي يتخير

ومن أسباب التأييد أن يذكرهم كثرة الثواب.

وقد جاء في هذا المعنى من الأحاديث والآثار ما لا يحصى، ومنه حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إذا أراد الله بعبد خيراً أو أراد أن يعافيه، صبَّ عليه البلاء صبا، وثجه عليه ثجاً، فإذا دعاه قالت الملائكة: صوت معروف. فإذا دعاه ثانياً قال: يا رب، قال الله سبحانه: لبيك عبدي وسعديك لا تسألني شيئا إلا أعطيتك، أو دفعت عنك ما هو شر أو ادّخرت لك ما هو أفضل منه، فإذا كان

يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوفّوا أعمالهم بالميزان، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، يُصب عليهم الأجر صبًا، كما كان يصب عليهم البلاء صبا، فيود أهل العافية في الدنيا لو كانت أجسامهم تقرض بالمقاريض لما يرون مما يذهب به أهل البلاء من الثواب، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

وقال بعضهم: رأيت كأني مع النبيين والصديقين فأردت الكون معهم ثم قلت: اللهم اسلكني في سبيلهم مع العافية مما ابتليتهم به فإنهم أقوى ونحن أضعف منهم. فقيل لي: قل: وما قدرت من شيء فأيدنا كما أيدتهم.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: (ولا نسألك دفع ما تريد، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد، كما أيّدت أنبياءك ورسلك، وخاصة الصديقين من خلقك، إنك على كل شيء قدير).

وفي تفسير الكواشي في قوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ قوّاهم بنصره الحسي، سمي النصر روحاً لأن أمرهم يحيا به، أو الروح الأمين أو القرآن وحججه، أو الرحمة، أو جبريل أيدهم الله به، انتهى.

واعلم أن المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هو عليه من الصفات العلية، والأسماء الحسنى السنية، ولا سبيل لهم إلى معرفته إلا بتعرفه لهم، وتعرفه لهم تارة يكون بملاطفات إحسانه، وموالاة فضله وامتنانه، وتارة يكون بما ينزل بهم من أنواع الامتحان، ووقوع المصائب في الأموال والأبدان.

فيحرك القلوب إلى علام الغيوب جندان:

جند النعم، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾.

وجند النقم، وهو المشار إليه بقوله: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية. ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾.

وفي الحكم: (متى أعطاك أشهدك برّه، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك) وقال: (إلهي قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إلي في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء)، انتهى. فانقلاب الأحوال واختلافها، يوجب بتوفيق الله تعالى زيادة معرفة الله.

وفي التنوير: اعلم أن الله تعالى تعرّف لآدم بالإيجاد فناداه: (يا قدير)، ثم تعرّف له

بتخصيص الإرادة فناداه: (يا مريد)، ثم تعرّف له بحكمه في نهيه عن الأكل من الشجرة فناداه: (يا حكيم)، ثم قضى عليه بأكلها فناداه: (يا قاهر)، ثم لم يعاجله بالعقوبة إذ أكلها فناداه: (يا حليم)، ثم لم يفضحه في ذلك فناداه: (يا ستار)، ثم تاب عليه بعد ذلك فناداه: (يا تواب)، ثم أشهده أن أكله من الشجرة لم يقطع عنه وده فيه فناداه: (يا ودود)، ثم أنزله إلى الأرض ويسر له أسباب المعيشة فناداه: (يا لطيف)، ثم قواه على ما اقتضاه منه فناداه: (يا معين)، ثم أشهده سر النهي والأكل والنزول فناداه: (يا حكيم)، ثم نصره على العدو الكائد له فناداه: (يا نصير)، ثم ساعده على تكليف العبودية فناداه: (يا ظهير)، فتكلمت فيه العبوديتان، عبودية التعريف وعبودية التكليف، فعظمت نعمة الله عليه، وتوفر إحسانه لديه.

قوله رضي الله عنه: **(واجمعْ بيني وبينك)**

أي أدم لي الجمع، وهو استغراق العبد في نور الشهود. ويرحم الله القائل:

محالٌ صلاحي إن فقدتك لمحة ... ومن غاب عنه بدره فهو مظلم

وأصحاب هذا الاستغراق الدائم هم في نعيم مقيم، وجنة معجلة، لا تعتريهم هموم، ولا تطرقهم أحزان ولا غموم، وأنشدوا:

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت إذ رأتك العين أهوائي

وصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى إذ كنت مولائي

تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

ولذة معرفته تعالى، ومطالعة جمال حضرته، ألذُّ من الملك الذي هو أعلى اللذات في الدنيا، وانظر قول سيدنا إبراهيم بن أدهم الذي ذاق اللذتين ووصل إلى المنزلتين: (والله لو علم الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف).

وإذا كانت العلوم المكتسبة من الأوراق والتكسب يقول فيه الزمخشري:

سهري لتحصيل العلوم ألذ لي ... من وصل غانية وطيب عناق

وتمايلي طرباً لحل عويصة ... أشهى لنفسي من مدامة ساقي

وألذ من نقر الفتاة لعودها ... نقري لنفض الرمل عن أوراقي

فكيف بالعلوم الوهبية، والمعاني الذوقية.

وهذه اللذة، أي لذة المعرفة التي تضيق عنها العبارة، وتدق دونها الإشارة، وغاية الأمر أن يقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. وصاحب هذه الحالة هو الذي ينشد ويقول:

ليلــــي بوجهــــك مـــشرق وظلامـــه فـــي النـــاس ســـاري
والنـــاس فـــي ســـدف الظـــلام ونحـــن فـــي ضـــوء النهـــار

ولله در القائل:

طلعـت شـمس مـن أحـب بليـل فاســتنارت فمــا تلاهــا غــروب
إن شـمس النهـار تغـرب بالليـل وشـــمس القلـــوب لا تغيـــب

قوله رضي الله عنه: **(وَحُلْ)**

أي أدم الحيلولة.

قوله رضي الله عنه: **(بيني وبين غيرك)**

قال في لطائف المنن: اعلم أن الحق سبحانه وتعالى إذا تولى ولياً صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتى قيل: إذا كان سبحانه قد حرس السماء بالكواكب كي لا يسترق منها السمع، فقلب المؤمن أولى لقول الله سبحانه فيما يحكيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن).

وفي التنزيل: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾.

ويرحم الله القائل:

فليتـــك تحلـــو والحيـــاة مريـــرة وليتـــك ترضـــى والأنـــام غـــضاب
وليـت الـذي بينـي وبينـك عـامر وبينـــي وبـــين العـــالمين خـــراب
إذا صـحّ منـك الـود فالكـل هـين وكـل الـذي فـوق الـتراب تـراب

ثم قد يقال: كان الأولى أن يقول: "وحل بيني وبين غيرك واجمع بيني وبينك"، لأن التخلية- بالمعجمة- قبل التحلية- بالمهملة-، ولأن شرط الظفر بالمعرفة والشهود تطهير القلب من الأغيار، ففي الحكَم: (كيف يشرق قلبٌ صورُ الأكوان منطبعة في مرآته) وفيها: (فرّغْ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار، ربما وردت الأنوار فوجدت القلب محشوا بصور الآثار فارتحلتْ من حيث نزلت). وقيل:

فـاطرح الكـون عـن عيانـك وامـح نقطــة الغــين إن أردت تــراه

ويجاب: بأن هذا خاص بطريق السلوك، وطريقة الجذب بالعكس يفجأ القلب مجيء الأنوار فتذهب جميع الأغيار، والمجذوب السالك أتم، قال الشيخ عبد الرزاق العثماني:

وأكمـل الرجـال مـن دون ريـب مـن سـلك الطريـق بعـد الجـذب

فطلب الشيخُ الأكملَ، وهكذا وقع له، فقد أدركه الجذب وهو ابن سبع سنين، فطلب دوام الكمال، على أن السالك أيضا له غيبة عن الأغيار سابقة، وهذه مكتسبة ومتكلِّفة، والأخرى لاحقة مرتبة على الشهود كالحيلة إذ لا مستحسن مع [التجلي غير المتجلي]، فالتجلي ناشئ عن الغيبة عن الأغيار ومثمر لها أيضا، كالورد والوارد.

ويرد أيضا: أن قوله (وزُجَّ بي في بحار الأحدية، وأغرقني في عين بحر الوحدة، حتى لا أرى...الخ)، يغني عن هذا.

ويجاب: مع أن من آداب الدعاء تكريره كما في "الحصن"، فإنه لما طلب الوارث أشار إلى أن ذلك لا ينافي الجمع على الله بل يحققه، لأنه وارث المعرفة بالله.

قوله رضي الله عنه: **(الله الله الله)**

ختم كلامه بما بدأ به من الاسم الجامع، إشارة إلى أن البدء منه، والرجوع إليه في كل شيء، وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ أي هو موجدهم ومخرجهم من ظلمة العدم، وإليه مصيرهم.

ومن عرف هذا حق المعرفة رجع إليه طوعاً قبل أن يرجع إليه كرهاً، وتعلق به دون غيره، وحينئذ يكفيه ما أهمه.

في الحِكَم: (ما توقَّف مطلبٌ أنت طالبه بربك، ولا تيسّر مطلب أنت طالبه بنفسك).

وفي بعض الآثار: يقول الله تعالى: (يا ابن آدم تريد ولا أريد، ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلَّمتَ لي فيما أريد أعطيتك ما أريد، وإن نازعتني فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد).

وكرر ذكره تبركاً واستلذاذاً، وليكون التكرير أعون على استحضار بعض ما انطوى تحته من المعاني، فإنه الاسم الجامع، بل نقول: لو كرره العارف مدى عمره وجميع أنفاسه، لاستفاد في كل مرة غير ما استفاده فيما قبلها، إذ لا نهاية لكمالاته سبحانه وتعالى.

وجعل ذكره ثلاثاً، إشارة إلى الخروج عن العوالم الثلاثة، عالم الأفعال، وعالم الصفات، وعالم الذات، فإن مراتب الفناء ثلاثة:

فناء في الأفعال: بدوام أن لا معزَّ ولا مذلَّ ولا مانعَ ولا معطي إلا الله.

وفناء في الصفات: برؤية أن لا عالم ولا قادر ولا مريد ولا حي إلا الله، وهكذا.

وفناء في الذات: برؤية أن لا موجود إلا الله تعالى.

وأنشدوا:

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى   فكان فناؤه عين البقاء

وجرّده عن حرف النداء، لئلا يشعر بالبعد، استغراقاً فيه، وفناء فيه.

وأدخل حرف النداء في قوله: "يا أول... الخ" تأدباً بإظهار نفسه.

وقال الجنيد رضي الله عنه: ذاكر هذا الاسم ذاهب عن نفسه متصل بربه، كما يتلمح من قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

وقال أبو سعيد الخراز: من الناس من لو تكلمت جوارحه وأعضاؤه لقالت: ألله.

وقال أبو علي الدقاق رضي الله عنه: كان رجل يقول: الله الله.. دائما، فأصاب حجر رأسه وشجه، فوقع دمه على الأرض وكتب: ألله..الله.

وقال رجل للشبلي: لِمَ تقول: الله الله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: لا أبغي به هذا. فقال: أريد أعلى من ذلك، فقال: أخشى أن أموت قبل تمامها فأؤخذ في وحشة النفي. فقال: أريد أعلى من هذا، فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾، فزعق السائل ووقع ميتاً، فتعلق أولياؤه بالشبلي وادعوا عليه بدمه، وحملوه للخليفة، فسألهم عن دعواهم، فقال الشبلي: روحٌ حنَّتْ فدعيت فأجابت، فما ذنبي؟ فقال الخليفة: خلوه لا ذنب عليه له.

وصاح شاب في مجلس الجنيد بهذا الاسم، فقال له الجنيد: أمسك، وإن عدت لمثلها لم تحضر مجلسنا، فأمسك الشاب على نفسه، وإذا به قد سقط ميتاً.

وبقي النوري رحمه الله تعالى في منزله سبعة أيام لم يأكل ولم يشرب ولم ينم، وهو يقول: الله الله، فأخبر الجنيد بذلك فقال: انظروا أمحفوظاً عليه أوقاته؟ فقيل له: إنه يصلي. فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان عليه سبيلا، قوموا بنا إليه، فإما نستفيد منه، وإما نعوده. فلما دخل الجنيد قال: يا أبا الحسين ما الذي دهى بك؟ فقال: قولي الله الله زيدوا علي وقولوها معي، فقال له الجنيد: حتى نرى قولك: الله الله، أبالله أم بنفسك؟ إن كنت قائلها بالله فلست القائل، وإن كنت قائلها بنفسك فما معنى الوله؟ فقال له: نِعْمَ المؤدب أنت يا أبا القاسم، وسكن ولهه.

وهذا يرد على من يذكر هذا الاسم بوَلَه واضطراب وتلعثم في اللسان، وإظهار الغيبة عن الحس، وليس هو كذلك حقيقة، بل هو مناف للأدب، فإنما ينبغي أن يذكره الذاكر بسكينة ووقار، إلا أن يغلب على حسه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن لله عز وجل خلق ملائكة على عدد الحروف وسماهم بأسماء الحروف ثم قال لهم: قدسوني وعظموني، فإني أنا الله لا إله إلا أنا،

فتضاءلت الملائكة بين يديه، فأول من لبى الملَك الذي خلق على صورة الألف وسمي باسمه، فلما سجد صار على هيئة الهمزة، فقال له المولى: وعزتي وجلالي لأجعلنَّ حرف الألِف أول الحروف ولأجعلنه أول اسمي العظيم الأعظم.

ولله در القائل:

إن كنت تسعى للسعادة فاستقم تنل المراد ولو سما أعلى سما
ألف الكتابة وهو بعض حروفها لما استقام على الجميع تقدما

وفي الحديث: (إذا قال العبد الله، شهد له كل من سمعه).

وقال بعضهم: إذا قال العبد: الله، خلق الله من قوله ملَكاً مقرباً لا يزال يصعد حتى يغيب في علم الله وهو يقول: الله الله، ويترك على موضع صعوده عموداً من نور قد سد الأفق يغلب نوره على نور الشمس، ثم لا يزال ذلك العمود يتسع حتى يملأ الكون طولا وعرضا فلا يمر بشيطان إلا أخنسه وأذلّه، وربما أحرقه، ويقول الله تعالى: يا ملائكتي هذا عبد من عبادي، قد أجريت على لساني اسمي الأعظم، فوعزّتي وجلالي لأفيضنَّ عليه نوالي وجودي، وأنا الله الجواد الكريم، وإني لا أختار لاسمي إلا من ارتضيته وأوليته على دائرة حضرتي، فهو وليي ما دام يذكرني. انتهى.

ولبعضهم:

أحرف أربع بها هام قلبي وتلاشت بها همومي وفكري
ألف ألف الخلائق بالصنع ولام على السلامة تجري
ثم لام زيادة في المعاني ثم هاء بها أهيم وأدري

تنبيه: نقل الحطاب عن الشيخ عز الدين بن جماعة أن ذكر اسم الجلالة مفرداً بدعة إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا عن السلف، وإنما هو من فعل الجهلة، والخير كله في الاتباع، والشر كله في الابتداع، والمشروع من الأذكار كله جميل فعلي أو قولي، وسلمه الحطاب، وهو خلاف ما عليه السادات الصوفية كما تقدم بعض كلامهم، ويشهد لهم حديث: (إذا قال العبد الله الله) كما تقدم. وفي الصحيح: (لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على الأرض من يقول الله الله). فالإنكار هو الحقيق بالإنكار.

وقال بعضهم: ما دمت ترى في الوجود وأردت الذكر فالأولى النفي بـ "لا إله"، فإذا غبت عن الأكوان فاقتصر على الاسم حينئذ.

وقال الشيخ محيي الدين: الوقف على الهاء بالسكون، وقطع الهمزة، فإن فتح الهاء وأسقط الهمزة التي تليها كأنما يقول: "هلّا"، فلا ينتفع بذكره، لأن هذا ليس من

الأسماء.

قوله رضي الله عنه: **(إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد)**

الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي الذي أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به، أي إن الذي حمّلك صعوبة هذا التكليف ليثيبك عليه بثواب لا يحيط به الوصف، فالتنكير للتعظيم، أو لرادُّك إلى معاد خاص ليس لغيرك من البشر، فالتنكير للتنويع.

ثم يحتمل أن المثوبات التي يثيبه الله بها من التكريم والترفيع عنده مما لا يكيف.

ويحتمل أنه المقام المحمود الذي وعده به ربه في قوله: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ وهو مقام شفاعته العظمى. ولذلك كان سؤال ذلك يوجب نيل شفاعته، ففي الصحيح عن جابر وغيره عنه صلى الله عليه وآله وسلم: (من قال حيث يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلّت له شفاعتي يوم القيامة).

وفي الصحيحين والترمذي عن أبي هريرة: (كنا جالسين مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوة فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة فقال: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وهل تدرون بم ذلك؟ يجمع الله [يوم القيامة] الأولين والآخرين في صعيد واحد فينظرهم الناظر ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم؟ فيقول بعضهم لبعض: أبوكم آدم. فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكتك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربنا، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا. فيقول آدم عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نَهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي... نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح عليه السلام. فيأتون نوحاً عليه السلام، فيقولون: أنت يا نوح أول الرسل إلى الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، ألا ترى لما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا. فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب، وإني قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي.. نفسي.. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه. فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات – وذكرها – نفسي.. نفسي.. نفسي،

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام، فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضَّلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه. فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي.. نفسي.. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى عليه السلام. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وكلمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه. فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم. فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه. فأنطلق إلى تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد من قبلي، ثم يقال لي: يا محمد.. ارفع رأسك، سلْ تعط، واشفع تشفَّعْ، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا ربي أمتي يا رب أمتي يا رب، فيقول: يا محمد أدخل من أمتك مَنْ لا حساب عليهم من الباب الأيمن من الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى).

وزاد في رواية في قصة إبراهيم: فذكر قوله في الكوكب "هذا ربي" وقوله لآلهتهم "بل فعله كبيرهم" وقوله "إني سقيم".

وأتى الشيخ رضي الله عنه بالآية إشعاراً بالرجوع إلى الشهود الحقيقي بعد اختياره التفسير الأول، أو النبي صلى الله عليه وسلم إذا وعد بأمر دخل أتباعه على حسب مراتبهم، والشهود هو المقصود عن العارفين من الثواب.

وفي الحِكَم: (النعيم وإن تعددت مظاهره فإنما هو بشهوده واقترابه).

وقد ذكروا أن موت العارفين مجرد انتقال إلى النعيم المقيم. ومما ينسب للغزالي:

قل لإخوانٍ رأوني ميتاً ... فبكوني ورثوني حزنا

أتخالون بأني ميتكم ... ليس ذاك الميْت والله أنا

إلى أن قال:

كنت قبل اليوم ميتاً بينكم ... فحييت وخلعت الكفنا

وأنا اليوم أناجي ملكا ... وأرى الحق جهارا علنا

ثم قال:

لا تـــرعكم هجمـــة المـــوت فمـــا هـــي إلا نقلـــة مـــن ههنـــا
لا تظنـــوا المـــوت موتـــاً إنـــه لحيـــاة هـــو غايـــات المنـــى
فـــاخلعوا الأجـــسام عـــن أنفـــسكم تنظـــروا الحـــق جهـــارا علنـــا

وذكر أن رجلاً يسمى عبد الكريم بن حسن من بلاد المغرب، لما قرب أجله، وأطلعه الله عليه، أمر صاحباً له أن يأتي بعد صلاة الظهر لمنزله ليغسله، ويكفنه ويدفنه، فقال: لو كان معي آخر. فقال له: ستجده ينتظرك هنا. فلما كان الظهر، جاء الرجل لمنزل عبد الكريم، فوجده قد مات، ووجد الرجل ينتظره، فغسلاه وجهزاه، فلما فرغا من ذلك قال ذلك الرجل: لا إله إلا الله، ثم طلبه فلم يجده، فعلم أن ذلك الشخص روحه تصورت في صورة هيكله.

ولتوصلهم بالموت للمنى كانوا يتمنونه كما قيل:

ولقـــد أصـــاب معبّـــر عـــن حـــالهم فاســـمع مقـــالاً صـــادقا مقبـــولا
إن الأولـــى مـــاتوا علـــى ديـــن الهـــدى وجـــدوا المنيـــة منـــزلا معـــسولا

وانظر قول سيدنا بلال رضي الله عنه: واطرباه. انتهى.

وقال رجل لعبد الله بن منازل: رأيت في المنام أنك تموت إلى سنة، فقال: أملت إلى أمر بعيد.

ووجد بخط سيدي رضوان بعد موته: قرب الرحيل إلى الحبيب أهلاً به أهلاً وسهلاً ومرحبا. وكان ذلك بكتابة غير بينة بشدة.

وقيل: "المعاد" مكة، ونكّر لأنها كانت في ذلك الوقت معلوماً له شأن لظهور الإسلام برجوعها إليه يوم الفتح، والسورة مكية، فوعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها.

وقيل: نزلت الآية بالجحفة، وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم، فنزل جبريل عليه السلام وقال له: أتشتاق إلى مكة؟ فقال له: نعم. فأوحاها إليه.

و"فرض" على هذا بمعنى: أنزل. أي الذي اعتنى بشأنك وأهّلك بالكتاب المعجز الذي أظهر به دينك على الأديان، لمتمم لك ذلك بقهر أعدائك، ورادك ظافراً إلى مولدك ومولد آبائك. ويصح تفسير "فرض" بـ "أنزل" على الوجه الأول أيضا، ويؤيده أيضا قوله بعد: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾.

ولما اشتاق صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة لأن بها بيت الله، وقرار الأنبياء،

ونزول الرحمة، ونشأته الكريمة، اشتاقت هي إليه أيضا حقيقة، على الصحيح إذ حنين الجمادات إليه صلى الله عليه وآله وسلم أمر معلوم. وفي الهمزية:

ونحا المصطفى المدينة واشتاقت إليه من مكة الأنحاء

ولسيدي رضوان رضي الله عنه:

ولما دنت هجرة المصطفى وأفجع مكة منه انصرام
فصاحت وضجت ورنت بكا بكى لبكاها جميع الأكام
وقالت أتفجعني بالفراق فيا ليتني ذقت قبل الحمام
ألست بأم وأنت الوليد ألست بمهدك قبل الفطام
وفي ربيت وفي نشأت وفي أتاك رسول الكرام
فيا رب صبراً لفقد الحبيب تصدع قلبي حرمت المنام
فؤادي تفتت من كمد دموعي جرت مثل صب الغمام
عليك... ومصباح قلبي فمن عاذري من جميع الأنام
الصبر لا، والذي خصه بخير الحياة ورفع المقام
سأبكي عليه بطول الحياة وبعد الممات بكى المستهام

وتذكر حنين الجذع إليه، روى غير واحد عن أنس وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسند ظهره يوم الجمعة إلى جذع منصوب في المسجد، فيخطب الناس، فلما كثر الناس قال: ابنوا لي منبرا، أراد أن يسمعهم، فبنوا له عتبتين، فتحوّل إلى المنبر، فخار الجذع كما يخور الثور حتى ارتج المسجد لخواره حزناً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنزل إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر فالتزمه، فسكت، فقال: والذي نفس محمد بيده لو لم ألتزمه لا يزال هكذا حتى تقوم الساعة، وأمر به فدفن.

وكان الحسن إذا حدّث بهذا الحديث بكى وقال: يا عباد الله، الخشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شوقاً إليه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

ولله در القائل:

وألقي حتى في الجمادات حبه فكانت لإهداء السلام له تهدى
وفارق جذعاً كان يخطب عنده فأنّ أنين الأم إذ تجد البعدا
يحن إليه الجذع يا قوم هكذا أما نحن أولى أن نحنّ له وجدا
إذا كان جذع لم يطق بُعدَ ساعة فليس وفاء أن نطيق له بُعدا

وعلى هذا فأتى بالآية إشارة إلى الظفر بالتلاق والرؤية العينية التي هي أعظم النعيم وهي الزيادة في حبه، وآية ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ نُكِّرت للتعظيم.

وروى مسلم حديثاً: (إذا دخل أهل الجنة الجنةَ يقول الله تعالى: أتريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة ونجيتنا من النار. فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم). وفي رواية: ثم تلا: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾.

وأكد الخبر بـ "أن" لكونه مستغرَباً في نفسه.

ومما يجب أن يعتنى به قوله: **(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا)**

هذا دعاء أهل الكهف حين إيوائهم إلى الله وانقطاعهم عن بلادهم وأموالهم وعشائرهم، لما حصل لهم من الأنس بالله، وقد تقدم قول أبي الغرس: (مولاي أنسك لم يدع لي وحشة إلا محا ظلماتها بسناه، مولاي لا آوي لغيرك إنه حرم الهدى من لم تكن مأواه).

وبحصول الأنس لهم به أقبلوا على خطابه والتوجه إليه، وطلب زيادة الهداية، والثبات عليها، وقدم: (من لدنك) على (رحمة)، وإن كان أصله أن يكون وصفاً له لأن مرادهم التستر، فقوة طلبهم متوجهة إلى كون الرحمة منه إليهم بلا واسطة بخلاف قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ فلم يقصد هذا المعنى وعبَّر بـ "لَدُن" دون "عند" لما في "لدن" من الدلالة على الملاصقة المعنوية، قاله أبو حيان في بحره. ففيها تأكيد لنفي الواسطة وتنكير "رحمة" و"رشدا" للتعظيم.

ومعنى "هيئ" يسِّرْ، و"مِنْ" بمعنى في، أو تجريدية أي اجعل "أمرنا" غاية في الرشد حتى كأنه أصل له.

والشيخ رضي الله عنه وقع بالآية على نبذ جميع الأغيار، واطراح كل ما سوى الواحد القهار، طالباً أن تهب عليه نفحات الرحمة من ربه، وأن يكون أمره كله رشدا وخيرا، وأن يكون له حظ من حال أهل الكهف في الخفاء عن الأضداد والأغيار، لأن ذلك اعتناء من الحق بهم، وإعزازٌ لهم. قال أبو عبد الله البصري: لقيت السبعة المخصوصين من الأبدال، فقلت: علِّموني شيئا، قالوا: لا تحب أن تُعرَف، ولا تحب أن يعرف أنك ممن لا يحب أن يُعرَف، انتهى.

وكما أن تنكير "رحمة" للتعظيم قبل التوقيع، فكذا بعده كأنه يقول: آتنا من لدنك رحمة عظيمة تعم أتباعنا، وتنسحب على من استند إلينا وتعلق بنا، كما انسحبت

الرحمة على كلب أهل الكهف فحُسب عليهم ويُذكر بذكرهم.

ولله در القائل:

صاحب ذوي المجد تسعد من كرامتهم ... واخدمهمُ صادقاً واصدقهمُ خبرا

كم صحبة طوّقت من يمنها دررا ... وصحبة ألحقت من شؤمها ضررا

وشاهدي كلب أهل الكهف مع ضعة ... من أجل صحبتهم في الوحي قد ذكرا

وإنما تبعهم الكلب لأنه كان لراع انضاف إليهم وخرج معهم.

وذكر المفسرون أنهم قالوا للراعي: اصرف هذا الكلب عنا، فقال: لا يمكنني لأنني ربّيته. ويقال: جعلوا يضربونه، فأنطقه الله فقال: لم تضربونني؟ قالوا: تنصرف عنا، قال: كيف وقد ربّاني هذا أن لا أتركه؟ ويقال: ينطقه لهم ربط الله على قلوبهم بأن ازدادوا يقيناً بسماعه، وأنه قال لهم: الذي أخذكم أخذني، أي من الإيمان واليقين، قالوا: وما علامة صحته؟ قال: أنتم تخافون بلاء يصيبكم في المستقبل، وأنتم بلائي في الحال، والبلاء الذي تخافونه من الأعداء، وبلائي منكم وأنتم الأولياء. ولما لم ينصرف عنهم قالوا: سبيلنا أن نحمله على أعناقنا لئلا يستدل علينا بآثار قدمه، فكانوا في الابتداء للكلب منايا، وفي الانتهاء مطايا.

وقال أبو بكر الوراق: مجالسة الصالحين ومجاورتهم تؤثر في الخلق وإن لم يكونوا أجناسا، ألا ترى كيف ذكر أصحاب الكهف وذكر كلبهم معهم لمجاورته معهم.

وتقدم حديث: (من أحب قوما حشره الله في زمرتهم).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (مولى القوم من أنفسهم)، وهو حديث صحيح.

وأخرج ابن عساكر عن الحسن بن الحسين قال: (كان حيّ من الأنصار لهم دعوة سابقة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مات منهم ميت جاءته سحابة من السماء فأمطرت قبره، فمات مولى لهم، فقال المسلمون لننظر اليوم إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (مولى القوم من أنفسهم)، فلما دفن جاءت سحابة فأمطرت قبره).

ومن هنا حسنُ التعلق بالأولياء والتشبث بأذيالهم رضي الله عنهم.

ولسيدي رضوان رضي الله عنه:

فنحن كلاب الدار طبعاً ولم نزل ... نحب مواليها ونحرس بابها

إذا طردت يوماً كلاب قبيلة ... فقومي كرام لا تهين كلابها

وعن بعض الصالحين أنه رأى رجلا بعد وفاته في النوم فقال له: ماذا فعل الله بك؟

قال: لما أدخلت القبر، جاءتني زبانية العذاب فقلت: أما تعرفوني؟ فقال واحد منهم: ومن أنت؟ قلت: أنا خديم أبي يزيد البسطامي. فقال لأصحابه: دعوه حتى نسأل أبا يزيد. فأتوا أبا يزيد فقالوا: إن هذا الرجل ادعى صحبتك، فقال: لا أعرفه وليس كما قال. فقال الرجل: سبحان الله ما أسرع ما ينسى الناس، أما تذكر يوماً كنت خارجاً من المسجد الفلاني وتحت إبطك ثوب، وأردت أن تنتعل نعلك، فمنعك الثوب فناولتنيه، فأمسكته لك حتى انتعلت. فقال: نعم. فخلوا سبيله وانصرفوا.

فأدنى انتساب لهم وأقل قرب منهم نافع. ولله در القائل:

يا سادتي وموالي	وخير وال وآل
مالي سواكم حصون	من حادثات الليالي
أنا الفقير إليكم	أنا غبار النعال
وكل من كان منكم	في السهل أو في الجبال
فرجله فوق رأسي	وحبه رأس مالي
فقابلوني بفضل	وحبتنوا سوء حالي
وغير خاف عليكم	أني من الخير خالي
حاشاكم أن تضنوا	بمقصدي وسؤالي
وفيضكم في ازدياد	وجودكم في توالي

ولبعضهم:

يا رجال الإله يا رجال الإله	إن عُبَيدا لاذ من أجلكم بركن قوي
فاقبلوه بفضلكم وارعوه	واشفعوا فيه للإله العلي

وفي حديث أنس مرفوعا: (أكرموا القُرّاء فإن لهم يوم القيامة دولة. قالوا: وما دولتهم يا رسول الله؟ قال: ينادي منادٍ من بطحاء العرش: يا جبريل قرِّب أحبائي. فيقول: يا رب ومن أحباؤك؟ فيقول: قُرّاء أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: فيجمعهم في صعيد واحد، فيطلع المولى سبحانه عليهم يقول: ادخلوا الجنة بغير حساب عليكم، فيقولون: إلهنا ومن أحبنا فيك ومن برّنا لك وأكرمنا لأجلك، فيقول الله تعالى: دوروا في الجمع فمن أحبكم فيّ وبرّكم لي وأكرمكم لأجلي ولو بلقمة أو بشربة فأدخلوه معكم في الجنة).

قوله رضي الله عنه: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)

أي إن الله مع ما هو عليه من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال، وملائكته

الذين هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، يصلون على النبي. قال البيضاوي: يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه.

و(النبي) علم بالغلبة على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو بالهمز أي نبيء، من النبأ أي الخبر، لأنه مخبَر أو مخبِر عن الله بصيغة الفاعل أو المفعول، لأن النبي مرفوع الرتبة على غيره من الخلق.

(يا أيها الذين آمنوا) خطابٌ لجميع الأمة إلى يوم الدين، وعمومه بالشرع لا اللغة.

(صلوا عليه) عظِّموه، بالدعاء له بالصلاة من الله تعالى، بدليل أنه: (لما نزلت الآية قالوا: كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وباركْ على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد) كذا عند ابن أبي حاتم.

ووقع في الصحيحين بلفظ: (كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد) وحمل على أن لفظ (آل) مقحم.

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو السبب في وجود هذا العالم وواسطة العقد له، وعروس مملكته، ومرتبة التمام، ومسك الختام، أشاد تعالى ذكره في العالم العُلوي عند الملائكة، وفي العالم السُّفلي ليمتلئ الكون من ذكره حتى يكون كله خادماً له كما مقتضى كونه الرئيس، وكونه هادي الخلق كافة.

وكذلك أيضا رفع الله اسمه، وكتبه في العرش وغيره. روى ابن عساكر عن كعب الأحبار "أن الله أنزل على آدم عصياً بعدد الأنبياء والمرسلين، ثم أقبل على ابنه شيث فقال: أي بني أنت خليفتي من بعدي فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى، وكلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد فإني رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش وأنا بين الروح والطين، ثم إني طفت في السموات فلم أر في السموات موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه، ولقد رأيت اسم محمد مكتوباً على نحور الحور العين، وعلى ورق قصب آجام الجنة، وعلى ورق شجرة طوبى، وعلى ورق سدرة المنتهى، وعلى أطراف الحجب، وبين أعين الملائكة، فأكثر ذكره فإن الملائكة تذكره في كل ساعاتها:

بـدا مجـده مـن قبـل نـشأة آدم فأسـماؤه في العرش من قبل تكتب

وروى الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (لما عرجت إلى السماء ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي فيها مكتوبا "محمد

رسول الله" وأبصر من خلفي).

ووجد على حجارة قديمة مكتوب: محمد تقي مصلح، ذكره في الشفاء.

ووجد على حجر بالخط العبراني: باسمك اللهم، جاء الحق من ربك بلسان عربي مبين، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكتبه موسى بن عمران. ذكره ابن ظفر عن معمر عن الزهري.

وشوهد- كما في الشفاء- في بعض بلاد خراسان مولود وله على أحد جنبيه: لا إله إلا الله، وعلى الآخر: محمد رسول الله.

وببلاد الهند ورد أحمر مكتوب عليه بالأبيض: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وعن علي بن عبد الله الهاشمي أنه وجد ببعض قرى الهند وردة كبيرة طيبة الرائحة، سوداء، عليها بخط أبيض: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق. قال: فشككت في ذلك وقلت: إنه معمول. فعمدت إلى واحدة لم تفتح فكان فيها مثل ذلك، وفي البلد منه كثير، وأهل تلك القرية يعبدون الحجارة لا يعرفون الله تعالى.

وفي روض الرياحين لليافعي عن بعضهم أنه وجد ببلاد الهند شجرة تحمل ثمراً كاللوز له قشر إذا كسر خرج منه ورقة خضراء مكوية مكتوب فيها بالحمرة: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، والناس يتبركون بها. قال: فحدثت بذلك أبا يعقوب الصياد فقال: لا أستعظم هذا، كنت أصطاد على نهر، فاصطدت سمكة على جنبها الأيمن: لا إله إلا الله، وعلى الأيسر: محمد رسول الله، فقذفتها في الماء احتراماً لها.

وفي شرح البردة لابن مرزوق عن بعضهم أنه أتى بسمكة في أحد شحمتي أذنيها: لا إله إلا الله، وفي الآخر: محمد رسول الله.

وعن ابن جماعة أنه وجد سنة سبع أو تسع وثمانمائة حبة عنب فيها بخط بارع أسود: محمد.

وفي كتاب "النطق المفهوم" عن بعضهم أنه رأى في جزيرة شجرة عظيمة لها ورق كبير طيب الرائحة مكتوب فيه بالحمرة والبياض في الخضرة في السطر الأول: لا إله إلا الله، والثاني: محمد رسول الله، والثالث: إن الدين عند الله الإسلام.

(وسَلِّمُوا) قال البيضاوي: قولوا "السلام عليك"، وانقادوا لأوامره.

(تسليما) أي صلوا عليه صلاة، وسلموا عليه تسليما.

ثم بعد تلاوة الآية قال على سبيل الامتثال والإجابة:

(اللهم صل عليه وعلى آله) آل الرجل: من يؤول أمرهم إليه بنسب أو دين، وهذا

على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن "سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم") أخرجه الشيخان والترمذي.

انتهى بحمد الله وحسن عونه، وتوفيقه الجميل، وبمنه وكرمه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سيدي عبد الله بن إبراهيم الميرغني

(سيدي عبد الله بن إبراهيم الميرغِني [ت 1207- 1792]. صوفي، حنفي المذهب، من أهل مكة. انتقل بأهله إلى الطائف عام 1161. وضع تآليف، منها "فرائض وواجبات الإسلام"، وألف في العقائد والفقه، كما وضع "المعجم الوجيز من أحاديث النبي العزيز"...).

ترجمة للسيد الميرغني من عجائب الآثار للجبرتي

(السيد الإمام العارف القطب، عفيف الدين. أبو السيادة، عبد الله بن إبراهيم بن حسن بن محمد أمين بن علي ميرغني بن حسن بن مير خورد بن حيدر بن حسن بن عبد الله بن علي بن حسن بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن يحيى بن عيسى بن أبي بكر بن علي بن محمد بن إسمعيل ابن ميرخورد البخاري بن عمر بن علي بن عثمان بن علي المتقي بن الحسن بن علي الهادي ابن محمد الجواد الحسيني، المتقي المكي الطائفي الحنفي، الملقب بالمحجوب.

ولد بمكة وبها نشأ، وحضر في مبادئه دروس بعض علمائها كالشيخ النخلي وغيره، واجتمع بقطب زمانه السيد يوسف المهدلي وكان إذ ذاك أوحد عصره في المعارف فانتسب إليه ولازمه حتى رقاه، وبعد وفاته جذبته عناية الحق وأرته من المقامات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فحينئذ انقطعت الوسائط وسقطت الوسائل، فكان أُوَيْسِياً تلقيه من حضرة جده صلى الله عليه وسلم كما أشار الى ذلك شيخنا السيد مرتضى عندما اجتمع به بمكة في سنة 1163 وأطلعه على نسبه الشريف وأخرجه إليه من صندوق، قال: وطلبت منه الإجازة وإسناد كتب الحديث، فقال: غنى عنه: قال فعلمت أنه أويسي المقام ومدده من جده عليه الصلاة والسلام.

وانتقل إلى الطائف بأهله وعياله في سنة ست وستين وشرف تلك المشاهد ومآثر شهيرة ومفاخرة كثيرة، وكراماته كالشمس في كبد السماء، وكالبدر في غيهب الظلماء، وأحواله في احتجابه عن الناس مشهورة، وأخباره في زهده عن الدنيا على ألسنة

الناس مذكورة.

ومن مؤلفاته:

- كتاب فرائض وواجبات الإسلام لعامة المؤمنين.
- و"الكوكب الثاقب"، وشرحه وسماه "رفع الحاجب عن الكوكب الثاقب".
- وله ديوانان متضمنان لشعره: أحدهما المسمى بـ "العقد المنظم على حروف المعجم"، والثاني "عقد الجواهر في نظم المفاخر".
- ومنها "المعجم الوجيز في أحاديث النبي العزيز" صلى الله عليه وسلم، اختصره من الجامع وذيله.
- و"كنوز الحقائق والبدر المنير" وهو في أربعة كراريس، وقد شرحه العلامة سيدي محمد الجوهري وقرأه دروساً.
- ومنها شرح صيغة القطب بن مشيش وهو من غرائب الكلام.
- ومنها "مشارق الأنوار في الصلاة والسلام على النبي المختار".

توفي رضي الله عنه في هذه السنة سنة سبع ومائتين وألف للهجرة).

نسب سيدي محمد سر الختم الميرغني

قال سيدي مصطفى طموم في كتابه "مناقب شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة الأستاذ

السيد محمد سر الختم الميرغني ابن السيد محمد سر الختم ابن السيد عثمان الميرغني"

(أما نسبه الشريف، فهو: سيدنا السيد محمد سرّ الختم، ابن السيد محمد سرّ الختم، ابن السيد محمد **عثمان الميرغني الختم صاحب الطريقة الختمية**، ابن السيد محمد أبي بكر، ابن السيد **عبد الله الميرغني المحجوب صاحب الطريقة الميرغنية**- سمي بالمحجوب لاحتجابه عن الناس مدة من الزمان- ابن السيد إبراهيم، ابن السيد حسن، ابن السيد محمد أمين، ابن السيد علي ميرغني، وهو أول من لقب بهذا اللقب، وسبب ذلك أن وفداً من بخارى جاءوا بهدايا زاعمين أنه فقير، فكشف الله له عما في قلوبهم، فأراد أن يظهر بمظهر الغني ليبطل ما زعموا، وليرجعوا بما جلبوه، فأمر لهم بالطعام، فوضع الخدم السماط بين أيديهم وعليه الآنية مغطاة، فلما كشفوها وجدوا بعضها مملوءاً بالذهب وبعضها مملوءاً بالفضة وبعضها مملوءاً بالجواهر النقية، فدهشوا وتعجبوا مما رأوا، وقالوا: ميرغني، أي الشريف غني، لأن المير بلغتهم معناه الشريف، ابن السيد حسن، ابن السيد مير خوردي، ابن السيد حيدر، ابن السيد حسن، ابن السيد

عبد الله، ابن السيد علي، ابن السيد حسن، ابن السيد أحمد، ابن السيد علي، ابن السيد إبراهيم، ابن السيد يحيى، ابن السيد عيسى، ابن السيد أبي بكر، ابن السيد علي، ابن السيد محمد، ابن السيد إسماعيل، ابن السيد مير خوردي البخاري، وهو الذي انتقل من بلده بخارى إلى الأراضي المكية وأقام بها واتخذها وطناً له ولأولاده إلى ما شاء الله، ابن السيد عمر، ابن السيد علي، ابن السيد عثمان، ابن السيد علي التقي، ابن السيد حسن الخالص، ابن السيد علي الهادي، ابن السيد محمد الجواد، ابن السيد علي الرضا، ابن السيد موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام محمد الباقر، ابن الإمام علي زين العابدين، ابن الإمام الحسين رضي الله تعالى عنه، ابن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم).

شرح الصلاة المشيشية لسيدي عبد الله الميرغني
المتوفى عام 1207هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله المنفرد بالكمال، المنزَّه عن التشبيه والتعطيل والاتصال، الموجود الذي كل ما سواه هالك وعدم، الباقي الذي تفرَّد بالجلال والقدم، القيوم الذي استغنى بذاته عن سائر الوجود، العظيم الذي تعالى بعظمته على كافة الجنود، الأول بلا أولية، والآخر بلا أخروية، العليم، بالواجب والجائز والمستحيل، المريد لجميع الكائنات بالإجمال والتفصيل، القدير على إيجادها وإعدامها، الحكيم في إنعامها وإيلامها، الحي الذي ليس معه حي، المتكلم إجمالاً وتفصيلاً لكل شيء، السميع لكل الموجودات والمسموعات، البصير بسائر الثابتات والمبصرات، ذي الذات العظيمة، والصفات القديمة، والأسماء الحسنى التوقيفية، والصفات التي اشتبهت على سائر البرية، ما عدا الذات النبوية كما في أصول الحنفية، الكبير الذي استحال في حقه ضد هذه الصفات، وجاز من جانبه ما أمكن بإعدام وإثبات، الشّائي الذي أسعد من شاء في أزله، وأشقى من أراد بفضله وعدله، الجاعل لعبده كسباً بلا تأثير، الخالق له ولكسبه بلا نكير، العزيز الذي لا يذلّ بإيجاب شيء عليه، البارئ لكل معقب لحكمه وأمره، المرئي في دار القرار، بلا كيف ولا انحصار، الباعث سيد الأخيار بالتبشير والإنذار، المرسل سائر الأنبياء فضلا ورحمة، والموجب عصمتهم تكرماً ومنة، المتفضل بالنبوة بلا اكتساب، الجاعل نبينا سيد ذوي الألباب، الوهاب الذي وهبه النبوة خلق آدم وختما به في زمن تقادم، وجعل شرعه لا ينفسخ، حتى الزمان ينفسخ، المؤيد له بالآيات الباهرة والمعجزات المتكاثرة، الجليل الذي أسرى بعبده إلى حضرة ذاته وعنده، المعزّ الذي شرّفه وفضل أصحابه وجعل ترتيبهم في الفضل كخلافتهم في النيابة، الكريم الذي أكرم أولياءه بكرامات لا تحدّ، المثيب من شاء من عباده من غير حصر ولا عدّ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عين ويقين.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الحبيب الأمين، روح الكمالات الاصطفائية، وقطب دائرة التجليات الإلهية، صاحب الدين القويم والشرع المستقيم، من أخبره الله بما كان وما يكون، وأنبأنا بأنه لكل عبد حافظون وكاتبون، المخبر بأن الموت حق، وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر ونعيمه ثابت بلا نكير، المبعوث قبل بعث الخلائق للحشر والنشر، المكرم في اليوم الآخر وهو له بالشفاعة والنصر، المنبئ بأخذ الصحف والميزان والصراط، المشرف باللواء والحوض والجنة باغتباط، المخرج من النار ما لا يحصى عدّه إلا القهار، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه آناء الليل وأطراف النهار، مع إخوانه الأنبياء والملائكة وسائر المؤمنين والأخيار.

وبعد: فإنه لما كانت الصلاة المشيشية شريفة القدر، وعظيمة الخطر، لما حازته من الحقائق الإلهية والأسرار الربانية، وكان يتردد في الخاطر القاصر سنين، أن أشرحها شرحاً مبيناً لحقيقة مرامه، وكنت متردداً في ذلك بين إحجامه وإقدامه، وقوي ذلك الخاطر الفاتر، وساعفته الأقدار والبشائر، شرعت بعون ربي مستغفراً من ذنبي وملتجئاً لحبي، مقتبساً من اسمه الأول مقدمة، إشارة لكونه المقصود فاعلمه، ومختاراً من اسمه الآخر خاتمة، لتكون فاقتي لشهوده دائمة، إذ هو المشهود الأول في كل المطالب، والمنتهى المقصود من جميع المآرب، وسميته:

النفحات القدسية، من الحضرة العباسية،

في شرح الصلاة المشيشية

وبالله أستعين لا محبوب سواه، ولا مطلوب إلا إياه.

مقدمة

اعلم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أشرف القربات وأعظم القربات حتى نقل بعضهم الاتفاق على أنها مقبولة أبداً. وحرّر خلافه في كنز العفاف والدلائل على شرفها كثيرة، ولو لم يكن من ذلك إلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن أولى الناس بي أكثرهم عليّ صلاة) وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أمحق للذنوب من الماء البارد للظمأ، والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب) لكفى.

وهي فرض في العمر مرة عند أكثر العلماء، واختلف في وجوبها كلما ذكر صلى الله عليه وسلم، والمختار الوجوب، والمذهب الاستحباب، ولا تداخل. فإن قلت: إنا نتيقن أن له صلى الله عليه وسلم مراتب الكمال بلا شك فلماذا أمرنا بالصلاة عليه؟ وأي فائدة فيها؟ قلت للناس أجوبة:

منها أن له أنواع المراتب وإلا لزم له انتهاء مقدورات الله ونعمه. ومنها أنا أمرنا بالصلاة عليه للجزاء الذي يعود إلينا بسببه. ومنها أنا أمرنا بذلك تعبداً. ومنها أنه صلى الله عليه وسلم ينتفع بها وهو التحقيق، إذ لا نهاية لكمالات الله تعالى، ولا مانع من ربطها بالأسباب فإنه الحكيم الوهاب.

فإذا كان كذلك، فمن أكمل ما يصلّى عليه، صلاة السيد الشريف الحسني شيخ الشيوخ الأكابر منهم أبو الحسن الشاذلي العارف بالله تعالى، والدال عليه سيدنا ومولانا الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش، يقال بالميم أوله وبالباء الموحدة. وقال الشارح أبو عبد الله الخروبي رحمه الله تعالى: وكان بعض من لقينا من الأشياخ يصحح الأول، ويقال مشيش بتشديد الشين وتخفيفها، المغربي رحمه الله تعالى وأمدنا بمدده، فإنها صلاة جليلة المقدار، عظيمة الأسرار والأنوار، دالة على كمال صاحبها وتمام عرفانه، إذ كل إناء ينضح بما فيه، وكل كلام عليه كسوة القلب الذي صدر منه، وناهيك بصلاة حازت نهاية الثناء عليه صلى الله عليه وسلم بما هو مقدر البشر مع مساعفة العناية والقدر، وملاحظة الفيوضات الإلهية، وإلا فليس في قدرة البرية الثناء بتلك القضية كما ستنكشف لك حقيقتها، وذلك أيضاً بحسب قصوري، والتقصير قليل من كثير وصغير من كبير.

وقال الشيخ العارف العلامة أحمد بن محمد النخلي رحمه الله في كتابه "بغية الطالبين": وفي قراءتها من الأسرار والأنوار ما لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، وبقراءتها يحصل المدد الإلهي والفتح الرباني، ولم يزل قارئها بصدق وإخلاص مشروح الصدر ميسر الأمر محفوظاً بحفظ الله تعالى من جميع الآفات والبليات الظاهرة والباطنة منصوراً على جميع الأعداء، مؤيداً بتأييد الله العظيم في جميع أموره، ملحوظاً بعين عناية الله الكريم الوهاب، وعناية رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله والأصحاب، وتظهر فائدتها بالمداومة عليها مع الصدق والإخلاص والتقوى ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ انتهى. وهو كلام لا إشكال فيه ولا ريب، فجاهِدْ تشاهِدْ.

وقد أجازني بقراءتها بعد الصبح وبعد المغرب العلامة الفهامة شيخنا الشيخ شبلي المالكي كان الله لي وله، وقيل تقرأ مرة ثالثة بعد العشاء. وقد أحببت أن أذكر سند الشيخ أحمد النخلي لها تبركاً، إذ ذكر أنه أخذها عن الشيخ محمد بن علاء الدين البابلي، وقال: وقد أخذ شيخنا محمد البابلي رحمه الله تعالى هذه الصلاة عن الشيخ سالم السنهوري عن النجم الغيطي عن شيخ الإسلام زكريا عن العزّ عبد الرحيم بن الفرات عن التاج عبد الوهاب بن علي السبكي عن والدي التقي عليّ بن الكافي السبكي عن الشيخ ابن عطاء الله عن الشيخ أحمد بن عمر المرسي عن أبي الحسن الشاذلي عن مؤلفها سيدي عبد السلام بن مشيش نفعنا الله تعالى به وبهم أجمعين.

وكان صاحب الصلاة جليل القدر، عظيم الشأن: قطب الدائرة، ذا طريقة حسنة وأحوال مستحسنة وحقائق كشفية ومعارف إلهية، وقد أخذ الطريقة عن أكابر، منهم الشيخ العارف عبد الرحمن المدني، ثم من واحد إلى سيدنا الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وأخذ عنه كثير من الأكابر، منهم الأستاذ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى.

ومن أجلّ ما يستدل به على ما أذكره وأوضحه ما حكي عن الشيخ أبي الحسن المذكور أنه كان نائماً ذات ليلة ببيت المقدس، فلما مضى بعض الليل إذ رأى السقف قد انفرج وإذا كراسي من ذهب وفضة مرصعة نزلت منه ورتبها رجل، وإذا بتختٍ عظيم مرضع بأنواع الجواهر يحير الواصفون في نعته، وإذا بملأ من الناس نزلوا وقعد كل واحد على كرسي، وإذا رجل لم يز مثله في الحسن والأنوار نزل فقعد تحت التخت منفرداً لم يشاركه فيه أحد غيره، قال: فقلت لمن في حاجتي: من هؤلاء؟ قال: الأنبياء، قلت: والذي على التخت؟ قال: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قلت: لِمَ

جاءوا؟ قال: جاءوا يستشفعون الرسول في الحلاج حيث خالف ظاهر الشرع. قال: ثم بعد ذلك قال موسى عليه السلام للرسول صلى الله عليه وسلم: بلغني أنك تقول: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، فأحب أن تريني واحداً منهم، فأشار صلى الله عليه وسلم إلى رجل فإذا هو الغزالي، فقال: يا رسول الله ائذن لي أن أتكلم معه، فسأله عن مسألة فأجابه بعشرة أجوبة، فقال: يا سبحان الله سألتك عن شيء واحد فأجبتني بأجوبة، فقال له: يا سبحان الله ربك لما قال لك: وما تلك بيمينك يا موسى؟ قلت: هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى.

قال: ثم إني لم أزل متعجباً في كون آدم أبي البشر، ونوح، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى، كلهم تحت التخت والرسول وحده منفرد به مع كونهم آباءه وكبار الأنبياء، وبينما أنا في ذلك وإذا واحد يرفسني ويقول: قم أما علمت أن أصل الكل وسيدهم المنفرد بسائر الكمالات، فكيف يشاركونه فيه؟ بهذا المعنى سمعت القصة من بعض مشايخي الأجلة رحمهم الله تعالى.

(اللهم) أي يا من له الذات العظمى والصفات الكبرى والأسماء الحسنى، ويا من لا يدركه كنه ذاته ولا حقيقة صفاته، ولا يحيط بتأثير أسمائه ولا يُداني في عزه وبقائه.

(صَلِّ) أي ارحم بذاتك الصمدية وصفاتك الأزلية، إذ الصلاة من الله رحمة كما قال علماء الأمة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ ﴾، إن الله وملائكته يباركون على النبيّ. وقال بكر القشيري رحمه الله تعالى: صلاة من الله لمن دون النبي رحم، وللنبي صلى الله عليه وسلم تشريف وزيادة تكرمة. وقال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء.

(عَلَى مَنْ) أي على الذي هو روح الوجود وعين مرامك المقصود، ومن (مِنْهُ انشقتِ الأسرار) جمع سرّ، وله معان كثيرة، أنسبها من ذلك بهذا المحل جوف كل شيء ولبه وما يكتم، فعلى الأول يكون المعنى من أجله: أي بواسطته انصدعت الأجواف وكان لها من الله الإشراف، وعلى الثاني انخرقت الألباب واشتاقت إلى لقاء الأحباب، وعلى الثالث فإن أريد بما يكتم الحِكَم والمعارف التي يجب كتمها على غير أهلها، فذلك ظاهر، لأنها إن كانت من حيث الشريعة فلا كلام، وإن كانت من حيث الحقيقة فكذلك بإجماع علماء الأنام.

وإن أريد بما يكتم من حيث الأكوان كلها فكذلك أيضاً، إذ هي ومن قامت به بارزة منه صلى الله عليه وسلم كما رواه عبد الرزاق بسنده عن جابر رضي الله عنه أنه قال "يا

رسول الله أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء"، قال: يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك عن نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا إنس، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السموات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهو المعرفة بالله، ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله" الحديث. وقال صلى الله عليه وسلم: "أنا من الله والمؤمنون مني" أي أنا من نور الله والمؤمنون من نوري، وهذا النور هو المعبر عنه بقوله عليه الصلاة والسلام "إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى، ومن أخطأ ضل" وهو الرحمة العامة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

وقد وجبت له النبوّة قبل أن يكون آدم في الماء والطين، والمعبر عنها بقوله صلى الله عليه وسلم "إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض، وأخّر تسعاً وتسعين، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة" ويروى "أن الله تعالى لما خلق آدم قال: يا ربّ لِمَ كنيتني أبا محمد؟ قال: ارفع رأسك، فرفعه فرأى نور محمد في سرادقات العرش، فقال: يا رب ما هذا النور؟ قال: هذا نور محمد نبي من ذريتك، اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمّد، ولولاه ما خلقتك ولا خلقت سماءً ولا أرضاً". ففي قوله: لولاه ما خلقتك إلى آخره إيماء إلى خروج جميع الموجودات منه وإشعار بانشقاق جميع الأسرار عنه، إذ لولا الأصل لما وجد الفرع، وبغير الواسطة لا يكون الموسوط، ولأنه لما تعلقت إرادته تعالى بإيجاد الخلق أبرز الحقيقة المحمدية من محض نوره المشار إليه بقوله: ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾، ثم سلخ منها العوالم كلها، علويها وسفليها على ما سبق في سابق إرادته، ثم أعلمه تعالى بنبوّته وبشّره برسالته. هذا وآدم لم يكن إلا كما قال "بين الروح والجسد". ثم انبجست عنه صلى الله عليه وسلم عيون الأرواح، فظهر في الملأ الأعلى أصلاً ممداً للعوالم كلها.

وبيان ذلك وتوضيحه: أنه لما كان تعالى كنْزاً مخفياً فأحب أن يُعْرَف، توجهت الذات إلى الأسماء والصفات، فاستوفزت بكمالها، وانتهضت لإظهار جمالها وجلالها، فأظهرت الذات الإلهية الذات النبوية، وأخلفت الأسماء والصفات الربانية الكرامات والكمالات الاصطفائية، فبرزت من ذلك الحقيقة المحمدية قبل وجود شيء من البرية كما جاءت بذلك الأخبار الصحيحة المروية، إذ أخبر صلى الله عليه وسلم "إن أول ما خلق الله درة بيضاء" الحديث، وتلك الدرّة هي العقل الذي أخبر به صلى الله عليه وسلم بقوله "أول ما خلق الله العقل" الحديث، وذلك هو نور محمد صلى الله عليه وسلم الذي أخبر عنه فيما رواه جابر رضي الله عنه قال "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول شيء خلقه الله تعالى، فقال: هو نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء، وحين خلقه أقامه قدامه في مقام القرب اثنتي عشرة ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام، فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزانة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثنتي عشرة ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام، فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة والنار من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحق اثنتي عشرة ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء، فخلق الملائكة من جزء، وخلق الشمس من قسم، وخلق القمر والكواكب من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الرجا اثنتي عشرة ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء، خلق العقل من جزء، والحلم والعلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء اثنتي عشرة ألف سنة، ثم نظر الله عز وجل إليه فترشح النور عرقاً، فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألفاً وأربعة آلاف قطرة من النور، فخلق الله سبحانه من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسهم نور الأولياء والشهداء والسعداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، فالعرش والكرسي من نوري، والكروبيون من نوري، والروحانيون من الملائكة من نوري، وملائكة السموات السبع من نوري، والجنة وما فيها من النعيم من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والشهداء والصالحون من نتائج نوري، ثم خلق الله اثني عشر حجاباً، فأقام الله نوري وهو الجزء الرابع في كل حجاب ألف سنة وهي مقامات العبودية، وهي حجاب الكرامة والسعادة والهيبة والرحمة والرأفة والعلم والحلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين، فعبد الله ذلك النور في كل حجاب ألف سنة. فلما خرج النور من الحجب ركبه الله في الأرض، فكان يضيء منه ما كان بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم، ثم خلق الله من الأرض آدم فركب

فيه النور في جبينه، ثم انتقل منه إلى شيث، وكان ينتقل من طاهر إلى طيب، ومن طيب إلى طاهر إلى أن أوصله إلى عبد الله بن عبد المطلب، ومنه إلى رحم أمي آمنة، ثم أخرجني إلى الدنيا، فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين، ورحمة للعالمين وقائد الغرّ المحجلين، هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر". هكذا نقل هذا الحديث، فقد روي في حديث ابن القطان "كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف سنة".

وروي في التشريفات عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم "سأل جبريلَ عليه السلام: كم عمرت من السنين؟ قال: والله لا أدري غير أن كوكباً في الحجاب الرابع يظهر في كل سبعين ألف سنة مرة، فرأيته اثنين وسبعين ألف مرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا جبريل وعزة ربي أنا ذلك الكوكب". فهذا وأشباهه لا يستحيل على قدرة العزيز الجليل، وقد تبين مما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كل العالم، وأن كل جزء من العالم مظهر له من حيث اتحاده وجزء منه وبعضه وغيره من حيث امتيازه وانفراده: إذ نوره الذي هو العقل أصل العالم كما ترى.

وبهذا تبين أن سائر الأسرار الشرعية والحقيقية والعرفية مشتقة منه صلى الله عليه وسلم، وبارزة من نوره المحمدي، فإذا صار هو عين الوجود ومظهر تجلي الواحد المعبود، ولذا إذا منح الله تعالى عبده المحبة والعرفان وجذبه إلى أعالي مقامات الإحسان وتجلى له بكمال الشهود لا يرى إلا الإله المقصود ورسوله الذي هو عين الوجود ويتحقق في مقام الفناء "كان الله ولا شيء معه" وهو الآن على ما عليه كان، ويكشف له في مقام البقاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ولم يكن معه شيء من الموجودات سوى ربّ الأرض والسموات، وهو صلى الله عليه وسلم الآن على ما عليه كان مخصوص بالتجلي الحقيقي من الله كما أنه مخصوص بالوجود في سائر الأزمان، وتنزّه بكمال استغنائه عن المكان والزمان، وصلّى الله على المخصوص بالتجلي الأعظم في سائر الأحيان، وسلّم على من اشتق منه سائر الذوات والألوان، وما أحسن ما قيل في هذا المعنى:

عين الوجود وواحد الموجود ... مجلى محاسن حضرة المعبود

وحقيقة الاسم الذي لصفاته ... خضعت رقاب أولي النهى بسجود

متوحد في كل فضل باهر ... وحيد فرد حقيقة التوحيد

كل الكمال عبارة عن خردل ... متفرّق في غيره المصمودي

شأن الإله وعين واحد ذاته ... المجتبى لصعوده لِسُعُود

خــل الملاحــة نــور ضــوء جبينهــا قــد عــمّ مــسبوق الفنــا لوجــود
ســعدت بــه الأكــوان طــرّاً إنمــا بالأصــل يــسعد فــرع كــل ســعيد
روح المعـــاني والأوانـــي جملـــة معنـــى الوجـــود وصـــورة المعبـــود
ذاك النبـــيّ الهاشـــمي محمـــد عبـــد الإلـــه خليفـــة المحمـــود

صلّى الله عليه وسلّم صلاة وسلاماً يليقان بجلاله وجماله وكماله.

فإن قلت: إذا كان جميع الموجودات منفصلة عنه، ومن ذلك النار والكفار والفجار ونحوها ويبعد أن تكون هذه الأشياء الخسيسة منفصلة من عين الكمالات ونور الجلالات، لكن بعد النقل لا تعويل على العقل، فما حكمة ذلك وما وجه انفصاله؟ فاعلم أنه سبحانه وتعالى لما كان منفرداً بذاته وموصوفاً بكثرة صفاته وأراد إحداث حادث محبوب، وشأن المحب أن يحب لمحبوبه ما يحب لنفسه كما يشير إليه قوله عليه الصلاة والسلام: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" أبرز الذات المحمدية مفردة من الذات الفردانية لتكون مَلْجأ لكل البرية، وخلع عليها من صفاته الكثيرة الإلهية كثرة الصفات الثبوتية ممداً لسائر الرعية، كما أن ذاته سبحانه ملجأ لسائر العالمين، وصفاته تعالى ممدّة لكل الخلق أجمعين، ولا يضرّ انفصال تلك الأشياء عنه صلى الله عليه وسلم، لأن ذلك من تكميل الله له، لأنها مظاهر الجلال، وغيرها مظاهر الجمال والجمع عين الكمال، والحمد لله ذي الإفضال والصلاة والسلام على النبي والآل.

(**وانفلقت الأنوار**) جمع نور، وهي حسية ومعنوية، فالحسية بجميع أنواعها منفلقة من نوره ومنفجرة من كمال بطونه وظهوره، وهي غير منحصرة لكثرة ما حوته الصورة، وقد مرّ بيان ذلك بما منح الله مما هنالك. وأما المعنوية، فما كان من الشريعة فظاهر، وما كان إلى الحقيقة فكذلك، إذ لا يحصل لأحد من الأنبياء والملائكة والعارفين من التجليات الإلهية والأنوار الربانية إلا وهي منفلقة منه وصادرة عنه.

وبيان ذلك أنه لما كان صلى الله عليه وسلم مخصوصاً بالتجلي الأعظم لما أنه روح سرّ العالم والمقصود من الوجود، كان تجلي الله له خاصة، وكان مهبط التجليات الإلهية، فكل عارف لا يحصل له من ذلك إلا ما ترشح من حماه وانفلق من نوره وبهاه ولا يمكنه السير إلى ما وراء ذلك، إذ هو ممنوع مما هنالك، لاختصاصه بسيد الوجود، لأنه حبيب الإله المعبود، وما سواه بالنظر إليه معدوم ومفقود، ولله درّ الشرف البوصيري حيث قال في همزيته:

أنت مصباحُ كل فضل فما ... تصدر إلا عن ضوئك الأضواء

وقال في بردته:

وكلهم من رسول الله مُلْتَمِسٌ ... غرفاً من البحر أو رَشفاً من الدِّيَمِ

وواقفون لديه عند حدّهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحِكَمِ

هذا، وإسناد الانشقاق إلى الأسرار والانفلاق إلى الأنوار حسن بديع عند ذوي الأبصار.

(وفيه ارتقتِ الحقائق) أي وفي ذاته وصفاته اعْتَلَتِ الحقائق وارتقت الدقائق، فكانت وراء طور نُهى الخلائق، لما أن استعداده لا يقاس، وإمداده قصر عن سمة سائر الناس، فحقائقه تترقى، ودقائقه تعالتْ لحوقاً وسبقاً، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (أوتيت جوامع الكلم وخواتمه)، وقال جبريل عليه السلام: (قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أرَ رجلاً أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم)، ورحم البوصيري حيث قال:

وانسُب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسُب إلى قدره ما شئت من عِظَمِ

فإن فضل رسول الله ليس له ... حدّ فيُعرب عنه ناطق بِفَمِ

(وتنَزَّلتْ علوم آدم) أي وفيه تنَزلت من عند الله علوم أسماء آدم، يعني حقائق العلوم التي علم آدم أسماءها الثابتة بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، وهذه العلوم هي علوم القرآن كما قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ قال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾، وفي الترمذي وغيره: (ستكون فتن، قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين)، ومن ثم قال الشافعي رضي الله عنه: (جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن) وقال أيضا: (جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو ما فهمه من القرآن). وقال آخر: ما من شيء في العالم إلا وهو فيه، فقيل له: فأين ذكر الخانات فيه؟ فقال: في قوله ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ فهنّ الخانات. وقال آخر: ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهمه الله تعالى حتى إن عمر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة استُنْبط من آخر سورة المنافقون لأنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبه بالتغابن لظهوره بفقده صلى الله عليه وسلم، وعن هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو ضاع عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى.

وقال بعض العارفين: علومه خمسة علماً وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحدّ ومطلع، ويضم لذلك اعتبار تركيب ما بينه من روابط، لكن هذا لا يحصيه إلا المتكلم به تعالى. وقال آخر: لم يحط بالقرآن إلا المتكلم به، ثم نبيه صلى الله عليه وسلم فيما عدا ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومن هنا قال عليّ رضي الله عنه: (ولو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب). ولذا قال بعض العارفين رحمه الله تعالى:

ألا إنه البحر المحيط وغيره من الكتب أنهار تمد من البحر

وجاء في الحديث المشهور: (فعلمتُ علوم الأولين والآخرين)، وروى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى يوم القيامة إلا حدّثه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابه هؤلاء، وإنه ليكون مني الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه) الحديث. وقال أبو ذر رضي الله عنه: (لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحرّك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علما). وقد قال العلماء المحققون: إنه تعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم علم الغيب كله، حتى الخمس المستثناة في آخر عمره صلى الله عليه وسلم، لكنه أمر بكتم البعض وإفشاء البعض، وشتان بين العلم بحقائق الأشياء وبين العلم بأسمائها، وبين إدراك المقصود وإدراك وسائله، ولكن كان هو المقصود، منح حقائق الوجود، وكان آدم هو الوسيلة، أوقف على الوسيلة، فسبحان من حكمته تبهر العقول، وأسرار عجائبه تطول، ولله در الشرف البوصيري في قوله:

لك ذات العلوم من عالم الغيب ومنها لآدم الأسماء

ومن هنا قال بعض المحققين: إنما أسجد الملائكة لآدم لأجل نور محمد صلى الله عليه وسلم الذي في جبينه، وهذا على أحد القولين في أن آدم عليه السلام إنما علم الأسماء فقط، وقيل علمها بحقائقها أيضا، وكلام الماتن محتمل الأمرين، والأول وارد عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعليه فقيل علم الأسماء الموضوعة بكل لغة وعلمها أولاده، فلما افترقوا في البلاد وكثروا اقتصر كل قوم على لغة، وهذا يقوي ما هو الأصح في الأصول أن اللغات كلها توقيفية. وقيل: إنما علم لغة واحدة، لأن الحاجة لم تدع إلا إليها، وأما بقية اللغات فبالوضع، وصح أنه كان يتكلم بكل لسان، ولكن الغالب أنه يتكلم بالسرياني.

والعلوم جمع علم، وهو هنا صفة ينجلي بها المذكور لمن قامت به انجلاءً تاماً، أو

الإدراك الجازم الذي لا يحتمل النقيض، وحدّ بحدود أخر كلها مدخولة، وترادفه المعرفة، لكن لا يقال لله عارف، لأنها تستدعي سبق جهل بخلاف العلم واليقين، لكن فرق بينهما بعض المحققين بأن اليقين خاص بما من شأنه أن يتطرق إليه شك، فلا يقال تيقنت أن الواحد نصف الاثنين. وقال الراغب: اليقين من صفة العلم، فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال: علم يقين، ولا يقال معرفة يقين، وهو سكون النفس مع ثبات الحكم حال كونها واصلة إليك على لسان الملَك أو بالإلقاء في الروع أو بخلق العلم الضروري أو بسماع الكلام النفسي، كذا في شرح الهمزية لابن حجر.

وآدم أبو البشر صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه، وأصله أءدم، لكنهم لينوا الثانية تخفيفاً وجعلوها في التصغير واواً لتلينها من الأدمة بالسكون أو بالفتح أو من أديم الأرض كما صح عن ابن عباس، وورد عن عليّ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنهم: أديم الأرض ظاهرُ وجهها، والأدمة السمرة، وهو مراد من قال: لون يقارب السواد، ومن قال: يشبه التراب. واستشكل كل بما ورد من براعة جماله، وأن يوسف صلى الله عليه وسلم كان على الثلث من جماله. وقد يجاب بأن الجمال لا ينافي السمرة لأنها بين البياض والحمرة، ثم قيل: اشتقاقه مما ذكر يؤيد القول بأنه عربيّ وبه صرّح الجواليقي وغيره. وردّ بأن توافق اللغتين غير منكر، وأنه لا دليل على أن الاشتقاق من خواص كلام العرب. وأجيب بأن الأصل عدم التوافق، وبأن الوجه أن الاشتقاق خاص بكلام العرب، فقد أطبقوا على التفرقة بين اللفظ العربي والعجمي بصحة الاشتقاق، كذا في شرح الهمزية أيضا.

(**فأعجز الخلائق**) بما حواه من الحقائق والعلوم والدقائق، وبما تحلّى به من الأنوار الربانية والدقائق التي يغرق في بحرها كل بحر مائج ورائق، بل لو حام حولها البحر المحيط لقال إني غارق، فسبحان من خصصه بما شاء من العلوم، وأعجز جميع خلقه بمنطوقه والمفهوم، ورحم الله العارف البوصيري حيث قال:

وتلقى من ربه كلمات ... كل علم في شمسهن هباء

زاخرات العلوم يغرق في ... قطراتها العالمون والحكماء

وتحدى فارتاب كل مريب ... أوَ يبقى مع السيول الغثاء؟

وكيف لا يعجز الخلائق عن كنهه، ولا خلقه ووصفه، وهو المتصف بسائر الكمالات، والمتحقق بأعالي المقامات، كما قال علي رضي الله عنه: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال: المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة بالله كنزي، والحزن رفيقي، والعلم

سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرّة عيني في الصلاة) وفي حديث آخر: (وثمرة فؤادي في ذكره، وغمي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربي عز وجل) صلى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم ومجّد وعظّم.

(وله تضاءلت الفهوم) أو ولأجل كماله وعظمته تصاغرت الفهوم، فلم تدرك شيئاً من حقيقته، وتحاقرت الإدراكات فلم تفهم شيئاً من كمال حاله وصفته، وكل من رام شيئا من ذلك رجع خاسئ الطرف عما هنالك، وكل قصد دون أنواره عاد معترفاً بعجزه واحتفاره، وكل من نوى شمّ تلك الرائحة الطيبة انحلت نياته وعزماته الصلبة، فالكل في بحر عجزه ونقصه غارق.

(فلم يدركه منا سابق ولا لاحق) وكيف يدرك من كان خلقه القرآن وذاته من نور ذات الرحمن، ومن له كل مراتب الإحسان، ومن هو الحبيب الأكرم، والمخصوص بالتجلي الأعظم. ومن هنا قال بعض العارفين رحمهم الله أجمعين: لو انكشفت حقيقته صلى الله عليه وسلم للخلق لارتدوا جميعاً، إذ من كانت صفاته صفات الرحمن وذاته من ذات نور المنان، وهو مدرك بالحواس والعيان، لا يختلف في معبوديته اثنان، ومن هنا اختلف الناس في الأديان لما ظهر لهم من تجليه تعالى في الجمادات والحيوان، ولكن سبحان الحنان المنان، الذي حفظ من شاء من عباده بالدليل والبرهان، وحجز من أحبّ باليقين والعيان، وإذا كان الأمر كذلك فليس إلى إدراكه من سبيل، بل ولا إلى شمّ رائحة السيد النبيل، ولكن غاية التحقيق والإدراك، أنه سيد المرسلين والأملاك، وما أحسن قول صاحب البردة رحمه الله تعالى:

أَعْيَى الورى فهْمُ معناهُ فليس يُرى ... للقُرْب والبُعْد فيه غير منفَحِم

كالشمس تظهر للعينين من بُعد ... صغيرةً وتكِل الطرفَ من أَمَم

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلّوا عنه بالحُلم

فمبلغ العِلْم فيه أنه بشرٌ ... وأنه خير خلق الله كلهم

ومن كان هذا شأنه وصفته، كيف يمكن وصفه ونعته؟ أم كيف يمدح حاله وذاته لما رأى بعض الأحبار سلطان العاشقين العارف بالله تعالى سيدي عمر ابن الفارض أمدنا الله بمدده الفائض فقال له: لِمَ ما مدحت النبي صلى الله عليه وسلم بالتصريح (وإلا فنظمه ليس إلا في الحضرة الإلهية والمكانة النبوية) فقال:

أرى كل مدح في النبي مقصّراً ... وإن بالغ المثني عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذي هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى

وقال ابن الخطيب الأندلسي:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على علياك نظم مديحي

وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً ... كان القصور قصار كل فصيح

فعلم بهذا أنه لو بالغ الأولون والآخرون في إحصاء مناقبه لعجزوا عن أقصى ما حباه به مولاه الكريم من مواهبه، ولكان المسلم لساحل بحرها مقصر عن حصر فخرها، ولقد صح لمحبيه أن ينشدوا:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وإنه لجدير بقول القائل:

فما بلغت يد امرئ متناول ... من المجد إلا والذي نال أطول

ولا بلغ المهدون في القول مدحه ... ولو حذقوا إلا الذي قيل فيه أفضلُ

وقال البدر الزركشي: ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء المتقدمين كأبي تمام والبحتري وابن الرومي مدحه صلى الله عليه وسلم، وكان مدحه عندهم من أصعب ما يحاولونه، فإن المعاني وإن جلتْ دون مرتبته، والأوصاف وإن كملت دون وصفه، وكل غُلوّ في حقه تقصير، فيضيق على البليغ النطاق فلا يبلغ إلا قُلّا من كُثر.

فإذا تقرر ذلك فاعلم أن من أعظم الواجبات على كل مكلف أن يتيقن أن كمالات نبينا صلى الله عليه وسلم لا تحصى، وأن أحواله وصفاته وشمائله لا تستقصى، وأن خصائصه ومعجزاته لم تجتمع ولا في مخلوق، وأن حقه على الكُمّل فضلاً عن غيرهم أعظم الحقوق، وأنه لا يقوم ببعض ذلك إلا من بذل وسعه في إجلاله وتوقيره، وإعظامه واستجلاء مناقبه ومآثره، وحكمه وأحكامه، وأن المادحين لجنابه العلي والواصفين لكماله الجلي لا يصلون إلى قُلّ من كُلّ، لا حَدَّ لنهايته وغيض من فيض الوصول إلى غايته، بل في الحقيقة لم يمدحوه بوصف إلا بحسب فهمهم ذلك- وجلت أوصافه صلى الله عليه وسلم أن تكون إلا مما وراء ذلك مما هنالك، فوصف العجز والتقصير عمّ الجليل والحقير، وهو حقيقة الإدراك والعرفان عند العارفين ذوي الشأن، ولذا قال أفضلهم على التحقيق سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك.

وإذا علمت انشقاق الأسرار منه صلى الله عليه وسلم وانفلاق الأنوار عنه، (ف) اعلم أن (رياض) بكسر الراء وفتح الياء جمع روضة، وهو المكان المعشوب المخضرّ

النفيس (الملكوت) كرهبوت عالم الغيب (بزَهر جماله) صلى الله عليه وسلم (مونِقَة) بكسر النون ويجوز الفتح: أي معجبة مفرحة، أو مأنوسة نفيسة على الفتح، وهذا كناية عن ظهور أسراره صلى الله عليه وسلم في عالم الملكوت كما في عالم الملك (وحياض) بكسر الحاء المهملة وفتح التحتية: جمع حوض (الجبروت) كملكوت عالم العظمة عند أبي طالب المكي، وعند الأكثرين العالم الوسط (بفيض أنواره) أي بكثرتها (متدفقة) أي متطفحة ومتصببة، وكل هذا كناية عن كون أنواره صلى الله عليه وسلم غامرة الوجود بأسره، وكل ذي عظم في الوجود إنما عظمه بظهور كماله وفخره، وبيان ذلك أنه إذا كشف عين الحقيقة بسبب اندماج كمال الطريقة رأى بعين البصيرة تحقيقاً ومشاهدة لا علماً ومعاينة أن أسراره صلى الله عليه وسلم متصلة بالوجود بأسره، وأنواره غامرة لفرعه وأصله.

(ولا شيء) منه (إلا وهو به) صلى الله عليه وسلم (منوط) أي معلق، لكونه ممداً للعوالم كلها، وروحُ علوها وسفلها، وواسطة بينها وبين ربها، فكل من ذواتها، وممد حياتها به منوط (إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط) بل لا يوجد الموسوط بدون ما به منوط، وفي قوله لنبيه آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام "لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماءً ولا أرضاً" أدل دليل بأنه الأصل في الإجمال والتفصيل، والواسطة حتى في النقير والفتيل، فسبحان من جعل ممدنا من ذلك النور العظيم وقوامنا بواسطة النبي الحبيب، فله الحمد على ذلك والثناء الفخيم، وعلى نبيه منه له به أفضل الصلاة والتسليم، وفي هذا المعنى قلت:

لولاك ما خلق الوجود بأسره	كلا ولا ملك بدا بشهود
لولاك ما ملكوت المشرق مبلجاً	كلا ولا جبروتهن شديد
لولاك ما لاهوت عظم شأنه	كلا ولا ظهر الصفات بجود
لولاك ما ذات الإله توحدت	كلا ولا شهدت لكل سعيد
لولاك ما غفرت لآدم زلة	كلا ولا نوح نجا بوحيد
لولاك ما رفعت ليونس رتبة	ولما نجا من حوته الموقود
لولاك ما نار الخليل تبردت	كلا ولا عرف الخليل حميد
لولاك ما موسى سمع لخطابه	كلا ولا آنس لنار شهود
لولاك ما صار ابن مريم روحه	ولما نطق في المهد بالتعبيد
لولاك ما كل النبيين ارتقوا	رتب المعالي وانثنوا بسعود

لــولاك مــا نــال الولايــة ذُو وَلا كــلا ولا فــضلٌ بــدا لوجــود
ســعدت بــك الأكــوان طــراً إنــما بالأصــل يــسعد فــرع كــل ســعيد
فــصلاة ربــي دائمــاً وســلامه يغــشاك يــا ذا الفــضل والتمجيــد
ويعــم فرعــك والجــود بأســره مــن غيــر مــا عــدّ ولا تحديــد

ولله درّ العارف البكري حيث قال:

مــا أرســل الرحــمن أو يرســل مــن رحمــة تــصعد أو تــنزل
فــي ملكــوت الله أو ملكــه مــن كــل مــا يختــص أو يــشمل
إلا وطــه المــصطفى عبــده نبــيه مختــاره المرســل
واســطة فيهــا وأهــل لــها يعلــم هــذا كــل مــن يعقــل

تنبيه:

العوالم أصناف: الأول عالم المُلْك: ما يشاهد بالبصر ويسمى عالم الناسوت. الثاني عالم الملكوت: ما يشاهد بالبصيرة ويسمى عالم الغيب وعالم القلب. الثالث عالم الجبروت: ما يشاهد بعين العظمة عند انكشافه، وهو عالم العظمة عند أبي طالب المكي، وعند الأكثرين العالم الوسط، ويسمى عالم الروح. الرابع عالم اللاهوت: ما يشاهد بالسر عند تجلّي الله له، ويسمى عالم السر. الخامس عالم الأمر: ما وجد عند الحق بلا سبب. وهذه العوالم كلها مستمدة من نوره، ومقتبسة من كمال بطونه وظهوره.

صلّ اللهم (صلاة تَليقُ) أي رحمة تناسب وتصلح (بك) أي بجناب عظمتك وعظيم سلطانك وكمال بِرِّك وامتنانك (منك) أي حالة كونها بارزة من ذاتك العلية وصفاتك الربانية (إليه) أي إلى حضرة صاحب الرسالة، وقطب دائرة الجلالة، ومقصودك من الوجود، والمخصوص منك بكمال الشهود، روح تجلياتك الذاتية، وعين مظاهر صفاتك الإلهية، والصلاة بهذه الكيفية، لا يعلم قدرها أحد من البرية، لعجزهم عن فهم تلك القضية، ومن هنا يظهر للحقير أن هذه الصلاة لا يوازيها شيء من الصلوات إلا ما جاءت به سنته أو ماثلتها في المعنى والصفات، ولذلك قلت:

يــا مــن يريــد أن يــصلّ علــى النبــي بــصلاة أبلــغ مــا يكــون بــمذهبي
تلك الـصلاة صـلاة ابـن مـشيش الـذي مــن نــسبه شــريف والــولادة مغربــي
ويفـوق عـن هـذه الـصلاة صـلاة مـن نــار الوجــود محمــد الهــادي النبــي

(كما هو أهله) أي كالذي هو أهله، يعني كما هو مستأهل له لكمال انكساره وتمام

افتقاره صلى الله عليه وسلم، وذلك موجب لتمام الرحمة والمنة كما يشير إليه قوله سبحانه "أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي"، وقوله صلى الله عليه وسلم (رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبرّه)، وقوله عليه الصلاة والسلام (وأول من يرد على حوضي فقراء المهاجرين)، وقوله صلى الله عليه وسلم (يدخل فقراء المهاجرين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم) وفي رواية (خمسمائة عام) وهي نصف يوم القيامة، وقوله عليه الصلاة والسلام (اللهم أحيني مسكيناً) الحديث، إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار وكلام العارفين الدال على أن كمال الافتقار موجب تمام الانجبار، بل هو نفسه من تمام الفضل، إذ هو وقوف على حقيقة العبودية التي هي أعلى أحوال العبد، ولذا لم يوصف صلى الله عليه وسلم في عالم المقامات إلا بها كقوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: 1] ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [الكهف: 1] إلى غير ذلك. ولذا قال سيدي ابن عطاء الله: (تحققْ بوصفك يمدك بأوصافه، تحققْ بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدُّك بقدرته، تحققْ بضعفك يمدُّك بحوله وقوته). وقال أيضا: (ورود الفاقات أعياد المريدين) وقال: الفاقات بسط المواهب، إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ﴾.

ويمكن شرح هذا المكان بغير هذا، ولكن هذا البيان المذكور هو الأصل عند الجمهور، إذ عليه كل ما سواه يدور.

(اللهم إنه سرك) الذي انفردت به من الوجود، وخصصته بكمال المحبة والشهود (الجامعُ) لجميع الفضائل والأسرار، والحاوي لسائر التجليات والأنوار (الدال عليك) بظاهره وباطنه وقلبه وقالبه، وذاته وصفاته، إذ هو صلى الله عليه وسلم أقوى الدلائل على الله، وأرجح البراهين على توحيد الله، إذ فيه صلى الله عليه وسلم من الآيات الباهرات ما لم يوجد في غيره منها مثقال حبة بل ولا مقدار جوهر فرد من رمل، بل في الحقيقة هو الدالُّ بعد مولى الموالي كما يدل عليه قوله سبحانه: (كنت كنْزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعْرَف فخلقتُ الخلق لأعرَف فبي عرفوني) وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضلّ) إذ المراد بالنور هو صلى الله عليه وسلم، ولأن أول مخلوق سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، ومنه انشقت العوالم كلها كما تقدم، وهل يكون لها دلالة إلا بما فيها من أنوار قطب الجلالة، فهو الدالُّ في الحقيقة على من له الشريعة

والطريقة، إذ أسراره صلى الله عليه وسلم سارية في الوجود، وهي الدالة على الإله المعبود، ولهذا المعنى قلت:

يا حاوياً سرّ الإله بأسره ... أنت الدليل على الجليل ووعده

وسواك ما هو في الدلالة آية ... إلا بإمدادك له وتبصره

صلى الله عليه وسلم (وحجابك الأعظم) من كل حجاب لك ظلماني ونوراني. إذ ورد (إن الله عز وجل دون سبعين ألف حجاب من نور وظلمة) وهو صلى الله عليه وسلم أعظم الحجب كلها، لأن كل حجاب سواه يمكن زواله للسالك وذهابه إلا هو صلى الله عليه وسلم، فإنه الحجاب الذي لا يمكن قطعه ولا إزالته، وعنده ينتهي سير كل نبيّ وولي، ولا يتعدون إلى ما وراء ذلك كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴾، وبيان ذلك وتوضيحه أن السالك الصادق إذا توجه بكمال السير، وفني عن السوى والغير انكشف له أنه صلى الله عليه وسلم قائم بين يدي الله، وأنه سبحانه متوجه إليه بالتجليات كلها لأنها مقصودة من الوجود، وما سواه فإنما تحصل له رشحات من ذلك تتميماً لفيض فضله، وتكميلاً لعموم رحمته، فكل من رام حقيقة التجليات انحجب عنها بسيد السادات، فهو الحجاب الأعظم الذي لا يمكن قطعه وهو رحمة من الله تعالى على عباده، لأنهم غير أهل لاستعداده، وكل ما فيهم من استعداد فإنما هو من الإمداد الحاصل لهم منه، والنور البارز لهم عنه، ومن هنا يظهر له في حال كمال الشهود أنه صلى الله عليه وسلم بمنزلة العالم السفلي، ومولاه بمنزلة العالم العلوي، وهذا تشبيه وتقريب، والأمر وراء ذلك، وفي الإشارة ما يغني عن العبارة، فجاهدْ تشاهدْ وجدّ تجدْ، ويفهم من هنا بعض صلاة السادة وهي: اللهم صل على سيدنا محمد عرش رحمانيتك المستوي عليها ذات ربوبيتك. فإن قلت: إذا قررت أنه صلى الله عليه وسلم أعظم الحجب، فما معنى قول العارف بالله تعالى سيدي محيي الدين بن عربي قدّس الله سره الوهبي:

السائرون إلى الله تعالى بعزائم الأمور المشروعة على قسمين: طائفة ربطت همّتها على أن الرسول إنما جاء منبهاً ومعلماً للطريق الموصلة إلى جناب الحق، فإذا أعطى المعلم ذلك زال عن الطريق وخلّة بينهم وبين الله تعالى، فهؤلاء إذا سارعوا وسابقوا إلى الخيرات لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق. والطائفة الأخرى جعلوا في نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إليه تعالى إلا والرسول هو الحاجب، فلا يشهدون أمراً إلا وقدم الرسول بين أيديهم، وهكذا. ثم

قال: والحالة الأولى هي عبد القادر وأبو السعود وابن سنبل ورابعة العدوية ومن جرى مجراهم. انتهى. وظاهره أنه قد ينقطع الحجاب بالكلية كما مشى عليه أهل الطريقة الأولى وترجيحها على الثانية لنسبته لها لكمل العارفين.

قلت: السائرون مختلفون في القوة والضعف، فمنهم من يسير ومظهر لهم تلك الفيوضات والتجليات من تلك الرشحات، ولم يزل دائما في ذلك، فيظن أنه قد قطع الحجب كلها، وإذا ما عرض له مظهر الرسول صلى الله عليه وسلم انحجب عن ذلك فيزيله في نفسه وينفيه، ويظن أن ذلك حجاب مانع، ومن هنا يفهم قول بعضهم بلا نبي بلا رسول ونحوه. ومنهم من يكون مضطرب الحال، فمرة تعتريه الحالة الأولى ومرة الثانية. ومنهم من يسير بهمة فيجوز تلك الفيوضات الحاصلة من الرشحات قاصداً أعلى المقامات، فينتهي إلى مقام يرى الرسول صلى الله عليه وسلم حاوياً وحاجباً لغيره عنه، فمن دنا إلى هذا المقام ليس كمن كان بعيداً عنه، إذ من كان حول الحمى يوشك أن يشم رائحته، ومن صار إلى الفناء قد يلْمَع الله له بارقته، وليس هذا في الحقيقة حجاباً مانعاً بل وصولاً يانعاً، فهذا هو الحق الذي لا شك فيه، والكشف الذي لا ريب يقربه، ولذلك قلت نظماً:

أأقنع بالبروق وأنت روحي	وأخيى بالوصال وأنت ذاك
ومقصودي من الدنيا هيام	ببذلي الروح وأهلك في حماك
فإن حماك يا مولاي هذا	حمى مولاك حقاً لا بقاك
ولو لي قدرة لأذبت قلبي	إذا هو قد رأى أحداً سواك
أيشهد رؤية الأغيار من قد	غدا محبوبه أبداً سواك
وأعطاك المظاهر والتجلي	وخصك بالمحبة واجتباك

وبهذا تبين لك أن الطريقة الثانية أعلى وأرجح، ولأنها طريقة أكابر العارفين منهم: العارف بالله تعالى السيد الشريف عبد السلام بن مشيش شيخ الأستاذ أبي الحسن الشاذلي الذي قال فيه القطب الحنفي: اطلعت على مقام الجيلاني والشاذلي فإذا مقام الشاذلي أرفع، رحمهم الله تعالى. ثم هذا القول من الشيخ ابن العربي الأليق حمله عليه اضطراب الحال وبحسب ما منح من الفيض والنوال قبل شهودي عالي درجات الكمال، فلا يلزم منه أن يكون الشيخ عبد القادر وغيره ممن ذكر هذا طريقة إلا على فهمه، إذ لا يمكن أن الشيخ ممن اختلف حاله، بل هو يقين عند من ظهر له كماله، فتأمل هذا الأمر إن كنت ذا بصيرة، ولا تنكشف حقيقة ذلك إلا لمن لوحظ بالعنايات

الكبيرة، ولم أذكر ذلك إلا لبيان منصبه العظيم وإظهار حق مقداره الجسيم، عليه من الله أكمل الصلاة والتسليم.

(القائم لك) أي الناصب لك ذاته وسرّه وروحه قاصداً تجليات ذاتك ومظاهر صفاتك، لأنها حياة ذاته وروح سرّ صفاته (بين يديك) أي في حضرتك لاستئناسه بك وقيامه بخدمتك، ولتلقيه التجليات التي لو برز منها ذرة لمن سواه من الوجود لمات.

(اللهم ألحقني بنسبه) صلى الله عليه وسلم، هذا دعاء من السيد رحمه الله تعالى بإلحاق نسبه به صلى الله عليه وسلم وتحقيقه وتأكيده، وإن كان هو كذلك ظاهراً، إذ لا يعلم الباطن إلا الله تعالى، أو دعاء نسبة خاصة تلحقه بأخص الخاصة، وكلا المعنيين يقصدهما كل قارئ لهذه الصلاة شريف النسب، وثانيهما فقط ينويه من ليس كذلك قاصداً أعلى الرتب كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم: (سلمان منا أهل البيت) وقوله عليه الصلاة والسلام في حقه السالف أربعة وعده منهم، وقوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله يحب من أصحابي أربعة) وذكره فيهم، وقوله صلى الله عليه وسلم إنه أحد الذين تشتاق إليهم الجنة، وسئل عن عليّ رضي الله عنه فقال "أدرك العلم الأول والآخر بحر لا ينزف"، وهذا النسب هو الأشرف والأكمل، وبه يتشرف سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وأهل بيته لأنهم معدنه وموطنه، وركنه تمام الافتقار وكمال الانكسار، كما أشار إليه سيد الأخيار بقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين) وقوله عليه الصلاة والسلام: (إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب العبد وأجلس كما يجلس العبد)، وحسبك من ذلك أنه خُيّر بين أن يكون نبياً ملِكاً أو نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً. ولهذا السرّ لما تفاخرت قريش عند سلمان رضي الله عنه قال: لكنني خلقتُ من نقطة قذرة، ثم أعود جيفة نتنة، ثم إلى الميزان، فإن ثقل ميزاني فأنا كريم، وإن خفّ فأنا لئيم. وقال أبو بكر رضي الله عنه: إياكم والفخر، وما فخر من خلق من التراب ثم إليه يعود ثم يأكله الدود؟ وقال علي رضي الله عنه: ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه. ولما دخل أويس القرني رحمه الله تعالى المزبلة يتقوّت بما يجد فيها من كسرة ونحوها إذ نَبَحه كلب فقال أويس: كُلْ مما يليك وأنا آكل مما يليني، إذا دخلت الجنة فأنا خير منك، وإن دخلت النار فأنت خير مني.

(وحققني بحسبه) لما دعا بالإلحاق بنسب الذات، طلب التحقق في المعنى والصفات، ليفوز بأعالي المقامات ويحوز راقي الكمالات، وهو الاتصاف بصفات سيد الأشراف، والتحقق بأخلاق ابن عبد مناف، التي هي أخلاق الرحمن، كما قالت عائشة

رضي الله عنها: (كان خُلقه القرآن)، والتي أمرنا بها ابن عبد الله، قال: (تخلَّقوا بأخلاق الله)، وهذا هو الشرف الذي شرف به على سائر الوجود، واجتباه به الإله المعبود، وجعله لأمته الطريقة الحسنة كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾، وجعل محبته سبحانه مترتبة عليه، واصطفاه فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، وحقيقته التطهر من الأخلاق النفسية، والتحلي بالنعوت الزكية، والتشوقُ بالأحوال الروحية إلى شهود رب البرية، ليحظى بالمرتبة العليّة المرموز بها في قوله سبحانه: "لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه"، والمشار إليها بقوله جلّ شأنه: "أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر" ولم يقيد ذلك بوقت آجل ولا عاجل.

فذو التحقق حظه عاجل وآجل، كما قال سيدي ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: جلّ ربنا أن يعامله العبد نقداً فيجازيه نسيئة. وقال أيضاً: كفى العاملين جزاءً ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إن أردت عزّ الدارين فادخل في طريقتنا يوماً أو يومين. ورأى شخص إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى وهو يرقع ثوبه، فقال له: ما عوّضك الله يا إبراهيم عن ملك بلخ؟ قال: شيء لا يصل إليه عقلك ولكن أظهر لك شيئا تفهمه، فرمى بإبرته إلى البحر ودعى الله أن يردها عليه، فإذا كل حوتة في فمها إبرة من ذهب، فقال: يا رب ما أردت إلا إبرتي، والتفت إلى ذلك الشخص وقال: هذا مما أعطاني الله مما تفهمه.

وما أحسن قول سيدي ابن عطاء الله في مناجاته: (إلهي ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك معدلاً، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان، أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان).

وإذا كان النعيم العظيم شهود ذاته، والخير الكبير في تجلّي صفاته، فأيّ جزاء يدانيه؟ وأي نعيم غيره يحاكيه؟ هيهات هيهات، ولهذا قال سيدي عمر ابن الفارض فيما حكاه سبطه في ترجمته لما مثلت له الجنة، فبكى وتغير لونه، وقال:

إن كانت منزلتي في الحب عندكم ... ما قد رأيت فقد ضيعتُ أيامي

قال سبطه: فقلت له: يا سيدي هذا مقام كريم، فقال: يا إبراهيم رابعة العدويّة وهي امرأة تقول: وعزّتك ما عبدتك رغبة في جنتك بل لمحبتك، وليس هذا ما قطعت عمري في السلوك إليه، فسمعت قائلا: ما تروم؟ قال:

أروم وقد طال المدى منك نظرة وكم من دماء دون مرماك طلتِ

وهذا التحقيق ينويه كل تالٍ لهذه الصلاة، إذ لا مانع من فضل الله، ولما دعى بالإلحاق بالنسب الذي هو بمرتبة الإسلام كما صرح بذلك سلمان رضي الله عنه بقوله: أنا ابن الإسلام، وطلب التحقق بالحسب الذي هو بمثابة الإيمان الكامل كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)، طلب مرتبة الإيقان لكي يصل إلى مقام الإحسان فقال: (وعَرِّفْني إياه) صلى الله عليه وسلم أي اكشفْ لي عن حقيقته (معرفة) أي كشفاً تاماً يوصل إلى يقين وعيان لا بحجة وبرهان، لكي (أسْلَمَ بها من موارد الجهل) الحاصلة من قصور العقل، والناشئة من عدم معرفة النقل (وأكرع) أي أشرب (بها) أي بتلك المعرفة التامة (من موارد الفضل) أي من محل واردات الفضل، وأجرع بها من بحار النقل.

(واحملني على سبيله) أي وسيرني على طريقه وسننه، بفيض فضلك وكمال مننه (إلى) لزوم ظهور صفتك ومراقبة شهود (حضرتك) التي لا كيف يصفها، ولا أين يشملها، بل هي المحيطة بجميع الكائنات، ومشهودة العارفين والعارفات، وهذا مقام الإحسان الذي هو نتيجة الإيقان المذكور في قول السيد الأوّاه: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه)، وهو أعلى المقامات، ويسمى المراقبة عبد الصوفية السادات، وبعضهم يسميه المشاهدة، ويظهر أنها ثمرته، وفي هذا المقام يحصل الفناء المرام الذي هو انتهاء سير السالكين الكرام، ويتحلّى بمقام العرفان الذي أشار إليه أبو يزيد رضي الله عنه بقوله: (العارف، على لسانه وصف الربوبية، وعلى أركانه خدمة الديمومية، وعلى نفسه أثر العبودية، وفي قلبه هيبة الفردانية، وفي سرّه طرب الإلهية، وفي روحه شعب الرّوحيّة).

(حَمْلاً) أي سيراً مزفوفاً بجذبتك (محفوفاً) بإمداد (نُصْرتك)، لا بعزمي وقوتي، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا قوي، وما أحسن قول ابن عطاء الله: (إلهي اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك).

ولما فرغ من طلب الفناء الناتج من دخول الحضرة تشوّق إلى طلب البقاء الذي هو مقام التربية والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: (واقذفْ) بكسر الذال المعجمة: أي ارم (بي على الباطل) هو ضد الحق، بقدرتك القاهرة لا بقدرتي الناخرة،

وتأثيرك الكبير لا بتأثيري الحقير، فإنك الفعال لا غير. وما أحسن قول ابن عطاء الله في مناجاته: (إلهي كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر) وقال أيضا: (إلهي حلمُك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يترُكا لذي مقال مقالاً، ولا لذي حال حالاً)، وكل هذا طلب للفناء في الأمور كلها ولو في حالة البقاء المشار إليه بقوله سبحانه وتعالى: "فبِي يَسْمَعُ وبِي يُبْصِر" إلى آخره، والموحى إليه بقوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾: ولذا قال بعضهم في وصف العارف له:

لذا الجمع فرق يستضيء به كالجمع في فرقه ما زال يلقيه

وهذا أعلى مراتب العرفان، ولا يحصل إلا بفيض فضل المنان، وإليه أشار سيدي ابن عطاء الله بقوله: (إلهي حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسالك أهل الجذب).

(**فأدمغه**) بفتح الميم، فعل مضارع منصوب في جواب الدعاء: أي أهشمه وأكسره وأدحضه (**وزُجَّ**) بضم الزاي وفتح الجيم المشددة أمر من الزج: وهو الرمي (**بي في بحار الأحدية**) أي حضرة ذاتك الصمدية، مع قطع النظر عن الأسماء والصفات الإلهية لأستأنس بشهود حضرة الذات، ولئلا يتفرّق جمعي بالنظر إلى الأسماء والصفات (**وانشُلني**) أي انزعني بسرعة من مهاوي التقليد، واخطفني بقوّة (**من أوحال التوحيد**) أي مزالقه التي لا يسلم منها إلا من سلمه الله، ولا يخلص منها إلا من نشله مولاه، ومن ذلك لما حصل لبعض العلماء الكبار النزع، وكان قد صوَّر ألف دليل على التوحيد وجاء الشيطان وردّ عليه تلك الدلائل كلها وقع في وحلة وحيرة، فسمع هاتفاً يقول له: "أحَدٌ أحدٌ".

ومنها ما حكي عن الفخر الرازي أن السلطان حَبَسه وعزم على قتله وما له شفيع عنده، قال: فطمعت أن أجمع همي على الله في أمري أن يخلصني لما انقطعت الأسباب وحصل اليأس من كل ما سواه فما خلص لي ذلك لما يرد عليَّ من الشبه النظرية في إثبات الله الذي ربطت معتقدي العامّة، ورميت من نفس نظري وأدلتي، ولم أجد في نفسي شبهة تقدح عندي فيه، وأخلصت إليه ودعوته، فما أصبحت إلا وفرّج الله عني، ولهذا الشأن قال الشيخ الإمام العارف بالله تعالى حجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله تعالى: معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله لا تحصل من علم الكلام بل يكاد يكون حجاباً ومانعاً، وقال أيضا: من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال، فاعرف الحق تعرف أهله.

وقال الشيخ محيي الدين بن العربي قدس الله سره: كل من آمن بدليل فلا وثوق بإيمانه لأنه نظري، فهو معرّض للقوادح، بخلاف الإيمان الضروري الذي يوجد في القلب ولا يمكن دفعه، وكل علم حصل من نظر وفكر لا يسلم من دخول الشبهة عليه ولا النظر فيه. وقال أيضا: من طلبه بالفكر وقوة العقل لم يحصل من المعرفة بالحق على طائل، كيف يطلب من يقبل المثيل والنظير من لا مثيل له ولا نظير؟ ولذا قال عليّ رضي الله عنه:

كيفيّة المرء ليس المرء يدركها	فكيف كيفية الجبار ذي القدم
هو الذي أنشأ الأشياء مبتدعاً	فكيف يدركه مستحدَث النَّسم

وقال أيضا: كل ما يتصور في الأوهام فالله بخلافه. وعنه أيضا: إن العقل لإقامة رسم العبودية لا لإدراك الربوبية. وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم). فإذا كان كذلك، فالاشتغال بكثرته باطل وحرام إلا لضرورة تدعو إلى ذلك. قال في الإحياء: وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف. قال ابن عبد الأعلى: سمعت الشافعي في يوم ناظر حفصاً القرد، وكان من متكلمي المعتزلة، يقول: لأن يلقى الله عز وجل بكل ذنب ما خلا الشرك، خيرٌ له من أن يلقاه بشيء من الكلام، ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه. وقال أيضا: قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خيرٌ له من أن ينظر في علم الكلام. وحكى الكرابيسي أن الشافعي رحمه الله سئل عن شيء من الكلام، فغضب وقال: سَلْ عنه هذا: أي حفصاً القرد أو أصحابه أخزاهم الله. وقال أيضا: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفرّوا منه فرارهم من الأسد. وقال أيضا: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى أو غير المسمى، فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له. وقال الزعفراني: قال الشافعي رحمه الله: حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام.

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: لا يفلح صاحب كلام أبدا، ولا تكاد ترى أحداً ينظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل. وبالغ فيه حتى هجر الحارث المحاسبي رحمه الله مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة وقال: ويحك ألست تحكي بدعتهم أؤلاً ثم ترد عليهم؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات، فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث؟ ولهذا قال السري خال الجنيد

وشيخه رحمهم الله: إذا قمتَ من عندي فمن تجالس؟ قلت: المحاسبي، قال: نعم خُذْ من علمه وأدبه ودعْ عنك تشقيقه في الكلام ورده على المتكلمين، مع أنه كان لا يتكلم في الكلام إلا وأصحابه يسمعون كأنما على رؤوسهم الطير، ومنهم من يبكي، ومنهم من يصفق لأحوال تعتريهم.

وقال في الإحياء: المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين على عيوب النفس وآفات الأعمال وأعوار العبادات. وقال أحمد أيضا: علماء الكلام زنادقة. وقال مالك: رأيت أن جاءه ما هو أجلل عنده، أبدع دينه، كل يوم له دين جديد. وقال أيضا: لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء. قال بعض أصحابه في تأويله: أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أيّ مذهب كانوا. وقال أبو يوسف: من طلب العلم بالكلام تزندق. وقال أيضا: لا تجوز الصلاة خلف المتكلم. وقال الحسن: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم. وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه، وقالوا: ما سكتوا عنه مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه مِنَ الشر. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (هلك المتنطعون هلك المتنطعون) أي المتعمقون في البحث والاستقصاء.

وبهذا تبين أن الاشتغال به داء كبير، بل به ضلَّ الكثير، إذ هو من أوحال التوحيد، ولذا كان الإمام المستقيم الرشيد أبو بكر الشاشي رحمه الله يعيب على أهل الكلام كثرة خوضهم فيه تعالى وفي ذكر صفاته إجلالاً لاسمه تعالى ولذاته، ويقول هؤلاء يتمندلون بالله عز وجل.

وما أحسن قول سيدي ابن عطاء الله رحمه الله تعالى في مناجاته: (إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ يا عجباً كيف يظهر الوجود بالعدم؟ أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟). هيهات هيهات، ليس ذاك إلا بالنفحات، هيهات هيهات ما ذاك إلا بالجذبات، هيهات هيهات أصل ذلك العنايات.

(وأغرِقْني في عين بحر الوحدة) المطلقة عن الإطلاق الظاهرة في سائر الأقطار والآفاق، التي هي عين ما يكون وما كان، الثابتة بـ "كان الله ولا شيء معه" "وهو الآن على ما عليه كان"، وحقيقتها وحدة ذاته بكثرة صفاته مع عدم شيء من مخلوقاته بالنظر إلى جلال ذاته وكمال صفاته ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ شاهدة بعدم وجود شيء من

الأكوان، ودوام ذي الجلال والإكرام على ما عليه كان، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أدلُّ دليل على أنه لم يكن معه شيء، ولقد قال صلى الله عليه وسلم: أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

ولله در القائل:

الله قُلْ وذر الوجود وما حوى ... إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

فالكل دون الله إن حققته ... عدمٌ على التفصيل والإجمال

واعلم بأنك والعوالم كلها ... لولاه في محو وفي اضمحلال

فالعارفون فنوا ولما يشهدوا ... شيئاً سوى المتكبر المتعال

ورَأوا سواه على الحقيقة هالكاً ... في الحال والماضي والاستقبال

ولذا قيل:

مُذْ عرفتُ الإله لم أعرف غيراً ... وكذا الغير عندنا ممنوع

وهذه الوحدة تسمى وحدة الوجود والوحدة المطلقة، وهي التي بسببها كفَّر كثير من أكابر العلماء بعض العارفين الأولياء العظماء كالشيخ ابن عربي وطائفته والعارف عبد الكريم الجيلي والعفيف التلمساني ومن جرى مجراهم، وذلك لعدم فهمهم معناها مع اعتقادهم لحقيقة مبناها، لأن كل واحد في الوجود يعتقد أن الوجود الحقيقي لله وما سواه فإنه مجازي وخيال وباطل بالنسبة إلى وجوده تعالى، لكن ناس من ذلك اكتفوا بالاعتقاد، وآخرون انتقدوا ذلك كمال الانتقاد، فشمروا في طلبه وطلبوا لسببه، فرأوا سببه "كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان"، فلما تأملوا في السبب، هاموا في الطلب، فلما رآهم المالك، كشف لهم حقيقة ذلك، لصدقهم في طلبه، وشغفهم في طلبه، فتجلّى لهم في سائر الوجود، فظهر أن لا وجود إلا الإله المعبود، فتحققوا بمقام الفناء وصار كل منهم يقول أنا وليس في الحقيقة لأنه من جملة من فناه الخالق، ولكن لسان الحقيقة الربانية نطق بتلك القضية الأنانية، فتنبه يا حيران، وافهم كلام أهل العرفان، وما أحسن كلام أبي علي الروذباري رحمه الله:

إن الحقيقة غير ما يتوهم ... فانظر لنفسك أي حال تعزم

أتكون في القوم الذين تأخروا ... عن حقهم أو في الذين تقدموا

لا تخدعنْ فتلوم نفسك حين لا ... يجدي إليك تأسف وتقدُّمْ

ولقد صدق بعض العارفين حيث قال:

الطرق شتى وطريق الحق مفردة … والسالكون طريق الحق أفراد

لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم … فهم على مهل يمشون قصاد

والناس في غفلة عما يراد بهم … فجلهم عن سبيل الحق رقاد

وبهذا التحقيق، تبين لك أن لا خلاف بين الفريق، ولكن ما تنكشف حقيقة ذلك إلا لمن فني عن شهود الكونين وأذهب ذاته من البين، فحينئذ يبرز له نور الحقيقة باتباع الطريقة، ويشهده سبحانه ظاهراً مرتقباً، وبكمال ظهوره محتجباً، كما قال العارف السودي رحمه الله:

بالظهور الصرف حجب محتجب … إنه قد صح هذا في الخبر

أنت فيهم ظاهر وبهم … ولهم لو أبقى الأثر

لو تلاشت عنهم ظلم … وانمحوا عن عالم الصور

شاهدوا معناك منبسطاً … سارياً في سائر الفطر

ورأوا أن الحجاب هم … عن شهود المنظر النضر

وقضى يعقوب حاجته … وانتهى زيد إلى الوطر

وما أعظم قول العارف سيدي ابن عطاء الله في حكمه: (ما حجبك وجود موجود معه، ولكن حجبك عنه توهم وجود شيء معه، لولا ظهوره في المكونات ما وقع عليها وجوه أبصار) وقال أيضا: (مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟ وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟ وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟ وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟ يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم؟ أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟) وقال أيضا: (من عرف الحق شهده في كل شيء) وقال أيضا: (الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف وسحب الآثار).

وقال الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب تلاوة القرآن من الإحياء: أما أفعاله فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالي منها صفات الله وجلاله، إذ الفعل يدل على الفاعل، فتدل عظمته على عظمته، فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء، فهو منه وإليه، وبه وله، فهو الكل على التحقيق، ومن لم يره في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله

باطل، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، لا أنه سيبطل في ثاني الحال، بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله وبقدرته، فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض، وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شيئاً من الشرك الخفي، بل التوحيد الخالص أن لا يرى في كل شيء إلا الله عز وجل، انتهى كلام الغزالي. ومن هنا قال سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله تعالى:

تجلّى لي المحبوب في كل وجهتي ... فشاهدته في كل معنى وصورة

وقال أبو الحسن الششتري رحمه الله تعالى:

كشف المحبوب عن قلبي الغطا ... وتجلّى جهرة مني إلَيّ
وجلا عني حجاباً كثُّه ... وتلاشى الكون يا صاحي لديّ
أيّ سرّ ما بدا إلا لمن ... قد طوى العقل مع الكونين طيّ
ورأى الأشياء شيئاً واحداً ... بل رأى الواحدَ فرْداً دون شي

وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ دليل ممن هو من أهل الله، وإذا كان لا وجود إلا وجوده ولا فعال سواه لم تكن حقيقة الاستعاذة إلا منه كما قال صلى الله عليه وسلم: (وأعوذ بك منك)، ولم يحصل الإمداد للاستعداد إلا عنه كما قال سبحانه: "كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به" إلى آخر الحديث. ولذا قال المصنف رحمه الله:

(**حتى لا أرَى**) شيئاً من الموجودات (**ولا أسمع**) أمراً من الكائنات (**ولا أجِد**) حالة من الحالات (**ولا أُحِسّ**) بوارد من الواردات (**إلا بها**) أي بوحدة ذاتك وصفاتك السارية في سائر مخلوقاتك، والغامرة لجميع موجوداتك، والفاعلة لسائر سكناتك وحركاتك، فما في الوجود سواها، ولا نعبد إلا إياها، بل لا نقصد إلا إياها، بل لا نشهد إلا إياها، وكل أحد من الوجود في بحر ذاتها مفقود، وبعين وجودها موجود، لكن لا يشهد حقيقة ذلك إلا العارفون، ولا يتشرّف بمرآها إلا المحبون. وما أحسن قول القائل:

إذا ظهر العبد من كونه ... يكون الإله هو الناطق
كمثل المصلّي إذا قام من ... ركوع الصلاة هو الصادق
ينوب عن الحق في نطقه ... فليس يقوم به عائق
فكل كلام له صادق ... وكل شراب له رائق

ولله در العارف بالله تعالى أبي الحسن النوري حيث قال: إن لله عباداً يغدون بالله ويروحون بالله وينطقون بالله ويحيون بالله ويموتون بالله، ويرجعون في كل أمر إليه ويتوكلون عليه، ويبقون بجميل نظره إليهم. ومن هذا البيان يفهم قول العارف بالله تعالى سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه: لي أربعون سنة أكلم الناس والناس يظنون أني أكلمهم، ونحوه. إذ من كان لا يرى إلا مولاه كيف يمكنه كلام أحد سواه؟ بل لو كان في تمام فناه، قال: أنا المتكلم الله، إذ عند اضمحلال الوجود لم يكن الناطق إلا الله المعبود، وكما يشير به قوله: "فبي ينطق" ويوضحه قوله: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾، وكل هذه إشارات يعرفها أربابها، وبصحبتهم ينكشف نقابها، فاقصد الله وتمسك بأهل الله إن أردت الوصول إليه ومعرفة مكاناتهم لديه، ومن كان لا يرى ولا يسمع ولا يجد ولا يحس إلا بالله ماذا يريد بعده وماذا ينكر عليه أفعاله؟ إذ أفعاله أفعاله سبحانه وصفاته صفاته، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل، وما رميت إذ رميت ولكن نحن الرامون في الحقيقة، إنك ما هديت من هديته ولكن نحن الهادون للطريقة ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ ﴾، ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾، وفي قوله ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ أظهر آية لمن يبصرون.

وحيث كان السير لا ينقطع أبد الآباد، والسلوك دائماً إلى يوم التناد، والترقي سرمداً في ازدياد، كما قال شيخ الشيوخ العارف السهروردي رحمه الله تعالى في عوارفه: (أهل الجنة لا يزالون أبد الآباد في الترقي لعدم انتهاء مطلوبهم)، وكما صلّى عليه الصلاة والسلام حتى تورّمتْ قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: فداك أبي وأمي أما نزلتْ في حقك: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً) طلب سيراً أرقى من السير السابق، ليسعد به على كمال شهود الفرد الخالق، فقال بلسانه المحكم، مطابقاً لجنانه المغرم.

(واجعل) اللهم (الحجاب الأعظم) قد مرّ بيانه وتبيانه أنه الرسول الذي عظم شأنه صلى الله عليه وسلم من تعالى جده وسلطانه (حياةَ روحي) الروحانية لتترقى من محبتها الذاتية وتتحلّى بشوق خير البرية (وروحه) صلى الله عليه وسلم (سِرّ حقيقتي) أي لبّ حقيقتي النورانية لتكمل أنوارها وتغمر بمحبته روحه بحارها (وحقيقته) عليه الصلاة والسلام أي أسراره (جامعَ عوالمي) أي حاوي أسراري وأنواري كي لا تهيم روحي في محبة خالقها إلا بشوقه، ولا تنير حقيقتي إلا بغرام روحه، ولا يصير جامع

عوالمي إلا حقيقته ذاته، وإذا أذهب عينه من البين لم يبق إلا استعداد حائز الشرفين وسيد الكونين صلى الله عليه وسلم وشرّف وكرم ومجد وعظم، وهذا مقام الفناء في الرسول الموصل إلى كمال الوصول.

فإن قيل: كيف يطلب الشيخ الفناء في الله بقوله: وأغرقني في عين بحر الوحدة إلى آخره، ثم يؤخر طلب الفناء في الرسول صلى الله عليه وسلم، مع أن عادة الله في أوليائه جارية بعكس هذا؟ قلت: هذا لا يصح إيراده لمن له ذوق عظيم وفهم مستقيم، لأن كلام الشيخ من أول الصلاة فناء فيه صلى الله عليه وسلم، يعرف ذلك من كان من أربابه وقد تخلّى من حجابه، وليس هذا إلا فناءً خاصاً يرقيه إلى مرتبة خاصة يشير إليها قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)، وقد جاءنا بثلاثة أشياء يفترض علينا محبتها ولزومها:

الأول ذاته الشريفة، وقد بالغ في محبتها وجعل حياة روحه التي بها ذكر.

الثاني صفاته المنيفة، وقد أشار إلى محبتها بقوله: وروحه سر حقيقتي.

الثالث ما نبأنا به عن الله، وهو شامل للكل وقد أومأ إليه بقوله: وحقيقته جامع عوالمي، فإذاً لا ذات له ولا صفة فضلاً عن هوى، وهذه الرتبة هي الاستقامة التي ما فوقها كرامة كما قال بعض العارفين رحمهم الله أجمعين: ذرة استقامة خيرٌ من ألف كرامة. وما من أحد من العارفين إلا ويطلبها أبداً من الله حالاً ومقالاً، يعرف ذلك من منحه الله بما هنالك. قال ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: (مطلب العارفين من الله تعالى الصدقُ في العبودية والقيام بحق الربوبية).

(بتحقيق الحق الأول) أي مع تحقيق عنايتك السابقة ودوام إمداداتك المتلاحقة لتكون الآخرة الخاتمة على وفق العناية الدائمة.

ولما كان مطلوبه أعلى المطالب ومآربه أسنى المآرب زاد ولحَّ في الدعاء بقوله:

(يا أول) ولا وليَ معه وبلا أولية (يا آخر) ولا شيء معه ولا آخرية (يا ظاهر) ولا لغيرك ظهور (يا باطن) في الخفية والظهور (اسمع ندائي) في حالتَي بقائي وفنائي (بما سمعت به نداء عبدك زكرياء) بالسمع الخاص مجيباً بكن من أهل الخواص، فإني كسير وحيد فريد، وبافتقاري وعجزي حاضر عتيد، وذلك دأب الداعين الصادقين كما قال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾، واختار السيد رحمه الله تعالى أن يكون سمع دعاءه عين سمع نداء السيد زكرياء صلى الله على نبينا وعليه وسلم لما في النداءين من

التشبيه في كمال الانكسار الموجب تمام الانجبار، ولأن العارف من يشهد أن لا شيء في الوجود ينفع ويضر إلا الله المعبود، بل ولا يرى في حال الشهود إلا من هو عين الوجود، وحينئذ يبقى وحيداً فريداً لا ولد له ولا وليداً، فيطلب صديقاً وارثاً وليس له دون الله حبيباً ولا وارثاً، فكأنه بسائر أدعيته يطلب أن يرثه المولى بكليته إذ هو خير الوارثين ذات العارفين لا سيما المحبين الصادقين، سبحان من وهب الكل ملكاً بالتفضل ثم ورثه.

ولما كان المقصود دوام الشهود، وكان شأن القلب التقلب واختلاف التطلب طلب الإمداد بالنصرة والتأييد بذات مولاه العزيز الحميد فقال:

(وانصرني) على تقلب قلبي (بك) أي بذاتك الربانية، وصفاتك الإمدادية لكي أكون لك (لك) عبداً وقاصداً، ولشهود ذاتك حاضراً مراصداً (وأيدني بك) أعني بذاتك الصمدية لا بذات غيرك العجزية وبنعوت ذاتك القوية، لا بنعت سائر البرية حتى أدوم (لك) مشاهداً، وفي خدمتك جاهداً، وكل هذا طلب للجذب مع التحقق بمقام القرب الذي أفصح عنه ابن عطاء الله بقوله: (إلهي حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسالك أهل الجذب).

ولما كان المراد من الجذب المطلوب جمع القلوب بالحبيب المحبوب، ونفي ما سواه من ساحات القلوب قال (واجمع بيني وبينك) أي بين ذاتك الربانية وبين ذاتي العبديّة لتكمل إضافتي الشريفة بالاتصال بإضافتها المنيفة كما قلت:

كفى شرفاً أني مضاف إليكم ... فجودوا بوصل دائم بدوامكم
ليكمل تشريفي وتعظم رتبتي ... وأحظى بمقصودي وأحسب عليكم

وليتمّ المقصود بالنظر إلى جمال المعبود، ولتكون ذاتي في المزيد، وكل آنٍ يمر فرحٌ وعيد، كما قيل:

إن يوماً جامعاً شملي بكم ... ذاك عيد ليس لي عيد سواه

وما قيل:

أرى موسم الأعياد أنس الأجانب ... وما العيد عندي غير قرب الحبايب

وروى الشبلي رحمه الله تعالى أنه كان خارج مسجد يوم عيد وهو يقول:

إذا ما كنت لي عيداً ... فما أصنَعُ بالعيد

وكيف لا يطلب الجمع المراد، وهو روح الحياة أهل الوداد. ولله در العارف بالله

تعالى يحيى السهروردي حيث قال:

أبـــداً تَحِـــنُّ إلـــيكم الأرواحُ ووصـــالكم ريحانـــها والـــراح
وقلـــوب أهـــل ودادكـــم مـــشتاقةٌ وإلـــى لذيـــذ وصـــالكم ترتـــاح
وارحمـــة للعالـــمين تكلفـــوا ســـتر الـــمحبة والهـــوى فـــضّاحُ

وقال أبو علي الروذباري رحمه الله تعالى:

روحـــي إليـــك بكلهـــا قـــد أجمعـــت لـــو أن فيـــك هلاكهـــا مـــا أقلعـــت
تبكـــي إليـــك بكلهـــا عـــن كلهـــا حتـــى يقـــال مـــن البكـــاء تقطعـــت
فـــانظر إليهـــا نظـــرة فلطالـــما أســـمعتها مـــن نغمـــة فتمتعـــت

وقال بعضهم:

يـــا عذولـــي ســـلم إليـــك قيـــادي ثـــم دَعْنِـــي فمـــا عليـــك رشـــادي
حبـــه راحتـــي وروح حياتـــي وكـــذا ذكـــره بلاغـــي وزادي
وإذا مـــا مرضـــت فهـــو طبيبـــي كلمـــا عادنـــي بلغـــت مـــرادي
ومتـــى مـــا ضـــللت أو ضـــلّ ركـــب عـــن حمـــاه فوجهـــه لـــي هـــادي
يـــا عذولـــي فكـــن عليـــه عـــذيري أو فقـــل لـــي مـــا حيلتـــي واجتهـــادي
إن تلمنـــي أو لا تلمنـــي فإنـــي حبـــه مذهبـــي وأصـــل اعتقـــادي

ولأجل هذا الشأن قال بعضهم:

فمـــا مقـــصودهم جنـــات عـــدن ولا الحـــور الحـــسان ولا الخيامـــا
ســـوى نظـــر الجليـــل فـــذا مناهـــم وهـــذا مطلـــب القـــوم الكرامـــا

واعلم أن الجمع بالله تعالى عبارة عن شهود تجلياته الذاتية مع عدم شهود شيء من البرية مع تنزيه الذات والصفات عن كل ما يجري في الأوهام والإشارات، ولا يحصل ذلك إلا لمن خطفته الجذبات الإلهية بما سبق له من العنايات الربانية، وقد جعل الله لذلك سبباً ظاهراً وهو المجاهدة المعبر عنها باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً في الأفعال والأقوال والأحوال كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ وقال جل شأنه: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾، وقال سيد الطائفة الجنيد محمد رضي الله عنه: الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال أبو حمزة البغدادي رحمه الله تعالى: من علم طريق الحق

سهل الله له سلوكه، ولا أدل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله. وما أحسن ما قيل: جاهِدْ تشاهدْ وجِدَّ تَجِدْ.

ولما طلب الجمع توجه إلى طلب المانع مما يكدر صفاه فقال: (**وحُلْ بيني وبين غيرك**) أي كن أنت حائلاً بيني وبين من سواك حتى لا أشهد ولا أرى إلا إياك، فإنك المطلوب المرام، وما سواك باطل وحرام، كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت سطرها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وما قيل:

ولو خطرت لي في سواك إرادة ... على خاطري سهواً قضيتُ بردتي

وقال سيدي العاشق لله عبد الهادي السودي رحمه الله:

لغير جمالكم نظري حرام ... وغير كلامكم عندي كلام

وعُمر النسر عندي بعض يوم ... وساعة غيركم عام فعام

وصبري عنكم شيء محال ... وإن غبتم دنا مني الحِمام

أوَدُّ بأن أكون لكم نزيلا ... وتنصب لي بربعكم خيام

وقال بعضهم:

لا بلغ الله عيني طيب رؤيتكم ... إن طاب للسمع يوماً غير ذكركم

إن مت في حبكم يوماً فيا شرفي ... ويا سروري بموتي فيكم بكم

وإن نويت اصطباري عن محبتكم ... عدمت جمع مسرّاتي بأنسكم

نسيت كل طريق كنت أعرفها ... إلا طريقاً تؤديني لربعكم

وقال آخر:

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بحبك يا ديني ودنيائي

ويقول الفقير هذه الأبيات تفاؤلاً في أثرهم وثراهم وأن يمنح مما منحهم به محبوبهم ومولاهم:

كل شيء غيركم لهو السراب ... أنتم المطلوب بدءاً والمآب

لو ثنى قلبي لميحاً عنكم ... ما شمّ روحاً ولا ذاق المطاب

مـــا لـــجنان الـــخلد إلا بكـــم حـــازت الراحـــات والأنـــس العبـــاب

ولهـذا الـشأن قـال سـلطان العـارفين أبـو يزيـد رضـي الله عنـه: (إن لله عبـاداً لـو حجبهم الله في الجنة عن رؤيته استغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار). وقال أيضا: (لله عباد لو حجبهم عنه طرفة عين ثم أعطوا الجنان ما قبلوا)، وقال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رحمه الله تعالى: (الغفلة عن الله أشد من دخول النار)، وقال بعضهم: لو حجب عني طرفة عين لتقطعت من ألم البين، أو لما عددت نفسي من المسلمين.

واعلم أن قصد العارفين والمحبين شهود المحبوب في كل الأنفاس والأحوال، فمتى ما انثنى قصدهم عن ذلك إلى غيره ولو إلى أعلى الطاعات والقربات عدوا ذلك من عظيم السيئات، ومن هنا يفهم قول العارف بالله تعالى عمر بن الفارض أمدّه الله بمدده الفائض: (لو خطرتْ لي في سواك) البيت السابق إذ من كان قصده شهود محبوبه في سائر أنفاسه، وهو الغرض الذي ما وراءه غرض. بل هو حقيقة التوحيد عند العارفين أولي التفريد، كما قال بعضهم: المُوحِّد هو الذي لا يرى إلا الواحد الحق، ولا يتوجه ببصيرته إلا إليه، وإذا كان كذلك فشهود كل ما سواه وخطوره بالبال شرك خفي عند العارفين أولي الكمال وذلك ردة في حقهم، إذ سيئاتهم بقدر حالهم لا بالنظر إلى موجب الشريعة، وليست هذه الردة كفراً عندهم بل من كبائر تقتضيها مقاماتهم.

وها هنا أسرار لا تفشى، والأدب السكوت، ولذلك قال الشبلي لتلميذه الخضري رحمهما الله تعالى: إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله لا تعدْ تأتنا، وكان يأتيه في كل أسبوع مرة. وقال بعض العارفين رضي الله عنهم: وتداوم على قراءة القرآن من حيث هو كلام الله لا من حيث التفكر وبمدلولاته من الأكوان كالجنة والنار والعقاب والحساب وغير ذلك، حتى إن بعض السلف رضي الله عنهم قال: إني ليعتريني الوسواس في الصلاة، قيل له: كيف ذلك؟ قال: أكون في الصلاة فأذكر مقامي بين يدي ربي.

وقالت رابعة العدوية رحمها الله: (استغفارنا يحتاج إلى استغفار). إذ طلب المغفرة بالنسبة إلى الشهود معصية، لأنه من باب شهود الأغيار، وذاك من معاصي العارفين الأخيار يحتاج إلى استغفار، فصاحب شهود الغفار يكون القصد فيه أولاً شهود الله الواحد القهار، ثم طلب نحو ما تقدم من شهود رؤية الأغيار. وهذا لكونها أضافت

الاستغفار إلى نفسها لكونها من العارفين. أما إن نزّلت نفسها منْزلة العوام للانكسار وإظهار الافتقار فذاك أمر جلي ظاهر بديهي لذوي الأبصار.

وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: (التوبة فرض على العبد في كل نفَس)، وهو قول حق لا يعرف معناه إلا الكُمّل من عباد الله، ومن أراد الله له السعادة بشهوده في سائر الأنفاس. ويستأنس له بما ورد في سنن أبي داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (إن كنّا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة: رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم)، قال الترمذي حديث صحيح. هذا من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم الميسر للأمور، والمبين لنا ما نفتقر إليه على مرّ الدهور، المطهر من جميع الأوزار، المنتخب من سائر الأخيار، الذي هو روح التجليات، فكيف بغيره ممن لم يمنح ذرة من تلك الأنوار وفي الحقيقة ليس هو. أفلا يتوب من جميع الذنوب التي هي شهود الأغيار المكدرة صفاء مشاهدة الستار، ولو كانت من أعظم طاعات الأبرار والأخيار، إذ كل ما سواه فان، وهو الذي ليس له ثان، ومن كان مطلبه شهود السلطان، هل يشتغل بشهود الأخدان، ولذا قال بعضهم:

إذا كنت في وقت عن الحق غافلاً ... فأنت به في الكفر لكن بخفية

فإن دمت في ذا الحال صاحب غفلة ... فبابك في الإسلام سدّ بجفوة

وهذه ذنوبهم.

أما من كان مثلي فذاك بالنسبة إليهم أدنى من الحمار، لأنه بهيمة سارحة في صحاري الأغيار، بل لو ذاق مما ذاقوه لعدّ نفسه من المشركين الفجار. اللهم إنا نسألك التوبة من كل ما سواك، فإنك أمرتنا أن لا نعبد إلا إياك، وأنت التواب الرحيم. ومعنى الفرض الذي قاله: التقدير الذي تقتضيه الحقيقة لا الفرض الشرعي الثابت بالدليل القطعي، لأن ذاك لا يكون إلا من قبل الشارع، وليس له في ذلك معارض ولا منازع كما قال صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا بشرٌ مثلكم لا أحل حراماً ولا أحرم حلالاً)، واتفاقهم أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، أقوى الحجج في ذلك والبراهين، فتأملْ ذلك بالعين الخبيرة، وكن من معرفة كلام أهل الله على بصيرة، وجز ما منح به رب العالمين، من التحقيق والكشف المبين، ليكون أصلاً لك في حلّ ما يشكل من كلامهم، على ما هو التحقيق في قصدهم ومرامهم، ولله در القائل:

ستبدو لك الأسرار بعد اكتتامها ... كأنّ الذي صانها عنك يخبر

فسلم لهم فالقوم أهل عناية وحاملهم في الوصف لا يتحقر
وإن كنت يا هذا بهم متمسكاً فتبقى بطول الدهر لا تتغير

وكيف يعترضون وهم عند الله المكرمون، قال جل شأنه: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ وهم المحققون بالتقوى لا غير. وفي حديث الذاكرين: (هم القوم لا يشقى جليسهم) وهل ذاكر الله حقيقة إلا حقيرهم ورايسهم. قال صلى الله عليه وسلم: (إن لله عباداً من نظر في أحدهم نظرة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا) وهل يكون هذا العبد غير من أحب ربه وأراد، أو غير من هو حبه وأجاد، هيهات هيهات ما المحبوب إلا هم، هيهات هيهات ما المقصود إلا هم، هيهات هيهات ما الممنوح غيرهم، وقد حققت شأنهم في شرح "الزم باب ربك" فإن أردته فتأمل فيه بلبك.

ولما كان الإلحاح في الدعاء مندوباً ومطلوباً لا سيما عند العارفين لتحققهم بكمال الانكسار وتمام الافتقار، ولكونه حياة روحهم ما فيه من مناجاة حبيبهم كما قال في الحكم: (العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره) زاد ولحّ بقوله:

(**الله الله الله**) ثلاثاً مضمراً لحرف ندائه لكونه في حضرة فنائه، وهذا على ما أجازنيه من أخذت عنه الصلاة على ما سمعته من بعض قادتها، فإن كان ذلك لما يتوهمه كثير من العلماء من أن الذكر بالمفرد غير جائز فهو غير صحيح، وقد رده بعض المحققين العارفين، وإن كان هذا الإضمار تلقوه عن صاحب الصلاة فلا كلام، وبيانه أنه دعى كما مرّ، والذي يظهر للحقير أن عدم الإضمار أولى لأنه لما دعى بالجمعية وطلب للإحالة المنعية صار كالكائن في الحضرة العليّة، ومن كان حاضراً ولمقصوده ناظراً كيف يدعوه ويناديه وهو في حضرته وناديه، بل من كانت هذه حالته تخرس عبارته وتنمحق إشارته. ولذا قال أبو يزيد رحمه الله تعالى: (أكثر الناس إشارة إليه أبعدهم منه)، إذ الحاضر لا يحتاج إلى إشارة، بل في هذا المقام يخرس عن العبارة، وكيف يذكر المعاين بالعيان؟ أو يقام على الحاضر دليل وبرهان؟ وأنشد عارف:

ما إن ذكرتك إلا همّ يلعنني قلبي وروحي وسري عند ذكراك
من كان رقيباً منك يهتف بي إياك ويحك والتذكار إيّاك

ومن هنا تفهم قول بعض العارفين: الذكر حجاب الله الأكبر، إذ هو مانع من الشهود والمراقبة، قال بعض المحققين: بل لا يتصور الذكر معها لأنه يقتضي النسيان، ولذا لما قيل للشبلي: متى تستريح؟ قال: إذا لم أرَ الله ذاكراً، إني لا أستريح إلا إذا دخلت حضرة

وإلى هنا انتهى ما منح به الملك العلام على هذه الصلاة، فالمنة له لا لأحد سواه، والصلاة والسلام منه على خير أنبيائه.

قال الشارح الخروبي رحمه الله تعالى، وهو أحد الأفاضل الذين شرحوا هذه الصلاة غير هذا الشرح: قال: زاد بعضهم في الصلاة المذكورة زيادة حسنة هي قوله: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما، صلاة الله وسلامه وتحياته ورحماته وبركاته على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم عدد الشفع والوتر، وعدد كلمات ربنا التامات المباركات، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين".

يقول أفقر الورى عبد الله بن إبراهيم بن حسن الميرغني، عامل الله الكل بفيضه الهني: وبهذا انتهى المجلس في الكلام على الصلاة المشيشية في فناء الحضرة العباسية، عليها وعلى ابن عمها ألف كرات صلاة مع سلام وتحية، وذلك يوم الجمعة عشرين من جمادى الأولى سنة ألف ومائة وإحدى وخمسين، وإني من الملتجئين إلى الله والطالبين لوجه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي والعظيم. والصلاة والسلام على نبيه الكريم وعلى إخوته الأنبياء والملائكة وآلهم وصحبهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

سيدي محمد بن أحمد بن عيسى، المعروف بابن حيون الخمسي الزرويلي

قال الأستاذ عبد الله بنور في بحثه الجامعي (كتاب: الفتوحات الربانية في شرح الصلاة المشيشية، للإمام العالِم محمد بن أحمد بن عيسى المعروف بابن حيون الخمسي الزرويلي. تقديم وتخريج):

"إن الشرح الذي سنعمل على تقديمه هو لمحمد بن أحمد بن عيسى، المعروف بابن حيون الخمسي الزرويلي، والغالب على الظن أنه درس بفاس على شيوخ الوقت، يتصل نسبه بعبد الملك بن مروان الأموي، وقد عرف ابن حيون في مقدمة الشرح بنفسه فقال: "فيقول أفقر العبيد وأحوجهم إلَى الله سبحانه محمد بن أحمد بن عيسى المعروف بابن حيون الخمسي الزرويلي داراً ومنشأ...". وهذا التعريف ليس بشافٍ للغليل، ذلك لأنه من الشخصيات التي لَم تسلط عليها الأضواء بِما فيه الكفاية، وهذا ما عبر عنه ذ. المنتصر الريسوني بقوله: "إنه من الشخصيات التي لا تزال غفلا تنتظر من يكشف عنها، وينقذها من هوة النسيان، وكم من نظرائه وبخاصة علماء البادية يعيش في ظلمة حالكة قاتمة يحن إلَى الضوء ويهفو إلَى الحياة".

توفي سنة 1180هـ، ودفن بحَي "جنانات" الأشراف الريسونيين بتَازْرُوتْ، وقبره مقصد الزوار يتبركون به قصد الشفاء من الحمَّى، ولذلك عرف بسيدي الحمَّى.

أقول:

سيدي ابن حيُّون الخُمُسي (أي نسبةً إلَى قبيلة الأخْماس المجاورة لِمدينة شفشاون، فِي شَمال غرب بلد المغرب، وسُميتْ قبيلة الأخماس أخْماساً لاشتِمالِها على خمس أخماس) الزَّرْوِيلِي (أي نسبةً إلَى بنِي زرويل أحد أخماس قبيلة الأخْماس)، المدفون فِي تازْرُوتْ (التِي تبعد عن ضريح الولِي الشهير مولاي عبد السلام بن مشيش ببضعة كيلومترات، وبِها تقع الزاوية الكبرى للأشراف الرَّيْسُونيين العلَميين).

شرح سيدي ابن حيون الخمسي الزرويلي رضي الله عنه المتوفى عام 1180هـ، المسمى (الفتوحات الربانية في شرح الصلاة المشيشية)

الحمد لله الذي جعل قلوب أهل محبته سماءً لشموس معرفته، واصطفاهم بين خلقه بعنايته، وأجلسهم في بساط حضرته، وألبسهم من حلل إحسانه حللاً تصغر عنده خلل الحرير والديباج في جنته، وأطعمهم من لذيذ مناجاته، ما صير طعام أهل الجنة قوت الجائع لمدخلتهم. وسقاهم من كؤوس مشاهدته، شراباً يضعف الرحيق المختوم بحضرته، وجعل ملبسهم ومطعمهم وسقاهم بذلك إمام أوليائه وخاتم أنبيائه، إحسان عين الوجود، والسبب في كل موجود، المخصوص من خلقه بالكرم والجود، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأحبائه وأتباعه، صلاة يتوالى تكرارها، وتلوح على الأكوان أنوارها.

أما بعد، فيقول أفقر العبيد وأحوجهم إلى الله سبحانه، محمد بن أحمد بن عيسى، المعروف بابن حيون الْخُمْسِي الزرويلي داراً ومنشأً، أمنه الله من الفزع الأكبر ووالديه وسائر أحبائه، إنّي قد شغفت بحب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم المنسوبة للولي الصالح، والقطب الواضح، والنور اللائح، والقطب الناصح، الذي عمت أنواره أقطار المغرب، وعم النفع بباقي حياته وبعد وفاته، نجل المصطفى صلى الله عليه وسلم وخليفته، ووارث نور علمه وشريعته، سيدي ومولاي عبد السلام بن مشيش، الشريف الحسني العلمي، أفاض الله علينا من بركاته، وأسعدنا يوم القيامة بصحبته، وأحببت أن أحلي بألفاظها لساني، وبمعانيها جَناني، وأتكلم في معانيها بما يجريه المولَى الكريم على لساني وبناني، وأحببت أن يدخلني ربّي في زمرة مؤلفيها وشارحيها.

ثم اعلم، أنّي لم أطلع على شيء من شراحها غير شرح الإمام الخروبي الطرابلسي، فرأيته رضي الله عنه شرحها بما تقتضيه عقول العلماء الذين لم تشرق أنوار الحضرة الإلَهية في قلوبهم، وما لم تتصل إليه العقول ردها إليها بالتأويل، وتأملت كلام الشيخ

رضي الله عنه، فرأيت شموس الحضرة تلوح من جوانبه، وعلوم الحقيقة تسر من مخبآت كنوزه.

فأردت أن أتكلم في شرحه بما يناسب مقام الحضرة ليطابق الشرح المشروح، وما وجدت في كلامه رضي الله عنه لا تصل إليه عقول علماء الشريعة جعلت له سلماً من الكلام يرقى به من أرض الشريعة إلى سَماء الحقيقة حتّى يتبين إن شاء الله غاية البيان، بعبارة وجيزة سهلة، ولذلك ربّما خالفت الإمام الخروبي رضي الله عنه، ولست أنسب لنفسي بذلك كمالاً ولا أحط من قدر الإمام الخروبي بذلك شيئاً، فإني أعوذ بالله من رؤية نفسي بل ومن رؤية غيري، وسميته:

"الفتوحات الربانية في شرح الصلاة المشيشية"

والله حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم اعلم أن صلاة الشيخ رضي الله عنه هذه مبنية على ثلاثة أخبار:

أحدها ما ورد أن أول ما خلق الله تعالى نور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم خلق منه جميع العوالِم، وبنَى الشيخ رضي الله عنه هذا الخبر في قوله: "مَنْ منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار" إلى قوله: "صلاةً تليق بك منك إليه كما هو أهله". وكذلك قوله: "واجعل الحجاب الأعظم.." إلى قوله: "جَامِع عوالِمِي بتحقيق الحق الأول".

الحديث الثاني قوله صلى الله عليه وسلم: "كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان"، وبنَى الشيخ رضي الله عنه قوله: "وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك" ونحوه.

الحديث الثالث قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: "ما تقرّب إلَي عبدي بشيء أفضل مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلَي بالنوافل حتّى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بِها..."، وعلى هذا بنَى الشيخ رضي الله عنه قوله: "واحملني على سبيله إلى حضرتك، حملاً محفوفاً بنصرتك" إلى قوله: "ولا أحس إلا بِها..". وسيأتي جميع ذلك إن شاء الله تعالَى.

قوله: "اللهم صل"

اعلم أن الكلام في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ينحصر في أربعة فصول، ولن أتكلم إلا على فصل واحد منها:

الفصل الأول: في معناها، وهذا الفصل كالمعلوم في كلام الشريعة ضرورة فلا

نطيل به.

الفصل الثاني: في حكمها، وقد بينه أئمتنا رضوان الله عليهم، فلم يبق فيه ما نقول.

الفصل الثالث: في بيان فضلها، وقد أشفى الغليل فيه أئمة هذا الشأن رضي الله عنهم كالإمام الجزولي رضي الله عنه في أول كتابه المسمى بـ "دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار" فلا نطيل به.

الفصل الرابع: في حكم مشروعيتها، حكمة مشروعية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

وأتكلم في هذا الفصل فنقول: قال بعض العلماء "شرعت ليحصل الأجر لنا"، وأما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فمقطوع له بالرحمة بل هو عين الرحمة، وظاهر هذا أنه لا ينتفع بصلاتنا، وقيل ينتفع وفضل الله لا حدَّ له، وقيل غير ذلك، وكلّ قد عبر في ذلك بما وصل إليه نور عقله، فحينما حصل التنوير وصل التعبير كما قال ابن عطاء الله في الحِكم. قلت: والذي أقول به في حكمة ذلك أن الله تعالى أمرنا بِها لتكون غذاء لأرواحنا وسبباً لحياتنا بحسب ما أجرى به سبحانه عادته، كما أمرنا بأكل الطعام وشرب الشراب ليكون ذلك غذاء لأجسادنا وسبباً لحياتنا أيام العمر كما أجرى الله تعالَى بذلك عادته. وبيان ذلك أن الله خلق الآدمي مركباً من جسد وروح، وجعل الروح حياة للجسد، وجعل الأغذية والطعام والشراب سبباً لإمساك الروح في الجسد مدة أيام العمر، ولو انقطع الغذاء فارق الروح الجسد ولم يثبت به وصار ميتاً، وذلك كله بِمحض اختيار الله تعالَى.

ولَما لَم تكن فائدة في الآدمِي إذا كانت روحه ميتة، جعل الله أنوار روح رسول الله صلى الله عليه وسلم حياة لأرواح المؤمنين، فهو عليه السلام روح أرواحهم، وأمرهم بالصلاة عليه لتكون غذاء لأرواحهم ودوام حياتِها به صلى الله عليه وسلم، كما أمرهم بلزوم طاعته واتباع سنته، ومحبته ومحبة أحبائه، ليكون جميع ذلك غذاء لأرواحهم وسبباً لدوام حياتِها، فمن ترك طاعته جملة وترك الصلاة عليه ومحبته جملة كانت روحه ميتة بِمفارقة أنواره عليه السلام، ولِهذا وصف الله سبحانه الكفار بالموت في قوله تعالَى خطاباً لنبيه عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾، وإنّما وصف الكفار بالموت تموت أرواحهم لمفارقة أنواره عليه السلام ولعدم تناولهم لأغذية الأرواح وهي طاعته واتباع سنته والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم. وأما المؤمنون فجميع أرواحهم حية بإشراق أنواره صلى الله عليه وسلم، لكنهم مختلفون في القوة والضعف بقدر تناولهم لأغذية الروح، فمن أكثر من طاعته صلى الله عليه وسلم واتباع سنته

ومحبته والصلاة عليه قويت روحه لشدة اتصالها بذاته الشريفة التي هي سبب حياة الأرواح، ومن قلل من طاعته واتباع سنته ومحبته والصلاة عليه، ضعفت روحه لضعف بحياة الأرواح، فأرواح المؤمنين تقوى على فهم العلوم الدينية وتحقق العبودية، والقيام بحق الربوبية، وحمل الواردات الإلَهية وأسرار التجلّي في الحضرة الرحمانية، بشدة اتصالها بأنوار ذات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتضعف عند ذلك بقدر بُعدها من ذاته صلى الله عليه وسلم، وقوتُها بكثرة تناول أغذية الأرواح وهي طاعته صلى الله عليه وسلم واتباع سنته ومحبته، والإكثار من الصلاة عليه، وضعفها يكون بقلة تناول الأغذية، كما أن الجسد يقوى بكثرة الأكل والشرب ويضعف بقلتها، فافهم، وبالله التوفيق.

قوله: "على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار"

قد تقدم أن كلام الشيخ هنا مبني على ما ورد في الأخبار أن أول ما خلق الله تعالى نوره صلى الله عليه وسلم ثم خلق من نوره جميع العوالِم، فمعنى كلام الشيخ رضي الله عنه "اللهم صل" على سيدنا محمد الذي خلقت نوره قبل كل مخلوق ثم شققته وأخرجت منه جميع الأنوار، وهذا غاية المدح له صلى الله عليه وسلم؛ حيث وصفه الشيخ رضي الله عنه بأن جميع الأنوار والأسرار ظهرت من الوجود كلها خارجة من نوره وهو أصل لجميعها، فكلامه هذا نحو قول الإمام البوصيري رضي الله عنه في قصيدته الهمزية:

كل فضل في العالَمين فمن فضل النبي استعاره الفضلاءُ

وهو أيضاً قريب من الإمام الجزولي رضي الله عنه في كتابه المسمى بـ "دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار" حيث مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "إنسان عين الوجود والسبب في كل موجود".

ومراد الشيخ رضي الله عنه بالأسرار جميع الفضائل الخلقية كأوصاف الأنبياء والملائكة التي تعلقت قلوبهم في العلوم والمعارف وجميع الأخلاق السَّنية.

ومراده رضي الله عنه بالأنوار جميع الأنوار الحسية كنور البصر ونور الشمس والقمر والكواكب والعرش والكرسي واللوح واليواقيت وقصور أهل الجنة ووجوههم، وغير ذلك من الأنوار الحسية، وجميع الأنوار المعنوية التي ترد على القلوب، ولا شك أن كل ذلك خارج من نوره صلى الله عليه وسلم.

قوله: "وفيه ارتقت الحقائق"

جوز الإمام الخروبي رضي الله عنه في لفظة الحقائق في كلام الشيخ هنا احتمالين:

الحقائق المقابلة للشرائع وحقائق الأشياء.

قلت: والذي أراه أن الشيخ رضي الله عنه إنما أراد حقائق جميع الموجودات، لأن الحقائق التي تطلق في مقابلة الشرائع وهي ما يلقيه المولى في قلوب أوليائه من العلوم الذهنية التي لا تخالف شيئاً من ظواهر الشريعة قد دخلت في الأسرار.

و "فِي" من قوله "وفيه" سببية، على حد قوله ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ ﴾، فمعنى كلامه رضي الله عنه: اللهم صل على الذي انشق نوره فخرجت منه الأسرار، وانفلق فخرجت منه الأنوار، وبسببه علت حقائق جميع الموجودات بِخروجها من العدم إلى الوجود.

فكلامه هذا رضي الله عنه هو أعم من قول الإمام البوصيري رضي الله عنه في قصيدته المسماة بالبردة:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة مَنْ   لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وكلام الشيخ رضي الله عنه نِهاية في مدحه صلى الله عليه وسلم، حيث مدحه بكونه أصلاً لجميع الأنوار والأسرار، وبسببه ارتقت حقائق جميع الموجودات المادية بخروجها من العدم إلى الوجود صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته.

قوله: "وتنَزلت علوم آدم"

معطوف على قوله "ارتقت"، ومعناه عندي أن الشيخ رضي الله عنه وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن علوم آدم منه عليه السلام، وبسببه تنَزلت لآدم تفضيلاً من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، وإظهاراً لفضل أبيه آدم عليه السلام على جميع الملائكة. ومراده رضي الله عنه بعلوم آدم الأسماء التي علمه الله إياها حين خلقه، وهي التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾.

فإن قلت: إذا كان المراد بعلوم آدم الأسماء المذكورة في الآية، فقد دخلت في الأسرار فلِمَ أعادها هنا؟ قلت: ذكر هناك أن جميع العلوم منه، وذكر هنا أن بعضها وهي علوم آدم نزلت بسببه صلى الله عليه وسلم، فلا تكرار، وذلك زيادة في مدحه صلى الله عليه وسلم بسبب إظهار فضل آدم عليه السلام على الملائكة الذين هم أكرم خلق الله، وما ذلك إلا بالعلوم التي نزلت عليه بسبب الممدوح وهو نبينا صلى الله عليه وسلم.

قوله: "فأعجز الخلائق"

يعني أن آدم عليه السلام أعجز الخلائق الموجودين في الوقت الذي نزلت عليه

العلوم فيه بسبب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهم الملائكة، فلما ظهر تعجيزه لهم وفضله عليهم بالعلوم التي نزلت عليه بسبب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أمرهم بالسجود له، فإذا فضل آدم عليه السلام على الملائكة بسبب العلوم التي اقتبسها من نور سيد الوجود، فما بالك بمن تفجرت منه جميع العلوم والأنوار والأسرار، فافهم، وإذا أعجز آدم الملائكة وهم من أعلم خلق الله فغيرهم أولى بالعجز.

قوله: "وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق"

الذي أقول به أن اللام في قول الشيخ "وله" للتعليل، والضمير والمجرور به يعود على وصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم من جميع ما سبق باعتبار ما ذكر، وفي كلامه رضي الله عنه حذف مجرور متعلق بـ "تضاءلت" عن إدراك حقيقته.

ومعنى كلامه رضي الله عنه: ولأجل ما ذكر من كون رسول الله صلى الله عليه وسلم انشقت منه جميع الأسرار وانفلقت منه جميع الأنوار، ووجدت بسببه حقائق جميع العوالِم، وتنزلت بسببه علوم آدم فأعجز الملائكة، ويلزم عجز غيرهم من باب أي وتضاءلت أي ضعفت الفهوم عن إدراك حقيقته صلى الله عليه وسلم، فلم يدرك أحد من المخلوقين حقيقته ممن سبق وجود ذاته صلى الله عليه وسلم ولا ممن تأخر عنها، ولا يعلم حقيقته على الحقيقة إلا خالقه الذي أخرج منه جميع أسرار ملكوته، وكلام الشيخ هذا قريب من قول الإمام البوصيري رضي الله عنه في بردته:

أعيا الورى فهم معناه فليس يُرى   للقرب والبعد فيه غير منفحم

والله أعلم.

قوله: "فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة"

قال الإمام الخروبي رضي الله عنه: "الملكوت ما شأنه أن يدرك بالعقل والفهم لا بالحس والوهم وهو هنا عبارة عن عالَم الصفات". انتهى.

قلت: والذي يظهر من كلام أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أن الرؤيا بصرية، والذي أقول به هنا أن مراد الشيخ رضي الله عنه بالملكوت جميع المملوكات لله تعالى الحسية من العرش والكرسي والسماوات والأرض وما في جميع ذلك من المخلوقات والجنة والنار وما فيهما إلى غير ذلك، ومعنى كلامه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انشقت منه الأسرار، وانفلقت منه الأنوار، ووجدت منه حقائق جميع العوالِم، بسببه أزهرت جميع الملكوت وهي العوالِم الحسية من نور جماله، وحسنه في غاية الحسن، تعجب كل من نظر إليها،

فقد أزهر العرش من نور جماله صلى الله عليه وسلم بجميع الأنوار الحسية التي تعجز الأبصار عن النظر إليها، وأزهرت السماوات من نور جماله عليه السلام وبصفاء لونها وشَمسها وجميع كواكبها حتّى عجزت الأبصار عن الإحاطة بحسنها وجمالها، وأزهرت الأرض من حسنه وجماله صلى الله عليه وسلم بمياهها وأشجارها ونباتها وأزهارها ودررها ويواقيتها وذهبها وفضتها وغير ذلك مما فيها، حتّى كادت تسبي عقل من نظر إليها ببصيرته، فأما لو رآها الناس ببصرهم لسلبهم حسنها وجمالها من عقولهم، إلا أهل حضرة الله تعالى فلا يفتنون بشيء سواه، وأزهرت النار بجميع أنواع عذابها فإذا نظر المؤمنون إلى أعدائهم فيها تبين لهم حسنها وجمالها، إلى غير ذلك، وكل ذلك من نور جماله صلى الله عليه وسلم.

فقوله: "فرياض الملكوت"

الفاء للتفريع، والرياض استعارة، وهو مضاف إلى الملكوت إضافة بيانية أي فالرياض التي هي الملكوت قد بلغت الغاية في الحسن والجمال التي اقتبسه من نوره صلى الله عليه وسلم فهي مُعجبَة الناظرين بسبب ذلك، والله أعلم.

"وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة"

قال الإمام الخروبي رضي الله عنه ما لا أطلع الآن وسنطلع عليه وهو هنا عبارة عن عالَم الذات، إلى آخر ما قال.

قلت: ولا أرى الشيخ رضي الله عنه أراد ذلك، والذي أقول به أن الشيخ رضي الله عنه أراد بالجبروت جميع المخلوقات المعنوية، ولا كلام للشيخ هنا في الذات العلية.

ومعنى كلامه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان أهلاً لظواهر العوالِم وبواطنها، أزهرت ظواهرها من نور جمال ظاهره صلى الله عليه وسلم، وامتلأت نوراً من نوره صلى الله عليه وسلم، حتّى فاقت وتدفقت وأريقت بقوته على جميع المخلوقات، وعلوم الأنبياء والملائكة قد امتلأت نوراً من نوره صلى الله عليه وسلم حتّى فهموا تلك العلوم، وتدفقت أنوار قلوبهم على من أحبهم، وهكذا. ولقد أحسن البوصيري رضي الله عنه حين قال في بردته وهو يُناجي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فحياض في كلام الشيخ استعارة أيضاً، وإضافتها للجبروت بيانية، وأصل الكلام والجبروت التي هي كالحياض، وكذلك قوله "رياض الملكوت" أي الملكوت التي هي كالرياض، والرياض والحياض استعارة على حد قول الشاعر:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وظاهر قول الشيخ: "فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة" أن ظواهر العوالِم قد صارت رياضاً ممتلئة من أنوار باطنه صلى الله عليه وسلم، في غاية الحسن والجمال من نور جمال ظاهره صلى الله عليه وسلم، وبواطن العوالِم قد صارت رياضاً ممتلئة من أنوار باطنه صلى الله عليه وسلم، والله أعلم.

قوله: "ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط"

قد تقدم أن جميع العوالِم أخرجها الله تعالَى من نوره صلى الله عليه وسلم أصل لجميع المخلوقات الحسية والمعنوية ومنه تستمد، كأن الفروع إنّما تستمد من أصلها ضرورة، فكل شيء من المخلوقات منوط به صلى الله عليه وسلم أي متعلق على جهة الاستمداد منه، إذ كل فرع مفتقر للمدد من أصله ضرورة، وهو أيضاً واسطة بين الله وبين خلقه باعتبار أول نشأتِهم واستمدادهم، لأنه لولا مدد الواسطة وهو نور رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو أصل جميع المخلوقات لذهب الموسوط وهم المخلوقات، إذ لو انقطع مدد الأصل عن الفرع لذهب الفرع ضرورة.

وقوله "كما قيل" إشارة إلى ما في الأخبار الواردة في ذلك من أنه لولا هو صلى الله عليه وسلم ما خلقت جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض ولا زمان ولا مكان ولا غير ذلك، ومعنَى كلامه رضي الله عنه: ولا شيء من المخلوقات إلا وهو متعلق ومستمد من نوره صلى الله عليه وسلم، لأنه لولا مدد الواسطة وهو الأصل لذهب الموسوط وهو الفرع وهلك، كما قيل: لولا وجود الواسطة ما وُجد الموسوط، فكأنّما يلزم من عدم وجود الأرض وهو الواسطة عدم وجود الموسوط، فكذلك يلزم من قطع مدد الأصل وهو الواسطة عن الفرع وهو الموسوط ذهابه وهلاكه، والله أعلم.

فإن قلت هذا كله يقتضي أن الله تعالَى مفتقر لهذه الواسطة التي خرجت منها جميع العوالِم وهي المستمدة منها، أو الواسطة فاعلة بالعلة أو الطبع وهي خلاف مذهب أهل السنة، فالجواب: أن الله تعالَى خلق نور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وخلق من ذلك النور جميع المخلوقات بِمحض اختياره وعظيم فضله وحكمته، ولو شاء لفعل خلاف ذلك، لكنه سبحانه أراد أن يخص نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بفضله العظيم الذي لا يعلم حقيقته إلا هو سبحانه، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد قال تعالَى لنبيه عليه السلام: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾، فافهم وبالله التوفيق.

تعالى، لأن الله كان موجوداً قبل الزمان والمكان على الحالة التي كان عليها قبل وجود الأشياء، فكأنّما أنه لم يفتقر إليها بعد وجودها.

وأما خاصة الخاصة وهم العارفون بالله الذين أشرقت أنوار الحضرة الإلَهية واتصلت أرواحهم بنور باطن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففُهِمَ من هذا الحديث العظيم أن الله كان ولا شيء معه كما كان، والعوالِم كلها بالنسبة لوجوده تعالى أوهام وخيالات، وإلى هذا أشار الإمام ابن عطاء الله بقوله: "ما حجبك عن الله وجود شيء معه إذ كان ولا شيء معه كما كان، ولكن حجبك توهّم وجود شيء معه"، وبيّن هذا المعنى رضي الله عنه في لطائف المنن بقوله: "وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال، والظل لا موجود باعتبار مراتب الوجود، ولا معدوم باعتبار مراتب العدم"، وقال أيضاً في موضع آخر من الحِكَم: "وشعاع البصيرة يشهدك قربه منك، وعين البصيرة تشهدك وجوده لا وجودك ولا عدمك".

"كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان"، قال الإمام ابن عباد في شرح هذه الحكمة: "الأزمنة ها هنا أمور وهمية لا وجود لها على التحقيق" انتهى.

الفصل الثاني: إذا فهمت هذا فاعلم أن الله تعالى في جلالته وعظمته وكبريائه محتجب عن خلقه في ثلاثة حجب:

الأول: حجاب صفاته تعالى.

الحجاب الثاني: حجاب أسمائه تعالى، وهذان قديمان.

الحجاب الثالث: وهو الذي يلينا، حجاب أفعاله سبحانه وتعالى، يعني مخلوقاته، وهذا الحجاب حادث وهو وهمي خيالي كما تقدم في شرح الحديث على فهم العارفين بالله، وهو يتنوع إلى أنواع، وكل نوع يسمّى حجاباً، وأصغرها ما لا يظهر التأثير ولا يمكن منه الاختيار مثل الماء والنار ونحوهما، وأعظمها ما يظهر التأثير عنده ويتوهم أن يكون ذلك المخلوق ويفعل ذلك بالاختيار، وأكبر هذه الحجب المادية وأعظمها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن الله تعالى جعله أصلاً لكل العوالم ثم سخر له الأكوان بعد وجود ذاته الشريفة فكانت طوع يديه وأمره بأمر الله إن قال كن فيكون، فإذا نظر الإنسان الذي تصحبه عناية ربانية إلى ما تقدّم من أصل المخلوقات منه وأنه أصل لجميعها ومنه يستمد وجودها وبقاؤها ونظر إلى تسخير الأكوان له ظن أنه هو الفاعل لها علة وطبعاً واختياراً، والأمر بخلاف ذلك.

والحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من المخلوقات هي حجب لقدرة الله تعالى وإرادته، ولا تأثير له عليه السلام ولا لأحد من المخلوقات في شيء

من الأفعال البينة، ولما كان صلى الله عليه وسلم حجاب الله الأعظم بهذا الاعتبار لم تنفذ منه إلا بصيرة من أيده الله بنور التوفيق، ولعمري لقد وقفت على كتاب ألفه مؤلفه في علم الطبيعة، وأظن أن مؤلفه كان من المتصوفة الذين لم يؤيدوا بنور العناية والتوفيق، وأسس كتابه المذكور على ما تقدم من أن نور رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أصل لجميع العوالم ثم صار يقول يولد منه العرش وتولد منه كذا وملأ كتابه من هذه الألفاظ البشعة، وصار يصرح غالباً بأن القدرة الأزلية علة لنوره عليه السلام، فكلامه صريح من أن العوالم ناشئة عن النور المحمدي بالعلة والطبيعة، وأن القدرة الأزلية علة للجميع، وذلك ضلال وسوس وكفر أوقعه في ذلك ظلمة بصيرته وعظم الحجاب، فلم ينظر ببصيرته وراء الحجاب الأعظم.

فإذا فهمت هذا، فمعنى قول الشيخ رضي الله عنه: "وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعظم حجبه الحادثة، القائم لله إقامة صفة قدرته تعالى، فلا ينفذ منه إلى فهم صدور الأفعال عن قدرته تعالى إلا بصيرة أيدت بنور التوفيق، فهذا معنى كلام الشيخ عندي، وتسميته عليه السلام بالحجاب الأعظم على هذا حقيقة لا تأويل فيه، والله أعلم.

تنبيه: جميع الحجب الحادثة تنفذ منها جميع بصائر المؤمنين المتفق على إيمانهم ولا معها إلا بصائر أهل الزيغ من كلام الطوائف الخارجة عن مذهب أهل السنة والكفار واليهود ونحوهم. فنسبوا التأثير للحجب ولم ينظروا للمؤثر فاعلا باختياره وهو محتجب عن بصرهم وبصيرتهم من وراء تلك الحجب وغيرها من حجب الكبرياء والعظمة والجلال. وأما حجاب أسماء الله تعالى وصفاته فلا تنفذ منها إلى مشاهدة الذات العلية إلا بصائر العارفين بالله الأحرار مما سوى الله الذين صارت المخلوقات عندهم عدماً محضاً باعتبار وجوده تعالى ورأوا العوالم خيالات وأوهاماً كالظلال وتحققوا بقوله صلى الله عليه وسلم: "كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان" فافهم.

قوله: "اللهم ألحقني بنسبه وحققني بحسبه"

والذي أقول به أن الشيخ رضي الله عنه أراد بقوله: "اللهم ألحقني بنسبه" اللهم أمتنا على الإيمان كي ألتحق بنسبه الطيني وأكون من آله عليه السلام، وتتحقق نسبتي الطينية إليه، وإنّما سأل ذلك لأن النسب الطيني مشروط بالديني، فمن كان من ذريته عليه السلام ومات على غير الإسلام لا يلحق به، فلذلك طلب الشيخ رضي الله عنه أن يلحق بنسبه عليه السلام، وما طلب في الحقيقة إلا حصول شرط اللحوق بنسبه، وأما

نسبه رضي الله عنه فهو موجود ثابت.

وقوله: "وحققني بحسبه" أي اللهم أدم وصفي بمتابعته صلى الله عليه وسلم في أخلاقه الظاهرة والباطنة حتى ألقاك وأنا موصوف بمتابعته في أخلاقه وأوصافه صلى الله عليه وسلم، وإنّما طلب ذلك رضي الله عنه معرفته بالله تعالى ومشاهدته لعظيم قهره، فإن من شاهد قهره وعاين قبضته لا يسكن لوعد ولا يركن لفضيلة حلاه الله بها من نسب أو حسب وغير ذلك إلا بعد الخاتمة كأنّها شرط في جميع الفضائل الدينية.

تنبيه: قال الإمام الخروبي رضي الله عنه في هذا المحل بعد أن قدر كلام الشيخ ومعه كونه يعني الطلب في كلام الشيخ على ما ذكرنا، فالحامل عليه إظهار العبودية والتلذذ بالخطاب للأمر به لا قصد بيان المطلوب، لأن خاصة الخاصة يدعون الأمر بالدعاء مع نسيان حظهم وحيث وجدت لفظة الطلب في كلامه فاحمله على هذا المحل، انتهى.

قلت: وهو عندي كلام غير ظاهر، فإن كان ما طلبه الشيخ رضي الله عنه في صلاته هذه لا حظ له فيه للنفس فما طلب رضي الله عنه من الله في الحقيقة إلا أن يرزقه الله إلا تحقيق العبودية والقيام بحق الربوبية، ولا حظ للنفس في ذلك، ولا بد من بسط الكلام في هذا الأمر فنقول وبالله التوفيق:

اعلم أن خاصة الخاصة من عباد الله قد خرجوا من جميع حظوظ أنفسهم في العاجل والآجل وزهدوا فيه غاية الزهد، فإذا طلبوا شيئاً من حظوظ النفس كطلب الجنة ونعيمها كان طلبهم امتثالاً لأمر الله تعالى وإظهاراً للفقر واللجإ إلى الله تعالى، وذلك هو إظهار العبودية، وإذا طلبوا من الله أمراً لا حظ للنفس فيه كما إذا طلبوا منه تعالى أن يرزقهم الحكمة التي خلقهم لأجلها، وهي تحقيق العبودية والقيام بحق الربوبية، فطلبهم حقيقة وهم راجعون كذا نيل مطلوبهم لرغبتهم، ولا يزهد العارفون فيما يوصلهم لرضا مولاهم ومحبته ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، وليس ذلك من حظ النفس، والفرق بين ما فيه حظ النفس وما لا حظ فيه إن كان ما طلب الله من العبد ظاهراً وباطناً لا حظ لها فيه، وكل ما أنعم الله به على العبد مما فيه لذة حسية أو معنوية ولم يطلب منه تحصيله ففيه حظ النفس، وكذلك ما طلب منه ظاهراً فقط قد يكون فيه حظ النفس، فقولنا ظاهراً وباطناً قيدان لا بد منهما، والله أعلم.

فإذا فهمتَ هذا، فالشيخ رضي الله عنه إنّما طلب من الله تعالى ما هو مطلوب الحق منه، وما طلب من الله نعمة لم يطلبها الله منه، وهذا معنى قول ابن عطاء الله في الحِكَم:

"خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك". قال الإمام ابن عباد في شرحه: "إن كان لا بد من الطلب فاطلبه منه ما هو طالبه منك على الاستقامة على سبيل العبودية له، فذلك خير لك من طلبك لحظوظك" انتهى.

فإن قلت ما ذكرت لنا في قول السيد ابن عطاء الله أيضاً لكان طلبه تسبباً إلَى العطاء منه فيقل فهمك، وليكن طلبك إظهاراً للعبودية وقياماً بحق الربوبية، كأن ظاهره العموم من كل ما يطلبه العبد من الله تعالَى. قلت بل مراده طلب ما فيه حظ النفس بدليل ما سبق عنه من قوله: "خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك" وأيضاً كلامه مع من هو باق تحت الحجب الحادثة عن بصيرته وصارت خيالاً فهو يشاهد طلبه صادراً عن قدرة الله تعالَى وإرادته بلا واسطة ومطلوبه كذلك منك، فلا وجود للأسباب عنده، فإذا أجرى الحق تعالَى على لسانه طلب حظ من حظوظ نفسه رأى ذلك إظهاراً لصفة العبودية ولا إسراف في قلبه بحصول حظ نفسه لزهد هذه الحظوظ، وإذا أجرى الله تعالَى على لسانه طلب ما هو طالبه منه وهو إقامة العبودية والقيام بحق الربوبية فهو مستشرف له وراج حصوله لرغبته فيه، وقد قال تعالَى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾، وليس لأحد أن يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رب زدني علماً امتثالاً لأمر الله فقط وهو زاهد فِي العلم الذي أمره الله بطلبه ولا إسراف فِي قلبه صلى الله عليه وسلم، والله تعالَى أعلم.

قوله: "وعرفنِي إياه معرفة أسلم بِها من موارد الجهل،
وأكرع بِها من موارد الفضل"

اعلم أن الله تعالَى خلق الشمس نوراً ومصباحاً، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعله مصباحاً للبصائر، وهو صلى الله عليه وسلم شموس الأرواح، والشمس المعلومة شمس الأجساد، ونورها مقتبس من نوره عليه الصلاة والسلام كما تقدم، فإذا فهمت هذا فاعلم أن المخلوقات باعتبار معرفته صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: لم يعرفوا بقلوبِهم أصله وإنّما عرفوا عينه، ولم يصل إلَى قلوبِهم شيء من نوره صلى الله عليه وسلم ولا اتصلت أرواحهم بِشيء من نوره عليه السلام لظلمتها بِحجب سحاب نفوسهم الظلمانية وغلبت على أرواحهم الصورة الطينية وأهواؤهم الظلمانية، فصارت أرواحهم ظلمانية طينية بعد أن كانت نورانية يوم ألَسْتُ بربكم. وأهل هذا القسم هم الكفار على اختلاف أصنافهم وأنواعهم والمنافقون وأشباههم.

القسم الثاني: وهو المتوسط، قد عرف أصله أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلوبِهم بعض المعرفة، ومنتهى معرفتهم فيه أنه صلى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله

وهو واحد من البشر وأنه أفضل من جميع خلق الله، وإلَى معرفة هذا القسم أشار الإمام البوصيري رضي الله عنه حيث قال:

فمبلـــغ العلـــم فيـــه أنـــه بـــشر وأنـــه خيـــر خلـــق اللـــه كلهـــم

وقد اتصل بأرواحهم شيء من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنهم كمن رأى ضوء الشمس ولَم ير ذاتها، لكون السحاب قد حال بينها وبين قرصها، وهل هذا هم جميع المؤمنين أو إلا خاصة الخاصة.

القسم الثالث: وهو الأعلى، قد عرف أصله من حقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمكن وصول علم الخلق إليه، وذلك أنّهم قد عرفوا أن جميع العوالِم فروع منه وهو أصلها، وجميع الأنوار والأسرار خارجة منه وهو معدنُها، ومنه تستمد لأنه الواسطة بين الله وبين خلقه في جميع ما يصل إليهم من الله ، وعاينوا جميع ما أخرج من ذاته الشريفة بقلوبِهم، كما ترى الشمس بالظهيرة، ورجعت أرواحها نورانية كيوم ألَسْتُ بربكم، وذهب عنها حجاب النفوس الظلمانية، فتجلى شموس الأرواح لقلوبِهم، فصارت أجسامهم روحانية كأرواحهم، وأشرقت أنوار ذاته الشريفة في قلوبِهم وهي شمس الأرواح، وليس بين قلوبِهم وبينها حجاب ولا غيم، فأبصروا الأمور على ما هي عليه، وسلموا من شرب شيء من موارد الجهل، وقوي حبهم في ذاته صلى الله عليه وسلم حتّى صارت أرواحهم متصلة بروحه صلى الله عليه وسلم غاية الاتصال لمشاهدتِهم لجماله وإحسانه اللذين هما أصل للمحبة، فأحبهم هو صلى الله عليه وسلم فأباح لهم أن يشربوا ما شاءوا من حياض توحيد أهل محبة الله التِي أعطاها الله إياها، فشربوا ببعضهم وبكلهم. وأهل هذا القسم هم خاصة الخاصة، والشيخ رضي الله عنه منهم. فمعنَى كلامه رضي الله عنه أنه طلب من الله تعالَى أن يزيده من معرفة خاصة الخاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة تدوم سلامته بسببها من شرب شيء من موارد الجهل ويدوم شربه يعمه بسببها من حياض توحيد أهل محبة الله، وهو مراده بالفضل التِي ملك الله أمرها لنبيه صلى الله عليه وسلم ليسقي منها جميع أحبائه، فمعنَى قول الشيخ رضي الله عنه "أكرع" أشرب بفمِي، وذلك مبالغة في الشرب، والمراد الزيادة من ذلك والدوام عليه، وإلا فالشيخ رضي الله عنه حين طلب هذا كان من أهل المعرفة التامة وقد حصل له ذلك المعنَى قبل هذا الطلب، وليس من طلب الحظوظ أيضاً.

قوله: "واحملنِي على سبيله إلى حضرتك، حملاً محفوفاً بنصرتك"

تقدم أن الشيخ رضي الله عنه بنَى كلامه هذا إلَى قوله: "حتّى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بِها"، والغاية داخلة على قوله صلى الله عليه وسلم علما عن ربه: "ما

تقرب إلي عبدي بشيء أفضل مما افترضته...".

فاعلم أن هذا الحديث العظيم قد دل على الدين كله، وهو الإسلام والإيمان والإحسان، وهذا الحديث العظيم قد دل على جميع علوم الشريعة والحقيقة، فقوله: "ما تقرّب إلي عبدي بشيء" إلى قوله "أحبه" دل على الدين والإسلام والإيمان والمقام الأدنى من مقام الإحسان وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الإحسان: "فإن لم تكن تراه فإنه يراك من حيث لا تراه" وهذا كله مفهوم من علوم الشريعة. وقوله في الحديث القدسي المتقدم: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها..." دال على المقام الأعلى من مقامي الإحسان، وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم في الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه"، وهذا المقام لا يتوصل إلى حقيقة فهمه إلا من علم الحقيقة، وهو مقام توحيد أهل الحضرة الربانية، فإذا فهمت هذا فالكلام في معاني هذا الحديث العظيم على التفصيل والبيان تضيق عنه الأسفار، وحاصله على سبيل الجملة هو ما طلب الشيخ رضي الله عنه الزيادة منه والدوام عليه في كلامه هذا إلى آخر ما قلناه أنه بناه على الحديث، فمعنى كلامه هنا رضي الله عنه: "أللهم إني بريء من حولي وقوتي وتدبيري فأدمْ حملي على طريق رسولك صلى الله عليه وسلم" وهي الإسلام الكامل والإيمان الكامل والإحسان الكامل حتى تبلغني إلى أعلى حضرته ويوصله إلى غاية معرفته على طريق رسوله، ويكون في حال حمله محفوفاً من أعدائه بنصر الله تعالى حتى لا يقدرون على فتنته، وليس هذا أيضاً من طلب الحظوظ، ولا يزهد خاصة الخاصة في هذا ومثله، فطلبه رضي الله عنه حقيقة، ومطلوبه مرجو الحصول.

قوله: "واقذفْ بي على الباطل فأدمغه"

معنى كلامه رضي الله عنه اللهم لا أدع لنفسي حولاً ولا قوة فاجعلني حقاً من حقوقك التي لا يثبت معها باطن، وارم بي بقدرتك على الباطل، وهو كل ما يخالف رضاك ورضا رسولك وكل ما يصد عن محبتك ومحبة رسولك وكل ما يشغل عين البصيرة عن مشاهدتك، فيصيب دماغه فيهلكه.

هذا معنى كلامه رضي الله عنه على الجملة، وأما على التفصيل وبيان جميع الباطل وغير ذلك، فالكلام في ذلك طويل جداً فلا نتبعه لأنه يفضي بالسامع إلى الملل، والله أعلم.

تنبيه: قال الإمام الخروبي رضي الله عنه هنا: "والأمر هنا للدوام" انتهى. وكان ينبغي له أن يعبر بالطلب أو بالدعاء، كأن الأمر لا يقال إلا مع استعلاء الأمر المأمور، والأمر

هنا بخلاف ذلك.

قلت: وعندي أن الدعاء هنا للدوام باعتبار باطل نفسه وللابتداء باعتبار باطل غيره، ولا بد أن نذكر هنا كلاماً يفهم منه هذا المعنى، فأقول وبالله التوفيق:

اعلم أن أهل حضرة الله على قسمين:

فالقسم الأول قصر الله همتهم على أنفسهم، ولا ولاية لهم على غيرهم من المخلوقات، ويسمونَهم الملامتية، وهم خارجون عن نظر القطب، لأنّهم ليس فيهم بقية من نفوسهم فيتصرف فيها بزوالها، ولا ينشأ عنهم فساد في غيرهم فيكفهم عنه، والشيخ رضي الله عنه من هذا القسم.

والقسم الثاني وهو الأعلى، قد ولاهم الله على خلقه وجعل همتهم متصرفة في جميع أهل الأرض وفي جميع مصالحهم وقصر مشيئتهم على مشيئته، فأمرهم بأمر الله إن قال كن يكن، وقد جعلهم الله حقاً فيرمِي بِهم على باطل غيرهم فيدمغونه، وهؤلاء هم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الباطن، وصفة خلافتهم في الترتيب كالخلافة الظاهرة، فأعلاهم السلطان ويسمونه القطب، غير أن سلطان أهل الباطن ولايته عامة في مشارق الأرض ومغاربِها وفي جميع منافع أهل الأرض فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق، وجميع أولياء الله تحت يده، وهذا عندي معنَى قول الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ونفعنا به: "قدمي على رقبة كل ولِي" يعني من أهل زمانه، فهذا نظر القطب، ومن تحته عماله كل واحد مخصوص بالنظر في كل بلد أو أمر من أمور الخلق، وتسميتهم مختلفة منهم الأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء ونحو ذلك، وليس هذا محل الكلام في بسط ذلك، والشيخ رضي الله عنه من أهل هذا القسم بل كان إمام أهل وقته وقطب دائرتِهم فافهم، وليس هذا من طلب الحظوظ أيضاً لأنه من طلبه والله أعلم في الحقيقة إلا وهو مطلوب منه به من نفع عباد الله وإصلاح أمور دنياهم وآخرتِهم وإزالة الباطل عنهم كان أحب العباد إلى الله أنفعهم لهم، وهذه ولاية الأنبياء والأولياء لا ولاية الحظوظ والرياسة، فإذا طلب أحد من العارفين بالله تعالَى ولاية في الخلق فلم يطلبها إلا لصلاحهم ولم يطلب شيئاً من حظوظ نفسه، وها هنا فافهم قول نبِي الله سليمان عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ فما شاء عليه السلام أن يطلب شيئاً من حظوظ نفسه وإنّما طلب أن يصلح الله عباده على يده إصلاحاً تاماً، والله أعلم.

قوله: "وزُجَّ بِي في بحار الأحدية"

قد تقدم أن الله تعالَى محتجب عن خلقه بثلاث حجب: الذي يلينا حجاب أفعاله تعالَى وهو حادث، فبصائر العارفين تنفذ منه النفوذ الكلي حتّى يتركونه من ورائهم خيالاً، وأما حجاب أسمائه تعالَى وحجاب صفاته قديمان فلا يمكن أن تنفذ منهما بصائر المخلوقات النفوذ الكلي، وعن حجاب أسمائه عبر الشيخ رضي الله عنه بِبحار الأحدية، واستعار لفظ البِحار لحجب أسمائه تعالَى، لأنه لا يدخلها وينجو من العطب فيه إلا من حمله الله في سفينة عنايته وهبت عليه نواسم ألطافه تعالَى، كما أن البحار الحسية لا ينجو فيها إلا من حمل في السفينة الحسية وهبت عليه الأرياح الطيبة المعلومة، فإذا فهمت هذا، فمعنَى كلام الشيخ رضي الله عنه اللهم لا حول لِي ولا قوة لِي إلا إليك، فكما أخرجتنِي من حجاب المكونات وأدخلتنِي في بحار أنوار أسمائك، فزدنِي حولاً في بحار أسماء ذاتك العلية، ونزلنِي في تلك البحار، لأكون محمولاً فيها بقدرتك، فتروح علي بنسيم ألطافك حتّى لا أهلك في تلك البحار.

قوله: "وانشلنِي من أوحال التوحيد"

أي احفظنِي من نسيم لطفك من مواضع العطب في بِحار الأحدية وفي جميع توحيد الخاصة. ولنبين أوحال التوحيد باعتبار العامة والخاصة ليتبين كلام الشيخ غاية إن شاء الله فنقول: اعلم أن التوحيد فيه مواضع السلوك وهي المراد بأوحال التوحيد، وقد زلت فيها أقدام كثير من الخلق، فتوحيد العامة فيه مواضع صعبة السلوك وهو التِي زلت منها جميع الفرق التِي خرجت من مذهب أهل السنة، وكذلك الموضع الذي زلت فيه قدم اليهود وهو استحالة النسخ على الله تعالَى، وكذلك المواضع التِي هلكت فيه عبدة الأوثان الذين قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾، فكل هؤلاء أرادوا في زعمهم أن يعظموا ربّهم فكفروا به.

وتوحيد الخاصة فيه أوحال، وهو مواضع صفة هلك غير واحد ممن رحل إلَى الله تعالَى في زعمه، وبيان ذلك أن من أراد توحيد العارفين، يلزمه في بدايته ونهايته لزوم الافتقار إلَى الله تعالَى، والتبري من حوله وقوته والإكثار من محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباع سنته، والوقوف مع شريعته وعرضه على الكتاب والسنة، ووزنه بعلوم الشريعة، فما وافق الشريعة حمد الله عليه، وما لم يوافق رده واستعاذ بالله منه، وما جهل هل يوافق أو يخالف تركه احتياطاً، ويلازم الافتقار إلَى الله تعالَى والتبري من أن ينسب لنفسه حسناً، ويلازم التوكل على الله تعالَى في جميع أموره غاية، ويطلب

من الله أن يحمله إلى حضرته على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم حملاً مؤيداً بنصره، كما تقدم الشيخ، ولا يعتمد في شيء من ذلك على طاعته، ولا وصول إلا بالله، فإذا التزم من أراد توحيد العارفين ما ذكرنا وهو محجوب بعناية الله سلك في بدايته ونهايته ووصل إلى معرفته سالماً إن شاء الله تعالى، وإن أخل بشيء من ذلك سلط الله على قلبه الشيطان، فربّما هبت على قلبه رياح سحابات الأوحال فأمطرت على قلبه أنوارا في بعض الأوقات فغيبته في بحار الأحدية وهو غير محمول في سفينة العناية وهو غير مروح عليه بنسيم اللطف فغرق فيها فيقول له الشيطان المسلط على قلبه: أنت هو الله والله هو أنت، فيصدقه ولا يعلم أنه شيطان، ويتوهم الاتحاد، فربّما اعتقد ذلك بقلبه فقط، وربّما صرح به أنا الله لا إله إلا أنا معتقداً الاتحاد، فيكفر في الصورتين وهو لا يشعر، وربّما لم يفهم الاتحاد ولكن ربّما قويت عليه أنوار الأحوال وغاب في بحار التوحيد فيقول له الشيطان المسلط على قلبه: هذا كنت تطلب فقد وصلت إليه وهذا هو السر الذي يطلبه الأولياء فقد وصلت إليه، فيعتقد أنه هاتف رباني وأن ذلك من المعلوم الذي ترد على قلوب الأولياء فيصدقه، فإذا صدقه في هذا قال له: إن العبادات كلها إنّما شرعها الله تعالى لأجل الوصول إلى هذا المقام وحيث وصلت إليه سقطت عنك جميع العبادات وكذلك المحرمات، والمكروهات إنّما حرمها الله على من لم يصل إلى هذا المقام وأما من وصل إليه مثلك فلا يحرم عليه شيء، فيصدقه لاعتقاده أنه هاتف رباني ويترك الواجبات ويقع في المحرمات ويكفر لإبطال الشريعة إلى غير ذلك، وهو ظلمة لا ساحل له ولا يعلم كيفية السلوك فيه إلا العارفون بالله الذين طلعت في قلوبهم شمس الأرواح واستنارت بواطنهم وظواهرهم بأنوار حضرة الله، وقد زلت في هذا البحر أقدام وهلكت فيه أقوام، نسأل الله السلامة في ديننا ودنيانا، فلذلك طلب الشيخ رضي الله عنه من الله أن يحفظه من أوحال التوحيد، فافهم.

قوله: "وأغرقني في عين بحر الوحدة حتّى لا أرى
ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها"

أراد رضي الله عنه ببحر الوحدة أسرار أنوار حجب صفات الذات العلية، فمعنى كلام الشيخ رضي الله عنه اللهم لا قوة لي وأنت القوي وحدك كما تفضلت علي وأدخلتني في بحار أسماء ذاتك وحفظتني من أوحال التوحيد في تلك البحار، فأدمْ إغراقي في بحر صفات ذاتك العلية حتّى لا أرى بعيني شيئاً إلا رأيت بقلبي ذاتك العلية، ولا أجد شيئاً إلا عاينت ذاتك بذلك، ولا أحس بشيء إلا شاهدت به ذاتك

العلية، وتبثني في مقام من أحببته وأخبرتنا به على لسان رسولك صلى الله عليه وسلم بقولك: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها" والله أعلم.

تنبيهان:

الأول: إنّما عبر الشيخ عن حجاب الصفات ببحر الوحدة بإفراد لفظ البحر، كأن الصفات مع الذات كالشيء الواحد لقيامها بالذات والذات واحدة، وعبر عن حجاب الأسماء هنا بلفظ غير قائمة بالذات العلية وهو بحر من نور فهي بِحار متعددة.

الثاني: من غرق في بحر أنوار الصفات شاهد الوحدة وهي أعلى مقامي المشاهدة، ومن دخل بِحار أنوار الأسماء شاهد الأحدية وهو أضعف من الأول، ومن دخل في حجاب الأفعال وكان مؤيداً بالتوفيق اعتقد الوحدانية، والمقامان الأولان توحيد خاصة الخاصة، والثالث توحيد العامة والخاصة، ومن لم يدخل حجاب الأفعال فليس بمؤمن ولا تصح له واحدية ولا أحدية ولا وحدة، فالواحدية توحيد العامة والخاصة، والأحدية والوحدة توحيد خاصة الخاصة، وهما مقامان في المشاهدة وأعلاهما الوحدة وهو توحيد من كان مستغرقاً في بحر أنوار الصفات وهو يشاهد الذات العلية من وراء حجاب الكبرياء والعظمة، ويليه مقام الأحدية وهو توحيد من كان مستغرقاً في بِحار أنوار الأسماء وهو يشاهد بحر أنوار الصفات وربّما لمح الذات من بحر أنوار الصفات، فالشيخ رضي الله عنه طلب الثبوت في مقامي المشاهدة والدوام فيهما والزيادة من علومها، والله أعلم، وليس هذا من طلب الحظوظ أيضاً فافهم.

قوله: "واجعل الحجاب الأعظم حياة روحِي"

مراده رضي الله عنه بالحجاب الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم في قوله "وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك"، وتقدم بيان كونه صلى الله عليه وسلم حجاب الله الأعظم، وقد تقدم لنا في شرح قوله "اللهم صل..." أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو حياة الأرواح، فالشيخ رضي الله عنه طلب من الله زيادة اتصال روحه به عليه السلام ودوام حياة روحه به صلى الله عليه وسلم، والله أعلم.

قوله: "وروحَه سرَّ حقيقتي"

أي اللهم اجعل روح سيدي محمد سر حقيقتي، أي روح حقيقتي، ومراده رضي الله عنه بحقيقته جسده وروحه، فقد طلب رضي الله عنه من الله تعالَى أن يمزج روحه عليه السلام بجسد الشيخ وروحه، فيحيَى بذلك جسده باتباع سنته وتحيَى روحه بشدة محبته

ومعرفته ومعرفة الله تعالَى ومحبته وتحقيق عبوديته والقيام بحق ربوبيته.

قوله: "وحقيقته جامع عوالِمي بتحقيق الحق الأول"

تقدم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول شيء خلقه الله، وأن جميع المخلوقات خلقها من نوره صلى الله عليه وسلم، وأنه أصل لجميعها، فالشيخ رحمه الله طلب من الله سبحانه أن يجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي ذاته وروحه جاذبة لجميع عوالِمه حتَى ترجع جميع عوالِمه إلَى أصلها الذي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتجتمع عوالِمه مع حقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعاً محققاً بالتحقيق الذي هو الحق الأول حيث لم يكن في الوجود سوى نوره صلى الله عليه وسلم.

فحاصل كلام الشيخ أنه طلب من الله تعالَى أن يجعل الأصل وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم جاذباً لعوالِم الشيخ وهو جسده وروحه وأوصافه التِي هي بعض فروع نوره صلى الله عليه وسلم، وأن يجعل عوالِمه مع أصلها جمعاً محققاً بالتحقيق الأول قبل أن يوجد شيء من الفروع في الظاهر ولكن كانت موجودة بالقوة في أصلها وهو نوره عليه السلام.

وقوله: "يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن، اسْمع ندائي بِما سمعت به نداء عبدك زكرياء عليه السلام، وانصرني بك لك"

أتى رضي الله عنه في نداء الله تعالَى بالياء التِي ينادي بِها البعيد، إشارة إلَى بُعْد نفسه من الله سبحانه، وأن الله تعالَى أقرب إلَى كل عبد من حبل وريده بل هو سبحانه لشدة قربه من العبد يحول بين المرء وقلبه. واختار رضي الله عنه هذه الأسماء دون غيرها من أسماء الله تعالَى لِمناسبتها لما ذكر في كلامه في هذه الصلاة. أما الأول والآخر فإن الشيخ رضي الله عنه لما فهم من كلامه أن نور رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول العوالِم وأن جميعها تفرعت منه كان فيها بعض إيهام لِمن هو قصير العقل رفع ذلك بذكر اسْمه تعالَى الأول واسْمه الآخر. وأما الظاهر والباطن، فاسْمه تعالَى الظاهر مناسب لقول الشيخ "حتَى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بِها"، واسْمه تعالَى الباطن مناسب لقوله "وانشلنِي من أوحال التوحيد" لأن من غاب في نور اسمه الظاهر عن نور اسمه الباطن توهم الاتحاد وذلك ماثل كما تقدم في شرح قول الشيخ "وانشلنِي من أوحال التوحيد".

ومعنَى قوله "اسْمع ندائي" استجبْ دعائي.

فمعنًى كلامه رضي الله عنه يا أول الذي لا ابتداء لأوليته، ويا آخر الذي لا انتهاء لآخريته، ويا ظاهر في كل شيء، ويا باطن عن كل شيء استجبْ جميع دعائي الذي دعوتك به، بحق اسمك الذي دعاك به عبدك زكرياء عليه السلام فأجبت دعاءه، وذلك حين سألك الولد فاستجبتَ له بعد يأس أهله وكبر سنه، وبالله التوفيق. وإنّما خص زكرياء لأنه طلب أمراً على خلاف العادة فأجابه الله تعالى، وذلك غاية في إجابة الدعاء.

قوله: "وأيدني بك لك، واجمع بيني وبينك، وحُلْ بيني وبين غيرك"

هذه كلها معطوفات، ومعنًى ذلك يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن استجبْ دعائي الذي دعوتك به، وأدمْ نصرتي بقدرتك لأقوم بِما طلبتني من حق ربوبيتك، إذ لا قوة لأحد على ذلك إلا بك، وأدمِ الجمع بين قلبي وبين محبتك ومشاهدتك، وحُلْ بين قلبِي وبين محبة غيرك ومشاهدته بنور ذاتك وعظيم قدرتك وجميل فضلك، إذ لا وصول لذلك إلا بقدرتك، ولا دوام لأحد إلا بقدرتك وعنايتك.

قوله: "الله الله الله"

تقدم أن الذات محتجبة عن الخلق بثلاث حجب: حجاب الصفات وحجاب الأسماء وصفات الذات. فإذا قال العارف بالله مثل الشيخ رضي الله عنه "الله" نفذ الحجاب الحادث وتركه من ورائه ظلا وخيالاً إن كان من أهل الصحو، وإن كان من أهل السكر كما كان ابن الفارض رضي الله عنه وأمثاله ترك جميع العوالِم من ورائه عدماً محضاً. وإذا كرر اسم الجلالة ثانياً، غرق في بحر أنوار الأسماء ولمح الذات العلية من وراء حجب الكبرياء والعظمة والجلال. فإذا كرر اسم الجلالة ثالثاً غرق في بحر أنوار الصفات وشاهد الذات العلية بصفات الجلال والجمال. فلما كانت الحجب ثلاثاً كرر الشيخ اسم الجلالة ثلاثاً، ففي كل مرة تقطع بصيرة العارفين حجاباً من تلك الحجب، غير أن الحجاب الحادث تنفذ منه بصائرهم النفوذ الكلي ويتركونه من ورائهم ظلا وعدماً، والحجابان القديمان لا يمكن النفوذ منهما نفوذاً كلياً، إذ القديم لا ينعدم، ولكن الله سبحانه أغرق بعظيم كرمه وجوده بصائر أحبائه وخاصة أوليائه بحور أنوار أسمائه وصفاته محمولون في سفينة عنايته ويروح عليهم بنسيم لطفه ويتجلى سبحانه لقلوبِهم باسمه النور، فتمتلئ قلوبُهم من أنواره حتّى يشاهدون ذاته العلية من وراء حجاب أنوار الصفات على الهيئة التِي تليق بجلاله، إذ الأزمنة والأمكنة وكل حادث قد فنِي عندهم وصار خيالاً وعدماً وتحققون بِمعنًى قوله عليه السلام: "كان الله

ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان"، وبالله التوفيق.

قوله: "إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلَى معاد"

في معنَى الآية عند المفسرين ثلاثة أقوال، أظهرها أن المعاد المراد به مكة لأن الآية نزلت حين الهجرة فهي وعد بفتح مكة والرجوع إليها، وفيها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في غربته وخروجه من وطنه بإخبار الله تعالَى إياه سيرده إلَى بلده ووطنه، هذا ما يُفهم من ظاهر الآية هذا القول. وقد يُفهم من باطنها أهل الباطن غير هذا، لأن معاني القرآن لا تدخل تحت حصر، فهو كموج البحر في مدد وفوق جوهره في الحسن والقيم، فما تُعد ولا تُحصى عجائبها، كما قال الإمام البوصيري في بردته. ولقد حكي عن بعض العارفين أنه قال: "كنت أقرأ الآية من القرآن ففتح علي سبعون باباً من العلم". وأذكر شيئاً من معاني الآية باعتبار علم الحقيقة توطئة لفهم مراد الشيخ رضي الله عنه فأقول، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب:

اعلم أن المعاد في اللغة هو الموضع الذي يرجع إليه، والرجوع إليه يقتضي أنه كان فيه، ويُفهم من نزول الآية حين الهجرة أن المعاد هو الموضع الذي كان وطناً لِمن وعد بالرجوع إليه، وقد كان فيه آمناً مطمئناً حتَّى صار عنده من أحب البقاع، فلما خرج منه هبت عليه رياح الغربة والوحشة والدهشة وتألَّم من مفارقة وطنه الذي كان فيه آمناً مطمئناً، فإذا كان من أهل محبة الله مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجميع أحبائه لما لطفه المولَى سبحانه تأنيساً له مما أصابه من الوحشة وتثبيتاً له مما أصابه من الدهشة وإعلاماً بأنه سيرده إلَى وطنه الذي تألَّم بفراقه بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾.

ثم اعلم أن وطن الإنسان ينقسم إلَى حسي وهو الجسد، ومعنوي وهو وطن الروح. أما الوطن الحسي فهو معلوم، وأما الوطن المعنوي فهو محل إقامة الأرواح في المعلوم والمعارف الربانية. ولنقتصر على بيان وطن أرواح خاصة الخاصة الذين كان الشيخ رضي الله عنه منهم لنبين مراده رضي الله عنه بذكر الآية، فنقول:

اعلم أن وطن أرواح العارفين بالله في المعلوم والمعارف أنهم يشاهدون الأكوان كلها خيالاً وعدماً محمولون في سفينة عناية الله تعالَى في وسط بحار أنوار أسمائه تعالَى وصفاته، وهم مشاهدون لصفاته سبحانه غاية المشاهدة وهو سبحانه يروح عليهم بنسيم لطفه وهم في مشاهدة ذاته العلية مشاهدة البرق... فتظهر لهم مرة ويُحجبون عنها بأنوار الصفات مرة أخرى بسرعة وذلك من عظيم لطفه سبحانه بهم،

ولقد أحسن بعضهم في الإشارة إلى هذا المعنى بقوله في قصيدة ملحونة:

مثـل البـرق تظهـر كـذلك تَخفـى ولـولا ذي المعنى ما عـاش مـن عرفا

فهذا وطن أرواحهم في المعارف والمعلوم، وقد تقوى عليهم مشاهدة الذات العلية قوة شديدة فتخرج بذلك أرواحهم عن وطنها المذكور إلى موضع لا يطيقونه، وقد تخرج أرواح بعضهم من جسدها حينئذ فتموت شوقاً إلى لقاء الله، وقد تحصل لبعضهم وحشة ودهشة فيلقي الله في قلوبهم هذه الآية تأنيساً وتثبيتاً لهم، ولقد رأيت بعض الناس ممن فتح الله عليهم وجعل وطن روحه وطن أرواح العارفين وهو يقرأ صلاة الشيخ هذه حتى وصل إلى قوله: "الله الله الله". فلما نطق باسم الجلالة المرة الثالثة كشف له عن مشاهدة الذات العلية مكاشفة عظيمة فكاد ينشق صدره نصفين لولا أن الله ثبته ورده إلى مقامه بسرعة، فإذا فهمت هذا فالشيخ رضي الله عنه لما نطق باسم الجلالة المرة الثالثة قويت عليه مشاهدة الذات العلية وخرجت روحه من وطنها في المعارف والمعلوم والمشاهدات فأدركه خوف ودهشة ووحشة بخروجه من مقامه الذي كان فيه آمناً مطمئناً إلى موضع مخوف، فألقى الله تعالى هذه الآية في قلبه على وجه الإلهام الرباني فنطق بها تأنيساً لنفسه وتثبيتاً وبشارة برده إلى وطنه الذي كان فيه آمناً مطمئناً، والله تعالى أعلم.

قوله: "ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا"

دعا ربه بدعاء أهل الكهف، لأن كل من انقطع إلى الله تعالى فاراً بدينه مما سواه، ناسب أن يدعو الله بهذا الدعاء، ليحفظه الله، كما حفظ أصحاب الكهف الذين دعوا الله به حين انقطعوا إلى ربهم وفروا بدينهم وآووا إلى الكهف، وليكسوه هيبة حتى لا يقصده أحد فتنة في دينه إلا ولى من هيبته فاراً وامتلأ قلبه منه خوفاً ورعباً، كما كسى أصحاب الكهف بعظيم هيبته تعالى، فينبغي لأهل البدايات ولأهل النهايات أن يكثروا من هذا الدعاء، فإن الله تعالى يتولى أمور من أكثر منه وهو متوكل على الله ومتبرئ من حوله وقوته ويحفظه من دينه ويكسوه هيبة عظيمة حتى لا يقدر أحد أن يؤذيه إذاية تفتنه في دينه، كما فعل سبحانه جميع ذلك بأصحاب الكهف لما دعوا بهذا الدعاء. ولما كان هذا دعاء من انقطع إلى الله تعالى، وكان الشيخ رضي الله عنه من أكابر المنقطعين إلى الله، دعاه به وكرره إلحاحاً، كأن الإلحاح في الدعاء مطلوب لما فيه من إظهار العبودية، وجعله خاتمة كلامه إشعاراً بأنه لا حول ولا قوة له فيما قاله وإنما ذلك نعمة من الله تعالى أجراها على قلبه ولسانه.

وأنا أختم كلامي هذا بما ختم به الشيخ رضي الله عنه فأقول:

"ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأحبائه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين".

ترجمة سيدي محمد بن عبد السلام بناني

قال سيدي محمد بن جعفر الكتاني في كتابه "سلوة الأنفاس":

(الإمام سيدي محمد بن عبد السلام بناني.

الشيخ الفقيه الإمام، العلامة المشارك الهمام، الدراكة المحقق، الفهامة المدرس، المدقق الفصيح، المنور المليح، الصوفي الجليل الأشهر، الصالح البركة الأظهر، العارف بالله تعالى، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد السلام البناني، الفاسي مولداً وداراً، ومنشأ ومزاراً.

كان- رحمه الله- حسبما وجد بخط تلميذه أبي عبد الله سيدي محمد بن الحسن البناني: "شيخ الإسلام، وعلّامة الأعلام، إمام المحققين، ورئيس النظار المدققين، حائز قصبات السبق في الفنون كلها، متضلعاً من فروع العلوم وأصلها، مشتهراً بها شهرة نار على علم، مرجوعاً إليه في حل المشكلات الحوالك الظلم، متصرفاً تصرف أفصح البلغاء باللسان والقلم، فائقاً بعلومه وتقاه أكابر علماء العرب والعجم...".

وكان من الملازمين لتدريس "المختصر" بالقرويين من فاس في مجلس حفيل عام، ويفتي في النوازل والأحكام، وله تحرير في علم النحو، الذي عليه المدار والنحو، ويد في الترسيل وصنعة الشعر والإنشاء، يتصرف في ذلك كيف يشاء، وكان يرتاح للمديح، من كل شاعر مجيد فصيح، فتتوارد القصائد على مجلسه على العادة في الاختتام، وتنشد بمرأى منه ومسمع بألحان وأنغام.

وكان له إذن في تلقين الأوراد الناصرية، ولُقّي لإمامها سيدي أحمد ابن ناصر الدرعي، لقيه بفاس مراراً عديدة، وتبرك به وأخذ عنه.

وله أيضاً ولوع بزيارة الصالحين، لا سيما الأموات، وخبرة بقبورهم.

وكانت له مع الناس أخلاق كريمة، وأوصاف حميدة جسيمة، وهمة عالية في التدريس، يغوص فيه على كل معنًى نفيس، وعلى مجلس هيبة وسكينة ووقار، وجلالة ورفعة وأنوار، يحضره الأعلام، من فقهاء الإسلام، كالمحشي بناني، وأخيه سيدي محمد (فتحاً)، وأخيهما سيدي علي، والشيخ سيدي التاودي ابن سودة المري، وسيدي عبد المجيد المنالي، وأخيه سيدي أحمد، وسيدي علي بن محمد قصارة، وسيدي

عبد القادر بوخريص، وسيدي مَحمد بن الخياط بن إبراهيم، وسيدي أحمد الشرايبي، وسيدي محمد بن محمد بُردلة، وأمثال هؤلاء.

وكان يدرس الفقه بالصف الأول من القرويين ضحوة كل يوم، وله مجلس قبله للحديث بمسجد القاضي عياض من حومة الصاغة، وله مجلس للبخاري، و"الرسالة" بين العشاءين بالمدرسة المصباحية.

وكان أخذه عن شيوخ فاس، كالقاضي أبِي عبد الله بُردلة، وأبِي العباس ابن الحاج، وأبِي عبد الله القسمطيني، وأبِي مروان عبد الملك التاجموعتي، وأبِي مدين بن الحسن السوسي، وأبِي عبد الله محمد بن قاسم ابن زاكور، وأبِي عبد الله محمد بن الصبيتي، وأبِي العباس أحمد بن يعقوب، وسيدي سعيد العميري، وسيدي عبد السلام جسُوس، وأبِي عبد الله محمد ميارة الحفيد، وأبِي الحسن علي ابن محمد بركة، وأبِي علي اليوسي، وأبِي محمد عبد السلام القادري، وأبِي عبد الله المسناوي، وسيدي محمد بن عبد القادر الفاسي، وولده سيدي الطيب... وغيرهم. وأخذ أيضاً عن جماعة من المشارقة، وله عنهم إجازات حسبما تضمنْه فهرسته، وأدرك في صغره الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي وعرض عليه سوراً من القرآن.

وألف- رحمه الله- تآليف، منها: شرح "الاكتفاء للكلاعي" في ستة أسفار، واختصار شرح الشهاب أفندي على "شفاء" القاضي عياض في سفر ضخم، وشرح "لامية الزقاق" في الأحكام، وشرح على "الحزب الكبير" للشاذلي، وشرح على صلاة مولانا عبد السلام، وشرح على خطبة المختصر، وشرحان اثنان على نظم أبِي زيد الفاسي في الاسطرلاب، وتكميل لشرح حدود ابن عرفة، و"فهرسة" ذكر فيها شيوخه من أهل فاس وغيرها... وغير ذلك من التآليف، إلَى ما لا يحصى من الفتاوى والمقيدات، والإفادات والإنشادات.

رحل لتطوان زمن المسغبة العظمى عام خمسين، ورتب له عاملها مرتباً، وبقي يدرس هناك إلَى أن رجع لفاس، ثم لزم الفراش بمرض مدة طويلة.

وتوفي عن سن عالية تقارب الثمانين، ضحوة يوم الأربعاء سادس عشر شهر ذي القعدة الحرام سنة ثلاث وستين ومائة وألف، ودفن عصر يومه المذكور بعد الصلاة عليه بالقرويين، بدار بالزنقة المعروفة بدرب القطان، بين الديوان والصاغة، من عدوة فاس القرويين، وبناها عليه أولاده زاوية بوصية منه، وكان بدء بنائها في حياته، وهي مجاورة لزاوية الولي الصالح سيدي أبِي عياد ابن جلون دفين حومة الصاغة المذكورة،وجعل على قبره بِها دربوز وكسي كأعظم ضرائح السادات، وأوقف عليها

أقاربه أوقافاً لحزب القرآن، وللمؤذن، وللإمام في الصلوات الليلية.

ترجمه في "المورد الهني"، و"النشر"، و"التقاط الدرر"، و"سلوك الطريق الوارية"... وغيرها. وألف ولده الفقيه الحاج الأبر سيدي عبد الكريم البناني المتوفى بفاس تأليفاً في التعريف به سماه: "تحفة الفضلاء الأعلام، بالتعريف بالشيخ أبي عبد الله البناني محمد بن عبد السلام").

شرح سيدي محمد بن عبد السلام بناني رضي الله عنه المتوفى عام 1163هـ، للصلاة المشيشية

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله على أفضاله، والشكر له على ما أولانا من عميم نواله، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خير أنبياء الله وصفوة أرساله، وعلى الطيبين الأكرمين آله وأصحابه، المهتدين بهديه في سائر أحواله.

هذا، ويقول العبد الفقير إلى الله تعالى، المتبرئ من حوله وقوته حالاً ومآلاً، الكئيب العاني محمد بن عبد السلام بن حمدون البناني المالكي المغربي الفاسي: إنّي كنت مع الفقيه الجليل العالِم النبيل الشريف المنيف مولانا عبد الرحمن ابن السيد الأفضل، الشريف النقيب الأمثل، مولانا عبد الواحد الطاهر الحسني الشبيهي الجُوطي، ببلاد الجريد بعد خروجنا وانصرافنا عن مدينة توزر مقفلنا من حج بيت الله الحرام وزيارة نبينا عليه الصلاة والسلام، وتفاوضنا في مسائل علمية وأحاديث شريفة نبوية وأحزاب وأذكار، بدا له أكرمه الله أن التمس منّي تقييداً على الصلاة الشهيرة المنسوبة للشيخ الإمام العارف بالله تعالى مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ونفعنا به، فتعللت بالتقصير والقصور. وأنّى لمثلي التجاسر على التصدي لكلام الفحول الأقطاب البدور. ثم لم يزل يردد الكلام علي ويفوق سهام الطلب والترغيب والتأكيد إلي، فلم أجد بدا من إسعافه بما سعى فيه، واستخرت الله في ذلك واستعنته سبحانه على سلوك صعوبة هذه المسالك. فشرعت بحمد الله في تقييد هذه العجالة أوان السفر، بعد ارتحالنا من منزل الشبيكة التي بقرب توزر يوم الأحد ثامن شوال سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف على وجه لطيف، ومنهج منيف، راجياً بذلك جزيل الأجر والثواب، من فيض مولانا الكريم الوهاب. ولعلني أدخل في حزب هذا الشيخ متعلقاً بأذياله، منخرطاً في سلك جوده وأفضاله.

ونبدأ بذكر بعض ترجمته، فهو رضي الله عنه الشيخ الإمام العالِم العارف بالله الولي

الكبير الشهير القطب المحقق الواصل الموصل، شَمس زمانه، وفريد دهره وأوانه، أبو محمد سيدنا ومولانا عبد السلام بن مشيش- بالميم والمعجمتين بينهما ياء مد، وربّما قيل بشيش بالباء بدل الميم، وإبدال أحدهما من الآخر لغة مازنية - بن أبِي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام - بفتح السين واللام الممدة بعدها ألف مد فميم - واسمه على ما قيل سليمان، بن مزوار- بميم وزاي ساكنة وواو مفتوحة وألِف مد وراء، معناه باللغة البربرية بِكْر أبيه، ويستعمل في رئيس القوم كنقيب الأشراف ورئيس المؤذنين- بن علي الملقب حيدرة - بحاء مهملة مفتوحة وياء تحتية ساكنة ودال مهملة مفتوحة وراء وهاء، وهو في الأصل للأسد - وكان علي رضي الله عنه قد سَمته أمه فاطمة بنت أسد باسم أبيها، ثم سُمي بعلي، ولذلك قال يوم خيبر: أنا الذي سَمتني أمي حيدرة، فصار لقباً له. ثم لقب به علي بن محمد بن إدريس بن إدريس الأكبر، بن عبد الله الكامل المدعو المحض، بن الحسن المثنّى، بن الحسن السبط، بن علي وفاطمة رضي الله عن جميعهم ونفعنا بِهم.

توفي رضي الله عنه شهيداً سنة اثنين أو أربع أو ست وعشرين وستمائة (ابن خلدون). قتله في العَلَم قوم بعثهم لقتله ابن أبِي الطواجين، الكتامي الساحر، المدعي النبوة. وبسبب هذه الدعوى زحفت إليه عساكر سبتة، وكان عند بنِي سعيد، ففر. وقتله بحضرة البرابرة غيلة. وكانت ثورته سنة خمس وعشرين وستمائة.

ودفن الشيخ رضي الله عنه في قنة الجبل المسمى بالعَلَم.

قال الشيخ سيدي العربِي الفاسي في مرآة المحاسن: وآثاره هنالك كثيرة، كمغارة للخلوة والعبادة، ومسجد جدرانه نحو القامة أو أكثر، من أحجار مرتبة، وموضع لارتقاب الفجر، وغير ذلك. وتحت ذلك بأكثر من ميل عين كان يتوضأ فيها، ومقتله فوقها بقريب. فيقال إنه توضأ فيها عند الفجر وقصد الصعود لِمحل عبادته وارتقابه للفجر فقتلوه هنالك. ومن الشائع أنه ألقي عليهم ضباب كثير كثيف أضلهم عن الطريق، ودفعوا إلى شواهق تردوا منها في مهاوي سحيقة تَمزقت بِها أشلاؤهم ولم يرجع منهم مخبر. وعلى هذه العين، بِمقربة منها، مسجد عليه جدار دون القامة من أحجار دون طين هو محط رحال زوار ضريح الشيخ. وتحت هذه العين بِمسافة أخرى رسوم دار الشيخ التي كان يسكنها، ولا ساكن هنالك اليوم. وإنّما العمران في سفح الجبل دائراً به في مداشر وعمائر كثيرة يسكنها أهل هذا النسب الكريم، ومعهم كثير من غيرهم.

ونقل عن الشيخ سيدي عبد الله الغزوانِي رضي الله عنه أن روضة

مولانا عبد السلام، نفعنا الله به، مشتملة على ثلاثة قبور: الوسط منها هو قبر الشيخ مولانا عبدالسلام، والذي خلف ظهره قبر ولده سيدي محمد، والذي بين يديه قبر خديمه بن خدامة.

هذا، ويروى أن الشيخ مولانا عبد السلام كان يوماً بإزاء خلوته جالساً يتلو القرآن ومعه تلميذه أبو الحسن، حتّى وصل في سورة الأنعام إلَى قوله تعالَى ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾، فورد عليه وارد إلَهي، ونزل به حال قوي اقتطعه عن حسه واستغرق فيه مدة. فلما أفاق رفع يديه إلَى السماء داعياً، فكان من دعائه (اللهم من سبق له الشقاء منك والحرمان فلا يصل إلَي، ومن وصل إلَي أكون له شفيعاً يوم القيامة. اللهم لا تبعث لنا من حكمت بشقائه). ووقعت حكايات تشهد لِهذا من إسلام بعض الكفرة حين قارب الضريح المذكور، ورجوع بعض الفسقة الذاهبين بقصد الزيارة بعد أن لم يبق بينهم وبين الضريح إلا يسير لأسباب اتفقت لَهم، نسأل اللهم السلامة.

وأما علو قدره، وجلالة منصبه، وعظيم خصوصيته، فذلك أمر شهير لا يحتاج إلَى استدلال عليه ولا برهان يستند إليه. وقد تغلغل رضي الله عنه في علوم القوم التِي مدارها على التخلق بأخلاق النبِي صلى الله عليه وسلم الذي كان خلقه القرآن، فنال من مقام المعرفة بالله الحظ الأوفر، وطريقه طريق الغنَى الأكبر.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه فيما حكى عنه ابن الصباغ: دخلت العراق واجتمعت بالشيخ الصالح أبِي الفتح الواسطي، فما رأيت مثله، وكنت أطلب على القطب فقال لِي بعض الأولياء: تطلب على القطب بالعراق وهو ببلادك؟ ارجع إلَى بلادك تجده. فرجعت إلَى بلاد المغرب، إلَى أن اجتمعت بأستاذي رضي الله عنه.

وقال الشيخ أبو الحسن أيضاً: كنت يوماً بين يدي أستاذي فقلت في نفسي: ليت شعري هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم، فقال ولد الشيخ وهو في آخر المكان الذي أنا فيه: يا أبا الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم، الشأن من يكون هو عين الاسم. فقال الشيخ من صدر المكان: أصاب وتفرس فيك ولدي. قيل وكان الولد المذكور من ثلاث سنين.

وقال الشيخ أبو الحسن: أوصاني حبيبي، يعني الأستاذ ابن مشيش، فقال: "لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطفي لنفسك إلا من تزداد به يقيناً، وقليلٌ ما هم". وقال أيضاً رضي الله عنه: أوصانِي أستاذي فقال: "الله الله والناس نزة

لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثيل من قبلهم، وقل اللهم ارجمني من ذكرهم، ومن العوارض من قبلهم، ونجني من شرهم، واغنني بخيرك عن خيرهم، وتولني بالخصوصية من بينهم، إنك على كل شيء قدير".

وقال رجل للشيخ رضي الله عنه: يا سيدي وظف علي وظائف وأوراداً أعمل بها، فقال: "أرسول أنا؟ الفرائض مشهورة، والمحرمات معلومة، فكن للفرائض حافظاً، وللمعاصي رافضاً، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا وحب الجاه وإيثار الشهوات، واقنع من ذلك بما قسم الله لك. إذا خرج لك مخرج الرضا، فكن لله فيه شاكراً. وإذا خرج مخرج السخط فكن عليه صابراً. وحب الله قطب تدور عليه الخيرات، وأصلٌ جامع لأنواع الكرامات. وحصون ذلك كله أربعة: الورع وحسن النية وإخلاص العمل ومحبة العلم. ولا تتم له هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح".

وقال رجل: يا سيدي أستأذنك في مجاهدة نفسي، فقال رضي الله عنه: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

وقال الشيخ أبو الحسن: أوصاني أستاذي رحمه الله فقال: "لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قل ما يدوم، واصحب من إذا ذكر ذكرَ الله، فالله يغني به إذا شهد، وينوب عنه إذا فقد، ذكره نور القلوب، ومشاهدته مفاتح الغيوب". قال: وسألت أستاذي رضي الله عنه قوله عليه السلام: "يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا". فقال:"دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره، فإن من دلك على الدنيا فقد غشك، ومن دلك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد نصحك".
وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كنت في سياحتي، في مبدأ أمري حصل لِي تردد، هل ألزم البراري والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار، أو أرجع إلَى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخيار. فوصف لِي وليًا هنالك وكان برأس جبل. فصعدت إليه ليلاً فقلت في نفسي لا أدخل عليه في هذا الوقت، فسمعته وهو يقول من داخل المغارة: "اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لَهم خلقك فسخرت لَهم خلقك فرضوا منك بذلك، اللهم وإنّي أسألك اعوجاج الخلق علي حتّى لا يكون ملجئي إلا إليك". قال فالتفت إلَى نفسي وقلت يا نفسي انظر من أي بحر يغترف هذا الشيخ. فلما أصبحت دخلت عليه فارتعبت من هيبته، فقلت: يا سيدي كيف حالك؟ فقال: "أشكو إلَى الله من

برد الرضا والتسليم كما تشكو من حر التدبير والاختيار"، فقلت له: أما شكواي من حال التدبير والاختيار فقد ذقته، وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا؟ فقال: "أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله تعالَى". فقلت يا سيدي سَمعتك البارحة تقول: "اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لَهم خلقك فسخرت لَهم خلقك الخ"، فتبسم ثم قال: "يا بنَي عوض ما تقول سخرْ لِي خلقك، قل يا رب كُنْ لِي، أترى إذا كان لك أيفوتك شيء؟ فما هذه الجبانة؟".

وأما طريقه رضي الله عنه فأخذها عن الشيخ أبِي محمد عبد الرحمن بن الحسن الشريف العطار المدني الملقب بالزيات لسكناه بحارة الزياتين. وكان الشيخ سيدي عبد السلام في صغره قد انقطع للعبادة في مغارة بِجبل العلم بعد أن أدركه الجذب وهو ابن سبع سنين، فدخل عليه بعد مدة رجل عليه سيما أهل الخير والصلاح، فقال: أنا شيخك الذي كنت أمدك من وقت الجذب إلَى الآن. ووصف له ما وصل إليه على يديه من المنازلات والمعارف مضافاً إلَى زمانه. وفصَّلَ ذلك له مقاماً مقاما، وحالاً حالا، وعيَّن لكل ذلك زمنه. ثم سئل رضي الله عنه بعد ذلك: هل كان يأتيك أو كنت تأتيه؟ فقال: "كل قد كان". فقيل له: طياً لِمسافة المكان أو سفراً؟ قال: "طياً".

وأخذ شيخه المذكور عن عارف وقته القطب تُقي الدين الفُقير، بالتصغير فيهما، لقب نفسه بذلك، وهو من أرض العراق، وهو عن القطب فخر الدين، عن القطب نور الدين أبِي الحسن علي، عن القطب تاج الدين، عن القطب شَمس الدين بأرض الترك، عن القطب زين الدين القزويني، عن القطب أبِي إسحاق إبراهيم المصري، عن القطب أبِي القاسم أحمد المرواني، عن القطب أبِي محمد سعيد، عن القطب سعد، عن القطب محمد فتح السعود، عن القطب سعيد الغزواني، عن القطب أبِي محمد جابر، عن أول الأقطاب أبِي محمد الحسن بن علي بن أبِي طالب سبط سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ذكر هذا السند هكذا سبط الشيخ أبِي الحسن الشاذلِي رضي الله عنه. وقال الشيخ أبو العباس المرسي الأنصاري، المتوفَى بالإسكندرية سنة ست وثمانين وستمائة، في طريقة سيدي عبد الرحمن المدني أنّها متصلة بالأقطاب، معنعنة برجل رجل إلَى أول الأقطاب الحسن بن علي بن أبِي طالب عن النبِي صلى الله عليه وسلم.

ويقال إن الشيخ عبد الرحمن المدني أخذ عن سيدي جعفر بن عبد الله بن أحمد بن سَنذ لُونَة الخزاعي الأندلسي المتوفى سنة أربع وعشرين وستمائة، عن الشيخ أبِي مدين شعيب بن الحسن الخزاعي الأندلسي المتوفى سنة أربع وتسعين وخمسمائة عن نحو خمس وثمانين سنة، وقد خرج من دائرته كما قيل ثلاثمائة قطب، دون الصالحين.

وأخذ سيدي أبو مدين عن سيدي أبِي يعزى الذي كان سيدي يحيى السراج يقول فيه: ماء زمزم وما شُرب له ويس وما قُرئ له، وأبو يعزى وما زير له، وعن القطب سيدي عبد القادر الجيلانِي المتولد سنة سبعين وأربعمائة، والمتوفى سنة إحدى وستين وخمسمائة، القائل: أخذت العهد على ربِّي أن لا يدخل النار أحد من أتباعي إلَى يوم القيامة. وصح أنه قال: إن لم يكن صاحبِي جيداً فأنا جيد، وعزة ربِّي لا برحت قدماي من يدي ربِّي حتَّى ينطلق بِي وبكم إلَى الجنة. وضمن لِمريده إلَى يوم القيامة أن لا يموت إلا على توبة. وقال: من توسل بِي في حاجة قضيت. قالوا وكيفية التوسل به أن تصلي ركعتين بالفاتحة والإخلاص عشر مرات في كل ركعة، ثم تصلي على النبِي صلى الله عليه وسلم، ثم تخطو إلَى جهة العراق إحدى عشرة خطوة وتذكر اسمه وتذكر حاجتك، فإنَّها تقضى إن شاء الله. وعن سيدي أبِي الحسن بن غالب المتوفَّى في حدود السبعين وخمسمائة، وعن الشيخ الصالح أبي عبد الله الدقاق أحد أكابر الصوفية، وكان يتردد بين فاس وسجلماسة، وكان يقول: أنا أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف. وأخذ سيدي أبو مدين عن سيدي علي بن حرزهم المتوفَّى سنة تسع وخمسين وخمسمائة. ويقال إن سيدي أبا مدين رضي الله عنه أخذ عن سيدنا الخضر عليه السلام وعلَّمه قاعدة في تعبير الرؤيا، وذلك بأن يعد من سور القرآن من الفاتحة بقدر الأيام الماضية من الشهر حين الرؤيا، فالسورة التِي وقف فيها يعد من آياتها بقدر تلك الأيام الماضية من الشهر، فالآية التِي يقف فيها ففيها تعبير رؤياه.

وتتصل لنا طريقته رضي الله عنه عن شيخنا الإمام جمال الإسلام أبِي عبد الله محمد ابن شيخ المشايخ أبِي محمد عبد القادر الفاسي عن عبد الله أبِي زيد عبد الرحمن بن محمد عن الشيخ النظار أبي عبد الله القصار عن الشيخ سيدي رضوان عن سيدي سعيد القاصمي السفياني عن القلنسوي عن الواسطي عن الميرومي عن الشيخ أبي العباس المرسي عن الشيخ أبِي الحسن الشاذلِي عن سيدي عبد السلام بن مشيش وهو القائل:

(اللهم) يا الله خص به النداء لأنه جامع لِمعاني صفة الله وأسمائه، ولذا يجعل في أول الأدعية غالباً. قال أبو الرجاء العطاردي: في قولك "اللهم" تسعة وتسعون اسماً من أسماء الله تعالَى. وقال النضر بن شميل: الميم فيه بِمثابة ميم الجمع، فإذا قلت "اللهم" فكأنك دعوت الله بأسمائه كلها. فعلى هذا، فمن دعا أو توسل به فكأنَّما دعا بأسماء الله تعالَى وتوسل بها. ولذلك قال الحسن البصري: "اللهم" مجمع الدعاء. وقال أبو محمد ابن السيد لا خلاف أن "اللهم" بِمعنَى يا الله، والميم زائدة. ثم اختلفوا على

ثلاثة أقوال: فسيبويه: الميم عوض من حرف النداء فلا مجمع بينهما. وقال الفراء معنى "اللهم" يا الله آمنا بخير، حذفت الهمزة وأبقيت حركتها على الهاء. ورد بأنه دعوى لا دليل عليها، وبأن "اللهم" يستعمل في مواضع لا يصح فيها هذا التقدير. وقول ثالث: إن الميم زيدت للتفخيم والتعظيم، وإن كانت عوضاً عن ياء النداء. وهذا أحسن الأقوال. ويؤيده ما جاء في التفسير قول الحسن البصري "اللهم" مجمع الدعاء، وقول ابن شميل هو دعاء بجميع أسمائه، ومعناه أن الميم من علامة الجمع فزيدت هنا لتشعر بأن هذا الاسم اجتمعت فيه أسماء الله تعالَى كلها، فكأنك قلت يا الله الذي له الأسماء الحسنَى. ولأجل هذا فتحت الميم لتكون بإزاء الفتحة في مسلِمى، وشددت لتعادل الحرفين في مسلمين. قال سيبويه: شددت لتعادل حرف النداء المحذوف. ولهذه الخصائص ذهب من ذهب إلَى أنه اسم الله الأعظم فيما يرى، والله أعلم. انتهى باختصار.

وقال الشيخ أبو عبد الله العربي الفاسي في شرحه لـ "دلائل الخيرات": "وما ذكره من استغراق الميم لجميع الأسماء والصفات هو زيادة على ما تقرر من أن اسم الجلالة اسم للذات باعتبار اتصاف الذات بجميع الصفات الواجبة، لا مجرداً عن هذا الاعتبار. فلفظ "اللهم" حقيق أن يتوجه به في الدعاء لِما تضمنه من عظيم الثناء".

(صل) له: أدم وزد صلاتك، أي ثناءك أو رحمتك المقرونة بالتعظيم المنبعثة عن العطف والحنان، فإن الصلاة من الله تعالَى على نبيه كمالاً في العالية، ثناؤه عليه عند ملائكته، وصلاة الملائكة الدعاء له. وعن ابن عباس: صلاة الملائكة الدعاء بالبركة. وقيل: صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة استغفار. وقيل: الصلاة من الله رحمة مقرونة بالتعظيم، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين تضرع ودعاء. وذهب جماعة إلَى أن معنَى الصلاة واحد وهو العطف، ثم هو من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين دعاء. واختار في المغني. ورد قول الجماعة بأنه منها اقتضاؤه الاشتراك، والأصل عدمه لِما فيه من الإلباس. منها ما لا يعرف في العربية فعل واحد يختلف معناه باختلاف المسند إليه إذا كان الإسناد حقيقياً. ومنها أن الرحمة فعلها متعد والصلاة فعلها قاصر، ولا يحسن تفسير القاصر بالمتعدي. ومنها أنه لو قال مكان "صلى عليه" دعا عليه، انعكس المعنَى. وحق المترادفين صحة حدود كل منهما محل الآخر. ومنها أنه يلزم عليه التكرار في قوله تعالَى ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾. ومنها أنه نحو يلزم جواز رحمة الله عليه الخ. وأورد الدماميني بحصر أمور ردها الشمنِّي على أن اعتراضه بالرابع وارد. وأما استدلال بعضهم على استعمال

المشترك في معاني المبني على الأول بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ فقد تعقب بأن سياق الآية لإيجاب الاقتداء به تعالى والملائكة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فلا بد من اتخاذها في الجميع، إذ لو قيل إن الله يرحم النبي والملائكة يستغفرون له يا أيها الذين آمنوا ادعوا له، لكان من الركاكة بالمحل الأوفى، فإذاً لا بد من اتخاذ معناها، حقيقياً كان أو مجازياً. أما الحقيقي فهو الدعاء، والله أعلم، أن الله يدعو بذاته بإيصال الخير إليه صلى الله عليه وسلم. ثم من لوازم هذا الدعاء الرحمة، فالذي قال إن الصلاة من الله رحمة إنّما أراد هذا لأنّها وضعت للرحمة، كما قيل في قوله تعالى ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ إن المحبة منه تعالى إيصال الثواب، ومن العبد الطاعة. وليس المراد أن المحبة مشتركة من حيث الوضع، بل المراد أنه أراد من المحبة لازمها، واللازم منه تعالى ذلك، ومن العبد هذا. وأما المجازي فإرادة الخير له ونحوه مما يليق بالمقام. ثم إن اختلف ذلك المعنى لاختلاف الموصوف فلا بأس به ولا يكون من باب الاشتراك بحسب الوضع. هذا الفرق بين مذهب الجمهور، وما في المغني أن معنى الصلاة على الثاني لم يختلف في نفسه، بل هو موجود مع كل مسند إليه حقيقة على ما يليق به، فهو من قبيل المتواطئ والمشكك، وعلى الأول من قبيل المشترك.

وإنّما قلنا معناه أدم صلاتك وزدها، لأن المراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة، وإلا كان طلب تحصيل ما هو حاصل.

واعلم أن الدعاء بلفظ الصلاة، خاص بالأنبياء والملائكة شرعاً تعظيماً لهم، ويجوز لغيرهم تبعاً لهم، ويكره استقلالاً لأنه صار في العرف شعاراً للأولين (البيضاوي). ولذلك كره أن يقال "محمد عز وجل" وإن كان صلى الله عليه وسلم عزيزاً وجليلاً. وكذا السلام ما لم يقع خطاباً لمؤمن حقيقة أو تنزيلاً، كالمراسلات. ويستثنى من غير النبي لقمان ومريم على الأشهر من أنّهما ليسا نبيين، فلا يكره. كما للنووي في أذكاره، قال: لأنّهما ارتفعا عن حال من يقال له رضي الله عنه.

تنبيهات: الأول:

نقل الخطاب عن بعض الشافعية أن استعمال التصلية بدل الصلاة موقع في الكفر، لأن معناها الإحراق، وإن وقع في عبارة النسائي، فلا يقال "صلى على النبي تصلية". وقال السعد أيضاً في التلويح. وفي القاموس صلى صلاة ولا تقل تصلية (الشهاب الافندي)، وهي دعوى باطلة دراية ورواية. أما الأول فلأنه مصدر قياسي كـ "كرّمته تكريماً وتكرمة". وأكثر أهل اللغة لا يذكرون المصادر القياسية فيضر بعضهم عدمها.

وقد وضع لصاحب القاموس (مهلة) في مواضع. وأما الثاني فلأنه ورد عن العرب وأثبته ثعلب في أماليه، وابن عبد ربه في العقد والدرر، وأنشدوا عليه في الشعر القديم:

تركتُ المُدامَ وعزفَ الغنا وأدمنتُ تصلية وابتهالا

وصرح به الزوزني في مصادره الفارسية. وبه يعلم ما في كلام المنكرين له. فإن قيل سبب المنع أن التصلية بمعنى الإحراق، فإطلاقها إيهام لِما لا يليق، فلذلك منع. وإن صح لغة قلنا كما وردت التصلية بالمعنيين كذلك الصلاة وردت بمعنى الإحراق أيضاً، كما في القاموس وغيره. ومجرد الشهرة في أحدهما أمر سهل لا يوجب منعا.

الثاني: هل منفعة الصلاة والسلام راجعة للمصلي والمسلم، فهما دعاء على وجه التقرب بذلك إلَى الله تعالَى أو له وللمصلى عليه (الشيخ السنوسي)، ليسا كسائر الأدعية التِي يقصد بِها المدعو له. وقال ابن عربِي: فائدة الصلاة ترجع للمصلي لدلالتها على خلوص النية وإظهار المحبة وغير ذلك، وللمصلى عليه أيضا لأن مواهب الله لا نِهاية لَها. قال القرطبِي: إن النبِي صلى الله عليه وسلم يزيده الله رفعة وشرفاً بدعاء الله له وصلاته عليه لأنه ينتفع بذلك. وقال القشيري: الأمر بالصلاة على النبِي صلى الله عليه وسلم إشارة على أن العبد لا يستغنِي عن الزيادة من الله في وقت من الأوقات، إذ لا رتبة فوق رتبته صلى الله عليه وسلم، وقد احتاج إلَى زيادة صلوات الله عليه. ووُفق بينهما بأن الأول تنبيه على الأدب في القصد، والثانِي إخبار عن كرم الله تعالَى وعدم تناهي أفضاله. وتلخص أن الله تعالَى جعل صلاة العبيد على رسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم وسيلة للقرب منه، والقرب من النبِي صلى الله عليه وسلم قرب من ربه تعالَى. قالوا كما جعلت هدايا الفقراء إلَى الأمراء وسيلة يتقربون بِها إليهم ويعود نفعها عليهم. وإلا فهو عليه السلام غنِي عن ذلك بصلاة ربه عليه، لكن شرعت تعبداً لِمن يريد القرب من رب الأرباب. فكانت لذلك من أهم المهمات، كما أفصح بذلك الشيخ العارف بالله أبو عبد الله سيدي محمد بن سليمان الجزولِي رضي الله عنه.

الثالث: أهمية الصلاة على النبِي صلى الله عليه وسلم في حق من يريد القرب من مولانا من وجوه:

منها ما فيها من التوسل إلَى الله سبحانه بحبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، وقد قال تعالَى ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾، ولا وسيلة إليه أقرب وأعظم من رسوله الأكرم.

ومنها أن الله تعالَى أمرنا بِهذا وحضنا عليها تشريفاً له وتكريماً وتنويهاً بعلي جلاله وتعظيماً، ووعد من استعملها بحسن المآب والفوز بجزيل الثواب. فهي من أنجح

الأعمال وأرجح الأقوال وأزكى الأحوال وأحظى القربات وأعم البركات، بها يتوصل إلَى رضا الرحمن، وتنال السعادة والرضوان، وبها تجاب الدعوات، ويرتقى إلَى أرفع الدرجات. وقد أوحى الله تعالَى إلَى موسى عليه السلام "يا موسى أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلَى لسانك ومن وسواس قلبك إلَى قلبك ومن روحك إلَى بدنك ومن نور بصرك إلَى عينك؟ قال: نعم يا رب، قال: فأكثر من الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم".

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم محبوب عند ربه عظيم القدر لديه. وقد صلى عليه هو وملائكته، فوجبت محبة المحبوب. والتقرب إلَى الله تعالَى بمحبته وتعظيمه، والاشتغال بحقه والصلاة عليه والاقتداء بصلاته وصلاة ملائكته عليه. ومنها ما ورد في فضلها من جزيل الأجر وعظيم الذكر، وفوز مستعملها برضا الله وقضاء حوائج آخرته ودنياه.

ومنها ما فيها من شكر الواسطة في نعم الله علينا، فإنه صلى الله عليه وسلم الواسطة في نعم الله علينا إيجاداً وإمداداً في الدنيا والآخرة، وهو السبب في وصولها إلينا بنعمه تابعة لنعم الله، ونعم الله لا يحصرها عدد، كما قال تعالَى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ فوجب حقه علينا بأن لا نفتر في شكر نعمته عن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم مع دخول كل نفس وخروجه.

ومنها ما فيها من القيام برسم العبودية بالرجوع لِما يقتضيه الأصل نفيه، فإنه أبلغ في امتثال أمره بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾. ومن أجل ذلك كانت فضيلة الصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم، على كل عمل. والذي يقتضي الأصل نفيه هو كون العبد يتقرب إلَى الله تعالَى بالاشتغال بحق غيره، لأن قولنا "اللهم صل على محمد" هو اشتغال بحق محمد صلى الله عليه وسلم. وأصل التعبدات أن لا يتقرب إلَى الله إلا بالاشتغال بحقه. ولكن كان الاشتغال بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم، فأجر من الله تعالَى كان الاشتغال بها أبلغ من الامتثال، بمثابة أمر الله سبحانه الملائكة بالسجود لآدم، فكان شرفهم في امتثال أمر الله، وكانت إهانة إبليس بمخالفة أمر الله.

ومنها عرف وجرب من تأثيرها، والنفع بها في التنور ورفع الهمة، حتَى قيل إنّها تكفي عن الشيخ في الطريق وتقوم مقامه، كما للشيخ السنوسي والشيخ زروق.

ومنها ما فيها من سر الاعتدال الجامع لكمال العبد وتكميله. ففي الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الله ورسوله، ولا كذلك عكسه. ولذلك كانت

المثابرة على الأذكار والدوام عليها يحصل به الانحراف، وتكسب نورانيته تحرق الأوصاف وتثير وهجاً وحرارةً في الطباع تخرج عن حد الاعتدال إلى الانحراف. والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تذهب ذلك الوهج، وتقوي النفوس، لأنها كالماء. حتى قالوا إن من فسد مزاجه بالمثابرة على ذكر اسم، فإصلاحه بأن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم إثر صلاة الصبح مائة مرة بقوله "اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله صلاة تخرجني من ظلمات الوهم وتكرمني بنور الفهم وتوضح ما أشكل حتى يفهم، إنك تعلم ولا نعلم وأنت علام الغيوب".

ومن هذه الحيثية أيضاً كانت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم تقوم مقام الشيخ المربي لما فيها من سر الاعتدال الجامع لكمال العبد وتكميله. ففي الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الله، وليس كذلك عكسه، بهذا يحصل الانحراف بالذكر دون الصلاة.

وأما ثمراتها وفوائدها التي يكتسب بها العبد ويقتنيها فكثيرة، عد منها في كتاب حدائق الأنوار ما ينيف على أربعين ثمرة. ومحصلها امتثال أمر الله تعالى وموافقته سبحانه وموافقة الملائكة، وحصول عشر صلوات من الله تعالى على المصلي واحدة، ورفع عشر درجات، وكتب عشر حسنات، ومحو عشر سيئات، ورجاء إجابة الدعوات، وقيامها مقام الصدقة، وكونها سبباً للشفاعة وللغفران، ولكفاية العبد ما أهمه، ولقرب العبد منه صلى الله عليه وسلم، ولقضاء الحوائج، ولصلاة الملائكة على المصلي وطهارته، ولتبشير العبد بالجنة قبل موته، ولنجاته من أهوال يوم القيامة، ولرده صلى الله عليه وسلم على المصلي عليه، ولتذكر المنسي، وطيب المجلس، ومنع نتنه إذا لم يذكر فيه الله ورسوله، وأن لا يعود على أهله حسرة يوم القيامة، ولنفي الفقر واسم البخل عن المصلي إذا صلى عليه عند ذكره، وتأتي بصاحبها على طريق الجنة تخطئ بتاركها طريقها، وكونها سبباً لتمام الكلام الذي ابتدئ بحمد الله والصلاة على نبيه، وسبباً لفوز العبد بالجواز على الصراط، ولخروج العبد عن الجفاء بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، ولرحمة الله وللبركة ولدوام المحبة ولزيادتها وتضاعفها بما هو من عقود الإيمان، ولهداية العبد وحياة قلبه وتثبيت قدمه، ولإلقاء الله تعالى الثناء الحسن على المصلي بين السماء والأرض، ولعرض المصلي عليه وذكره عنده، وكونها منها شكر نعمة الله التي أنعم الله بها على عباده، وكونها متضمنة لذكر الله، وفيها انطباع صورته الكريمة في النفس، وتكسب الأزواج والقصور والحور، وتعدل عتق الرقاب، وترفع معها كل عبادة وكل طاعة من غير انتقاد، بخلاف ما لم تصحبه الصلاة عليه صلى الله

عليه وسلم من العبادات فلا بد من انتقاد الملائكة لها بالإخلاص وعدمه، وغير ذلك، والله أعلم.

هذا، والخطاب إما بحسب المخاطِب بالكسر اسم فاعل، أو بحسب المخاطَب من أجله بفتح الطاء اسم مفعول. وهو هنا بحسب الأول متعسر أو متعذر لأنه لا يخاطب بمقام الرسالة الأحمدية. وكل متكلم فإنّما يصلي عليه، صلى الله عليه وسلم، بحسب معرفته لجانبه واطلاعه على خصوصيته وقربه.

ومن ثم قال **(على من)**، أي سيدنا محمد الذي **(منه)** أي لا من غيره. و"من" ابتدائية أو تعليلية على ما يأتي إيضاحه. والحصر مستفاد من تقديم الجار على عامله وهو **(انشقت)** أي لاحت وظهرت للعارفين **(الأسرار)** الإلهية، جمع سر، وأصله الأمر الخفي وما يُكتم، أو لب الشيء، قال ابن طريف: أسررت الشيء أخفيته. ثم إنه يطلق على القلب لِخفائه، وعلى باطنه لأنه أخفى، وعلى المعارف والعلوم، ولطائف الإدراكات الفهوم الحاصلة للباطن لخفاء ما حصلت له، أو لِخفائها بحسب احتجابها عن غير الخواص. والمراد أسرار الذات وأسرار الصفات وأنوار الأفعال، أي المتعلقة بها من حيث عظمة الربوبية. وأسرارها معانيها الموجبة للفناء في الله والغيبة عن ما سواه، فشبهت تلك المعارف المتعلقة بعظمة الربوبية بالأسرار، بجامع الاحتجاب عن غير الخواص واختصاصها بهم. فاستعير اسم المشبه به للمشبه، مثل أسدي أسد شاكي السلاح. وشبه ظهورها لَهم بالانشقاق كأنّها كانت مصمتة لا يوصل إليها ولا تُدخل ففُتحت أو وُصل إليها، وظهرت منه صلى الله عليه وسلم، ثم اطلع اسم المشبه به على المشبه، أعنِي المصدر عن المصدر. واشتق من المستعار الفعل فجاء في الكلام استعارتان: تصريحية تبعية، وقريب من حمل الأسرار على معنَى المعارف الإلَهية.

إن المراد بالأسرار ما تقصده هذه الطائفة، وهو محل لتجلي الحقائق من الإنسان الذي وجوده في القلب وجود الروح في الجسد. والمعنَى أن بواطن الخواص أشرقت وأضاءت من ما قبلها من شعاع باطنه صلى الله عليه وسلم. ومرده السري فيها بحسب استعدادها وصفاتها. وأشار بذلك إلى استمداد الخلق منه صلى الله عليه وسلم وتأديته إليهم. أسفر الحاصل له لكونه الواسطة صلى الله عليه وسلم. ومنه **(انفلقت)** من انفلق، وهو شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض، أي استبانت وابتهجت **(الأنوار)** الأفقانية، جمع نور بالضم، وهو في الأصل كيفية تدركها الباصرة أولا وبواسطتها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة عن النيرين على الأجرام الكيفية المحادثة لَها. ويطلق على الوجود والروح والحياة، وعلى العلوم والمعارف التِي بِها إدراك السعادة وأسبابُها

وما يتصل بذلك.

وهذه المعارف كيفية عقلية تدرك بالبصيرة التي هي القوة العاقلة. ويقال هي الظلال الواقعة في الصدور من المعارف، وما ينشأ عنها من الهمم العلية فلقوة الشبه بين النور الذي هو كيفية حسية تدرك بالبصر، والعلوم والمعارف التي هي كلية عقلية بالبصيرة وهي القوة العاقلة. وقوة المشبه مع ذلك بين البصر والبصيرة. كان إطلاق النور على هذه العلوم والمعارف شائعاً مستغنى فيه عن التشبيه لقوة الشبه الذي صارا به كالجنس الواحد على سبيل الاستعارة التصريحية. كما شبه ابتهاج الأنوار واستبانتها بالانفلاق، ثم أطلق اسم المشبه به على المشبه، أعني المصدر، واستتبعه ذلك في الفعل استعارة تبعية مثل ما تقدم في الانشقاق. فالأنوار إذاً عبارة عن ما يقع في القلب من معاني اسم الله وصفته. ثم منها ما هو مكتسب بالطاعة بعد الوجود والظهور، وهو ما يتنزل على القلوب من الفتوحات الغيبية والتنزلات العرفانية الموضحة للحقائق العقلية بذلك. الأول، كما قررناه، بمنْزلة نور البصر. الثاني، بمنْزلة الشمس التي لا يتم للبصر إبصار إلا بها، وكالقمر أو كالنجوم، فالشمس تشع شمس المعرفة، والقمر قمر العلم، والنجوم نجوم الفهم. فمن حصل له الفهم تيقظ، ومن حصل له العلم تنبه، ومن حصلت له المعرفة اتضحت له الأمور فكان على بصيرة من ربه، ويأتيه شاهد منه. فنور البصر لا يقوم إلا بنور الشمس ولا عكس. فنور البصر مثل نور الإيمان، ونور الشمس مثل نور الإيقان. فنور الإيمان يكشف عن آثار القدرة وأوصاف التعظيم، وبه يقع الخوف والرجاء، وباتصال النور للقلب تظهر الخدمة على الجوارح. فنور القلب يفيد المراقبة والإيمان، ونور السر يفيد المشاهدة والعيان. واعلم أن لعالَم الملك المسمى بعلم الشهادة، وهو كل ما يدرك بالحس، أنوار ظاهرة. ولعالَم الملكوت المسمى بعالَم الغيب، وهو ما يدرك بمبادئ العقل، أنوار باطنة. فأنوار الملك تشاهد بالبصر، وأنوار الملكوت تشاهد بالبصيرة. وأشهر ما في عالَم الملك ثلاثة أنوار: نور الشمس ونور القمر ونور النجوم. ويقابلها من عالَم الملكوت: نور المعرفة ونور الفهم ونور العلم. فبطلوع نجم العلم في ليل الجهل تبدو الآخرة والعلوم الغيبية. وبطلوع قمر الفهم في أفق التوحيد يشاهد قرب الحق. وبطلوع شَمس المعرفة في أفق التفريد يقوى اليقين ويلوح وجه المشاهدة. وأول نور يلج الصدر نور الإسلام، فإذا انشرح القلب به انقذف فيه نور الإيمان، فإذا تقوى في القلب صار مشهوداً وقوة إيقان، فإذا تقوى صار فراسة، فإن تقوى صار مشاهدة، ثم صار معرفة.

هذا، والمقامات إسلام وإيمان وإحسان، والإحسان مراقبة ومشاهدة، كما يُرشد إلى

ذلك سؤال جبريل عليه السلام. وأصل جميع ذلك العلم المشرق في القلب المظهر لحقائق الأشياء. فإن السائرين إلَى الله تعالَى إذا نظروا في الآثار وتنوعها، دلّهم ذلك على وجود أسمائه تعالَى كالخبير المدبر الحكيم الحي المتكلم الفرد الصمد السميع البصير الشهيد الحليم إلَى غير ذلك من أسماء الله الحسنَى التِي لا تتحرك ذرة في الكون إلا بِمدد من أمدادها، إذ لكل نوع اسم يناسبه، فمظاهر الكرم من اسْمه الكريم، ومظاهر الانتقام من اسْمه المنتقم، ومظاهر الرحمة من اسْمه الرحمن الرحيم. فلكل أثر ظاهر في الوجود له نسبة من الأسماء الكريمة يدل عليها وجوده ويهدي إليها حكمه والمراد بالآثار ما يبدو في الخلق من نسب الأسماء: كالرحمة لقوم والانتقام من قوم والمعافاة لقوم والكرم على قوم إلَى غير ذلك مما يدل على وجود الأسماء. ويشهد بحقائقها بالأسماء في حجاب الآثار، أعنِي معانيها، إذ لا ظهور لَها إلا بِها. وأسْماؤه سبحانه كلها تدل على صفاته العُلى، وإحاطته العظمى، وسلطانه التام، وفضله العام، إذ لكل اسم نسبة، ولكل نسبة وجوه. فإذا التفتوا إلَى أنواع الخلق دلتهم على معانِي الخالق، وإلَى صنوف الرزق دلتهم على معنَى الرازق، وإلَى ضروب الإعطاء دلتهم على معنَى المعطي، وإلَى وجوه الإعزاز دلتهم على معنَى المعز، فيشهدون الأفعال منه. ثم يدلّهم ذلك الشهود على ثبوت الصفات من حياة وقدرة وعلم وإرادة وسَمع وبصر وكلام، لأن معاني الأسْماء راجعة إليها. ثم يدلّهم ثبوت الصفات على وجود الذات، أي باعتبار شهود كمالِها والاستغراق فيها. قال في الحِكَم: دل بوجود آثاره على وجود أسْمائه، وبوجود أسْمائه على ثبوت أوصافه، وبوجود أوصافه على وجود ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه. فأرباب الجذب يكشف لَهم عن كمال ذاته، ثم يردهم إلَى شهود صفاته، ثم يرجعهم إلَى التعلق بأسْمائه، ثم يردهم إلَى شهود آثاره. والسالكون على عكس هذا، فنهاية السالكين بداية المجذوبين، وبداية المجذوبين نِهاية السالكين، لكن لا بِمعنى واحد، فربّما التقيا في الطريق، هذا في ترقيه وهذا في تدليه.

قال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: عباد الله المخصوصون بالقرب منه والوصول إليه ينقسمون إلَى قسمين: سالكين ومجذوبين، فشأن السالكين الاستدلال بالأشياء عليه، وهم الذين يقولون ما رأينا شيئاً إلا رأينا الله بعده، وشأن المجذوبين الاستدلال به على الأشياء، وهم الذين يقولون ما رأينا شيئاً إلا رأينا الله قبله. ولا شك أن الدليل أبداً أظهر من المدلول. وأول ما ظهر للسالكين الآثار وهي الأفعال، فاستدلوا بِها على الأسْماء، وبالأسْماء على الصفات، وبالصفات على وجود الذات، فكان حالُهم الترقي. وأول ما ظهر للمجذوبين حقيقة كمال الذات المقدسة، ثم ردوا منها إلَى مشاهدة

الصفات، ثم رجعوا إلى التعلق بالأسماء، ثم أنزلوا إلى شهود الآثار، فكان حالهم التدلّي، بما بدأ به السالكون من شهود الآثار إليه انتهى بالمجذوبين، وبما ابتدأ به المجذوبون من كشف حقيقة الذات إليه انتهى السالكون. لكن لا بمعنى واحد. فإن مراد السالكين شهود الأشياء لله، والمراد من المجذوبين شهود الأشياء بالله. فالسالكون عاملون على تحقيق الفناء، والمجذوبون مسلوك بهم طريق البقاء والصحو. انتهى. ومحصل ذلك أن أنواع المخلوقات والتدبيرات، وهي الآثار، تدل على وجود أسمائه تعالى كالخالق والمصور، وبوجود أسمائه التي هي المعاني المستفادة من الموجودات على ثبوت أوصافه التي لولاها ما كانت الأسماء ظاهرة للكون، وبوجود أوصافه التي هي المعاني القائمة بالذات على وجود ذاته، لأن المعاني لا تقوم بأنفسها. وأن المجذوبين يكشف لهم عن كمال الذات فيرون وجود كل شيء به، إذ لو لم يكن هو ما كان وجود الخلائق، فيرون الأشياء به إذ كان ولا شيء معه، ثم يردهم إلى شهود صفاته فيرون جميع الأشياء منه كما رأوها به، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه فينادون من بساط أوصافه بأسمائه اللائقة بالجمال "يا رزاق ارزقنا يا فتاح افتح لنا"، ثم يردهم إلى شهود آثاره فينادون من بساط أنفسهم ومعاني أوصافه يرون ذلّهم كما شهدوا عزه، ونقصهم كما شهدوا كماله، إلى غير ذلك.

والسالكون على العكس، فنهاية السالكين نهاية المجذوبين لأنهم مردودون عليهم بالبقاء لحفظ الشريعة وأداء الأمانة حسبما أوجب لهم حكم الربوبية. وبداية السالكين نهاية المجذوبين، لأنهم سائرون إلى غير الفناء الذي رُد منه أصحابهم الخارجون عن البقاء الذي ردوا إليه. وإنّما اختلفت أحوالُهما لأن كل واحد منهما يدعي وصفاً لا تصح له العبودية مع بقائه. المجذوب يدعي الحرية، والسالك يدعي الملكية، فأخرجا عن حالهما، وربّما التقيا في الطريق، هذا في تدليه لأن يعمل لله، إذ لا تكمل عبوديته إلا بذلك، وهذا في ترقيه للفناء في الله، إذ لا تصح له العبودية إلا بذلك، رد المجذوب للشريعة، وأخذ السالك بشهود الحقيقة، والله أعلم.

ثم الناس: عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة، قد علم كل هذا أن مشربهم، كلا نُمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك. فالعامة وهم أهل مقام الإيمان المبتدئون في مقام السلوك إلى الحضرة، وذلك حظ عامة أهل الطريق، قد وقفوا مع الدليل خلف الباب، فأعطوا نصيبهم من وراء حجاب. عجزوا عن الإحاطة الممنوعة شرعاً وانحطوا عن مدارك الوصول فبقوا في التردد بين الرد والقبول. فحظهم ونصيبهم قول قائل:

قف بالديار فهذه آثارهم ... وابك الأحبة حسرة وتشوقا

كـم قـد وقفـتُ بربعهـا مـستخبرا ... علـى أهلهـا أو داعيـاً أو مـشفقا
فأجـابني داعـي الغـرام تَملقـاً ... فارقـتَ مـن تَهـوى فعـز الملتقـى

والخاصة، وهم أهل مقام المراقبة المسمى بقمر التوحيد، لَهم قلب خائض في بحر اليقين على علم ضروري يرد عن مكافآت لَها ثمرات ومنازلات تدرك بالتحلي والمصافات، كشفه لَهم عن أوصاف جماله ونعوت كماله، فهم سكارى متحيرون ما بين طيش وعيش والهوى، فإن تجلى لَهم طاشوا، وإن حجبهم عاشوا، قد أخذهم عنهم فهم بلا هم فأفناهم عنهم به، فهم مترددون بين اليأس والطمع في الوصول إلَى مطلوبِهم وكمالُ مرغوبِهم.

ويُطْمعنِـي فيـه عذوبـة لفظـه ... وتقطعنِـي عنـه سـيوف قواطـع
وأعلـمُ أن الـنجم دون وصـاله ... ولكـن لِـي قلبـاً دهمتـه المطـامع

قد نظروا به إليه فتحققوا أن لا دليل عليه سواه، واعترفوا أن لا وصول لشيء من معارفهم إلا بتأييده وواسطة رسوله.

تحيـرت فيـك فخُـذْ بيـدي ... دلـيلاً لِمـن يتحيـرُ فيـك
ورمـت الوصـول فلـم أهتـدي ... وأنـت الـدليل لِمـن يزجيـك

وأما خاصة الخاصة، وهم أهل مقام المشاهدة المسمى بشمس المعرفة، الذي هم في نظار مشمس لا تغرب شَمسه، كما قيل في الخفيف، وهو طريق الْهمزية:

طلعـتْ شَـمس مَـن أحـبُّ بلَيـل ... فاستـضاءت فمـا إليهـا غـروب
إن شَـمس النهـار تغـرب فـي الليـل ... وشَـمس القلـوب ليـست تغيـب

فيقينهم عن مشاهدة وجْدان، إذ قد انكشفت لَهم أسرار الذات ومعاني الصفات. وهم في نيل تلك الأسرار على مراتب: منهم من تنكشف له جملة، ومنهم من تنكشف له تفصيلا، ومنهم جملة وتفصيلا، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وأعظمهم انكشافاً وأعلاهم رتبة وأوسعهم معرفة سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكانت هذه الأسرار التوحيدية والأنوار الغيبية قبل بعثته صلى الله عليه وسلم بحراً طامساً، وسَماء عابساً. فمِن نوره ظهرت، ومن سره أشرقت، فأرواح العلماء وقلوب العارفين وسائر النبيين والمرسلين وعباد الله الصالحين إنّما تتلقى من روحه صلى الله عليه وسلم العلم والحكمة والمعارف الربانية والأسرار الملكوتية. فكل علم وحكمة فلا يتوصل أهل كل مقام أو حال، أو غيرهما من كل ما هو اعتقاد، إلَى حظهم من ذلك إلا بواسطته صلى الله عليه وسلم وعلى يده، ولا يشهدونه إلا بشهوده،

لأن أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله، كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف به. فمنه انشقت أسرار الذات وانفلقت أنوار الصفات، أي منه ابتداء ظهورها وانتهاؤه، باعتبار الإفادة والاستفادة إلَى خلفائه ونوابه الأولين والآخرين.

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديمِ

وباعتبار الاستفادة فقط لمن لم يتأهل للاقتداء. فمنه صلى الله عليه وسلم استمداد الخلق وتأدية أعنّة الأسرار وشوارق الأنوار. وجميع الأولياء، بل والأنبياء، منسوبون إليه ويستمدون منه. فلا يرى على التحقيق كرامة ولا آية ولا خرق عادة إلا وهي له صلى الله عليه وسلم، أي منه المدد العلمي والعملي، فهو الرسول المطلق. وكل من تقدم من الأنبياء والرسل قبله، فعلى حسب النيابة عنه، فهم منه مقتبسون، وأممهم منه ملتمسون. وهذا في الظاهر هو محمل حديث (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)، أي أن سائر علماء الأمم السابقة لا تستمد منه صلى الله عليه وسلم إلا بواسطة أنبيائها، بخلاف علماء هذه الأمة المحمدية فهم يستمدون منه صلى الله عليه وسلم وتتلقى منه الأنوار بلا واسطة، كما تتلقى الأنبياء منه صلى الله عليه وسلم بغير واسطة.

فإن قيل: كانت الأنبياء مدداً لأممها ومرائي ومجالي لأنوارها وأسرارها، فما معنى الحصر المستفاد من قوله "منه انشقت الأسرار"؟ قلنا: المراد أنها منه انشقت استقلالاً، أي بلا واسطة، وليس ذلك إلا له صلى الله عليه وسلم، إذ هو واسطة الجميع، وإن كان الأنبياء والأولياء مشاركين له في مطلق الانشقاق والانفلاق.

هذا، ولما كانت الأنوار كما ما للأسرار، وهي أظهر منها، ناسبها الانفلاق وجعلت لِمقام الخاصة من المراقبة الذي هو المقام الثاني من المقامات الثلاث السابقة.

ولاختصاص خاصة الخاصة بالمقام الثالث، مقام المشاهدة، ناسبه الأسرار وانشقاقها. ثم إن أريد انشقاق الأسرار وانفلاق الأنوار للسالك، فالواو في كلامه لعطف السابق على اللاحق. وإن أريد بالمجذوب فهي لعطف اللاحق. وإن أريد الأسرار للمجذوب والأنوار للسالك، فهي لعطف المصاحب. وبالجملة فهو صلى الله عليه وسلم مرآة تجلي الأسرار وانفلاق الأنوار في قلوب المؤمنين كل على حسب حاله ومقامه، لأن كل مؤمن له حظ من التخلي والتحلي والتجلي. فإن كل مطيع فإنه مُمتثل بطاعته أمر الله ونَهيه. وما خطر ذكر الله بباله عند امتثال أمره ونَهيه حتى تجلى لقلبه برحمته وخلاه عن معصيته وحلاه بطاعته، كما أشار إليه صلى الله عليه وسلم في حق غيره بقوله "خيار أمتي الذين إذا رأوا ذكر الله"، أي لِما يعلوهم من البهاء، وبقوله "خيار أمتي من دعا إلَى الله وحَبَّبَ عباده إليه". ولذلك كان عليه السلام مرآة لِتجلي

الذات للأسرار والصفات للأرواح والأفعال للأجسام، أي لطرق الإدراك، منها التِي هي السمع والبصر وما معهما، لأنه المعرف بِهما، فسمعته منه الآذان، كما أخبر بأنه تعالَى المنفرد بالتأثير، وبين أفعاله الموت وما بعده، والحشر والميعاد. وفي الأمم الماضية، وبلغ ذلك سامعه لغيره فسمعته منه الآذان مباشرة أو بواسطة، وأدته ذلك للقلوب فاعتقدته. وفيه وبه أبصرت الأبصار، كثير منها ما هو خارق للعادة، وبلغ ذلك فشاهدوه لغيرهم، فشوهد ذلك فيه بالمباشرة أو بالواسطة، ثم وصل للقلوب فاعتقدته. فبه شوهدت القلوب الأفعال من الله، وبه تحلت الأرواح بشهود صفة الله، وبه شاهدت الأسرار الذات العلية.

ويحتمل أن يكون كلام الشيخ رضي الله عنه إشارة إلَى أن الموجودات بأسرها مخلوقة من نوره، فهو أساسها وعنصرها الذي منه انبعاثها واقتباسها، أو مادتُها التِي منها تتكون وتتكيف صورها، أو مددها الذي منه استمدادها، أولا للوجود، وثانياً للبقاء، وثالثاً للنمو والقوة والكثرة، وما يجري مجرى ذلك. وإذا كان كذلك كان متقدماً عليها، كما في قول القطب العارف أبِي الحسن بن وفا: اللهم صل على النور الأول. أي لأن أول ما بدا منه تعالَى ذكره له عليه السلام وتجليه به، فهو عين تجليه ومظهر اسْمه الأعظم وسره المحيط الذي انشقت منه الأسرار وتفرعت. وهو مفتتح الرحمة، ومظهر اسْمه تعالَى الرحمن الذي ظهر بسببه الكون. ولولاه لم يكن فلك دوّار ولا شَمس ولا أقمار. فهو أصل الكون وقطبه الذي عليه المدار. ثم هو الأول في المقادر وفي اللوح وفي الميثاق وفي الخطاب وفي الشفاعة وفي دخول الجنة وفي الزيارة. فله السابقة في الختام والتمام، كما له السابقة في الافتتاح. ثم له الوساطة المطلقة، كما يأتِي قريباً إن شاء الله.

وفي قوله "وسر كل سر وسناه" إشارة للأصلية التِي ذكرنا، لأنه عين التجلي الرحماني، وسائر الأسرار امتدت منه وتفرعت عنه. ويشهد لذلك حديث جابر، قال: سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول شيء خلقه الله قال: "هو نور نبيك يا جابر خلقه ثم خلق منه كل خير وخلق بعده كل شيء، وحين خلقه أقامه قدامه في مقام القرب اثنا عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام، فخلق العرش من قسم والكرسي من قسم وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثنا عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أقسام، فخلق القلم من قسم واللوح من قسم والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثنا عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أجزاء، فخلق الملائكة من جزء والشمس من جزء والقمر والكواكب من جزء، وأقام القسم

الرابع في مقام الرجاء اثنا عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أجزاء، فخلق العقل من جزء والعلم من جزء والحلم من جزء والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء اثنا عشر ألف سنة، ثم نظر الله تعالَى إليه فترشح النور عرقاً فقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبي أو رسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسهم نور الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلَى يوم القيامة. والعرش والكرسي من نوري، والكروبيون والروحانيون من الملائكة من نوري، وملائكة السماوات السبع من نوري، وأرواح الرسل والأنبياء والشهداء والسعداء والصالحين من نوري. ثم خلق الله اثنا عشر حجاباً، فأقام النور وهو الجزء الرابع في كل حجاب ألف سنة وهو مقامات العبودية، وهي حجاب الكرامة والسعادة والهيبة والرحمة والرأفة والحلم والعلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين، فقيد الله ذلك النور في كل حجاب ألف سنة، فلما خرج النور من الحجب ركبه الله في الأرض فكان يضيء منه ما بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم. ثم خلق الله آدم من الأرض وركب فيه النور في جبينه ثم انتقل منه إلَى شيت. وكان يتنقل من طاهر إلَى طيب، ومن طيب إلَى طاهر، إلَى أن وصل إلَى صلب عبد الله أبي ومنه إلَى رحم أمي آمنة، ثم أخرجني إلَى الدنيا فجعلني سيد المرسلين. هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر".

وفي رواية عنه رضي الله عنه قال: قلت بأبي أنت وأمي أخبرني عن أي شيء خلقه الله قبل الأشياء؟ قال: "يا جابر، إن الله تعالَى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي. فلما أراد الله تعالَى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول العرش ومن الثاني القلم ومن الثالث اللوح، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول حملة العرش ومن الثاني الكرسي ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات ومن الثاني الأرضين ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله، ومن الثالث نور أنفسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله".

واعلم أن هذه القسمة لا توجب قسمة الماهية المحمدية، كما لا يوجب الاقتباس من النور قسمته أو النقص منه.

ومن حديث عمر رضي الله عنه: "يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله تعالى أول كل شيء نوري فسجد له فبقي في سجوده سبعمائة عام، فأول شيء سجد له نوري ولا فخر. يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله العرش من نوري والكرسي من نوري واللوح والقلم من نوري والشمس والقلم ونور الأبصار من نوري والعقل الذي في رؤوس الخلق من نوري ونور المعرفة في قلوب المؤمنين من نوري ولا فخر".

وفي حديث نقله الحلبي في سيرته عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه صلى الله عليه وسلم سأل جبريل "كم عمرتَ من السنين؟ قال: لست أعلم يا رسول الله، غير أن في الحجاب الرابع نجماً يطلع في كل سبعين ألف سنة مرة، رأيته اثنين وسبعين ألف مرة" فقال صلى الله عليه وسلم "وعزة ربي أنا ذلك الكوكب". قال رواه البخاري.

ومعنى أنه من نور الله، أنه أظهره من ظهوره، أي أظهره بلا واسطة، بخلاف غيره. فإن معنى اسمه "النور" الظاهر المظهر للأشياء. وبه يندفع إشكال أنه إن أريد أنه من نور حادث كان قبله، فينافي أنه أول المخلوقات، فثبت بذلك أن المكونات من عرش وكرسي مع عظمهما وغيرهما، بإضافة في نور نبينا صلى الله عليه وسلم تكونت، ومنه منبعها، وهو أصل نشأة كليات الموجودات، أي حقائقها.

فاستعيرت الأسرار لخفائها لكليات المكونات، واستعير الانشقاق المناسب للأسرار لتكونها منه مبدأ وأصلاً للجزئيات. ثم اشتق الفعل كما تقدم. كما استعيرت الأنوار لجزئيات المكونات لظهورها، واستعير الانفلاق المناسب للأنوار لظهورها من المكونات.

ويحتمل أنه أشار إلى أن الأسرار به صارت أسراراً، وتأهلت لصيرورتها مطالع الأنوار. فـ "مَنْ" فيه للتعليل، أي هو صلى الله عليه وسلم جعلها أسراراً لتوقفها عليه، وذلك أن النفس والقلب والروح والسر أسماء مترادفة، ومسماها اللطيفة الربانية التي كان الإنسان بها إنساناً، لكن ما دام الإنسان في مقام الإسلام تسمى نفساً، فإذا ترقى إلى مقام الإيمان سُميت قلباً، فإذا ارتقى إلى أول مرتبتي الإحسان، وهي المراقبة المشار لها بقوله صلى الله عليه وسلم "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" سُميت روحاً، ثم إذا ارتقى للمرتبة الثانية منه، وهي المشاهدة المشار لها بقوله عليه الصلاة والسلام "أن تعبد الله كأنك تراه" سُميت سراً. وهذا الترقي إنّما يتوصل إليه بواسطته صلى الله عليه وسلم، فبسببه تصير النفوس قلوباً ويتوصل للإيمان، وبه تصير القلوب أرواحاً ويتوصل للمراقبة، وبه تصير الأرواح أسراراً ويتوصل للمشاهدة، وبه تأهلت الأسرار لشروق شمس المعرفة فيها، وهي المراد بالأنوار. فالأسرار والأنوار على هذا، كلاهما بمعناه

العرفي. وفي الحِكَم "مطالع الأنوار القلوب والأسرار"، أو القلوب في حق العارفين، والأسرار في حق الموحدين. فنور القلب يفيد المراقبة والإيمان، ونور السر يفيد المشاهدة في العيان. وصيرورة الأسرار مطلعا للأنوار هو معنى اشتقاقها عنها. وطلوع الأنوار فيها هو معنَى انفلاقها.

ففي كل من الفعلين استعارة تبعية. ويحتمل أنه إشارة إلى سببيته صلى الله عليه وسلم في وجود جميع الموجودات، وأنها لأجله خلقت، كما في حديث عمر، وصححه الحاكم، من قوله تعالَى لآدم "لولا محمد ما خلقتُك". زاد في رواية "ولا خلقت ماء ولا أرضاً". وفي حديث سليمان عند ابن عساكر "لقد خلقت الدنيا وأهلها لأُعَرفهم حرمتك ومنْزلتك عندي ولولاك ما خلقتُ الدنيا"، فدل ذلك أنه سبب في كل موجود.

وعلى الاحتمالين، هذا والذي قبله، فـ "مِنْ" في قوله "منه انشقت" تعليلية. وإلَى هذا المعنَى أشار في البردة بقوله: "لولاه لم تُخْرَج الدنيا من العدم". وورد أن آدم عليه السلام من نوره صلى الله عليه وسلم خلق، حتّى قيل إذا لقيهُ آدم يقول: يا ولد ذاتِي ووالدي معناي، مشيراً إلَى أن روحه صلى الله عليه وسلم أبو الأرواح. وورد "كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد"، وفي رواية "بين الماء والطين"، وفي أخرى "وإن آدم لَمُنجدل في طينته" أي مطروح على الجدالة، أي على الأرض، على معنًى أن الله خلق روحه قبل الأرواح، وخلع عليه وصف النبوءة فقام به قبل خلق آدم، ونفخ الروح فيه، على أنه قد قيل إنه صلى الله عليه وسلم سابق على سائر الأنبياء روحاً، لما مر، وجسده الآن مادة جسده صلى الله عليه وسلم خلقت قبل سائر المواد، لِحديث كعب الأحبار أنه تعالَى لما أراد أن يخلق محمداً صلى الله عليه وسلم أمَر جبريل عليه السلام أن يأتيه بالطينة البيضاء، فهبط في ملائكة الفردوس وقبض قبضة من موضع قبره، بيضاء نيرة، فعجنت بِماء التسنيم في معين الجنة حتّى صارت كالدرة البيضاء لَها شعاع عظيم، ثم طاف بِها الملائكة حول العرش والكرسي والسماوات والأرض حتّى عرفته الملائكة قبل أن تعرف آدم، أو عرفت روحه وعنصره.

وأما قوله "وآدم بين الروح والجسد" أو "الماء والطين"، فقال فيه الشهاب الخفاجي في نسيم الرياض: إن المراد به عدم الطرفين، الروح والجسد، أي لا روح ولا جسد، كما في رواية "لا آدم ولا ماء ولا طين"، لأنك إذا قلت مسكني بين البصرة والكوفة عُلم أنه ليس بِها، فأريد به للزم معناه بطريق الكناية. وليس المراد قريباً منهما، مثل الورد بين البياض والحمرة، ومزاج بين الصحة والمرض.

ويحتمل أن يكون إشارة إلَى أنه صلى الله عليه وسلم الواسطة في نيل النبوءة والرسالة للنبيين والمرسلين، وفي نيل الولاية والقرب للأولياء والمقربين. فشبه محمد مدده الأول بالأسرار لأنّها أدل وأعلا، فكل نبي تقدم على زمن ظهوره فهو نائب عنه في بعثته بتلك الشريعة، كما يدل على ذلك حديث عمر السابق "أنا الذي من أجلي أخذ الله ميثاق الأنبياء والرسل والأمم بإقرار نبوءتي وحظي وأن يتواصلوا به قرناً بعد قرن"، قال تعالَى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ الآية.

قال السبكي: فيه من التنويه به صلى الله عليه وسلم وتعظيم قدره العلي ما لا يخفى، وفيه مع ذلك أنه على تقدير مجيئه في زمانِهم يكون مرسلاً إليهم، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلَى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته. ويحتمل الإشارة إلَى أنه صلى الله عليه وسلم الواسطة في الاستدلال بالله على الأشياء، الذي هو وظيفة الخاصة، والاستدلال بالأشياء على الله، الذي هو وظيفة العامة. وفي الحِكَم: شتان بين من يستدل به ويستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتَى غاب حتَى يستدل عليه، ومتَى بعد حتَى تكون الآثار هي التِي توصل إليه.

ويحتمل أنه أشار إلَى أنه صلى الله عليه وسلم المظهر لما أودع الله سبحانه في أكوانه من الأسرار، بعدما كانت القلوب عنها غافلة والأرواح بها جاهلة. والمفيد النور للنيرات المظهرة للموجودات كالشمس والقمر والنجوم التِي من نوره خلقت، كما تقدم، والله أعلم.

الثاني ما أحاط بعلمه الأول الزاهرة وتشرق بدركه النفوس الطاهرة. إن مدح النبِي صلى الله عليه وسلم والثناء عليه من نتائج مجتمعة كاقتفاء آثاره والتخلق بأخلاقه واستضاءة بأنواره. وإنّما يتيسر ذلك بتبين زيادته وتكشف أسراره وإدراك سجايات معرفة أخباره. فطوبَى لِمن جعل مسارح أبصاره مفاخر صفاته، ومطارح أبصاره مآثر سماته. وقد وصفه الشيخ رضي الله عنه بِما ذكر وزاد.

(وفيه) لا في غيره، **(ارتقت)**، من الارتقاء: بِمعنَى الارتفاع والطلوع الذي هو التجلي والظهور، أي ولكون عقله صلى الله عليه وسلم أكمل العقول وأوسعها اختص بأن ارتفعت فيه أو تجلت وظهرت **(الحقائق)** هي معرفة الأشياء على ما هي عليه، فترادف الحكمة والعلم. ثم يحتمل أنه يراد جميع العلوم الظاهرة والباطنة أو مواهب الله الفتحية التي ترد على القلوب من خزائن الغيوب ويعبر عنها في حق الرسل

بالوحي، وفي حق الأولياء بالإلهام. فهي الحقائق العيانية والتحتيات الذاتية، أو ما وراء طوْر العقل من الكشوفات والاطلاعات من أسرار الربوبية. وعلى هذا فالمراد بالحقائق علوم معرفة ما يجب على العبد من تنْزيه سيده والقيام بحق خدمته. و"ال" على الأول للاستغراق الحقيقي، وعلى هذين للاستغراق النوعي. والمراد بارتقاء تلك العلوم فيه كمال تحققها لديه. فإنه لا تحقيق يوازي تحقيقه صلى الله عليه وسلم، لاطلاعه على كنه دقائق العلوم وأسرارها، لأن علومه الوهبية عن مشاهدة ومعاينة لا مجرد إلْهام أو اكتساب. ولذلك كانت علوم العلماء لا تخلو من احتمالات وظنون، حتى أنه يخطئ بعضهم بعضاً، وتختلف في المسألة الواحدة آراؤهم. قال صلى الله عليه وسلم "أنا مدينة العلم وعلي بابُها". أو ارتقاؤها، أي تجليها في فطرته وجبلته، إذ هي فيه ليست كسبية، والتداني والتوالي تجليها.

أشرقت في أفق سره الأسرار التِي هي دقائق تلك العلوم، وإن كانت كلها دقيقة نفسية، ويدل على هذا حديث "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا". وذلك لأن الله تعالَى جعل له بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين مع الخشية واستحضار العظمة والجلال أو ارتقاؤها، بِمعنَى ارتفاعها فيه، أي اجتماعها له بعلمه علم الأولين والآخرين، وإيتائه علم كل شيء، حتَى أن اللوح والقلم مستمدان من علومه وهو مُمدهما، فتكون له علوم أخرى متزايدة أيضاً. وللشيخ البوصيري في البردة:

فإن من جودك الدنيا وضرتَها ومن علومك علم اللوح والقلم

أي من علوماتك المعلومة الحاصلة منهما. قال الإمام السعد في شرحها: ولعل الله تعالَى أطلعه على جميع ما في اللوح وزاده، لأن اللوح والقلم متناهيان وتجوز إحاطة المتناهي بالمتناهي. هذا على نور الفهم القاصر. أما من اكتحلت عين بصيرته بالنور الإلَهي فيشاهد بالذوق أن علوم اللوح والقلم جزء من علومه، كما هي جزء من علوم الله تعالَى. لأنه عليه السلام عند الانسلاخ عن البشرية، كما لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق ولا يبطش إلا به جلت قدرته وعمت نعمته، كذلك لا يعلم إلا بعلمه الذي لا يحيطون بشيء منه إلا بِما شاء، كما أشار إليه بقوله ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ صلى الله عليه وسلم.

ويحتمل أن يكون معنَى "ارتقاؤها فيه" بِملازمة النمو لَها والزيادة فيها، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾. ولم يزل عليه السلام يرتقي في المعارف لأنَّها لا تتناهى، وكلما انتقل عن مقام إلَى مقام أعلى منه عدّ الكون في السابق قصوراً فاستغفر، ومن ثم كثر استغفاره

صلى الله عليه وسلم مع عصمته، وقال: إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله كذا وكذا مرة، أي غَيْنُ أنوار. وعلى كل احتمال، فقد شبهت العلوم بالشموس والأقمار، وطويت أركان التشبيه غير المشبه استعارة بالكناية، ودُل على ذلك بذكي الارتقاء تخييلا. وشُبه صلى الله عليه وسلم بالسماء في المحلّية لشروق الأنوار كناية أيضا، ودل عليه، ففي المناسبة للمشبه به كما في ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾.

هذا ويمكن أن يكون ارتفاع تلك العلوم في مقابلة التنَزل من قوله، وفيه صلى الله عليه وسلم **(تَنَزلت علوم آدم)** فإن النبي صلى الله عليه وسلم خُص بعلم المسميات، وكان لآدم علم الأسماء، كما في قول البوصيري:

لك ذاتُ العلوم من عالم الغيب ومنها لآدمَ الأسماءُ

ولما كانت الحقائق أشرف وصفت بالارتقاء، ووصفت الأسماء بالتنَزل النسبي المقابل لارتقاء الحقائق، وإن كان لعلم الأسماء شأن وعظم خطر أيضاً. وما أدراك بعلم اقتضى سجود الملائكة لِمن قام به.

واعلم أن لكل موجود حقيقة، وحقيقة الشيء ما هو به هو، أي ما به تقومه، فحقيقته مجموع مقوماته، كالحيوان الناطق الذي به تكون الحقيقة الإنسانية وتتحقق في الخارج. وما به الشيء هو هو باعتبار تشخصه هوية، وما به الشيء هو هو مع قطع للنظر عن التحقق والتشخص هوية. والحاصل أن ما به الشيء هو هو إذا اعتبر لا بالنظر إلَى شيء سُمي ماهية، وإذا اعتبر مع التحقق في الخارج سُمي حقيقة، وإذا اعتبر مع التشخص سُمي هوية. فحقيقة الشيء مقوماته على سبيل التفصيل. ومفهوم الاسم ما يفهم منه في الجملة كان المسمى موجوداً أو معدوماً. والذي كان لسيدنا آدم عليه السلام بالنسبة للأشياء التي عرضت عليه علم الأسماء باعتبار دلالتها، وذلك المعبر عنه بعلم المفاهيم. ولسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم علم الحقائق، وفي ضمنه قطعاً علم المفاهيم، مضمن الأخص الأعم. فقد علم المفاهيم بالوجه الأعم والأخص وبالثاني اختص عن آدم ابن حجر في شرح الهمزية في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها أنه علم الأسماء فقط، وثانيها المسميات فقط، وثالثها علمهما، وهو رأي الكشاف. وينبغي أن تعلم أن المراد من علمه الأسماء، أي من حيث دلالتها، كما أن المراد بعلمه المسميات، أي من حيث مدلولاتها، حتّى يتضح أن الخلاف لفظي. وليس المراد أنه علم الأسماء مجردة، أو المسميات مجردة. وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ أي مسميات الأسماء، مع قوله ﴿ أَنۢبِئْهُم ﴾ يدل على أن الذي عرفه آدم ليس مجرد الأسماء، إذ عرض

المسميات. وسؤاله عن أسمائها وجوابه بتطبيق الأسماء عليها مما يعين ما قلناه على أن إطلاق الأسماء إنّما يقتضي الفهم الإجمالي. قال الشيخ بالله أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي: كشف آدم بأسمائه وبإضافتها ومقتضياتها وفروعها، ولم يقع الإنباء للملائكة إلا بالفروع، لا الأصول، تخصيصاً له وتشريفاً وتحقيقاً وإبراء لما ألقي إليهم أول الأمر من أنه جاعل خليفة. قال: وليس ما علمه آدم وعجزت عنه الملائكة مجرد الألفاظ واللغات من غير علم بالمسميات وأحوالها ومنافعها، لأن ظهور الكمال والفضيلة إنّما هي في ذلك، على أن الأحوال والمنافع أيضاً من جملة المسميات التي علم أسماءها. وفي تفسير أبي السعود: والتعليم حقيقة عبارة عن فعل يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه. ولا يحصل ذلك بمجرد إفاضة العلم بل يوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته. وهو السر في إيثاره على الإعلام والإنباء، فإنهما إنّما يتوقفان على سماع الخبر الذي يستوي في البشر والملَك وبه تظهر حقيقته بالخلافة منهم، لما أن جبلتهم غير مستعدة للإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية. فمعنى تعليمه تعالى إياها أن يخلق فيه إذ ذاك، بموجب استعداده، علماً ضرورياً تفصيلياً بإزاء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللائقة بكل منهما، أو يلقي في روعه تفصيلاً أن هذا فرس وشأنه كيت وكيت، وذاك بعير وحاله كيت وكيت، إلى غير ذلك من الأحوال الموجودة، فيتلقاها حسبما يقتضيه استعداده وتستعد له قابليته المتفرعة المنطوية على طبائع متباينة مستبعدة لإدراك أنواع المدركات من المعلومات والمتخيلات والموجودات، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومصارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها. وعلى هذا فالحقائق التي ارتقت لنبينا صلى الله عليه وسلم وراء ذلك كله، وإن كان الله سبحانه أطلع نبيه آدم عليه السلام بعد ذلك على حقائق ما أراد أن يطلعه عليه. لكن نبينا صلى الله عليه وسلم اختص عنه كغيره من الأنبياء بالعموم فيها، وفيه إيماء إلى أن الخصوصية التي امتاز بها آدم عن الملائكة وكان سبباً لأمرهم بالسجود له، حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم، وزاد بعلم الحقائق. فعن أبي رافع فيما أخرج الدماميني، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مثلت لي أمتي في الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها".

هذا، وقد اتضح لك أن عطف جملة (تنزلت) على جملة (ارتقت) من عطف المغاير، لأن مضمون الثانية غير مندرج في مضمون الأولى، لما ذكرنا من أن الحقائق

غير المفاهيم المعبر عنها بعلوم آدم. نعم مضمونُها ملازم لِمضمون الأولَى لِما مر من أن علم المفاهيم في ضمن علم الحقائق، فهو من عطف اللازم. ويحتمل أنه من عطف الأخص على الأعم، إذا أريد بالحقائق ما يتناول المفهومات لأنّها معلومات أيضاً، على أن المراد حقائق كل علم. ويحتمل أن معنى تنَزل علوم آدم فيه تلقيه إياهٰ بلا واسطة، وغيره صلى الله عليه وسلم لا محيد له عن واسطته والورثة منه، لأنه صلى الله عليه وسلم تنَزلت فيه تلك العلوم قبل وجود آدم، وهو الذي أمره بها. ومن ثم قيل فيه صلى الله عليه وسلم إنه آدم الأكبر، إذ هو أبو الأرواح. أو معناه أنّها تنَزلت فيه وقت سجود الملائكة لآدم، أي فيه في الحقيقة كان تنَزلُها، لأن نوره كان في جبينه. ولذا قال بعض المحققين: إنّما سجد الملائكة لأجل نور محمد صلى الله عليه وسلم في جبينه، قال العارف:

لو أبصر الشيطان طلعة نوره ... في وجه آدم كان أول من سجد

يريد، والله أعلم، أن الله تعالَى أجرى عادته فرتب السعادة على إدراك نور سيد الأكوان. فكأنه يقول: لو أرشد الله إبليس إلَى سبب السعادة الأول وهو الإدراك، لترتب عليه سببها الثاني وهو الامتثال. فجريان العادة بحصول المسبب عند سببه. وكل ضال فهو على هذا السبيل إنّما عاقه عن الامتثال عدم إدراك الخصوصية، ولو أدرك لامتثل فسعد. وبه يتبين لك أن المراد بالإدراك إدراك خاص، وهو ثلج الصدر، ونهج العوالِم الباطنة، فذلك النور الكريم. فلا يرد أن بعض الكفرة كأبِي جهل أدرك الخصوصية ولم يمتثل لعائق الحسد ونحوه، لأن إدراك الوجود لَها ولاء لا يجاوز ظواهر عقولِهم.

ويحتمل أن التنزل هنا ليس في مقابلة الارتقاء، بِمعنًى أن علوم آدم التي ألقاها إلَى نبِي من النبيين والمرسلين رُفعت بقَبضهم وموتِهم ولم تبق على حقيقتها. فلما بعث الله رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلَها إليه كما تنَزلت فيه علوم جميع النبيين والمرسلين، لقوله صلى الله عليه وسلم "أورثنِي ربِّي علم الأولين والآخرين".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم لما ولد قال في أذنيه رضوان خازن الجنان: أبشر فما بقي لنبِي علم إلا وقد أعطيته، فأنت أكثرهم علماً وأشجعهم قلباً.

فإن قيل إذا كان هكذا فلم أضيفت العلوم لِخصوص آدم، فهلا أطلقت أو أضيفت إلَى الجميع؟ قلنا: المراد أنه صلى الله عليه وسلم تنَزل فيه العلم المعجز لكافة الخلق، فإن علوم آدم أعجز بِها الملائكة حتّى قالوا لا علم لنا. وإذا كان آدم هو الأب الأكبر

المتقادم العصر، ومع ذلك فقد تنزلت علومه فيه فأحرى غيره من نبيه، وتبين بذلك انحصار تنزلها فيه واختصاصه بما ذكر كما يقتضيه تقديم المعمول، وحيث ارتقت فيه الحقائق وتنزلت علوم آدم وغيره، وجمع صلى الله عليه وسلم علوم الأولين والآخرين، فقد **(أعجز الخلائق)** صلى الله عليه وسلم، إذ قد أتى بما لم يأت أحد بمثله، وأخبر بوقائع القرون السالفة وقصص الأمم الماضية وبالمغيبات الآتية مع أميته وعدم قراءته. أو المراد أنه أعجز الملائكة وقت قولهم ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ إذ فيه على الحقيقة تنزلت العلوم. ويفهم منه إعجاز غيرهم بالطريق الأولى. أو المراد أنه أعجز جميع أمم المرسلين إذ فيه تنزلت علومهم كلها وأضيفت لخصوص آدم كما تقدم.

(وله) اللام، إما للتعليل، أو بمعنى عن، أو في الظرفية، **(تضاءلت الفهوم)** أي لأجله تصاغرت خضوعاً وإذعاناً واعترفت بالقصور. أو عند إدراك حقيقته وكنه جلاله وجماله وعقله وعلومه وحلمه وخوفه ورجائه وعبوديته وشفقته ورحمته وجوده الحسي والمعنوي تقاصرت العقول، أو فيه خفيت ورقت. شبه صلى الله عليه وسلم لعظم ما ذكر فيه ببحر عظيم سبحت فيه الفهوم فخفيت وغابت كناية، ودل على ذلك بالحرف نظير ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾. على أن "في" للظرفية فهو استعارة، فإن كانت بمعنى "على" فلا استعارة. أما تقاصر الفهوم عن إدراك حقيقته، فلخفاء سر روحانيته صلى الله عليه وسلم ورفعة قدره عند الله وعظمته. وإذا كان الولي لا يدرك حقيقته أحد بفهمه في الدنيا، فكيف الرسل عليهم الصلاة والسلام، فكيف سيدهم صلى الله عليه وسلم.

وكيف يُدرك في الدنيا حقيقتَه ... قومٌ نيامٌ تَسلوا عنه بالحُلْم

والناس لم يدركوا من حقيقة أمره وخفي سره إلا بمقدار عقولهم البشرية، فما ظهر لَهم من ذلك فهو نعمة عليهم ليعرفوا قدره ويعظموا أمره، وما خفي عنهم منه فهو رحمة من الله. فهم إذ لو ظهر لَهم مع عدم قيامهم بالحقوق لكان فتنة لَهم. وإنّما أرسل رحمة للعالَمين. فكانت النعمة فيما ظهر والرحمة فيما استتر. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا يعرفني حقيقة غير ربّي". وقال أويس القرني رضي الله عنه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأيتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ظله. فقالوا: ولا ابن أبي قحافة؟ فقال: ولا ابن أبي قحافة. ولما ذكر ذلك عند الشيخ الشاذلي رضي الله عنه قال: صدق أويس، فإن علياً رضي الله عنه كان مقامه إدراك نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعثمان رضي الله عنه إدراك قلبه، وعمر رضي الله عنه

إدراك عقله، وأبو بكر رضي الله عنه إدراك روحه.

قال الإمام العارف أبو عبد الله الخروبي الطرابلسي: حقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم لطائف من أسرار الحق تعالَى لا يطلع عليه في هذه الدار إلا الله سبحانه ولا يكشفه أحد غيره تعالَى، لا نبي مرسل ولا ملَك مقرَّب، إذ حقيقته أحمدية من السر المكنون والأمر المصون الذي انفرد به تعالَى، وما أدرك منه المؤمنون إلا ظاهر صورته المحمدية، وهو الذي عبر عنه أويس القرني بالظل. ثم إن المؤمنين متفاوتون بإدراكهم، فكل من أدرك من ذلك بحسب قربه. وأعظم الناس إدراكاً، الخلفاء الأربعة لما هم أشد الناس قرباً منه صلى الله عليه وسلم. لكن لما اختلفت مقاماتُهم اختلف إدراكهم، فكل ذي مقامٍ أدرك منه صلى الله عليه وسلم حقيقة توافق مقامه. وإلَى هذا أشار الشاذلي.

فإن قيل ما السر في أن كلا من الخلفاء أدرك حقيقة منه دون غيرها؟ أجيب بأن كل واحد أدرك من الحقائق ما يقتضيه مقامه لحاله، فعلي رضي الله عنه لما غلب عليه علم الشرائع وكان حاله الانبساط بها كان حاله يقتضي إدراك نفس من ورث العلوم عنه، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الانبساط من شأن النفس، ولهذا قيل لو حاولت النفس كل المحاولة على أن تصمت لما صمتت. وعثمان رضي الله عنه لما كان حاله التفكر في العلوم كان حاله يقتضي إدراك قلبه صلى الله عليه وسلم، لأن شأن القلب التفكر. وعمر رضي الله عنه كان شأنه التدبر في العلوم كان يقتضي حاله إدراك عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن شأن العقل التدبر. وأبو بكر رضي الله عنه لما كان الغالب عليه الحقائق وكان حاله الانقباض عليها كان حاله يقتضي إدراك روح رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الروح من شأنِها الانقباض على العلوم الحقيقية. ولِهذا قيل من شأن الروح الصمت، فلو حاولت كل المحاولة على أن تنطق لَما نطقت. وكل من الخلفاء رضي الله عنهم أجمعين، وإن غلب عليهم علم أو حال أو كان مقامه معلوماً من المقامات، فهو في غير العلم الغالب عليه إمام، وفي غير حاله ومقامه الغالب عليه صاحب حال أو مقام، وإنَّما اشتهر حاله بِما هو غالب عليه. وأنت إذا تأملت أحوال الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم وصح لك وجه ما ذكره الإمام الخروبي، فانظر ما روي عن زر بن حبيش، بأنه جلس اثنان يتغذيان ومع أحدهما خمسة أرغفة وآخر ثلاثة، وجلس إليهما واستأذنَهما أن يصيب من طعامهما فأذنا له وأكلوا على السواء، ثم ألقى إليهما ثمانية دراهم وقال هذا عوض ما أكلت من طعامكما، فتنازعا في قسمتهما. فقال صاحب الخمسة لِي خمسة ولك ثلاثة، وقال صاحب الثلاثة نفسهما على السواء. فترافعا إلَى علي، فقال لصاحب الثلاثة اقبل من صاحبك ما عرض عليك،

فأبى وقال ما أريد إلا صميم الحق. فقال رضي الله عنه: إذاً لك درهم واحد ولصاحبك سبعة. قال: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: لأن الثمانية أربعة وعشرون ثلثا، لصاحب الخمسة خمسة عشر ولك تسعة، وقد استويتم في الأكل، فأكلت ثمانية وبقي لك واحد، وأكل صاحبك ثمانية وبقي لك سبعة، وأكل الثالث ثمانية، سبعة لصاحبك وواحد لك. فقال رضيت الآن.

وقضية الأربعة الذين سقطوا في حفرة الأسد فماتوا، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث علياً كرم الله وجهه إلَى اليمن فوجد أربعة وقعوا في حفرة حفرت ليصطاد فيها الأسد، سقط أولا رجل فتعلق بآخر وتعلق الآخر بآخر حتّى تساقط الأربعة فهاجمهم الأسد وماتوا من جراحاته، فتنازع أولياؤهم حتّى كادوا يقتتلون. فقال علي: أنا أقضي بينكم، فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزت بعضكم عن بعض حتّى تأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي بينكم، اجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر ربع الدية، وثلثها، ونصفها، ودية كاملة. فللأول ربع الدية لأنه أهلك من فوقه، وللثاني ثلثها لأنه أهلك من فوقه، وللثالث نصفها لأنه أهلك من فوقه؛ وللرابع دية كاملة. فأبوا أن يرضوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقوه عند مقام إبراهيم فقصوا عليه القصة فقال "أنا أقضي بينكم"، واحتبى ببرده. فقال رجل من القوم إن علياً قضى بيننا. فلما قصوا عليه القصة أجازه. وتوجيهه أن أرباب البئر تلزمهم دية الأول كاملة، إذ لم يشاركهم فيه غيرهم. ويلزمهم للثاني نصف دية، والنصف الآخر يؤخذ من دية الأول، ويلزمهم للثالث ثلث دية، والرابع يؤخذ من دية الأول. يبقى له الربع الواجب له، والربع والسدس يؤخذ من دية الثاني. ويلزمهم للرابع ربع دية، والربع يؤخذ من دية الثاني، والنصف من دية الثالث. فيبقى بعد التراجع للأول ربع، وللثاني ثلث، وللثالث نصف. وجملة ما دفع أرباب البئر ديتان ونصف سدس دية. ولكن هذا التراجع في الدية إن ثبت قبض من ذكر بالاعتراف، وإلا بالرجوع على العواقل، والله أعلم. إلَى غير ذلك من أحكامه رضي الله عنه، كقضية الفريضة المنبرية والمرأة التي ولدت لستة أشهر فأراد عمر رضي الله عنه رجمها، فقال له علي رضي الله عنه: إن الله تعالَى يقول ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وقال ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾، فالحمل ستة أشهر والفصال في عامين، فترك عمر رجمها وقال: لولا علي لَهلك عمر. وكان يتعوذ من قضية ليس لَها أبو حسن.

وانظر حال سيدنا عثمان رضي الله عنه، فإنه كان كاتب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسر محله القلب الذي من شأنه التفكر، ولذلك اختص بكتابة الوحي. حال

نزوله كان ينْزل على قلبه. وقد ساره رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه. كما روي أن حفصة كانت عند عائشة رضي الله عنها فقالت لها: أنشدك الله هل كنت أنا وأنتِ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأغمي عليه فقال لك أترينه قد قبض، فقلت لا أدري ثم أفاق فقال افتحوا له الباب، فقلت لك أبوكِ أو أبي؟ فقلت لا أدري، ففتحنا فإذا عثمان فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال ادنه، فأكبّ عليه فساره بشيء لا أدري أنا وأنت ما هو، ثم رفع رأسه فقال أفهمت ما قلت لك؟ قال نعم. قال ادنه، فأكب عليه أخرى مثلها فساره بشيء لا ندري ما هو، ثم رفع رأسه فقال أفهمت ما قلت لك؟ قال نعم. قال ادنه، فأكب عليه إكباباً شديداً فساره بشيء ثم رفع رأسه فقال أفهمت ما قلت لك؟ قال نعم، سمعته أذناي ووعاه قلبي. فقال له اخرج. قالت لها حفصة اللهم نعم.

وحال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من موافقته ربه في آيات قرآنية، حتّى قال علي رضي الله عنه: كنا نرى أن في القرآن كلاماً من كلام عمر رضي الله عنه، ورأياً من رأيه من حسن الاستنباط وإصابة النظر في أدبار الأمور الذي هو أثر التدبر، وإمعان النظر الذي هو من شأن العقل.

وحال سيدنا أبي بكر رضي الله عنه في غوامض إدراك أسرار التوحيد وخفاياه الدقيقة الذي هو شأن الروح، حتّى قال سيدنا عمر رضي الله عنه: كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو وأبو بكر يتكلمان في علم التوحيد، فأجلس بينهما كأنّي زنجي لا أعلم ما يقولون.

وأما تقاصر الفهوم عن كنه جلاله صلى الله عليه وسلم وجماله، فلما أودع الله تعالَى فيه من الجلالة والمهابة، حتّى انه لولا ما كان يباسطهم ويتواضع لَهم ويؤنسهم لما قدروا أن يقاعدوه ولا أن يستمعوا منه. ولولا ما ستر الله من جمال صورته بالْهيبة والوقار ما استطاع أحد النظر إليه بِهذه الأبصار الدنيوية الضعيفة. ومن كلام عائشة رضي الله عنها:

وأجمل منك لَم تر قط عيني ... وأكمل منك لَم تلد النساء

خُلِقت مبرأً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

وأما تقاصرها عن كنه عقله، فإن عقول العوالِم كلها بالنسبة لعقله كحبة رمل بين رمال الدنيا. وعن قدره وجاهه، لأنه صاحب الجاه الأعظم والمقام الأفخم القائل عند تبري ذوي الجاه العظيم: "أنا لَها"، فلا تضيق سعة جاهه عن أحد، وعن إدراك علومه بجمعه كما تقدم علوم الأولين والآخرين، وما زاد مِما انفرد به عن جميعهم. وعن

معرفة خوفه لقوله صلى الله عليه وسلم "أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية"، وكان لصدره أزيز كأزيز المرجل من الخوف. واعلم أن ليس المراد من خوف الأنبياء عليهم السلام أن يترجوا وينكفوا عن المخالفات بوجوب عصمتهم، بل أن يكونوا في مقام العبودية والأدب على أكمل الحالات. ومن تَمام العصمة ملازمة الخوف، إذ الركون للأمن وعدم الخوف هو عين القصور وسوء الأدب. وأيضاً حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهو وإن كان كمالاً لكن لرؤية ما هو أكمل منها يخافون أن ترى منهم مع كونها كالنقص والقصور من غيرهم، فرؤية غير الأكمل منهم كافية في الخوف والانقباض. ولهذا قال بعض العارفين: واسوأتاه منك وإن غفرت لي. وبه يندفع استشكال مجامعة التأمين والجزم به مع خوف العقاب، حتّى يقال إنّهم يخافونه في أنفسهم ونحن لا نخافه عليهم. أو يقال إنّهم لعظمة الله سبحانه ومهابته عندهم وعلمهم بأنه غني عن خلقه وأن له أن يفعل بهم ما أراد ولا يسأل عما يفعل يشتد خوفهم من عقابه، حتّى إنّهم قد يذهلون عن تأمينه تعالى نظير ما قيل في قول يوسف عليه السلام ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾، وهو يعلم أن كل نبي لا يموت إلا مسلماً. إنه دعا بذلك في حالة غلبة الخوف عليه حتّى أذهله عن علمه ساعة الدعاء. وبما قررناه لا يحتاج إلى ادعاء غلبة الحال في حق أنبياء الله مع مخالفته لما صرح به الصوفية، والله أعلم.

وعن رجائه لأنه أعرف الخلق بجمال الله، كما أنه أعرفهم بجلاله، فكما أنه أخشاهم لله فهو أرجاهم له. ورجاءُ الكُمّال على قدر خوفهم، وعن كمال عبوديته، لأن العبودية هي شهود الربوبية وعدم الغفلة عنها. وهو صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق في ذلك لأنه أكمل الكُمّال على الإطلاق. وتقاصرهم على أوجه خصوصيته وأنواعها لأنه أعلم الخلق بالله، فهو أعلاهم هبة وأرفعهم زهداً وأعظمهم شفقة ورحمة وجوداً في كمال عطاياه التي يعجز عنها عظماء الملوك، وهدايته وشفاعته الموصلة إلى الفوز العظيم الأبدي، وإفاضته الفضل والكمال على أهله من النبيين والمرسلين والملائكة والشهداء والصالحين.

(فلم يدركه)، أي لم يحط بحقيقته علماً أي من الخلائق، إنساً وجناً وملائكة أو من بني آدم، لا لأجل اختصاص الحكم بهم بل لأنه لا يتبادر إدراك غيرهم له بالكنه للمباينة في الجنسية والاختلاف في العوارض، أو من أمته بالخصوص، إذ لا يتبادر إدراك غيرهم له بالكنه لتأخر خلق جسده عن زمانهم، **(سابق)** عليه في عالَم الأجسام وباعتبار الخلقة الطينية، أي فلم يدركه سابق عليه في الزمان، **(ولا)** يدركه **(لاحق)** به في الوجود بعد أول مبعثه فيعم معاصروه ومن بعدهم. أو أن السبقية واللحوق باعتبارنا

وتقدم بعضنا على بعض، وذلك من جهة أصالة نوره صلى الله عليه وسلم وخلق الأشياء منه، وأنه أصل الموجودات وآدم الأكبر وأبو الأرواح فلا سابق عليه أصلاً. وإنّما المعنَى لم يدركه السابق إلَى العلم به بسبب سبقيته، ولا متأخر في العلم به مع ما عند السابق من تقادم العلم وتطاول أمره. وإنّما قدرنا بعد "لا" عاملاً مضارعاً حتّى يكون من قبيل ما يقدر فيه العامل بعد الواو، ويكون من عطفها عاملاً أزيل قد بقي معموله دفعاً لوهم انتفى، لأن ظاهر العطف يقتضي أن المراد باللاحق باعتبار من سبقه. وهو في الحقيقة سابق لاختصاص صيغة "لم يفعل" بنفي الماضي، فلا يصح إسنادها إلَى اللاحق، ويكون نفي الإدراك قاصراً على غير المستقبل، وهو لا يصح. وبتقدير العامل المذكور يستقيم الكلام ويرشد إلَى قصد العموم الاستغراقية في الفهوم، فإن ذلك الاستغراق كما يستلزم نفي الإدراك في الماضي يستلزم نفيه في الآتي. هذا، وإنّما أتَى الشيخ رضي الله عنه بهذه النتيجة مع اتحاد ظاهرها مع منتجها السابق. فإن تقاصر الفهوم عنه هو عين انتفاء إدراكها له لإفادة الاستغراق، المستفاد من "ال" في الفهوم حقيقي لا مبالغة فيه، على أنا لا نسلم اتحاد المفهوم لأن تقاصر الفهوم عجزها، وهو معنًى ثبوتي، وانتفاء الإدراك عدمي وإن كان بينهما تلازم.

(فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة): الرياض جمع روض أو روضة، وهو مستنقع الماء، الموضع المعجب بالزهر والخضرة. والملكوت فعلوت من الملك. والملك، قال الشيخ سيدي رزوق: ما شأنه الإدراك بالحس والوهم فهو الملك، والملكوت ما شأنه أن يدرك بالعقل والفهم، والجبروت ما شأنه أن يدرك بهما، لكن في ثاني حال كما في الدنيا مِما لم نصل إليه وهماً ولا فهماً، كتعلق الجسم بالروح وهي فيه، وكما في الجنة، إذ هو "ما لا عين رأت ولا أذن سَمعت ولا خطر على قلب بشر"، وستراه الأعين وتسمعه الآذان وتعرفه القلوب.

ومن ثم قيل الملك ما ظهر، والملكوت ما بطن، والجبروت جامع بينهما. فالروح ملكوتية، والأجسام ملكية. والإنسان ظاهره ملك وباطنه ملكوت. وحيث جمع بينهما كان جبروتياً فيدرك بالبصر والبصيرة. وقيل الملك حضرة الأجسام، وهو مظهر الأفعال من إيجاد وإغناء وتقوية وتقريب وهداية وتعلم وتسهيل وأضدادها، إلَى غير ذلك من التصرفات الإلَهية، فمظهرها جميعها الأجسام. وعالَم الملكوت حضرة الأرواح، وهي مظهر الصفات. وعالَم الجبروت حضرة الأسرار، وهي مظهر أسرار الذات. وزهر النبات نوره، واحدَتُه زهرة مثل ثمر وثمرة، قالوا ولا يسمى زهراً حتّى ينفتح. والجمال الحسن الكثير، وذلك كما للراغب ضربان: أحدهما جمال يحسن الإنسان في نفسه أو

بدنه أو فعله، والثاني ما يصل منه إلى غيره. وعلى هذا الوجه ما روي عنه عليه الصلاة والسلام "إن الله جميل يحب الجمال"، تنبيهاً على أنه منه تفيض الخيرات الكثيرة.

ومعنَى مونقة معجبة، يقال أنِق الشيخ أنَقاً، من باب فرح، راع حسنه وأعجب، وأنِقت به أعجبت. ويتعدى بالهمزة فيقال أنقني، وشيء أنيق، مثل عجيب، وزناً ومعنًى. فشبه الملكوت بالمتنزهات أي الأماكن الأنيقة، ودل على ذلك بإضافة الرياض إليه، من باب أظفار المنية. كما شبه جماله صلى الله عليه وسلم بغروس تلك الرياض، ودل على ذلك بإضافة الزهر له. ومعنَى ذلك أن عالَم الملكوت متزين ومستنير بجمال النبي صلى الله عليه وسلم، إذ فيه من أنواع الجمال والتزينات ما لا يعلمه إلا الله، وكلها منه صلى الله عليه وسلم. فإن فيه النيرين، الشمس والقمر والنجوم والبيت المعمور وسدرة المنتهى التي فيها ورد "فغشاها من أمر الله ما غشاها فتغيرت وصارت زمرداً وياقوتاً فما أحد يستطيع أن ينعتها من شدة حسنها". وفيه العرش والكرسي واللوح والقلم والملائكة الذين هم جواهر نورانية بسيطة قدسية مقدسة عن ظلمات الشهوات. وفيه أمنية، وناهيك بما فيها من أنواع الجمال من القِباب والقصور من اللؤلؤ والياقوت والزمرد والحور العين والولدان والأكواب والأباريق والأرائك والعبقري والرفارف، وكل ذلك من نوره صلى الله عليه وسلم. وأصل منبتها من جماله، وبه أشرقت الأكوان واستنارت النيرات، وهو مرآة لتجلي الذات للأسرار، والصفات للأرواح، والأفعال للأجسام، كما تقدم.

(وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة): الحياض جمع حوض، وهو ما يجمع فيه الماء ليفرق للسقي كالصهريج. وأصله حواض، قلبت الواو ياء للكسرة قبلها. والجبروت تقدم. ومعنَى متدفقة منصبة انصباباً بشدة. يقال دفق الماء دفقاً، من باب قتل، انصبّ بشدة. شبه الجبروت المنير به صلى الله عليه وسلم، على حافتيه رياض تسقى من حياضه، ودل على ذلك بإضافة الحياض إليه. كما شبهت أنواره صلى الله عليه وسلم بالماء الساقي، ودل على ذلك بإفاضة الفيض لها. فالجبروت بحر، وأنوار النبي صلى الله عليه وسلم ماؤه، والحياض الساقية تستمد منه. والمعنَى أن عالَم الجبروت مشرق بالنبي صلى الله عليه وسلم. إذ لولاه ما وُجد، وبه تشاهد أسرار الذات. على أنه يحتمل أن يكون كل من الملكوت والجبروت مستعملاً في معناه. والاستعارة في الرياض والحياض تصريحية، إذ شبهت أرواح العارفين بالرياض، وصرح بالمستعار، وشبهت أسرارهم بالحياض وصرح أيضاً فيه بالمستعار. ومونقة ومتدفقة ترشيح الاستعارتين.

ثم إن مساق هذا الكلام أنه دليل لما قبله، بمعنى أنه إذا كانت رياض الملكوت وحياض الجبروت بزهر جماله مونقة وبفيض أنواره متدفقة؛ فكيف لا تتصاغر الفهوم عنه، لأن العقول قاصرة عن الإحاطة بالملكوت والجبروت. فإذا كانت أنواره صلى الله عليه وسلم هي المشرقة والمزينة لذينك العالَمين لاح غاية عجزنا عن إدراكه.

(ولا شيء) من المخلوقات **(إلا وهو به منوط)** أي متعلق ومرتبط استناداً واستمداداً، فكل إنسان، بل وكل حيوان، بل وكل جماد إليه صلى الله عليه وسلم استناده ومنه استمداده، فيعم الخلائق إنسها وجنها وملكها وحيها وجمادها، سفليها وعلويها، محسوسها ومعقولها، ملكيها وملكوتيها وجبروتيها. إذ معلوم كما في الحِكَم أنه نعمتان ما خلا موجود عنهما، ولا بد لكل مكون منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد. وهو صلى الله عليه وسلم الواسطة فيهما كما يشهد لذلك حديث الخطاب لآدم في قوله "لولا محمد ما خلقتك"، فإنه أدل دليل على أنه صلى الله عليه وسلم سبب الوجود لكل موجود، وأنه لولاه لم تكن الأكوان. ولما كان موته صلى الله عليه وسلم انتقالاً من دار إلى دار، وهو حي في قبره؛ كان للوجود بقاء بعد موته (السيوطي). حياة النبي صلى الله عليه وسلم في قبره، هو وسائر الأنبياء، معلومة عندنا علماً قطعياً لما قام عندنا من الأدلة في ذلك، وتواترت به الأخبار ثم ساق أحاديث شاهدة لذلك. وفي البردة:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وسبقه إلى مثل ذلك ابن الفارض بقوله في قصيدته:

لولاك يا محمد المحمودُ ما خلقت ... شَمس ولم تخرج الدنيا من العدم

وقال صلى الله عليه وسلم "أول ما خلق الله نوري ومن نوري خلق كل شيء" وقال "أنا يعسوب الأرواح"، أي أصلها ورئيسها الكبير. ومنه يعسوب النحل لأميرها.

وأشار ابن الفارض إلى معنَى ذلك على لسان الترجمانية عنه عليه السلام بقوله:

وإنّي وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنًى شاهد بالأبوة

وقال الشيخ ابن وفا رضي الله عنه:

روح الوجود حياة من هو واجد ... لولاه ما تم الوجود لمن وجد

عيسى وآدم والصدور جميعهم ... هم أعين هو نورها لما ورد

ومن كلام الشيخ أبي الحسن البكري الصديقي:

ما أرسل الرحمن أو يرسل ... من رحمة تصعد أو تنزل

فـــي ملكـــوت اللــــه أو ملكـــه مـــن كـــل مـــا يختـــص أو يـــشمل

إلا وطــــه المـــــصطفى عبـــده نبيـــــه مختـــــاره المرســـــل

واســـطة فيهـــا وأصـــل لهـــا يعلـــم هـــذا كـــل مـــن يعقـــل

وعن ابن عباس رضي الله عنهما مما هو في حكم المرفوع "ولولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب، فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن". هذا وإثبات الواو في قول الشيخ رضي الله عنه "وهو به منوط"، لأن الجملة بعده حالية، مثل قول الشاعر:

يحـــشر النـــاس لا بنـــين ولا آبـــاء إلا وقـــد عنـــتهم شـــؤون

ثم أشار الشيخ رضي الله عنه إلى اعتبار وجوده صلى الله عليه وسلم في وجود كل موجود بقوله **(إذ لولا الواسطة لذهب)**، أي انعدم. **(كما قيل)**، خبر مبتدأ محذوف، والجملة اعتراض بين الفعل وفاعله الذي هو **(الموسوط)**. وليست صيغة "قيل" هنا للتضعيف، لأن هذا المعنى ثابت كما في الأحاديث السابقة. ولأجل أنه صلى الله عليه وسلم الواسطة في نعمتي الإيجاد والإمداد، كان لولاه لفقد الوجود لمن وجد ولم يوجد أصلا، ولاضمحل وتلاشى وهلك بعد وجوده. فيحمل معنى "ذهب" في كلامه على الفقد، أي لفقد، ولم يوجد باعتبار وساطته في نعمة الإيجاد، والهلاك والتلاشي باعتبار وساطته في الإمداد، حملا للفظ على حقيقته ومجازه. هذا، والناس في شهود وساطته صلى الله عليه وسلم على أربع مقامات، كما للشيخ عبد الرزاق العثماني: الأول موقف أهل شهود شريعته وهو لعامة المؤمنين، الثاني موقف أهل شهود ذاته وهو للأولياء والصالحين، الثالث موقف أهله شهود روحه صلى الله عليه وسلم وهو للشهداء والصديقين، الرابع موقف أهله شهود سره صلى الله عليه وسلم وهو للأنبياء والمرسلين. وكل صاحب مقام واقف فيه عند حده، متحقق بقصوره عن إدراك ما خص به من مواهب ربه.

فمن كان مشهده شريعته صلى الله عليه وسلم فهو واقف مع شهود التكليف. وبالقطع إنه لا طاقة لأحد بالاحتواء على جميع لوازمها ولا بالقيام بجميع شروط قاعدة من قواعدها غيره صلى الله عليه وسلم، وقد قال "إن هذا الدين متين خذوا منه ما استطعتم ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه". فهو عليه السلام كنخلة اجتمعت فيه أقوات الخلق، أصلها في الأرض وفرعها في السماء، وهي مثمرة من أصلها إلى منتهاها، وكل واحد من الخلق في أخذ قوتهم منها على حسب قوته ونهاية طاقته، ورأسها مُمتنع من

الجميع لامتناع وصول البشر إلَى السماء. فاستغراق همة صاحب هذا المقام في متابعة أقواله وأفعاله ووجه مشهد شريعته، أنّها حجاب بين العبد وسخط ربه، لكونِها تورث العامل بِها ظهور وصف جمال الله الذي هو بساط رحمته، وتستره عن وصف جماله الذي هو بساط نقمته. وفناؤه في الله هو قربه لِحظ نفسه عند مطالبته بحق من حقوق ربه، ففناؤه غيبة لا سكر.

وأما من كان مشهده ذاته صلى الله عليه وسلم فهو واقف في مقام هيبة الجمال ولا سبيل له إلَى إدراك حقيقتها برؤية البصر، فأحرى بالبصيرة لِمانع قوة نوره صلى الله عليه وسلم كما امتنعت الأبصار من حقيقة الشمس، كما في قول حسّان رضي الله عنه، لما قدم عليه صلى الله عليه وسلم ورجع إلَى قومه وهم كفار قريش، فقالوا له صف لنا ما رأيت، وبذلوا له أموالاً على أن يهجوه بِما يناسب بغضهم فيه، فقال:

لَمــا نظــرتُ إلَــى أنــواره ســطعتْ وضعتُ من خيفتِي كفي على بصري

خوفاً على بصري من حسن صورته فلســتُ أنظــره إلا علــى قــدر

الأنــوارُ مــن نــوره فــي نــوره غرقــتْ والوجـه مثـل طلـوع الـشمس والقمـر

روح مـن النـور فـي جـسم مـن القمـر كحُلــة نُــسجتْ فــي الأنجــم الزهــر

فقالوا: ما هذا؟ فقال: هذا الذي رأيت وعارٌ على الرجل يصف الكذب. فصاحب مشهد ذاته صلى الله عليه وسلم هو بين محو وإثبات، لأنه إذا نظر إلَى صورة بشريته جملة شاهد بشراً سوياً، وإذا رام حصر أوصاف بشريته تمنّع عليه حصرها. فلا يمكنه عند ذلك أن يقول إلا أنه بشر وليس كالبشر، كما يقال في حجر الياقوت حجر وليس كالحجر. واستغراق همة صاحب هذا المقام في الوصف الأول، ويزيد عليه بأن مكارم أخلاقه جبلة لا تعمل كالأول. ووجه مشهد ذاته صلى الله عليه وسلم أنه حجاب رحمة بين العبد وهيبة ربه، لأنه بوجود ذاته الكريمة ظهر الإسلام وشرعت الأحكام، ولولا وساطة بشريته لم يستطع أحد تلقي أمر الله ونَهيه من ملك ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾. فمقاساته في تلقي القرآن من جبريل مع كمال قوته واستعداده، مِما ليس في طوق بشر. ولما تلقته الصحابة من بشريته لم يصعب عليهم. ووجه فنائه تركه لدواعي الهوى واستقامته ظاهراً وباطناً على بساط التقوى. فهو وإن كان عاملاً على أمر الله لكن بواسطة المبلغ عن الله، وفناؤه غيبة لا سكر.

وأما من كان مشهده روحه صلى الله عليه وسلم، فهو واقف في هيبة الجلال، وفناؤه حقيقي، لأن سره فارق عالَم الخلق واستوطن عالَم الأمر تبعاً لِمشهوده وهو

روحه صلى الله عليه وسلم، فهو ليس له مع غير الله قرار ولا عما سواه إخبار. واستغراق همة صاحب هذا المقام في وصف المقامين السابقين، ويزيد عليهما بالخروج في جميع تلقياته عن العادة إلى صون الحكمة، وبث الإفادة تبعاً لِمشهوده، لأن الروح لا حكم للعادة عليها.

وأما من كان مشهده سره صلى الله عليه وسلم، فغاية إدراكنا من العلم فيما بينه وبينهم قول البردة:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنّما اتصلت من نوره بهم

فإنه شَمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم

(صلاةً) اسم مصدر نوعي لوصفه بجملة **(تليق بك)** أي تناسب عظمتك وجلالك المبين بها أن ليس المطلوب مطلق الصلاة، بل صلاة مخصوصة على النعت الذي ذكر من الجلالة ومناسبة العظمة. فإنه عليه السلام لا يعرف قدره غير ربه. فلا يمكن أحد تعيين هذه الصلاة وبيان حقيقتها، فالصفة مخصصة لإخراجها الصلاة التي لا تناسب قدره. ومع هذا فلم يرفع الإبهام عن موصوفها، إذ هي مخصصة لا معرفة، والتعريف أخص من مطلق التخصيص، ولا يلزم من ثبوت الأعم ثبوت الأخص. وطلب الشيء لا يستدعي العلم بكنهه وماهيته لِجواز طلب المجهول الحقيقة وإن كان معلوماً من وجه دون آخر، نحو "اللهم أعطنا في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" لا يقال. فالمناسب أنه لو قال "صلاة تليق به"، لأنا نقول الالتفات إلَى قوله "على مَن منه انشقت الأسرار" الخ، يرجح ما قال. فإنه بعد أن وصف المصلى عليه بِما مؤداه أنه أعظم أصفيائك وأقرب خواص حضرة مشاهدتك وأولاهم بمزيد عنايتك، اسلك له صلاة تليق بإحسانك إليه وإنعامك عليه. وما ظنك بصلاة تليق بالله مع من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار، إذ الإحسان والصلاة من عظيم لعظيم لا تكون إلا عظيمة، واردة، **(منك إليه)** أي لا على يد أحد من خلقك لما في ذلك من الدلالة على الاعتناء بالمعطى له وعزة شأنه عند المعطي، لأن ذلك نتيجة قربه منه بكمال العلم والمعرفة، ولأن الملك إذا أتحف أحد كبراء دولته ووجّه إليه هدايا مع غلمانه وخدامه ثم أعطاه هدية مخصوصة بيده، لم تكن إلا أنفس عطاياه وأعزها. فقوله "منك إليك" تأكيد للدلالة على عظم هذه الصلاة باستحضار معاد الضميرين، إذ هي من جليل لِجليل فتكون أعظم صلاة وأكملها، إذ لا يليق من الرب العظيم إلَى نبيه الكريم إلا ما هو عظيم. وهو صلى الله عليه وسلم أهل للمعاملة بأعظم

الكمالات وأشرفها وأتمها.

هذا، وقد تكون العطية على يد الواسطة، ويبقى المعطى له على شهودها وشهود غيرها بشهود المعطي، والاشتغال به فيحصل له كمال الاعتناء. ولعل هذا محمل ما للشيخ الشاذلي رضي الله عنه: "وتول قبض أرواحنا بيدك"، مع أنه لا بد من واسطة ملك الموت. قال الشيخ أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي: هذا كما قيل في الأخفياء من الأولياء الذين اختص الله تعالى بعلمهم أنه يتولّى قبض أرواحهم بيده فتصيب أجسادهم به فلا يعدو عليها الثرى حتّى يبعثوا بها مشرقة بنور البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد مع الباقي الآخر عز وجل. وقد ورد في الخبر: من واظب على قراءة آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة، وسقط لفظ مكتوبة في "نوادر الأصول"، قال كان الذي يتولّى قبض روحه ذو الجلال والإكرام. والمراد بذلك قبضتها بالتجلي واستغراقها في الشهود واستهلاكها في الحب واستطالها بالغيبة وسلب الشعور بالغيب، وفي ذلك غاية منيتها وأمنيتها، كما أشار إلى ذلك ابن وفا رضي الله عنه بقوله:

من مات فيك له الْهنا ... وله الحياة بِلا عَنا
إن الْمنية في الْهوى ... عند الحب هي الْمنا

وقال أيضاً رضي الله عنه:

إن الذين أحبهم أهل الوفا ... من مات فيهم عاش عيش وفاء
تلفي بِهم سبب الحياة بروحهم ... يا حب ذاك منيتي بِمُناء

وله أيضاً:

يا فنائي وسلوي جملة ... لكما ما دون حبّي فخذا
ليس لِي في غير حي حاجة ... أيها الغير تنحى هكذا
أنا وصلي بِحبيبي راحة ... فالذي يُشغلني عنه أذا
فإذا غبت عن الغير بِمن ... هو مَحبوبِي تحققت إذا
من يكن في الحي حي بد من ... روحه تنشق من حبّي شذا
كل شيء دون حي هالك ... فحياة الكل حي حبذا
يا حبيبي ووجودي والذي ... بوفاه لَفُؤادي أخذا
أنت في روح وحيٍّ وهوى ... وحياة وشراب وغذا

(كما هو أهله). الكاف للتعليل، وما موصولة اسمية وهي معاد الضمير المضاف إليه أهل، أي لأجل العظيم الذي هو مستحقه. ولم يعين هذا الأمر لعدم

اطلاعنا عليه. فوجب إبهام الصلة لِما فيه من التفخيم نحو ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾.

هذا، وفي الحلية لأبي نعيم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من قال جزى الله عنا محمداً ما هو أهله، أتعب سبعين كاتباً ألف صباح". وفي رواية عند ابن ثابت في الكفاية "ألفي صباح"، بالتثنية.

وأخرج الترمذي وحسّنه، والحاكم وصحّحه، قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها لك. قال "إذاً يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك". وفي رواية عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: يا رسول الله إنّي أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: "ما شئت". قال: قلت الربع. قال: "ما شئت وإن زدت فهو خير". قلت: النصف. قال: "ما شئت وإن زدت فهو خير". قلت: الثلثين. قال: "ما شئت وإن زدت فهو خير". قال: أجعل لك صلاتي كلها. قال: "إذاً تُكفَى همك ويغفر لك ذنبك".

قال الشيخ أبو المواهب الشاذلي: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله ما معنَى قول كعب كم أجعل لك من صلاتي؟ قال: "أن تصلي عليّ وتهدي ثواب ذلك إلَي لا إلَى نفسك". من العهود للشعراني.

وقال الشيخ زروق في عدة المريد: من الناس من يجعل أعماله هدية الأولياء أو يجعل ورداً لجميعهم أو للجهة التي يعتقدها، وذلك أمر مختلف فيه. ومنهم من يجعل ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من باب حسن النية والتقرب لِجنابه الكريم صلى الله عليه وسلم. وليس الحق في ذلك إلا باتباع سنته وإكرام قرابته وكثرة الصلاة عليه والتسليم، لأنه غني عن أعمالنا. وإنّي لأرى في ذلك إساءة أدب معه لِمقابلته بما لا يصلح أن يكون صاحبه مقبولا، فكيف الاعتذار بثوابه. لكن رؤيا أبي المواهب المتقدمة تؤيد كلام العهود. وكذا ما للشيخ أبي المواهب التونسي رضي الله عنه قال: قال لِي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة "أنت تشفع في مائة ألف"، فقلت له: بِما استوجبت ذلك يا رسول الله؟ فقال: "بإعطائك لِي ثواب صلاتك علي". وكذلك ما روي عن الإمام علي بن الموفق وكان في طبقة الجليل. وقال الحطاب إنه أقدم من الجيلي، وأدرك الإمام أحمد في طبقته وعاصره وعاش بعده، أنه حج حججاً وحفل ثوابها له صلى الله عليه وسلم فرآه يقول له "هذه يدٌ لك عندي أكافئك بِها يوم القيامة، وآخذ بيدك فأُدخلك الجنة بغير حساب". وهذا كله مع نية جعل ثواب العمل له صلى الله عليه وسلم، لأنه في المعنَى إهداء القُربة له، وإلا فالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم هدية له بكل حال وإن لم ينو المصلي جعل ثوابِها له. والقصد من الإهداء

للعظماء إجلالُهم وإعظامُهم، لا أنّهم محتاجون إلى تلك الهدية. ومن ثم كانوا يجزلون المثوبات على أدنى شيء. على أن الذي ينبغي أن ينوي المصلي عليه صلى الله عليه وسلم بصلاته تحصين عمله من الرد، أي يقوي بذلك رجاءه احتراماً له صلى الله عليه وسلم، لأن في الهدايا للملوك إذا كانت لا تناسب جلالة مقاديرهم ويخشى ردهم لَها، أدخلت في جهة هدايا واسطة عظيم عند الملك، فتقبل حينئذ من جملة هداياه.

وهذا كله إذا احتقر العامل نفسه واعتقد قصوره وعدم أهليته لذلك. وأما إذا رأى عمله شيئاً معتداً به معتمداً في نفسه، فسوء الأدب لازم له. ويمكن حمل ما لسيدي زروق عليه وفي الحطاب على المختصر.

أجاز بعض المتأخرين كالسبكي والمازري وبعض المتقدمين من الحنابلة كابن عقيل تبعاً لعلي بن الموفق، وكأبي العباس محمد بن إسحاق السراج من المتقدمين إهداء ثواب القرآن أو غيره من سائر القرب له صلى الله عليه وسلم، ومنعه بعضهم قائلا: هو بدعة. وذلك لِما فيه من التجرؤ والهجم فيما لم يأذن فيه الشارع، مع أن ثواب التلاوة حاصل له صلى الله عليه وسلم بأصل شرعه فيكون من تحصيل الحاصل، بل وجميع أعمال أمته في ميزانه. وقد أمرنا الله بالصلاة عليه وبسؤال الوسيلة له وبالسؤال بجاهه. فينبغي أن نقف عند حد ذلك، مع أن هدية الأدنَى للأعلى لا تكون إلا بإذن. ومن الناس من قال باستحباب ذلك قياساً على ما كان يهدى إليه في حياته من الدنيا. وكما طلب الدعاء من عمر، وحث الأمة على الدعاء بالوسيلة عند الأذان وعلى الصلاة عليه قال: وأما سؤال الفاتحة له فينبغي أن يمنع منه جزماً لما أن لا يخفى. واختلفوا في جواز الدعاء له صلى الله عليه وسلم بالرحمة، وإن كانت بِمعنَى الصلاة لِما في الصلاة من معنَى التعظيم بخلاف الرحمة المجردة. ولما كان من آداب الملوك أن يعامل وزيره ويخلع عليه خلعه السنية، أن يذكر محبته في الملك وخدمته له ومناصحته إياه، تأكيداً للطلب له واعتناء بشأنه وإن كان الملك عالماً بذلك، مع أن للطالب منفعة في ذلك وحظاً في الطلب لنفسه بإظهار محبته لِمحبوب الملك وخدمته لِخادمه.

أشار الشيخ رضي الله عنه إلَى بعض ما أطلعه الله عليه من ذلك بقوله **(اللهم إنه)** صلى الله عليه وسلم **(سرك)**. سُمي صلى الله عليه وسلم سر الله وسر الأسرار وكنْز الأسرار ومعدن الأسرار ومهبط الأسرار، لكونه مرآة ومظهراً لصفات الجمال والجلال على جهة التعريف. **(الجامع)** لما افترق في غيره من المظاهر، فإنّهم مستمدون منه وآخذون عنه، فهو مجمع أسرار جميع الصفات وأسرار أسماء الأفعال، فهو منبعها

ومظهرها وهو السر الذي أوْدعه الله مكوناته العلوية والسفلية الذي به ظهرت الأسرار وأشرقت الأنوار. فلا مكون إلا وهو سره الذي قام به أمره. وذاته الكريمة صلى الله عليه وسلم جمعت حقائق الموجودات، ونبوته جامعة لسائر النبوءات، ونوره جامع لسائر الأنوار، وسره منه تفرعت الأسرار، ويومه جامع لسائر الأيام، وكتابه جامع للكتب المنزلة على أنبياء الله الكرام.

(الدال عليك) بأقواله وأفعاله، وفي عالَم الأرواح وفي عالَم الأجساد، وجميع الرعاة نوابه وخلفاؤه فـ "ال" فيه للكمال، وقد بعث صلى الله عليه وسلم في زمن فترة عمت فيه الضلالة وكثرت فيه الجهالة، الخلق فيه عن الله معرضون وعن بابه حائرون شاردون، فدلّهم صلى الله عليه وسلم وعرفهم الطريق إليه وردهم إلَى بابه الكريم ونَهج بِهم الصراط المستقيم ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ ﴾، فهو صلى الله عليه وسلم الهادي من الضلالة والمنقذ من الجهالة.

(وحجابك الأعظم) الذي حجبت به خلقك عن الفقد وعدم الوجود باعتبار واسطته في نعمة الإيجاد، وعن الاضمحلال والتلاشي والهلاك باعتبار واسطته في نعمة الإمداد، فهو صلى الله عليه وسلم حجاب رحمة بين العبد وهيبة ربه. ولولا واسطته لم يستطع تلقي أمر الله ونَهيه من واسطة الملَك، فأحرى من خطاب الملِك. ولولا واسطته لم يستطع العبد وصف المشاهدة لقوله صلى الله عليه وسلم "حجابه النور ولو بدت سبحات وجهه لاحترق ما أدركه بصره من خلقه". فمعنَى كونه حجاباً أنه حجب الخلق عن ما ذكر. الخلق هم المحجوبون عن ما ذكر، لا عن التلقي والشهود، إذ به يتوصلون إلَى ذلك. ولقد أحسن الشيخ رضي الله عنه حيث أتَى به بعد قوله "الدال عليك". أو معناه أنه حجب المؤمنين من العذاب بإرشادهم ودعائهم إلَى الإيمان، أو حجبهم بالتأليف بين قلوبِهم من آفات التدابر والتقاطع، أو حجبهم من نار الفرق والقطيعة، حيث أوصل كلا منهم إلَى حظه من المشاهدة على اختلاف مراتبهم. أو حجبهم عن أخلاق الجاهلية وما كان أهلها عليه من الضلال، أو حجب عقولَهم وعقلها بعقول شرعه المستقيم عن النظر في حقائق الذات العظيمة مما هو لَهم عطب ووبال، وقد زجرها عن ذلك، "تفكروا في مخلوقاته ولا تتفكروا في ذاته".

ولَما كان جميع الأنبياء والمرسلين بِما للخلق بالمعاني المذكورة، ومعنَى الحجاب مشترك بينهم وبين نبينا صلى الله عليه وسلم، ولكنه أعظمهم في ذلك وأبلغهم فيه، إذ عنه أخذوه ومنه اكتسبوه، وصف الحجاب بالأعظمية، وبأنه **(القائم لك)**، لأجلك تعظيماً وإجلالاً، **(بين يديك)**، كناية عن شدة قربه التي استبد بِها عن غيره عليه

الصلاة والسلام.

(اللهم الحقني بنسبه) الديني، أي أدم لحاقي به وأبقه مستمراً، وإلا فذلك حاصل له. أو المطلوب حصول كماله، فإن كماله لا قطع به لأحد ولا نهاية للترقي فيه. ويحتمل أن المراد نسبه الطيني، إذ لا يقطع به أحد لنفسه في نفس الأمر، مع أن شرطه الوفاة على الإسلام، وهو غيب، كما هو المعتقد في كل فضيلة، وعد عليها في العقبى مما شرطه الإيمان. ويحتمل إرادتهما معاً وهو أبْيَنُ، لأن من جمع بين النسب الطيني والكمال الديني فقد حاز الحظ الأوفر منه. من ثم قال الشيخ الجيلاني رضي الله عنه: قدمي على رقبة كل ولي، أي أهل زمانه، كما للشيخ زروق. ولكن الوجه الثاني أوجه لتعقيبه بقوله **(وحققني بحسبه)** أي بالتخلق بأخلاقه، أي اجعلني من المقتدين به، المتبعين لسنته قولاً وفعلاً وحالاً، إذ بذلك يحصل كمال الوصول ويثبت مقام المحبوبية الذي هو غاية المنى. ومنتهى السؤال لقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، وبه يحصل الجمع بين الاتصالين، الصوري والمعنوي، فإن شرف الملحق بقدْر شرف الملحق به، وكمال المتحقق بكمال من تحقق به. وقد استجاب الله دعاء الشيخ رضي الله عنه، إذ تغلغل في علوم القوم التي مدارها على التخلق المصطفوي، ونال الحظ الأوفر من مقام المعرفة والصراط السوي، كما ذلك غير خاف. أذاقنا الله من حلاوة ورده، وأوقعنا بمواقع رومه وقصده. وقد أسلفنا من كلامه رضي الله عنه نبذة تؤذن بمعرفة علو قدره وجلالة منصبه.

وَاطْلبْ بسر ابن مشيش ما تريد ... تناله وإن يكن عنك بعيد

(وعرفني إياه معرفة) حقيقية تثمر لي ثمرة وتنتج لي نتيجة، فإن المعرفة التي لا ثمرة ولا نتيجة لها ليست معرفة على الحقيقة. وبيَّن نتيجة المعرفة المطلوبة بما يفيدك كمالَها من قوله **(أسلم بها من موارد)**، أي مواقع **(الجهل)** به. **(وأكرع)**، أشرب حتى أروى **(بها من موارد الفضل)**، أي العلم به. وعبر عنه بالفضل لتمحضه أي، الفضل في الوهبي وأصالته في الكسبي. ويحتمل أن يراد من موارد الجهل بالله ومن موارد الفضل أي العلم بالله، لأن معرفته صلى الله عليه وسلم سبب في معرفة الله تعالَى. ويحتمل أن يرادا معاً، وهو أفيد. ويحتمل أن تكون الإشارة بقوله "أسلم بها من موارد الجهل" إلَى أنه سأل المعرفة التامة المتضمنة للقرب، وهي التي لا جهل مضر معها. وموارد الفضل، أي الكرم والعطاء والنوال إشارة إلَى الرضا والمحبوبية. والموارد جمع مورد، وهو محل الورود والسقي. والكرم عبارة عن شرب

المتعطش اللهفان الشائق إلى الورود الراغب في الازدياد. وموارد الفضل هي مشارب أرواح المقربين وموارد أسرارهم التي لا تدرك إلا بالفضل الإلهي والعناية الربانية. ومن عرفه صلى الله عليه وسلم المعرفة الحقيقية قرب سره من سره وتوصل إلى معرفة ربه. وعلى حسب معرفته تكون معرفة الله تعالى وهو باب الله الأعظم:

وأنت باب الله أيُّ امرئٍ أتاه من غيرك لا يدخُلْ

ولذا قدم سؤال معرفته صلى الله عليه وسلم على قوله "وزج بي في بحار الأحدية"، المتضمن طلب معرفته تعالى وطلب القرب والرضا، لأن المعرفة التي لا جهل مضر معها لا تكون إلا بالقرب. والتقريب فيه ضمن سؤال هذه المعرفة المخصوصة سؤال القرب والرضا. ولا يخفى أن معرفته صلى الله عليه وسلم بالاطلاع على مكنون أسراره ومصون أنواره ومحاسنه وكمالاته، الموجب ذلك كله تعظيمه وإجلاله صلى الله عليه وسلم لما يشهده مما يسر قلبه ويسبي لبه، فيسارع حينئذ إلى خدمته بقلبه وقالبه ويؤثر استرضاءه على هوى نفسه، ويتمنى أن لو كان معه في عصره فينفق عليه ساعات عمره وقوته وروحه وفداه بنفسه وبأولاده وأهله. وبمعرفته الخصوصية المذكورة تكون داعية حسن الثناء عليه صلى الله عليه وسلم ومدحه بالنثر والنظم من الكلام، فيوجب شفاعته ومكافأته. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من مدحني ولو ببيت شعر واحد كنت له شفيعاً يوم القيامة"، وقال لحسّان حين أنشده قصيدته التي يقول فيها لبعض كفار قريش:

هجوتَ محمداً وأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء

فقال صلى الله عليه وسلم "جزاؤك الجنة يا حسّان". وانظر قضية البردة وما أثيب به صاحبها البوصيري رحمه الله.

وأيضاً من عرفه صلى الله عليه وسلم أثمرت له معرفته مقام المحبوبية، لأن محبة الله للعبد على حسب محبة العبد له صلى الله عليه وسلم ومتابعته إياه. ومحبة العبد على قدر معرفته به واطلاعه على جماله وإحسانه. ولا سبب للمحبة إلا الجمال والإحسان. ولا جمال ولا إحسان يشبه أو يقارب جماله وإحسانه، إذ كل نعمة واصلة إلى منعم عليه أيا كان فهي على يده وبواسطته صلى الله عليه وسلم. فلأجل ذلك طلب الشيخ معرفته، أي دوامها وزيادة الترقي فيها. فمطلوبه المعرة فالخاصة الموصلة لما سبق، فلذا خصصها بالصفتين المتعاطفتين على سبيل الترتيب، لإفادة الأولى التخلية عن رذيلة الجهل، والثانية التحلية بفضيلة العلم، والتخلية سابقة. لا يقال كيف تتعقل السبقية هنا مع التلازم، وانتفاء عدم العلم لا يحصل بدون حصول العلم، كما لا

يحصل العلم بدون حصول عدمه، لأنا نقول لا ملازمة على أن الجهل وجودي، وهو تصور الشيء على خلاف ما هو به، وأن التقابل بينه وبين العلم تقابل التضاد لِجواز حصول انتفاء تصور الشيء على خلاف ما هو به بدون حصول العلم به كما في حق الفاعل عنه. وأما على أنه عدمي أي عدم العلم بالشيء، وأن التقابل بينه وبين العلم مقابل العلم والملكة، فالسبقية لا تخفى بتصور التخلية أولاً ثم التحلية ثانياً. هذا، وقد عمم في الجهل ليشمل مركبه وبسيطَه. وعمم في الموارد المضافة له ليسلم من جميعها. فإن قيل: أليس قد قال صلى الله عليه وسلم "لا يعلمني حقيقة غير ربّي" فالعلم الذي لا جهل معه أصلاً لا يحصل لِمخلوق؟ قلنا الاستغراق في موارد الجهل إضافِي بحسب ما يليق بالعبد ،كما يشهد به إدخال "من" التبعيضية في المعطوف، فإنه يفيد أنه لم يسأل العلم كله، أي المحيط، إذ معنى "أكرع" أشرب بالفم بلا واسطة يد ولا آنية. فـ "من" بعده تبعيضية مثل شربت من النهر، وهو على حذف مضاف أي أكرع بِها من ماء موارد الفضل. وقد اتضح أن محل التبعيض ما في الموارد الذي يفيد المضاف المذكور، ومحل التعميم نفس الموارد، ولا يلزم من التعميم فيه التعميم في الأول. و"من" الجارة لِموارد الجهل للعموم؛ إذ هي فيه بعد النفي ضمناً، لأن معنَى "أسلم" لا أقع، ومَدْخولُها نكرة معنًى إذ هو مضاف لذي ال الجنسية. هذا، وفي موارد الجهل وموارد الفضل استعارة مكنية وتخييلية، إذ شبه الجهل بالماء الضار ودل على ذلك بإثبات الموارد، وشبه العلم بالماء النافع ودل على ذلك بالموارد أيضاً. ولا يخفى أن الذي أفاد إثبات الموارد هو التشبيه بالماء فيهما. وصفة الضر والنفع إنّما هي مستفادة من لفظ الجهل والفضل، فإضافة الموارد إلَى الجهل والفضل أفادت إلَى المشبه به الماء الضار والنافع. فلا يرد أن يقال كيف دل إثبات الموارد على متنافيين في الصفة، أي الضر والنفع، لأن التابع لأحد المتنافيين غير تابع للآخر.

(واحملني على سبيله) بِجواذب ربانية تجذبني **(إلى حضرتك)** الربانية، على كاهل السنة المحمدية. والحضرة من المحاضرة، وهي عبارة عن موطن من مواطن القرب والمشاهدة. فإذا كان العبد على بساط الحق مشاهداً لصفاتِه سُمي ذلك الموطن حضرة الصفات، وإذا كان مشاهداً للأفعال سُمي الموطن حضرة الأفعال. فإذا أراد الله سبحانه أن يبلغ السالك إلَى حضرته الكريمة، حَمله إليه على سبيل الاقتداء بالنبِي الأكرم، ومتابعته في أقواله وأفعاله وأحواله وحركاته وسكناته.

والناس في مشاهدة قربه تعالَى منهم بواسطته عليه الصلاة والسلام على ثلاث مراتب:

الأولى موقف أهلها لشهود شريعته، فهم يشهدون ما في التكليف من تحمل الأثقال، فتطول عليهم المسافات ويبعد في حقهم الوصول لأنهم حاملون في الطريق، ويلازمهم الكمد والحزن لِحملهم ما فرت من حمله السماوات والأرض وأشفقن منه. وصاحب هذه المرتبة وإن كان ذا حظ من القرب والخصوصية، لكن غيره أكمل منه، لأنه يشهد ما منه إلى الله من أقوال وأعمال، فهو مثبت لنفسه يشاهدها ويشاهد الأقوال والأفعال منها.

المرتبة الثانية موقف أهلها شهود ذاته المطهرة. فمعرفته أتم من معرفة الأول، وصاحبها يشهد ما يجري على يده من الطاعات من الله إليه تفضلاً وإحساناً، ويرى ضعف نفسه وسقوط حوله وقوته فيمده الله تعالى بالعون والنصر، ويلازمه الفرح والسرور، لأنه يشهد الهدايا من مالك الملوك إليه، ويخف عليه السير ويستحليه لأنه محمول في محفات المنن مروح عليه بنفحات اللطف، فخدمته جبلة لا تعمد، بخلاف الأول. وهو أيضاً مشاهد لنفسه حيث رأى الهدية من الله إليها، وإن كان لا يشهد الأعمال منها فقد بقيت فيه بقية.

المرتبة الثالثة موقف أهلها شهود روحه، وهم أهل الفناء التام، فهم يشهدون ما من الله إلى الله، فهم بالله وفي الله وإلى الله، قد حفت بِهم نصرته ولازمتهم حياطته، رزقنا الله بركات الجميع منه.

وحاصل الفرق بين المراتب الثلاث قوة التعظيم الناشئة عن كثرة المعرفة. فإن لأهل شهود الروح من المعرفة ما ليس لأهل شهود الذات، فلهم من التعظيم ما ليس لغيرهم. وهكذا أهل شهود الذات مع أهل شهود الشريعة. وبقدر التعظيم تحسن النية ويسهل الاتباع. كذا في كتاب الإلمام لصاحبنا أبي عبد الله بن زكري، والذي سأله المؤلف من هذه المراتب ثالثها، فاحترز عن الأول بقوله "واحملني" فسأل أن يكون محمولاً لا حاملاً، واحترز عن الثاني بقوله **(حملاً محفوفاً بنصرتك)**، أي مصحوباً مقروناً من جميع جوانبه بتأييدك فأكون بك في سلوكي إليك لا بنفسي، لأن حمل من في المقام الثاني مصحوب بالنصرة لا محفوف بِها من كل جانب. ومعنى الاستعلاء على سبيله أن يكون متمكناً منه قوياً على سلوكه. وفيه استعارة مكنية وتخييلية، إذ شبه السبيل بالبراق في التوصيل إلى الحضرة القدسية، ودل على ذلك بتابعه وهو الحمل، ولم يقل بالنصرة على نفسي والشيطان، لأن طلب النصرة عليها شأن أهل البدايات، وأما أهل النهايات فيقولون نحن عرفنا الله فكفانا مَن دونه. وحذف المتعلق للتعميم أي على كل شيء حتى تنفعل له المكونات وتطيعه الأشياء وتكون إرادته تابعة لإرادة الله.

(واقذف) بالذال المعجمة **(بي على الباطل)** هو كل ما سوى الله تعالَى حتّى المقامات والأنوار. **(فأدمغه)** فعل مضارع من دمغه يدمغه، أصاب دماغه بالضرب، وهو مقتل من المقاتل. ونصبه بـ "أن" مضمرة بعد فاء جواب الطلب ضمن الفعل. معنَى القمع والإبطال، أي فأقمعه وأبطله. سأل الله تعالَى أن يقذف به عن الأغيار ويدفعه عن الأكوان حتّى ينمحي عن مشاهدته وتضمحل في نظره، أي طلب دوام ذلك واستمراره. وهذا مقام المعرفة كما في الحِكَم: العارف لا يزول اضطراره ولا يكون له مع غير الله قراره. وهو الصالِح المشار إليه بقوله تعالَى ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي الذين صلحوا لِحضرته بتحقيق الفناء عن حقيقته. ومن ثَم أعرض العارفون عن كل شيء سوى الله وقصروا هممهم على الله ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾. ومن كلام الشيخ أبِي الحسن الششتري رضي الله عنه في هذا المعنَى:

فلا تلتفت في السير غيراً وكل ما سوى الله فاتّخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تقم فيه إنه حجاب فجُد السير واستنجد العَوْنا
ومهما ترى كل المراتب تُجتلى عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل لِي ليس لِي في غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرقة تُجنا

وقيل:

الله قُلْ وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته عدمٌ على التفصيل والإجمال

وهي ولاية الإيقان المتضمنة لولاية الإيمان التي قبلها، وهي ولاية الصديقين التي هي بعد ولاية الصادقين، قال الشيخ ابن عطاء الله بإخلاص العمل لله تعالَى والقيام بالوفاء مع الله طلباً للجزاء من الله، وولاية الصديقين بالفناء عن ما سوى الله والبقاء في كل شيء بالله. وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه في بعض كتب الله المنزلة على أنبيائه "من أطاعني في كل شيء أطعته في كل شيء، بأن أتجلى له دون كل شيء، حتّى يرانِي أقرب إليه من كل شيء". قال ابن عطاء الله: هذه طريق أولَى وهي طريق السالكين، وطريق كبرى "من أطاعنِي في كل شيء بإقباله على كل شيء لِحسن إرادة مولاه بكل شيء، أطعته في كل شيء بأن أتجلى له في كل شيء حتّى يرانِي كأننِي كل شيء". قال: وإذا عرفت فاعلم أنهما ولايتان: ولِي يفنَى عن كل شيء فلا يشهد مع الله شيئاً، وولِي يفنَى في كل شيء فيشهد الله في كل شيء، وهذا أتم، لأن الله سبحانه وتعالَى لم يظهر المملكة إلا حتّى يشهد فيها، فالكائنات مرايا الصفات. فمن غاب عن

الكون غاب عن شهود الحق فيه. فما نصبت الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق أن تراها بعين من لا يراها، تراها من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها. وله في هذا المعنى:

ما أبينَتْ لك الْمعالِم إلا لتراها بعين من لا يراها
فَارْقَ عنها رقْيَ من ليس يرضى حالة دون أن يرى مؤلاها

ومن كلام الشيخ المجذوب رضي الله عنه:

من شاهد الكون بالْمكوّن عزه في عمى البصيرة
ومن شاهده بالْمكون صادف علاج السريرة

ولّما تحقق الشيخ بِمشاهدة روحه صلى الله عليه وسلم، أنتج له ذلك من المحبة ما حمله على سؤال الرمي في بحار الأحدية فقال **(وزُجَّ)** أي ارم **(في بحار الأحدية)** واستغرقني حتّى لا أشهد إلا إياك ولا ألتفت لشيء سواك. ومن تمكن من الاستغراق في الحضرة القدسية فنى عن الأغيار. والأحدية مبالغة في الوحدة كما للشيخ ابن عباد، أي أنّها لا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة، بحيث لا يمكن أن يكون أشد منها ولا أكمل. فشبهها المؤلف بالماء العظيم المستبحر المتلاطم الأمواج تشبيهاً مضمراً فِي النفس ودل على ذلك بإضافة البحار إليها، والأحدية هي محل الفناء الكامل الذي تحصل معه الغيبة عن كل شيء حتّى عن نفسه وعن فنائه وعن توحيده. فإن العبد متى كمل شغله بربه حتّى فنى عن ذكر غيره كان فناء. وهو على ثلاثة أوجه: فناء في الأفعال، لا فاعل إلا الله، وفناء في الصفات، لا حي ولا قادر ولا عالم ولا مريد ولا سَميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة إلا الله، وفناء في الذات، لا موجود على الإطلاق إلا الله.

فيفنَى ثُم يفنَى فكان فناؤه عين البقاء

فإذا قوي شغل العبد بربه حتّى نسي نفسه، كان فناء الفناء وهو عين الوجود الحقيقي عند هذا القوم. قال الجنيد نفعنا الله به:

وجودي أن أغيب عن الوجود بما يبدو علي من الشهود

(وانشلني)، خلصني **(من أوحال)**، هي متشابهات أحكامه التِي زلت فيها أقوام كثيرة، فإنه إذا غرق العارفون في بحار التوحيد وساروا فيها بِفُلْك أسرارهم تلاطمت عليهم أمواجه، فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم الله فآواه إلَى جبل السنة المحمدية، فاحترز بطلب تخليصه من أوحال التوحيد مِنْ حالٍ مَنْ حال بينه وبين السنة المحمدية الموج فصار من المغرقين. وذلك أن من الناس من لبس عليهم الأمر فقالوا

بالحلول والاتحاد، ومنهم من غلبت عليه الحقيقة فادعى الجَبْر ونفى الحكمة والأحكام. قال صاحبنا الفقيه سيدي محمد بن زكري في كتاب "الإلمام والإعلام": ويحتمل أن يكون سأل بقوله "وزج بِي في بحار الأحدية" حال أهل الجذب المستدلين بالله على الأشياء دوام ذلك، وبقوله "وانشلني من أوحال التوحيد" دوام التخلص مما يعرض للسالكين المستدلين بالأشياء على الله من الشبهات، ويحتمل أن يراد بالزج في بحار الأحدية الدفع لا على وجه الإغراق، بل على سبيل الركوب والمرور ليعلم ما فيها من الذخائر، ويراد بالنشل من أوحال التوحيد التخلص من كونه من أهل شهود التوحيد لأن مشاهده مفروق لأنه مصدر وقد يقتضي موحداً وموحَداً بصيغة اسم الفاعل والمفعول. وأوحاله حينئذ شهود الأغيار، لأن أهله يستدلوها بالأشياء على الله تعالَى.

ثم رجع المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به إلَى سؤال البقاء بعد الفناء، ليصلح للخلافة. لأن صاحب الفناء الأكبر، وإن كان كاملاً، فهو غير أكمل لعدم صلاحيته لتكميل غيره، فقال **(واغرقني في عين بحر الوحدة)**. سأل الإغراق في العين التِي هي بحر الوحدة، لأنه يحصل معه الري ولا يخشى على صاحبه التلف، لأن الغريق في بحر الأنوار الذي هو معانِي الأسماء والصفات، لم يقف بساحل الآثار الذي هو موقف النجاة: كما أشار إليه أبو زيد بقوله: "خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله". وهذا اعتراف منه بالنقص والتقصير، لأن خوض البحر من الجهل بهوله، والوقوف بساحله من المعرفة بقدره. فالخائض عرض نفسه للهلكة، والواقف قائم مع النجاة ويمكنه من استخراج حليته وطعامه ما لا يمكن الخائض. وأيضاً من غلب سكره على صحوه قد يتعدى حدود الشريعة، ومن مزج شراب الحقيقة بِماء الشريعة كان صحوه حافظاً له عن ذلك. ويحتمل أن يراد بالإغراق في عين بحر الوحدة الاستهلاك في حقائق التوحيد والتغيب في الشهود عن الوجود، وهو عين الفناء التام الذي هو دهليز البقاء، وهو المعبر عنه عند القوم بفناء الفناء، وصاحبه فان عن فنائه، باق مع الحق بعين الجمع، وطلب الإغراق في عين بحر الوحدة دون نفس بحرها ودون بحار الأحدية ليكون من أهل جمع الجمع، فيكون الجمع في باطنه موجوداً، والفرق على ظاهره مشهوداً. وأضاف للوحدة البحر، وللأحدية البحار، لِما سبق من أن الأحدية مبالغة في الوحدة.

ثم جعل الإغراق المذكور بقوله **(حتى لا ارى)** إلا بِها **(ولا أسمع)** إلا بِها **(ولا أجد)** من الوجدان إلا بِها **(ولا أحس)** بشيء من الحواس **(إلا بها)** وذلك بالغيبة عن

الأكوان بشهود مكونها، وحينئذ يصير القلب واحداً بالله. ومن ثم قال عليه السلام "إن الله وتر يحب الوتر". قالوا بمعنى القلب المنفرد له، بحيث لا يرى في الدارين إلا هو، ولا يلتفت إلا عنها وينسى ذكر كل شيء عند ذكره.

(واجعل الحجاب الأعظم)، "ال" فيه للعهد الذي في قوله المتقدم "وحجابك الأعظم". والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم. **(حياة روحي)**، أي حجاباً في حقي، أي حاجباً لروحي عما فيه هلاكها فتكون حية به متنعمة في معرفتك بسببه، لأن من لم يحتجب بالنبي صلى الله عليه وسلم وقع في المهلكة وماتت روحه.

والعارف وإن وصل إلى حضرة القدس ومورد الأنس، وفنى عن وجوده في هيبة مشهوده، ثم فنَى عن فنائه وصار محواً صرفاً، فإنه لا غنًى له عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما لا غنًى لأحد على الإطلاق عن واسطته. فإن مشهد العبد أولا واسطته صلى الله عليه وسلم. فإذا تجلت لسره شَمس الأحدية استغرق في نور قمر المحمدية، فغاب نور قمر المحمدية في غلبة نور شَمس الأحدية لقرب البعض من البعض، كما يغيب ضوء القمر الحسي في ضوء الشمس عادة عندما تتقارب منازلهما.

وفي حاشية الشيخ سيدي عبد الرحمن الفاسي على الحزب الكبير للشيخ الشاذلي رضي الله عنه: اعلم أن كل ولي لله تعالى فإنه يأخذ ما يأخذ بواسطة روحانية النبي صلى الله عليه وسلم، فمنهم من يعرف ذلك، ومنهم من لا يعرف ويقول: قال لي الله، وليس غير تلك الروحانية. ويوافقه قول الشيخ أبي العباس المرسي أن الولي إنّما يكاشف بالمثال، أي كما يرى مثال البدر في الماء وبواسطة، وكذلك الحقائق الغيبية والأمور الإشهادية مجلوة وظاهرة في بصيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وله عياناً لا مثالاً. والولي لقربه منه ومناسبته لهديه ومتابعته له، يكاشف بمثال ذلك فيه. فظهر الفرق وثبتت مزية النبي صلى الله عليه وسلم، وانتفى اللبس بين النبوءة والولاية، وصح ما أطلق عليه الأولياء عن المحادثة والمكالمة. وقولهم: قيل لي، ونوديت في سرّي. وبه يفهم أن الولي أولاً يستحضر وساطته صلى الله عليه وسلم إذا استولى عليه الفناء واستغرقه الشهود، لأن صاحب الفناء لا شعور له بشيء وقت فنائه لغيبته فيما فنى فيه، وإلا فاستمداده منه صلى الله عليه وسلم، وتوجه الفتح له على يديه في نفس الأمر لا محالة. فإن نبه لذلك بعد إفاقته اعترف به بدليل مع العلم أنه لا يخرج شيء من الخزائن، خزائن أجناس العالم، على الإطلاق. وما حصلت رحمة في الوجود أو خرج قسم من رزق الدنيا والآخرة والظاهر والباطن والعلوم والمعارف إلا على يديه صلى الله عليه وسلم، وبواسطته. وهو الذي يقسم المحبة بين أهلها، وما لأحد طاقة في

التلقي والشهود بدون واسطته. فإن صلى الله عليه وسلم المرآة الكبرى والمجلي الأعظم، وأقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف به. والمعرفة لا نهاية لَها. فما دام الإنسان يترقى فيها فهو يغترف من بحره ويستمد من مدده، حتّى الأنبياء والمرسلون، "وكُلهم من رسول الله ملتمس" (البيت). وقد عُلم أن الاشتغال بالصلاة عليه طريق الفتح، وأنّها من ذكر الله تعالَى.

وكون الله تعالَى أقرب إلَى العبد من نفسه ومن رسوله صلى الله عليه وسلم مما لا إشكال فيه. قالوا وبعد ثبوت الإيمان للعبد لا يستغني عن خلفائه ووسائطه صلى الله عليه وسلم من المشايخ المهتدين في التوصيل إلَى المعرفة. نعم بعد الوصول التام يستغني عنهم ولا يستغنَى عنه صلى الله عليه وسلم. وقد سئل الشاذلي رضي الله عنه: من هو شيخك يا سيدي؟ قال: كنت أنتسب إلَى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب إلَى أحد، بل أعوم في عشرة أبحر، خمسة من الآدميين: النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وخمسة من الروحانيين: جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل والروح. فإذا تقرر هذا وامتزج اعتقاده سرك، فلا تغتر بظاهر ما للشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني في درر الغواص عن شيخه سيدي علي الخواص، حيث قال: فإذا وقع الإيمان الذي هو مراد الله تعالَى من عباده، ارتفعت وساطة الرسول عن القلب إذ ذاك، وصار الحق تعالَى أقرب إلَى العبد من نفسه ومن رسوله، ولم يبق للرسول إلا حكم الإفاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع، كما في حال المناجاة في السجود سواء. فنفس الرسول تغار من أمته أن يقفوا معه دون الله. فإنه يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك، إلَى آخر كلامه. فإنه ليس القصد منه الإشارة إلَى الاستغناء عن واسطته صلى الله عليه وسلم، وحاشى وكلّا أن يكون أشار إلَى شيء من ذلك، وإنّما مراده والله أعلم التنبيه على الاحتراز من الغلط في شهوده صلى الله عليه وسلم بأن يجعل الشاهد الواسطة كالقصد فيقف عندها ولا ينفذ إلَى المقصد، وذلك أن دلالة أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله على الله ثابتة، والوقوف عند الدال مع عدم فهم دلالته غاية في القصور، وفي الجهل بالدال، أعاذنا الله من ذلك.

تنبيه: إنّما قال "واجعل الحجاب الأعظم" وإن كان المقام مقام الإضمار لتقدم المرجع. ثم وصف الحجاب بالأعظم ولم يكتف بالعهد، لأنه عليه الصلاة والسلام إنّما كان حياة الأرواح من حيث إنه حجاب لَها، فالمناسب لكونه حياة التغيير بخصوص اسمه الحجاب. ولم يتقدم ذكره وحده حتّى ينصرف الضمير له، بل تقدم

كثير من صفاته صلى الله عليه وسلم. وصرح بوصفه بالأعظم إشارة إلَى أن مطلوبه ليس مطلق الحياة بل الحياة المناسبة للأعظمية، مع ما في التصريح من تكرير المدح في مقام الثناء. ولعله يقال لَما كانت الأنبياء كلهم حجباً ونبينا صلى الله عليه وسلم أعظمهم، وما من ولي إلا وهو على قدم نبي، فمنهم الموسَوي والعِيسَوِي والإبراهيمي وهكذا، ومنهم المحمدي وهو أفضلهم، سأل المؤلف رضي الله عنه أن يكون على قدمه صلى الله عليه وسلم حتَى يكون جامعاً لِخصوصيات الأولياء، إذ الولِي المحمدي هو الكامل الذي اجتمعت فيه أوصاف الأولياء كما اجتمعت أوصاف الأنبياء في من هو على قدمه صلى الله عليه وسلم. فلو لم يأت بالوصف لاحتمل اللفظ غيره ولم يعلم أن "ال" للعهد.

واجعل **(روحَه)** على حذف مضاف، أي واجعل شهود روحه صلى الله عليه وسلم سر حقيقتِي أي شغل **(سرَّ حقيقتي)** فتكون حقيقتِي سراً محمدياً. وفي الكلام حرف مضاف كما قررناه. والمراد بحقيقة الإنسان اللطيفة الربانية التِي كان بِها الإنسان إنساناً، وتسمى نفساً وقلباً وروحاً وسرّاً وباطناً. فهي أسماء لِمسمى واحد، وباختلاف صفاتِها تختلف أساميها. فإن مالت لِجهة النقص سُميت بالنفس، وإن تخلصت من مقام الإسلام إلَى مقام الإيمان شميت بالقلب، وإن تخلصت منه إلَى مقام الإحسان ولكن بقي فيها أثر من النقص كأثر الجراحات بعد البرء سُميت بالروح، وإن ذهبت تلك الآثار وصفت سُميت بالسر، وإن أشكل الأمر سُميت بالباطن، قاله الساحلي. وبه يظهر سر الإضافة. ويتضح أن المؤلف رضي الله عنه طلب أن لا تبقى حقيقته نفساً في مقام الإسلام ولا قلباً في مقام الإيمان ولا روحاً في المرتبة الأولَى من مرتبتَي الإحسان وهو أن تعبد الله مستحضراً أنه يراك، بل تصير بواسطة شهود روح الرسول صلى الله عليه وسلم سراً في المرتبة الثانية من مرتبتَي الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، ولعل هذا هو نكتة التعبير بالسر، والله أعلم.

واجعل **(حقيقَتَه)** المحمدية **(جامعَ عوالمي)** الإنسانية التِي هي النفس والقلب والروح والسر. سأل رضي الله عنه أن تكون عوالِمه كلها منصرفة إلَى شهود حقيقة النبِي صلى الله عليه وسلم الصادقة بعوالِمه الشريفة ومتوجهاً إليها، أي اجعل شهود حقيقته جامعاً لعوالِمه **(بتحقيق الحق الأول)**. يحتمل أن المعنى أسألك به، فالباء للقسم على حد أقسمت عليه ببسط يدك. والحق الأول هو الله تعالَى، إذ هو السابق على كل حق، ومنه كان كل حق، وهو حق الحق سبحانه. وفيه التفات من الخطاب إلَى الغيبة لما تضمنه لفظ الحق الأول من العظمة والجلال. ويحتمل أن الباء للمعية،

والحق الأول هو شهود الربوبية والاستغراق في الوحدانية المشار إليه بقوله "وزُجَّ بِي في بحار الأحدية" الخ. ويكون احترازاً عن حال من يقع له الغلط في شهود الواسطة حتّى يجعلها كالمقصد. وجعله أول باعتبار الذكر والهداية لشهود الرسول ومعرفته، إذ لولا تعريفُه تعالَى به ما عرفوه ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾. ويحتمل أن تكون الباء للتعدية متعلقة بحال مقدرة أي معيناً لِي بتحقيق الحق الأول، أي بشهوده الآن في عالَم الأجسام بأن تحقق في الشهود السابق في عالَم الأرواح يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾، أي حقق لِي الحق الأول في الحالة الثانية التِي هي إيداع الروح في الجسد حتّى أصير من أهل الحق الثانِي، أي حققه لِي الآن حتّى أستحضره وأستعين به على دوام الشهود. وذلك أن الإنسان يستعين بالسابق المعهود على ما هو من جنسه، ولذلك إذا رأى النبِي صلى الله عليه وسلم في النوم بقي مستحضراً لذلك أياماً مستحلياً له متشخصاً للصورة المشرقة بسبب ذلك. فالمراد بالحق الأول على هذا الشهود السابق والمعرفة والإدراك وغلبة الروح مِما هو واقع يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾.

ولَم تزل كل نفوس الأحيا علاّمة درّاكة للأشيا
وإنّما تعوقها الأبدان والأنفس النزاع والشيطان

وقد انقسمت الأرواح لَما أودعت في هذا القالب الجسمانِي إلَى قسمين:

أحدهما، وهو الغالب، قل قوته من الذكر والفكر فضعف حاله وغلب الجسم فصار في حقه حجاباً وسجناً وانسدت عنه أبواب الغيوب، وهو من معنَى قول الحِكَم: الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بِمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته. فميادين الغيوب مَجالاتُها التِي تتردد فيها، وهي عوالِم الملكوت التِي يبدأ منها سر القدر حتّى يكون في معد العيان. فمن كان في الكون لم يفتح له منها شيء فهو مسجون بِما أحاط به من عوائده الجسمانية، ومحصور في هيكل جسمه الذي هو ما دار على ذاته من أموره الحسية لتوقف همته على تحصيل فوائده ومقاصده.

والقسم الثانِي، قد كثر قوته من الذكر والفكر فعظمت قوته وغلبت على الجسم فلم ينحجب به، وفتحت له أبواب الغيوب فخرج بذلك إلَى حيز الإطلاق وانتفى عنه الحجب والاطباق، وتنسم من نفحات القرب نسمة عظيمة، وهو مفهوم، ولم تفتح له، الخ.

(يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن)، نداء على وجه الاستغاثة بالمنادى في سؤال شهوده صلى الله عليه وسلم. وخص هذه الأسماء مِما تضمنته من معانِي الأزلية والقيّومية وشُمول أوصاف الألوهية، فتقدم الأول على كل أول، وإحاطة الآخر بكل

آخر، فهو الذي لم يزل ولا يزال، وبه البدء وإليه الانتهاء، فليس قبله شيء، ولا بعده شيء، ومن عرف أنه الأول غاب عن كل شيء به، ومن عرف أنه الآخر رجع بكل شيء إليه. والتقرب بهما تعلقاً أن نرجع إليه بأول كل شيء وآخره، وتخلقاً بأن تكون أول الناس سابقاً للخير وآخرهم تعلقاً به.

والظاهر والباطن الواضح الربوبية بالدليل المحتجب عن الكيفية والأوهام، فهو الظاهر من جهة التعريف، الباطن من جهة التكييف. ومن عرف أنه الظاهر لم يستدل بشيء عليه، ورجع بكل شيء إليه، ومن عرف أنه الباطن استدل بكل شيء عليه، فرجع به إليه. والتقرب بهما تعلقاً بوجود العبودية على المشاهدة ونسيان الخلق بذلك مع التعظيم والإجلال، وتعلقاً بإخفاء أعمالك وما خصصت به حتّى تكون باطناً عن أفهام الأغيار، وإظهار خصائصك للمحبين حتّى تكون ظاهراً لديهم.

وإنّما عطف الثانيان من هذه الأسماء على أوليهما في القرآن بالواو، لتباعد ما بين موقِعَي معناهما، أي فالعطف لرفع توهم التقابل المانع من الاجتماع، والله أعلم.

ثم ذكر مطالبه المستغاث من أجلها فقال: **(اسمع ندائي بما)**، أي متوسلاً بحق الاسم الذي **(سمعت به)**، أي بحقه عند التوسل به، **(نداء عبدك زكرياء)** حيث قال ﴿ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ فقال تعالى ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾. فسأل الشيخ رضي الله عنه أن يستجاب له بأن يسمع نداءه سماع قبول وإجابة. ولعل مراده رضي الله عنه بهذا السؤال طلب الوارث لسره حتّى ينتفع به المؤمنون ليكونوا في ميزانه:

والمـــرء فـــي ميزانـــه أتباعُـــه فاقـــدُر إذاً قـــدر النبـــي محمـــد

ولهذا خص زكرياء بطلبه الوارث كما في الآية المذكورة، وفي قوله ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى ﴾. وقد استجيب للشيخ رضي الله عنه بتلميذه الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وقد استوفينا التعريف به في شرحنا لحزبه الكبير، نفعنا الله به. قال فيه الشيخ أبو العباس المرسي:

شـــرفاً لـــشاذلة ومرســـة ســـرت لهمـــا الرياســـة مـــن أجـــل رئـــيس
مـــا أن نـــسبت إليهمـــا شـــيخَيهما إلا جلوتَهمـــا جَـــلاءَ عـــروس

وقال الإمام البوصيري:

إن الإمـــام الـــشاذلي طريقـــه فـي الفـضل واضـحة لعـين المقتـدي
فانقـــل ولـــو قـــدماً علـــى آثـــاره فـــإذا فعلـــت فـــذاك أخـــذ اليـــد

(وانصرني بك) فلا واسطة بيني وبينك حتّى لا يقع نظر منّي إليه وأتخلص من رقية إحسانه والاحتياج إلَى مكافأته، فإن النصرة من الله أتَم وأكبر.

كما روي عن الشيخ أنه قال للشيخ أبِي الحسن "عوض ما تقول سخرْ لِي قلوب خلقك، قلْ يا رب كن لِي، أترى إذا كان لك أيفوتني شيء؟".

(لك)، أي لأكون عبداً على الحقيقة لك، فأقوم بحقوقك وخدمتك وجميع تكاليفك الدينية ووظائفك الشرعية لا محظوظ نفسي فقط، لأن العارف تكون حظوظه حقوقاً لله لتصرفه بالنية التِي هي أكبر الأعمال تَغلبُ أعيانَها. وجميع ما أباحه الشرع من الأعمال له وجه في الاستقامة على تقوى الله، فليست الأوراد عند أهل المعرفة منحصرة في الصلاة والزكاة والذكر ونحوها، بل حركاته وسكناته وتقلباته كلها أوراد، "إنّما الأعمال بالنيات".

ثم من النصرة نصرتُهم عند هيجان الفتن، فلا تؤثر فيهم ولا تؤذيهم، لأن الله يلقي السكينة في قلوبِهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانِهم. وفي الحزب الكبير "وانصرنا باليقين والتوكل عليك". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم للشيخ أبِي الحسن "من علامة الصديقية كثرة أعدائها، ثم لا يبالِي بِهم". ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال "إن لله عباداً يعذبُهم برحمته ويحييهم في عافيته، تمر بِهم الفتن كقطع الليل المظلم لا يضرهم"، أي فهُم في الفتن، والفتن لا تضرهم، كخزنة النار هم فيها وهي لا تضرهم. وقال بعض العارفين: إن لله رجالاً كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبِهم. فمثلهم كمثل الكواكب، كلما قويت ظلمة الليل قوي إشراقها، وإن أنوار الكواكب من أنوار قلوب الأولياء. أنوار الكواكب تتكدر وأنوار قلوب الأولياء لا تتكدر، وأنوار الكواكب تَهدي في الدنيا إلَى الدنيا، وأنوار قلوب الأولياء تَهدي إلَى الله تعالَى.

(وأيدني بك لك).التأييد الإعانة. وفي الإحياء: هي عبارة عن تقوية البصيرة من داخل، وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج، فكأنه جامع للهداية التِي مرجعها للبصيرة العلمية الكاشفة لِما عليه الشيء في حقيقته، والرشد الذي مرجعه إلَى الإرادة الباعثة إلَى جهة السعادة، وللتسديد الذي مرجعه إلَى القدرة على توحيد الحركات إلَى صوب المطلوب وتسييرها عليه. ثم قال: ويقرب من التأييد الجامع لما ذكر، العصمة وهي عبارة عن جود إلَهي يشمخ في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر حتّى يصير كمانع في باطنه غير محسوس. فطلب التأييد بالله هو من معنَى النصر به، المطلوب بِما قبل هذه الجملة، فإرداف تلك بِهذه على معنَى التأكيد بتنويع اللفظ وجزالته.

وسؤاله رضي الله عنه النصر والتأييد بالله مما يدل على إعراضه عن الأكوان وعدم تعلقه بها. وفي قوله "لك" دليل على اشتغاله بالله وإعراضه عن حظوظ نفسه. فإذا أيد الله به عبده قوي يقينه وتوحيده عند نزول المرادات القهرية وبه حصل له الروْح والرضا والتسليم لما يجري به القضاء حتّى تصير له المحنة عين المنحة والنقمة نفس النعمة والبلية عطية، كما قال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه: من علامة التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم. وقال قائل:

ولو بيد الحبيب سُقيت سُما لكان السّم من يده يطيب

وفي الحزب الكبير "ولا نسألك دفع ما تريد، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد، كما أيدت أنبياءك ورسلك وخاصة الصديقين من خلقك، إنك على كل شيء قدير".

(واجمعْ بيني وبينك). سؤال لِمقام الجمع مع الله، وهو استغراق العبد في نور الشهود حتّى لا يبقى له حظ فيما سوى المشهود، وبتنْزيهه عن المقام مع الأغيار والاستئناس بشيء من الآثار، فينجمع له حينئذ مطلوبه ويكمل به مرغوبه، كما قيل:

لو قيل لِي ما تَمنّى والعبد يعطى مناه لقلت منية قلبِي فِي أن يطول بقاه

وإذ ذاك لا يعترضه من الهموم ولا تطرقه أحزان ولا غموم، كما قيل:

كانت لقلبِي أهواء مفرقةٌ فاستَجمعت إذ رأتك العينُ أهوائي

فصار يَحسدني من كنتُ أحسده وصرت مولَى الورى إذ صرتَ مولائي

تركتُ للناس دينَهم ودنياهم شُغلاً بذكرك يا دينِي ودنيائي

(وحُلْ)، أي أدم الحيلولة **(بيني وبين غيرك)**، أي بالاكتفاء بك دون تعريج ولا التفات إلَى شيء. والأغيار التي هي قاطعة وماحية لأهل الجمع مكدرة لِمشربِهم، كما في لطائف المنن، إذ قال: اعلم أن الحق سبحانه إذا تولّى ولياً صان قلبه عن الأغيار وحرسه بدوام الأنوار. حتّى لقد قال بعض العارفين: إذا كان الله سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كي لا يسترق السمع منها، فقلب المؤمن أولَى بذلك، لقول الله سبحانه فيما يحكيه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم "لا تسعنِي أرضي ولا سَمائي ووسعنِي قلب عبدي المؤمن".

وإنّما الحامل على ما ذكر من الاكتفاء به سبحانه، وجود التحقق بأصله، وهو ثلاثة: المعرفة والمحبة والفناء. فالمعرفة سريان العلم بجلال الحق أو مِما له أو هما في كلية العبد حتّى لا تبقى له من نفسه بقية، فيشهد كل شيء منه وبه وله، فلا يبقى لوجود

شيء نسبة عنده دونه، وهي مقدمة المحبة.

والمحبة أخذ جمال المحبوب بِمحبة القلب حتَّى لا يمكنه الالتفات لغيره، ويتعدى ذلك إلَى الجوارح فتكون في طوع المحبوب حتَّى لا يتأتَّى العمل بغير ما فيه رضاه، إيثاراً له على ما سواه. كما قيل: أبت المحبة أن تستعمل محباً لغير محبوبه، فصاحتْ فصاحةُ الغيرة ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾. يعني التِي أوحت وجود المعرفة وشهود الحقيقة.

ثم الفناء، وهو الغيبة عن الخلق بالحق، وإن شئت قلت رؤية حق بلا خلق، وذلك يقضي موجود الغيبة عنهم وعدم الالتفات إليهم. وسواء كان الفناء بالنظر إلَى أفعاله أو إلَى أسمائه أو إلَى صفاته أو إلَى كمال ذاته، فإنه يغيب عن الخلق بحيلولة الحق بينه وبينهم. قال في الحِكَم: من عرف الحق شهده في كل شيء، ومن فنَى به غاب عن كل شيء، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئاً. وفيها كيف يشرق قلبٌ صورُ الأكوان منطبعة في مرآته، فَرِّغْ قلبَك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار. ومن ثم قيل:

فاطرح الكون من عيانك وامح نقطة الغير إن أردت ترانِي

وتلك الثلاث هي أوصاف الأولياء رضي الله عنهم. قال الشيخ أبو علي الجوزجاني رضي الله عنه: الولي هو الفاني في حاله بِمشاهدة الحق سبحانه. قد تولَّى الله تعالَى سياسته فتوالت عليه أنوار التدلِّي، لَم يكن له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله تعالَى قرار.

فإن قلت في ذلك إن حصول المعرفة الوصول إلَى الشهود، إنّما هو بتطهير القلب من الأغيار، إذ الشرط سابق على مشروطه، والتخلية سابقة على التحلية، فمقتضاه تقديم "وخَلِّ بيني وبين غيرك واجمع بيني وبينك". قلنا: ترتيب ذلك إنّما هو في طريق السلوك لا الجذب. فهو على العكس يفجأ القلب تجلي الحق فيذهب به ويأخذ بمجامعه ولا تبقى فيه بقية لغيره. فالشهود الذي بدا به هو المذهب للأغيار، والمجذوب السالك أتَم. قال الشيخ عبد الرزاق العثمانِي:

وأكمل الرجال دون ريب من سَلَك الطريق بعد جذب

ففي كلام الشيخ رضي الله عنه طلب الأكمل كما وقع له، فإنه أدرك الجذب وهو ابن سبع سنين، فطلب دوام الكمال وأيضاً الغيبة عن الأغيار، وإن كانت سابقة في طريق السلوك لأنّها أولاً مكتسبة ومتكلفة، لكنها إذا حصل الشهود عادت كالجبلة. قال

صاحبنا سيدي محمد بن زكري في كتاب الإعلام: فإنه لا مستحسن مع التجلي غير المتجلي، فالتجلي ناشئ عنها ومثمر لها كالورد والوارد، فإن الورد سبب الوارد، والوارد مثمر للورد يصيره جبلة.

وإذا خلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

هذا، وما يقال من صحة الاستغناء عن هذا بقوله السابق "وزجَّ بي في بحار الأحدية وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى" الخ. فجوابه بعد العلم بأنه من ارتكاب طريق الأدب في الدعاء، حيث كرره أنه رضي الله عنه لَما لَمح طلب الوارث بيَّن أنه لَم يطلبه لينتصر به ولا ليتأيد به ولا ليأنس به، وأن طلبه لا ينافي الجمع على الله، بل يحققه لأنه وارث المعرفة بالله. فالمراد منه إيداع الجمع فيه وإبقاؤه مستمراً، والله أعلم.

(الله الله الله). جعل الاسم الأعظم عقب مطالبه تبركاً وتنبيهاً على التعلق بالألوهية والرغبة عن السوى، وليكون به الاختتام كما كان به افتتاحه، إشارة إلَى أن البدء منه والرجوع إليه في كل شيء، كما أومأ إليه قوله تعالَى ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾، أي هو موجدهم ومخرجهم من ظلمة العدم، وإليه مرجعهم ومصيرهم. وكرّر ذلك استلذاذاً، ولكون التكرير أعون على استحضار الجملة من المفرد، لأنه من الأسماء الجامعة، وذكره ثلاثاً ليكون مع التلذذ به عوضاً عن لا إله إلا الله التِي هي اثنا عشر حرفاً. واسم الله ثلاث مرات اثنا عشر حرفاً. فيكون في مرة ذكرها مرة ذكره ثلاث مرات. وفيه إشارة إلَى أن الخروج عن العوالِم الثلاثة: عالَم الأفعال، وعالَم الصفات، وعالَم الذوات، لأن مراتب الفناء ثلاثة: فناء في الأفعال، ومنه لا معز ولا مذل ولا معطي ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلا الله، وفناء في الصفات، ومنه لا حَيّ ولا عالِم ولا مريد ولا قادر إلا الله، وفناء في الذات، ومنه لا موجود على الإطلاق إلا الله. ومن ثم قيل:

فيفنى ثُم يفنى ثُم يفنى فكان فناؤه عين البقاء

وجرد الشيخ رضي الله عنه الاسم الشريف من حرف النداء لِما فيه من الإشعار بالبعد استغراقاً في الله وفناء فيه. وفيما قبل قال "يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن"، بحرف النداء تأدباً مع الله تعالَى بإظهار بعد نفسه.

واعلم أن ذكر الاسم المفرد المعظم مجرداً عن التركيب بجملة، وهو قول الله الله، مِما تداولته السادات الصوفية، واستعملوه بينهم، ولَهم في ذلك تآليف وكلام وترتيبات على حسب الأحوال والمقامات، وذلك مِما يخصهم ولا يتعداهم، قد علم كل أناس

مشربهم.

قال الشيخ المحقق شهاب الدين أحمد الغزالي: ما دمتَ ملتفتاً إلى ما سوى الله فلا بد لك من النفي بـ "لا إله"، وما دمتَ تعتمد على رئاسة العلم والجاه فلا بد لك من نفي "لا إله"، وما دمت ترى في الوجود سواه فلا بد لك من نفي "لا إله"، فإذا غبت عن الكل في مشاهدة الكل استوحشت من نفي "لا إله" ووقفت لإثبات "إلا الله" ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾.

وسئل الشبلي: لِم تقول الله ولا تقول لا إله إلا الله، فقال: أستحي من ذكر كلمة النفي في حضرته. فزعق السائل ومات، فاجتمع أقاربه وتعلقوا بالشبلي رحمه الله وادعوا عليه بالدم بين يدي الخليفة، فقال الخليفة للشبلي: ما جوابك؟ قال: روحٌ حنّت فغنّت وشَمّت فصاحتْ فدُعيتْ فسمعت فعلمت فأجابت، فما ذنبي؟ فصاح الخليفة: خلوا سبيله فإنه لا ذنب له.

قال العارف أبو الوفاء: وتعليل هذا المذهب بأن نفي الشيء إنّما يحتاج إليه عند خطور ذلك الشيء بالبال. فمن لا يخطر بباله شريك، لا يكلف نفي الشريك، والكامل لا يخطر بباله ولا خياله إلا الله، فيكفيه أن يقول الله الله.

وقال أيضا: ومنهم من اختاره في الابتداء لا إله إلا الله وفي الانتهاء الاقتصار على الله الله، وهم الأكثرون. ومنهم من اختار الله الله الله، يعني في الابتداء والانتهاء. ولكل حجج يطول ذكرها.

حكى أبو علي الدقاق أن رجلاً كان يقول الله الله دائماً، فأصاب حجرٌ رأسه وشجه فوقع دمه على الأرض فكتب الله والله.

وبقي النوري رحمه الله في منزله سبعة أيام لم يأكل ولم يشرب ولم ينم وهو يقول الله الله. فأخبر الجنيد بذلك فقال: انظروا أمحفوظة عليه أوقاته أم لا؟ فقيل له: إنه يصلي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان عليه سبيلاً، قوموا بنا إليه فإما نستفيد منه وإما نفيده. فلما دخل الجنيد قال: يا أبا الحسن ما الذي دهاك؟ فقال: أقول الله الله زيدوا عليّ وقولوها معي. فقال له الجنيد: حتّى نرى قولك الله الله أبالله أم بنفسك؟ إن كنت قائلها بالله فلست القائل، وإن كنت قائلها بنفسك فما معنى الوله؟ فقال له: نِعْم المؤدب أنت يا أبا القاسم، وسكن ولَهه بالذكر الله، فقال له الجنيد: يا أبا بكر الغيبة حرام، أي إن كنت غائباً عنه حال ذكرك فهي غيبة، وإن كنت معه حاضراً فقد هتكت الحرمة.

وصاح شاب في مجلس الجنيد "الله"، فقال له الجنيد: أمسكْ وإن عدت لمثلها لا

تحضر مجلسنا. فأمسك الشاب على نفسه وإذا به قد سقط ميتاً.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله خلق ملائكة على عدد الحروف وسماهم بأسماء الحروف، ثم قال له قدسوني وعظموني فإنّي أنا الله لا إله إلا أنا، فتضاءلت الملائكة بين يديه، فأول من سجد الملَك الذي خُلق على صورة الألِف وسُمي باسمه، فلما سجد صار على هيئة الْهمزة، فقال له المولَى "وعزتي وجلالِي لأجعلن حرف الألِف أول الحروف ولأجعلنه أول اسْمي العظيم".

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا قال العبد الله الله شهد له كل من سمعه".

وقال الشيخ أبو العباس المرسي لبعض أصحابه: ليكن ذكرك الله الله، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، فبساطه العلم، وثمرته النور. وليس النور مقصوداً لنفسه بل ليقع به الكشف والعيان.

فينبغي الإكثار من ذكره واختياره على غيره من الأذكار لتضمنه لِجميع ما في لا إله إلا الله من العقائد والعلوم والآداب والحقوق، فإنه يأتِي في "الله" وفي "هو" ما لا يأتِي في غيرهما من الأذكار.

فلذا اختار الصوفية من الذكر هذا الاسم المفرد وهو الله الله، أو الضمير وهو الذكر بقول هو هو، ترجيحاً لَهما على النفي والإثبات، حتّى أن منهم من استحيَى من ذكر النفي والإثبات لولا إذن الله لَهم به في التلاوة، خوفاً من أن يقبض الذاكر بِها في وحشة النفي، إذ ليس لَهم مشهود سواه تعالَى وتقدس حتّى ينفى. قال أكبر مشايخنا الإمام العارف بالله سيدي عبد القادر الفاسي رضي الله عنه: لا يخفى هذا على من له أدنَى محاسة باصطلاحنا، فعلينا التسليم والتصديق بِما قصرت عنه مداركنا من مذاهبهم وإلا استضاءت بأنوارهم.

فاشدذ يديك على تسليم ما فعلوا وظن خيراً ولا تعبأ بِمن عذلا

إذ التصديق بطريقتهم ولاية، والاعتراض على الأكابر جناية. وفي الصحيح "لا تقوم الساعة حتّى لا يبقى من يقول الله الله". وهو شاهد في الجملة لذكر هذا الاسم وحده لا سيما على رواية النصب، ولا نزاع في التلفظ بالاسم الكريم وحده، وحيث لا نزاع فما المانع أن يكرره الإنسان مرات كثيرة؟ وما وجه إنكاره؟ وليس في كلام عز الدين بن عبد السلام تصريح بإنكار أو نَهي، بل غايته أنه لم ينقل عن السلف حسبما نقل نصه الشيخ الحطاب في شرح المختصر. وكونه لم ينقل عن السلف لِما يقتضي منعه ولا كراهته. وكم أشياء لم تكن في عهد السلف مع أنَها جائزة أو مستحبة أو واجبة، والبدعة التِي تجتنب إنّما هي التِي تقتضي قواعد الشرع كراهتَها أو حرمتَها، إذ

البدعة تنقسم إلَى الأحكام الخمسة حسبما هو معلوم.

فلا ينبغي التوقف في ذلك ولا التشغيب بإنكاره والطعن على من منعه من الأئمة، وكفى حجة في ذلك كلام الشيخ هنا، وما روي عنه صلى الله عليه وسلم. أيجترئ أحد أن يفوه في ذلك بطعن أو عيب أو إنكار؟ كلا، وكيف وأصول الشريعة لا تأباه ولا تدل على خروجه عن ذكر الله لفظاً ولا معنًى، فلفاعل ذلك ما للذاكرين الله.

وقد سئل الشيخ العارف بالله أبو عبد الله محمد بن محمد زين العابدين العمري، سبط نور الدين المرصفي: هل قول الذاكر الله الله يحتاج إلَى تأويل خبر أم لا؟ فأجاب حسبما في كتابه "الجوهر الخاص في أجوبة مسائل الإخلاص" بقوله: أما من حيث الأكمل فيحتاج إلَى خبر ليتم المعنَى، لا من حيث إنه يسمَى ذكراً، فإنه يسمَى ذكراً بدون ذلك، لأن صيغ الذكر وضعت للتعبد بِها ولو من غير تأويل خبر. ثم بيَّن أن تأويله يكون بحسب اللائق به تعالَى نحو الله حق أو الله مطلوب موجود معبود مقصود. ثم ذكر للإمام الغزالِي فيه تفصيلاً: وإنه إن كان القائل الله من أهل العموم فليعين به المعبود بحق أو الغنِي عن كل ما سواه المفتقر إليه جميع ما عداه على الخلاص في لا إله إلا الله، أو العظيم أو نحو ذلك مِما يؤدي معنًى جملة التعظيم، إذ الذكر كله تعظيم لله تعالَى.

(إن الذي فرض عليك القرآن)، أي أوجب عليك تلاوته وإبلاغه والتحدي به والعمل بِما فيه وألزمك فيه وغيرك هذه الملازم، وكلفهم تلك التكاليف.

(لرادك)، أي بعد الموت لأجل صعوبة ما كلفك به وألزمك من مشقته.

(إلى معاد) أي مرجع عظيم يا له من مرجع، وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك ربك فيه، ثواباً على إحسانك في العمل، فيغبطك به الأولون والآخرون، بِما عانيت في أمره من هذه المشقات التِي لا تحملها الجبال. ولولا الرد إلَى المعاد لكانت هذه التكاليف التِي لا يعمل أكثرهم بأكثرها ولا يجازى على المخالفة فيها من العبث المقرر. والمعلوم تنزه العاقل عنه فكيف بأحكم الحاكمين. أي فاجتهد فيما أنت فيه نعز ذلك اليوم، فإن العاقبة لك.

ويحتمل أن يراد إلَى معاد، أي مكان هو لعظمته أهل لأن يقصد العود إليه كل من خرج منه، وهو مكة المشرفة، بأن يراد رده إليها يوم الفتح.

ووجه تنكيره، كما في الكشاف، أن مكة كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن، ومرجعاً به اعتداد بغلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وحده لأهلها ولظهور الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه، والسورة مكية، فكأن الله وعده وهو بِمكة في أذى

وغلبة من أهلها أنه يهاجر به منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً.

وقيل إن الآية نزلت وهو بالجحفة في مهاجره، وقد اشتاق إلَى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم، فنزل جبريل وقال له: تشتاق إلَى مكة؟ فقال: نعم، فأوحاها الله إليه (الآية).

فإن قيل: خبر الله تعالَى يستحيل عليه الخلف وعدم الطباق، فلا يتعقل إلا مطابقاً للواقع ولا يكون مظنة للشك والإنكار، فما وجه الإتيان؟ فإن التوكيدية التِي هي لدفع الشك أو الإنكار. قلنا: وجهه أن الأمر المستغرب المستعظم في النفوس، لما كان الشأن أن لا تذعن إليه النفوس عند سَماع أخبار الصادق به إلا مع استغراب وتعجب وخطور خواطر. وبعد التأمل والتثبت يزول عنه الاستغراب. فإن أريد الإذعان له أولاً بدون شيء مِما ذكر نبه بالتأكيد. ألا ترى أن النبِي صلى الله عليه وسلم لَما أخبر بكلام البقرة والذئب، قالوا سبحان الله بقرة تتكلم وذئب يتكلم، فقال صلى الله عليه وسلم "آمنتُ أنا وأبو بكر وعمر". وما كانا بالمجلس، فإن المتعجبين لم يكذبوا وإلا لكفروا ولكنهم استغربوا هذا.

وأتَى رضي الله عنه بالآية لِما فيها من معنًى الرجوع والمعاد على طريق أهل الإشارات، إشعاراً بالرجوع إلَى الشهود الحقيقي بعد الموت على التفسير الأول، وإشارة إلَى الظفر بالتلاقي على التفسير الثاني. فإن وعد الله نبيه، بأمر، وعد لأتباعه على حسب مراتبهم، لأن الشهود هو المقصود بالذات عند العارفين من النواب كما يرشد إليه قول الحِكَم: "النعيم وإن تنوعت مظاهره فإنّما هو لشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنّما هو بوجود حجابه، فسبب العذاب، وجود الحجاب، وإتْمام النعيم، بالنظر إلَى وجه الله الكريم". يريد أن النعيم هو لذة أو سببها، والعذاب ألَم أو سببه. والمظاهر كل ما يبدو فيه وجوده كالجنة وما فيها من الحور والقصور ودوام السرور، إلَى غير ذلك مِما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وكالأكل والشرب ونحو ذلك حسياً كان أو معنوياً. ومظهر العذاب ما يظهر فيه وجوده من مؤلمات النار وما فيها من الحيات والعقارب والضرب والحرق ونحوه حسياً ومعنوياً. وكل ذلك لا يصح مع وجود رافعه ودافعه، فكل نعيم اقترن بوجود المنقصات فليس بنعيم، وإن كان فيه وجه من التنعم، وكل عذاب صحبه وجود ما يقتضي عدم التأثر به فليس بعذاب. وقد عرف في الشاهد أن غيبة الحبيب عن محبّه توجب نفي كل نعيم منه وإن كان في وسطه. كما أن حضوره معه يوجب نفي كل عذاب عنه، وإن كان في وسط العذاب، كما قيل:

العيد لِي ما تَم إن غبت يا أملي ... والعيد ما كنت لِي مرءا ومستمعا

وحكي أن رجلاً ضُرب تسعة وتسعين سوطاً فلا صاح ولا استغاث، فلما ضرب الواحدة كمال المائة صاح واستغاث، فقيل له في ذلك، فقال: العين التي ضربت من أجلها كانت تنظر إلَي في التسعة والتسعين، وفي الواحدة حجبت عنّي. وذلك لأن مشاهدة الجمال تحمل الألم عن نفس المشاهد حتّى لا يحس به، بل يلتذ بوجوده إن كمل شهوده لجمال معذبه. وكان تَمام النعيم بالنظر، لأن من فقد محبوبه من نعيمه لا عبرة بنعيمه. قال في التنوير: ولو أن الحق سبحانه تجلّى لأهل النار بكماله وجماله لغيبهم ذلك من إدراك العذاب، كما أنه لو احتجب عن أهل الجنة ما طاب لَهم النعيم. فالعذاب إنّما هو وجود الحجاب. وأنواع العذاب مظاهره. والنعيم إنّما هو بظهور التجلي، وأنواع النعيم مظاهره.

(ربنا آتنا من لدنك)، أي من قبلك. ولَما كانت الموجودات، كما للفخْر في تفسيره، على ثلاث مراتب: حكمية جارية على قوانين العادات، وغريبات خارقة للمطردات، ولَدُنيات مستغربة في الأمور الخارقات، طلبوا أعلاها بقولِهم "من لدنك" حيث عبروا بـ "لدن" دون "عند" وإن كانا متقاربين. لكن "لدن" أخص من جهة دلالتها على الملاصقة المعنوية، أي من مستوطن الأمور التي عندك ومستغربِها.

(رحمةً)، أي إكراماً خاصاً يوجب لنا المغفرة والرزق والأمان من الأعداء كما يفعله الراحم بالمرحوم. وعلى تقدير تعلق "من لدنك" فـ "آتنا" قدم على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بالمقدم وإبراز الرغبة في المؤخر. فإن تأخير ما حقه التقديم عن ما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع إلَى وروده، وينبِئ عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة. وأما على تقدير أنه نعمت لـ "رحمة" قدم عليها فانتصب حالاً، فتقديمه لإفادة أن القصد الستر والإخفاء وعدم اطلاع الخلق عليهم، إذ كانت مدة طلبهم متوجهة إلَى كون الرحمة من ربّهم إلَيهم بلا واسطة، ولعدم تعلق النص بالإخفاء والستر جيء بالظرف على أصل التأخير في ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا ﴾ كما لم يؤت فيه بلَدُن بدل عند لَما لم يحتج إلَى الدلالة على مقتضى لدن من الملاصقة المعنوية. نعم جيء بِها مقدمة في جانب العلم لأن المعهود فيه أن يكون بِمعلم، فاشتد الاهتمام بالتنبه على نفيه، فسلك فيه طريق الاحتراس وجيء بِما لم يمنع أصل توهم خلافه، وإشارة إلَى المراد العلمي المختص وهو المغيبات لا المطلق.

(وهيئ)، اجعل **(لنا من أمرنا)** الذي نحن عليه من تضييق الملك الجائر بنا، وبعثه في طلبنا من مفارقة الفكر والمصابرة على الطاعة. وأصل التهيئة إحداث هيئة

للشيء. **(رشداً)**، أي وجهاً موصلاً إلَى المطلوب من الخلاص في الدارين نصير بسببه راشدين مهتدين، أي اهدنا إلَى وجه المخرج مما نحن فيه.

وذلك دعاء أهل الكهف، إذ أووا إليه منقطعين إلَى الله بترك بلادهم وعشائرهم، وكأنَّهم حين الإيواء إلَى الكهف لم يبق له وجه المخرج، لقول وهب بن منبه "إنَّهم لَما دخلوا الكهف قالوا نبيت هنا ليلة ثم نصبح إن شاء الله فيكون الرأي".

ويحتمل أن يكون المعنَى اجعل لنا في أمرنا، أي فرارنا ومفارقة قومنا هداية وخيراً، أو اجعل أمرنا كله خيراً. كقولك رأيت منك أسداً على التجريد مِمن، أي اجعل أمرنا رشداً أي غاية الرشد حتَى يتهيأ لأن ينتزع منه الرشد، والتنكير للتعظيم. وكلا الجارين متعلق بـ "هَيِّئ" لاختلافهما معنًى، وتقديم المجرورين على المفعول الصريح، وهو "رشداً"، لإظهار الاعتناء بِها وإبراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله المشوقة إليه كما تقدم فيما قبله. وتقديم "لنا" على "مِنْ أمرنا" للإيذان من أول الأمر بكون المسؤول مرغوباً فيه لديهم.

هذا، وأتَى الشيخ رضي الله عنه بِهذا الدعاء إشعاراً بِمفارقة الخلق وهجرهم والفرار منهم واطراحهم، ونبذ الأغيار، كلها تعلقاً بالله وإقبالاً عليه وإيواء إليه، طالباً أن تَهب عليه نفحات رحمة ربه، ويكون أمره كله في ذلك رشداً وخيراً، وأن يكون له حظ من حال أهل الكهف في الخفاء عن الأضداد وعدم اطلاع الأغيار، فاستجاب الله دعاءه فلم يعرفه إلا الشيخ الشاذلي. ومن ثَم لزم رضي الله عنه قُنَّة جبل، مبالغة في الانفراد عن الأغيار. ثم انسحبت الرحمة التي رحمه الله بِها على أتباعه وأتباعهم حتَى صارت الطريقة تُنسب لتلميذه الذي تخرج على يديه، كما انسحبت رحمة أهل الكهف على كلبهم إذ صار يُذكر بذكرهم، وجاء في قصتهم أنَّهم أرادوا أن يصرفوا الكلب عنهم فأبَى فقالوا سبيلنا إذ لم ينصرف عنا أن نحمله على أعناقنا حتَى لا يستدل علينا بأثر قدمه، فحملوه، فكانوا في الابتداء للكلب بلاياه، وصاروا في الانتهاء مطاياه. وهكذا من اقتفى أثر السادات. وكرره ثلاثة على قاعدة الدعاء.

(إن الله)، المتيقن أنه سبحانه مجامع الكبرياء والعظمة والعز، **(وملائكته)**، أي وهم أهل النّزاهة والقرب والعصمة، **(يصلون على النبي)**، أي يعطفون باستدعاء الرحمة والتشريف والتكريم من الله تعالَى لنبيه صلى الله عليه وسلم، أي يظهرون شرفه وما له من الوصلة بالملك الأعظم بِما يوجبه الله إليه من عجائب الخلق وبديع عالَم الغيب والشهادة، وهو معنَى قول ابن عباس رضي الله عنهما كما رواه النجاع.

شرح سيدي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن العياشي، المتوفى عام 1149هـ

(شرح الصلاة المنسوبة للقطب مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ونفعنا به، وقد كان عليها للأشياخ من الشروح ما تشرح به الصدور، وتلين القلوب به على ممر الدهور، **وأحسنُ ما رأيتُ من ذلك وأجمعه شرْح شيخنا سيدي محمد بن عبد الرحمن ابن زكري الفاسي أطال الله بقاءه في طاعته، ومتعنا بوجوده، فأردت أن ألخص منه ما يتوقف عليه فهم المعنَى ويصلح أن يضاف لما سبَق من هذا الموضع ليسهل تناوله على من أراده من الإخوان، وقد ذكرَ كلاماً لغيره للإيضاح والبيان**، والله المسؤول أن يجعل ذلك سبباً لنيل الدرجات في أعلى الجنان.

وأقدم أولاً بعض الكلام على المؤلف نفعنا الله به، وهو الشيخ الإمام العارف بالله تعالَى، القطب الجامع، الوارث الربانِي، أبو محمد سيدي عبد السلام بن مشيش بالميم والمعجمتين بينهما ياء مَد، ابن أبِي بكر، بن علي، بن حرمة، بن عيسى، ابن سَلاَّم بفتح المهملة وتشديد اللام، ابن مزوار، ومعناه باللغة البربرية بكْر أبيه، ويستعمل في رئيس القوم كنقيب الأشراف، ابن حيدرة، ابن أمير المؤمنين محمد، ابن أمير المؤمنين إدريس، ابن أمير المؤمنين إدريس الأكبر، ابن عبد الله الكامل، ابن الحسن المثنّى، ابن أمير المؤمنين الحسن السبط، ابن أمير المؤمنين علي بن أبِي طالب، رضي الله عن جميعهم ونفعنا بِهم آمين. توفِّي شهيداً سنة اثنين وعشرين وستمائة فيما قيل، وقيل فيما بعد ذلك فيما قيل سنة ست وعشرين.

قال ابن خلدون قتله قومٌ بعثهم لقتله ابن أبِي الطواجين الكتامي الساحر المدعي النبوة، وبسبب هذه الدعوى زحفت إليه عساكر سبتة وعند بني سعيد... وقتله بعض البرابرة غيلة، وكانت ثورته سنة خمس وعشرين وستمائة.

ودفن رضي الله عنه في قبة الجبل المسمّى بالعَلَم. قال في المرآة: وآثاره هناك كثيرة من مغارة للخلوة والعبادة، ومسجد جدرانه نحو القامة أو أكثر من حجارة مرتبة، وموضع

لارتقاب الفجر، وغير ذلك، وتحت ذلك بأكثر من ميل عين يتوضأ فيها، ومقتله فوقها بقريب، فيقال أنه توضأ فيها عند الفجر وقصد الطلوع لِمحل عبادته وارتقابه للفجر فقتلوه هنالك، ومن الشائع أنهم ألقي عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودفعوا إلَى شواهق ترددوا منها في مهاوي سحيقة تمزقت أشلاؤهم ولم يرجع منهم مخبر، وعلى هذه العين بِمقربة منها مسجد عليه جدار دون القامة من أحجار دون طين هو محط رحال زُوّار ضريح الشيخ، وتحت هذه العين بِمسافة أخرى رسوم دار الشيخ التِي كان يسكنها، ولا ساكن هنالك اليوم، وإنّما العمران بسفح الجبل دائراً به، هـ.

ومن المنقول عن سيدي عبد الله الغزواني رضي الله عنه أن روضة مولانا عبد السلام نفعنا الله به آمين مشتملة على ثلاثة قبور الوسط منها قبر الشيخ مولانا عبد السلام والذي خلف ظهره قبر ولده سيدي محمد والذي بين يديه قبر خديمه ابن خدّامه رحمهم الله تعالَى ورضي عنهم ونفعنا بِهم آمين.

وسببُ قتله على ما أنبأ به الفاضل مولاي الهاشِمي ابن سيدي محمد ابن مولاي عبد الله الشريف دفين وزان وقت مرورنا بِهم لزيارة القطب مولاي عبد السلام نفعنا الله به أن ابن أبِي الطواجين أراد أن يتزوج امرأة شريفة فحالَ مولاي عبد السلام بينه وبينها، وقيل سببُ قتله أن ابن أبِي الطواجين كانت له جنية تأتيه بالأخبار ثم إنّها أبطأت عنه فلما جاءت ذكر ذلك لَها فقالت له هنا رجل في هذا الجبل المسمّى بالعلَم كلما رمت المجيء إليك أحرقني نوره، فأرسل إليه حينئذ من قتله، والله أعلم.

وقد روي عن الولِي الشهير أبِي حفص سيدي عمر بن عيسى بن عبد الوهاب دفين جبل العَلم قرب جده مولاي عبد السلام، وهو من أصحاب القطب سيدي عبد الله الغزواني رضي الله عنه، أن مولاي عبد السلام كان يوماً بإزاء خلوته جالساً يتلو القرآن ومعه تلميذه ووارث حاله الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه حتّى وصل في سورة الأنعام إلَى قوله تعالَى ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾، فورد عليه وارد إلَهي ونزل به حال قوي اقتطعه عن حسه واستغرق فيه، فلما أفاق رفع يديه إلَى السماء داعياً، وكان من دعائه أن من سبَقَ له الشقاء والحرمان لا يصل إليه وأن من وصل إليه يكون له شفيعاً يوم القيامة. وفي رواية إن دعاءه: اللهم لا تبعث لنا من حكمتَ بشقائه هـ. وقد وقعت حكايات تشهد لها من إسلام بعض الكفرة حين قارب الضريح المذكور، ورجوع بعض الفسقة ذاهبين بقصد الزيارة بعد أن لم يبق بينهم وبين الضريح المذكور إلا مسافة يسيرة لأسباب اتفقت لَهم. نسأل الله السلامة والعافية بِمنه وكرمه.

قلت: وقد مَنَّ الله عليّ بزيارته والصلاة في مسجده وخلوته، فله الحمد والشكر مع

جماعة من الإخوان وهم: الفاضل سيدي عبد الوهاب ابن شيخنا المتبرك به حياً وميتاً سيدي حمزة بن عبد الله، والمرحوم بكرم الله سيدي عبد الله بن الولي الصالح الزاهد سيدي مَحمد بن محمد بن عبد الجبار، واللبيب الحسيب سيدي مَحمد بن محمد بن عبد الله، والصاحب الملاطف سيدي محمد بن عبد الله بن علي الكابسي، وآخرين من الإخوان والأصحاب. جعل الله سعينا مشكوراً وأجرنا موفوراً، وقرأنا هذه الصلاة المباركة تجاه وجهه وقرأتُها أيضاً في خلوته مع الحزب الكبير للشاذلي وحزب البحر له والوظيفة الزروقية، وجلستُ في موضع ارتقابه للفجر. كل ذلك تبركاً بتلك البقاع المطهرة. وكانت زيارتنا له في ذي القعدة سنة ثلاثين ومائة وألف. نسأل الله تعالى أن يَمنّ علينا بِما مَنَّ على عباده الصالِحين، بجاه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام ابن الصباغ عن الشيخ أبِي الحسن الشاذلي أنه قال: دخلتُ العراق واجتمعتُ بالشيخ الصالِح أبِي الفتح الواسطي فما رأيتُ مثله، وكنتُ أطلب القطب فقال لِي بعض الأولياء: تطلب القطب بالعراق وهو ببلادك ارجعْ إلَى بلادك تجده، فرجعت إلَى بلاد المغرب إلَى أن اجتمعتُ بأستاذي وهو الشيخ الولِي العارف الصديق القطب الغوث أبو محمد عبد السلام بن مشيش الشريف الحسني نفعنا الله به.

قال الإمام أبو الحسن الشاذلي: لما قدمتُ عليه وهو ساكن بِمغارة في رأس جبل اغتسلتُ في عين في أسفل ذلك الجبل وخرجتُ عن علمي وعملي وطلعتُ إليه فقيراً، وإذا به هابط إلَي وعليه مرقعة وعلى رأسه قلنسوة من خوص فقال لِي: مرحباً بعلي بن عبد الله- فذكر نسبِي إلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم- ثم قال لِي: يا علي طلعتَ إلينا فقيراً عن علمك وعملك فأخذت منا غنى الدارين. ثم قال: فأخذني منه الدهش وأقمتُ عنده أياماً إلَى أن فُتح على بصيرتي ورأيتُ له كرامات هـ.

وقد ذكر الولِي الصالِح سيدي عبد الوارث بن عبد الله في شرحه على المباحث الأصلية ما نصه: وقد شاهدنا أثراً من كرامة الشيخ أبِي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ونفعنا به كنا نزور قبره قبل أن يشتهر، وذلك في أوائل هذا القرن العاشر، فوجدْنا أثر قدميْه في صحيفة من حجر أمام باب مسجده على الحافة، أثر رجله اليمنَى لَم يبق فيها من أثر أصابعه سوى إبْهامها، ورجله اليسرى باق فيها أثر أصابع رجله الخمسة كما هي، فكنا نتبرك بِها ولا يَمسها أحد، فلما اشتهر وجاءت العامة لزيارته أخذوا في حفر أثره بحدائد أعصيتهم وغيرها، فلما مشيتُ بعد ذلك لزيارته لَم أجد لذلك الأثر خبراً هـ.

وذكر الشيخ سيدي الحسن اليوسي في المحاضرات أنه روى أن ثلاثة من صلحاء

المغرب قد جرب عندهم قضاء الحاجات: الشيخ عبد السلام بن مشيش والشيخ أبو يعزى والشيخ أبو سلهام، غير أنّهم اختلفوا، فالأول في أمور الآخرة، والثالث في أمور الدنيا، وأبو يعزى في الكل، نفعنا الله بِهم وبأمثالِهم آمين.

وقد حدَّثني بعض الثقات عن أشياخه أن هذه الصلاة تعدل ألْف صلاة، ولا أدري مستندهم في ذلك، وإن كانت جديرة بذلك أو أزيد هـ.

وهذا أوان الشروع في المقصود، بعون الْملك المعبود. وقد رأيتُ كلاماً منقولاً من خط شيخ مشايخنا العارف بالله سيدي عبد القادر بن علي الفاسي نفعنا الله به أردتُ أن أذكره برمته تبركاً به وتَيمناً بقائله وحفظاً له من الضياع بانفراده، وهذا نص منا نقل من خطه: الحمد لله، وللشيخ الإمام الْهمام العارف بالله سيدي عبد الرحمن الفاسي مما علَّقه على صلاة القطب الجامع الوارث الربانِي أبِي محمد سيدي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ونفعنا به: قوله (**اَللَّهمَّ صلِّ على مَنْ منه انشقَّت الأسرار**) إلَى آخر ما افتتح به هذه الصلاة هو كقوله بعد (**اللَّهمَّ إنه سرّك الجامع الدالّ عليك**) فهو سرُّ الأسرار، ومنبع الأنوار، وعين التجلِّي الذاتي، والاسم الأعظم، والله أعلم. وقوله: (**وفيه ارتقت الحقائق**) يعنِي العيانية والتجليات الذاتية. وقوله: (**وتنزّلت علوم آدم**) يعني التنزّلات الأسمائية والتعرّفات الصّفاتية الإحاطية، وفي تنزل ذلك سرّ الخلافة ومظهرية الربوبية، ولذلك لم يكن (**شيء إلا وهو به منوط**) لكونه روحَ كل شيء وحياته وزين التعيّنات الملكوتية ومدد الحياض الجبروتية العلمية والمعانِي الكشفية. وأمّا قوله: (**وحجابك الأعظم**)، فيعني به أنّ به بقاء، بل الإبقاء على الأرواح من أن تتلاشى بصدمات القدم وتتدكدك وتحترق بسبحات أنوار الأزل، فمعناه قوت، بل قوّة وحياة للأرواح تتحمّل بِها أعباء الحقائق؛ كما يشير إليه قوله: (**واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي**). وأمّا قوله: (**وروحه سرّ حقيقتي**) فيعني به أن يكون فرعًا من أصله ومستمدًا من روحه. وقوله: (**وحقيقته جامع عوالمي**)، فإشارة إلى كونه قطبًا، وإنسان عين معارفه، وأصل فصول معانيه ولطائفه. وهذا رَمز لبعض ما تحتمله، وبسط ذلك لا تسعه العبارة، والتلويح كاف لأهله. انتهى ما نقل من خطه رضي الله عنهم ونفعنا بِهم آمين.

وهذه الصلاة المباركة أرويها عن شيخنا سيدي حمزة بن عبد الله، عن والده أبِي سالم سيدي عبد الله، عن سيدي عبد القادر بن علي الفاسي، عن عمه العارف بالله أبِي زيد عبد الرحمن الفاسي، عن أبِي عبد الله القصار، عن الأستاذ التسولِي، عن الإمام ابن غازي، عن محمد بن أبِي القاسم بن يحيى السراج، عن أبيه، عن جده، عن أبِي القاسم

الترجي، عن اليافعي، عن الميلي، عن ياقوت الحبشي، عن الشيخ أبي العباس المرسي، عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي، عن مؤلفها القطب مولاي عبد السلام بن مشيش، نفعنا الله بهم.

قال الشيخ رضي الله عنه ونفعنا به:

(اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار)

قال الإمام ابن حجر (اللهم) أصله يا ألله، وحذف حرف النداء تخفيفاً، والميم مأخوذة من جملة محذوفة مثل أمنا بخير، وقيل بل زائدة كما في زرقم للشديد الزرقة، وزيدت في الاسم تفخيماً، وقيل كالواو الدالة على الجمع كأنّ الداعي إذا قالَها اجتمعت له الأسماء الحسنَى، ولذلك شدت الميم لتكون عوضاً عن علامة الجمع، وقد جاء عن الحسن البصري: اللهم مجتمع الدعاء هـ. وقد طلب من الله تعالَى ودعاهُ أن يصلي على نبيه صلى الله عليه وسلم، وهي من الله تعالَى زيادة تكريمية وإنعام، ومن الملائكة رحمة واستغفار، ومن العباد دعاء بزيارة تشريف الله له ووسيلة للقرب منه عليه الصلاة والسلام؛ كما جعلت هدايا الفقراء إلَى الأمراء وسائل ليتقربوا بِها إليهم وليكون وليعود نفعها عليهم، إذ إنه صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الله عليه لا يحتاج إلَى صلاة أحدٍ، وإنّما شرعتْ تعبداً لله تعالَى وقربة إليه ووسائل للتقرب إلَى جنابه المنيع ومقامه الرفيع صلى الله عليه وسلم، وهي أفضل عبادة المتعبدين، وعلامة صدق المحبين. واقتصاره على الصلاة من غير تسليم، من الكلام عليه.

وقوله (على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار). الأسرار جمع سر، والمراد بِها أسرار الذات وأسرار الصفات وأسرار الأفعال، وأول ما يُفتح للسائرين أنّهم إذا نظروا في الآثار وتنوعها دلّهم ذلك على معانِي الأسماء، فيعرفون أن لكل اسم نسبة، ولكل نسبة وجوهاً، فإذا نظروا في أنواع الخلق دلّتهم على معانِي الخالق؛ وفي ضروب الرزق دلتهم على معنَى الرازق، وفي صنوف الإعطاء دلتهم على معنَى المعطي، فيشهدون الأفعال منه، ثم يدلّهم ذلك الشهود على ثبوت الصفات من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، لأن معاني الأسماء راجعة إليها، ثم يدلّهم ثبوت الصفات على وجود الذات أي باعتبار شهود كمالِها والاستغراق فيه. ولا شك أن النور الثالث أقوى من الثاني، والثاني أقوى من الأول، والثالث هو المسمّى عندهم بشمس المعرفة، وهو حظ خاصة الخاصة أهل المشاهدة، والثاني هو المسمّى بقمر التوحيد، وهو حظ الخاصة وهم أهل المراقبة، والأول هم نجوم العلم، وهو حظ عامة أهل الطريق وهم المبتدئون في مقام السلوك إلَى الحضرة.

والمراد بالأنوار في قوله (انفلقت الأنوار) الأنوار الإيمانية التي أشرقت في قلوب المؤمنين، ولا يتوصل أحدٌ إلَى حظه من ذلك إلا بواسطته صلى الله عليه وسلم، وذلك أن أقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله تعالَى والتعريف به، فكانت الأسرار كلها محجوبةً عن الخلق بنور الكبرياء والعظمة حتَى رفع صلى الله عليه وسلم عن بصائر المؤمنين الحجاب فظهرتْ، وكذلك أنوار الإيمان كانت قبل بعثه صلى الله عليه وسلم مستورة بظلام الكفر فلما جاء النور المحمدي أشرق في قلب من أراد الله هدايته تعالَى، فمن الجارة ابتداء الغاية أي ابتداء الظهور منه وانتهاؤه باعتبار الإفادة بعد الاستفادة إلَى خلفائه ونوابه من الأولين والآخرين.

وكلهُم من رسول الله ملتمسٌ غرفاً من البحر أو رشفاً من الديَم

وباعتبار الاستفادة فقط لِمن لَم يتأهل للاقتداء. نظيره ما يقال ظهرت الشمس من المشرق، وظهر الأمير من قصره. وتقديم المعمول في قوله (منه انشقت) يقتضي الحصر أي مَنْ منهُ استقلالاً أي بلا واسطة، وليس ذلك إلا له صلى الله عليه وسلم، إذ هو واسطة الجميع، وبهذا الحصر تعين الموصول بصلته، وأن المراد به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا فالأنبياء مشاركون في مطلق انشقاق الأسرار وانفلاق الأنوار منهم.

ويحتمل أن يكون الشيخ رحمه الله أشار إلَى ما تضمنه حديث جابر وعمر رضي الله عنهما، من أنه صلى الله عليه وسلم أصل الموجودات وعنصرها وأساسها. قال جابر: قلتُ يا رسول الله أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالَى، فقال: يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نورَ نبيك. الحديث. وفي حديث عمر: يا عمر أتدري من الذي خلق الله أول كل شيء نوري. الحديث. وروى الحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قال: يا آدم لولا محمد ما خلقتك. وفي حديث آخر: لولا محمد ما خلقتك ولا خلقت سَماء ولا أرضاً. وروى ابن عساكر من حديث سلمان أن الله تعالَى قال: خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنْزلتك عندي ولولاك ما خلقت الدنيا. إلَى غير ذلك.

فاستعار لكليات المكنونات الأسرار، ولِجزئياتِها الأنوار. وفي سيرة الحلبي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه السلام فقال: يا جبريل كم عمرتَ من السنين؟ فقال: يا رسول الله لست أعلم، غير أن في الحجاب الرابع نجماً يطلع في كل سبعين ألف سنة مرة رأيته اثنين وسبعين ألف مرة، فقال صلى الله عليه وسلم: وعزة ربي أنا ذلك الكوكب.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(وفيه ارتقت الحقائق)

المراد بالحقائق علوم المعرفة، كما يتبادر من تعبيره بالحقائق. ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم إمام أئمة العارفين والمبين لجميع مقامات اليقين، كما صرّح به قوله: "إنّي لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية"، وقوله: "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا". فشبهت العلوم المذكورة بالشموس والأقمار وطويت الأركان سوى المشبه استعارة مكنية، ودل على ذلك بذكر الرديف الذي هو الارتقاء تخييلاً. وشبّه صلى الله عليه وسلم بالسماء في المحلية لشروق الأنوار، كناية أيضاً، ودل عليه بالحرف المناسب للمشبه به وهو في كما ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾. قال في الحقائق على هذا الاستغراق النوعي أي نوع علم المعرفة.

ويحتمل أن يكون أراد بالحقائق جميع العلوم، فتكون ال للاستغراق الحقيقي وتقرير الاستعارة على ما تقدم. ولَما أراد الله تعالَى إظهار سيادته لِجميع الخلق، ركب فيه أكمل العقول وأوسعها فوسعَ من العلوم والمعارف ما لم يتأهل له علم مخلوق، وبلغ في مكانته العلم بأحكام الله وأيامه وسياسة خلقه وتأديبهم وما يصلح معاشهم ومعادهم مبلغاً لم يصل إليه أحدٌ من الخلق.

والارتقاء على هذين الوجهيْن بِمعنَى الطلوع أي الظهور والتجلي، وعبّر عن ذلك بالارتقاء بعلو المحل. ويحتمل أن يراد بالارتقاء ارتفاع حقائق العلم لكمال التحقيق، إذ لا تحقيق يقاربُ حقيقته فضلا على أن يساويَه لأنه أطلعه الله تعالَى على حقائق الأشياء على ما هي عليه، وعلوم العلماء لا تخلو من احتمالات وظنون ولِهذا يخطئ بعضهم بعضاً وتتبدل آراؤهم في المسألة الواحدة، فالارتقاء على هذا بِمعنَى الارتفاع.

والحاصل أن ما وسع قلبه صلى الله عليه وسلم لا يسعه غيره، فما اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم افترق في غيره من المرسلين والنبيين والصديقين والعارفين، ولِهذا قيل محمد جمع فيه ما افترق، وإنّما كان قلبه صلى الله عليه وسلم معدن الحقائق والأسرار، وباطنه معدن العلوم والأنوار، للمجانسة. إذ الحقائق عرشية، والأسرار كرسية، والعلوم لوحية، والأنوار ملكوتية، وقلبه وباطنه من تلك العوالِم العلوية، والشيء قد يؤلف الشيء لنفسه بينهما. وفي الحقيقة اللوحُ والقلم يستمدان من علومه، إذ هما مخلوقان وعلمهما محصور، وهو صلى الله عليه وسلم مُمد المخلوقات وله علوم أخر من ربه متزايدة أبداً، ورحم الله البوصيري حيث يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(وتنزلت علوم آدم).

اعلم أن الموجودات لَهَا حقائق ومفهومات، والحقيقة ماهية الشيء على سبيل التفصيل، ولا تكون إلا للموجود، والمفهوم ما يفهم الاسم في الجملة وهو للموجود والمعدوم، فكان لسيدنا آدم بالنسبة للأشياء التي عورضتْ عليه علم المفاهيم، ولسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم علم الحقائق وفي ضمنه قطعاً علم المفاهيم، يعني أن الخصوصية التي امتاز بها آدم عن الملائكة وكانت سبباً لأمرهم بالسجود له حصلتْ لنبينا صلى الله عليه وسلم، وزاد بعلم الحقائق. أخرج الديلمي عن أبِي رافع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثلتْ لِي أمتِي في الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها.

فحاصل المعنى حينئذ أن النبِي صلى الله عليه وسلم اجتمع فيه علم الحقائق وعلم المفاهيم، والأول أعلى وأشرف، فلهذا وصف بالارتقاء، ووصف علم المفاهيم بالتنَزل وهو نسبي، وإلا فعلمُ المفاهيم عال شريف وناهيك بعلم اقتضى سجود الملائكة للمتصف به. وفيه من قوله "وفيه ارتقت" الخ لارتقت وتنَزلت على حد بالمؤمنين رؤوف رحيم.

ويحتمل أن تكون الإشارة بالجملتين المتعاطفتين إلَى أنه صلى الله عليه وسلم هو الموروث في حضرة الجمع والموجود الروحاني، والوارث في حضرة الفرق والوجود الجسماني، فهو الذي ورث العلوم لآدم وبنيه، ومن ثَم قيل فيه صلى الله عليه وسلم أنه آدم الأكبر، إذ هو أبو الأرواح، ثُم ورثهم منهم، فهو صلى الله عليه وسلم أول الأنبياء وهو خاتم النبيين. وفي الداخلة على ضميره صلى الله عليه وسلم من قوله "وفيه ارتقت الحقائق" الخ على هذا الوجه بِمعنَى من والَى جميعاً من قبيل استعمال المشترك في معنييه، أي وإليه ارتقت الحقائق ومنه تنَزلت، لَما أخذها وصفت بالارتقاء، ولَما أعطيها وصفت بالتنَزل، لأنه لا مرتبة فوق مرتبته، وهذا بديع في المعنَى وإن كان لا يخلو من تكلف.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(فاعجز الخلائق)

فيه احتمالان:

أحدهما أن يكون فاعل أعجز ضمير النبِي صلى الله عليه وسلم، أي أنه حيثُ ارتقت فيه الحقائق وتنَزلت فيه علوم آدم، فجمع بين علم الأولين والآخرين وأتَى بِما

لَم يأت أحد بِمثله بوقائع القرون السالفة وقصص الأمم الماضية وبالمغيبات الآتية مع أميته وعدم قراءته وكتابته، أعجز جميع الخلائق.

وثانيهما أن يكون فاعل أعجز ضمير آدم، والفاء للسببية، أي منه صلى الله عليه وسلم تَنَزلت علوم آدم وسجودُ الملائكة له، فأعجز آدم بسبب ذلك، وهو تَنَزل تلك العلوم بحلول نوره صلى الله عليه وسلم فيه الخلائق، وال للاستغراق، لأن الإعجاز وإن كان للملائكة فهو لغيرهم من باب أولَى وأحرى.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(وله تضاءلت الفهوم)

معناه تصاغرت وتقاصرت عن إدراكه ولم تحط بِحقيقته، لقوله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر والذي بعثني بالحق لم يعلمني حقيقةً غير ربّي. فاللام في "له" بِمعنَى عن. قال الإمام الخروبِي: تضاءلت الفهوم عن درك خفي سره والوقوف على حقيقة أمره وما يعلم ذلك إلا الذي خصّه به سبحانه، وإذا كان الولِي لا تدرك حقيقته في هذا الدار فكيف الرسل عليهم الصلاة والسلام، فكيف سيدهم وإمامهم صلى الله عليه وسلم، وما أدرك الناسُ من حقيقة أمره وخفي سره إلا على قدر عقولِهم البشرية، فما ظهر لَهم من ذلك هو نعمة ليعرفوا قدره ويعظموا أمره، وما خفي عنهم منه فرحمة من الله بِهم إذ لو ظهر لَهم مع عدم قيامهم بالحقوق لكان فتنة لَهم، والله تعالَى أرسله رحمة للعالَمين، فكانت النعمة فيما ظهر، والرحمة فيما استتر. هـ.

ويندرج في عموم لفظة تقاصرت الفهوم عن حقيقته تقاصرها عن إدراك كنه جلاله وجماله وعقله وعلومه وخوفه وغير ذلك من أوصافه الجليلة صلى الله عليه وسلم.

ويحتمل أن تكون اللام بِمعنَى فِي، وشبه صلى الله عليه وسلم ببحر عظيم سبحت فيه الفهوم فخفيت ودقت كناية، ودل على ذلك بالحرف كما مر في نظيره ومقابله احتمال الحقيقة باحتمال المجاز كثير في كلامهم، ونظير ما نحن بصدده فيه ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾، ففِي إما بِمعنَى على ولا استعارة، أو الظرفية فثبتت الاستعارة.

ويحتمل أن تكون له للتعليل، والمعنَى تصاغرت الفهوم لأجله خضوعاً وأذعنت واعترفت بالقصور، ولا يخفى أن المعاني الثلاثة مقصورة عليه فلذلك قدّم الشيخ رضي الله عنه المعمول.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(فلم يدركه منا سابق ولا لاحق)

لَما كانت ال الداخلة على الفهوم تحتمل الاستغراق الحقيقي والمبالغة أعقبه بهذه النتيجة المفيدة أن الاستغراق حقيقي وأن كبراء الخلق من الأنبياء والمرسلين والملائكة لم يدركوه بالإحاطة، إذ حقيقته صلى الله عليه وسلم لا يعلمها نبي مرسل ولا ملَك مقرب.

وقوله (ولا لاحق) أي ولا يدركه لاحق، فهو من قبيل عطف عامل أزيل قد بقي معموله دَفعاً لوهم اتقى وهو ما يلزم على ظاهر العطف من أن المراد باللاحق باعتبار من سبقَه، وهو في الحقيقة سابق لاختصاص الصيغة بنفي الماضي ليكون نفي الإدراك قاصراً على غير المستقبل وذلك لا يصح، والسبقية واللحوق باعتبار عالَم الأجسام أي فلم يدركه سابق عليه في الزمان ولا يدركه لاحق له في الوجود بعد أول مبعثه، فيندرج في اللاحق المعاصرون، ومرجع ضمير المتكلم المشترك للخليقة بأسرها والموجودات كلها فيهم الجن والملائكة.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة)

الرياض في اللغة جمع روضة، وهو الماء المجتمع يكشفه نبتٌ رائق يتخلله ري ونعمة، والنعمة اللين والتنعم أيضاً، ولا يسمّى روضاً حتّى تكون فيه هذه الصفات.

والملكوت فعلوت من الْمُلْك، وهو العز والسلطان.

وقوله (بزهر جماله) الزهر في اللغة جمع زهرة، بسُكون الْهاء، وهو نور النبات، والزهرة بالتحريك كذلك، وأزهر النبت أظهر نوره. وقوله (مونقة) أي معجبة.

وقوله (وحياض) هو جمع حوض وهو ما يجتمع فيه الماء ليفرق للسقي كالصهريج.

وقوله (الجبروت) وهو فعلُوت من الجبر وهو القهر، أي العباد مقهورون عن إدراك كنهه، وهو غير مهموز. قال في المصباح باتفاق مِما يجري على الألسنة من همزه والجبروت لحنٌ، وقيل هو من التجبر الذي هو التكبر، أو من جبرت الفقير أغنيته. ومعنَى سبحان ذي الجبروت والملكوت على هذا المعنَى والملك.

وقوله (بفيض أنواره) أصل معنَى الفيض في الماء ونحوه من المائعات. يُقال فاض السّيل إذا كثر وسال، وأفاض بالألِف لغة، وفاض الإناء فيضاً امتلأ، وأفاضه صاحبه ملأه، وفاض الخير كثر، واستفاض الحديث انتشر واشتهر، فهو مستفيض، ولا يقال

مستفاض، وهو لحنٌ عند الأصمعي، واتبعه بعضهم. فشبّه الأنوار وانتشارها بِماء سائل متدفق، والتدفق التصبب بقوة.

ثُم اعلم أن لعالَم الملك والملكوت والجبروت تفسيران:

أحدهما أن عالَم المُلْك هو حضرة الأجسام، وهي مظهر الأفعال، وعالَم الملكوت هو حضرة الأرواح، وهي مظهر الصفات، وعالَم الجبروت هو حضرة الأسرار، وهي مظهر أسرار الذات.

وثانيهما أن عالَم المُلْك هو ما يُدرك بالحس والوهم، وعالَم الملكوت هو ما يدرك بالعقل والفهم، وعالَم الجبروت هو ما شأنه أن يدرك بالحس وما معه أو بالعقل وما معه لكن في الحال بل في ثانِي حال كما في الدنيا مِما لم تصل إليه وهماً ولا فهماً كتعلُّق الجسم بالروح وهي به، وما في الجنة إذ هو ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر وستراه العيون وتسمعه الآذان وتعرفه القلوب.

فعلَى الأول: النبِي صلى الله عليه وسلم هو روح العوالِم الثلاثة إذ به أشرقت، فإنه مرآة لتجلي الذات للأسرار والصفات للأرواح والأفعال للأجسام، أي لطرف الإدراك منها وهي السمع والبصر وما معهما، إذ هو المعرف بِهما حيث أخبر بأنه تعالَى هو المنفرد بالتأثير، فاعتقدت القلوب ذلك وشاهدت الأفعال من الله، وبه تحلت الأرواح بشهود صفات الله، وبه شاهدت الأسرار الذات العلية. فالشيخ رحمه الله شبّه الملكوت الزهر به بالمتنَزهات أي الأماكن المرتفعة المتسعة، ودل على ذلك بإضافة الرياض إليه على حد أظفار المنيّة، وشبّه جماله صلى الله عليه وسلم بعروس تلك الرياض، ودلّ على ذلك بإضافة الزهر له.

وحاصل المعنَى أن عالَم الملكوت متزين ومستنير بالنبِي صلى الله عليه وسلم، إذ لولاه ما وجد، وبه تشاهد الصفات التِي هو أي عالَم الملكوت مظهرها. وشبّه الجبروت المنير به ببحر على حافتيه رياض تسقى من حياضه، ودل على ذلك بإضافة الحياض، وشبهت أنواره صلى الله عليه وسلم بالماء الساقي، ودل على ذلك بإضافة الفيض لَها. فالجبروت بحر، وأنوار النبِي صلى الله عليه وسلم ماؤه، والفياض الساقية تستمد منه.

وحاصل المعنَى أن عالَم الجبروت مشرق بالنبِي صلى الله عليه وسلم، إذ لولا هو ما وجد، وبه تشاهد أسرار الذات التِي هو أي عالَم الجبروت مظهر لَها.

وعلى التفسير الثاني: فالعوالِم الثلاثة بالنبِي صلى الله عليه وسلم أشرقت وتَهيأت لإدراك، فبمدده المبارك صار الحس والوهم مدركين لمدركاتِهما، وكذا العقل والفهم.

وخصّ عالَم الجبروت بالحياض والفيض، لأن كمال السقي والري إنّما يكون فيه، إذ فيه يوقف على حقائق الأشياء، وأيضاً فيه تحصل الرؤية التي هي أقصى المطالب.

ثُم هذا الكلام كالدليل لِما قبله، إذا كانت رياض الملكوت بزهر جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، فكيف لا تتصاغر الفهوم عنه وتقصر عن الإحاطة به، وذلك أن العقول قاصرة عن الإحاطة بالملكوت والجبروت، فإذا كانت أنواره هي المبثوتة هناك وهي المزينة لذينك العالَمين، وإنّما امتلاؤها اتضح غاية الاتضاح عجزها عن إدراكه.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط).

لَما مدح النبي صلى الله عليه وسلم وأثنى عليه باستمداد عالَمي الملكوت والجبروت من زهر جماله وفيض أنواره، زاد في التبجيل والتعظيم، وترقى من مقام التخصيص إلى مقام التعميم، فقال: ولا شيء الخ، أي لا شيء من الأشياء إلا وهو به منوط مرتبط به صلى الله عليه وسلم من كل جهة من حيث الوجود والاستقلال والاستمداد. وفي التعبير بالشيء إشارة إلى أن توسطه والتوقف عليه ليس مقيداً بوصف مخصوص، بل هو دائر مع مُطلق لسببية الحوادث، فلا يختص بالإنسان الكامل ولا بمطلق الإنسان بل ولا بمطلق الحيوان بل ولا بمطلق النامي ولا بمطلق الجسم، فيعم الخلائق جنها وإنسها وملكها، حيها وجمادها، سفليها وعلويها، محسوسها ومعقولَها، فسبحان من أهّله لذلك، إن الله على كل شيء قدير.

وبالجملة، فنعمتان ما خَلا موجود عنهما ولا بد لكل مكوّن منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، كما في الحِكَم. وهو صلى الله عليه وسلم الواسطة فيهما، إذ لولا سبقية وجوده ما وُجد موجود، ولولا وجود نوره في ضمائر الكون إلى أن برز لَهدمت دعائم الوجود، فهو الذي وجد أولاً وله تبع الوجود وصار مرتبطاً به لا استغناء له عنه.

فإن قلتَ: كيف يبقى الوجود بعد موته؟ فالجواب: إن موته كسائر الأنبياء إنّما هو انتقال من دار إلى دار، وهم بعد الموت أحياء على الحقيقة. قال في المواهب: لا فرق بين موته صلى الله عليه وسلم وحياته في مشاهدته لأمته ومعرفته بأحوالِهم ونياتِهم وعزائمهم وخواطرهم، وذلك عنده جلي لا خفاء فيه.

فإن قلتَ: هذه الصفات مختصة بالله تعالى. فالجواب: إن من انتقل إلى عالَم البرزخ من المؤمنين يعلم أحوال الأحياء غالباً، وقد وقع كثير من ذلك كما هو مسطر

في مظنة ذلك من الكتب.

وقوله (كما قيل) خبر لمحذوف، والجملة اعتراض بين المبتدأ وجواب لولا السّاد مسدّ الخبر. وليست صيغة (قيل) هنا للتضعيف، لأن هذا المعنى ثابت في الحديث، وإن كان الأُليري توقّف في قوله البوصيري (لولاه لَم تُخْرَجِ الدنيا من العدم) وقال هل يوجَد هذا في الحديث ومن أين أخذه، فقد تقدم حديث جابر وحديث عمر رضي الله عنهما. وعند ابن عساكر: هبط جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن ربك يقول إن اتخذتُ إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيباً وما خلقتُ خلقاً أكرم عليّ منك ولقد خلقتُ الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنْزلتك ولولاك ما خلقت الدنيا.

وفي شرح الْهمزية لابن حجر صح عن ابن عباس رضي الله عنهما وله حكم المرفوع ولولا محمد ما خلقتُ آدم ولولا محمد ما خلقتُ الجنة والنار ولقد خلقتُ العرش على الماء فاضطرب فكتبتُ عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن.

وفي رواية أخرى: ولولاه ما خلقت السماوات والأرض ولا الطول ولا العرض ولا وضع ثواب ولا عقاب ولا خلقت جنة ولا ناراً ولا شَمساً ولا قمراً.

وقال في شرح مشارق الصغاني على قوله في الحديث نبي الرحمة لأنه كان سبب الرحمة وهي الوجود لقوله لولاك ما خلقت الأفلاك.

وفي شرح الشِّفا على قوله لولاه ما خلقتُك، والخطاب لآدم، ما نصه: هذا أول دليل على ما هو المعهود الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم هو سبب الوجود وأنه لولاه لَم تكن الأكوان، وبيت البوصيري سبقه إليه ابن الفارض حيث قال:

لولاك يا أحمد المحمود ما طلعتْ　　　شَمسٌ ولَم تُخرَج الدنيا من العدم

وكان مقتضى الظاهر إذ لولاه كما قيل لذهب الموسوط، بالإضمار لتقدم مرجع الضمير، وإنّما عدلَ عنه إلَى الإظهار فقال (إذ لولا الواسطة) الخ، لوجهين:

أحدهما أنه أي مطلق الإظهار هو الواقع في المحكى في كثير من الرواية، كرواية لولا محمد ما خلقتك.

ثانيهما ما في خصوص الظاهر المعدول إليه عن الْمدْح بمعنَى التوسط بخلاف الضمير، فالمعدول إليه أخص لإفادته صفة لا يفيدها المعدول عنه.

وقوله (لذهب الموسوط) أي لفقد ولم يوجد باعتبار وساطته في نعمة الإيجاد ولاضمحل وتلاشى وهلك باعتبار وساطته في نعمة الإمداد، والظاهر بأنه أرادهما معاً لصحة استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وذلك أمدَح.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(صلاةً تليق بك منه إليه كما هو أهله).

اسم مصدر نوعي لأنه موصوف بجملة تليق به الخ. بيّن به أنه ليس مطلوبه مطلق الصلاة، بل صلاة مخصوصة تناسب عظيم مقداره عند الله تعالى، ولا يعرف مقداره غيره جل وعلا كما مر، فلا يمكن لأحدٍ تعيين هذه الصلاة وبيان حقيقتها، فالصفة مخصصة لإخراجها الصلاة التي لا تناسب قدره ولم تدفع الإبهام عن الموصوف بالكلية، فهذا تخصيص لا تعريف، إذ التعريف أخص من مطلق التخصيص، ولا يلزم من ثبوت الأعم ثبوت الأخص، وطلبُ العلم لا يستدعي العلم بكنهه وماهيته لِجواز المعلوم من وجه دون غيره، نحو اللهم أعطنا في جنتك ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إن قلت: المناسب لِهذا المعنى الذي تحوم عليه أن يقال صلاة تليق به، قلتُ: لا تغفلْ عنا عن قوله (على من منه انشقت الأسرار) الخ، فإنه بعد أن وصفه بتلك الصفة الجليلة بيّن أن مطلوبه صلاة تليق بمعاملة الله له، أي صل عليه صلاة تليق بإحسانك إليه، وما ظنك بصلاة تليق بالله مع من منه انشقت الأسرار الخ. والحاصل أن الإحسان من الجليل العظيم لجليلِ عظيم عبده لا يكون إلا جليلاً عظيماً.

وقوله (منك إليه) أي لا على يد من خلقك، فإن الملِك إذا أتحف أحد كبراء دولته وجّه إليه هدايا مع غلمانه، ثُم أعطاه هدية مخصوصة بيده لم يعطه إلا أنفس مِما بعث إليه على أيدي الوسائط، وفي ذلك من الدلالة على الاعتناء بالمعطى ما لا يخفى، وفيه أيضاً تأكيد للدلالة على عظم هذه الصلاة باستحضار معاد الضميرين، إذ هي من جليل الجليل كما مر.

والكاف في قوله (كما هو أهله) تعليلية، وما موصول اسمي، أي لأجل الأمر العظيم الذي هو مستحقه ولم يعين هذا الأمر لعدم اطلاعنا عليه بِموجب إبهام الصلة، وفي ذلك من التفخيم ما هو معروفٌ نحو ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك)

قال الإمام الخروبِي: هذا اللفظ ظاهر الإخبار، ومعناه الإقرار بالمخبر به على وجه تعظيم المخبر عنه وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو المراد بالضمير المتصل بإنّ، هـ. يعنِي أن النبِي صلى الله عليه وسلم هو سر الله الجامع، وهو بيان لشيء مِما أهّله الله له، ومن آداب من طلب لِملك من الملوك أن يعامل وزيره أن يذكر محبته

في الملك وخدمته له تأكيداً للطلب وإن كان الملك عالماً بذلك وللطالب منفعة في ذلك وحظ في الطلب لنفسه بإظهار محبته لِمحبوب الملِك، ولكونه صلى الله عليه وسلم مرآة ومظهراً لصفات الجمال والجلال على وجهة التعريف سُمي سر الله، وهو أيضاً سر الله الذي أودعه مكوناته العلوية والسفلية، فهو صلى الله عليه وسلم السر الذي ظهرت به الأسرار، وهو النور الذي به أشرقت الأنوار، فلا مكنون إلا وهو سرُّه الذي قام به أمره.

وقوله (الجامع) أي لِما افترق في غيره من المظاهر، إذ هم مستمدون منه بكل تجل وظهور في النبيين والمرسلين والصديقين والعارفين منه أخذ وبواسطته كان. قال بعضهم: إن ذاته الكريمة صلى الله عليه وسلم جمعتْ حقائق الموجودات، ونبوته جامعة لسائر النبوءة، ونوره جامع لسائر الأنوار، وسره منه تفرعت الأسرار، ويومه جامع لسائر الأيام، وكتابه جامع للكتب المنَزلة على أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام. وقال بعضهم: جميع أوصاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجموعة في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكل ولي كان على قدَم نبي اتصف بأوصافه، والولِي المحمدي هو الكامل الذي اجتمعت فيه أوصاف الأولياء، كما اجتمعت أوصاف الأنبياء فيمن هو على قدمه صلى الله عليه وسلم.

وقوله (الدال عليك). ال فيه للكمال، إذ هو صلى الله عليه وسلم دال على الله تعالى بأقواله وأفعاله وأحواله، ودال في عالَم الأرواح وفي عالَم الأجساد، وجميع الدعاة نوابه وخلفاؤه.

وقوله (وحجابك الأعظم) أي حجب الخلق عن الهلاك الذي يوحيه التلقي بواسطته، إذ لولاه لم يستطع تلقي أمر الله ونَهيه من واسطة الملَك فأحرى من خطاب الملِك، أي هو الذي حجبت به خلقك عن ما ذكر، فالخلق هم المحجوبون به عن ما ذكر لا عن التلقي، إذ به يتوصلون إلَى ذلك. وما أحسن إتيان الشيخ (به) بعد قوله (الدال عليك).

ويحتمل أن يكون معنَى كونه حجاب، أنه منع العقول من العطب الذي يوحيه التفكر في أسرار الذات حيث زجرها عن ذلك بقوله (تفكَّروا في مخلوقاته ولا تتفكروا في ذاته).

ويحتمل أن يكون المعنَى أنه حجب أهل الإيمان من العذاب بإرشادهم، أو حجب الخلق بتأليفه بين قلوبهم من آفات التدابر والتقاطع، أو حجب المؤمنين من نار الفرق والقطيعة حيث وصل كلا منهم إلَى حظه من المشاهدة على اختلاف مراتبهم، أو

حجبهم عن أخلاق الجاهلية وما كانوا عليه من الضلال كقتل الجماعة بالواحد وقتل الأولاد خشية الإملاق.

ولَما كان النبيئون والمرسلون كلهم حجبا للخلق بالمعانِي المتقدمة، وكان صلى الله عليه وسلم أعظمهم في ذلك المعنى إذ عنه أخذوه ومنه اكتسبوه، وصفه بقوله (الأعظم).

وقوله (القائم لك) أي لأجلك تعظيماً أو إجلالاً. وقوله (بين يديك) كناية عن شدة القرب التِي اختص بِها عن غيره.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(اللهم الحقني بنسبه وحققني بحسبه)

يحتمل أن يريد بالنسب الديني، ولا يقال أن ذلك حاصل، وطلب حصول الحاصل مُمتنع، لأنا نقول المطلوب استمرار ذلك وبقاؤه، فهو من باب قوله تعالَى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾ أي دومُوا على إيمانكم، فالمعنَى اللهم أدمْ لِحاقي به وأبقه مستمراً، أو المطلوب حصول كماله إذ لا يقطع أحد بحصوله لنفسه، وأيضاً لا نِهاية للترقي فيه.

ويحتمل أن يريد النسب الطيني، إذ لا يقطع به أحدٌ لنفسه في نفس الأمر، كما قال العلامة العارف بالله سيدي عبد الرحمن الفاسي، ولو إلا من كون شرطه الوفاة على الإسلام، وهو غيب غير مقطوع به لأحد إلا من ميزه النص. على أن من تحقق قضية الحق لا يسكن لوعد، فيتأكد على كل منتسب إليه صلى الله عليه وسلم ألا يركن للحاصل في الحال، بل يعتبر الأمر بِتمامه وخاتِمته.

ويحتمل أن يريدهما معاً، وهذا أفيد، لأن من جمع بين النسب الطيني والكمال الديني لا يُشَق له غبار، والوجه الثاني أوجه لقوله (وحققني بِحسبه) فإن معناه كمال النسب الديني أي حققنِي بالتخلق بأخلاقه أي اجعلنِي من المقتدين به أي المتبعين لسنته في أقواله وأفعاله وأحواله، إذ بذلك يحصل كمال الوصول ويثبت مقام المحبوبية الذي هو غاية الأمانِي ومنتهى السؤال بشهادة قوله تعالَى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، وعلى الوجه الأول يكون قوله (وحققني بِحسبه) تفسيراً أو تأكيداً.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(وعرفني إياه معرفةأسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل)

هذا من أجلِ ما يطلب وأسنَى ما يُسأل ويُرغب، فإن النبِي صلى الله عليه وسلم هو المرآة الكبرى للتجلي، والواسطة العظمى في التعريف للعالم العُلْوي والسفلي،

فمعرفته صلى الله عليه وسلم موصلة إلى معرفة الله تعالى، وعلى حسب معرفته تكون معرفة الله، وهو باب الله الأعظم.

وأنت باب الله أي امرئ أتاه من غيرك لا يدخلُ

ولهذا قدَّم سؤال معرفته صلى الله عليه وسلم على قوله (وزُجَّ بِي في بحار الأحدية) الخ المتضمن طلب معرفته تعالى، وأيضاً فإن معرفته مقام المحبوبية عند الله تعالى، وذلك أن محبة الله للعبد على حسب محبة العبد له صلى الله عليه وسلم ومتابعته إياه، ومحبة العبد على قدر معرفته به واطلاعه على جماله وإحسانه، إذ لا سبب للمحبة إلا الجمال والإحسان، ولا شك أن لا جمال يشبه جماله صلى الله عليه وسلم، ولا إحسان يقارب إحسانه، إذ كل نعمة واصلة إلى منعم عليه أياً كان فهي على يده وبواسطته صلى الله عليه وسلم، فلأجل ذلك طلب الشيخ معرفته أي دوامها وزيادة الترقي فيها، فمطلوبُه المعرفة الخاصة الموصلة لِما سبَق، ولذا خصَّصها بالصفتين المتعاطفتين، وفي ضمن سؤال هذه المعرفة المخصوصة سؤال القرب والرضا، فإن المعرفة التي لا جهل مضر معها لا تكون إلا مع القرب والتقريب وهي في حقه صلى الله عليه وسلم اطلاع على الأسرار المكنونة والأنوار المصونة فتستلزم الرضا عن العارف، والاستلزام من وجه آخر وهو أن الاطلاع على تلك المحاسن يضطر المطلع إلى تعظيمه صلى الله عليه وسلم وحينئذ يسارع إلى خدمته بكل ما يمكنه ويتمنَّى أن لو كان معه في عصره أنفق عليه ماله وقوته وروحه وفداه بنفسه وأولاده وأهله، فيكون له ثواب ذلك لِخبر "مَنْ هَمَّ بِحسنة فلم يعملها كتبتْ له حسنة". وفي الإسرائيليات أن رجلاً مر بكثبان رمل في مجاعة فقال في نفسه: لو كان لِي هذا الرمل طعاماً لقسمته على الناس، فأوحى الله إلى نبيهم أن قل له: قد قبل الله صدقتك وشكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقتَ به.

فإن قلتَ: معرفته صلى الله عليه وسلم تكتسب من مطالعة سيره والبحث عن أخباره، وذلك مبسوط في كتب السير فمن أرادها فليشتغل بذلك، فما معنَى طلبها؟

قلت: معرفته صلى الله عليه وسلم قسمان: معرفة صفاته الظاهرة وأخلاقه الباطنة التي دلَّت عليها أحواله وأفعاله، وهذه كسبية موصلة لِمقام الإيمان ومراتبها متفاوتة بتفاوت الإيمان بِحسبها وهي التي تكلفت بِها مطالعة كتب السير، لكن ذلك متوقف على الإلهام والإقدار عليه قال تعالَى ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مع أن العبادة كسبية. ومعرفة معناه وملكوتيه صلى الله عليه وسلم، كان بشري الظاهر ملكوتِي الباطن، وهذه وهبية لا مدخل للكسب فيها، فظهر وجه الطلب في القسمين، ووصف المعرفة المسؤولة بِما

يفيد كمالَها.

والواو في قوله (وأكرع) الخ، للترتيب، ولذلك قدّم الصفة الأولَى التي هي مفيدة للتخلية عن رذيلة الجهل، والثانية مفيدة للتحلية بفضيلة العلم، والتخلية سابقة على التحلية، والسبقية بحسب التصوير، فتصور التخلية أولاً ثُم التحلية ثانياً على مقتضى الترتيب الطبيعي. وعمّم في الجهل ليشمل مركبه وبسيطه، وعمّم في الموارد المضافة له ليسلم من جميعها.

فإن قلتَ: كيف صحّ له ذلك مع قوله صلى الله عليه وسلم (لا يعلمني حقيقةً غير ربّي)، فالعلم الذي لا جهل معه أصلاً لا يحصل لِمخلوق بشهادة الحديث.

قلتُ: الاستغراق في موارد الجهل إضافي لا حقيقي، أي هو بِحسب ما يليق بالعبد، ودلَّ على ذلك إدخال من التبعيضية في المعطوف، فإنه يفيد أنه لم يسأل العلم كله أي المحيط، إذ معنى أكرع أشرب بالفم بلا واسطة ولا آنية، فمن بعده تبعيضية على حد شربت من النّهر، وفي العبارة تقدير مضاف أي وأكرع بِها من ماء موارد الفضل، وفي كل من موارد الجهل وموارد الفضل استعارة مكنية وتخييلية، شبّه الجهل بالماء الضار ودل على ذلك بإثبات الموارد، وشبّه العلم بالماء النافع ودل على ذلك بالموارد. وقوله (من موارد الجهل) أي به. وقوله (من موارد الفضل) أي العلم به بالفضل لِتمحضه أي الفضل في الوهبِي وأصالته في الكسبِي. ويحتمل أن يراد من موارد الجهل بالله ومن موارد الفضل أي العلم بالله أن معرفته صلى الله عليه وسلم سببٌ في معرفة الله تعالَى. ويحتمل أن يراد معاً وهو أفيد.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(واحملني على سبيله إلى حضرتك حملا محفوفاً بنصرتك)

هذا مطلب الصديقين والقاصدين إلَى حضرة مولاهم جل جلاله إذ أقصى مرادهم الوصول إلَى الحضرة الربانية على كاهل السنة المحمدية، والحمل على السبيل هي الجواذب الربانية التِي تجذب السالك إلَى حضرة الله سبحانه على سبيل السنة المحمدية، فإذا أراد الله سبحانه أن يبلغ السالك إلَى حضرته الكريمة حملهُ إليها على سبيل الاقتداء بالدليل الأعظم والرسول الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فيكون في سلوكه متابعاً له عليه الصلاة والسلام في أقواله وأفعاله وأحواله، محفوف في ذلك بنصرة الله تعالَى، فيكون في سلوكه بربه لا بنفسه، وهذا من علامات الوصلة وإمارات القربة.

والحضرة مأخوذ من الحاضرة، وهي عبارة عن موطن من مواطن القرب والمشاهدة، فإذا كان العبد على بساط الحق مشاهداً لصفاته يُسَمى ذلك الموطن حضرة الصفات، وإذا كان مشاهداً للأفعال فيُسمى ذلك الموطن حضرة الأفعال. قاله الخروبي.

وبالجملة فبقدر التعظيم الناشئة عن كثرة المعرفة تحسن النية ويسهل الاتباع التي هي السلوك إلى الحضرة الربانية. وقال بعض العارفين: بقدر ما يدخل في القلب من التعظيم والحرمة، تنبعث الجوارح للخدمة. وأيضاً فإن المعرفة تنشأ عنها المحبة لِما فيها من الاطلاع على المحاسن والكمالات، وقد قالوا: يقطع المحب على فراشه ما يقطعه العابد في سبعين سنة.

وروى الحافظ أبو نعيم عن عطيّة قال: كنتُ مع ابن عمر رضي الله عنهما جالساً فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن لوددتُ أنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له ابن عمر: فكنت تصنع ماذا؟ فقال: كنت والله أؤمن به وأقبل بين عينيه، فقال له ابن عمر: ألا أبشرك، فقال: بلى يا أبا عبد الرحمن، قال: سَمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما اختلط حبّي بقلب أحد فأحبني إلا حرّم الله جسده على النار. وأخرج الخطيب عن جابر مرفوعاً "من أحب قوماً على أعمالِهم حشر يوم القيامة في زمرتِهم وإن لَم يعمل أعمالَهم". هـ.

ومعنَى الاستعلاء على سبيله أن يكون متمكناً منه قوياً على سلكه، وهذه حقيقة الحمل على سبيله لا ما يقتضيه ظاهر اللفظ، وفي الكلام استعارة مكنية وتخييلية، حيث شبّه السبيل بالبراق في التوصيل إلَى حضرة الله تقدس اسمه، ودلّ على ذلك برديفه وتابعه، أعني الحمل.

ولم يقل بالنصرة على نفسي وعلى الشيطان، لأن طلب النصرة على ذلك شأن أهل البدايات، وأما أهل النهايات فيقولون عرفنا الله فكفانا مَنْ دونَه.

وحذف المتعلق للتعميم، أي كل شيء، حتّى تنفعل له المكونات وتطيعه الأشياء وتكون إرادته تابعة لإرادة الله تعالَى، ويندرج في العموم النصرة له وبه للمريدين والإخوان ومن يحتاج إليها، وتلك مرتبة الخلافة ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيصير الفقير بِهم غنياً، والخائف آمناً، والذليل عزيزاً، والضعيف قوياً. هـ.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(واقذفْ بي على الباطل فادمغه)

القذف بالشيء دفعه والرمي به، والباطل كل ما خلا الله تعالَى حتَّى المقامات والأنوار. وفي الحِكَم: ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لَها إلا ونادته هواتف الحقائق الذي تطلب أمامك وأنَّ إلَى ربك المنتهى قُل الله ثُم ذرهم في خوضهم يلعبون. فمن ثَمَّ أعرض العارفون عن كل شيء سوى الله وقصروا هممهم على الله.

ومن كلام سيدي رضوان رضي الله عنه: وكن ممن لا تشغله المحبة عن المحبوب ولا الصفة عن الموصوف ولا المعرفة عن المعروف، ولا تكن كقيس ليلى فإنّها لقيته يوماً في هيامه وقد كلمها صواحبها أما ترين ما به بسببك، فتعرضتْ له فلم يلتفت إليها فقالتْ له أنا ليلى فقال لَها إليكِ عنّي فقد شغلني عنك ما بِي منك.

فسأل الشيخ رضي الله عنه أن يقذف الله به على الأغيار ويدفع عليه الأكوان حتّى تنمحي عن مشاهدته وتضمحل في نظره، أي طلب من الله دوام ذلك واستمراره.

وهناك وجه آخر، وهو أن يكون سأل الله أن يدفع به الأغيار بالنسبة لِمن تعلق به وانتسب إليه، ويصيره كالحق الدامغ للباطل المهلك له، فيظهر بواطن المنتسبين إليه منها. وأتَى بـ "على" التي للاستعلاء إشارة إلَى أن يكون الدفع به من علو لأنه أقوى في الدفع، وأسند الدفع إلَى الله تعالَى ليكون مدفوعاً بالله.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(وزُجَّ بي في بحار الأحدية)

الزَّجُّ هو الرمي، والأحدية مبالغة معنى الوحدة لأنّها لا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يمكن أن تكون أشد ولا أكمل منها. شبّهها المؤلف بالماء المروي العظيم المستبحر المتلاطم الأمواج تشبيهاً مضمراً في النفس، ودل على ذلك بإضافة البحار إليها، وذلك أنه من تحقق بِمشاهدة روحه صلى الله عليه وسلم أنتج له ذلك من المحبة ما حمله على سؤال الرمي في بحار الأحدية التي هي محل الفناء الكامل الذي تحصل معه الغيبة عن كل شيء حتّى عن نفسه وعن فنائه وعن توحيده إياه، إذ من شهد نفسه موحداً غير موحد عند أهل هذا الشأن.

وسؤال الشيخ نفعنا الله به ذلك غير مبال بِما قد يفضي إليه من التلف، لأن من كان في الله تلفه، كان على الله خلفه، وهذا هو الوجود الحقيقي عند هذه الطائفة، حتّى قال إمامهم أبو القاسم الجنيد نفعنا الله به:

وجودي أن أغيب عن الوجود ... بِما يبدو عليّ من الشهود

قوله رضي الله عنه ونفعني به:

(وانشلني من أوحال التوحيد)

قال في القاموس: يقال نشل الشيء نزغه وجذبه، والوحل الطين يرتطم فيه الدواب، وجمعه أوحال ووحول ووحل كفرح وقع فيه، ومعنى يرتطم أي لا تقدر على الخروج منه، يقال رطمه أدخله في أمر لا يخرج منه فارتطم، وارتطم عليه الأمر لا يقدر على الخروج منه. هـ.

والمعنى خلصني من أوحال التوحيد أي متشابهات أحكامه التي زلت فيها أقدام كثير من الناس، وهذا تأدب من الشيخ نفعنا الله به في سؤال خوض في بحار الأحدية واحتراز مما عرض من الاعتقادات الردية لمن لم يصحبه التأييد، إذ لا عاصم عند ركوب البحر من أمر الله إلا من رحم، فاحترز في طلبه عن حال من حال بينه وبين السنة المحمدية الموج فكان من المغرقين، وذلك أن من الناس من لبس عليه الأمر فقال بالحلول والاتحاد ، ومنهم من غلبت عليه الحقيقة فادّعى الجبر ونفي الحكمة والأحكام.

ويحتمل أن يكون سأله بقوله (وزج بي في بحار الأحدية) حال أهل الجذب المستدلين بالله على الأشياء، أي دوام ذلك، وبقوله (وانشلني من أوحال التوحيد) دوام التخلص مما يعرض للسالكين المستدلين بالأشياء على الله، من الشبهات.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(واغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا ارى ولا اسمع ولا اجد ولا احس إلا بها)

رجوع إلى سؤال البقاء بعد الفناء، ليصلح للخلافة، وذلك أن صاحب الفناء الأكبر وإن كان كاملاً فهو غير أكمل لعدم صلاحيته لتكميل غيره، فلهذا سأل الإغراق في العين التي هي لبحر الوحدة منشأ، فإنه يحصل معه الريّ ولا يخشى على صاحبه التلف.

ويحتمل أن يكون أراد بالزج في بحار الأحدية الدفع على وجه الإغراق، بل على سبيل الركوب والمرور لعلم ما فيها من الذخائر، وأراد بالنشل من أوحال التوحيد التخلص من كونه من أهل شهود التوحيد، لأن مشاهده مفروق، إذ هو مصدر وحّد فيقتضي موحِّداً وموحَّداً بصغيتي اسم الفاعل والمفعول، وأوحاله حينئذ شهود الأغيار، لأن أهله يستدلون بالأشياء على الله تعالى، وأراد بالإغراق في عين بحر الوحدة الفناء الكامل الذي هو دهليز البقاء، وطلبه في عين بحر الوحدة دون نفسها بحر ودون بحار الأحدية ليكون من أهل جمع الجمع، فيكون الجمع في باطنه موجوداً والفرق في ظاهره مشهوداً، وأضاف للوحدة البحر وللأحدية البحار لما سبق من أن الأحدية مبالغة

في معنى الوحدة، وهذا الوجه أظهر، والله أعلم.

وقوله حتى لا أرى الخ، هذه غاية الإغراق المذكور، وهي الغيبة عن الأكوان بشهود من كوّنها، وحينئذ يصير القلب واحداً بالله تعالى، وقد فسر قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله وترٌ يحب الوتر) أنه يعني القلب المنفرد له بحيث لا يرى في الدارين إلا هو، وهذا يصح له التخلق بِمعنى هذا الاسم الشريف فيكون واحداً في عصره بين أبناء جنسه.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي)

الحجاب الأعظم هو النبي صلى الله عليه وسلم كما سبق، وأشار بهذا بعدما قبله إلَى أن العارف إذا وصل إلَى حضرة القدس ومورد الأنس وفنَى في وجوده في هيبة مشهوده ثم فنى عن فنائه وصار مَمحواً صرفاً، لا غنَى له عن واسطة النبي صلى الله عليه وسلم، فـ "أل" في الحجاب للعهد والمعهود قوله (وحجابك الأعظم) أي اجعله حجاباً في حقي أي حاجباً عما فيها هلاكها، فتكون حية به متنعمة بِمعرفتك بسببه صلى الله عليه وسلم، فإن من لم يحتجب به وقع في المهالك وابتدع وضل وماتت روحه.

ولم يقل واجْعَله مع تقدم مرجع الضمير، لأن المناسب لكونه حياة التعبير بخصوص اسمه الحجاب، ولم يتقدم ذكره وحده حتى يتصرف الضمير له، بل تقدّم كثير من صفاته صلى الله عليه وسلم.

ولم يكتف بالعَهد عن إعادة الوصف بالأعظم بالإشارة إلَى أن مطلوبه ليس مطلق الحياة، بل الحياة المناسبة للأعظمية مع ما في التصريح من تكرير المدْح في مقام الثناء.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(وروحه سر حقيقتي)

ذكر الإمام الساحلي نفعنا الله به أن حقيقة الإنسان المراد بِها اللطيفة الربانية التي كان بِها الإنسان إنساناً، وتسمّى نفساً وقلباً وروحاً وسراً وباطناً، فهي أسماء لِمسمى واحد، واختلاف الأسامي باختلاف الصفات، فإن مالت لجهة النفس سُميت بالنفس، وإن تخلصت من مقام الإسلام إلَى مقام الإيمان سُميت بالقلب، وإن تخلصت منه إلَى مقام الإحسان ولكن بقي فيها أثر من النقص كأثر الجراحات بعد البُرْء سُميت بالروح، وإن ذهبت تلك الآثار وصفت بالسر، وإن أشكل الأمر سُميت بالباطن. هـ. وبه تتبين صحة الإضافة، ويظهر أن الشيخ رضي الله عنه طلب ألا تبقى حقيقته نفساً في مقام

الإسلام ولا قلباً في مقام الإيمان ولا روحاً في المرتبة الأولَى من مرتبتي الإحسان وهي أن تعبد الله كأنك تراه مُستحضراً أنه يراك، بل تصير بواسطة شهود روح النبي صلى الله عليه وسلم سراً في المرتبة الثانية من مرتبتَي الإحسان وهي أن تعبد الله كأنك تراه، وهذه نكتة التعبير بالسر.

وقوله واجعل روحَه على حذف مضاف، وكذا قوله سر على حذف مضاف أيضاً أي شهود روحه شغل سر حقيقتي حتّى تصير حقيقتي سرّاً.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(وحقيقته جامعَ عوالمي)

العوالِم هي النفس والقلب والروح والسر. سأل أن تكون كلها منصرفة إلَى شهود حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم الصادقة بعوالِمه الشريفة ومتوجهة إليها، أي اجعل شهود حقيقته جامعَ عوالِمي.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(بتحقيق الحق الأول)

يحتمل أن تكون الباء للتعدية متعلقة بِحال مقدرة، أي معيناً لِي على شهوده الآدمِي في عالَم الأجسام بأن تحقق لِي الشهود السابق في عالَم الأرواح يوم ألستُ بربكم، لأن نوره أشرق على الأرواح وشاهدُوه، وهو أول من أجاب بـ بَلَى إذ ذاك، أي حققه لِي الآن حتّى أستحضره وأستعين به على دوام الشهود، وذلك أن الإنسان يستعين بالسابق المعهود على ما هو من جنسه، فالمراد بالحق الأول الشهودُ السابق.

ويحتمل أن تكون الباء للقسم على حد أقسمت عليك ببسط يديك.

والحق الأول هو الله تعالَى، إذ هو السابق على كل حق، ومنه كان كل حق، وهو الحق سبحانه، ولذا عقبه بقوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن اسمعْ ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكرياء)

وهو نداء على وجه الاستعانة بالمنادى في سؤال شهوده صلى الله عليه وسلم، وإنّما ناداه بهذه الأسماء لِما فيها من الدلالة على الإحاطة والتنْزيه والقيومية، فالأول والآخر من أسماء الإحاطة، بتقديم الأول على كل أول، وإحاطة الآخر بكل آخر، فبه البدء وإليه الانتهاء، فليس قبله شيء، ولا بعده شيء، ويفيد أن التنَزه عن العَدم سابقاً ولاحقاً، وأنه القائم بكل شيء. والظاهر هو الواضح الربوبية بالدلائل، المحتجب عن الكيفية والأوهام، فهو الظاهر من جهة التعريف، الباطن من جهة التكييف، وقيل الظاهر العالي على كل شيء الغالب له من قولِهم ظهر عليه إذا علاه وغلبه، والباطن الذي

بطن كل شيء أي علم باطنه.

وقوله اسْمعْ ندائي الخ، أي اسْمعه سَماع قبول وإجابة، وأراد والله أعلم طلب الوارث لسره حتّى ينتفع به المؤمنون ويكون في ميزانه، ولذلك خص زكرياء من بين النبيين لطلبه الوارث بقوله ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ وقوله ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾. وقد استجاب الله تعالَى للشيخ رضي الله عنه بتلميذه سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه فاشتهرت طريقته وكثرت أتباعه وعم النفع به والحمد لله. فقوله (اسْمع ندائي) يرجع إلَى ما قبله من سؤال دوام الشهود وما بعده من التلحيح بطلب الوارث.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(وانصرني بك لك)

طلب أن ينصره الله وأن تكون نصرته به، أي منه إليه، على أيدي الوسائط والأسباب حتّى لا يقع نظر منها إليهم وليتخلص من رقية إحسانِهم والاحتياج إلَى مكافأتهم، ولأن النصرة منه أتم وأكبر، وأن تكون نصرته لله للقيام بإحسانه بِحقوقه وخدمته لا لِحظوظ نفسه، فذلك أن العارف تكون حظوظه حقوقاً لله تعالَى، لأنه يتصرف بالنية، والنية إكسير الأعمال تقلب أعيانَها.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(وأيدني بك لك)

طلب والله أعلم قوة اليقين وحفظ التوحيد عند نزول المرادات القهرية وحصول الرضا حتّى تصير البلية عطية. وقال الإمام الخروبي: هو من معنَى الأول إذ النصر والتأييد بِمعنًى واحد فالمرادُ التأكيد. وفي طلب الشيخ رضي الله عنه النصر والتأييد به سبحانه دليل على عدم تعلقه بالأكوان وإعراضه عنها.

وفي قوله (لك) دليل على اشتغاله له بِحقوق ربه وإعراضه عن حظوظ نفسه.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(واجمع بيني وبينك)

أي أدمْ ذلك الجمع وهو استغراق العبد في نور الشهود، فلا يبقى له حظ في غير محبوبه، ويحصل له بشهود انجماع مطلوبه.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(وحُلْ بيني وبين غيرك)

أي أدم تلك الحيلولة. قال في لطائف الْمِنَن: اعلم أن الحق إذا تولَّى ولياً صان

فوعزتي وجلالي لأفيضنَّ عليه من نوالي وجُودي وأنا الله الجواد الكريم وإنّي لا أختص لاسمِي إلا من ارتضيته لِي وأوليتُه على دائرة حضرتي فهو ولِي ما دام ذاكراً لِي. هـ.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)

روي أن هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم حين بلغ الجحفة في مهاجره، وقد اشتاق إلَى مولده ومولد آبائه إبراهيم فنَزل جبريل وقال له تشتاق إلَى مكة قال نعم فأوحاها إليه.

ومعنَى (فرض) أي أوجبَ عليك تلاوته وتبليغه والعملَ به.

وقوله (لرادك إلَى معاد) يريد مكة وقد ردّه إليها يوم الفتح، وقيل معناه لرادُّك بعد الموت إلَى معاد أي معاد ليس لغيرك من البشر، وتنكير المعاد لذلك.

والشيخ رحمه الله أتَى بها هنا ليشعر بالرجوع إلَى الشهود الحقيقي بعد الموت، فإن النبِي صلى الله عليه وسلم إذا وُعد بأمر دخل فيه أتباعه على حسب مراتبهم، وذلك أي الشهود هو المقصود بالذات عند العارفين من الثواب.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً)

هذا دعاء أهل الكهف حين إيوائهم إليه وانقطاعهم إلَى الله تعالَى بترك بلادهم وأموالِهم وعشائرهم، لما حصلوا لَهم من الأنس بالله فأقبلوا على خطابه تعالَى والتوجه إليه وطلب زيادة للهداية والتثبيت عليها لِحصول أصلها لَهم، وقد قدم نعت النكرة وهو من لدنك عليها فانتصب حالاً لأن مقصودهم إذ ذاك الستر، فكانت قوة طلبهم متوجهة إلَى كون الرحمة من ربّهم إليهم بلا واسطة، ولذلك جيء بـ (لدن) دون (عند) لأنّهما وإن تقاربا لكن لدن أخص من جهة دلالتها على الملاصقة المعنوية، والتنكير في رحمة للتعظيم.

وبعبارة أي رحمة من خزائن رحمتك وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء، وقوله (وهيئ) أي اجعل لنا من أمرنا أي مما نزل بنا هداية أي اهدنا إلَى وجه المخرج أو يسر لنا طريق رضاك.

والمؤلف رضي الله عنه أتى بِهذه الآية الكريمة ليشعر بمفارقة الخلق وهجرانِهم تعلقاً بالله وإقبالاً عليه طالباً أن تَهب عليه نفحات الرحمة من ربه وليكون أمره كله في ذلك رشداً وخيراً، أو أن يكون له حظ من حال أهل الكهف في الخفاء على الأضداد

وعدم اطلاع الأغيار، لأن ذلك اعتناء من الله بهم وإعزاز لَهم، وقد استجاب الله للمؤلف رضي الله عنه ونفعنا به فبلغه من الخفاء من أمره حتّى لم يعرفه إلا الشيخ أبو الحسن الشاذلي، ومن أجل ذلك لازم رضي الله عنه قنّة الجبل المسمى بالعلَم مبالغة في الانفراد عن الأغيار وصارت الطريقة تُنسب لتلميذه أبي الحسن الشاذلي الذي تخرج على يده نفعنا الله بهم. وقد جرت العادة عندنا بزيارته.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ بعد قوله ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ الآية، وليس ذلك من كلام الشيخ فاعلم ذلك. وهنا انتهى شرح الصلاة المنسوبة للقطب مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ونفعنا به، والحمد لله الذي هدانا لِهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

قال مقيده الفقير لرحمة ربه، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن العياشي كان الله له ولياً ونصيراً: هذا آخر ما تيسّر من التقييد... وافق الفراغ منه ضحوة يوم الاثنين الرابع وعشرين من ذي القعدة عام خمسة وثلاثين ومائة وألف، عرفنا الله خيره وبركته بمنه وكرمه.

ترجمة سيدي ابن زكري رضي الله عنه

قال سيدي محمد بن جعفر الكتاني رضي الله عنه في كتابه "سلوة الأنفاس، ومحادثة الأكياس، بمَنْ أقْبِرَ من العلماء والصالحين بفاس":

(الشيخ الإمام، العالم العلّامة الهُمام، المشارك المحقّق، الصوفي المدقّق، الحجّة الضابط الأزقى، الولِيّ الصالح الأتقى، أبو عبد الله سيدي محمد فتحا بن عبد الرحمن بن زكري، الفاسي المَوْلد والمنشأ والوفاة. كان رحمه الله في أوّل أمره يحترف بصناعة الدباغة مع والده، وكان والده مُصاحبًا لسيدي محمد بن عبد القادر الفاسي وملازمًا لمجلس تدريسه، وكان هو يحضر مع والده فيه، وكان لصِغَره يجلس في مؤخر الناس، وكان يبحث مع الشيخ كثيرًا ويسأله، وكان الشيخ يعجبه سؤاله ويستحسنه من غير أن تكون له به معرفة. ثم إنّه أقامه يومًا من المؤخَّر وأجلسه قريبًا منه، وقال له: مثلك لا يتأخر، ثمّ رآه يومًا وفي يده أثر الدّبغ فسأل عنه فقيل له: إنّه ولد سيدي عبد الرحمن بن زكري، وقال له والده: هو ولدي، فقال له الشيخ: وهل يخدم الصنعة، قال: نعم، فقال له الشيخ: إنه لا تناسبه الصنعة، وإنّما تناسبه القراءة لنجابته وفطنته، فأخْرِجه من الصنعة ولا تتركه فيها أصلاً واجْعله في قراءة العلم ولك أجره، وإن عجزت عن شيء من مؤونته فأنا أعينك؛ فأخرجه عند ذلك والده وتركه لقراءة العلم، فكان يقرأ حتى فتح الله عليه... وكان عالمًا عاملاً، صوفيًا كاملاً، ممن تقصر عن محاسنه الأقلام، وتكِلّ دون منتهاها ألسنة الأنام، أمْرُه أشهر من نار على عَلَم، فكأنه بدرٌ تمّ طلع في دَيْجور الظُّلَم، قد بَرَع في سائر الفنون، وغاص في لُجَجِها، فاستخرج منها نفائس الدُّرر المكنون، جامعًا لأدوات الاجتهاد، مائلاً إليه في الحكْم والاعتقاد، قادرًا على الاستنباط، عارفًا بما بَيْن العلّة والمعلول من جوامع الارتباط، بالغًا غاية الأَرَب، في تحقيق علوم الأدب من النّحو والتصريف واللغة والعَروض والقوافي والمعاني والبيان والبديع وصناعة الشعر والترسيل وأنساب العرب وأيّامها وتواريخ غيرها من الأمم السالفة وتراجم الأعيان وسائر المحاضرات، لا يُدْرك شأوه، وألّف تآليف عديدة مختلفة الأوضاع، عمّ بها في سائر الأقطار الانتفاع، منها:

- شرح الفريدة للسيوطي.

- شرح النصيحة.
- شرح الحكم العطائية.
- شرح الصلاة المشيشية.
- شرح القواعد الزروقية.
- الهمزية التي عارض بها همزية البوصيري.
- حاشية على توضيح ابن هشام، لم تكمل، بلغ فيها إلى المفعول المطلق.
- تعليق على البخاري.
- تفسير على مواضع من القرآن.
- أنظام وأشعار، وتآليفه كلّها في غاية التحقيق.

كان رحمه الله مُعْتنيًا بزيارة شرفاء أهل وزان، كالشيخ مولاي الطيّب الوزاني، فنفحتْ عليه أنوارهم، وظهرت عليه بركاتهم، وصحب تلميذهم الشيخ سيدي الحاج الخيّاط الرقّعي، فنفعه الله بصحبته. قال بعضهم: وأخبرني بعض الثقات عن غير واحد من العلماء أنّه رضي الله عنه كانت تحصل له غَيْبة فيرى النبيّ صلى الله عليه وسلم يقظة، ومما قيل في مَدْحه من نظم تلميذه الشيخ أبي محمد سيدي عبد المجيد بن علي الزبادي المنالي رحمه الله:

أجلْتُ فِي النَاس فِكْرِي ... فِي الصّحْو مِنّي وسُكْرِي
فلَمْ أجِدْ طُولَ عُمْرِي ... شيخًا كشيخي ابْنِ زِكْرِي

ومن نظمه أيضًا فيه:

يا أهْلَ وُدّي وسِرّي ... ومَنْ ثَوَوْا وَسْطَ صَدْرِي
إنْ شِئْتُمْ نَيْلَ ذُخْرِي ... عَلَيْكُم بابْنِ زِكْرِي

توفي رحمه الله ليلة الأربعاء ثامن عشر من شهر صفر الخير سنة أربع وأربعين ومائة وألف هجرية).

شرح المشيشية لسيدي ابن زكري، المأخوذ من كتاب: (الإلمام والإعلام، بنفثة من بحور علوم ما تضمّنته صلاة القطب مولانا عبد السلام) لسيدي ابن زكري رضي الله عنه

كتاب (الإلمام والإعلام) يحتوي على:

1. المقدمة الأولَى في كيفية خلق النبيّ ﷺ وبيان صفات ذاته الشّريفة لِيكون ذلك طريقًا لتشخيص المصلّى عليه.

2. المقدمة الثانية: فيما يُثمره ذلك التشخيص والانطباع من رؤيته التِي هي أسنَى المطالب وأعظم الوسائل والرغائب.

3. شرح أول للصلاة المشيشية.

4. شرحٌ ثاني للصلاة المشيشية.

الشرح الأول لسيدي ابن زكري للصلاة المشيشية، مذكور في كتاب (شموس الأنوار، ومعادن الأسرار، على صلاة القطب الأكبر، مولانا عبد السلام بن مشيش) لشيخي سيدي محمد المرون قدس الله سره.

كتابي (رياض الحقائق، وحياض الدقائق، على صلاة القطب الفائق، مولانا عبد السلام بن مشيش) يتضمن المقدمة الأولَى والمقدمة الثانية والشرح الثاني لسيدي ابن زكري للصلاة المشيشية.

مقدمتان لسيدي ابن زكري

الحمد لله الذي جعل مدد النبوءة مستمرة السريان في الأمة، وأبقى نورها دائم الإشراق في القلوب فضلاً منه ورحمة، وأقام أهل العلم لتغينات نورها مظاهرا فصار فيضان فَضلها لكل ذي لب من السر الظاهر. نحمده على أنْ جعلنا بمحض منته من المسلمين، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين، ونشكره على أن جعل لنا حظاً منه بمحبته ذوي الهدى، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً، ونسأله ألا يجعل لمضل علينا سبيلا، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً.

ونشهد أن لا إله إلا الله، ما علينا إلا خيره، بل أصْل وجودنا إحسانُه وبره، ومع اتصافنا بِما يستقذره الأقارب، فضلاً عن الأجانب، وينفر منه الصاحب، فضلاً عن المجانب، قد غطّانا ستره، ومن نحن لولا عظيم فضله حتّى يجري على ألسنتنا ذكره.

ونشهد أن سيدنا ونبينا وشفيعنا وحبينا ومولانا محمداً عبده ورسوله منبع ذلك المدد، وإمام الدائرة والعدد، ومن نرجو أن يشفع فينا ويحسن إلينا يوم لا يجزي ولدٌ عن والد ولا والد عن ولد، صلى الله عليه وسلم صلاة تزعجنا لسلوك سُبل الرشد للمسلمين أَسُوسُ وعُمد.

أما بعد، فهذا تقييد يتضمن بطريق الإشارة شرح صلاة سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله إمام الطريقة، الجامع بين الشريعة والحقيقة، أبِي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جواز مَنْ صلى عليه بهذه الصلاة مأواه، عَبّرت عن معانيه بأسجاع تستلذها الأسماع، ويستحليها مستقيم الطباع، فإن السجع أخو الشعر في إثمار انفعال القلوب، لاسيما إن تضمن ثناء ومدحاً لمن هو فيها عظيم ومحبوب، فكيف بمن هو صدْر صدور العالَم، وسيد ذوي السؤدد ممن تأخر أو تقدم، ومن هو أحب إلى كل مؤمن من ماله ووالديه وولده بل من نفسه التِي بين جنبيْه فضلاً عن جسده، وصدرت تلك الأسجاع بالصلاة على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليكون قارئه جامعاً بين تحصل المعاني العلمية، وأشرف العبادات العملية، مع ما تنتجه تلك المعاني والعبارات من محبته التِي هي روح الإيمان، وأعظم علامات

السعادة والأمان، وقصدت مع ذلك أن يكون مشوقاً لقراءة تأليف قطب الأقطاب وغوث الأغوات العارف بالله تعالى سيدنا الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي نفعنا الله بعلومه، وأمدنا من بحر فتوحاته وفهومه، وسَميتها بـ "**الإلمام والإعلام بنفثة من بحور علم ما تضمنته صلاة القطب مولانا عبد السلام**"، ورأيت أن أفتتحه بمقدمتين: إحداهما في كيفية خلق النبي صلى الله عليه وسلم وبيان صفات ذاته الشريفة، ليكون ذلك طريقاً لتشخيص المصلي عليه لها واستحضارها إياها كي تنطبع في مرآة قلبه ويألفها، والثانية فيما يثمره ذلك التشخيص والانطباع من رؤيته التي هي أسنى المطالب، وأعظم الوسائل والرغائب، رزقنا الله وإياكم ذلك بمنه وكرمه، آمين، وبالله أستعين.

المقدمة الأولى في كيفية خلق النبي صلى الله عليه وسلم وبيان صفات ذاته الشريفة

اللهم صل على من تتأكد على المؤمن معرفة صفاته، اللهم صل على من تعين معرفة صفاته على شهود ذاكره لذاته، اللهم صل على من تفيد معرفة صفاته التمييز بين الرؤية الكاملة والناقصة، اللهم صل على من يعرف رائيه بذلك كونه كامل الاتباع أو نقصانه، اللهم صل على من أعطي الحسن كله، اللهم صل على من قال فيه سيدنا علي: لم أر قبله ولا بعده مثله، اللهم صل على من سَترت حسنه بالهيبة والوقار، اللهم صل على من بذلك استطاعت رؤيته الأبصار، اللهم صل على من تزينت الأكوان بوجوده وكونه، اللهم صل على من كان يزهر المكان المظلم من إشراق لونه، اللهم صل على من أعطى سيدنا يوسف شطر حسنه، اللهم صل على من وقع في مشاهدته ما هو أعظم من غيبة النسوة اللاتي قطَّعْن أيديهن عن الآلام، اللهم صل على من غيبَ شهوده من لا يقاس بهن لرصانته وتثبته من الأئمة الأعلام، اللهم صل على من جعل أبو دجانة نفسَه تُرساً له ولم يحتفل بوقوع النبل في جسمه، اللهم صل على من أعطاه السيف فخرج يتبختر بين الصفين ويتلذذ في شغره باسمه، اللهم صل على من فرحت المرأة بسلامته التي قُتل بأُحُد أبوها وزوجها وأخوها وابنها وقالت كل مصيبة بعدك جلل، اللهم صل على من وقاه طلحة بنفسه ولم يُبال بما حصل بجسمه من الطعْن وليده من الشلل، اللهم صل على من وقع مثل ذلك لأهل معرفته مع تأخرهم عن عصره، اللهم صل على من لم يقم مالك بن أنس مع تغدد لدْغ العقرب له تعظيماً لحديثه وذكره، اللهم صل على من وقع في الشوق له والتلذذ بقربه ما هو من هذا أغرب، اللهم صل على من شُوهد من الحيوانات والجمادات عند فراقه ما يُتعجب منه

ويستغرب، اللهم صل على من حزنت لموته ناقته حتى ماتت لم تأكل ولم تشرب، اللهم صل على من ألقى حماره يعْفُورُ بنفسه في بئر يوم موته فمات شوْقاً، اللهم صل على من بكى الجذع لفراقه وصاح حتى أحدث الصياحُ فيه شقاً، اللهم صل على من حَنَّ له الجذع حتى ارْتج المسجد لصياحه وكثر بكاء الناس فلم يسْكن حتى وضع يده عليه، اللهم صل على من قال في حقه الحسَن هذه خشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقاً إليه لمكانه من الله فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه، اللهم صل على من كان إذا تبسّم صارت الجدرات من ثغره ساطعة، اللهم صل على من قالت فيه الربيع بنت معوذ لو رأيته لقلتَ الشمس طالعة، اللهم صل على من سقطت في بيت عائشة إبرة فأبْصرتْها بضياء طلعته، اللهم صل على من كانت ضحى جبينه تلمع تحت ليل طرّته، اللهم صل على من كان إذا ظهر في غسَق الليل ذهب نوره بظلمته، اللهم صل على من كان يرتسم شخص الجدرات في وجهه كما يرْتسم في المرآة لصفائه، اللهم صل على من كان أكابر الصحْب لا يملأون أعينهم منه لِهيبته وبهائه، اللهم صل على من كان لشدة حسْنه يُعْرف في وجهه غضبه من رضائه، اللهم صل على من كان لا يرتسم له ظل في شمس ولا قمر، اللهم صل على من كان جسمه نورانياً شفافاً لا يمنع الناظر من النظر، اللهم صل على من قال فيه حسّان: لما نظرتُ إلى أنواره وضعت كفّي على عيني خوفاً من ذهاب البصر، اللهم صل على من قال فيه أيضاً لم أستطع أن أنظر إليه لقوة الأنوار إلا على قَدر، اللهم صل على من كان وجهه أبهج من الرؤض إذا أزهر وأنْضر من الغصْن إذا أثمر، اللهم صل على من أوحيْتَ في شأنه إلى عيسى: آمنْ بحبيبي أحمد بن عبد الله صاحب الوجه الأقمر، اللهم صل على من كان فخماً مفخماً، اللهم صل على من كان في العيون والقلوب معظماً، اللهم صل على من قال فيه أبو بكر: كان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كدارة القمر، اللهم صل على من رُوي في إشراقه واستنارته مثل هذا عن عمر، اللهم صل على من قال فيه جرير بن عبد الله فوعيْش محمد لقد رأيت وجهه أحسن من البدر، اللهم صل على من أراد واصفوه بذلك الليلة الرابعة والخامسة بعد العشر، اللهم صل على من كان في وجهه تَدوير مع بعض طُول وذلك عند التمييز أعلى، اللهم صل على من لم يكن في خده ارتفاعٌ ولا تفاوتٌ بل كان مستوياً سهلاً، اللهم صل على من كان في حاجبيه تقويس وامتداد إلى مؤخر العَين، اللهم صل على من كان في حاجبيه دقة واستواء يعلوهما بهاء وزين، اللهم صل على من كانت حواجبه تشْبه بمخكَم النُونات، اللهم صل على من كانت أطراف شعَره المصفوف فوق جبهته تشبه برؤوس السينات، اللهم

صل على من كان ما بينهما من جبهته كلوح فضة ما زجرته حمرة الذهب، اللهم صل على من إذا تجلى جمال وجهه لقلوب الناظرين بها ذهَب، اللهم صل على من لو قيل لِمن رأى محاسنه أتَهَب الروح في نظرة أخرى وَهَب، اللهم صل على من كان حاجباه لا تفوت شعرة منهما في منبت ولا انتهاء أخرى، اللهم صل على من إذا أراد الباحث عن محاسنه عضو منه أن يحصيها لم يحط بِها خبراً، اللهم صل على من كان ما بين حاجبيه أبلج من الشعر عارياً، اللهم صل على من كان ما بين حاجبيه كقطعة كافور بين خَطي مسك بادياً، اللهم صل على من يرتفع الحجاب عن المحجوب إنْ بدا منه الحاجب، اللهم صل على من لم يكن بينه وبين الضعيف والغريب والعبْد والأمَة حاجب، اللهم صل على من جعلته لِموسوط الخليقة عن التلف الذي يوجبه التلقي منك حاجب، اللهم صل على من كان أهدب الأشفار أكحلها من غير اكتحال، اللهم صل على من إذا واجهت نظرة منه القلب عجّل عن العوالِم إليه الارتحال، اللهم صل على من كان لعينيه اتساع يشرع لناظره الاتساع، اللهم صل على من تبدل النظرة إليه جميع النفوس بالانقياد والاستماع، اللهم صل على من كان شديد الحدقة له خُطوط حمر في بياض العين، اللهم صل على من يحق أن يُنفق العاقل على القرب منه سويْداء القلب وسواد العين، اللهم صل على من إذا أتاه المحب بذال ولام تَلقاه منه الزاي والعين، اللهم صل على من جعلتَ مشاهدتك في الصلاة عليه التي هي محل تمام العبودية له قرّة العين، اللهم صل على من لما تَمت عبوديته كمل شرفه ففاز ليلة الإسراء برؤية العين، اللهم صل على من حاز الكمال الحسي والمعنوي فكان لعيون ملتك إنسان العين، اللهم صل على من كان يرى مَن خلفه على سبيل خرْق العادة بمعتاد العين، اللهم صل على من كان يرى البعيد كما يرى القريب بما أودعت فيه من قوة نور العين، اللهم صل على من عصمتَه من الأعداء لما كادوا أن يصيبوه بالعَيْن، اللهم صل على من دعا لابن عوْف بالبركة فحفرت بالفؤوس في تركته العَيْن، اللهم صل على من تَفل على رمد علي فبرئت ساعتئذ منه العين، اللهم صل على من ردّ عيْن قتادة بعد سقوطها على خده فصار لَها من الحدة ما لم يعهد للعَيْن، اللهم صل على من بصق في بئر تبوك وكان بِها ماء قليل ففاضت بالماء من بركتها العيْن، اللهم صل على من للإعلام بكمال حياطته والاعتناء به جُمعت في آية أمْره بالصبر على تكذيب قومه العَيْن، اللهم صل على من كان في جل أحواله ينظر من أجل الحياء بِمؤخر العين، اللهم صل على من كان يرى دقيق الأشياء في الليلة الظلماء، اللهم صل على من كان يرى في الثريا أحدَ عشر أو اثني عشر نجما، اللهم صل

على من كان لا يَليق عنقه يميناً وشمالاً ولا يسارق النظر، اللهم صل على من كان نحيائه وتواضعه وفكره يخفض الطرف إذا نظر، اللهم صل على من كان لأنفه الشريفة استقامة ودقة أطراف، اللهم صل على من كان لطرَف أنفه القدْر المحمود من الإشراف، اللهم صل على من كان لأنفه من المحاسن حدب الوسط، اللهم صل على من كان في قصبة أنفه ارتفاع وَسَط، اللهم صل على من كان لأنفه من الطول القدْر المعتدل السالِم من الشطط، اللهم صل على من كان لأنفه نورٌ يعلوه فيخفي حدبه، اللهم صل على من يظن من لم يتأمله لأجل ذلك ارتفاع أعلى القصبة، اللهم صل على من كان أحسن الناس شفتَين وألطفهما انطباقاً، اللهم صل على من كان إذا فتح فمه فاح الطيبُ واستبَق النور استباقاً، اللهم صل على من كان إذا تبسم يظهر مثل سنا البرق أو حَب الغمام، اللهم صل على من قال فيه جرير بن عبد الله تكلم فظننت الدر ينتثر من شفتيه عند الكلام، اللهم صل على من كان لفمه الشريف اتساع أي اعتدال، اللهم صل على من كان لأسنانه على الدقة والبرد والعذوبة والصفا اشتمال، اللهم صل على من بين أعلا ثناياه انفراج وهو من أوصاف الملاحة، اللهم صل على من تكاملت له بذلك الفلج البديع أسبابُ الفصاحة، اللهم صل على من كان ريقه يصير به الماء المالِح عذباً، اللهم صل على من كان ريقه يكفي الرضيع فلا يطلب معه من لبن أمه شرباً، اللهم صل على من مجّ من ريقه في بئر ففاحت رائحة المسك منها، اللهم صل على من بصَق في بئر بدار أنس فلم يجدوا لها بالمدينة في الحلاوة شبهاً، اللهم صل على من حفظته من التثاؤب المشوه لصورة الإنسان، اللهم صل على من حفظته من التمطي لأنه من الشيطان، اللهم صل على من كان حلو المنطق عذب الكلام، اللهم صل على من كان كلامه يلج القلوب فيَحُلها النور ويفارقها الظلام، اللهم صلى على من كان كلامه للتعريف بآداب حضرة قدسك ألفاً ولام، اللهم صل على من كان كلامه نزهة للسامع وقوتاً للأرواح، اللهم صل على من كان كلامه ينتقش في الصدور انتقاش الكتابة في الألواح، اللهم صل على من كان كلامه مفيداً للعلم النافع، اللهم صل على من كان كلامه معرفاً بالمضار والمنافع، اللهم صل على من كان إذا تكلم يُريك الحق عياناً، اللهم صل على من كان أقوى الفصحاء فصاحة وأوضح البلغاء بياناً، اللهم صل على من صَير كلامَه المشكلَ بيناً والخفي واضحاً، اللهم صل على من أوتِي فصل الخطاب فميز كلامه الحق وصار لكل باطل فاضحاً، اللهم صل على من كان كلامه قليل الألفاظ جامعاً المعاني، اللهم صل على من كان يعيد الكلمة ثلاثاً فيريح من التكلف لحفظها العاني، اللهم صل على من كان كلامه مرتلاً مفَصلاً

يتبع بعضه بعضاً، اللهم صل على من كان يُنْزِل كلامه المتمنعَ الصعبَ ويُصيره للأفهام أرضاً، اللهم صل على من كان كلامه جزلاً مبيناً لو شاء العاذ لعدّه، اللهم صل على من كان يتكلم بجوامع الكلم فلا يفي الراسخُ في العلم بتفسيرها وإنْ جهد جهْده، اللهم صل على من كان كلامه لفتح الآذان الصمّ والعيون العمي والقلوب الغُلف حرزاً، اللهم صل على من يتجلى كلامه بحلل القبول فتشربه القلوب، إذ كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز، اللهم صل على من يزداد كلامه حلاوة مع تطاول الأعصار، اللهم صل على من كلامه أنوار ساطعة ومعارف طالعة لأولي الأبصار، اللهم صل على من تتلقى الأرواح كلامه كما تتلقى الأرض الميتة وابلَ المطر، اللهم صل على من يعي كلامه كل من سمعه فيقضي مِن المعنى الذي أفاده الوطر، اللهم صل على من كان يسبق بَرقُ نوره سحاب قوله، اللهم صل على من إذا حل سابقُ نوره في محل ألقى فيه تعبيره غزير وبله، اللهم صل على من كان كلامه على قدر الحاجة ليس فيه تكثير ولا تقليل، اللهم صل على من قالت فيه أم معْبَد كان منطقه خزرات تظمن يتحرزن، فأحسنت التمثيل، اللهم صل على من تضمن كلامه من الإخبار بالمغيبات ما لا يفي الحصرُ بأعداده، اللهم صل على من قال إن الله قد زفع لِي الدنيا فأنا أنظر إليه وإلَى ما هو كائنٌ إلَى يوم القيامة كأنّما أنظر إلَى كفي هذه، اللهم صل على من قال لسُراقة كيف بك إذا لبسْتَ سوارَ كسْرى، فألبسه إياهما عُمر، اللهم صل على من أخبر بسيادة الحسَن وأن الله سيصلح به فئتين عظيمتيْن من المسلمين، فكان الأمر كما ذكر، اللهم صل على من أخبر بقتل الحسيْن بكرْبلاء فأبرز ذلك في وقته نافذ القدر، اللهم صل على من أخبر بأويس القرني وبِما تحت إبطه من العلامة فكشف عنه لصاحبه حتى ظهر، اللهم صل على من أخبر فاطمة بأنها أول أهله لحوقاً به، فكان ذلك، اللهم صل على من أخبر بعالِم قريش وهو الشافعي، وبعالِم المدينة وهو مالك، اللهم صل على من أخبر قريشاً بأكل الأرَضَة ما في صحيفتهم إلا اسمك فوجدوا خبره للواقع مطابقاً، اللهم صل على من أخبر بغزو أمته مدينة قيصر فوقع ذلك لما أخبر به موافقا، اللهم صل على من كان سهل الصوت لينَه وكان أحسن الناس نغمة، اللهم صل على من لم تكن في صوته حِدّة بل بحَة مستحسنة يُذهب سماها عن المغموم غمّه، اللهم صل على من كان صوته مع ذلك يبلغ حيث لا يبلغ صوت غيره، اللهم صل على من كان إذا خطب أو قرأ يسمعونه مِنْ منازِلهم فيستفيدون وهم فيها مِنْ خيره، اللهم صل على من جانبا عَنفقته كاللؤلؤ الأبيض، اللهم صل على من عمِل له يهود عملاً فقال اللهم جمله فاسودّ شعرُه بعد أن شاب وابيض، اللهم صل على من

كان لشعره مع شدة سواده لَمعانٌ وإشراق، اللهم صل على من كان لشعره مع قليل التثني تَموج يحصل للقلب في شهوده استغراق، اللهم صل على من كان شعر رأسه يختلف طولاً وقصراً باختلاف الأوقات، اللهم صل على من كان يسدل ثم فرَقَ فكان كل فرْقة كجناح الغراب على جانبها ملقات، اللهم صل على من كان إذا جعل شعره على أذنيه تلألأت سوَالفُه تلألؤ يخجل البصر، اللهم صل على من كان ربّما جعل شعَره غدائر أربعاً تخرج كل أُذن بين غديرتين تتوقد توقد الكوكب بين سواد الشعر، اللهم صل على من كان مِزاجه أعدل الأمزجة فلم يشب منه إلا نحو العشرين شعرة في رأسه ولِحيته، اللهم صل على من شَيب شيبه ما في هُود وأخواتها من عقوبة الأمم فخاف على أمته، اللهم صل على من كان شيبه كأنه خيوط فضة بين شعره الأسود، اللهم صل على من كان إذا مسّه بصفرة صار بين سواد الشعر كخيوط العسجد، اللهم صل على من لم يحلق رأسه إلا في حج أو عمرة، اللهم صل على من لم يخضب شيبه في الأغلب لقلته وإنّما كان يَمسه بالطيب بِما فيه صفرة، اللهم صل على من كان ينظر في المرآة والآنية فيسوي من رأسه ولحيته إذا خرج إلى الرجال، اللهم صل على من قال إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفْسه فإن الله جميل يحب الجمال، اللهم صل على من كان أبيض قد علتْ بياضَه حمرة، اللهم صل على من كان واسع اللحية قد كادت تَملأ نَحره، اللهم صل على من لم يكن بارز البطن بل ساوى بطنُه صدْرَه، اللهم صل على من أخذ عنقه من الطول والقصر محكم القدْر، اللهم صل على من كان ما برز من عنقه عن الثوب كفضة أشربت بالذهب وما تحت الثوب كالقمر ليلة البدر، اللهم صل على من كان بعيد ما بين المنكبيْن عريض الصدر، اللهم صل على من كسِيَ حلة الجمال والمهابة فتمت له الفخامة، اللهم صل على من كان لرأسه الشريف وأعالِي عظامه الظاهرة القدْرُ المحمود من الضخامة، اللهم صل على من لم يكن في لَحمه استرخاء بل كان متماسك البدن، اللهم صل على من تنَزه جسمه الشريف عن وصف النحافة وإفراط السمن، اللهم صل على من لم يكن في قده القويم قصر ولا استطالة، اللهم صل على من لم يماشه طويل الناس إلا طاله، اللهم صل على من كان إذا جلس تكون كتفه من جميع الجالسين أعلى، اللهم صل على من في ذلك إشارة إلى أنه بأكمل المراتب وأجل المناصب أحق وأولَى، اللهم صل على من كان خاتَم النبوءة يسطع مسْكاً في أعلى كتفه اليسرى، اللهم صل على من كانت خاتم نبوءته كبيضة الحمامة وكالتفاحة المتوسطة قدْراً، اللهم صل على من قيل في وصف خاتَمه لأجل الشعر المتراكم حوْلَها هي شامة خضرا، اللهم

صل على من لّما ملأت قلبه حكمة ويقيناً ختمت عليه كما يُختم على الوعاء المملوء ياقوتاً ودرّاً، اللهم صل على من كان واسع الظهر مستنيره، اللهم صل على من كانت سلسلة ظهره دقيقة منيرة، اللهم صل على من كانت عكن بطنه أحسن من سبائك الفضة الخالصة والذهب المنير، اللهم صل على من كانت بطنه أصقل من المرآة وألين من الحرير، اللهم صل على من كانت عكن بطنه وضيئة كأنّها القراطيس، اللهم صل على من كان إذا مسّ أحداً كان مسّه لإنقاذه من اشر مغناطيس، اللهم صل على من احتضن زاهراً فجعل زاهرٌ لا يمكنه أن يلصق به ظهره إلا ألصقه، اللهم صل على من قال له عند ذلك أنت عند الله غالٍ فأنتج له المس البشارة المحققة، اللهم صل على من أرْدف معاوية وسأله ما يليني منك قال بطني فقال اللهم املأه حلماً وعلماً، اللهم صل على من اعتنقه سَواد بن غزية وقبّل بطنه فدعا له فنال من القرب سَهماً، اللهم صل على من كان مؤصول ما بين اللبّة والسرّة بشعر دقيق أسود، اللهم صل على من كان أشعر الذراعين والمنكبيْن وأعالي الصدر وما سواها أجرد، اللهم صل على من كان لقصبة عَضُديه وذراعيه وساقيْه طُول واستقامة واستواء، اللهم صل على من لم يكن في أعصابه تعقد ولا تفاوت ولا التواء، اللهم صل على من كان لحيم الكفين رحْب الراحة، اللهم صل على من في ملاقاة كفه المباركة من الأمراض الحسية والمعنوية راحة، اللهم صل على من وضعَ كفه على مريض فعقل من ساعته، اللهم صل على من مسّ عمر بن الخطاب بيده وهزه فأسلم وأجاب لطاعته، اللهم صل على من مسح صَدْر مجنون فقاء من جوفه مثل الجزو الأسود، اللهم صل على من مسّ رأس أقْرع فنبت الشعر فيه من حينه واسود، اللهم صل على من مسحَ رؤوس أقوام فشاب غيرُ ما مسّه وبقي ما مسحه مُسْود، اللهم صل على من مسح على امرأة برصاء فذهب عنها البرص، اللهم صل على من مسح ضرْع شاة لم يقربها الفحل فحلبت ثم قال أقلص فقلص، اللهم صل على من غرف بيديه في رداء أبي هريرة فما نسي بعده حديثاً، اللهم صل على من ضرب فرساً عجفاء في متأخر الناس فسبقتهم وحثت حثيثاً، اللهم صل على من مسح رجْلاً انكسرت فعادت كأحسن ما كانت هيئة وقوة، اللهم صل على من مسح ساق علي بن الحكم وقد دقها جدار الخندق فبرئ وذهب يعدو عدوه، اللهم صل على من كملتْ له مرتبة الخلافة في الخليقة وجُعلت له على انفعال المكونات أيادي، اللهم صل على من أعطيت يده في البطش قوة بضع وأربعين من الأيادي، اللهم صل على من جعلت في المبايعة يده يدكَ من غير إدخال كاف التشبيه ولا لام مِلك فسادتْ بذلك جميع الأيادي، اللهم صل على من شرفت بتلك الفوقية ما كان تحت

يده الشريفة من الأيادي، اللهم صل على من جعلته الواسطة العظمى ووصلتْ إلى خلقك على يديه الأيادي، اللهم صل على من كان أوسع الناس عطاء وأنداهم راحة وأطولَهم أيادي، اللهم صل على من سخرت له الخلق واستعملتهم في خدمته وجعلتهم لتنفيذ أوامره أيادي، اللهم صل على من جعلت المؤمنين به يداً واحدة على من سواهم ولم تجعلهم لمفسدة الافتراق أيادي، اللهم صل على من تُورثُ محبته مقام الشكر فيفهم محبته العطاء في المنع وتصير النقمُ عنده أيادي، اللهم صل على من إذا رُفعت الأكف عند قبره الشريف ومدّت الأيادي رجعت بعظيم الأيادي، اللهم صل على من صلوات المصلي عليه يوم الجزاء عنده أيادي، اللهم صل على من يكافئ على اليد الواحدة بما لا يُقدر على إحصائه من الأيادي، اللهم صل على من قال لعَلِي بن الموفّق في النوم لما حج عنه حججاً هذه يد لك عندي أكافئك بها يوم القيامة وآخذ بيدك فأدخلك الجنة، فكافأه بالأصل الجامع للأيادي، اللهم صل على من شكوا له القحطَ فرفع يديه لك فأصببتَ عليهم غزير الأيادي، اللهم صل على من رمَى الجيوش يوم بدر وحنَيْن بقبضة من تراب فكان ذلك لهزمهم أقوى من القتال بالأيادي، اللهم صل على من أمسك عوداً يابساً فاخضر في يده الكريمة وأورق، اللهم صل على من كانت كفه من الحرير ألين ومن المسك أطيب ومن القمر أشرق، اللهم صل على من كانت كفه كأنّها كفّ عطار مسّ طيباً أو لم يمسه، اللهم صل على من كان يصافحه المصافح فيظل يومه يجد الطيب ويستحلي مسّه، اللهم صل على من كان يضع كفه على رأس الصبِي فيعرفون لريحها من بين رؤوس الصبيان رأسه، اللهم صل على من سبّح في كفه الحصى وسمع الحاضرون كالنحل حسّه، اللهم صل على من كانت أصابعه أحسن من قُضبان الفضة في الإشراق والجمال، اللهم صل على من نبعَ من بين أصابعه الماء العذب الزلال، اللهم صل على من أحيا بذلك الماء من خيار الأمة فئة، اللهم صل على من رحمهم به فشربوا وتوضؤوا وكانوا ألْفاً وخمسمائة، اللهم صل على من كان لساقيْه دقة واستقامة، اللهم صل على من لعَقِبه قلة لحم تزين قِوامه، اللهم صل على من كان أحسن أهل الحسْن قدماً، اللهم صل على من كان أثبت الناس في الحروب فؤاداً وأسرعهم إلى اللقاء قدماً، اللهم صل على من كان لقدمَيْه لينٌ وملاسةٌ تُوجب للماء التباعد والاندفاع، اللهم صل على من كان وسط قدميه متوسطاً بين الاستواء والارتفاع، اللهم صل على من كان يمشي برفق وسكينة وحلم ووقار، اللهم صل على من مع ذلك سريع المشية كأنّما ينحط في انحدار، اللهم صل على من كان أصحابه يُجهدون أنفسهم ولا يلحقونه كأنّما الأرض تُطوى له، اللهم صل على من كان

لا يكترث لاستعجالهم ولا يفارق أناته واعتداله، اللهم صل على من كان قوي الأعضاء واسع الخطوة، اللهم صل على من كان يقبل على جهة مَشْيه ويرفع رجله عن الأرض بقوة، اللهم صل على من كان يبغض مشية المتبختر المختال، اللهم صل على من قال في تبختر أبي دجانة بين الصفين إنّها مشية يبغضها الله إلا في مثل هذا المجال، اللهم صل على من كان يسوق أصحابه بين يديه ويقول خلوا ظهري للملائكة، اللهم صل على من كانت الأملاك تتبعه حيث ما سار وتسلك مسالكه، اللهم صل على من كان عرقه كاللؤلؤ في البياض والصفا، اللهم صل على من كان شمّ عرقه يغني عن المفرحات في السرور والشفا، اللهم صل على من قال فيه أنس كان عرقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب الطيب، اللهم صل على من كانت أم أنس تجمع عرقَه وتتطيب به فيكون لَها عند أهل المدينة شأن عجيب، اللهم صل على من أعطى لامرأة من عرقه فكانت إذا تطيبت به شمّه أهل المدينة ولم يجدوا له في الطيب شبهاً، اللهم صل على من كان إذا مرّ في طريقه أحد عرف من طيب عرقه وعرفه أنه مرّ منها، اللهم صل على من كان تشم رائحة المسك مما يخرج منه وتبتلعه الأرض لوقته، اللهم صل على من شرب دمه عبد الله بن الزبير ففاح فمه مسكاً وبقيت رائحته في فيه إلى موته، اللهم صل على من كان لإبطيه بياض ونظافة ورائحة طيبة، اللهم صل على من كان يكثر استعمال الروائح الحسنة فيُضيف إلى طيبه تطيّبه، اللهم صل على من كان يواظب التطيب لملازمة الملائكة له وتعليم الأمة، اللهم صل على من كان حبّه مقصوراً عليك وإنّما حُبّب له الطيب لهذه الحكمة، اللهم صل على من أشار بقوله حُبب دون أحببتُ إلى الفرق بين المحبة والتحبيب، اللهم صل على من أفهمتْ بلاغةُ كلامه السابق أصالةَ محبتك وعروضَ محبة الطيب، اللهم صل على من أكّد الفرق بنسبة الدنيا إلى المخاطبين دونه، اللهم صل على من بلّغ عنه نساؤه من الأحكام ما يستحي الرجال من السؤال عنه فلا يبدونه، اللهم صل على من حُبب إليه النساء لهذه الحكمة، اللهم صل على من حبب له النساء للتباهي يوم القيامة بتكثير الأمة، اللهم صل على من استبان من هذا أن قرّة عينه ليست إلا بشهودك، اللهم صل على من أشرتَ بقولك ﴿ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ دون فافرح إلى أن فرحه بك وفرح غيره بإحسانك وجُودك، اللهم صل على من كان بشري الظاهر ملكوتي الباطن، اللهم صل على من لم يأت البشرية إلا تأنيساً وتشريعاً فيما تمحّض لها من المواطن، اللهم صل على من جعلت له بشهودك عن أحوال البشرية غنًى، اللهم صل على من قال عمر عند موته والله يا رسول الله ما أكلت ولا شربت ولا نكحت إلا لنا، اللهم صل على من قال فيه

الشاذلي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراً ليس كالأبشار، اللهم صل على من قال فيه أيضاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كالياقوت بين الأحجار، اللهم صل على من كان يتطيب بالمسك والعنبر والغالية، اللهم صل على من لما كان له من الحسن الوهبي أعلى المراتب كان له في الكسبي الهمة العالية، اللهم صل على من كان يأخذ المسك فيمسح به رأسه ولحيته، اللهم صل على من أشرفَتَ على المقامات مقامه وشرفتَ على الحلى حليته، اللهم صل على من كان يتبخّر بالكافور مع العود وبالعود وحده، اللهم صل على من أخذ من كل حسْن أحسنه ومن كل كمال حَدّه.

المقدمة الثانية في رؤيته صلى الله عليه وسلم نوماً ويقظة وبيان انطباع صورته في مرآة قلب المصلي عليه

اللهم صل على من لا يستطيع الشيطان أن يتصور به لكرامته عليك، اللهم صل على من لا يستطيع الشيطان أن يتصور به لأن ذلك ينافي إرشاده في الرؤيا إليك، اللهم صل على من حجبتَ حسْنه عن الشيطان فلم يمكنه التشبه بما جهله، اللهم صل على من لو رأى الشيطان نوره في وجه آدم لكان أول من سجد له، اللهم صل على من كانت رؤيته تحصل لرائيه من العلوم ما يعجز عن تحمله الحفظة، اللهم صل على من لا يستطيع الشيطان أن يتلاعب برائيه لأن تأهيله لرؤية حبيبك حفِظه، اللهم صل على من قال من رآني في النوم فكأنّما رآني في اليقظة، اللهم صل على من إذا تمكن انطباع صورته من القلب رمَى بما فيه من الأكوان ولفظه، اللهم صل على من تدل رؤيته في كمال صورته على أنه اعتنَى برائيه ولحظه، اللهم صل على من قال من رآني في النوم فسيراني في اليقظة، اللهم صل على من هذا الوعد منه عام لا خاص بمن فيه للاتباع أهلية، اللهم صل على من يحصل ما وعد به لكثير من الناس عند حضور المنية، اللهم صل على من يراه الخواص قبل الوقت المذكور يقظة على قدر تفاوتهم في الخصوصية، اللهم صل على من رؤيته على هيئته الشريفة أحسن المرائي، اللهم صل على من رؤيته كذلك دالة على صلاح حال الرائي، اللهم صل على من تدل رؤيته متغيراً عابساً على أن رائيه سيئ الحال مرائي، اللهم صل على من تدل رؤيته شيخاً على السلامة من الحرب، اللهم صل على من تدل رؤيته شاباً على وقوع الطعْن والضرب، اللهم صل على من تدل رؤيته مقبلاً على إقبال الخير وبالعكس على وقوع السلب، اللهم صل على من تدل رؤيته متبسماً على الاستمساك بشريعته، اللهم صل على من تدل رؤيته باكياً على وقوع خلل في دين الرائي وطريقته، اللهم صل على من ذاته نورانية مظهرة لحالة الرائي وحقيقته، اللهم صل على من علامة حب المؤمن له أن

يود رؤيته بجميع ما يملك، اللهم صل على من يقتحم المشتاق إليه من بحر الحب كل كاهل مهلك، اللهم صل على من علامة حب المؤمن له أن يود رؤيته بِملء الأرض ذهباً، اللهم صل على من يفتدي محبه بسفك دمه من الهجر رَهَباً، اللهم صل على من مُستحسَن الأكوان في نظر مريد وصله خيال وهَبا، اللهم صل على من تَمنَّى رجل رؤيته عند ابن عمر وقال لو رأيتُه امتثلت أمره ولو بما هو في الصورة ضار، اللهم صل على من قال ابن عمر لِمتمنّي رؤيته أبشرْ فإنه قال ما اختلط حبّي بقلب أحد فأحبني إلا حرَم الله جسده على النار، اللهم صل على من قال له ثوبان إنّي لا أستطيع أن أجلس أو أنام حتّى أراك فأين أراك إذا كنت في عليين، اللهم صل على من أنزلت عليه في جوابه ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾، اللهم صل على من النظرة فيه بدفع الروح غير غالية، اللهم صل على من الموت فيه هو الحياة الباقية، اللهم صل على من إذا تمكن انطباع صورته من قلب أحد فهو في عيشة راضية، اللهم صل على من إذا ظفر المحب بشهوده طاب عيشه، اللهم صل على من يحمد من المحب فيه قلقه وطيشُه، اللهم صل على من إذا ألقي بدر جماله لحي القلوب تأنس وحشه، اللهم صل على من فيه شهوده لذاكره جنّة معجلة، اللهم صل على من في جنة رؤيته رحيق أوانيه بالمسك مقفلة، اللهم صل على من في جنةِ وصاله ظلال دانية وقطوف مذللة، اللهم صل على من في جنة قربه كأسٌ مزاجها الزنجبيل لذاكره مؤهلة، اللهم صل على من لو عرف الملوك ما في ذكره من النعيم لخرجوا عن المملكة له، اللهم صل على من الأسقام في حبه عافية، اللهم صل على من النظرة فيه مِن الآلام شافية، اللهم صل على من النظرة فيه للمتعطش سلسبيل راوِية، اللهم صل على من النظرة فيه مع انطباع صور الأكوان في مرآة القلب متعززة آبية، اللهم صل على من النظرة فيه مع الانقطاع إليه والتعلق به هي الطالبة الداعية، اللهم صل على من استأذنك سبعون ألْف ملَك في النظر إليه في الأرض لما يعلمون من كرامته، اللهم صل على من كان القمر يناغيه وهو في المهد ويميل بإشارته، اللهم صل على من قال فيه الساحلي إذا تمكن حبه من القلب لم تغب صورته الكريمة عن البصيرة لَمحة، اللهم صل على من رؤيته على الوجه المذكور هي الرؤية الحقيقية التي تحصل لرائيه راحته ورَوْحة، اللهم صل على من رؤيته كذلك مُوجبة لدوام الاغتراف منه والترقي به فهي أعظم المنحة، اللهم صل على من رؤيته كذلك معطية للعلم الحقيقي الذي لا تطرقه الظنون، اللهم صل على من رؤيته كذلك محصلة لما لا يكيف من غريب الفنون، اللهم صل على من رؤيته بالبصيرة الصافية لا وهم فيها ولا خيال، اللهم صل على من رائيه

كذلك راوٍ عن بصيرته لا عن بصره فلا يتصور مع رؤيته احتمال، اللهم صل على من الناس في انطباع صورته الكريمة على طبقات ومراتب، اللهم صل على من اختلف مشاهدوه في كثرة مشاهدته بحسب الأذواق والمشارب، اللهم صل على من تُوجب قوة حضور القلب في ذكره سهولة الاستحضار، اللهم صل على من يحتاج بعضهم في استحضاره إلى تأملٍ وتثبت وإعمال أفكار، اللهم صل على من رؤية هذا له في النوم قليلة وعلى غير صورته الكاملة، اللهم صل على من يستحضره بعضهم في أحيان الذكر لا سيما في الخلوات التي تُزيل شواغله، اللهم صل على من إذا فتر هذا عن ذكره صارت صورته عن قلبه زائلة، اللهم صل على من رؤية هذا له في النوم أيضاً لكن على ما لصورته الشريفة من الكمال، اللهم صل على من إذا سد بعضهم عينيه نوماً ويقظة رآه بعين بصيرته على كل حال، اللهم صل على من هذا شأن أهل النهايات في حبه الذين لم يبق لأفكارهم في الأغيار مجال، اللهم صل على من يراه بعضهم بعينَي رأسه عياناً وهذا من جميع من قبله أعلى، اللهم صل على من إذا ائتلفت روحه بمحبه ائتلافاً بليغاً تشكلت بجسده الطاهر وصارت صورتُه في حقه للحقائق والأسرار مجلى، اللهم صل على من يفيض على قلب مشاهده عند ذلك ما هو مِن سيد الأطعمة ألذ ومن سيد الأشربة أحلى، اللهم صل على من اقتضى كلام الغزالي أن شهوده أمر روحاني لا مدْخل لعَينَي الرأس فيه أصلا، اللهم صل على من إذا ظن أحد على هذا أنه رآه ببصره فإنّما رآه ببصيرته ولكن لُبّس عليه، اللهم صل على من يخرق نور جماله من بصيرة الرائي إلى بصره فيرى ببصره بصيرته ويظن أنه ببصره وصل إليه، اللهم صل على من رُوِي شهوده في الأنفاس واللحظات عن كثير من الأولياء العارفين، اللهم صل على من قال فيه المرسي: لو غاب عنّي طرفة عين ما عددتُ نفسي من المسلمين، اللهم صل على من تُضيء رُؤيتُه ظلمة البواطن وتغني فقراء القلوب، اللهم صل على من تُبكي رؤيته أسر النفوس وتمحي متراكم الذنوب، اللهم صل على من تفرق رؤيته جميع الغفلة وتجمع متفرق المسرّة، اللهم صل على من تثمر رؤيته الانحياش إليه وتحبب لرائيه ذكره، اللهم صل على من تميت رؤيته حيّ الشقاوة وتضع إصر الغواية، اللهم صل على من تحيي رؤيته مَيت السعادة وترفع علَم الهداية، اللهم صل على من تطرد رؤيته وحشة الانقباض وتجلب أنس الانبساط، اللهم صل على من يصير برؤية الأنس بك في حضرة قدْسك لرائيه بساط، اللهم صل على من اهتز العرش والكرسي لرؤيته طرباً، اللهم صل على من لا تبقي لرائيه في مستحسن الأكوان أرباً، اللهم صل على من لما رأى فيل أبرهة نوره في جبين عبد المطلب سجد وقال:

السلام على النور الذي في وجهك، اللهم صل على من لما رأى شجاع جيش أبرهة نوره في جبين عبد المطلب خر مغشياً عليه ثم قال أشهد أنك سيد قومك، اللهم صل على من يتجلى لرائيه الحاجب الأزج والجبين الأنور، اللهم صل على من يتجلى لرائيه الطرف الأدعج والوجه الأزهر، اللهم صل على من يتجلى لرائيه الحسن الأكمل والجمال الأبهر، اللهم صل على من يتجلى لرائيه الخد الأسيل والجيد الأسطع الجميل، اللهم صل على من يتوجه منه لرائيه الإنعام الشامل والعطاء الجزيل، اللهم صل على من رؤيته للأمراض القلبية والبدنية الترياق الأكبر، اللهم صل على من رؤيته تصبغ نحاس النفوس الكبريت الأحمر، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية إنسان عين الجمال وعين إنسان الجمال، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية دقيقة معنًى الكمال وجامع جوامع الكَلِم والكمال، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية أسْمى مَن سَما لأعلى السماء، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية سامي الدرجة المسمى بأسْمى الأسماء، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية جامع شمل الدين المكاشف بالحقائق، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية الداعي إلى الرشد المبعوث بأحْمد الطرائق، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية لبنة التمام وإمام جامع الأنس، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية منبع العلوم وخطيب حضرة القدس، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية أمان العالَمين وعيْن العيون، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية إمام المتقين ومعدن السر المصون، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية المقدّم في القِدم ونُور أنوار المعارف، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية خِزانة الرحمة وسر أسرار العوارف، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية خلاصة الخاصة وروح جسد الكونين، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية طراز الحلة وعين حياة الدارين، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية بهجة الاختراعات ومنبع الأنوار، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية قطب دائرة السعادات وحضرة الأسرار، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية روح المشاهد وقبلة أهل القرب، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية ترجمان الأزل والأبد وواسطة أهل الحب، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية غاية طرف الذروة النبوية، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية بداية النقطة وأمين سر الألوهية، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية حقيقة الصورة وصورة الحقيقة، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية بذرة الوجود وأُس الخليقة، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية ينبوع الحكم وجامع الخيرات، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية جَنَى شجرة القِدم ومنبع المسرات، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية فاتق هداية

العقول، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية مدخل الحضرة وباب الظفر بالوصول، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية فذلكة الحساب وبيت القصيد، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية خاتمة النظام وصفوة العبيد، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية سلطان المملكة وعين العناية، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية صفوة الصفوة ولباب اللباب وأصل الهداية، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية العروة الوثقى وسَند الاعتصام، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية منبع البركات ومسكة الختام، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية قطب دائرة التوحيد، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية مقيم الملة الفذ الوحيد، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية رحمة الرحمة ونعمة النعمة، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية ولي العصمة ومدينة العلم والحكمة، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية شمس الأولياء وأُس الأصفياء، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية وسيلة المرسلين وذخيرة الأنبياء، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية شفا القلوب وشفاء الأسقام، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية مذل الكفر ومعز الدين ومقيم الإسلام، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية منتهى الكمال وصفوة الاصطفاء، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية عنصر الخصوصية وقُنّة الاجتباء، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية شرف الملوك وياقوتة تاج المحاسن، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية شرف الأملاك وإكسير المعادن، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية منتهى الهمم ومزمى الأبصار، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية مجلى الخلق وقدوة ذوي الاستبصار، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية حامل لواء العز أحْمدَ مَن حَمد، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية مالك أزمة المجد أحمد مَن حُمد، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية الغوث الأعظم شاهد أسرار الأزل، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية القطب الأكبر مشاهد أنوار السوابق الأوَل، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية بحر الجود ومظهر سر الوجود، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية سر قابلية التهيؤ وأكرم مولود، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية النور الأسنَى المتحقق بأعلى رتب العبودية، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية السر الأبهى المتخلق بأخلاق المقامات الاصطفائية، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية النور المطلق والوتر الشفعي، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية هازم جيوش الفرق بنور شهود الجمعي، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية مبلغ المنَى ومعقل الحياطة، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية سلطان ممالك العزة ودائرة الإحاطة، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية عين المقصود والروح الأقدس، اللهم

صل على من يظفر رائيه برؤية مظهر النفوس والسر الأنفس، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية شافي الأرواح وواهب حلة التحليات، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية كنز الأسرار وعين التعينات ومرآة التجليات، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية آدم الأكبر ويعسوب الأرواح، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية ضوء الأكوان وفجر الصباح، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية طبيب القلوب ومحبب خمية التخليات، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية المظهر الأعلى ومشرق أنوار الصفات، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية البرزخ الأسمى ومغرب أسرار الذات، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية مناط كل شيء وجمال الملكوت، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية واسطة كل شيء ونور الجبروت، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية خافض الجناح وملاذ الأبطال، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية مفتتح ديوان الإنشاء وماحق الضلال، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية روح كل شيء وزَين التعينات الملكوتية، اللهم صل على من يظفر رائيه برؤية حياة كل شيء ومدد الحياض الجبروتية، اللهم صل على من تفتح رؤيته الكاملةُ أبوابَ خزائن العلوم الغيبية، اللهم صل على من تُفيض رؤيته الكاملة على قلب رائيه المواجد الذوقية، اللهم صل على من تخرج رؤيته الكاملة في قلب رائيه عين الرحمة الوهبية، اللهم صل على من تُذكر رؤيته ذكرك، اللهم صل على من تعظم رؤيته في قلب رائيه أمرك، اللهم صل على من تحبب رؤيته لرائيه طاعتك، اللهم صل على من تشهد رؤيته رائيه نعمك فيكثر شكرك، اللهم صل على من تُحلي رؤيته قلب رائيه بأنسك بعد أن تُخرج منه غيرك، اللهم صل على من تفيض رؤيته على رائيه فضلك وتضاعف له مثوبتك وأجرك، اللهم صل على من تفتح رؤيته بصيرة رائيه وتنيله تأييدك ونصرك، اللهم صل على من تُصير رؤيته وجه ناظره ناضراً، اللهم صل على من تُوقظ رؤيته رائيه وتصير قلبه معك حاضراً، اللهم صل على من توجه رؤيته إلى رائيه شوقاً مقلقاً أو خوفاً مقلقاً، اللهم صل على من تصير رؤيته رائيه بعد الجهالة في المعارف ماهراً، اللهم صل على من تظهر رؤيته لرائيه جمالاً مدهشاً وحسناً باهراً، اللهم صل على من تصير رؤيته قلب رائيه من دنس الأغيار طاهراً، اللهم صل على من تصير رؤيته رائيه فيما يرضيك من إجلالك ساهراً، ، اللهم صل على من تثمر رؤيته لرائيه الحياة الطيبة، اللهم صل على من يصير رائيه برؤيته ذا عيش رغد وحالة معجبة، اللهم صل على من ترفع رؤيته لرائيه على المناصب منصبه، اللهم صل على من تصير رؤيته القلوب بعد الظلمة منيرة وبعد الجدب مخصبة، اللهم صل على من تَهُز رؤيته عوالم رائيه فيستحلي إليه

طربه، اللهم صل على من تخرج رؤيته من القلوب الهموم والغموم، اللهم صل على من تُدخل رؤيته في القلب سروراً ينسي العوائد والرسوم، اللهم صل على من يتجلى لرائيه دارةُ القمر المنير، اللهم صل على من يتجلى لرائيه الروض المزهر المونق النضير، اللهم صل على من يتجلى لرائيه الوجه الذي كل حُسْن من حُسْنه مستعير، اللهم صل على من يتجلى لرائيه الحاجب المقوس والطرف الأحور، اللهم صل على من يتجلى لرائيه الخد الأقمر والعارض الأنور، اللهم صل على من تفوح على رائيه عند الرؤية الكاملة رائحة المسك والعنبر، اللهم صل على من تؤلف كثرة الصلاة عليه بين روحه الشريفة وروح المصلي، اللهم صل على من تُصير الصلاة عليه قلب ذاكره متهيئاً لإشراق أنوار التجلي، اللهم صل على من كثرة الصلاة عليه أقوى الأسباب الموصلة لرؤيته، اللهم صل على من كثرة الصلاة عليه أنفذ الطرق إلى دائرة حضرته، اللهم صل على من كثرة الصلاة عليه موجبة لانطباع صورته في قلب ذاكره، اللهم صل على من كثرة صلاة الشخص عليه منورة لباطنه وظاهره، اللهم صل على من رؤية آثاره نعيم لقلب المشتاق، اللهم صل على من أطلال أرضه ورسومها مصارع للعشاق، اللهم صل على من شهود مسجده وروضته يُرسل الدمع من الآماق، اللهم صل على من جعلت مدينته للمحبين نعيماً مقيماً، اللهم صل على من جعلت في مواضع الوحي إليه ونزول الملائكة عليه مشهداً ممتعاً ومرأى فخيماً، اللهم صل على من إذا ظلم أحد نفسه وجاء إليه واستغفر عنده وجدك تواباً رحيماً، اللهم صل على من أهدى رجل لابن أيوب مروحة من جَريد نخلة قريبة من روضته وقال له لم يهْد لأبيك ولا لجدك مثلُ هذه الهدية، اللهم صل على من عظم سرور الملك المذكور بما فيه رائحة قربه فأجزل للمهدي الصلة وأعظم له العطية، اللهم صل على من إذا ألقى المؤمن نفسه بين يدي قبره سرت نورانيته في نورانيته، اللهم صل على من إذا ألقى المؤمن نفسه بين يدي قبره انبسطت حقائقه على عوالِم ظلمانيته، اللهم صل على من إذا ألقى المؤمن نفسه بين يدي قبره لم يبق منه كل ولا بعض ولا لحم ولا عظم إلا دخل منه حب وشوق وحنان، اللهم صل على من إذا ألقى المؤمن نفسه بين يدي قبره حصل له من الإجلال والتعظيم ما لا يعبر عنه لسان ولا يشير إليه بنان، اللهم صل على من إذا ألقى المؤمن نفسه بين يدي قبره حصل له فرح بالإجلال مقرون وبسْط بالمهابة مصحوب، اللهم صل على من إذا حلت هذه الخيرات في قلب المتوجه إليه جددت له محبةً تُوجب طوعاً وجبراً موافقة المحبوب، اللهم صل على من إذا توجه له أحدٌ بصدق قابل مغناطيس سره إبرة قلبه فجذبَها، اللهم صل على من إذا أراد

جذب قلب أخذ لم يملك الصبر عنه ولا التخلف عن مراده فاعجبْ بفانٍ تلازم نفْسه أدبَها، اللهم صل على من أقام شهاب الدين القسطلاني بِمسجده حتّى حصل له جذب أوْجب محوه، اللهم صل على من وهب له تأليف المواهب بعد أن عوضه من فنائه بقاه ومن محوه محْوَه، اللهم صل على من كان إذا تكلم أطرق جلساؤه كَأنّما على رؤوسهم الطير، اللهم صل على من حرْمته ميتاً كحرمته حياً فالتأدب في مسجده ومدينته مفتاح الفتح والخير، اللهم صل على من ليس من السنة أن يمس الزائر جدار قبره ولا أن يقبله، اللهم صل على من ليس من الأدب أن يطوف الزائر بقبره بل يكره ذلك له، اللهم صل على من نَهى بعض العلماء عن إلصاق البطن والظهر بجدار قبره ومسجده باليد وقال إنه ابتداع، اللهم صل على من ينْهى عن الانحناء لقبره عند التسليم عليه لخروجه عن العمل ومنافاته للإتباع، اللهم صل على من الوقوف في زيارته على بعدٍ أقرب إلى الاحترام والتعظيم، اللهم صل على من كان بعض العلماء إذا دخل مدينته مشى حافياً إكراماً لموطئ قدمه الكريم، اللهم صل على من تجعل بُسُط مسجده التِي تداس بالأرجل على الرؤوس والرقاب، اللهم صل على من يكتحل إنسان عيون الأبصار بِما في أرضه المباركة من التراب، اللهم صل على من يعفّر مصون المشيب ويطرح حُر الوجه تبركاً به في تلك الرحاب، اللهم صل على من يتشرف بتولّي خدمة حرَمه أكبر الملوك وأعظم الأكابر، اللهم صل على من تُهدَى كُناسة مسجده لعظماء الآفاق ويعدونَها من أنفس الذخائر، اللهم صل على من تَتمنّى النجوم الزاهرة أن تكون قناديل مسجده الشريف، اللهم صل على من تَمنّى العرش والكرسي وسدرة المنتهى ضمّ أعضائه إذ هو غاية التشريف، اللهم صل على من قال ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، اللهم صل على من سأل أعرابِي عند قبره العتق من النار فنُودي أعتقناك وجعلنا زيارة حبيبنا لك جُنة، اللهم صل على من وقف على قبره حاتِم الأصم فقال يا رب إذا زرنا قبر نبيك فلا تردنا خائبين، اللهم صل على من نُودي لأجله يا هذا ما أذنا لك في زيارة حبيبنا إلا وقد قبلنا فارجع أنت ومن معك بالمغفرة ذاهبين، اللهم صل على من ينْزل على قبره كل يوم سبعون ألف ملَك يحفون به ويضربون بأجنحتهم ويصلون عليه يبتغون إكرامه، اللهم صل على من يخرج من عنده كل يوم سبعون ألْف ملَك وينْزل مثلهم يفعلون ذلك إلى يوم القيامة، اللهم صل على من تخلف مغربِي فقير في زيارته عن رفقته فاستغاث به على الرجوع إلى بلده، اللهم صل على من وقف عليه في النوم وقال ائت مكة واذهب إلى زَمزم تجد رجلاً يسقي الناس بيده، اللهم صل على من قال له قُلْ له رسولُ الله يأمرك أن تحملني إلى أهلي، اللهم صل على من لَما

ذهب الرجل لتبليغ أمره كاشفه الساقي فقال قبل أن يكلمه ترفق بِي حتّى أفرغ من شغلي، اللهم صل على من قال رائيه لَما دخل الليل قال لِي الساقي ودَع البيت واتبع أثري، اللهم صل على من قال رائيه لَما كان الصباح وجدت نفسي بقرب بلدي فأخبرت الناس ثم جاءت رفقتي مصدقة خبري، اللهم صل على من في الحلول في حرمه شفائي وراحتِي، اللهم صل على من في شهود حماه منية قلبي وملء راحتِي، اللهم صل على من قال من زار قبري وجبت له شفاعتِي، اللهم صل على من قال حَق على كل مسلم زيارة المدينة فِيها قبري وبِها بيتي وتربتي.

شرح سيدي ابن زكري المتوفى عام 1144هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لِنهتدي لو لا أن هدانا الله.

قوله رضي الله تعالى عنه **(اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار)**

يحتمل معاني ووجوهاً:

أوّلها: أن يكون أشار إلى أنه صلى الله عليه وسلم مرآة تجلّي أسرار الذات وأنوار الصفات لكل مؤمن على حسب حاله ومقامه، فإن كل مؤمن له حظ من التجلي والتخلي والتحلي، إذ كل من أطاع الله امتثالاً ولو مرّةً في عمره أو ترك معصية كذلك ما خطر له ذكر الله عند نازلته حتّى تجلّى لقلبه برحمته وخلاه عن معصيته وحلّاه بطاعته، وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى في حق غيره بقوله كما في الصحيح (خيارُ أمتِي الذين إذا رؤوا ذُكر الله) أي لِما يعلوهم من البهاء، وبقوله أيضاً (خيار أمتِي من دَعا إلى الله وحبّب عباده إليه). ومن المعلوم المقرّر أنّهم ما اكتسبوا ذلك إلا منه صلى الله عليه وسلم. والناسُ أهل إسلام وإيمان وإحسان، وأهل الإحسان أهل مراقبة ومشاهدة، وأصل جميعها العلم المشرق في القلب المظهر لِحقائق الأشياء. فأولُ ما يفتحُ للسائرين أنهم إذا نظروا في الآثار وتنوعها دلّهم ذلك على معاني الأسماء فيعرفون أن لكل اسم نسبة، ولكل نسبة وجوهاً، فإذا نظروا في أنواع الخلق دلتهم على معاني الخالق، وفي ضروب الرزق دلتهم على معنى الرازق، وفي صنوف الإعطاء دلتهم على معنى المعطي، وفي وجود الإعزاز دلتهم على معنى المعز، فيشهدون الأفعال منه. ثُم يدلهم ذلك على الشهود على ثبوت الصفات من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، لأن معاني الأسماء راجعة إليها. ثم يدلهم ثبوت الصفات على وجود الذات أي باعتبار شهود كمالِها والاستغراق فيه. ولا شك أن النور الثالث أقوى من الثاني، والثاني أقوى من الأول، والثالث هو المسمى عندهم بشمس المعرفة وهو حظ خاصة الخاصة أهل المشاهدة، فهم في نَهار مشمس لا تغرب شمسُه

وهم أهل السر، ويرحم الله القائل:

إن شَمس النهار تغرب بالليل وشَمس القلوب ليست تغيب

فهم ينظرون بأعين قلوبهم فقرهم وغنى ربّهم وضعفهم وقدرته وقوته وذلتهم وعزته، فيطرحون نفوسهم ويلجأون له فيدوم لهم الاضطرار، ولا يكون لهم مع غيره قرار، ويوقنون أنه دليلهم عند التحير وأولَى منهم بهم، فحينئذ يتولاهم ولا يكلهم لنفوسهم، ويرحم الله الشيخ سيدي عبد الرحمن المجذوب حيث يقول:

طلع النهار على قلبي حتَّى نظرت بعيني

أنت دليلي يا رب وأنت أولَى منّي بِي

والثاني هو المسمى بقمر التوحيد وهو حظ الخاصة وهم أهل المراقبة، فهُم في ليل مقمر، والجميع في الضوء، وبيْنهما ما بينَهما، وكلَاهُما أهل إحسان وهم أهل الروح. والأول هو نجوم العلم وهو حظ عامة أهل الطريق، وهم المبتدئون في مقام السلوك إلَى الحضرة، فهم في ليْل في نجوم فقط، وهم أهل الإيمان وأهل القلب.

والعبرة في المقامات الثلاث بالحال اللازمة، وأما ما يخطر ويغيب فلا يختص به مسلم عن غيره، وهو الوجود في مقام الإسلام، وهذه والله أعلم حكمة قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل عليه السلام: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله الخ، ففسره بالأعمال الظاهرة مع أن التصديق معتبر فيه شرطاً أو شطْراً لعدم استحضاره في جميع الأوقات. فالتوحيد عند أهله عِلم واعتقاد لا حال، وقوله: الإيمان أن تؤمن بالله الخ، فعبر بالمضارع من مادة الإيمان وفسر به لثباته في كل الأوقات أو جلها معبراً عنه بما يشعر بالاستمرار، فالثالث لاختصاصه بخاصة الخاصة يناسبه الأسرار، والثاني لعدم اختصاصه بِهم وإن كان مختصاً بِمطلق الخاصة يناسبه الأنوار، لأن الأنوار أكمام الأسرار فهي أظهر منها ولا يتوصل أحد إلَى حظه من ذلك إلا بواسطته صلى الله عليه وسلم ولا يشهده إلا بشهوده، وذلك أن أقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله تعالَى والتعريف به. أما أقواله فواضح، وأما أفعاله فلأنه فيها مقتد بأفعال الله يثيب من يستحق المثوبة ويعاقب من يستوجب العقوبة، فقد كان دائم البشر أحسن الناس طبعاً وأكملهم عشرة وأسرعهم رضاً وأبعدهم غضباً وإذا انتهك شيءٌ من محارم الله تعالَى لَم يقم لغضبه شيءٌ، وأصله ذلك تبعية إرادته لإرادة الله تعالَى بِمقتضى الخلافة والتمكين في العوالِم وبه يكمل الاقتداء لانفعال المكونات له حينئذ فتعرف من مشاهدة أفعاله أفعال الله تعالَى، وقد قال أبو إسحاق الشاطبي: من المسائل الخطيرة العظيمة المغفلة في أصول الفقه جملة الاقتداء

بأفعاله الله سبحانه.

وأما أحواله وأخلاقه فلأنه متخلق بأخلاق الرحمن، ومسألة التخلق فيها خلاف، أجازها الغزالِي في المقصد الأسنَى والإمام الفخري في شرح الأسماء، ومنعَها ابن العربِي وجهّل القائل بِها، وانتصر أبو إسحاق الشاطبِي في كتاب الموافقات للغزالِي.

فهذه ثلاث قواعد، الأولَى أقسام النور ثلاثة يعلم بِها ما يتجلى لخاصة الخاصة وما يتجلى للخاصة، الثانية لا يتوصل أحد إليها إلا به صلى الله عليه وسلم يعلم منها أنه المرآة، الثالثة أمور دائرة على الدلالة يعْلم منها معنَى التجلي فافهم. وإذا ثبت ذلك، استبان أن النبِي صلى الله عليه وسلم منه انشقت أسرار الذات وانفلقت أنوار الصفات، فهو مرآة لتجليها من غير حلول. قال الورتجبِي في قوله تعالَى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ الآية جعل نبيه مرآة لظهور ذاته وصفاته، وقال في قوله ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي ليشاهدوا بأسرارهم الله ويدركوك في محل الجلال والجمال ويعْرفوا قدْرك في قدري وقدري في قدرك حيث صرت مرآتِي أتجلى منك لهم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام (مَنْ رآنِي فقد رأى الحق). وهذا معنَى قولِهم أن النبِي صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل وأنه مخلوق على صورة الله وعلى صورة الرحمن، وقد ورد الخبر بذلك وهو أن الله خلق آدم على صورته هـ. ومن هنا سُمي صلى الله عليه وسلم بكثير من أسمائه تعالَى ويأتِي بسطه في غير هذا إن شاء الله تعالَى، وقلتُ في هذا المعنَى:

مُحمَّد مرآة أرباب الشهود ... والعارفون كلهم بذا شهود
وجه له الشهود تحظ بالشهود ... وعند ذا تُنظم في سِلْك الشهود

أي في سلْك العارفين الشاهدين، فـ "ال" للعهْد، ومن الجارةُ لابتداء الغاية أي ابتداء الظهور منه وانتهاؤه باعتبار الإفادة بعْد الإستفادة إلَى خلفائه ونوابه من الأولين والآخرين.

وكلهم من رسول الله ملتمسٌ ... غرْفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيَمِ

وباعتبار الاستفادة فقط لِمن لَم يتأهل للاقتداء، نظيره ما يقال ظهرت الشمس من جهة المشرق وظهر الأمير من قصره، وشبّه ما يظهر لأربابه من أمور الذات العلية من غير تكييف بالأسرار بِجامع الاختصاص ، واستعير اسم المشبّه به للمشبّه على حد (لذي أسَدٍ شاكي السلاح)، وشُبه نَيلهم بالانشقاق والذي الانفلاق أظْهر منه لِمناسبة كل لما أسْند له، كأن الأسرار كانت مصمتته لا يُوصل إليها ولا تُدخل ففتحت أي وصل إليها ونيلت منه، ثُم أطلق اسم المشبّه به على المشبّه أعنِي المصْدر على

المصدر، واشتق من المستعار الفعل فجاءت في الكلام استعارة تصريحية أصلية وأخرى تَبعية ومثله يجري في انفلاق الأنوار، فافهم.

فإن قلتَ: ما معنَى الحصر الذي اقتضاه تقْديم المعمول في قوله (منه انشقت) مع أن الأنبياء والأولياء مراثي ومجالِي؟ قلتُ: المراد مَنْ منه استقلالاً أي بلا واسطة، وليس ذلك إلا له، إذ هو واسطة الجميع، وبهذا الحصر تعين الموصول بصلته واستبان معنَى العَهْد فيها، وإلا فالأنبياء مُشاركون في مطلق انشقاق الأسرار وانفلاق الأنوار منهم.

ثانيها: أن يكون أشار إلَى ما تضمنه حديث جابر وعمر رضي الله عنهما من أنه صلى الله عليه وسلم أصل الموجودات وعنصرها وأساسها.

قال جابر قلتُ يا رسول الله بأبِي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالَى قبل الأشياء؟ قال: (يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالَى ولم يكن في ذلك الوقت لوحٌ ولا قلمٌ ولا جنةٌ ولا نارٌ ولا ملَكٌ ولا سماءٌ ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنّي ولا إنسي، فلما أراد الله تعالَى أن يخلق الخلق قَسمَ ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول العرش ومن الثانِي القلم ومن الثالث اللوح، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول حملة العرش ومن الثاني الكرسي ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول السماوات ومن الثانِي الأرضين ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله). وهذه القسمة لا توجب قسْمة الماهية المحمدية، كما لا يوجب الاقتباس من الأنوار قسمتها ولا النقص منها، وبهذا يندفع الإشكال.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أتدري من أنا، أنا الذي خلق الله عز وجل أول كل شيء نوري فسجَد لله فبقي في سجوده سبع مائة عام، فأول كل شيء سجد لله نوري ولا فخر. يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي خلق الله العرش من نوري والكرسي من نوري واللوح والقلم من نوري والشمس والقمر من نوري ونور الأبصار من نوري والعقل الذي في رؤوس الخلق من نوري ونور المعرفة في قلوب المؤمنين من نوري ولا فخر).

وفي سيرة الحلبِي قال: رأيتُ في كتاب التشريفات في المناقب والمعجزات لَم أقف على اسم مؤلفه عن أبِي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم سأل جبريل

عليه السلام فقال: يا جبريل كَمْ عمرْت من السنين؟ فقال: يا رسول الله لست أعلم غَيْر أن في الحجاب الرابع نجماً يطلع في كل سبعين أَلْف سنة مرة رأيته اثنين وسبعين أَلْف مرة، فقال صلى الله عليه وسلم: وعزة ربّي أنا ذلك النجم. رواه البخاري هذا كلامه.

قلت وفي الحديثين السابقين مزايا متعددة، بيان أنه صلى الله عليه وسلم نور، وأنه من نور الله.

فإن قلت: ما معنَى من نور الله، إنْ أريد نُور حادث كان قَبله نافَى أنه أول المخلوقات وأنّ الأنوار من نوره، وغير هذا لا يعقل لأنه تعالَى ليس بنور؟

قلت: الإيجاد إظهار. فالمعنَى والله أعلم أظْهَره منْ ظهوره أي أظهره بلا واسطة، بخلاف غيره، إذ معنَى اسْمه النور الظاهر المظهر للأشياء، وفيهما بيان السبقية والتقدّم، فإن ذلك يفيد الاعتناء بشأن المقدم، وبيان أن ما صدر منه السجودُ لله ومن ثَم خرج من بطن أمه على هيئة الساجد، وبيان أنه أول ساجد، وبيان أن العرش مع عظمه من نوره ومزحوم به، وبيان أن الكرسي من نوره ومزحوم به، إلَى آخر ما تضمنه الحديثان. إذا ثبت هذا فمنه صلى الله عليه وسلم تكوّنت الموجودات أي حقائقها، وهذا معنَى كونه بذرة الوجود، فشبّه صلى الله عليه وسلم بالبذرة تشبيهاً مضمراً طويت أركانه ما عدى المشبه أي ضميره صلى الله عليه وسلم، وجيء بِمن الابتدائية على هذا الوجه أو التي للسببية على الوجه الآتِي بعده للمناسبة للمُسْتعار منه قَرِينة للاستعارة أوْ شبه ترتب ظهور الأشياء على ظهوره بترتب المسَبب على سببه، ثُم جيء بالحرف المناسب للسببية، فتكون الاستعارة تَبعية في الحرف نظير ما قيل في ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ الآية، واستعير لكليّات المكونات الأسرار لِخفائها تصريحاً أصالةً، وشبه تكونها منه مبْدءاً وأصْلاً للجزئيات بالانشقاق المناسب للأسرار ،ثُم اشتق الفعل كما مرّ في الوجْه الأول، وشبهت جزْئيات المكَونات بالأنوار لظهورها وظهورها من المكونات بالانفلاق المناسب للأنوار، وحصل في كل من المتعاطفيْن استعارتان تصْريحية أصْلية وتبعية. ثُم إن تشبيهه بالبذرة لَيس من كل وجْه، لأن ماهية نوره لَم تنقسم ولَم تنقص كما تقدم، وإنّما هنا اقتباس وأخذٌ، ولَما كانت الكليات أعم من الجزئيات كانت أصولاً لَها وإن كانت عينها خارجاً، وقلتُ في هذا المعنَى:

أنت أصْل الوجود فالكوْن مِنْ عرشٍ	إلَى الفرش منك ما أزكاكْ
لولا جاهُك لَم يكُنْ له كوْنٌ	ولدامَ انعدامه لولاكْ

ومِن أسْمائه صلى الله عليه وسلم المصطفى والمجتبَى والمنتقى والمختار، وهي بِمعنَى أي المستخلص لغاية القرب، وهو روح جسد الكونين وعيْن حَياة الدارين،

ولسيدي علي بن وفا:

روح الوجـود حيـاة مـنْ هُـوَ واجِـد   لـولاه مـا تَـمَّ الوجـود لِمـن وجـد

ثالثها: أن يكون أشار لِما تضمنه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي صحّحه الحاكم من قوله تعالى لآدم: (لولا محمد ما خلقتُك)، وفي حديث آخر (لولا محمد ما خلقتُك ولا خلقتُ سَماء ولا أرضاً)، وحديث سلمان الذي عند ابن عساكر من قوله تعالى (ولقد خلقتُ الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنْزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا)، فقد تضمنا أنه صلى الله عليه وسلم السبب في وجود كل مخلوق، وقد أشار البوصيري بقوله: (لولاه لَم تُخْرجِ الدنيا من العدم)، وعلى هذا فمن الجارّة تَعليلية، والتقدير السابق في الوجه الثاني جاز هنا بتمامه، وقد تضمنت الأحاديث المتقدمة أنه صلى الله عليه وسلم السبب في وجود آدم عليه السلام، وأن آدم من نوره خلق، ولهذا قيل إذا لقيه آدم يقول يا ولد ذاتِي ووالد معناي، يشير إلَى أن روحه صلى الله عليه وسلم أبو الأرواح، وهو معنَى قوله عليه الصلاة والسلام (أنا يعسوب الأرواح)، وقد نبّه على هذا ابن الفارض في تائيته حيث قال:

وإنّـي وإنْ كنـت ابـن آدم صـورة   فلـي فيـه معنًـى شـاهدٌ بـأبوتي

وحديث (كنتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد) ثابت، وفي رواية (بين الماء والطين) وفي أخرى (وإن آدم لَمنجدلٌ في طينته) أي مطْروحٌ على انْجدالة أي الأرض، وقول ابن تيمية والزركشي لا أصل له أي بِهذا اللفظ لا أنه موضوع كما تُوهم فإنه رواية وهي جائزة، وليس المعنَى أن ثبوته ثابت في علم الله كما قيل لأنه لا يختص به، بل إن الله خلق روحه قبل الأرواح وخلع عليه صفة النبوءة فقام به قبل خلق آدم ونفخ الروح فيه، ولا بِدع في هذا ولا غرابة بل قيل إنه صلى الله عليه وسلم سابق على سائر الأنبياء روحاً لِما مرّ، لأن مادة جسده صلى الله عليه وسلم خلقت قبل سائر المواد لِما روى ابن الجزري في الوفا عن كعب الأحبار أنه تعالَى لَما أراد أن يخلق محمداً صلى الله عليه وسلم أمر جبريل عليه الصلاة والسلام أن يأتيه بالطينة البيضاء فهبط في ملائكة الفردوس وقبض قبضة من موضع قبره بيضاء نيرة فعجنت بِماء التسنيم في معين الجنة حتّى صارت كالدرة البيضاء لَها شعاع عظيم، ثم طافت بِها الملائكة حول العرش والكرسي والسموات والأرض حتّى عرفته الملائكة قبل أن تعرف آدم عليه الصلاة والسلام أي عرفتْ روحَه وعنصره، والبينية في الحديث السابق الظاهر أن المراد بِها عدم الظرفين الروح والجسد أي لا روح ولا جسد كما صرّح به في رواية لآدم ولا ماء ولا طين، لأنك إذا قلت مسكنِي بين البصرة والكوفة عُلم أنه ليس بِهما، فأريد به لازم

مغناه بطريق الكناية، وليس المراد به قريباً منهما كما يقال الوزد بين البياض والحمرة ومزاج بين الصحة والمرض كما قيل، وليس معنًى بين الماء والطين أنه لَم يكن ماء صرفاً ولا طيناً صرفاً لنبو المقام عنه وعدم ملاقاته لِما قررناه. انتهى. ذكره الشهاب رحمه الله تعالَى، وقد ظهر أنه صلى الله عليه وسلم وارث في حضرة الفرق والوجود الذاتي، وموروث في حضرة الجمع والوجود الروحاني.

والفرق بين هذا الوجه والذي قبله، أن المقصود هنا بيان سببيته في وجود الموجودات وأنّها لأجله خلقت، والمقصود فيما قبله بيان أنّها مخلوقة من نوره ومقتبسة منه، وهما معنيان متغايران غير متلازمين، إذ لا يلزم من سببية شيء في آخر كوْن المسبب مقتبساً ومأخوذاً من السبب، كالماء والنبات، وكذا العكس، كضوء السراج الأول وما أخذ منه.

ولا شك أن المثني علَى النبِي صلى الله عليه وسلم يحصل له بِمدحه والثناء عليه شرف ومزية عظيمة، وإلا فمن هو حتّى أطلق مدحه على لسانه وتيسر له وأهل إليه، فإذا قال في حقه سيدي ومولاي استحضر عظيم جاهه وانتسابه مع ذلك له وجد نفْسه يتشرف ويتعزز ويفتخر، وحق له، واذكر هنا حكاية من قال عند مَن أنا وكلام من أقرأ فإن النظير يذكر بالنظير.

رابعها: أن يكون أشار إلَى أن أرواح العلماء والعارفين من المرسلين والنبيين وجميع عباد الله الصالحين تتلقى من روحه صلى الله عليه وسلم العلم والحكمة والمعارف الربانية والأسرار الملكوتية، ولِهذا سمي روحه أبا الأرواح، فكل ما يرد على القلوب من التنزلات العرفانية والمنح الإلَهية منه وبواسطته صلى الله عليه وسلم، إذ هو الْهادي والمهْدي لكل من اهتدى وغيره من الْهداة نوابه وفروعه، ويرحم الله القائل:

هُداه هدى الْهادين منه إلَى الْهُدى ... وحبه أهدى الوارد الْمورد الأصفى
وآيتـــه كـــالزهر والزهـــر نفْحـــةً ... وعدّاً فمن ذا الذي يستطيع لَها وصفا

ووصفت الواردات بالإزعاج لأنه إذا ورد شيء منها على القلوب تأثرت به من حيث قُوته وسطْوته ومغناه، لأنه يرد من حضرة قهّار فتنبعث بسببه الجوارح للخدمة من غير تكلف ولا معاناة وتصير الأعمال الصالحة لصاحبه كالجبلة كما قال البوصيري:

وإذا حلّـــتِ الْهدايـــة قلبـــاً ... نـــشطت للعبـــادة الأعـــضاءُ

وهذه الخدمة هي التِي يعْنون بالأوراد، فتبيّن أن الأوراد ناشئة عن الواردات وهو معنَى قول الحِكم (فلولا وارد ما كان ورد) وقولُها أيضاً (ما كان ظاهر ذكرٍ إلا عن باطن شهود وفكر). وأما قولُها (قومٌ تسبق أنوارهم أذكارهم. وقومٌ تسبق أذكارهم أنوارهم)

فهو باعتبار الأنوار القوية التامة فإنّها متأخرة الوصول للسالكين، ومتقدمة للمجذوبين. وأما أصل النور في الجملة، فلا بد من تقدمه، فإذا فهمتَ هذا ظهر لك أنه صلى الله عليه وسلم منه الواردات ومنه الأوراد لظهورها بالأنوار، ثُم شبه ظهور الواردات المنتجة للأوراد منه بالانشقاق، وظهور الأوراد من حيث انجلاؤها بالانفلاق، إلَى آخر ما سبق، وقلت في هذا المعنَى:

واردات القلوب منْك تلقاها ... الخصوص ففازوا بالأوْراد

إنَما القلب مضْغة إنْ تَحلّى ... بصلاحٍ سَرى إلَى الأجساد

خامسها: أن يكون أشار إلَى أن الأسرار به صارتْ أسراراً وبه تأهلت لصيرورتها مطالع الأنوار. وبيان القضية أن تعلم أن النفس والقلب والروح والسر أسماء مترادفة لمسمى واحد وهو اللطيفة الربانية التي كان الإنسان بها إنساناً، لكن ما دام الإنسان في مقام الإسلام تسمَى نفساً، فإذا تخلص منه إلَى مقام الإيمان سُميت قلباً، ثُم إذا ارتقى إلَى أول مرتبتي الإحسان وهي المراقبة المشار لَها بقوله صلى الله عليه وسلم (فإنْ لَم تكن تراه فإنه يراك) سُميت روحاً، ثُم إذا ترقى للمرتبة الثانية منه وهي المشاهدة الْمشار إليها بقوله صلى الله عليه وسلم (أنْ تعبد الله كأنك تراه) سُميتْ سرّاً، ولا شك أن هذا الترقي والانتقال لا يتوصل إليه إلا بواسطته صلى الله عليه وسلم، فبه تصير النفوس قلوباً ويتوصل للإيمان، وبه تصير القلوب أرواحاً ويتوصل للمراقبة، وبه تصير الأرواح أسراراً ويتوصل للمشاهدة، فالأسرار على هذا مستعمل في حقيقته العُرْفية وبه تأهلت الأسرار لشروق شمس المعرفة فيها وهي المراد بالأنوار فهي أيضاً في معناها العُرْفِي. قال في الحِكَم (مطالع الأنوار القلوب والأسرار)، وقد يطلق بعض هذه الأسماء على مدْلول غيره مجازاً، فالقلوب في الحكم مستعمل فيما يشمل الأرواح لأنّها من المطالع أيضاً، ولَم نجد التجوز في الأسرار، لأن الأرواح إلَى القلوب أقرب إذ الطالع فيها قمر التوحيد، وفي القلوب نجوم العلْم وصيْرورتها مطالعها وهو معنَى انشقاقها عنها، وطلوع الأنوار فيها هو معنَى انفلاقها، ففي كل من الفعليْن استعارة تبعية، والله تعالَى أعلم، وقلت في هذا المعنَى:

ما ترقى الرجال فِي القرب إلا ... باتباع الرسول قولاً وفعلا

به نالوا الْمنَى وصار الذي قد ... كان مشتضعباً عليهمْ سَهْلا

سادسها: أن يكون أشار إلَى أنه صلى الله عليه وسلم السبب في أعمال البر الصادرة من العاملين كلها أي ما هو منها باطن خفي وما هو منها ظاهر جلي، إذ هو الْهادي

والمهدي، قال تعالَى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، ولذلك كانت أعمال العاملين التِي أرشدهم إليها ودلّهم عليها كلها في ميزانه:

والمـــرءُ فِـــي ميزانـــه أتباعُـــه فاقْـــدُر إذاً قـــدْر النبِـــي مُحمـــد

فأراد بالأسرار القسم الأول، وبالأنوار الثاني.

سابعها: أن يكون أشار إلَى أنه صلى الله عليه وسلم السبب في شهود ما يشهده أهل عالَمي الملكوت والجبروت، فإن الملكوت كما يأتِي هو حضرة الأرواح التِي تشهد فيها الصفات السنية، والجبروت هو حضرة الأسرار التِي تُشهد فيها الذات المقدسة العلية، فشبّه ما يشهد في الثاني من حيث أن شهوده أعلى وأشد تَمكناً في الوصول بالأنوار، وما يشهد في الأول بالأسرار.

ثامنها: أن يكون أشار إلَى أنه صلى الله عليه وسلم مُمد أهل السموات وأهل الأرض، فمنْه إمدادات أهل الملك الباطن وأهل الملك الظاهر، ولا إشكال في هذا، إذ هو واسطة الكل ورسول الجميع. وقد ذهب جماعة من المحققين، ورجّحه تقي الدين السُّبكي، إلَى أنه صلى الله عليه وسلم مبعوث إلَى الملائكة، ونقل بعضهم الإجماع عليه كما في المواهب، ويفْهم من تفسير القشيري في سورة الإسراء أن حكمة عروجه إلَى السماء تأدب الملائكة بآدابه عليه السلام، حيث لَم يقف في مقام ولا حال ولَم يلتفت إلَى شيء من السوى، كما أشار تعالَى إلَى ذلك بقوله ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾ الآية، فللملائكة حينئذ دخل في الاقتباس منه والاهتداء بهديه، وقال سيدي علي بن وفا رضي الله عنه: (وأرى سريان سره في الأكوان، ومغناه المُشرق في مجاليه الحسان) وقال أيضاً: (وسرك المنزه الساري في جزئيات العالَم وكلياته علوياته وسفلياته)، وقلت في هذا المعنَى:

مُحمـــد مُمـــد كـــل العـــالَمين أهْـــل الـــسموات وأهـــل الأرضـــين
مـــدده فِـــي العـــالَم العُـــلوي لـــه ســـراية وفِـــي الـــسُّفْلي

وشبهت الأولَى بالأسرار، والثانية بالأنوار.

تاسعها: أن يكون أشار إلَى أنه السبب في إدراك الأرواح يومَ ألَسْتُ بربكم وإقرارها بالتوحيد، كما أنه السبب في الإقرار الثاني في العالَم الجسماني، وقد نبّه سيدنا علي كرم الله وجهه على أنه صلى الله عليه وسلم دَعَى الأرواح يومَ ألَستُ بربكم إلَى الإقرار حين كانوا كالذر ونقل كلامه في شعب الإيمان، فشبّه الأول لِخفائه بالأسرار، والثاني لوضوحه بالأنوار، وقلت في هذا المعنَى:

لولاك ما اهتدت الأرواح يوم ألستُ حين خاطبها المولى لقول بَلى
غَشيها النور منك فاستبان الهدى فلَم تجب بنعم ولَم تُعتَبر بلا

عاشرها: أن يكون أشار إلَى أنه المُمد للخاصة وخاصتهم بعلم الباطن، ولعامة العلماء بالعلم الظاهر، وسيأتِي حديث العلوم الثلاثة.

الحادي عشر: أن يكون أشار إلَى أنه صلى الله عليه وسلم الواسطة في علم الحقيقة الذي مَنْ خلا عنه تفسّق، وفي علم الشريعة الذي من خلا عنه تزندق.

الثاني عشر: أن يكون أشار إلَى أنه صلى الله عليه وسلم الواسطة في نيل النبوة والرسالة للأنبياء والمرسلين، وفي نيل الولاية والقرب للأولياء والمقربين، فشبّه مدده الأوّل بالأسرار لأنّها أدقّ وأعلى. قال الحاتِمي في الفتوحات: مستمد جميع الأنبياء والمرسلين من روح محمد صلى الله عليه وسلم إذ هو قطب الأقطاب، فهو مُمد لجميع الناس أولاً وآخراً، فهو مُمد لكل نبي وولي سابق على ظهوره حال كوْنه في الغيب، ومُمد أيضاً لكل ولي لاحق فيوصله بذلك إلَى مرتبة كماله في حال كونه موجوداً في عالَم الشهادة وفي حال كونه منتقلاً إلَى الغيب الذي هو البرزخ والدار الأخرة، فإن أنوار رسالته صلى الله عليه وسلم غير منقطعة عن العالَم من المتقدمين والمتأخرين. ثُم قال: فكل نبي تقدّم على زمان ظهوره فهو نائب عنه في بعْثته بتلك الشريعة. انتهى. وقد قال ابن وفا في صلاته: (وسرك الْمنزه الساري في جزئيات العالَم وكلياته علوياته وسفلياته من جوْهر وعرض ووسائط ومركّبات ووسائط). وفي حديث عُمر المتقدم: أنا الذي من أجلي أخذ الله ميثاق الأنبياء والرسل والأمم بإقرار نبوّتي وفضلي وأن يتواصوا به قرناً بعد قرن فقال عز وجل ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ في آخر الزمان اسْمه محمد بن عبد الله ﴿ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ من نعته وصفته ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ فأقروا بذلك قال الله عز وجل ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ ﴾ بأن خيرتِي من خَلْقي وصفيي أحمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وحبيب رب العالَمين وحجة الله على الخلائق أجمعين ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ وعهْدي وميثاقِي ﴿ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ﴾ قال الله عز وجل ﴿ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ أن خيرتِي من خلقي وصفيي أحمد ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ ولا فخر وقيل إن الله تعالَى لَما خلق نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أمره أن ينظر إلَى أنوار الأنبياء عليهم السلام فغشيهم من نورهم ما أنطقهم الله به وقالوا يا ربنا من غشينا من نوره؟ فقال الله تعالَى: هذا نور محمد بن عبد الله إنْ آمنتم به جعلتكم أنبياء، قالوا:

آمنا به وبنبوته، فقال الله: أشهد عليكم، قالوا: نعم، فذلك قوله تعالَى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الآية. قال تقي الدين السبكي: في هذه الآية الشريفة من التنويه بالنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيم قدْره العلي ما لا يخفى، وفيه مع ذلك أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرْسلاً إليهم، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمان آدم إلَى يوم القيامة، ويكون الأنبياء والأمم كلهم من أمّته، ويكون قوله (وبعثتُ إلَى الناس كافة) لا يختص به الناس من زمانه إلَى يوم القيامة، بل يتناول من قَبلهم أيضاً، فهو نبي الأنبياء، ولهذا ظهر ذلك في الآخرة بكون جميعهم تحت لوائه وفي الدنيا ليلة الإسراء حيث صلى بهم، وبهذا بان لك معنَى حديثيْن كانا خفيا عنا، أحدهما قوله صلى الله عليه وسلم (بعثتُ إلَى الناس كافة) كنا نظن أنه من زمانه إلَى يوم القيامة، فبان أنّ جميع الناس أولهم وآخرهم، والثاني قوله صلى الله عليه وسلم (كنتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد) وكنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك.

الثالث عشر: أن يكون أشار إلَى أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الواسطة في الاستدلال بالله على الأشياء الذي هو وظيفة الخاصة، والاستدلال بالأشياء على الله الذي هو وظيفة العامة. قال في الحكَم: (شتان بين من يستدل به ويستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتَّى يستدل عليه، ومتى بعد حتَّى تكون الآثار هي التِي توصل إليه). وإيضاحه ما أشار له في الفرْق بين الجذب والسلوك بقوله (فأرباب الجذب يكشف لَهم عن كمال ذاته ثُم يردهم إلَى شهود صفاته ثُم يرجعهم إلَى التعلق بأسمائه ثُم يردهم إلَى شهود آثاره، والسالكون على عكس هذا، فنهاية السالكين بداية المجذوبين، وبداية السالكين نِهاية المجذوبين، لكن لا بِمعنًى واحد)، وحاصله أن من فنى في شيء غاب عن غيره، فإذا حصلت منه إفاقة وتنبه إلَى ما كان غائباً عنه كان ذلك على وجه ضعيف فاحتاج إلَى الاستدلال عليه، ولا شك أن الاستدلال بالله على الأشياء أدق وأعلى فلذا شبّه بالأسرار، وقلتُ في هذا المعنَى:

مُحمد واسطة السلوك ... والنظم فِي معظم السلوك
نبيُّنا مُمد أهل الْجذب ... مُغنيهم بالْخضب بعد الْجذب

الرابع عشر: أن يكون أشار إلَى أنه صلى الله عليه وسلم مُمد المشايخ والمريدين، وكل يشهده ويتوجه إليه المدد منه على حسب حاله، ولا شك أن حظ الأولين أعلى وأشرف فشبّه بالأسرار. قال الشيخ أبو المحاسن رضي الله عنه في بعض أجوبته: سائر

العلماء والأولياء رضي الله عنهم صُوَر تفصيله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه ومظاهر تعيناته فما منهم إلا وهو سابحٌ في نوره ومُمتد من بحره على حسب مقامه. ثُم قال: فعَلى هذا فلا زائر ولا مزور له إلا له ومنه صلى الله عليه وسلم، إذ هو أول موجود أُخرج من العدم، ورابطة بين الحدوث والقدم، وأس الخليقة على التمام.

الخامس عشر: أن يكون أشار إلَى أنه صلى الله عليه وسلم المظهر لِما أودع الله سبحانه في مكوّناته من الأسرار بعدما كانت القلوب غافلة عنها والأرواح جاهلة بِها، فنبّه صلى الله عليه وسلم القلوب لِما كانت عنه غافلة والأرواح لِما كانت به جاهلة والْمنير الأنوار المظهرة للموجودات أعني الشمس والقمر والنجوم، إذ من نوره خلقت كما سبَق، كقوله (استنجوا بالْماء البارد فإنه مصحّة للبواسير) وكقوله (أكْل السفرجل يذهب بطخاء القلب) أي كربه وشغله، وكقوله (أكل التمر أمْن مِنَ القولنج) وقوله (الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السّام) وقوله (عليك بأول السوم فإن الربح في السماح) وقوله (إن أشرف المجالس ما استقبلت به القبلة، وشرار الناس من يبغض الناس ويبغضونه).

السادس عشر: أن يكون أشار إلَى أنه صلى الله عليه وسلم السببُ في فتح أبواب البصائر وأبواب الأبْدان التِي هي الحواس لإدراك ما تدْركه، إذ هو صلى الله عليه وسلم الواسطة في نيل العقل الذي به الإدراك كما يأتِي، وما ورد من رجوعه عن رأيه لرأي غيره كما في قصة بدر من رجوعه لرأي الحباب بن المنذر حيث نزل صلى الله عليه وسلم بأدنَى ماءٍ من مياه بدْر، فقال حباب: هذا منْزل أنزلكه الله فلا تتقدم ولا تتأخر عنه أو رأي ومكيدة حرب، فقال: بل هو الرأي والمكيدة، فقال: ليس هذا بِمنْزل بل الرأي أن تسير حتَى تأتِي أدنَى ماء من مياه بدر فننْزله ثُم نغور ما وراءه ونبْنِي عليه حوضاً ونملؤه ثُم نقاتل ونشرب ولا يشربون، فقال: أشرت بالرأي، ورجع لِما قاله، فيحتمل أن يكون ذلك تنَزلاً منه إلَى مقام من دونه أو هو مِما يجري عليه كما يجري السهو في الصلاة ليكون بشراً كسائر الناس فيما لا اختصاص به تواضعاً أوْ ليقدم رأي غيره تطييباً له.

السابع عشر: أن يكون أشار إلَى أنه صلى الله عليه وسلم الواسطة فيما حصل لأهل التحقيق من العلماء من أسرار العلوم ودقائقها ولطيف نكتها وما حصل لِمطلقهم من ظواهر العلوم وما لا بد منه من قواعدها.

تنبيه: الواو في المتْن على هذه الوجوه، تارة تكون لِعطْف السابق كما في هذا الوجه الأخير، وتارة لعطْف اللاحق كما في الوجه الذي قَبْله لسبقية العقْل، وتارة

لعطف المصاحب كما في الذي قبلهما، وتارة محتملة كما في أول الوجوه، فإنه إنْ أريد انشقاق الأسرار وانفلاق الأنوار للسالك فهي لعطْف السابق، وإنْ أريد للمجذوب فهي لعطف اللاحق، وإنْ أريد الأسرار للمجذوب والأنوار للسالك فهي لعطف المصاحب.

تنبيه: لا يخفى أن كلا من هذه الأوجه والاحتمالات مختص به ومقصور عليه، وبه تعلم نكتة تقديم المعمول في عبارات الشيخ نفعنا الله تعالَى به.

قوله رضي الله عنه **(وفيه ارتقت الحقائق)**

فيه باعتبار جملته احتمالات ووجوه:

أحدها: أن يكون أراد بالحقائق علوم المعرفة كما يتبادر من تعبيره بالحقائق، ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم إمام أئمة العارفين والمبين لِجميع مقامات اليقين، كما صرّح به قوله (إنّي لأعلمكم بالله وأشد له خشية) وقوله (إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا)، فشبهت العلوم المذكورة بالشموس والأقمار، وطويت الأركان سوى المشبّه استعارة مكنية ودُل على ذلك بذكر الرديف الذي هو الارتقاء تخييلا، وشبّه بالسماء في المخلية لشروق الأنوار كناية أيضاً ودل عليه بالحرف المناسب للمشبّه به وهو كما في ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾. قال في الحقائق على هذا الاستغراق النوعي أي نوْع علم المعرفة وفي الوصف بالوهبية إشارة لذلك، وفيه تنبيه على أن علمه صلى الله عليه وسلم كان فطرياً جبلياً لا مكتسباً. قال في الشفا: وكان فيما ذكره المحققون مجبولاً على حسن الأخلاق في أصْل خلقته وأول فطرته لَم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلَهي وخصوصية ربانية، وهكذا سائر الأنبياء ومن طالع سيرتَهم منذ صباهم إلَى مبعثهم حقق ذلك كما عرف من حال عيسى وموسى ويَحيَى وسليمان وغيرهم، بل غرزتْ فيهم هذه الأخلاق في الجبلة وأوْدعوا العلم والحكم في الفطرة. انتهى. والإضافة في سماء باطنه من إضافة المشبّه به للمشبّه، وفيه إشارة إلَى الاستعارة في الضمير، وفي شُموس إشارة لَها في الحقائق وضمير روجه من إضافة المشبّه به أيضاً والتشبيه في التجلي لكنه في المشبه متوال مُتابع، وفيه إشارة إلَى أن علومه الوهبية عن مُشاهدة ومعاينة لا بِمجرد الإلْهام، ولَما توالت التجليات أشرقت في أفق سره الأسرار التي هي دقائق ذلك العلم وإنْ كان كله دقيقاً نفيساً، وحديث (إن أتقاكم بالله وأعلمكم بالله أنا) خرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها وذلك لأن الله جمع له بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين مع الخشية واستحضار العظمة والجلال على نَهج لَم يبلغه غيره وأئمة العارفين يحتمل أن يكون من كثر كلامه في الحقائق والمعارف

كالعشرة ومَن ضاهاهم رضي الله عنهم، فإن كلامهم في ذلك مسطور في التآليف، ويحتمل أن يكونوا من بعدهم مِمن لَخص ذلك وحرّره وهذّبه وأكمل بيانه وتفصيله كالجنيد وسرّي وأبي سليمان الداراني والحسن البصري، وإيضاح المقامات ببيان حدودها وأسبابِها وعلاماتها وعلاجات أضدادها وغير ذلك مِما يتعلق بِها، فإن الكتاب الذي أنزل عليه وأحاديثه الثابتة كفيلة بذلك ومتضمنة له مقام المحبة مثلاً بيَّن أن سببه اجتذاب الله واصطفاؤه قوله تعالَى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وعن عمر أنه صلى الله عليه وسلم نظر إلَى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تَمنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم: انظروا إلَى هذا الرجل الذي قد نور الله تعالَى قلبه لقد رأيتُه بين أبوين يغدوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلَى ما ترون، وتضمنت الآية والحديث أن المحبة أخذة من الله لقلب مَنْ أحب حتّى لا تبقى فيه بقية لغيره ويبذل في الوصول له والقرب منه جميع المحبوبات والملذوذات، وقوله (الْمرءُ مع مَنْ أحبّ) بيّن به نتيجتها وثَمرتَها وأنّها الوصال والشهود، وأشار لعلاماتِها بقوله: وعلامة ذلك منه أنه يود رؤيتي بِجميع ما يَملك، وإلَى الجالب لَها والْمعين عليها بقوله (أحبّوا الله لِما يغذوكم به من نعمه، وأحبُّوني بِحب الله تعالَى)، وإليهما معاً بقوله (اللهم ارزقنِي حبّك وحبّ من أحبّك وحبّ ما يقربنِي إلَى حبك واجعلك أحب إلَي من الْماء البارد)، وإلَى أن قوتَها تتضمن الشغل عن غير المحبوب بقوله لِمن قال له إنّي أحبك (استعد للفقر)، وتتضمن اختباره بقوله لِمن قال إنّي أحب الله (استعد للبلاء).

وتوريثه صلى الله عليه وسلم مقامات اليقين يكفيك في فهمه أن الله بعثه وما على الأرض مؤمن، فدعاهم وأمدهم، فظهر من كمال الزهد والصبر والشكر والرضا وغيرها من مقامات اليقين ما لَم يُعْهَد في أمة، وتصفح حال أهل الصُفّة رضي الله عنهم يريك العجب العجاب.

الثاني: أن يكون أراد بالحقائق جميع العلوم، فتكون أل للاستغراق الحقيقي وتقرير الاستعارة على ما تقدم، ولَما أراد الله تعالَى إظهار سيادته لِجميع الخلق وتقدمه عليهم وكونه موضع نظره منهم الذي به يدر عليهم متنوعات رزقه، ركّب فيه أكمل العقول وأوسعها، فوسع من العلوم والمعارف ما لَم يتأهل له عقل مخلوق، وبلغ في مكانة العلم بأحكام الله وأيامه وسياسة خلقه وتأديبهم وما يصلح معاشهم ومعادهم مبلغاً لَم يصل إليه أحدٌ من الخلق، وتعويل أهل المنقول عليه واضحٌ، وكذلك أئمة المعقول لِحقية كلامه وإصابة نظره، ففي الأصول أن ترك الاستفْصال يتنَزل منْزلة العموم في المقال لقوله صلى الله عليه وسلم لِغيلان بن سَلمَة الثقفي وقد أسلم على عشرة نسْوة:

أمسكْ أربعاً وفارق سائرهنّ. لَم يستفْصل هل تزوجهنّ معاً أو مرتباً، فلولا أن الحكم يعم الحالَيْن لَما أطلق، لامتناع الإطلاق في محل التفصيل المحتاج إليه، ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم أعْلم بكُل فن من أهل ذلك الفن، وكيف لا ومنه اقتبسوا واعترفوا، وقد قال صلى الله عليه وسلم (أنا مدينة العلم وعلِي بابُها)، وما من عالِم ضربت له أكباد الإبل في أشتات العلوم العقلية والنقلية مِمن تقدم أو تأخر إلا وكلامه قدوة له وإشارته حجة له، وتأملْ حسن تدبيره صلى الله عليه وسلم للعَرب الذين كانوا كالوحش الشارد ومتصفين بالطبع المتنافر المتباعد، كيف ساسهم واحتمل جفاهم وصبر على أذاهم، إلَى أن انقادوا إليه واجتمعوا عليه وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم واختاروه على أنفسهم وهجروا في رضاه أوطانَهم وأحباءهم، من غير مُمارسة سبقتْ له ولا مطالعة كتب يتعلم بِها سير الْماضين، تحقق أنه أعقل العالَمين، ومَن طالع سيره وكلماته الجامعة للحِكم التِي تتحير فيها عقول البلغاء والحكماء والكتب الجامعة لِحديثه وبديع سيرته وعلمه بِما في الكتب وأخبار القرون الكثيرة الْماضية وقصص الأنبياء والوقائع في الحروب والمجادلات وأمثاله النبوية وتدبير الأحوال وما يتعلق بأحكام الشرع في المعاملات وغيرها وبيان أصول الآداب التِي يتأدب بِها الناس في مجال مجالسهم ومحاوراتِهم، كقوله صلى الله عليه وسلم (أكرِموا عزيز كل قوم) ونَهيه عن الملاحاة والمجادلة، وقوله (تَهادوا تَحابوا) إلَى غير ذلك مِما ورد عنه في تعبير الرؤيا والطب النبوي وأنساب الناس وفرائضهم والمغيبات وعجائب القدرة والملكوت، تحقق بلوغ عقله النهاية وعلمه إلَى كل غاية، والارتقاء على هذين الوجهيْن بِمعنَى الطلوع أي الظهور والتجلي.

الوجه الثاني في الارتقاء: أن يراد به ارتفاع حقائق العلم بكمال التحقيق، إذ لا تحقيق يقارب تحقيقه فضلاً عن أنْ يساويه، لأنه أطلعه الله تعالَى على حقائق الأشياء على ما هي عليه، وعلوم العلماء لا تخلو من احتمالات وظنون ولهذا يخطئ بعضهم بعضاً ويرد بعضهم على بعض وتتبدل آراؤهم في المسألة الواحدة، ويرحم الله مالكاً في قوله (كل كلام يحتمل الرد والقبول إلا كلام صاحب هذا القبر) يشير إلَيه صلى الله عليه وسلم، وقلتُ في هذا المعنَى وما قبله:

مُحمد مطلع أنوار العلوم ... من شَمس عرفانٍ وبَدْر ونُجوم
منه استفاد الخصوص والعموم ... فانسب إلَى علمه إطلاق العلوم
أطْلَعه اللـه على الحقائق ... فكل ما قد قاله مُطابق
قد أوْضح السبل والطرائق ... وبيّن النكت والرقائق

فالارتقاء على هذا الوجه السابق بِمعنَى الظهور، وعبّر عنه بالارتقاء وبالطلوع في طلعة الشمس لعلو المحل، وعلى هذا الوجه وما بعده بِمعنَى الارتفاع.

الثالث: أن يراد ارتفاعها بكمال البث والانتشار لكثرة الآخذين عنه والناقلين إلَى غيرهم، فإنه أكثر النبيين أتباعاً يوم القيامة، وقد ورد أن أهل الجنة مائة وعشرون صفّاً، أمته منها ثَمانون، وسائر الأمم أربعون. وقد عمت دعوته الأقطار، وبلغت إلَى جميع القرى والأمصار، وتعلم منه الإنس والجن والملائكة، ويحقق لك هذا عموم بعثته، قال تعالَى ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ وقال ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وقال ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾، والعالَم هو ما سوى الله تعالَى. وبعثته للملائكة رجحها تقي الدين السبكي، وقال ابن حجر الهيثمي هو الأصحّ عند جمع من المحققين، قال صاحب المواهب نقل بضعهم الإجماع على ذلك، وأشار القشيري إلَى أن حكمة عروجه إلَى السماء تأدب الملائكة بآدابه عليه السلام حيث لَم يقف مع مقام ولا حال ولَم يلتفت إلَى شيء من السوى، كما أشار تعالَى إلَى ذلك بقوله ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾، فللملائكة دخلٌ في الاقتباس منه والاهتداء بِهديه.

الرابع: أن يراد ارتفاعها فيه بكثرة الانتفاع المرتّب على النشر المقصود بالذات منه، وذلك بالعمل بِمقتضى ما بثه ونشره، ولا شك أنه ترتب على تبليغه ودعائه به صلى الله عليه وسلم من أجناس العبادات وأنواعها وأصنافها وأفرادها ما لا يحيط به إلا علم العليم الخبير، حتّى استأذنوه في الوصال فنهاهم عنه، واحتاج إلَى أن يوصيَ بقوله (عليكم من الأعمال ما تطيقون)، وكثرة الانتفاع ثابتة كمّية وكيفية، فكم وقع على يديه من زهد وصبر ورضا وشكر ومحبة وغيرها ووقعة عظيمة بالغة الغاية. ثُم إذا اعتبرنا ما ظهر من ذلك بواسطة خلفائه ونوابه اتسع نظرك واستحضر ما يبهرك، حتّى يقول أبو العباس المرسي (ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه فأوصله إلَى الله منْ حينه)، ولقد نقل عن الشيخ مطر البارداي أنه ما وقع نظره على عاص إلا صار طائعاً، وأمثال هذا من أمته الشريفة أكثر من أن يحصى. وفي الصحيحيْن عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مَثَل ما بعثَنِي الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلا والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أحادير أمسكت الماء فنفع الله بِها الناس فشربوا وسقوْا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلا، فذلك مثل من وفقه الله ونفعه ما بعثَنِي الله به فعلِم وعلّم، ومثل من لَم يرفع بذلك رأساً ولَم يقبل هدى الله

الذي أرسلت به) الحديث.

الخامس: أن يراد ارتفاعها فيه باجتماعها له على التمام، فإنه علم علم الأولين والآخرين وأوتي من كل شيء، ويكفيك في هذا استمداد اللوح والقلم من علومه إذ هما مخلوقان وعلمهما محصور، وهو صلى الله عليه وسلم مُمد المخلوقات وله علوم أخرى من ربه متزايدة أبداً، ويرحم الله البوصيري حيث يقول:

فإن مِنْ جُودك الدنيا وضرتها ... ومِنْ علومك علم اللوح والقلم

ويأتي تقريره بأوسع من هذا.

السادس: أن يراد ارتفاعها بِملازمة الوعظ والتذكير الذي هو روح العلْم ،فقد كانت مجالسته صلى الله عليه وسلم مع أصحابه رضي الله عنهم عامتها مجلس تذكير بالله وترغيب وترهيب، إما بتلاوة القرآن، أو بِما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة وتعليم ما ينفع من الدين كما أمر الله تعالَى، فكانت تلك المجالس تُوجب لأصحابه رقة القلوب والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والإقبال على الله تعالَى والإدبار عن ما سواه.

السابع: أن يراد ارتفاعها بتوفيتها حقها من بذلِها للمستحق وصَوْنِها عن غيره، وخطاب الناس على قدر عقولِهم، وقد نَهى صلى الله عليه وسلم الذي قال له علِّمنِي من غرائب العلم عن طلب ذلك لعدم تأهله وأمره بإحكام ظاهر العلم، وقال (خاطِبوا الناس بِما يفهمون، أتريدون أنْ يُكَذَّب الله ورسوله).

الثامن: أن يراد ارتفاعها فيه بِجمعه ما افترق في النبيين والمرسلين مِما يرتفع به العلم ويعلو، وهو وجوه كثيرة لا حصر لَها، والمذكور هنا بعضها، ولِهذا تأخر بعثه عنهم وختموا به، وفي ذلك من الفضل أنه اطلع على شَمائلهم وخصائصهم وشرائعهم وسائر أحوالِهم.

التاسع: أن يراد ارتفاعها فيه بكمال ثَمرتِها، فكان إذا نظر إليه الناظر ذكر الله، وكانت صفاته وأفعاله وأحواله تذكر بالله، وقد تقدم أنه مرآة ومَجلى لأسرار الذات وأنوار الصفات.

العاشر: أن يراد ارتفاعها فيه بعدم التعلم والاكتساب (كفاك بالعلم في الأُمّي معجزةً)، فإنه لَم يسبق له تعلم شيء من العلوم فيشتبه العلم الموهوب بالمكتسب، ومع كونه لا يكتب ولا يقرأ مكتوباً أطلعه الله على علوم الأولين والآخرين، وجعله القدوة العظمى لِجميع الخلق في كل علم وحكم وحكمة وخلق حسن وكل كمال على الإطلاق، فللأطباء من الحديث أصول أُلِّف فيها غير واحد وجمع منها الأربعون، وهي

أكثر من ذلك، ولأئمة أصول الدين منه أصول وقد جمع السبكي أحاديث في أصول علم الكلام في شرحه على الحاجبية، ولأئمة الطريقة منه أصول جمعها في رسالة الشانين، وجميع أصول المذاهب في كثير من الكتب كشرح الموطأ والمدوّنة والأحاديث في علم التفسير كثيرة، وقوله صلى الله عليه وسلم (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) قال المنجمون هو أصل في رجوع الكواكب الثوابت والسيارة إلَى مواضعها التِي خلقت فيها.

الحادي عشر: أن يراد ارتفاعها فيه بسريانها في القلوب وأخذها بمجامعها وحلولها في سوَيْدائها وصبغها لَها فتتأثر بها وتنفعل لَها حتَى تخرج عن أوصافها وتخلفها أضدادها ويصير رضاه هو محبوبها، وبذلك أُلْفَ بين الفريقيْن المتباعديْن والنوعيْن المتنافرين، وهم العرب والعجم، حتّى صاروا إخواناً، فانظر هذه الرابطة التِي ربط بها قلوبَهم ما أمتنها وأقواها، وتأمل هذه الحلاوة التِي قادتْهم بعْد الشرود، وجمعتهم بعد التفرق ما أدقها وأغلاها. وفي صفته في التوراة كما في حديث عبد الله بن سلام وكعب الأحبار: أجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة وأجعل أمته خير أمة أُخرجتْ للناس. انتهى.

الثاني عشر: أن يراد ارتفاعها فيه بتقدمه إلَى الجواب المصيب في المواطن التِي يحتاج فيها إلَى ذلك كيوم ألستُ بربكم، فإنه كان فيه أول مجيب.

الثالث عشر: أن يراد ارتفاعها فيه بدوام حضورها وملازمة حصولِها من مبدأ الفطرة وأول النشأة من غير تخلل انقطاع ولا عُروض زوال حتَى في الأوقات التِي لا يعهد فيها الحصول للغير، فقد ذكر أهل السير أنه لَما وضعته أمه وقع إلَى الأرض ساجداً رافعاً سبّابته كالمتضرع، وقد قالوا إن الحق أنه صلى الله عليه وسلم متذكر بعد ولادته للميثاق، فتحقق العلم الضروري بالتوحيد، ويجوز أن يجد من نفسه ما يتعبّد به في نفسه في أوقات مخصوصة لصفاء النفس عن ظلام الجهالات بدوام طهرها ونوريتها. فَما نفته آية ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ قد يعتبر في وقت على المعنَى الآتِي، وقال السمرقندي: ما كنتَ تدري قبل الوحي تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلَى الإيمان، قال الحاتِمي: كان القرآن في صدره وكان جبريل مفتاح ما في صدره، وأحسن من هذا وأوضح أن الإيمان بِمعنَى الفرائض والأحكام كما قال القاضي أبو بكر رضي الله عنه، وفي البخاري باب دعاؤكم إيمانكم، وفيه الحياء من الإيمان، والجهاد من الإيمان، وقيام تراويح رمضان من الإيمان، وصيام رمضان احتساباً من الإيمان، والصلاة من الإيمان، وشاهده من القرآن ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ قال

المفسرون: صلاتكم إلَى بيت المقدس، فالمعنَى ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الفرائض والأحكام قبل نزول الوحي عليك ومجيء جبريل إليك، والمقصود من الآية أمران: أحدهما تعدد نعمه تعالَى عليه صلى الله عليه وسلم، وثانيهما الاحتجاج على نبوءته بأميته أي أنك جئت بما لَم تكن تعلم.

وبالجملة فأمزجة الأنبياء عليهم السلام لَما كانت أعدل الأمزجة، عصمهم الله تعالَى من نسيان التوحيد الميثاقي ولَم تتخلله فترة، إذ لو كان توحيدهم عن نظر وتفكر كان الشك طارئاً عليهم قبل النظر وفي مدة النظر، لأن النظر اكتساب المجهول، وذلك غير لائق بمنصبهم، فما بالك بمن له أعْدَل المزاج المنبأ قبل كل أحد وقبل خلق كل أحد.

الرابع عشر: أن يراد ارتفاعه فيه بقوتِها حيث جمع بين تذكير الخلق وسياستهم في الحروب وغيرها، فكان جامعاً بين النبوءة والسلطان، ومن أسمائه صاحب السلطان، وقال القاضي أبو بكر بن العربي [قوله تعالَى] ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ ﴾ ثُم مكنه من السيطرة وآتاه السلطنة ومكن به دينه في الأرض.

الخامس عشر: أن يراد ارتفاعها فيه بقوتها حيث قوي على ما لَم يقو عليه غيره من آداب الرؤية حتَى أثنَى الله عليه في أدبه وكمال عبوديته بقوله ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ ﴾، قال في المواهب اللدنية نقلاً عن مدارج السالكين أي لَم يتجاوز البصر حدّه فيطغى ولَم يَملْ عن الْمَرْئي فيزيغ، بل اعتدل البصر على المرئي ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله تعالَى والإعراض عن ما سواه، وأنه أقبل على الله بكليته، وللقلب زيغ وطغيان، كما أن للبصر زيغاً وطغياناً، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلَى غيره ولَم يطغ بمجاوزة مقامه الذي أقيم فيه، وهذا غاية الكمال والأدب مع الله تعالَى الذي لا يلحقه فيه سواه.

السادس عشر: أن يراد ارتفاعها فيه بقدرته على الثناء الذي لا يقدر عليه أحدٌ يوم القيامة، فإنه ينبُع من قلبه على لسانه من الثناء ما لَم يسمع به أحد من خلق الله في شفاعته لفصل القضاء بعد تقدمه على جميع الأنبياء والمرسلين، فيعترفون له بفضله عليهم، وذلك من آثار قوة علمه، وهو معنَى اسمه خطيب الأمم.

السابع عشر: أن يراد ارتفاعها فيه بِملازمة النمو والزيادة ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾، ولَم يزل ولا يزال صلى الله عليه وسلم يترقى في المعارف، وكلما انتقل عن مقام إلَى ما فوقه عدّ الكون في السابق قصوراً فاستغفر، فمِن ثَم كثر استغفاره صلى الله عليه وسلم

مع عصمته، وقال إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله كذا وكذا مرة، أي غيْن أنوار.

الثامن عشر: أن يراد ارتفاعها فيه بسلوك الطريق الأقوم والسبيل الأنفذ الذي لا يعثر عليه إلا أعلم الخلق بالله تعالى، فكان صلى الله عليه وسلم يظهر الافتقار إلى الله تعالى تارة والاستغناء به أخرى، جمعاً بين الصبر والشكر، فشدّ على بطنه الحجر من الجوع، وأشبع ألفاً من صاع، وقضاياه في هذا كثيرة مبسوطة في كتب السير، وقد اختلف الصوفية ما الأفضل؟ هل إظهار الافتقار إلى الله أو إظهار الاستغناء بالله؟ قال الشيخ زروق رضي الله عنه: والصواب أن الأفضل إظهار هذا تارة والآخر أخرى، لأنه حاله صلى الله عليه وسلم، وقد خيّره الله بين أن يكون نبياً ملِكاً ونبياً عبداً فاختار أن يكون نبياً عبداً وقال: أجوع يوماً فأسأل وأتضرع وأشبع يوماً فأحمد وأشكر، أو كما قال صلى الله عليه وسلم، وفي الشمائل من حديث أنس عن أبي طلحة قال شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا له عن بطوننا عن حجَر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه عن حجرين، قالوا ليعلم صحبه أنه ليس عنده ما يستأثر به عنهم، لا أنه فعل ذلك لِما به من شدة الجوع فإنه كان يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه، ويدل لذلك أنه جاء عن جمع أنه كان مع ذلك لا يتبين عليه أثر الجوع أصلاً بل كان حسن الجسم متين القوة جداً. قال المنَوي: وبهذا التقرير يعلم أنه لا ضرورة بل ولا ملجأ إلى ما سلكه أبو حاتم بن حبّان من إنكار حديث وضع الحجر رأساً لِخبر الوصال المذكور وإن الرواية إنّما هي الحجز بالزاي وهو طرف الإزار فتصحف، قال الحافظ ابن حجر: وقد أكثر الناس الرد عليه، وقال التاج السُّبْكي بعد أن ذكر ما قاله ابن حبّان في نظر، وقد أخرج ابن حبّان قبله بأوراق يسيرة حديث ابن عباس: خرج أبو بكر بالهاجرة الحديث، وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيديه ما أخرجني إلا الجوع، وفي الجوع أحاديث كثيرة وهو لا يقضي نقصاً بل فيه رفعة لدرجته العليا صلى الله عليه وسلم، والجمع بين ذلك وقضية الوصال أنه صلى الله عليه وسلم كان له أحوال بحسب ما يختاره الله عز وجل ويرتضيه، فتارة الجوع، وتارة التقوية على الصوم، وكل حال بالنسبة إليه لوقته أكمل وأولى، هكذا خطر لِي، والذي أنا عليه الآن آني لا أدري من حاله صلى الله عليه وسلم في الجوع شيئاً. انتهى.

ومما ينبغي أن يتنبه له هنا ما ذكره التاج السبكي رضي الله عنه قال: الذي أعتقده أن جوعه كان جوعاً اختيارياً لا اضطرارياً، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يقدر على طرده عن نفسه: إما بأن تنصرف عنه شهوة الطعام والشراب مع بقاء القوة بإذن الله، وإما بتغذية الله المغنية له عن الطعام والشراب، وإما بتناول الغذاء، فقد كان صلى الله عليه

وسلم قادراً على ذلك، وسماعي مرات كثيرة من الشيخ الإمام الوالد رحمه الله وهو مُعتقد أنه صلى الله عليه وسلم لَم يكن فقيراً قط ولا كانت حالته حالة الفقراء بل كان أغنَى النَاس بالله وكان الله تعالَى قد كفاه أمر دنياه بنفسه وعياله ومعاشه؛ وأحْفظ أن الشيخ الإمام رحمه الله أقام من مجلسه مَنْ قال كان النبي صلى الله عليه وسلم فقيراً قياماً صعباً وكاد يسطو به، وكان رحمه الله يقول في قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم أحْيني مسكيناً) المراد به استكانة القلب لا المسكنة التي هي ألا يجد ما يقع موقعاً من كفايته، والحق معه في هذا؛ فإنّ من جاءت إليه مفاتيح خزائن الأرض وكان قادراً على تناول ما فيها كل لحظة كيف يُوصف بالعدم.

ومِما ينبغي أن يُتنبه له أيضاً ما ذكره إلا ليرى من أن الشبع في حقه إنّما هو ما يحمل جسمه ويحفظ حياته وصحته لا الامتلاء من الطعام والشبع المتعارف.

التاسع عشر: أن يكون ارتفاعها في مقابلة التنَزل؛ وذلك أن النبِي صلى الله عليه وسلم خصّ بعلم الْمسميات، وكان لآدم علم الأسْماء، كما قال البوصيري رحمه الله:

لـك ذاتُ العلـوم مـن عـالم الغيـب ومنـــــها لآدم الأسْمـــــاءُ

ولا شك أن الحقائق أشرف وأغلى، فوصفت بالارتقاء، ووصفت الأسْماء بالتنَزل النسبِي المقابل لارتفاع الحقائق، وإنْ كان علم الأسْماء شريفاً رفيعاً أيضاً.

قوله رضي الله عنه: **(وتنَزّلت علومُ آدم)**

اعلم أن الموجودات لَها حقائق ومفهومات، ولَها حدود حقيقية بالاعتبار الأول، وحدود رسْمية بالاعتبار الثاني، والمفهوم هو ما يفْهم من الاسم في الجملة، وهو للموجود والمعدوم، والحقيقة ماهية الشيء على سبيل التفصيل، ولا تكون إلا للموجود، فكان لسيدنا آدم بالنسبة للأشياء التي عُرضت عليه علم المفاهيم، ولسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم علم الحقائق وفي ضمنه قطعاً علم المفاهيم، فعرفها من الوجه الأعم والأخص، والثاني اختص عن آدم، والله أعلم، وهذا هو الذي يلوح إليك كلام الكشاف، إلا أنه لَم يتناول إيضاحه، وقول صاحب الهمزية (ومنها لآدمَ الأسْماءُ) أي من حيث دلالتها على المسميات فلا ينافِي ما قلناه، وقول ابن حجر في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها أنه علم الأسْماء فقط وهو الذي سلكه في الهمزية، وثانيها أنه علم المسميات فقط، وثالثها أنه علمهما وهو رأي الكشاف، لا أفهمه وكيف يتصور القول بأنه علم أحدهما فقط مع تطبيقه الأسْماء على المسميات، فالخلاف عند التحقيق لفظ، والله أعلم. فمَن قال علم الأسْماء معناه من حيث دلالتها، ومن قال علم المسميات معناه من حيث الدلالة عليها، والذي يُبين لك ما ذكرناه قوله تعالَى ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ أي

مسميات الأسماء مع قوله ﴿ أَنبِئْهُم ﴾ فدل ذلك على أن الذي عرفه آدم ليس مجرد الأسماء إذ عرض المسميات وسؤاله عن أسمائها وجوابه بتطبيق الأسماء عليها بِعَينِه، وعلم المفاهيم هو الذي يقتضيه إطلاق الألفاظ ويتوقف عليه تطبيق الأسماء ولا يتوقف ذلك على علم الحقائق.

فإنْ قيل: إذا عرضت المسميات عليه فهي موجودة، والذي للموجود الحقائق؟

قلت: إطلاق الأسماء إنّما يقتضي الفهم الإجمالي كما سبق، وأيضاً الثابت في ذلك الوقت إنّما هو تَمثيل الأشياء المعروضة كما وقع في إخراج الذرية يومَ ألستُ بربكم، وفي ابن جزي: عرضت عليه أشخاص أولاده، بل أخرج ابن جرير عن أبِي زيد في قوله ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ قال أسْماء ذريته أجمعين ثُم عرضهم قال أخذهم من ظهره، ذكره في الدر المنثور، وفيه عن ابن عباس أنه عرض عليه أولاده إنساناً إنساناً، واختصاص النبِي صلى الله عليه وسلم بعلْم الْمسميات ثابت، فلم يبق إلا ما سبق. ثُم هذا هو الذي أعجز به الملائكة وامتاز به عنهم؛ وهو كاف في ذلك، ولا ينافِي أن الله تعالَى أطلعه بعد ذلك على حقائق ما أراد أن يطلعه عليه، فالإضافة لآدم إشارة لِهذا أي للعلوم التِي أعجز بِها الملائكة، ولا ينافيه أن تكون له علوم أخرى، فاختص نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن آدم في ذلك الوقت بِما ذكرناه، وبعد حصول الحقائق لآدم اختص عنه كغيره من الأنبياء بالعموم فيها، وفي الكلام إشارة إلَى أن الخصوصية التِي امتاز بِها آدم عن الملائكة وكانت سبباً لأمرهم بالسجود له حصلتْ لنبينا صلى الله عليه وسلم وزاد بعلم الحقائق. أخرج الديلمِي عن أبِي رافع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلت لِي أمتِي في الماء والطين وعلمت الأسْماء كلها كما علم آدم الأسْماء كلها. انتهى.

فحاصلُ المعنَى أن النبِي صلى الله عليه وسلم اجتمع فيه علم الحقائق وعلم المفاهيم، والأول أعلى وأشرف، فلهذا وصف علم الحقائق بالارتقاء، ووصف علم المفاهيم بالتنَزل وهو نسبِي وإلَّا فعلم المفاهيم عالٍ شريف وناهيك بعلم اقتضى سجود الملائكة للمتصف به، وفيه مطلوب لارتقت وتنَزلت على حد ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، وعطف جملة تنَزلت على جملة ارتقت، مِنْ عطف المغاير، إذ مضمون الثانية غير مندرج في مضمون الأولَى لِما عرفت من أن الحقائق غير المفاهيم التِي عبّر عنها بعلوم آدم. غاية الأمر أن مضمون الثانية لازم لِمضمون الأولَى لِما مر من أن علم المفاهيم في ضمن علم الحقائق، فهو من عطف اللازم، ويحتمل أن يكون من عطف

الأخص على الأعم، فيراد بالحقائق ما يتناول المفهومات لأنّها معلومات أيضاً، والمراد حقائق كل علم، ويراد بالارتقاء مطلقه، ولا شك أن الجميع مرتق كما مرّ، هذا باعتبار النظر الإجمالِي، وإذا نظرتَ بالتفصيل وجدتَ المرتبتين مفترقتين، فأشير للأول بالجملة الأولَى، وإلَى الثاني بالثانية، فافهم.

وهاهنا وجه آخر في معنَى التنَزل: وهو أن علوم آدم التِي ألقاها إلَى بنيه من النبيين والمرسلين رفعتْ بقبضهم وموتهم ولَم تبق على حقيقتها، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم نزلَها إليه، فليس التنَزل حينئذ في مقابلة الارتقاء.

فإن قلتَ: جميع علوم النبيين والمرسلين تنزلت فيه صلى الله عليه وسلم كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم (أوْرَثنِي ربّي علوم الأولين والآخرين)، وفي شرح البردة للزركشي عن ابن عباس أنه لَما ولد قال في أذنه رضوان خازن الجنة (أبشرْ فما بقي لنبِي علم إلا وقد أعطيته فأنت أكثرهم علماً وأشجعهم قلباً)، فلِمَ أضيفت العلوم لِخصوص آدم وهلا أطلقت أو أضيفت للجميع؟

قلتُ: لبيانه أنه صلى الله عليه وسلم تنَزل فيه العلم المعجز لكافة المخلوقات، فإن علوم آدم أعجز بِها الملائكة حتّى قالوا لا علم لنا، فأضيفت له، ففي مدحه صلى الله عليه وسلم إشارة لِهذه النكتة، ويعلم حينئذ من اللفظ تنَزل علوم غيره فيه من كوْنه هو الأب الأكبر للكل وإنْ تقادم عصره ومع ذلك تنزلت علومه فيه فأحْرى غيره من بنيه، وعبّر بِجمع الكثرة لِمناسبته للمقام ومطابقته للواقع، والتنَزل على هذا الوجه الثانِي في حقيقته، لأن المراد بعلوم آدم أسْماء المسميات وهِي توصف بالإنزال والتنَزل، وعلى الوجه الأول شبه التفاوت النسبِي بالتنَزل وجاءت الاستعارة تَبعية.

وهاهنا وجه ثالث: وهو أن يراد بتنَزلِها انقيادها له وإذعانها إليه وعدم استصعابِها عليه.

ورابع: وهو أن تكون الإشارة بالجملتين المتعاطفتين إلَى أنه صلى الله عليه وسلم الموروث في حضرة الجمع والوجود الروحانِي، والوارث في حضرة الفرق والوجود الجسمانِي، فهو الذي ورّث العلوم لآدم وبنيه، ثُم ورثها منهم، إذ هو أول الأنبياء نبوة كما تقدم وخاتم النبيين، ويراد بالحقائق حينئذ علوم آدم عبر عنها بذلك إشارة إلَى أن علمه لَم يكن بِمجرد الأسْماء كما مر، وفي الداخلة على ضميره صلى الله عليه وسلم على هذا الوجه بِمعنَى من وإلَى جميعاً من قبيل استعمال المشترك في معْنَيه، أي وإليه ارتقت الحقائق، ومنه تنزلت، لَما أخذها وصفت بالارتقاء، ولَما أعطاها وُصفت بالتنزل، لأنه لا رتبة فوق رتبته، وهذا بديع المعنَى وإنْ كان لا يخلو عن تكلف في

اللفظ، ووصف العلوم على ما قبله بالارتقاء والتنزل باعتبار المعلوم وعليه باعتبار العالم، ولا نقص أصلاً يلحق المفضل عليه، بل مشاركتهم له في أصل المعنَى غاية في الشرف والجلالة، ولنذكر لك ما يؤنسك ويثبت فؤادك ويعرفك ببعض جلالة منصبه صلى الله عليه وسلم وعلو قدره على الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام:

قال الإمام العارف بالله تعالَى سيدي أبو محمد عبد القادر الجيلانِي رضي الله عنه بعد كلام له في قضية الإسراء: ثُم عاد إلَى معالِمه وأهل عالَمه ورؤساء الملائكة تضع أجنحتها في مواطئ قدميه، والروح الأمين يحمل بين يديه غاشية فخره ويطوف به بين صفوف الملائكة تعظيماً لقدره، وآدم يرفع ألوية جلالته، وإبراهيم ينشر أعلام مهابته، وموسى يناجي حبيبه من جانب غربِي صفحات وجهِ نظرت عيناه محبوبه ليسأل عودة بعد عودة عسى نظرة بعد نظرة، فنادى القدر من جانب الطور قضينا الأمر، وعيسى يتالى بالْمولَى ليتْزلن وليخبرنَ أهل الأرض بما شاع في أرجاء السماء من أخبار قاب قوسيْن. انتهى. ويرحم الله سيدي رشيد البغدادي حيث يقول في قافية الميم:

مشى وخذه والحجْب ترفع دونه وأملاكها تسعى له وتقوم

وقال في قافية الحاء:

حبيب سرى للعرش يا لك رفعة تقاصر إدريس لَها ومسيح

وخامس: وهو أن يراد أنّها تنَزلت فيه وقت سجود الملائكة لآدم أي فيه في الحقيقة كان تنَزلها إذ ذاك: لأن نوره كان في جبينه. قال ابن حجر: ومن ثم قال بعض المحققين: إنّما سجد الملائكة لأجل نور محمد صلى الله عليه وسلم في جبينه. ويرحم الله ابن وفا حيث يقول:

لو أبصر الشيطان طَلعة نوره في وجه آدم كان أوّل من سجَد

وسادس: وهو أن يراد أنّها تنَزلت فيه صلى الله عليه وسلم قبل وجود آدم، وهو الذي أمده بِها، ومن ثَم قيل فيه صلى الله عليه وسلم أنه آدم الأكبر إذ هو أبو الأرواح.

وسابع: وهو أن يراد بتنَزلِها فيه تلقيه إياها بلا واسطة، بِخلاف غيره فإنه لا غنًى له عن واسطته صلى الله عليه وسلم، والإرث منه على الوجه السابق. وسيأتي (ولا شيء إلا وهو به منوط)، وبِهذا يتبيَّن انحصار تنَزلها فيه صلى الله عليه وسلم لأن هذا المعنَى ثابت له ومختص به، ولِهذا قدّم الشيخ رضي الله عنه.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به **(فأعجز الخلائق)**

فيه احتمالان، لأن أحدهما أن يكون فاعل أعجز ضمير آدم، والفاء للسببية والاستنتاج عن خامس الوجوه في النص قبله: أي فيه في الحقيقة تنَزلت علوم آدم

وقت سجود الملائكة له فأعجز آدم بسبب ذلك وهو تنزل تلك العلوم لِحلول نوره صلى الله عليه وسلم فيه الخلائق، وأل للاستغراق لأن الإعجاز وإنْ كان للملائكة فهو لِغيرهم من باب أخرى، وثانيهما أن يكون فاعل أعجز ضمير النبِي صلى الله عليه وسلم وفيه وجوه:

أولُها: أنه حيث ارتقت فيه الحقائق وتنزلت فيه علوم آدم، فجمع بين علْم الأولين والآخرين، وأتى بِما لَم يأت أحد بِمثله، وأخبر بوقائع القرون السالفة وقصص الأمم الماضية وبالمغيبات الآتية مع أميته وعدم قراءته وكتابته، أعجز جميع الخلائق، ويرحم الله القائل:

قلبِي بنجْدٍ نازل بقباب فيها مليحٌ سَيد الأعراب

عرضتْ عليه كنوز الأرض فلَم يرد علماً بأن مصيرها لذهاب

وإذا سألت عن العلوم فإنه لَمدينةٌ مفتوحة الأبواب

وقال آخر:

فإنْ تك فاتِح الخيرات طرّاً فإنك قد ختمت الْمرسلين

علوم الآخرين عليك قُصّت وقد أوتيتَ علوم الأولين

وأما مسألة الرؤية المشار لَها فقال القاشاني: اختلف فيها، فقيل رآه بعينِي رأسه، وقيل بعينِي قلبه. قال الأشعري: ولا يريد به العلْم لأنه صلى الله عليه وسلم عالِم بالله في سائر الأزمان فلا بد من حمله على قدر زائد على ذلك يسمّى رؤية. قال النووي: والراجح عند الأكثر أنه رآه لأن ابن عباس أثبته، وليس مِما يدرك بالاجتهاد فإنّما قاله لأنه سمعه، وعائشة لَم تستند في النفس إلَى حديث بل استنبطته، واستنباطها مجاب عنه بأنّها احتجّت بآية ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، وأجاب الجمهور بأن الإدراك هو الإحاطة، والله تعالَى لا يحاط به، وإنّما يراه المؤمنون في الآخرة بغير إحاطة، وكذلك رآه النبِي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء. انتهى. وقال السبكي: اختلف فيه على ثلاثة أقوال: الأول أنه رأى ربه وهو قول أكثر السلف وجماعة الصوفية، قال النووي وهو الصحيح، والثاني أنه لَم ير وهو قول أكثر الأشاعرة وبعض السلف، والثالث الوقف وهو اختيار القاضي عياض، والحق أنه رأى وأن ذلك مخصوص به دون سائر الأنبياء. انتهى. قال الطيبي بعد ذكر الخلاف: الحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أنه رأى ربه بعينَي رأسه ليلة الإسراء وإثبات هذا ليس إلا بالسماع منه صلى الله عليه وسلم هذا مِما لا ينبغي أن يشك فيه. وقال المحلِيّ: اختلف الصحابة في وقوعها له صلى الله عليه

وسلم ليلة المعراج، والصحيح نعم. وعن المرّوزي: قلت لأحمد إنّهم يقولون إن عائشة قالت من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فبأي معنًى يدفع قولُها؟ قال: بقول النبِي صلى الله عليه وسلم: رأيتُ ربّي، وقول النبِي أكبر من قولِها. انتهى.

وكذا اختلفوا هل سمع الكلام، فأثبت ذلك ابن عباس وجماعة من السلف والأشعري في جماعة من المتكلمين محتجين بقوله تعالَى ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ ﴾ قالوا معناه دون واسطة، ونفاه جماعة قالوا والمراد بالعبد جبريل أو محمد عليه السلام ولكن الموحِي جبريل. قال الأبيّ: سَماع الكلام حينئذ جائز، والجزم يفتقر إلَى قاطع، وإذا كان وجه اختصاص موسى عليه السلام بذلك شرفه، فالنبِي صلى الله عليه وسلم أولَى، وذكر النقاش في قوله ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ ﴾ قال: فارقنِي جبريل وانقطعت عنّي الأصوات فسمعتُ كلام ربّي: ليهدأ روعك يا محمد ادنُ ادنُ، وذكر البزار ما هو أبين فقال: فخرج ملَك فقال الله أكبر الله أكبر، فقيل من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر، وقال في بقية كلمات الأذان مثل ذلك. انتهى.

وقال القرطبِي: الحكمة في أمر موسى بمراجعة النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الصلوات يحتمل أن يكون لكون أمة موسى عليه الصلاة والسلام كلفت من الصلوات ما لَم يكلف به غيرها فثقلت عليهم فأشفق موسى على أمة محمد صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، ويشير إليه قوله: إنّي قد خبرت الناس قبلك. انتهى. والذي أوحي لِموسى هو ما تقدم من قول الله له: أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلَى لسانك الخ، كما في الحلية. وتقدّم قول القطب أبِي محمد عبد القادر: وموسى يناجي حبيبه فراجعه. وقال بعض أهل الإشارة: لَما سأل موسى عليه الصلاة والسلام الرؤية ولَم تحصل له البغية بقي الشوق بغُلّته والأمر بعِلته، فلما تحقق أن سيدنا محمداً الحبيب منح الرؤية وفتح له باب المزية، أكثر السؤال واستعد لرؤية من قد رأى، كما قيل:

وأستنشق الأرواحَ من نحو أرضكم ... لعلّي أراكم أوْ أرى مَنْ يراكمُ
وأنشد من لاقيت منكم عَساكم ... تَجودون لِي باللطف منكم عساكم
فأنتم حياتِي إن حَييت وإنْ أمُتْ ... فيا حبذا إن متُّ عبْدَ هَواكم

ويرحم الله القائل:

وإنّما السر في موسى يردده ... ليجتلي حُسْن لَيْلَى حِينَ يشهده
يَبْدُو سَناها على وجه الرسول فيا ... لله در رسول حين أشهده

وقال آخر: لَما جلس الحبيب في مقام القرب، ودارت عليه كؤوس الحب، ثُم عاد وهلال ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ بيْن عينيه، وسر ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ ملأ قلبه وأذنيه، فلما اجتاز بِموسى عليه السلام قال لسان حاله:

يـا وارداً مـن أُهَيْـل الحـي يُخبرنـي ... عـن حيرتـي شـنف الأشـماع بـالخبر
ناشـدتك الله يـا راوي حـديثهم ... حدث فقد ناب سَمعي اليوم عن بصري

فأجاب لسان حال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

ولقـد خلـوتُ مـع الحبيـب وبيننـا ... سـرٌ أرقُّ مـن النـسيم إذا سَـرى
وأبـاح طرْفِـيَ نظـرةً أمّلتُـها ... فرجعتُ من فيض الجمال كما تـرى

وقال سيدي أحمد الحلبي رحمه الله تعالى في هذا المعنى:

رجـوع الحبيـب سـرٌ خفـي ... للكلـيم فـي طيـه انـصباءُ
أودع الطـور فيـه أنـوار نيـران ... التجلـي والـسرُّ حـاء وبـاءُ
لـن ترانـي أبقـى بـه نـار شـوق ... لَـم يـزل فيـه ذاك الإبقـاءُ
فأضـاءت مـا حولـه وهـو بـالواد ... الْمقـدس فـي الـدُّجى الأضـواءُ
وتَجلـت وَرا البراقِيـع ليْلَـى ... ومـرادُ الكلـيم ذاك الـوراءُ
فاشـتهى نظـرة إليهـا فقالـت ... مـا بهـذا المعنَـى يـصحُ اللقـاءُ
لـو كـشفت النقـاب لازددت طيـشاً ... وتوالـت أنفاسـك الـصعداءُ
دُم عـشيقاً لرؤيتـي وجمـالي ... ودموعـك دِيمـة وطَفـاءُ
فتمنَّـى الوسـيطَ بـيْن مُحـب ... وحبيـب يغـدّى بـه ويُجـاءُ
ويـرى مَـن يـرى الحبيـب ولـوْ مِـنْ ... خلـفِ خلـفٍ ومـا لـذاك انقـضاءُ
مـا أجلّـك يـا حبيـب الإلـه ... الْمـصطفى حـين تفخـر الكبـراءُ

وارتقاؤه إلَى العرش ورؤيته إياه ذكره ابن المنير لَما ذكر المعارج العشرة، واعترض عليه نجم الدين الغيطي بأنه لم يجئ في الحديث الصحيح إلا ما رواه ابن أبِي الدنيا عن أبِي المخارق وهو مما لا تقوم به الحجة. ونحوه قول القزويني إنّما صح انتهاؤه إلَى سدرة المنتهى وأما إلَى ما وراءها فإنّما ذكر في أخبار ضعيفة أو منكرة. قال بعضهم قد صح أنه دخل الجنة وقد ورد أن العرش سقفها. وأيضاً المراد من هذا بيان زيادة المزية والفضيلة، لا إثبات حكم من الأحكام، فلا بأس بذكر الضعيف فيه. وأيضاً فقد أخرج ابن قانع والطبراني وابن مردويه عن أبِي الحمراء عنه صلى الله عليه وسلم لَما أسري بِي إلَى السماء السابعة فإذا على ساق العرش الإيمان لا إله إلا الله محمد

رسول الله. وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما عرج بي رأيت على ساق العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله أيّدته بعَلي. وأخرج ابن عساكر عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليلة أسري بي رأيتُ على العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر الصديق عمر الفاروق عثمان ذو النورين.

تنبيه: يجب على كل مسلم سَمع طلبه لأمته وشدة اهتمامه بهم، عند إرادة رجوعه من المناجاة وفي غير ذلك، أن تعظم محبته صلى الله عليه وسلم في قلبه بأن يتأمل ذلك حق التأمل ويصوب فيه النظر ويقول: مَنْ نحن حتّى يعْتني بنا هذا السيد الأعظم هذا الاعتناء، فيعظمه حينئذ ويُوقره باتباع سنته ولزوم طريقته، ولا يسعى إلا فيما يرضيه، ولا يحب أن يأتيه يوم القيامة إلا بِما يحب أن يظهر على أمته، فإن المتبوع يسره ما يظهر على أتباعه من الخيرات والمزايا عند عرضهم على سيده ومليكه، حتّى أن أصحاب الرؤساء والوزراء يسْعون بكل ما يُمكنهم في جبر خواطر ساداتِهم عند توجههم لِملاقاة الملِك، ويتفاخر الكبراء عند ذلك بِما يظهر على يد أصحابِهم مِما يرضي الملك، وناهيك بتفريح رسول الله صلى الله عليه وسلم وإدْخال السرور عليه، فتستحضرْ هذه النية عند الأقوال والأفعال يسهل عليك إن شاء الله هذا المنال. وانظر إلَى ما ذكره القرطبِي في التذكرة من قوله صلى الله عليه وسلم: فإذا عصف الصراط بأمتِي نادوا وامُحمّداه وامُحمداه فأبادر من شدة إشفاقي عليهم، وجبريل آخذٌ بحجرتِي فأنادي رافعاً صوتِي رب أمتِي رب أمتِي لا أسألك اليوم نفسي ولا فاطمة ابنتِي. انتهى. وتفهم منه شفقته علينا ورأفته بنا، أفلا نسعى مع هذا في تفريحه، ومن هنا، والله أعلم، عظم ثواب من دعَى لأمته حتّى كان لِمن قال كل يوم: اللهم اغفرْ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم اللهم ارحمْ أمة محمد صلى الله عليه وسلم اللهم اسْتُرْ أمة محمد صلى الله عليه وسلم اللهم اجْبر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه يكتب من الأبدال، لِما فيه من تفريحه صلى الله عليه وسلم بالاعتناء بأمته.

ومَنْ عمل بِهذه النية كثر ثواب عمله وسهل عليه العمل، إذ من استحضر أنه يرضي محبوبه الجليل العظيم الوجيه الفخيم خف عليه ما كان ثقيلاً وقصر في نظره ما كان طويلاً وجاد بِما كان به بخيلاً.

ثانيها: أنه هو الذي أعجز الملائكة وقت قوْل الملائكة ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ إذ فيه على الحقيقة تنَزلت العلوم، ويُؤخذ إعجاز غيرهم بالأخروية.

ثالثها: أنه هو الذي أعجز جميع أمم المرسلين في كل عصر من أعصارهم، إذ فيه

تنزلت علومهم كلها، وإنّما أضيف لخصوص آدم لِما مر.

قوله رضي الله عنه **(وله تضاءلت الفهوم)**

معناه تصاغرتْ عن إدراكه ولَم تحط بحقيقته لقوله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر والذي بعثني بالحق لَم يعلمني حقيقة غَيْر ربّي، فاللامُ في (له) بِمعنَى (عن)، وباقِي الشرح واضح.

تنبيه: روي عن أويس القرني رضي الله عنه أنه قال لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأيتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ظله، فقالوا: ولا ابن أبِي قحافة، فقال: ولا ابن أبِي قحافة. ولَما ذكر هذا عند الشيخ أبِي الحسن الشاذلِي رضي الله عنه قال: صدق أويس رضي الله عنه إن علياً رضي الله عنه كان مقامه إدراك نفْس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعثمان رضي الله عنه إدراك قلبه وعمر رضي الله عنه إدراك عقله وأبو بكر رضي الله عنه إدراك روحه، وحقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم السرُّ المكنون لا يطلع عليه إلا الله تعالَى.

قال الإمام الخرُوبِي الطرابلسي: حقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم سرٌّ لطيف من أسرار الحق تعالَى لا يطلع عليه في هذه الدار سوى الرب جل جلاله ولا يكشفه أحد غيره تعالَى لا نبِي مرسل ولا ملَك مقرب، إذ حقيقته أحمدية من السر المكنون والأمر المصون الذي انفرد به تعالَى، وما أدرك المؤمنون منه إلا ظاهر صورته المحمدية وهو الذي عبّر عنه أويس القرني بالظل.

ثُم إن المؤمنين متفاوتون في إدراكهم، فكل أدرك من ذلك بِحسب قربه منه، وأعظم الناس إدراكاً الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، كما هم أشد الناس قرباً منه صلى الله عليه وسلم، لكن لَما اختلفت مقاماتُهم اختلف إدراكهم، فكل ذي مقام أدرك منه صلى الله عليه وسلم حقيقة توافق مقامه، وإلَى هذا أشار الشيخ أبو الحسن الشاذلِي رضي الله عنه.

فإن قيل: ما السرُّ في أن كل واحد من الخلفاء أدرك حقيقة من هذه دون غيرها؟

فالجواب: أن كل واحد أدرك من الحقائق ما يقتضيه مقامه وحاله، فعلي رضي الله عنه لَما غلب عليه علم الشرائع وكان حاله الانبساط بِها كان حاله يقتضي إدراك نفس من ورث العلوم منه وهو سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الانبساط من شأن النفس، ولِهذا قيل: لوْ حاولت النفس كل المحاولة على أن تصمت لَما صمتت. وعثمان رضي الله عنه لَما كان حاله التفكر في العلوم كان حاله يقتضي إدراك قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن القلب شأنه التفكر. وعمر رضي الله عنه لَما كان

شأنه التدبر في العلوم كان حاله يقتضي إدراك عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن العقل من شأنه التدبر. وأبو بكر رضي الله عنه لما كان الغالب عليه علم الحقائق وكان حاله الانقباض عليها، كان حاله يقتضي إدراك روح رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الروح من شأنها الانقباض على العلوم الحقيقية، ولهذا قيل: إن الروح من شأنها الصمت فلو حاولت كل المحاولة على أن تنطق لما نطقت. وكل من الخلفاء رضي الله عنهم أجمعين، وإنْ غلب عليهم علم أو حال أو كان مقامه مغلوماً من المقامات، فهو في غير العلم الغالب عليه إمام وفي غير حاله ومقامه الغالب عليه صاحب حال أو مقام، وإنّما اشتهر حاله بما هو غالب عليه. انتهى بنقل العلّامة سيدي عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي رحمهما الله تعالى.

قلتُ هذا كلام حسن عجيب تشهد له أحوال الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ونفعنا بهم أجمعين، فتأمل قضية الفريضة المنبرية وهي مشهورة، وما رُوي أن عمر أراد رجم المرأة التي ولدت لستة أشهر فقال له علي: إن الله تعالى يقول ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وقال تعالى ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾، فترك عمر رجمها وقال: لولا علي لَهلك عمر، وكان يتعوذ من معضلة ليس لَها أبو حسن. وسئلت عائشة رضي الله عنها عن المسح على الخفين فقالت: إيت علي فاسأله. ودخل يوماً على عمر فإذا بامرأة حبْلى تُقاد لتُرجَم، فقال يا أمير المؤمنين: لأي شيء تُرجَم إنْ كان لك سلطان عليها فما لك سلطان على بطنها. فضمّها عليّ إليه حتّى وضعتْ ثُم ذهب بها إليه فرجمها. وعن محمد بن حبان أن حبان بن قنفد كان تحته امرأتان هاشمية وأنصارية فطلق الأنصارية ثُم مات على رأس الحول فقالت لِمَ تنقص عدّتي، فارتفعوا إلَى عثمان فقال هذا ليس لِي به علم، فارتفعوا إلَى علي فقال علي: تحلفين عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك لَم تحيضي ثلاث حيضات ولكِ الميراث، فحلفت وأشركت في الميراث. وقال عمر: أقضانا علي. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لِعلي: تخصم الناس بسبع ولا يحاجك أحد من قريش، أنت أوّلُهم إيماناً بالله وأوْفاهم بعهد الله وأقْومهم بأمر الله وأقسمهم بالسوية وأعدلُهم في الرعية وأبْصرهم بالقضية وأعظمهم عند الله مزية. وقال رضي الله عنه: بعثنِي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلَى اليمن قاضياً وأنا حديث السن، فقلت يا رسول الله تبعثنِي إلَى قوم يكون بينهم أحداث ولا علم لِي بالقضاء، فقال: إن الله سيهدي لسانك ويثبت قلبك، قال: فما شككتُ في قضاء بين اثنين. وعن زر بن حبيش قال: جلس اثنان يتغذيان ومع أحدهما خمسة أرغفة وآخر ثلاثة أرغفة، وجلس إليهما ثالث واستأذنَهما في أن يصيب من طعامهما فأذنا له فأكلوا

على السواء، ثم ألقى إليهما ثمانية دراهم وقال هذا عوض ما أكلت من طعامكما، فتنازعا في قسمتها. فقال صاحب الخمسة: لِي خمسة ولك ثلاثة، وقال صاحب الثلاثة: بل نقسمها على السواء. فترافعا إلَى علي، فقال لصاحب الثلاثة: اقبَل من صاحبك ما عرض عليك، فأبَى وقال ما أريد إلا صميم الحق. فقال رضي الله عنه إذاً لك درهم واحد ولصاحبك سبعة. قال: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: لأن الثمانية أربعة وعشرون ثلث، لصاحب الخمسة خمسة عشر ولك تسعة، وقد استوفيتهم في الأكل، فأكلت ثمانية وبقي لك واحد، وأكل صاحبك ثمانية وبقي له سبعة، وأكل الثالث ثمانية، سبعة لصاحبك وواحد لك. فقال: رضيت الآن.

ولَما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلَى اليمن وجد أربعة وقعوا في حفرة حفرتْ ليصطاد فيها الأسد، سقط أولا رجل فتعلق بآخر وتعلق الآخر بالآخر حتَى تساقط الأربعة فجرحهم الأسد وماتوا من جراحاته، فتنازع أولياؤهم حتَى كادوا يقتتلون، فقال علي: أنا أقضي بينكم، فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزت بعضكم عن بعض حتَى تأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي بينكم، اجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر ربع الدية، وثلثها، ونصفها، ودية كاملة، فللأول ربع الدية لأنه أهلك من فوقه، وللثاني ثلثها لأنه أهلك من فوقه، وللثالث نصفها لأنه أهلك من فوقه، وللرابع دية كاملة. فأبوا أن يرضوا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقوه عند مقام إبراهيم فقصوا عليه القصة فقال "أنا أقضي بينكم"، واحتبى ببرده، فقال رجل من القوم إن علياً قضى بيننا، فلما قصوا عليه القصة أجازه. انتهى. ووجهه أن أرباب البئر تلزمهم دية الأول كاملة، إذ لم يشاركهم فيه غيرهم، ويلزمهم للثاني نصف دية، والنصف الآخر يؤخذ من دية الأول، ويلزمهم للثالث ثلث دية، والرابع يؤخذ من دية الأول، ليبقى له الربع الواجب له، والربع والسدس يؤخذ من دية الثاني، ويلزمهم للرابع ربع دية، والربع يؤخذ من دية الثاني، والنصف من دية الثالث، فيبقى بعد التراجع للأول ربع، وللثاني ثلث، وللثالث نصف، وجملة ما دفع أرباب البئر ديتان ونصف سدس دية، وهذا التراجع في الديات إن ثبت قبض من ذكر بالاعتراف، وإلا بالرجوع على العواقل.

وقضاياه رضي الله عنه هذا وأمثاله كثيرة مستفيضة، فهذا حاله الغالب عليه، وإن كان إماماً في غيره.

ثُم تأمل اختصاص سيدنا عثمان رضي الله عنه بِمشاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه، كانت حفصة عند عائشة رضي الله عنهما فقالت لَها: أنشدكِ الله هل

منه الملائكة.

ثم تأمل قضايا سيدنا عمر في موافقة الآيات القرآنية له وحسن استنباطه وإصابة نظره في أدبار الأمور الذي هو أثر التدبّر وإمعان النظر. قال رضي الله عنه: لما اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه وكان قد وجد عليهن فاعتزلهن في مشربة من خزانته، قال عمر: فدخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصا ويقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فقلت لأعلمنّ هذا اليوم، وذلك قبل أن يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجاب، فدخلت على عائشة بنت أبي بكر فقلت يا ابنة أبي بكر بلغ من أمرك أن تؤذين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ما لي وما لك يا ابن الخطاب عليك بعَيبتك، فأتيت حفصة بنت عمر فقلت: يا حفصة والله لقد علمتِ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحبكِ ولولا أنا لطلقك، فبكت أشد بكاء، قال فقلت لها: أين رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت هو في خزانته، قال: فذهبت فإذا أنا برباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً على أسكَفّة الغرفة مدلياً رجليه على نقير، يعني جذعاً منقوراً، قلت يا رباح استأذنْ لي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إلَيّ فسكت، قال: فرفعت صوتي فقلت استأذن يا رباح عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنّي أظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يظن إنّما جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب عنقها لضربت عنقها. قال: فنظر رباح إلى الغرفة ونظر إلَيّ ثم قال هكذا، يعني إشارة بيده أن أدخل، فدخلتُ فإذا هو مضطجع على حصير وعليه إزاره فجلس وإذا الحصير قد أثّر في جنبه وقلبت عيني في الخزانة فإذا ليس فيها شيءٌ من الدنيا غير قبضتين من شعير وقبضة من قرص نحو الصاعين فإذا أفيق معلق أو أفيقان. قال: فابتدرت عيناي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك يا بن الخطاب؟ فقلت: يا رسول الله ما لِي لا أبكي وأنت صفْوة الله ورسوله وخيرته من خلقه وهذه الأعاجم كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت هكذا، فقال: يا بن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولَهم الدنيا، قلت: بلى يا رسول الله فأحمد الله فما تكلمتُ في شيء إلا أنزل الله تعالَى تصديق قولي من السماء. قال: قلتُ يا رسول الله إنْ كنت طلقت نساءك فإن الله تعالَى معك وجبريل وصالِح المؤمنين، الآية. قال: فما أخبرت ذلك نبي الله، وأنا أعرف الغضب في وجهه، حتّى رأيت وجهه تهلل وكشر فرأيت ثغره وكان من أحسن الناس ثغراً، فقال: فإنّي لم أطلقهن، فقلت: يا نبي الله إنّهم أشاعوا أنك طلقتَ نسائك فأخبرهم أنك لم تطلقهن، قال: إن شئت فعلت، فقمت على باب المسجد فقلت: ألا

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يطلق نساءه، فأنزل الله عز وجل في الذي كان من شأنه وشأني ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾. قال عمر: فأنا الذي استنبطته منهم.

ووافق القرآن قوله في آيات متعددة، حتى قال علي: كنا نرى أن في القرآن لكلاماً من كلام عمر ورأياً من رأيه.

وجاء يهودي يوماً إلى عمر فقال: أرأيت قوله تعالى ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ فأين النار؟ فقال لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أجيبوه، فلم يكن عندهم منها شيء، فقال عمر: أرأيت النهار إذا جاء الليل يملأ السموات والأرض قال بلى قال فأين الليل، قال: والذي نفسك بيده يا أمير المؤمنين إنها لفي كتاب الله المنزل كما قلت، يعني التوراة.

ووصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأن الحق ينزل على قلبه ولسانه. وقال علي: كنا نرى ونحن متوافرون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن السكينة تنزل على لسان عمر.

وعن أبي قتادة أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال: يا رسول الله كيف تصوم؟ قال فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: رضيتُ بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبيّاً نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، قال: فجعل عمر يردد ذلك حتّى سكن النبي صلى الله عليه وسلم من غضبه، ثم قال عمر: يا رسول الله كيف من يصوم الدهر كله؟ قال: لا صام ولا أفطر، أي لم يصم ولم يفطر. قال: يا رسول الله كيف بمن يصوم يومين ويفطر يوماً؟ قال: ويطيق ذلك أحد، قال: فكيف بمن يصوم يوماً ويفطر يوماً؟ قال: ذلك صوم داوود، قال: فكيف بمن يصوم يوماً ويفطر يومين؟ قال: وددتُ أنّي أطيق ذلك، ثم قال: ثلاث من كل شهر ورمضان إلى رمضان هذا صيام الدهر كله، وصيام عرفة إنّي أحتسب على الله أن يكفّر السنة التي بعده والسنة التي قبله، وصيام يوم عاشورا إنّي أحتسب على الله أن يكفّر السنة التي قبله.

فهذا من لطيف تدبره واستنباطه.

وعن ابن عمر في فراسته: ما سمعت عمر يقول لشيء قط إنّي لأظنه إلا كان كما يظن.

بينما عمر جالس إذ مرّ به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظنّي أو يكون هذا على دينه

في الجاهلية ولقد كان كاهنهم، عليّ بالرجل، فدُعي له فقال عمر لقد أخطأ ظنّي أو أنا على دينك في الجاهلية أو لقد كنت كاهنهم، قال: ما رأيت كاليوم يستقبل به رجل مسلم، فقال: أعزم عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنتُ كاهنهم في الجاهلية، وكان يوماً جالساً في المسجد إذ مَرَّ به رجل فقيل له أتعرف هذا فقال: قد بلغني أن رجلاً أتاه الله عز وجل بظهر الغيب خبراً بظهور النبي صلى الله عليه وسلم اسمه سواد بن قارب وإنّي لم أره وإنْ كان حيّاً فهو هذا وله في قومه شرف وموضع، فدُعي الرجل فقال له عمر: أنت سواد بن قارب الذي أتاك الله بظهر الغيب بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ولك في قومك شرف ومنْزلة، فقال: نعمْ يا أمير المؤمنين، فقال: فأنت على ما كنت عليه من كهانتك، فغضب الرجل غضباً شديداً وقال: يا أمير المؤمنين والله ما استقبلني بِهذا أحد منذ أسلمت، قال عمر: سبحان الله ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك أخبرني عن ما كان يأتيك به رئيك بظهور النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: نعم يا أمير المؤمنين بيْنا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني جنّي فضربني برجله وقال قمْ يا سواد بن قارب وافهم إن كنت تفهم واعقل إن كنت تعقل قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول:

عَجبت للجن وتجساسها ... وشدها العيس بأحلاسها

تَهوي إلَى مكة تبغي الْهُدى ... ما خَيْرُ الْجن كأنجاسها

فارحلْ إلَى الصفوة من هاشم ... واسم بعينيك إلَى رأسها

ثم أتى في ليلة ثانية وثالثة يقول لي مثل قوله الأول وينشدني أبياتاً، فوقع في نفسي حُب الإسلام ورغبت فيه، فلما أصبحت شددت على راحلتي فركبتها وانطلقت إلَى مكة فأخبرت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد هاجر إلَى المدينة فقدمت المدينة فسألت عن النبي صلى الله عليه وسلم فقيل لِي في المسجد فأتيت المسجد فعلقت هامتي فقال لِي اذنُ فلم يزل يدنيني حتّى قمت بين يديه فقال هات فقصصت عليه القصة فأسلمت ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقالتي وأصحابه حتّى رئي الفرح في وجوههم. قال: فوثب إليه عمر والتزمه وقال: لقد كنت أحب أن أسمع هذا الحديث منك، فأخبرني عن رئيك هل يأتيك اليوم؟ قال: أما منذ قرأت القرآن فلم يأتني ونعم العوض كتاب الله.

وكان رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها، فأصاب الناس مخمصة فاستأذن الناس رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في نحر بعض ظهورهم، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن لَهم فقال عمر بن الخطاب: أرأيت يا

رسول الله إن نحن نحرنا ظهورنا ثم لقينا عدونا غداً ونحن جياع رجالة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فما ترى يا عمر؟ قال: أرى أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم ثم تدعو فيها بالبركة فإن الله عز وجل سيطعمنا بدعوتك إن شاء الله تعالى. قال فكأنما كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم غطاء فكشف، قال فدعا بثوب فأمر به فبسط ثم دعا بالناس ببقايا أزوادهم، قال فجاءوا بما كان عندهم، قال فمن الناس من جاء بالحفنة من الطعام أو الحثية ومنهم من جاء بمثل البيضة، قال فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع على ذلك الثوب ثم دعا فيه بالبركة ثم تكلم بما شاء الله عز وجل ثم نادى بالجيش ثم أمرهم فأكلوا وأطعموا وملأوا آنيتهم ومزاودهم ثم دعى بركوة فوضعت بين يديه ثم دعا بشيء من ماء فصب فيها ثم مج فيها وتكلم بما شاء الله أن يتكلم به وأدخل كفيه فيها فأقسم بالله لقد رأيت أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم تتفجر ينابيع الماء ثم أمر الناس فشربوا وملأوا قربهم، قال ثم ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله لا يلقى الله بهما أحد إلا دخل الجنة. متفق على صحته.

ولشدة تدبره وغلبة ذلك عليه رضي الله عنه كان شديد الحزم في الأمور معتمداً لِسدِّ الذرائع ومن ثم عظمتْ هيبته في القلوب.

قال سعد بن أبي وقاص: دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه رافعاتٍ أصواتهن فلما سمعن صوت عمر بادرن بالحجاب، فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عجبت من هؤلاء التي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، قال عمر: يا عدوات أنفسهن تَهبنني ولا تَهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلن: نعمْ أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غيْر فجك.

وعن عائشة قالت: دخلت امرأة من الأنصار إلَي فقالت إنّي أعطيت الله عهداً إذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمن لأنقرن على رأسه بالدف، قالت عائشة فأخبرتُ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال قولي لَها فلتفِ بِما حلفت، فقامت بالدف على رأس النبي صلى الله عليه وسلم فنقرت نقرتين أو ثلاثاً، فاستفتح عمر فسقط الدف من يدها وأسرعت إلَى خدر عائشة، فقالت لَها عائشة: ما لَكِ؟ قالت:

سمعت عمر فهبته، فقال صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان ليفر من حس عمر.

وتأمل انفراد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه بدقائق أسرار التوحيد وخفاياه الغامضة الذي هو شأن الروح. أخرج الملا في سيرته عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال: كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو وأبو بكر يتكلمان في علم التوحيد فأجلس بينهما كأنّي زنجي لا أعلم ما يقولون.

وانظر سبقيته رضي الله عنه إلى فهم الدقائق والأسرار عن الله ورسوله وترك التصريح بِما يفهمه الذي هو شأن الروح أيضاً، ففي الترمذي من رواية أبِي المعلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال إن رجلاً خيّره ربه بين أن يعيش في الدنيا ما شاء ويأكل من الدنيا ما شاء أن يأكل وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه، قال فبكى أبو بكر، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتعجبون من هذا الشيخ إذ ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً صالِحاً خيّره ربه بين الدنيا ولقاء ربه فاختار لقاء ربه، قال فكان أبو بكر أعلمهم بِما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: نفديك بآبائنا وأموالنا.

وانظر ثباته يوم الحديبية وموافقته لجواب النبِي صلى الله عليه وسلم حرفاً حرفاً، ففي حديث صلح الحديبية عن عمر أتيتُ النبِي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ألست نبِي الله حقّاً قال بلى قلت ألسنا على الحق وهم على الباطل قال بلى قلت فلِم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: إنّي رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا نأتِي البيت فنطوف به، قال: وأخبرتك أن نأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبِي الله حقا قال بلى، قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى، قلت فلِمَ نعطي الدنية في ديننا، قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصيه وهو ناصره فاستمسكْ بغرزه فوالله إنه لعلى الحق، قلت: أوليس كان يحدثنا أنا نأتِي البيت فنطوف به، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. خرجه البخاري ومسلم.

وانظر ثباته يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهاده بقوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ الآية، وقول عائشة: فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس فما تسمع بشراً إلا يتلوها.

وعن عمر رضي الله عنه لَما تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو

بكر بغده وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمِرْتُ أن أُقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منّي ماله ونفسه إلا بحق وحسابُه على الله) فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتُهم على منْعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفتُ أنه الحق.

تنبيه: معنى كون صورته محمدية وحقيقته أحمدية تعجز العقول عنها.

قال السهيلي: ثم إنه لم يكن محمداً حتّى كان أحمد، حمد ربه فنبّأه وشرّفه، فلذلك تقدّم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى فقال ﴿ ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ وذكره موسى حين قال له ربه (تلك أمة أحمد) فقال (اللهم اجعلني من أمة أحمد)، فبأحمد ذُكر قبل أن يذكر بمحمد، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبُعث كان محمداً بالفعل، وكذلك في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه فيكون أحمد الحامدين لربه، ثم يشفع فيحمد على شفاعته، فانظر كيف ترتّب هذا الاسم قبل الآخر في الذكر والوجود والدنيا والآخرة تلح لك الحكمة الإلٰهية في تخصيصه بهذين الاسمين. انتهى. وبه يظهر لك كون حقيقته صلى الله عليه وسلم أحمدية، وليس المراد بالحقيقة الانسانية بل الخاصية التي امتازت بها، فللحامدية خُلق أي بذلك تعلقت الإرادة، فكان الأحمد الأكبر والمعروف الأعظم، ولذا وصف بأفعل، والحامدون كلهم نوابه إذ هو الذي عرفهم الحمد وأوصل إليهم العلم بمنشئه من الكمالات وأصل إليهم نفس منشأه الذي هو النعم، فهو المثني على الإطلاق، والحامد في جميع الأوقات والآفاق، وبه يتضح لك عجز الخلق كلهم عن معرفة حقيقته الأحمدية وأنه لا يحيط بها إلا الله. وأيضاً فإن حمده وثناءه على حسب معرفته، ولم يصلها ولا يصلها أحد، فإذاً لا يعرف أحدٌ حقيقة أحمديته. وأيضاً هو السابق في الخلق والمعرفة والسجود والحمد والأصل لكل شيء، وغيره فروعه وجداوله، وكيف يحيط الفرع بالأصل. وبه أيضاً يظهر لك أن المحمدية بمثابة الصورة وظاهرها التي أدركه المؤمنون بمثابة الظل، لأنه مشير إلى عظمة الأحمدية وفخامتها، إذ المحمدية مرتبة عليها فهي حاكية لها ومنبئة عنها بوجه إجمالي وكانت صورة لظهورها وشهرتها وشدة وضوحها، ومن ثم والله أعلم اشتهر محمد أكثر من أحمد، حتّى قال بعضهم: محمد أشهر أسمائه بين العالَمين وأشوقها إلى الصلاة والسلام على سيد المرسلين وألذها سماعاً عند جميع المسلمين، ولتلك الأشهرية والله أعلم مع ما له من مقام المحبوبية خصّ بكلمة التوحيد

وإن كان أحمد هو السابق ومعنى المحبوبية ما في معناه من المكافاة لأحمديته بثنائه تعالى عليه بنفسه في كتبه وبألسنة خلقه، إذ ألسنة الخلق أقلام الحق، فالمحبوبية فيه أظهر وإن كانت في أحمد أيضاً من حيث اجتذابه إليه واستعماله في حمده ومعرفته ومعنى المحبّية فيه أظهَر، ولظهور المحبوبية في محمد كان ألذّ سماعاً عند جميع المسلمين، ولسبقية الأحمدية سُمي في السماء أحمد لأن معرفة أهل السماء له قبل معرفة أهل الأرض، ولعظمة أحمديته وكمالِها خص بخصائص من معْناها: فأنزلت عليه سورة الحمد من بين سائر الأنبياء لأنه أكمل الحامدين، وخص بلواء الحمد الذي يستظل تحته كل حامد، وخص بالمقام المحمود، وشرع لأمته سنة وقرآناً أن تقول عند اختتام الأفعال واقتضاء الأمور (الحمدُ لله رب العالَمين) قال الله تعالَى ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وقال أيضاً ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تنبيهاً لنا على أن الحمد مشروع لنا عند انقضاء الأمور، وسنّ عليه الصلاة والسلام الحمد عند الأكل والشرب، وقال عند انقضاء السفر (ءائبون تائبون لربنا حامدون)، وكذا عند ابتدائها، وفيه إشارة إلى أن نبينا هو الفاتح الخاتم، فأحمديته سابقة على جميع الأحمديات، ومحمديته فيها انتهت جميع المحمديات، ولِعَدم وصول الخلق إلى معرفة حقيقته الأحمدية حتّى الأنبياء والمرسلين والملائكة كما تقدم في كلام الخروبي وصرّح به غيره وهو صريح الحصر في قوله (لا يعلمني حقيقة غير ربّي)، ومعرفة الرسل والأنبياء بمحمديته أشير إلى ذلك بتضمن اسم محمد دون أحمد لعدتهم. قال بعض العلماء: في اسم (محمد) ثلاث ميمات إذا بسطتَ كلا منهن قلت ميم، وعدتُها بحساب الجمل تسعون، فيحصل من الميمات الثلاث مائتان وسبعون، وإذا بسطت الحاء والدال قلت دال بخمسة وثلاثين وحاء بتسعة، والجملة ثلاثمائة وأربعة عشر، فذلك عدد الرسل عليهم الصلاة والسلام. وقال الشيخ سيدي عبد الجليل القصري في شعبه: فرُوحُ محمد عليه السلام لما نفخ في الجسد أدرجت في ذاته جميع النبوءات وطبع عليها وامتزج الجسد مع الروح بالطبع مدة بقاء الجسد في البطن، فإذا أردت أن تفهم ذلك فاعلم أنه رأس الرسل، والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً، والأنبياء كلهم في ضمن الرسل، يفهم ذلك من فهم انفصال النبوءة من الرسالة، والولاية من النبوءة، وهذا العدد من الرسل على عدد حروف اسمه الكريم، عجنت فيه بالنشاء المطبوع جميع شرائع الرسل وأخلاقهم وطبائعهم الكريمة مع طبعه الكريم، فكان يعسوبهم. قال والواحد الباقي هو لمقام الولاية المفرق على جميع الأولياء التابعين للأنبياء. ولعدم معرفة الخلق بأحمديته وبِحمده تعالى القديم ومعرفتهم بالمحمدية في الجانبين،

قال صلى الله عليه وسلم: يا عمر بن الخطاب أتدري من أنا، أنا الذي اشتق الله تعالَى اسْمي من اسْمه، فالله محمود وأنا محمد ولا فخر. انتهى. ولم يحكم بِمثل ذلك لأحمد، إذ الخلق لا يعرفون معنَى الأصل ولا معنَى الفرع، وأيضاً فالافتراق الحامديتين بالقدم والحدوث، وأما المحمودية من حيث عموم الحامد فصفة فعل، وما أحسن قول سيدنا حسّان رضي الله عنه في هذا المعنَى ومعنَى ضم اسْمه إلَى اسْم الله تعالَى في التشهد:

أغـــرُّ عليـــه للنبـــوءة خاتـــمٌ ... مـــن الله مـــن نـــور يلـــوح ويـــشهد
وضـم الإلـه اسْـم النبِـي إلَـى اسْمه ... إذا قـال فـي الخمْـس المـؤذن أشـهد
وشـــق لـــه مـــن اسْـــمه ليجلـــه ... فـذُو العـرْش مَحمـودٌ وهـذا مُحمـد

وفي الحكم بالاشتقاق إشارة إلَى أن في الفرع وهو محمد ما في الأصل وهو محمود وزيادة، إذ حمده صلى الله عليه وسلم متضمن حمد الله تعالَى، والمقصود من الثناء على الواسطة التوسل إلَى من وسطه بخلاف العكس إذ لا يشهد مرتبة الرسالة عند ذكر الله تعالَى إلا العارفون من حيث واسطته لَهم في ذلك، ومَنْ أثنَى على عبْد الملِك لأنه عبد الملك كان ذلك منه أدل على محبته للملك من ثنائه على الملك، لأن من الناس من قد يخضع للملك ولا يخضع لعبده، ومن هنا قال الشيخ زروق رضي الله عنه إن الصلاة على النبِي صلى الله عليه وسلم أعظم العبادات وأشرفها لقوة دلالتها على قوة الامتثال، فإن الملك إذا أمر كبراء دولته بالخضوع له والتذلل بين يديه لَم يتأخر أحد منهم عن ذلك ولم يتوقف، بخلاف ما إذا أمرهم بالخضوع لبعض عبيده فإنه لا يبادر لذلك إلا من عظم أمر الملك في قلبه، وانظر قضية إبليس في السجود بعد عظيم تعبّده، والاشتقاق هنا بِمعنَى الموافقة في المادة والتأخر في الرتبة والوجود، إذ محموديته تعالَى بنفسه وبحمده صلى الله عليه وسلم له سابقة والزيادة في الفرع كما سبق، وأيضاً للحكم باشتقاق محمد دون أحمد نكتة أخرى، إذ حامدية العبد لسيده لا تتوقف على حامدية السيد لنفسه إذ لا يراعى ذلك فيها، إذ من شأن العبد الخدمة، بخلاف محمدية العبد لا ينبغي أن تكون إلا تابعة لمحمدية سيده.

فإن قيل: لِمَ بُولغ في حمده دون حمد الله فقيل فيه محمود؟

قلت: لِما مرّ من أن حمده متضمن حمد الله، ولأن محمديته لما كانت بجعل الله تعالَى احتيج للتنبيه على كمالِها. قال الإمام الخروبِي: المصلِّي عليه صلى الله عليه وسلم ممتثل لأمر الله، والقيام بالأمر ذكْر، وأيضاً المصلي يناجي ربه، والمناجاة ذكر، وأيضاً الصلاة على النبِي صلى الله عليه وسلم لا بد أن تكون مقرونة باسْم من

دون أحمد، فقال البكي: الميم الأولى إشارة للملكوت الأعلى، والحاء للحياة والحفظ الذي به وفيه كتب القلم الأسنى، والميم المشددة للملكوت الباطن والملك الظاهر، ودال الدوام والاتصال الماحية لوهمي الانقطاع والانفصال. وقال بعض العلماء: الميم الأولى المعرفة أعطاه الله معرفة بعلم الأولين والآخرين، والحاء إحياء الله العباد على يديه من الكفر بالإسلام حيث قال ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾، والميم الثانية أعطاه الله مملكة لم يعط الله أحداً مثل ذلك وذلك أن شهر اسمه مع اسم الله في المشرق والمغرب، والدال هو الدليل لجميع الخلائق إلى الفردوس. وقيل: الميم الأولى والحاء مأخوذان من مَحَّ يَمُحُّ محّاً إذا أهلك، والميم الثانية والدال من مَدَّ إذا بسط، فمعناه أنه صلى الله عليه وسلم أهلك الكفر وبدده ومدّ الإسلام أي بسطه في الأرض بسطاً فعُبد الله في أقطارها. قال الشاعر:

مُحمـدنا مـحَّ الإلـه بدينـه عباداً طغوا في الأرض دينهمُ الكفر
ومـدّ لنـا الإسـلام طـرا فلـم يـزل بـه النـصر والإمكـان والظفـر والبـشر

وقيل: الميم محو الكفر بالإسلام ومحو سيئات من اتبعه، وقيل الميم مَنُّ الله على المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم دلَّ قوله تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ ﴾ الآية، وقيل: الميم منذر ومبشر، وقيل: ملك أمته، وقيل: المقام المحمود، والحاء حكمه بين الخلق بحكم الله قال الله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ الآية. وقيل: حياة أمته به والثانية مغفرة الله لأمته، وقيل: مُنادي الموحدين، وقيل: مُلك أمته به، والدال هو الداعي إلى الله قال الله تعالى ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ فهو دليلهم في الدنيا ودليلهم في الآخرة إلى الجنة، وقيل: الميم الأولى للملك الأول والثانية للثاني الأخروي الأبدي ولذا ضعفت والحاء للرحمة توسطتْ بينهما إشارة إلى أن الملكين يتجاذبانه ويستمدان منه والدال إشارة لدوام الملك الثاني.

ثم المادحون وإن بالغوا وأكثروا معترفون بأنّهم قد قصروا وقصروا، وكيف لا وقد أفصحت آيات الكتاب العزيز في تعظيمه بما يبهر العقول وصرحت من عظيم صفاته بما لا يستطيع إليه الوصول، قال ابن الخطيب السلماني في هذا المعنى:

يـا مـصطفى مِـنْ قبـل نـشأة آدم والكـون لَـم تفـتح لـه الأغـلاقُ
أيـرومُ مَخلـوقٌ ثنـاءك بعـدما أثنـى علـى أخلاقـك الخـلاقُ

ورُوي أنه رُئي بعد موته فسُئل عن حاله فأخبر أنه غُفر له بسبب هذين البيتين، ولابن الخطيب الأندلسي أيضاً:

مَدَحَتْكَ آيات الكتاب فما عسى ... يثني على عَلْياك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً ... كان القصور قُصَارَى كل فصيح

وفي المواهب قال الزركشي ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء المتقدمين كأبي تمام والبحتري وابن الرومي مدْحَه صلى الله عليه وسلم وكان مدحه عليهم من أصعب ما يحاولونه، فإن المعاني دون مرتبته، والأوصاف دون وصفه، وكل غلو في حقه تقصير، فيضيق على البليغ مجال النظم، وعند التحقيق إذا اعتبرت جميع الأمداح التي فيها غلو بالنسبة إلى من فرضت له وجدتها صادقة في حق النبي صلى الله عليه وسلم حتى إن الشعراء على صفاته صلى الله عليه وسلم كانوا يعتمدون وإلى أمداحه كانوا يقصدون، وإنه الخليق بقول الشاعر:

فما بلغت كف امرئ متناولاً ... من الْمجد إلا والذي نال أطول
ولا بلغ الْمُهدُونَ في القول مدحه ... ولو حذقوا إلا الذي فيه أفضل

ورُئِيَ ابن الفارض في النوم فقيل له: لِمَ لَمْ تمدح النبي صلى الله عليه وسلم، أي بالتصريح وإلا فنظمه في الحقيقة إما في الحضرة الإلهية أو فيه صلى الله عليه وسلم، فقال:

أرى كل مدح في النبي مقصراً ... وإنْ بالغ الْمثني عليه وأكثر
إذا الله أثنى بالذي هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى

وإنه لَخليق بقول القائل:

وعلى تفنن واصفيه بنعته ... يفنى الزمانُ وفيه ما لَمْ يُوصَفِ

قال سيدي محمد بن وفا رحمه الله:

ما شئت قُلْ فيه فأنت مصدقٌ ... فالحُب يقضي والْمحاسن تشهد

وفي البردة:

فإن فضل رسول الله ليس له ... حَدٌّ فيُعرب عنه ناطق بفم

وفيها:

دَعْ ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكمْ بما شئتَ مدحاً فيه واحتكمِ

ويرحم الله القائل:

أرومُ امتداحَ الْمصطفى فيصدني ... قُصوري عن إدراك تلك الْمناقب
فَمَنْ لِي بِحصر البحر والبحر زاخر ... ومَنْ لِي بإحصاء الْحصا والكواكب

وفي المعنى:

مُحمد المصطفى المختار مِنْ مُضر نبي صدق له قدر وتبجيل

ماذا عسى مادحٌ يثني عليه به وجاء في مدحه كتبٌ وتنزيل

وفي الزبور أتى مدحٌ يصدقه ووافق المدح توراة وإنجيل

يا مادحين حبيب الله دونكم ما شئتم في معاني حسنه قولوا

وفي المعنى قيل:

إذا رمت مدحَ المصطفى شغفاً به تبلّد ذهني هيبة لمقامه

فأقطع ليلي ساهر الجفن مُطرقاً هوىً فيه أغلى من لذيذ منامه

إذا قال فيه الله جل جلاله رؤوفٌ رحيمٌ في سياق كلامه

فمَنْ ذا يُجاري الوحي والوحي مُعجزٌ لِمختلفيه نثره ونظامه

وفي المعنى:

مقامك يا إمام المرسلين تحيّر فيه مدْحُ المادحين

فغايةُ ما نقول إذا اختصرنا بأنك أنت خير العالَمين

وقال بعضهم:

ما أن مدحت مُحمداً بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمُحمد

وقلت في المعنَى:

مُحمد مدْحه مدْحٌ لِمادحه إذ خدمة الجاه الأعلى غاية الشرف

فمدحه شرف وحمده شرف وذكره شرف كن فيه ذا شغف

وفي المعنى:

بمدْح رسول الله ينشرح الصدر ويعلو لِمن قد زاد في حبه قدْرُ

فبالغ هداك الله إن كنت صادقاً يكون لك العلياء والعز والفخر

قال المناوي: وقد جرت العادة إذا سمعوا بذكر وصفه قاموا ولا أصل له، إنما أصله أن الصرصري الشاعر أنشد في ختم درس السبكي قصيدة منها:

قليل لِمدح المصطفى الخط بالذّهب على فضة من خط أحسن من كتب

وإن تنهض الأشواق عند سَماعه قياماً صفوفاً أو جُثياً على الركب

فلما سمعه الشيخ قام فقام الحاضرون، فدرج الناس عليه. وفي الوتريات:

صفيّ إذا تُحدى المطايا بوصفه رأيت له الأكوان تهتز بالرقص

صفا وقتنا طاب الزمان بِمدحه فقُومُوا على ذكر الحبيب إلى الرقص

وقضية أبي نواس أنه لِيمَ في ترك مدح مولانا علي الرضا ابن مولانا موسى الكاظم ابن مولانا جعفر الصادق ابن مولانا محمد الباقر ابن مولانا زين العابدين ابن مولانا الحسين رضي الله عنهم ونفعنا بهم فقال:

قيل لي أنت أحسن الناس طُرّاً ... في فنون من المديح النّزيه

لك من جيد القريض مديحٌ ... يثمر الدّر في يدَي مُجتنيه

فعلى مَ تركت مَدْح ابن موسى ... والخصال التي تجمعن فيه

قلتُ لا أستطيع مدْحَ إمامٍ ... كان جبريل خادماً لأبيه

وعَلِيّ الرضا هذا هو الذي دخل نيسابور وعليه مظلة لا يرى من وراءها فتعرّض له الحافظان أبو زرعة الرازي ومحمد بن أسلم الطوسي ومعهما من طلبة العلم والحديث ما لا يحصى، فتضرّعا إليه أن يريهم وجهه ويروي لهم حديثاً عن أبيه، فاستوقف البغلة وأمر غلمانه بكشف المظلة وأقر عيون تلك الخلائق برؤية طلعته المباركة فكانت له ذؤابتان مرخيتان على عاتقه، والناس بين صارخ وباك ومتمرغ في التراب ومقبل لحافر بغلته، فصاحت العلماء معاشر الناس أنصِتوا فأنصَتوا واستملى منه الحافظان المذكوران، فقال: حدثني أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حدثني جبريل قال سَمعتُ رب العزة يقول: لا إله إلا الله حصني فمنْ قالَها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي. ثم أرخى الستر وسار، فعدّ أهل المحابر الذين كانوا يكتبون فزادوا على عشرين ألفاً. وفي رواية إن الحديث المروي: الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان. قال ابن حجر ولعلهما واقعتان ذكرنا هذا هنا.

ويندرج في عموم تقاصرها عن إدراك كنه جلاله صلى الله عليه وسلم، ومع هذا فلولا أنه كان يباسطهم ويتواضع لَهم ويؤنسهم لَما قدر أحد منهم أن يقعد معه ولا أن يسمع كلامه صلى الله عليه وسلم لِما رزقه الله تعالَى من الجلالة والمهابة، وقال عبد الله بن عمرو بن العاصي: صحبتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ملأت عيني منه قط حياء منه وتعظيماً له ولو قيل لي صفه لَما قدرت، أو كما قال.

ويندرج أيضاً تقاصرها عن إدراك جماله صلى الله عليه وسلم، ولولا أن الله تعالَى ستر جمال صورته كما قيل بالهيبة والوقار وأعمى عنه آخرين لَما استطاع أحد النظر إليه بهذه الأبصار الدنيوية الضعيفة. قال الخروبي رضي الله عنه: ما أدرك الناس من

حقيقة أمره وخفي سره إلا على قدر عقولهم البشرية، فما ظهر لَهم من ذلك فهو نعمة عليهم ليعرفوا قدْره ويعظموا أمره، وما خفي عليهم من أمره فهو رحمة من الله بهم، إذ لو ظهر لَهم مع عدم قيامهم بالحقوق لكان فتنة لَهم، والله تعالَى أرسله رحمةً للعالَمين، فكانت النعمة فيما ظهر، والرحمة فيما استتر.

ويندرج أيضاً تقاصرها عن إدراك كنه عقله، وكيف لا وعقول العوالِم بالنسبة لعقله كحَبَة رمل من بين رمال الدنيا كما يأتي بيانه.

وتقاصرها عن قدره وجاهه، إذ هو صاحب الجاه الأعظم والمقام الأكبر الأفخم الذي يقول عند تبري ذوي الجاه العظيم (أنا لَها)، فلا تضيق سعة جاهه على أحد ولا يفي بوجوه عظمته حساب ولا عدد.

وتقاصرها عن إدراك علومه لِما مر من جمعه علم الأولين والآخرين، وما زاد على ذلك مِما انفرد به عن الجميع.

وتقاصرها عن إدراك حقيقة حلمه، وحسْبك قضية أُحُد والطائف.

وتقاصرها عن معرفة خوفه، والذي جزم به أهل السنة الأشعري قال الشهاب وهو الحق أن الأنبياء خصوصاً نبينا صلى الله عليه وسلم لا يخشى أحد عليهم العقاب ولا يجوز تجويزه عليهم، أما هم فلعظمة الله ومهابته عندهم وعلمهم بأنه غني عن خلقه له أن يفعل بهم ما أراد فيخافونه خوفاً شديداً ويستعيذون من عقابه وإن لَم نجوزه نحن، وفي قوله تعالى ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ إيماء لذلك دقيق، ولك أن تقول لشدة خوفه صلى الله عليه وسلم من الله قد يذهل عن تأمين الله له لا سيما مع ما مرّ نظير ما قال السيوطي في قول يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ وهو يعلم أن كل نبي لا يموت إلا مسلماً أنه دعا بذلك في حال غلبة الخوف عليه حتى أذهله عن علمه ساعة الدعاء أو ذلك إظهار للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليمها للأمة. انتهى. هذا لباب ما للقوم في المسألة وهو غير كاف في دفع استشكال مجامعة التأمين والجزم به لخوف العقاب لقوله إنّهم يخافونه في أنفسهم ونحن لا نخافه عليهم، وادعاء غلبة الحال للأنبياء خلاف ما صرح به محققو الصوفية، وفي الصحيح (أنا أعلمكم بالله وأشدّ له خشية)، وكان لصدره أزيز كأزيز المرجل من الخوف، وصرّح الأئمة بأن الخوف على قدر المعرفة وأن العارفين إذا خوفوا رجوا وإذا رجوا خافوا، لأنّهم يشهدون الجمال والجلال، وأن الأكمل هو استواء الخوف والرجاء، وأن يكون المؤمن بينهما كالطائر بين جناحيه. وأيضاً الخوف من أرْفع مقامات اليقين فلا يفوتُهم حصوله، فالظاهر والله تعالى أعلم أن نقول حسنات الأبرار

سيئات المقربين، فهي وإن كانت كمالاً لكن لرؤية الأكمل يخافون رؤية غيره منهم الذي هو كالنقص من غيرهم، وإن كان عدم الأكملية في الكامل مغفوراً لهم كما نزل عليه المحققون ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ فإن رؤيته كافية في الخجل والانقباض، ومن هذا المعنى قول بعض العارفين: واسَوْءتاه منك وإن غفرت لي. ثم من تمام عصمة الله تعالى إياهم ملازمة خوفه لهم، إذ الركون للأمن وعدم الخوف هو عين القصور وسوء الأدب، فليس المراد من خوفهم أن ينزجروا وينكفوا عن المخالفات، بل أن يكونوا في مقام العبودية والأدب على أكمل الحالات، وأيضاً فلكمال علمهم بالانقلابات واطلاعهم على ضروب التصرفات يرد عليهم من الخشية ما يرد، فإن مَنْ ورد على ملِك وهو آمنٌ منه قاطع بأنه لا يصدر له منه إلا الإحسان والبر لأمارات ودلائل قامتْ عنده على ذلك إذا رآه في حضرته يعزل ويضع ويطرد ويعاقب بأنواع العقوبات التي لا تنحصر يدخله من هيبته وخوفه ما يضطرب من أجله قلبه وجوارحه وترتعد فرائصه ويصفر لونه ويصير ذلك في حضرة الملِك ضرورياً لا يستطيع دفعه عن نفسه مع استحضاره لأمارات الأمن، وهذا تقريب ينبهك على ما فوقه، وإلى هذا والله أعلم يشير قوله صلى الله عليه وسلم (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفُرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله)، وكذا حديث قول الأنبياء نفْسي نفْسي، وقلت في هذا المعنى:

مُحمـــــد أخوفنـــــا للـــــه ... لأنـــــه أعْرفنـــــا باللـــــه

يـــخاف مـــن رؤيـــة غيـــر الأكمـــل ... مَـــعْ أنـــه الكمـــال عنـــد الكُمّـــل

وخوفـــه اللـــه تَمـــام العـــصمة ... والخـوف فِـي الحـضرة عـين الرحمـة

وتقاصرها عن رجائه، لأن الله أطلعه مِن سعة رحمته وعظم فضله وفيضان كرمه وجوده ما لَم يطلع عليه أحداً من خلقه، وأيضاً كما أنه أعرف الخلق بجلال الله فهو أعرفهم بِجماله، فكما أنه أخشاهم فهو أرجاهم، ورجاء الكُمّل على قدر خوفهم، إذ هما متساويان متقابلان، وأيضاً كما أنه النذير فهو البشير، وأيضاً هو رئيس المحببين الله إلَى خلقه، وأحاديثه في الرجاء مِما لا يأتي عليه الحصر.

وتقاصُرها عن كمال عبوديته، والعبودية هي شهود الربوبية وعدم الغفلة عنها، والنبي صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق في هذا الوصف، فكان أكمل الكُمّل على الإطلاق، وعبوديته أكمل كل كمال، وتقاصرهم عن أوجه خصوصيته وأنواعها، وقد ألّف العلماء فيها، وما لم يعرفوه أكثر مِما عرفوه.

وتقاصرها عن معرفة زهده ورفع همته، ومن أسمائه الزاهد، وحيث كان أعلم الخلق بالله فهو أعلاهم همة وأرفعهم زهداً فهو رأس الزاهدين، وبحسبك رفع همته ارتفاع مقامه، فكان سيد العالَمين وزهد في كل ما سوى الله من الكونيْن وما فيهما من محسوسات ومعقولات، فلا قرار له إلا مع الله، ولا التفات منه إلَى غير ما به تولاه، ومقامه في ذلك لا يُدرَك ولا يكيف ولا يعلمه إلا الذي خصه به سبحانه.

وتقاصرها عن تواضعه. قال عبد الله الرازي: وهو ترك التمييز في الخدمة. قال أبو سليمان: من رأى لنفسه قيمة فلا يذق حلاوة الخدمة. وكان صلى الله عليه وسلم أشد المتواضعين تواضعاً لقوة علمه بجلال الله وعظمته.

وتقاصرها عن شفقته ورحمته، وذلك أن الله تعالَى لَما فضله تفضيلاً لم يعطه لغيره جعله عيْن الرحمة لا يصدر منه إلا ما هو رحمة، قال ابن عباس: منْ آمَن تَمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن عفيَ مِما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ وغيرهما، والحصر في قوله عليه الصلاة والسلام (إنّما أنا رحمة مهْداة) يبين أنه لا يصدر منه إلا الرحمة، وأخرج أبو داوود والطبراني عن سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أيما رجل سببته سبة في غضبي أو لعنته لعنة فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون وإنما بعثني رحمة للعالَمين فأجعلها عليه صلاة يوم القيامة.

وتقاصرها عن إدراك جوده الحسي وهو عطاياه التي يعجز عنها عظماء الملوك، والمعنوي وهو هدايته وشفاعته الموصلة إلَى الفوز الأبدي بل إفاضته الفضل والكمال على أهله من النبيين والمرسلين والملائكة والشهداء والصالحين، وهو المراد بالمدد الصديقي والملكي والنبوي.

تنبيه: تلخص مِما سبق أنه صلى الله عليه وسلم حاز نِهاية الجمال الظاهر وغاية الكمال الباطن، فمن جماله ظهر كل جمال، فهو إذاً أجمل من كل جميل، ولذا أظهر الخضوع له أجمل ما في الوجود أعنِي النيريْن فناغاه البدر في مهده وكان يميل بإشارته وانشقَّ له نصفيْن، ورجعتْ لدعوته الشمس بعد غروبِها وصارت بعد نقلته للدار الآخرة تأتِي ضريحه عند طلوعها الطلوع والغروب وإجلالاً وإعظاماً تسلّم عليه، ويرحم الله القائل:

فلـــولا أنـــه خـــيَ طـــري ... بـــإدراك كمـــا نقـــل الفحـــول
لَمـــا ســـعت الـــشموس إليـــه حقّـــاً ... تـــسلمْ حـــين تطلـــع أو تـــزول

وسعَتْ لدعوته الأشجار وسجدتْ له وتعلقتْ به الغزالة وتضرعت له ورجعت

نوعده، وتأتي تتمة هذا المعنى عند قوله رضي الله عنه (فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة)، ومن كماله يكون كل كمال، فهو إذاً أكمل من كل أكمل، ولذا عرف بالتلذذ بالخضوع له كل أكمل، فكان خضوع الأكمل له أشد من خضوع الكامل، وخضوع الكامل أشد من خضوع الناقص، لأن الخضوع على قدر المعرفة بكماله؛ وحسبك في هذا المعنى ما في لطائف المنن قال أخبرني الشيخ مكين الدين الأسمر وهو الذي شهد له الشيخ أبو الحسن بالخصوصية قال دخلتُ مسجد نبي بالإسكندرية فوجدتُ النبي المدفون هنالك قائماً يصلي عليه عباءة مخططة فقال لِي تقدَّمْ فصل، فقلت له تقدمْ أنت فصلّ، قال تقدم فصلّ فإنكم من أمة النبي لا ينبغي لنا التقدم عليه، قال فقلت له بحق هذا النبي إلا ما تقدمتَ فصليت، قال فأنا أقول بحق هذا النبي إلا وهو قد وضع فمه إجلالاً للفظة النبي كي لا تبرز في الهواء، قال فتقدمتُ فصليت. انتهى. فانظر وتأمل واعتبر هذا التعظيم العظيم من عظماء خواص الخلق، وانظر أيضاً حال أعرف الناس بعد الأنبياء بكماله وهم الصحابة حيث كانوا لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وكادوا يقتتلون عليه ولا يبصق بصاقاً ولا يتنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها وإذا أمرهم بأمر وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وهذا من أهم ما ينتبه عليه في مدْحه صلى الله عليه وسلم وهو التنبيه على حيازة باطنه لأنواع الكمال وظاهره لصنوف الجمال، وكل منهما جمال، وكل منهما كمال، إذ الجمال كالكمال حسي ومعنوي ظاهر وباطن. قال الشيخ الفقيه سيدي أحمد المرابي في "تحفة الإخوان في مناقب سيدي رضوان": دخلت عليه يوماً فوجدته في حالة البسط كأن وجهه قطعة من نور فسلمتُ عليه فردّ عليّ السلام وهو كالمسرور فقال من جملة كلامه: وجدتني يا أحمد وأنا أفكر في هذا النبي الكريم وما أعطاه الله من الحسْن والجمال وما اختص به من محامد الصفات وسنِي الحالات، ثم قال: لو كان لِي يا أحمد يتّزن لِي بعض الأبيات فيه تتضمن أن باطنه حاز المعانِي كلها وظاهره في الحسْن أبهى من الشمس والقمر لقلتها ولكن حاولْ أنت هل تجد في ذلك شيئاً، فقلت له خاطرك معي يا سيدي، فلما خرجت عنه وجئت إلَى المنْزل أجْرى الله على لسانِي من بركته هذين البيتيْن فقلت:

ولِي جبّةٌ تَهوى من القوم واحداً سليل قصيّ مُنية القلب والنفس
فباطنه حاز الْمعالِي كلها وظاهره أبهى من البدْر والشمس

ثم أجرى الله على قلبِي بعقبيْهما بيتيْن آخريْن تتضمن مدحه صلى الله عليه وسلم وهي هذه:

ولِي رشأ مِنْ آل فهر بن مالِك حوَى شرفاً في العلمين وسُؤددا
عرُوس لُؤَي صفوة الخلق كلهم وذاك ابن عبد الله أعني مُحمدا

فلما كان من الغد أتيت بها إليه فأخبرته فتبسّم وقال لِي هات فعرضتها عليه فبكى لسماعها وقال أحْسنت أحسن الله إليك، وكنت لا أزال أنشدها بين يديه يوم الجمعة بأثناء البردة فيستحسنها وتقع منه موقعاً حتّى أنه نظم في معناها ثلاثة أبيات وهي هذه:

فلله مَنْ حاز الفضائل كلها وساد جَميع الناس في البذو والحضر
له باطنٌ منه المحاسن أظهرت وظاهره أبهى من الشمس والقمر
عليه صلاة الله ثُم سلامه ورضوانه كالرمْل والنبت والمطر

وقلت في هذا المعنَى:

مُحمد تقاسم الْمحاسن بأسْرها ظاهرها والباطن
ظاهره حاز الْجمال جُمله من ذاك كل حَسَن أجَلة
فلا جَميل إلا وهو خاضع لحسْنه إذ هو فيه الساطع
منه استعاروا حُلل الْجمال فاعترفوا بأنّهم مَجالِي
فالشمس والقمر يأتيان ضريحه فيه يُسلِّمان
عند الطلوع والغروب يَخضعان ويشهدان نوره فيسطعان
وباطن الرسول بالفضائل ومنه أفضلية الأفاضل
ملأه الله بالفواضل فنال منه الفضل كل فاضل
فاعترفوا بأنّهم مظاهر وخضعوا للمتجلي الظاهر
قد ناسب الظاهر منه الباطن وأبْدت الْمحاسنُ الْمحاسن

ثم بعد كتب هذا، رأيت في المعنَى بيتيْن ينسبان لأم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها، وهي:

وأجْمل منك لَم تر قط عيْني وأكمل منك لَم تلد النساءُ
خُلقت مبرءاً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ويحتمل أن تكون اللام بِمعنَى فِي، وشبه صلى الله عليه وسلم ببحر عظيم سبحتْ فيه الفهوم فخفيت ودقّتْ كناية، ودل على ذلك بالحرف كما مرّ في نظيره، ومقابلة احتمال الحقيقة باحتمال المجاز كثير في كلامهم، ونظير ما نحن بصدده فيه ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ ففِي إما بِمعنَى على ولا استعارة أو للظرفية فتثبت

الاستعارة، ويحتمل أن تكون للتعليل والمعنى تصاغرت الفهوم لأجله خضوعاً وأذعنت واعترفت بالقصور، ولا يخفى أن المعاني الثلاثة مقصورة عليه فلذلك قدّم الشيخ رضي الله عنه المعْمول.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به **(فلم يدركه منا سابق ولا لاحق)**

فيها إشكالان: أولُهما اتحاد النتيجة مع منتجها السابق، فإن تصاغر الفهوم عنه عين انتفاء إدراكها. ثانيها إن لَم يفعل صيغة مختصة بالماضي فلا يصح اسْتنادها إلَى اللاحق الآتِي. وجواب الأول أنا لا نسلم اتحاد المفهوم، وإنّما الثابت التلازم بين المعنيين، إذ تقاصر الفهوم عجْزها وهو معنًى ثبوتِي، وانتفاء الإدراك عنه عدمي بناء على أن تقابل العجز والقدرة تقابل الأضداد مع إفادة هذه النتيجة أن الاستغراق المستفاد من أل الداخلة على المفهوم حقيقي لا مُبالغة فيه لتكرير التعميم فيها مع التفصيل، وفيها أيضاً التنبيه والإيقاظ أن كبراء الخلق من الأنبياء والمرسلين والملائكة لم يدركوه بالإحاطة، وقد سبق الحديث وقوْل الخروبي وغيره أن حقيقته لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرّب. وجواب الثاني أن هذا من قَبيل ما يقدر فيه العامل بعد الواو فهو من عطفها عاملاً أزيل قد بقي معموله دفْعاً لوهم اتقى الثاني وهو ما يلزم على ظاهر العطْف من أن المراد باللاحق اللاحق باعتبار من سبقه وهو في الحقيقة سابق لاختصاص الصيغة بنفي الماضي فيكون نفي الإدراك قاصراً على غير المستقبل وذلك لا يصح، والتقدير فلم يدركه منا سابق ولا يدركه لاحق، وأرْشد إلَى هذا الاستغراقية في الفهوم فإن ذلك الاستغراق كما يستلزم نفي الإدراك في الماضي يستلزم نفيه في الآتِي، وفي السبقية واللحوق احتمالان: أحدهما أن تكون السبقية عليه واللحوق له وذلك في عالَم الأجسام وباعتبار الخلقة الطينية، أي فلم يدركه سابق عليه في الزمان ولا يدركه لاحق له في الوجود بعد أوّل مبعثه، فيندرج في اللاحق له المعاصرون. ثانيهما أن يكونا باعتبارنا وتقدمنا بعضنا على بعْض وذلك باعتبار أصالة نوره وخلق الأشياء منه وأنه أصل الموجودات وأس الخليقة وآدم الأكبر وأب الأرواح، فلا سابق عليه أصلاً. وفي مرجع ضمير المتكلم المشترك احتمالات: أحدها أن يكون الخليقة بأسرها والموجودات كلها فيعم الجن والملائكة وهو عموم صحيح مستقيم. ثانيها أن يكون خصوص بني آدم لاختصاص الحكم بهم بل لأنه لا يتبادر إدراك غيرهم له بالكنه للمباينة في الجنسية والاختلاف في العوارض واللواحق وإنّما نفيْنا التبادر، لأن أصل الإمكان ثابت، وتأمل قوله تعالَى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ أي في صورته وإلا لَما أطاقوا النظر إليه والسماع منه وذلك مستلزم للجهل به، والحكاية المشهورة أن

بعض الصالحين ألحَّ على جنّي أن يريه صورة حقيقته فلما نظر إليه مات. ثالثها أن يكون خصوص الأمّة للعلة المتقدمة وهي أنه لا يتبادر إدراك غيرهم له بالكنه لتأخر خلق جسده عن زمانهم بما له من الصفات الشريفة، وليس المنفى أيضاً أصل الإمكان فلا ينتقص بإخبار الأنبياء به واطلاعهم على صفاته ولأنه من خصوصياتهم وليس على سبيل الإحاطة، وها هنا إشكال وهو أن مقتضى أحكام العبارة وإتقان تنزيلها على المعنى أن يقال فلم يُدركه منا سابقٌ فضلاً عن لاحق، لأن السابق على تقدير صحة الإدراك أولى به من اللاحق أما على الوجهين الأولين في مرجع الضمير فلعدم استواء معرفة الأنبياء والمرسلين مع غيرهم وأما على الأخير فلعدم استواء معرفة الصحابة مع غيرهم، وجوابه أن المعنى على الجميع لم يدركه السابق إلى العلم به بحسب سبقيته ولا متأخر في العلم به، فالتعبير بالسابق واللاحق يفيد الأولوية المذكورة لما عند السابق من تقادم العلم وتطاول أمده.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به **(فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة)**

لِعالَم المُلْك والملكوت والجبروت تفسيران: أحدهما أن عالَم المُلْك هو حضرة الأجسام وهي مظهر الأفعال المشار إلى بعضها بقوله تعالى ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ الآية وتغني من تشاء وتفقر من تشاء وتقوي من تشاء وتضعف من تشاء وتقدر من تشاء وتعجز من تشاء وتقرب لحضرتك من تشاء وتبعد من تشاء وتهدي من تشاء وتضل من تشاء وتعلم من تشاء وتجهل من تشاء وتسهل الأمور على من تشاء وتعسرها على من تشاء، إلى غير ذلك من التصرفات التي لا يعلمها إلا أنت، فمظهر هذه الأمور حضرة الأجسام، وكلما كثرت الأجسام في محل كثر ظهور التصرفات فيه، ومن ثم اختار الأئمة الكبار سكنى المدن والأمصار لِما فيها من أنواع الاعتبار والاستبصار، وعالَم الملكوت حضرة الأرواح وهي مظهر الصفات، وعالَم الجبروت حضرة الأسرار وهي مظهر أسرار الذات. وثانيهما أن عالَم المُلْك هو ما يُدْرَك بالحس والوهم، وعالَم الملكوت هو ما يُدرك بالعقل والفهم، وعالَم الجبروت هو ما شأنه أن يدرك بالحس وما معه أو بالعقل وما معه لكن في الحال بل في ثاني حال كما في الدنيا، فما لَم تصل إليه وهماً ولا فهماً كتعلق الروح بالجسد وهي به، وما في الجنة إذ هو ما لا عينٌ رأت ولا أذن سَمعتْ ولا خطر على قلب بشر وستراه العيون وتسمعه الآذان وتعرفه القلوب. ويقال الملك ما ظهر، والملكوت ما بطن، والجبروت جامع بينهما، كالإنسان ظاهره مُلك وباطنه ملكوت وحيث جمع بينهما كان جبروتياً فيدرك بالبصر والبصيرة.

فعلى الأول النبي صلى الله عليه وسلم هو روح العوالِم الثلاثة، إذ به أشرقت وانتشرت، فإنه مرآة لتجلي الذات للأسرار والصفات للأرواح والأفعال للأجسام، أي لطرق الإدراك منها التي هي السمع والبصر وما معهما إذ هو المعرف بِها فسمعته منه الآذان حيث أخبر بأنه تعالَى المنفرد بالتأثير وبين أفعاله في الموت وما بعده والحشر والمعاد وفي الأمم الماضية وبلّغ السامع ذلك لغيره فسمعتْ منه الآذان بالمباشرة أو الواسطة وأدت ذلك للقلوب فاعتقدته وفيه وبه أبصرت الأبصار كثيراً منها ما هو خارق للعادة وبلغ ذلك المشاهدون له لغيرهم فشوهد ذلك بالمباشرة أو الواسطة، ثم وصل للقلوب فاعتقدته، فبِه شاهدت القلوب الأفعال من الله وبه تحلت الأرواح بشهود صفات الله وبه شاهدت الأسرار الذات العلية، فنقول شبّه الملكوت المزهر به بالمنزهات أي الأماكن المرتفعة المتسعة، ودل على ذلك بإضافة الرياض إليه على حد أظفار المنية، وشبّه جماله صلى الله عليه وسلم بغروس تلك الرياض ودل على ذلك بإضافة الزهر له، ومعنًى مونقة معجبة. وحاصل المعنَى أن عالَم الملكوت متزين ومُستنير بالنبِي صلى الله عليه وسلم، إذ لولا هو ما وجد، وبه تشاهد الصفات التي هو أي عالَم الملكوت مظهرها، وأيضاً فإن في عالَم الملكوت الذي هو مسرح الأرواح من أنواع الجمال ما لا يعلمه إلا الله، وكلها مقتبسة منه صلى الله عليه وسلم، ففيه النَّيِّران الشمس والقمر وهما من نوره، وفيه النجوم وهي من نوره، وفيه البيت المعمور وهو من نوره، وسدرة المنتهى وقد قال في الحديث فغَشيها من أمر الله ما غشيها فتغيرت وصارت زمرداً وياقوتاً فما أحد يستطيع أن ينعتها من شدة حسْنها، وهي من نوره، وفيه العرش والكرسي واللوح والقلم، وهي من نوره، وقد قال الإمام أبو حامد في الإحياء في كتاب كشف علم الآخرة: للعرش ثَمانون ألفاً من السرادقات، ولكل سرادق ثَمانون ألف شرافة، وعلى كل شرافة ثَمانون ألف قمر يهلل الله تعالَى ويسبحه ويقدسه، لو برز منها قمر واحد إلَى الدنيا لعُبد من دون الله ولأحرقها نوراً. انتهى. وفيه الملائكة وهم جواهر نورانية بسيطة قدسية مقدّسة عن ظلمات الشهوات، طعامهم التسبيح، وشرابُهم التقديس، أنسهم بالله وبذكره، وفرحهم به وبطاعته، ومقرهم حضرة قربه ومشاهدته، وهم مخلوقون من نوره صلى الله عليه وسلم، وفيه الجنة وناهيك بِما فيها من أنواع الجمال من القباب والقصور من اللؤلؤ والياقوت والزمرد وغير ذلك والأنهار من العسل والخمر وغيرهما وأنواع اللباس والطعام والحور العين والولدان والأكواب والأباريق والأرائك والعَبقري الرفارف إلَى ما لا يعلمه إلا الله تعالَى، وكل ذلك أيضاً من نوره.

ثم نقول شبه الجبروت المنير به ببحر على حافتيه رياض تسقى من حياضه، ودل على ذلك بإضافة الحياض جمع حوض وهو ما يجمع فيه الماء ليفرق للسقي كالصهريج، وشبهت أنواره صلى الله عليه وسلم بالماء الساقي، ودل على ذلك بإضافة الفيض لَها، فالجبروت بحر وأنوار النبي صلى الله عليه وسلم ماؤه، والحياض الساقية تستمد منه.

وحاصل المعنَى أن عالَم الجبروت مبتهج ومُشرق بالنبي صلى الله عليه وسلم، إذ لولا هو ما وجد، وبه تشاهد أسرار الذات التي هو أي عالَم الجبروت مظهرها.

ويحتمل أن كلا من الملكوت والجبروت مستعمل في معناه، وفي الرياض والحياض استعارة تصريحية، شبهت أنوار العارفين التي حضرتها الملكوت بالرياض، وصرح بالمستعار وشبهت أسرارهم التي حضرتها الجبروت بالحياض، وصرح أيضاً بالمستعار، ومونقة ومتدفقة ترشيح للاستعارتين، وظهر من هذا أن رياض الملكوت تسقى من حياض الجبروت، ووجهه أن شهود الصفات الذي مظهره الأول إنّما يكمل بشهود الذات الذي مظهره الثاني، إذ به يحصل الفناء الأكبر ويقوى القرب، فإن مراتب الفناء ثلاثة: فناء في الأفعال بأن يشهد أنْ لا فاعل إلا الله، وفناء في الصفات بأن يشهد أن لا عالِم ولا قادر إلا الله وهكذا، وفناء في الذات بأن لا يشهد ألا موجود إلا الله، وهو معنَى قول القائل:

فيفنَى ثُم يفنَى ثُم يفنَى — فكان فناؤه عين البقاء

فتكميل شهود الصفات إنّما يكون في عالَم الجبروت، فلذلك جعل ساقياً لعالَم الملكوت. ويحتمل أن يكون الكلام من باب الإحتباك، وهو أن يحذف من كل ما أثبت نظيره في الآخر، والمعنَى فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة وحياضه بفيض أنواره متدفقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ورياضه بزهر جماله مونقة، وكذا أحدهما منضمّاً للآخر، فلكل من العالَمين رياض وحياض، وخصّ عالَم الجبروت بذكر الحياض والملكوت بذكر الرياض لِما مر، وعلى التفسير الثاني فالعوالِم الثلاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم أشرقت وتَهيأت للإدراك، فبمدده المبارك صار الحس والوهم مدركيْن لِمدركاتِهما، وكذلك العقل والفهم، وخصّ عالَم الجبروت بالحياض والفيض لأن كمال السقي والري إنّما يكون فيه، إذ فيه يُوقف على حقائق الأشياء ويُعرف كنْهها، وأيضاً فيه تحصل الرؤية التِي هي أقصى المطالب ونِهاية الآمال والمآرب، وما سواها لَها مقدمات ووسائل. ثم هذا الكلام كالدليل لِما قبله، أي إذا كانت رياض الملكوت بزهر جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة،

فكيف لا تتصاغر الفهوم عنه وتقصر عن الإحاطة به، وذلك أن العقول قاصرة عن الإحاطة بالملكوت والجبروت، فإذا كانت أنواره هي المبثوثة هناك وهي المشرقة المتبرزة المزينة لذينك العالَمين وإنّما امتلأ بها اتضح غاية الاتضاح عجزها عن إدراكه فافهم.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به **(ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط)**

لَما مدح النبي صلى الله عليه وسلم وأثنى عليه باستمداد عالَمَي الملكوت والجبروت من زهر جماله وفيض أنواره، زاد في التبجيل والتعظيم، وترقى من مقام التخصيص إلى مقام التعميم، فقال: ولا شيء الخ، أي لا شيء من الأشياء إلا وهو مرتبط به صلى الله عليه وسلم من كل جهة من حيث الوجود والاستقلال والاستمداد، وفي التعبير بالشيء إشارة إلى أن توسطه والتوقف عليه ليس مقيداً بوصف مخصوص بل هو دائر مع مطلق شيئية الحوادث، فلا يختص بالإنسان الكامل بل ولا بمطلق الجسم، فيعم الخلائق جنها وإنسها وملكَها حيها وجمادها سفْليها وعلويها محسوسها ومعقولها، فسبحان مَنْ أهله لذلك، إن الله على كل شيء قدير. وبالجملة فنعمتان ما خلا موجودٌ عنهما ولا بد لكل مكوّن منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، كما في الحِكَم العطائية، وهو صلى الله عليه وسلم الواسطة فيهما، إذ لولا سبقية وجوده ما وُجد موجود، ولولا وجود نوره في ضمائر الكون إلى أن برز لتهدمت دعائم الوجود، فهو الذي وجد أولاً وله تبع الوجود وصار مرتبطاً به لا استغناء له عنه. فإن قيل: كيف نفْي الوجود بعد موته؟ فالجواب أن موته كسائر الأنبياء إنّما هو انتقال من دار إلى دار وهم بعد الموت أحياء على الحقيقة. قال السبكي في طبقاته عن ابن فورك أنه عليه الصلاة والسلام حي في قبره أبد الآباد على الحقيقة لا على المجاز، وقال في المواهب: وليستحضر الواقف عند قبره علمه بوقوفه بين يديه وسَماعه لسلامه كما هو في حال حياته إذ لا فرق بين موته وحياته في مشاهدته لأمته ومعرفته بأحوالهم ونياتهم وعزائمهم وخواطرهم وذلك عنده جلي لا خفاء به. فإن قلت: هذه الصفات خاصة بالله تعالَى، فالجواب أن من انتقل إلَى عالَم البرزخ من مؤمنين يعلم حال الأحياء غالباً وقد وقع كثير من ذلك كما هو مسطور في مظنة ذلك من الكتب، وقد روى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب: ليس من يوم إلا ويعرض على النبي صلى الله عليه وسلم أعمال أمته غدوة وعشية فيعرفهم بسيماهم وأعمالِهم ولذلك يشهد عليهم، وقال السيوطي رحمه الله: حياة النبي صلى الله عليه وسلم في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا

علماً قطعياً لما قام عندنا من الأدلة في ذلك وتواترت به الأخبار، ثم استدل بأحاديث كثيرة، منها حديث مسلم عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به مرّ بموسى عليه السلام وهو يصلي في قبره، ومنها ما في البخاري عن عمّار رضي الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول إن لله ملَكاً أعطاه أسماع الخلائق قائمٌ على قبري فما من أحدٍ يصلي عليّ صلاة إلا بلَّغنيها. انتهى. ونصوص الأئمة في هذا كثيرة، وهذا القدر كافٍ هنا، وناهيك أن العقول منه تستمد، وقد قال بعض العارفين: الجسم بالإضافة إلى القلب اللطيف كنقطة الدائرة، والقلب بالإضافة إلى النفس كخردلة ملقاة في اليم، والنفس والقلب والجسم بالإضافة إلى العقل كذرة من ذرات الوجود المطلق. وقال وهب بن منبه: قرأت في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رملٍ من بين رمال الدنيا. وناهيك أيضاً أن العالَم كله به مرحوم بشهادة قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝ ﴾، ومن جملة العالَمين العرش وما حوى من الملائكة والسموات والأرض وما فيها وما بينهما، وقد تقدم التنبيه على شيء من عظمة العرش، ولنذكر هنا شيئاً من ذلك لتعلم من كونه مرحوماً بنبينا صلى الله عليه وسلم عظمة رحمته وعلو جاهه، وفي الحلية عن جابر وابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أذن لي أن أحدث عن ملَك من حملة العرش رجلاه في الأرض السابعة السفلى وعلى عاتقه العرش من شحمة أذنه إلى عاتقه بخفقان الطير مسيرة مائة عام، وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن وذكره في الحلية أن عائشة رضي الله عنها قالت لكعب الأحبار: يا كعب أخبرني عن إسرافيل، فقال كعب: عندكم العلم، فقالت: أجل فأخبرني، فقال: له أربعة أجنحة جناحان في الهواء وجناح قد تسربل به وجناح على كاهله والعرش على كاهله والقلم على أذنه فإذا نزل الوحي كتب القلم ثم درست الملائكة ومَلك الصور جاث على إحدى ركبتيه وقد نصَب الأخرى ملتقماً للصور محنياً ظهره شاخصاً بصره ينظر إلى إسرافيل وقد أمِر إذا رأى إسرافيل قد ضمّ جناحيه أن ينفخ في الصور، فقالت عائشة: كذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول. وفي الترمذي من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أن ملكاً يسمى خرقاييل طار مقدار عشرين ألف سنة فلم ينل قائمة من قوائم العرش. وقال وهب بن منبه: حوْل العرش سبعون ألف صَف من الملائكة صف خلف صف يدورون حول العرش يطوفون به يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء، فإذا استقبل بعضهم بعضاً هلل هؤلاء وكبّر هؤلاء، ومن ورائهم سبعون ألف صف قياماً أيديهم إلى أعناقهم قد

وضعوها على عواتقهم فإذا سمعوا تكبير هؤلاء وتهليلهم رفعوا أصواتهم فقالوا سبحانك وبحمدك وما أعظمك وما أجلّك أنت الله لا إله إلا أنت الكبير الأكبر الخلق كلهم راجون رحمتك، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى لا يسبّح أحد منهم بتسبيح ما يسبحه الآخر ما بين جناحَي أحدهم ثلاثمائة عام وما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة مائة عام. وقال بعض العلماء: للعرش ثلاثمائة وستون قائمة، وعرض كل قائمة عرض الدنيا سبعون ألف مرة، وبين كل قائمة وقائمة ستون ألف صحراء، وفي كل صحراء ستون ألف عالَم، وكل عالَم كالثقلين من الجن والإنس. انتهى. قلتُ لا يستغرب شيء من هذا إذ ما تواترت به الأخبار من أن السموات السبع والأرضين السبع وما فيهما وما بينهما بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض فوق ذلك كله والله تعالى أعلم. وحكي عن بعض المشايخ أنه سئل عن عظمة الله تعالى فقال ما تقول فيمن له عبد يسمّى جبريل له ستمائة جناح لو نشر منها جناحين لستر الخافقين. وروي أنه قال صلى الله عليه وسلم لجبريل: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعمْ كنت أخشى العاقبة ثم أمنتُ منها بثناء الله عليّ بقوله ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ ﴾. وقوله هل أصابك من هذه الرحمة شيء، أي حظ مخصوص، وأما رحمة الإيجاد والإمداد فشاملٌ له ولغيره، ولذلك أجابه بالحظ المخصوص واقتصر على هذا لأنه أسنى المطالب وإلا فقد ناله من الحظوظ المخصوصة كثير. وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: جميع الأنبياء خُلقوا من الرحمة ونبينا عين الرحمة قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾. قلتُ قولُهم رحمتُه بالكافرين باعتبار عدم تعجيل العقوبة فيه أن رحمته لا تنحصر في ذلك وكأنّهم فهموا رحمته باعتبار ما يتقرّر في الوجود، والظاهر أن المراد ما هو أعم فيندرج ما هو باعتبار قصْده وسَعْيه واجتهاده واعتنائه، وقد كان حريصاً على هُداهم حتّى قيل له لعلك باخعٌ نفسك الخ إنْ تحرصْ على هُداهم، وإذا كان عين الرحمة فهو أصل الرحمات وينبو عنها ولا رحمة خارجة عنه، وكل مرحوم مشهوم منه، وفي اسمه محمد إشارة إلى ذلك، فإن الحاء مُشار بها للرحمة، والميم الأولى للملك الأول، والثانية للملك الثاني وهو الآخرة، ووسطت حاء الرحمة بينهما إشارة إلى أن الملكين يتجاذبانها فيستمدان منها، والدال مُشار بها للدوام جاءت بعْد ميم الملك الثاني إشارة إلى تأبيده. وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله بعثني رحمة مهْداة بعثت برفع قوم وخفْض

آخرين، وقال عليه الصلاة والسلام أنا نبي الرحمة. قال في المشارق: لأنه تيب على الناس وآمنوا ورحموا، وقد يكون معناه ما سَمَّاه الله تعالَى في قوله ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ بعطفه وإحسانه لَهم، وقد يكون لرحمة الله العالَمين بشفاعته الأولَى بالموقف من شدته وتعجيل حسابِهم ورحمة المؤمنين بعُلو درجاتِهم بشفاعته الثانية. انتهى. وقال في أمته أنّها أمة مرحومة، فلها الحظ الأوفر من رحمته صلى الله عليه وسلم، وفي حديث أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إنّي لكم بمكان صِدْق حياتِي وإذا مت، فقال عمر يا رسول الله ماذا تصنع إذا مت، قال: لا أزال أنادي في قبري رب أمتِي أمتِي حتَى ينفخ في الصور النفخة الثانية. وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبَي بن كعب قال صلى الله عليه وسلم: يا أبي إن ربّي عز وجل أرسل إلَيّ أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن يهون على أمتِي فرد إلَيّ الثانية اقرأه على حرفَيْن فرددت إليه أن يهون على أمتِي فردّ علَيّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردّة رددتها مسألة تسألها، فقلت اللهم اغفر لأمتِي اللهم اغفر لأمتِي، وأخَّرتُ الثالثة ليوم ترغب بِها إلَى الخلق حتَى إبراهيم. وفي روضة الأنوار لسيدي عبد الرحمن الثعالبِي عن عائشة رضي الله عنها قالت لَما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب نفس فقلت يا رسول الله ادع لِي فقال اللهم اغفرْ لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر وما أسرّت وما أعلنت، فضحكت عائشة حتَى سقط رأسها في حجرها من الضحك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيسركِ دعائي، فقالت وما لِي لا يسرني دعاؤك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله إنّها لدعائي لأمتِي في كل صلاة. رواه ابن حبان في صحيحه. وعن عائشة رضي الله عنها قالت قمت ذات ليلة أطلب النبِي صلى الله عليه وسلم وقد خرج من البيت فوجدته في البقيع فيقول قائماً يا رب أمتِي وساجداً يا رب أمتِي، فقلت يا رسول الله وأين القرآن فقد نسيته لأجل هذه الأمة، فلما سمع قال لِي يا عائشة أتعجبين من هذا أقول ما دمت في الحياة يا رب أمتِي فإذا دخلت القبر قلت يا رب أمتِي فإذا نُفخ في الصور أقول يا رب أمتِي. قال في تذكرة المحبين بعده: فاذكروا يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم رحمة نبيكم بكم ورأفته عليكم وذكره لكم قبل وجودكم. انتهى.

ومن هنا تعلم أن النبِي صلى الله عليه وسلم قد أحْسن إلينا إحساناً لا يُماثله إحسان بحسن من آبائنا وأحبائنا وأقاربنا وغيرهم، إذ هو السبب في وجودنا وبقاء مُهجنا وأرواحنا وتخليدنا في النعيم المقيم إن شاء الله تعالَى، ولا شك أنا عاجزون عن مكافأته صلى الله عليه وسلم، ولِهذا أُمِرْنا أن نسأل الله تعالَى أن يصلي ويُسلم عليه نيابة

عنا بفضله في مكافأته، إذ لا يكافئ إحسانه إلينا إلا إحسان خالقه تبارك وتعالى. وفي المواهب عن بعض أهل الإشارات لما انتهى صلى الله عليه وسلم في الرجوع إلى العرش تمسك العرش بأذياله وناداه بلسان حاله: يا محمد أنت في صفاء وقتك آمنا من مقتك أشهدك جمال أحديته وأطلعك على جلال صمديته وأنا الظمآن إليه اللهفان عليه المتحير فيه لا أدري من أي وجه آتيه جعلني أعظم خلقه فكنت أعظمهم منه هيبة وأكثرهم فيه حيرة وأشدهم منه خوفاً، يا محمد خلقني فكنت أرعد لهيبة جلاله فكتب على قائمتي لا إله إلا الله فازددت لهيبة اسمه ارتعاداً وارتعاشاً فكتب محمد رسول الله فسكن لذلك قلقي وهدأ روعي وكان اسمك لقاحاً لقلبي وطمأنينة لسري فهذه بركة اسمك عليّ فكيف إذا وقع نظرك عليّ، يا محمد أنت المرسل رحمةً للعالمين ولا بد لي من نصيب من هذه الرحمة ونصيبي يا حبيبي أن تشهد لي بالبراءة مما نسبه أهل الزور إليّ وتقوله أهل الغرور عليّ زعموا أني أسع من لا مثل له وأحيط بمن لا كيف له، يا محمد من لا حدّ لذاته ولا حدّ لصفاته كيف يفتقر إليّ أو يكون محمولاً عليّ، إذا كان الرحمن اسمه والاستواء صفته، وصفته متصلة بذاته، فكيف يتصل بي أو ينفصل عنّي، يا محمد وعزته لست بالقريب منه وصلاً ولا بالبعيد منه فصلاً ولا بالمطيق له حملاً أوْجَدني رحمةً منه وفضلاً ولو محقني لكان حقّاً منه وعدلاً، يا محمد أنا محمول قدرته ومغمول حكمته. فأجاب لسان حال سيدنا زاده الله شرفاً وفضلاً لدينه ووالى صلواته وسلامه عليه أيها العرش إليك عنّي أنا مشغول عنك فلا تكدر عليّ صفوتي ولا تشوش عليّ خلوتي، فما أعاره سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم طرفاً ولا أقرأه من مسطور ما أوحى إليه حرفاً، ما زاغ البصر وما طغى. انتهى.

ولما حدث النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسراء قال ثم أتيت على موسى ونعم الصاحب كان لكم قال ما صنعت يا محمد ما فرض عليك ربك وعلى أمتك. وفي رواية البخاري بِمَ أُمرتَ. قال أُمِرْتُ بخمسين صلاة كل يوم، قال ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك فإنّي قد خبرت الناس قبلك وبلوت بني إسرائيل وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من هذا فضعفوا وتركوه فأمتك أضعف أجساداً أو أبداناً وقلوباً وأبصاراً وأسماعاً، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل يستشيره، فأشار إليه جبريل إنْ شئت، فرجع سريعاً حتى انتهى إلى الشجرة فغشيته السحابة وخر ساجداً وقال رب خفف على أمتي فإنّها أضعف الأمم، قال قد وضعت عنكم خمساً، ثم انجلت السحابة ورجع إلى موسى فقال وضع عنّي خمساً، فقال ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك. فلم يزل يرجع بين

موسى وبين ربه يحط عنه خمساً خمساً حتّى قال يا محمد قال لبيك وسعديك، قال هي خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة لا يُبدل القول لَدي ولا ينسخ كتابي ومَنْ همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ومَنْ هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة، وأخرت فنَزل حتّى انتهى إلَى موسى فأخبره فقال ارجع إلَى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال قد راجعتُ ربي حتّى استحييت منه ولكن أرضى وأسلم، فنادى منادٍ أن قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي. انتهى.

ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم (وجُعلت قرة عيني في الصلاة) وقال (أرحْنا بِها يا بلال) كان يتذكر بِها تلك المراجعات الجليلة بين موسى وربه عز وجل. وأيضاً رأى تعبّد الملائكة في العالَم العُلوي فمنهم قيام لا يلتفتون ومنهم ركّع لا ينحرفون ومنهم سجّد لا يرفعون، كما في الصحيح، فإذا كان يوم القيامة قالوا بأجمعهم: سبّوح قدّوس ما عبدناك حقّ عبادتك. فجَمَع الله تعالَى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأمته جميع تلك العبادات في ركعة واحدة في أقل زمان وأقرب فعْل، وفي هذا من الرحمة لِهذه الأمة والترفيع لشأنِها ما ليس يخفى. قال ابن أبِي جمرة: أكثر النبِي صلى الله عليه وسلم من الدعاء لأمته في هذا الموضع لِما جبله الله عليه من الشفقة والرحمة، فأجابه بقوله ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾، وقد ذكر العلماء أن هذا النداء كان من الله بجانب الطور قبل أن يخلق الخلق بألفي عام فقال يا أمة محمد أرحمكم قبل أن تسترحموني وأغفر لكم قبل أن تستغفروني وأعطيكم قبل أن تسألوني.

ولعظمها حتّى جعلت فرقاً بين الإيمان والنفاق، وجعلت من الدين كالرأس من الجسد، ناسب أن يعطاها في قاب قوسيْن من غير واسطة تَمييزاً لَها عن غيرها من الفرائض، فهي من أكبر التحف القدسية وأعظم الطرف الرحمانية المعراجية وأنفس الذخائر الملكوتية العرشية، ولعظمها تتكرر من المكلف في كل يوم وليلة بخلاف غيرها من الفرائض. قال الشيخ عبد الرزاق العثماني: وفيها من طريق الاقتباس ومطابقة القياس ما يزيد العاقل ولوعاً بِها ورغبة في الخوض فيها وشوقاً إليها، وذلك أن الصلاة إنّما فرضت على النبِي صلى الله عليه وسلم وأمته في وقت مَسْراه، فكان للمصلي حظ من مَسْراه صلى الله عليه وسلم، فطهارة المصلي وإسباغ وضوئه وتَهيؤه للوقوف بين يدي ربه هو حظه من شرح صدْره صلى الله عليه وسلم حين شق جبريل عليه السلام صدره صلى الله عليه وسلم، وغسْله بِماء زمزم وملأه حكَماً وإيماناً كما صحّ في الخبر ومَشْي المصلي من بيته إلَى المسجد هو حظه من سيره صلى الله عليه وسلم من مكة

إلَى بيت المقدس، وخلع المصلي نعله بباب المسجد ومبادرته لركعتي تحية المسجد هو حظه من صلاته صلى الله عليه وسلم في مسجد بيت المقدس حين دخله كما صحّ في الخبر، ورمي المصلي بأسباب الدنيا من يده وطرد شواغلها من قلبه وتعلق قلبه بحضرة ربه هو حظه من ارتحاله صلى الله عليه وسلم من عالَم الْمُلْك إلَى عالَم الملكوت، وقراءة المصلي وتكرار ركوعه وسجوده هو حظه من اختراقه صلى الله عليه وسلم السبع الطباق فما فوق، وما يفتح به على المصلي في حال صلاته من فهم أسراره وإشراق أنواره هو حظه مما شاهده صلى الله عليه وسلم من العجائب بين أطباق السموات، ورفْع همة المصلي من الوقوف مع شيء مما يفتح به عليه وتعلق قلبه بربه هو حظه من عدم التفات نبيه صلى الله عليه وسلم إلَى شيء من هواتف الكون وعجائب الملكوت حتَى أناخ براقه بين يدي ربه، وقيام المصلي وقعوده وركوعه وسجوده هو حظه من عبادة أجناس الملائكة، واشتغال المصلي بصلاته من تكبيرة الإحرام إلَى الجلسة الوسطى هو حظه من ترقيه صلى الله عليه وسلم من عالَم الملكوت إلَى عالَم العزة، وجلوس المصلي لتشهّده هو حظه من وقوفه صلى الله عليه وسلم في مقام قاب قوسيْن أو أدنَى، وتشهّد المصلي هو حظه من تحيته صلى الله عليه وسلم لربه وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لَما أوقفه الله حيث شاء حيّاه صلى الله عليه وسلم بقوله "التحيات لله" إلَى قوله "الصلوات لله"، فردّ الله عليه بقوله "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته"، فطلبَ النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤمنه هو وأهل الصلاح من أمته بقوله "السلام علينا وعلى عباد الله الصالِحين"، فلما سَمع الملَك مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم مع ربه شهدَ لله سبحانه بالوحدانية ولرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة فأمّن الله الجميع النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأهلَ الصلاح من أمته والملَكَ بقوله "السلام عليكم" فبقيت سنة المصلين إلَى يوم الدين، ورجوع المصلي إلَى تَمام صلاته بعد التشهد الأول هو حظه من مراجعته صلى الله عليه وسلم إلَى ربه يسأله التخفيف. ومنْ عظيم قدْرها عند الأمر بها أن جمع فيها جميع أنواع ما تعبّدنا به: ففيها ذكر الله، وتلاوة كتاب الله، والدعاء لله، وتسبيح الله، وتحميده، وتكبيره، وفيها منع الكلام بغير ذكر الله، وهي ساعة من ساعات الأنس بالله، وهي رفض ما سوى الله ومجاهدة الشيطان لئلا يفْسد عليه عملاً هو لله، وهي ساعة من ساعات جهاد العدو في سبيل الله، ومنع الأكل والشرب، وهي ساعة من ساعات تطوع الصوم لله، ونصبُ وجْه المصلي كعْبة الله وهي ساعة من ساعات الطواف ببيت الله، ووقوف العبد لصلاته في مناجاة الله وهي ساعة من ساعات وقوفه بعرفات لدعاء

الخير، وطلب ما عند الله، وفيها الدعاء للمسلمين وهو نوع من واجبات الصدقات على أهل الحاجة من عباد الله. انتهى المراد منه.

قلتُ: وسرُّ كَوْن الإسقاط بخمس خمس، والله أعلم، لتكون المراجعات مع الأصل عشر مراتب، إشارة إلَى أن الله تعالَى كان يكرم حبيبه في كل مرة بكرامة ويهدي له في كل مجيء هدية، فهي عشر هدايا، فلذا قال في المرة الأخيرة لكل صلاة عشر فكانت الحسنة بعشر أمثالِها من بركته وعزته عند ربه تعالَى، ولَم يعط ذلك في أول مرة لِمحبوبيته عنده أظهر ذلك في إحواجه إلَى المراجعات والإهداء في كل واحدة منها، وفيه إشارة إلَى أن مراده من عبيده المخصوصين أن لا يزول إليه اضطرارهم ولا يكون مع غيره قرارهم، فلا يقضي لَهم جميع مآربِهم دفعة لِمحبته وقوفهم ببابه ودوام التجائهم لِجنابه، وتذكر هنا قوله تعالَى: يا جبريل أخر حاجة عبدي فإنِّي أحب أن أسمع صوته، ولذا لَم يعجل لَهم نعيمهم في الدنيا وأخَّر ذلك إلَى ملاقاته ليدوم سؤالُهم ويتقرر عندهم أن النعيم إنَّما يكمل برؤيته، وفيه إشارة إلَى أن الله يحب من عبده الإلحاح وأنه تعالَى لا يتبرّم بإلحاح الملحين، ونذكر هنا قضية دعائه صلى الله عليه وسلم وإلحاحه على ربه بالعريش يوم بدر، وفي ذلك إشارة إلَى أن هذه العشر أو ما يقوم مقامها هي الأصول التِي يدور عليها التضعيف في مقاماته لا على الأصل الأول الذي هو الحسنة الواحدة، فنقول إذا كانت صلاة الشخص في جماعة بِخمس وعشرين درجة ضربتْ في عشر فتكون الصلاة في جماعة بِمائتين وخمسين كما صرّح به الأئمة، وإذا كانت الصلاة في بيت المقدس فذا بِخمسمائة صلاة ضربت في عشر فهي بِخمسة آلاف صلاة، ثم تضعّف في الجماعة، وإذا كانت الصلاة في مسجد المدينة بألْف صلاة كان مضروبه في عشرة بعشرة آلاف، ثم تضعّف في الجماعة، وإذا قلنا بقول الشافعي أن الصلاة في مسجد مكة بِمائة ألف صلاة كانت مضروبة في عشرة، ثم تضعّف في الجماعة. وفي ذلك أيضاً مع إبقاء الخمس إشارة إلَى تضمنها جميع قواعد الإسلام الخمس نفْسها وغيرها وقد مر بيانه، وإلَى أن أفعالَها في كل ركعة خمس: قيام وركوع وسجدتان وجلوس، وأقوالها في جملتها خمس: تكبير وقراءة وتحميد وتشهد وسلام، وأقوالها خمس في كل ركعة: تكبير وقراءة وتحميد وتعظيم ودعاء، وما تجب قراءته فيها منقسم على خمس: حمد وثناء وتحميد وهذه لله وإن كانت منابعها للعبد، وما بين العبد وربه، وما للعبد، كما في حديث قسمتُ الصلاة الخ.

تنبيه: التحيات لله جمع تحية، وهي ما يحيا به العظماء من الأقوال المشتملة على أنواع التعظيم والإجلال، وأل استغراقية أي كل قول مشتمل على ما ذكر هو لله، أي الله هو المستحق له، وإذا كانت كلها له فهي مقصورة عليه فلم يحتج لتقديم المُسنَد في إفادة الحصر، أو اللام للاختصاص، ومعنَى ذلك أن كل ثناء على عظيم فهو في الحقيقة لله لأنه واهب الصفة الذي استحق به ذلك له، ولم يحيي صلى الله عليه وسلم بتحية مخصوصة لأنّها وإن بلغت في التعظيم ما بلغت فلا خصوصية لَها بالنسبة لله تعالَى، وأيضاً الخاصة وإن بلغت ما بلغت فالعموم أبْلغ فكان اللائق. فإنْ قلت: مقتضى الظاهر لك إذ المقام مقام خطاب، قلت: عدل لما ذكر لما في اسم الجلالة من إحضار العظمة كما يقول المشافه للأمير المخاطب له أيّد الله الأمير مع ما فيه من التبرك والاستلذاذ باسم الله تعالَى. الزاكيات أي الطاهرات من كل ما لا يليق، فإن التحية وإنْ كانت من حيث هي زاكيات فهناك من التعظيم ما لا يليق بأعظم العظماء جل وعلا، فهو نعت للتحيات عنه ليتوصل إلَى تكريم اسم الجلالة لتكميل التبرك والاستلذاذ. الطيبات أي الخالصات التي لم يقصد بِها رياء ولا سمعة، وخص هذا بالذكر وإن كان مما يصلح تضمن الزاكيات له لأنه قد لا يثبته له مع شرفه واعتباره ولم يخبر عن هذا بالظرف تنبيهاً على أصل القصد من الوصفية رجوعاً إلَى ما يقتضيه أصل الأسلوب لئلا يتوهم أن كل جملة لَها معنًى مستقل كما قد تُوهِم. الصلوات أي المعهودة، والجملة جارية مجرى بَدل البعض ولذا فصلت أُشير بِها إلَى أنّها مشتملة على ذلك ومفيدة له أجْرى الله ذلك على لسان نبيه توفيقاً لطلب فرضها موافقة لما اقتضاه العلم. السلام عليك أيها النبي ينوي القائل الروضة المشرفة كما قال ابن العربِي، وإنّما عدَل والله أعلم عن الرسول الأخص الأمدح إلَى النبِي لتحفظ خلوته حتّى يقضي أربه، إذ معنًى الرسول المبعوث إلَى الخلق وتذكيرهم من المحبوب غير مناسب حتّى يتم معنًى الخلوة وعند ذلك يتكلم في شأنِهم، ففي النبِي إشارة إلَى كمال الاستخلاص والتخصيص هذا ما ظهر فاحتفظ لِهذه اللطائف.

ثم الناس في شهود وساطته صلى الله عليه وسلم على أربع مقامات كما قال الشيخ عبد الرزاق العثماني: الأول موقف أهله شهود شريعته وهو لعامة المؤمنين، الثاني موقف أهل شهود ذاته وهو للأولياء والصالِحين، الثالث موقف أهله شهود روحه صلى الله عليه وسلم وهو للشهداء والصديقين، الرابع موقف أهله شهود سره صلى الله عليه وسلم وهو للأنبياء والمرسلين، وكل صاحب مقام واقف فيه عند حده متحقق

بقصوره على إدراك ما خص به من مواهب ربه، فمن كان مشهده شريعته صلى الله عليه وسلم فهو واقف مع شهود التكليف وعلى القطع أنه لم يطق الاحتواء على جميع لوازمها ولا القيام بجميع شروط قاعدة من قواعدها كما قال صلى الله عليه وسلم إن هذا الدين متين خذوا منه ما استطعتم ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، ولم يقم فيه بجميع حقوق ربه إلا هو صلى الله عليه وسلم، فهو كنخلة اجتمعت فيه أقوات الخلق أصلها في الأرض وفرعها في السماء مثمرة من أرضها إلَى منتهى فرعها، وكل واحد من الخلق في أخذ قوتهم منها على حسب قوته ونهاية طاقته، ورأسها متمنع من الجميع لامتناع وصول البشر إلَى السماء، فافهم، فاستغراق همة صاحب هذا المقام في متابعة أقواله وأفعاله وفي ذلك لذة مشربه، وهذا المقام أصل وما بعده نتائج وأحوال ناشئة في طريقة السالكين وإليه مرجع المجذوبين، ووجه مشهد شريعته أنها حجاب بين العبد وسخط ربه لكونها تورث العامل بها ظهور وصف جمال الله الذي هو بساط رحمته وتستره عن وصف جلاله الذي هو بساط نقمته، وفناؤه في الله هو تركه لحظ نفسه عند مطالبته بحق من حقوق ربه وأداء ما افترضه عليه، ففناء هذا غيبة لا سكْر. ومَنْ كان مشهده ذاته صلى الله عليه وسلم فهو واقف في مقام هيبة الجمال ولا سبيل له إلَى إدراك حقيقتها برؤية البصر فأحرى بالبصيرة لمانع قوة نوره صلى الله عليه وسلم، كما امتنعت الأبصار من إدراك حقيقة الشمس، يشهد لذلك قول حسّان رضي الله عنه في وصفه لَما قدم عليه ورجع إلَى قومه وهم كُفار قريش فقالوا له صفْ ما رأيته، وبذلوا له مالاً على أن يهجوه بعضهم فيه، فقال:

لَما نظرتُ إلَى أنواره سطعتْ	وضعْت من خيفتِي كفي على بصري
خوفاً على بصري مِن حُسن صورته	فلستُ أنظره إلا على قَدَر
الأنوار من نوره فِي نوره غرقتْ	والوجه منه طلوع الشمس والقمر
روحٌ من النور فِي جسمٍ من القمر	كحُلة نُسجتْ فِي الأنجم الزُّهُر
صلوا عليه لعل الله يرحمكم	يوم تلظى وترمى فِي النار بالشرر

فقالوا له ما هذا، فقال هذا الذي رأيت وعارٌ على الرجل يصف الكذب.

فصاحبُ مشهد ذاته صلى الله عليه وسلم هو بين محو وإثبات، لأنه إذا نظر إلَى صورة بشريته جملة شاهد بشراً سوياً، وإذا رام حصر أوصاف بشريته تمنّع عليه حصرها فلا يمكنه أن يقول إلا أنه بشر وليس كالبشر كما يقال في حجر الياقوت حجر وليس كالحجر، واستغراق همة صاحب هذا المقام في وصف الأول ويزيد عليه بأن

مكارم أخلاقه جبلّة لا تعمل، وإلا فالأول لا يخلو من وصف تعملها، وفي هذا الوصف غرقت الهمم العلية وغرقت دونه الهمم الدنية، ووجه مشاهدة ذاته صلى الله عليه وسلم أنه حجاب رحمة بين العبد وهيبة ربه، لأنه بوجود ذاته الكريمة ظهَر الإسلام وذهبت عبادة الأصنام ومن حكمه شرعت الأحكام ومن لسانه عرف الحلال من الحرام، فلولا وساطة بشريته صلى الله عليه وسلم لم يستطع أحد تلقي أمر الله ونهيه من واسطة المَلَك فأحرى من خطاب الملِك، قال سبحانه ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فانظر إلى عظيم مقاساته في تلقي القرآن من جبريل مع ما أودع الله فيه من القوة والاستعداد لذلك مما هو خارج عن طوق البشر ومع ذلك يقول زملوني وتارة دثروني وتارة يبقى له غطيط وعرق، والجاري من أحواله أنه يغيب عن حسه حين تلقي الوحي، والصحابة لَما تلقوه من بشريته لم يصعب عليهم ذلك ومن بعدهم كذلك. ووجه فنائه في الله تركه لدواعِي الهوى واستقامته ظاهراً وباطناً على بساط التقوى، فهو وإن كان عاملاً على أمر الله لكن بواسطة المبلغ عن الله، وفناء هذا غيبة لا سكر.

ومن كان مشهده روحه صلى الله عليه وسلم فهو واقف في مقام هيبة الجلال، وفناؤه حقيقي لأن سرّه فارق عالَم الخلق واستوطن عالَم الأمر تبعاً لشهوده وهو روحه صلى الله عليه وسلم، فهو ليس له مع غير الله قرار ولا عن ما سواه إخبار، واستغراق همة صاحب هذا المقام المعبّر عنه بمركز البصيرة في وصف المقامين السابقين ويزيد عليهما بالخروج في جميع تلقياته عن العادة إلَى صون الحكمة وبث الإفادة تبعاً لِمشهوده، لأن الروح لا حكم للعادة عليها، والنفس لا خروج لَها عن ذلك؛ فهو يقوم بالحجتين ويشتمل على الطرفين كل على حسب مطلبه فيكون عند ذلك بشراً سوياً. وبالجملة ففي كل واحدٍ من هذه المقامات بداية وواسطة ونهاية، قد علم كل أناسٍ مشربَهم، وذلك لقوة الوارد وضعفه وهما يظهران في طرق مكاسبه وهي كثرة العمل وقلته فعلاً كان أو ذكراً أوْ فكراً، لأنه قيل بقدر ما يدخل القلب من التعظيم والحرمة تنبعث الجوارح بالمسارعة في الخدمة، وبقدر المتابعة تكون المواجهة، وبقدر المواجهة تكون المشاهدة، وبقدرها يكون الكشف، وبقدره تكون غيبة المشاهد في المشهود، وبقدرها يكون الفناء، وبقدره يبلغ العبد غاية المنَى، فمشاهدة جمال الحق وجلاله إنّما تظهر في مرآة ذاته صلى الله عليه وسلم، وحقيقة ذلك لم يدركها أحد بفهمه ولا يعلم ذلك إلا الذي خصه به.

ومن كان مشهده سره صلى الله عليه وسلم فغاية إدراكنا من العلم فيما بينه وبينهم كما قال البوصيري رحمه الله تعالى:

فمبلغُ العلمِ فيه أنه بشرٌ ... وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آيٍ أتى الرسْل الكرام بها ... فإنّما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضلٍ هم كواكبها ... يظهرْن أنوارها للناس في الظلم

أي يظهرهم الله لخلقه بأنوار توحيده في ظلمة الشرك به ليهدي الله بنورهم من شاء من خلقه وتَحِقّ كلمة العذاب على الكافرين، وذلك على وجه النيابة عن نوره الأعظم قبل ظهور ذاته الكريمة، وكذا ورثته من أمته بعد غيبة ذاته يدْعون إلى الله تعالى لدعوته وتثبيتاً لشريعته، كما أشار إلى ذلك بقوله (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل) أي في النيابة عنه في دعوى الخلق إلى الله. وأما وجه المناسبة في المادة منه وإنْ وقع مطلق الاشتراك فيها فلا قابل بالاشتراك في القدر بين حظ الأنبياء وحظ الأولياء، وقد كشف عن ذلك أبو يزيد في قوله: حظ النبي زقّ من عسل وما رشح هو حظ الولي. وحاصل الأمر أن أسرار الأنبياء والأولياء كلها مطوية في حشو لَمحة من مواهب سره، ونقطة من فيض بحره، كما قال البوصيري:

وكلهم من رسول الله ملتمسٌ ... غرفاً من البحر أو رشفاً من الديَمِ
وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحِكَم

وقد استبان من هذا أنه لا غنًى لأحد عن وساطته صلى الله عليه وسلم، وإلا فلا طاقة لسائر الخلق على شهود وصف الحق، ووجْه ذلك أنه يكون مشهود العبد أولاً واسطة النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا تجلت لسره شمس الأحدية استغرق قدْرها قمر المحمدية فغاب نور قمر المحمدية في غلبة نور شمس الأحدية، لقرْب البعض من البعض، كما يغيب ضوء القمر الحسي في ضوء الشمس عادة عند تقارب منازلِهما، ودليل التقارب على معنى ما يليق ببساط التوحيد ما أومأتْ إليه آية النجم ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۞ ﴾، فهذه المنْزلة ثابتة للنبي صلى الله عليه وسلم وهي له ذاتية ليلة الإسراء وفيما بعدها روحية سرية لقوله عليه الصلاة والسلام (أبيت عند ربّي يطعمني ويسقين)، مع أنه لا قائل بإسرائه في غير ما أخبر الله به، وهذه المنْزلة وإن نالَها صلى الله عليه وسلم في عالَم العزة في مقام لم يصل إليه غيره من سائر البشر فلم يزل قرْبه من ربه على نحو ذلك في عالَم المُلْك للاستواء في عدم حلول الحق في المكان وثبوت إحاطة علمه بعُلو الموجودات وسُفليها، ومَحل الدُنو على معنًى ما يليق

بمقام الألوهية في عالَم الملْك قلب المؤمن حيث خلِق برزخاً معاً وسع الكون والمكون، وسع الكون في إتقان كل حكمة وقبول كل نعمة، ووسع المكون علماً ومعرفة ووقف عند ما حُدّ له، ودليل الوسع حديث (لا يسعني أرضي ولا سمائي ويسعني قلب عبدي المؤمن)، ولَما ثبت لقلب المؤمن أنه محل تجلي الحق سبحانه وأن العبد لا يطيق شهود الحق لضعفه جعل للرسل عليهم الصلاة والسلام الاستعداد لذلك، وأعظمهم في ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إذ هو واسطة الجميع. وبيان وصف القضية أن أرباب الفناء إذا غشيهم وارد المشاهدة يكون إذ ذاك مركز نظر بصيرة العبد قمر المحمدية، لأن ذلك غاية ما تطيق بصيرته النظر فيه، كما قال تعالَى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا ﴾ أي صورة رجل للاستئناس بالجنس والرجوع إلَى عالَم الحس، ولَما كانت البشرية لا تطيق مباشرة الملْك بعث الله لنا رسلاً من أنفسنا رحمة منه بنا كما قال تعالَى لقد منّ الله على المؤمنين الآية، فالمشاهد يشهد المشهود في مرآة سر الوجود، ولولا واسطته صلى الله عليه وسلم لم يطق العبد وصف المشاهدة لقوله صلى الله عليه وسلم (حجابه النور ولو بدت سبحات وجهه لاحترق ما أدركه بصره من خلقه)، فهو صلى الله عليه وسلم حجاب النور الحاجز بينه وبين خلقه كما قال تعالَى ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ انتهى.

وفي حاشية الحزب الكبير لسيدي عبد الرحمن الفاسي نفعنا الله به: وقد نبّه الحاتِمي رضي الله عنه على نكتة ينبغي الاحتفاظ بها حيث قال: اعلم أن كل ولِي لله تعالَى فإنه يأخذ ما يأخذ بواسطة روحانية النبِي صلى الله عليه وسلم، فمنهم من يعرف ذلك ومنهم من لا يعرفه ويقول قال لِي الله وليس غير تلك الروحانية. انتهى. وهذا موافق لِما أشار إليه سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه حيث قال إن الولِي يكاشف بالمثال يعني كما يرى مثال البدر في الماء وبواسطته، وكذلك الحقائق الغيبية والأمور الإشهادية مجلوة وظاهرة في بصيرة النبِي صلى الله عليه وسلم وله عياناً لا مثالاً، والولِي لقربه منه ولِمناسبته له لِهديه بِهديه ومتابعته له يكاشف بِمثال ذلك فيه، فظهر الفرْق وثبتت مزية النبِي صلى الله عليه وسلم، وانتفى اللبْس بين النبوة والولاية، وصحّ ما أطبق عليه الأولياء من المحادثة والمكالمة، وقولهم قيل لِي ونُوديت في سري. انتهى. وبه تفهم ما ذكرناه من أن الولِي قد لا يستحضر وساطته صلى الله عليه وسلم إذا استولَى عليه الفناء واستغرقه في الشهود، فتدبّر مع ما تقدّم من غيبة نور قمر المحمدية في نور شمس الأحدية.

وإثبات الواو في قوله رضي الله عنه (وهو به منوط) على حدّ قول الشاعر:

يحشر الناس لا بنين ولا آباء إلا وقد عنتهم شؤون

والصواب فيه أن الجملة حال، لأنه يشترط في عمل لا ألا ينتقص نفيها، وقد صرح به العصام في شرح الكافية، وفي شرح اللب يجوز اقتران الماضي التالي إلا بالواو في الجملة الحالية. فإن قيل: كيف أثرت لا في الاسم فبني مع فقد الخبر، قلت سَدّت الحال مسَده كما في ضَرْبِي العبد مسيئاً، وصاحب الحال الضمير المستتر في الخبر، والتقدير لا بنين ولا آباء موجودون الخ لا اسم لا إذ تتمة المبتدأ لا تسدّ بسد الخبر.

قوله (كما قيل) خبر لمحذوف، والجملة اعتراض بين الفعل والفاعل، وليست صيغة قيل هنا للتضعيف لأن هذا المعنى ثابت في الحديث وإنْ كان الأُليري توقّف في قول البوصيري (لولاه لَم تُخْرَجِ الدنيا من العدم) وقال هل يوجد هذا في حديث ومن أين أخذه، فقد تقدّم حديث جابر وحديث عمر رضي الله عنهما، وعند ابن عساكر هبط جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن ربك يقول: إن اتخذتُ إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيباً وما خلقتُ خلقاً أكرم عليّ منك ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرّفهم كرامتك ومنْزلتك ولولاك ما خلقتُ الدنيا. وفي شرح الهمزية لابن حجر صحّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وله حكم المرفوع: ولولا محمد ما خلقت آدم ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبتُ عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن، وفي رواية أخرى: ولولاه ما خلقت السموات ولا الأرض ولا الطول ولا العرض ولا وضع ثواب ولا عقاب ولا خلقتُ جنة ولا ناراً ولا شمساً ولا قمراً. انتهى. وقال في شرح مشارق الصغاني على قوله في الحديث (نبي الرحمة) وهي الوجود لقوله لولاك ما خلقت الأفلاك. وفي شرح الشفا على قوله لولاه ما خلقتُك، والخطاب لآدم ما نصه: هذا أول دليل على ما هو المعهود الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم سبب الوجود وأنه لولاه لم تكن الأكوان، وبيتُ البوصيري سبقه إليه ابن الفارض حيث قال:

لولاك يا أحْمد الْمحمود ما طلعت شمسٌ ولَم تخرج الدنيا من العدم

وكان مقتضى الظاهر إذ لولاه بالإضمار لتقدم مرجع الضمير، وإنّما عدل عنه إلَى الإظهار لوجهين: أحدهما أنه مطلق الإظهار الواقع في المحْكي في كثير من الروايات كرواية لولا محمد ما خلقتك. ثانيهما ما في خصوص الظاهر المعدول إليه عن المدْح بمعنَى التوسط بخلاف الضمير، فالمعدول عنه أخص لإفادته صفة لا يفيدها المعدول عنه. قوله (لذهب الموسوط) أي لفقد ولم يوجد باعتبار وساطته في نعمة الإيجاد

ولاضمحل وتلاشى وهلك باعتبار وساطته في نعمة الإمداد، والظاهر أنه أرادهما معاً لصحة استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وتلك أمدح.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به **(صلاة تليق بك منك إليه كما هو أهله)**

اسم مصدر نوعي لأنه موصوف بجملة تليق الخ، بيّن به أنه ليس مطلوبه مطلق الصلاة، بل صلاة مخصوصة تناسب عظيم مقداره عند الله تعالَى، ولا يعرف مقداره غيره جل وعلا كما مرّ، فلا يمكن أحداً تعيين هذه الصلاة وبيان حقيقتها، فالصفة مخصوصة لإخراجها الصلاة التِي لا تناسب قدْره، ولم ترفع الإبهام عن الموصوف بالكلية، فهذا تخصيص لا تعريف، إذ التعريف أخص من مطلق التخصيص، ولا يلزم من ثبوت الأعم ثبوت الأخص، وطلب الشيء لا يستدعي العلم بكُنهه وماهيته لجواز طلب المعلوم من وجه دون غيره نحْو اللهم أعطنا في جنتك ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. فإن قلتَ: المناسب لِهذا المعنَى الذي تحوم عليه أن يقال صلاة تليق به، قلتُ: لا تغفل هنا عن قوله (على من منه انشقت الأسرار) الخ، فإنه بعْد أن وصف المصلّى عليه بتلك الصفات الجليلة بيّن مطلوبه الصلاة التِي تليق بِمعاملة الله معه، كأنه قال الموصوف بتلك الصفات التِي مؤداها أنه أعظم أصفيائك وأقرب خواص أهل قرْبك وأولاهم بعنايتك وفضل صلِّ عليه صلاة تليق بإحسانك إليه وإنعامك عليه، وما ظنك بصلاةٍ تليق بالله مع من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار الخ تلك الصفات المتقدمة ونعت الجلال والعظمة لِمولانا تعالَى مقتضيان لعظم هذه الصلاة وعلو قدرها دل على الأول بقوله (على من منه) الخ وعلى الثاني بقوله (بك). والحاصل أن الإحسان من الجليل العظيم لجليل عظيم عنده لا يكون إلا جليلاً.

قوله (منك إليه) أي لا على يد أحد من خلقك، فإن الملِك إذا أتحف أحد كبراء دولته ووجّه إليه هدايا مع غلمانه وخُدّامه ثم أعطاه هدية مخصوصة بيده، فلا يعطيه إلا أنفس وأطيبَ وأعظم مِما بعث به على أيدي الوسائط، وأيضاً فإن في ذلك من الدلالة على الاعتناء بالمعطى له وعِظم مرتبته عند المعطي ما ليس في غيره، إذ ذلك نتيجة شدة قربه منه بالعلم والمعرفة.

تنبيه: قد تكون العطية على يدي الواسطة ويفنَى المعطَى له عن شهودها وشهود غيرها بشهود المعطي والاشتغال به فيحصل له الاعتناء المذكور، وعلى هذا يتنزل قول سيدنا أبِي الحسن رضي الله عنه (وتولَّ قبض أرواحنا بيدك) إذ لا بد من واسطة ملَك الموت عليه السلام. فائدتان أحدهما مَنْ تولّى الله قبض أرواحهم بيده طابت أجسادهم

به فلا يعدو عليها الثرى حتّى يبعثوا بها مشرقة بنور البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد مع الباقي الأحد عز وجل، وروي في الخبر من واظب على قراءة آية الكرسي دبُر كل صلاة مكتوبة، وسقط لفظ مكتوبة في نوادر الأصول كان الذي يتولّى قبض روحه ذو الجلال والإكرام سبحانه، والمراد بذلك خطفتها بالتجلي واستغراقها بالشهود واستهلاكها في الحب واستئصالها بالغيبة وسلب الشعور بالغير، وفي ذلك غاية منيتها وأمنيتها كما أشار إلَى ذلك ابن وفا رضي الله عنه ونفعنا به:

من مات فيك له الْهنا ... وله الْحياة بلا غنا

إن الْمحبة فِي الْهوى ... عند الْمحب هي الْمُنا

وقال أيضاً رضي الله عنه:

إن الذين أحبهم أهل الوفا ... من مات فيهم عاش عيش وفاء

تَلَفِي بِهم سبب الْحياة بروحهم ... يا حبّذاك منيتي بِهناء

وله أيضاً رضي الله عنه:

يا فنائي وسلوي جملته لكما ... ما دون حُبّي فخذَا

ليس لِي فِي غير ذي حاجتي ... أيها الغير تَنحّ ها كذا

أنا وصلِي بِحبسي راحتي ... فالذي يشغلني عنه أذا

فإذا غبت عن الغير فَمن ... هو مَحبوبِي تَحققت إذا

لَم يكن فِي الْحي حَيّ بعْد مَن ... روحه تنشق مِنْ حبّي شذا

كل شيء دون حبّي هالك ... فحياة الكل حِبّي حَبّذا

يا حَبسي ووجودي والذي ... بوفاه لفؤادي أخذا

أنت لِي روحٌ وحي وهوى ... وحياة وشراب وغِذا

انتهى من شرح الحزب الكبير سُقناه للاستفادة والتبرك. الثانية خرج الملأ في سيرته من حديث أبِي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لَما أسري بِي مررت بِملَك جالس على سرير من نور وإحدى رجليْه فِي المشرق والأخرى في المغرب وبين يديه لوح ينظر فيه والدنيا كلها بين عينيه والخلق بين ركبتيه ويده تبلغ المشرق والمغرب، فقلت يا جبريل من هذا؟ قال هذا عزرائيل تقدّم فسلّم عليه، فتقدمت وسلمت عليه، فقال وعليك السلام يا أحمد ما فعل ابن عمك عَلي، فقلت وهل تعرف ابن عمّي علياً، قال كيف لا أعرفه وقد كلفنِي الله بقبض أرواح الخلائق ما خلا روحك وروح ابن عمك علي بن أبِي طالب فإن الله يتوفّاكما بِمشيئته. انتهى. ولا

معارضة بين هذا وما جاء من استئذان ملَك الموت عليه السلام عليه صلى الله عليه وسلم كما هو ظاهر.

وقوله (منك إليه) تأكيد للدلالة على عِظم هذه الصلاة باستحضار معاد الضمير، إذ هي من جليل لجليل كما مرّ، والأصح أن الكاف في قوله (كما هو أهله) تعليلية لا أداة التشبيه، إذ كون الصلاة مناسبة لقدره هو معاد ما سبق، فأشار هنا إلى هذا الوجه وبيان الداعي وحصلت الفائدتان معاً، و(ما) موصول اسمي لا غيْر لعوْد الضمير المضاف له أهل إليها خلافاً لما جوّزه في مطالع المسرات عند قول دلائل الخيرات (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما هو أهله) من مصدريتها أي لإجلال الأمر العظيم الذي هو مستحقه، ولم يعين هذا الأمر لعدم اطلاعنا عليه كما مرّ، فوجب إبهام الصلة، وفي إبهامها أيضاً من التفخيم ما هو معروف نحو ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ ﴾.

تنبيه: أخرج الطبراني وأبو نعيم في حليته وابن النجار والخطيب عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (مَنْ قال جزى الله عنا محمداً ما هو أهله أتعب سبعين كاتباً ألف صباح)، وفي شرح الكفاية لمؤلفها الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن ثابت ناقلاً عن كتاب الأدعية للإمام الحافظ أبي القاسم عبد الغفور بن عبد الله بن محمد النفزي ثم المرسي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (من قال جزى الله عنا محمداً ما هو أهله أتعب سبعين كاتباً ألفي صباح)، فوقعت التثنية في هذا والإفراد في الأول، ولا تصحيف لثبوت ذلك في النسخ العتيقة المقروءة المصححة كذلك. انتهى. ذكره الشيخ الإمام سيدي عبد الرحمن الفاسي رحمه الله تعالى.

تنبيه آخر: حديث أبَيّ أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسّنه والحاكم وصحّحه والبيهقي في شعب الإيمان قال: قال رجل يا رسول الله أرأيت إن جعلتُ صلاتي كلها لك، قال إذاً يكفيك الله ما أهمّك من دنياك وآخرتك. وفي رواية عن أبَي بن كعب رضي الله عنه قال يا رسول الله إنّي أكثر الصلاة عليك كم أجعل لك من صلاتي، قال ما شئت، قال قلتُ الربع، قال ما شئت وإن زدت فهو خير، قال قلت النصف، قال ما شئت وإن زدت فهو خير، قال قلت الثلثين، قال ما شئت وإن زدت فهو خير، قال أجعل لك صلاتي كلها، قال إذاً تكفى همك ويغفر لك ذنبك. انتهى. وذكره في العهود المحمدية عن كعب بن عجرة ثم قال قال الشيخ أبو المواهب الشاذلي: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ما معنى قول كعب بن عُجْرة فكمْ أجعل لك من صلاتي؟ قال أن تصلي عليّ وتُهدي ثواب ذلك إلَيّ لا إلى

نفسك. انتهى. وفي عدّة المريد لسيدنا الشيخ زروق نفعنا الله ببركاته: ومن الناس من يجعل أعماله هدية للأولياء أو يجعل ورداً لجميعهم أو للجهة التي يعتقدها، وذلك أمر مختلف فيه، ومنهم من يجعل ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من باب حسن النية والتقرب لجنابه الكريم صلى الله عليه وسلم، وليس الحق في ذلك إلا باتباع سُنته وإكرام قرابته وكثرة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، لأنه غني عن أعمالنا، وإنّي لا أرى ذلك إساءة أدب معه لِمقابلته بما لا يصلح أن يكون صاحبه مقبولاً فكيف الاعتداد بثوابه. انتهى.

قلتُ: كلام العهود أقوى وأظهر، لأن لفظ الحديث يدل له، إذ لو أريد بيان كم يجعل للصلاة عليه من أوقات عبادته لقال فكمْ أصرف من أوقات عبادتي في الصلاة عليك ونحوه، ويؤيده رؤيا أبِي المواهب المتقدمة، وقال الشيخ أبو المواهب التونسي رضي الله عنه قال لِي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة: أنت تشفع في مائتَي ألْف، فقلت له: بِم أستوجب ذلك يا رسول الله؟ قال: بإعطائك لي ثواب صلاتك عليّ. وحجّ ابن الموفق حججاً وجعل ثوابَها له صلى الله عليه وسلم فرآه يقول له: هذه يدٌ لك عندي أكافئك بِها يوم القيامة آخذ بيدك فأدخلك الجنة بغير حساب. والصلاة على النبِي صلى الله عليه وسلم هدية له على كل حال، كما في الأحاديث، وإن لَم ينو المصلي كون ثوابه له، فمَعنَى الإهداء حاصل في الجملة، والمقصود من الإهداء للعظماء إجلالهم وإعظامهم، لا أنّهم محتاجون إلَى هدية المهدي، ولذلك يجزلون المثوبات على أدنَى شيء، وأيضاً فينوي المصلي لذلك تحصين عمله من الردّ أي يقوى بذلك رجاؤه احتراماً بالنبِي صلى الله عليه وسلم، فإن الهدايا للملوك إذا كانت لا تناسب جلالة مقاديرهم ويخشى ردهم لَها أدخلت في جملة هدايا واسطة عظيم عند الملك فتقبل حينئذ من جُملة هداياه، وهذا كله إذا احتقر العامل نفسه واعتقد قصوره وعدم أهليته لذلك، وأما إذا رأى عمله شيئاً معتدّاً في نفسه يعتدى به فسُوء الأدب لازم له، ويمكن حمل ما لسيدي زروق عليه، ويمكن أن يريد غير الصلاة على النبِي صلى الله عليه وسلم، أما هي فحديثُ أبَيّ ظاهر في خلافه كما سبق، والله تعالَى أعلم.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به **(اللهم إنه سرك)**

بيان لشيء مِمّا أهّله مِما اطلع عليه الشيخ رضي الله عنه. ومن آداب من طلب لِملِك من الملوك أن يعامل وزيره ويخلع عليه خلعه السنية أن يذكر محبته في الملك وخدمته له ومناصحته إياه تأكيداً للطلب له واعتناءً بشأنه، وإنْ كان الملِك عالِماً بذلك، وللطالب منفعة في ذلك وحظ في الطلب لنفسه بإظهار محبته لِمحبوب الملك وخدمته

لخادمه ولكَونه مرآةً ومظهراً لصفات الجمال والجلال على جهة التعريف كما سبق سُمّي سر الله وسر الأسرار ولوح الأسرار وكنز الأسرار ومعدن الأسرار ومهبط الأسرار والسر الأنور والسر الأنزه والسر الأكمل والسر الأبهى والسر المحيط وحضرة الأسرار وجامع أسرار التوحيد ومُبين أسرار الذات.

قوله (الجامع)

أي لِما افترق في غيره من المظاهر والمجالي إذ هم مستمدون منه وآخذون عنه، فكل تجل وظهور في النبيين والمرسلين والصديقين والعارفين منه أخذ وبواسطته كان. قال الرصاع عن بعض أهل التحقيق في قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ إن الله تعالى أيّد موسى باسمه الرب فقال ولما تجلى ربه للجبل وأيّد عيسى باسمه المُحْيي وإبراهيم باسمه الباطن فأراه ملكوت السموات والأرض وأيّد سيد الأكوان الجامع لخصال أهل العرفان بقوله ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ فذكر له اسمه الجامع لذاته وصفاته فقرن بإسم نبوته، فليس ذلك لغيره. ثم نقل عن بعضهم أن ذاته الكريمة صلى الله عليه وسلم جمعت حقائق الموجودات، ونبوته جامعة لسائر النبوات، ونوره جامع لسائر الأنوار، وسره منه تفرعت الأسرار، ويومه جامع لسائر الأيام، وكتابه جامع للكتب المنْزلة على أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام. وقال الخروبي رحمه الله: جميع أوصاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجموعة في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكل ولي كان على قدم نبي اتصف بأوصافه، والولي المحمدي هو الكامل الذي اجتمعت فيه أوصاف الأولياء كما اجتمعت أوصاف الأنبياء فيمن هو على قدمه صلى الله عليه وسلم.

قوله (الدال عليك)

إلى الكمال، إذ هو صلى الله عليه وسلم دال على الله تعالى بأقواله وأفعاله وأحواله، ودال في عالم الأرواح وفي عالم الأجساد كما سبق بيانه، وجميع الدعاة نوابه وخلفاؤه كما مرّ.

قوله (وحجابُك)

تقدّم قريباً أنه صلى الله عليه وسلم حجاب رحمة بين العبد وهيبة ربه، ولولا واسطته لم يستطع تلقي أمر الله ونَهيه مِن واسطة الملَك أحرى من خطاب الملِك، وسبق أيضاً أنه لولا واسطته لم يستطع العبد وصف المشاهدة لقوله صلى الله عليه وسلم (حجابه النور ولو بدتْ سبحات وجهه لاحترق ما أدركه بصره من خلقه)، فمعنى كونه حجاباً أنه حجب الخلق عن الاضمحلال والتلاشي والهلاك الذي يُوجبه التلقي

والشهود، أي هو الذي حجبت به خلقك كما ذكر، فالخلق هم المحجوبون به عما ذكر به، لا عن التلقي والشهود، إذ به يتوصلون إلى ذلك، وما أحسن إتيان الشيخ به بعد قوله (الدال عليك) فافهم. وقال الشيخ جمال الدين القاشاني رضي الله عنه: لما مضى حكم سلطنة الذات الأزلية والصفات العلية ببسط مملكة الألوهية ونشر ألوية الربوبية بإظهار الخلائق وتسخيرها وإمضاء الأمور وتدبيرها وحفظ مراتب الوجود ورفع مناصب الشهود، وكانت مباشرة هذا الأمر من الذات القديمة لغير واسطة بعيداً جداً لبعد المناسبة بين عزة القدم وذلة الحدوث، حكم الحكيم سبحانه وتعالى بتخليف نائب ينوب عنه في التصرف والولاية والحفظ والرعاية وله وجه في القدم يستمد به من الحق تعالى ووجه في الحدوث يمد به الخلق، فجعل على صورته خليفة يخلفه في التصرف، وخلع عليه خلع جميع أسمائه وصفاته ومكّنه في سند الخلافة بإلقاء مقاليد الأمور إليه وإحالة حكم الجمهور عليه وتنفيذ تصرفاته في خزائن ملكه وملكوته وتسخير الخلائق بحكمه وجبروته، وسمّاه إنساناً لإمكان وقوع الأنس بينه وبين الخلق برابطة الجنسية وواسطة الأنسية، وجعل له بحكمي اسمه الظاهر والباطن حقيقة باطنة وصورة ظاهرة، ليتمكن بهما من التصرف في الملك والملكوت، وحقيقته الباطنة هي الروح الأعظم وهو الأمر الذي يستحق به الإنسان الخلافة. انتهى المراد منه. ويحتمل أن يكون معنى كونه حجاباً أنه منع العقول عن العطب والاضمحلال الذي يوجبه التفكر في أسرار الذات، حيث زجرها عن ذلك بقوله (تفكّروا في مخلوقاته ولا تتفكروا في ذاته) حجب أهل الإيمان والطاعة من العذاب بإرشادهم ودعائهم، ويحتمل أن يكون المعنى أنه حجب الخلق بتأليفه من قلوبهم من آفات التدابر والتقاطع، ويحتمل أن يكون المعنى أنه حجب المؤمنين من نار الفرق والقطيعة حيث وصل كلا منهم إلى حظه من المشاهدة على اختلاف مراتبهم، ويحتمل أن يكون المعنى أنه حجب المؤمنين عن اختلاف أهل الجاهلية وما كانوا عليه من الضلال كقتل الجماعة بالواحد وقتل الأولاد خشية الإملاق.

قوله رضي الله عنه **(الأعظم)**

لا شك أن النبيين والمرسلين كلهم حُجُب للخلق بالمعاني المتقدمة، فمعنى الحجاب مشترك بينهم وبين نبينا صلى الله عليه وسلم، ولكنه أعظمهم في ذلك المعنى وأبلغهم فيه إذ عنه أخذوه ومنه اكتسبوه.

قوله **(القائم لك)**

أي لأجلك تعظيماً وإجلالاً.

ذلك، وتحت ذلك بأكثر من ميل عين كان يتوضأ فيها، ومقتله فوقها بقريب، فيقال أنه توضأ فيها قبل الفجر وقصد الصعود لِمحل عبادته وارتقابه للفجر فقتلوه هنالك، ومن الشائع أنّهم ألقي عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودفعوا إلَى شواهق تردّوا منها في مهاوي سحيقة تمزقت بِها أشلاؤهم ولم يرجع منهم مخبر. وعلى هذه العين مقبرة منها مسجد عليه جدران دون القامة من أحجار دون طين هو محط رجال زوار ضريح الشيخ، وتحت هذه العين بمسافة أخرى رسوم دار الشيخ التِي كان يسكنها، ولا ساكن هنالك اليوم وإنّما العمران في سفح الجبل دائراً به. ومن المنقول عن سيدي عبد الله الغزواني رضي الله عنه أن روضة مولانا عبد السلام نفعنا الله به آمين مشتملة على ثلاثة قبور: الوسط منها هو قبر الشيخ مولانا عبد السلام، والذي خلف ظهره قبر ولده سيدي محمد، والذي بين يديه قبر خديمه ابن خدامة، رضي الله عنهم ورحمهم ونفعنا بِهم آمين. انتهى. نقلته من خط شيخنا العلامة الإمام سيدي محمد بن أحمد المسناوي كان الله له في الدارين بِمنه.

قوله (وحققني بحسبه)

أي حققني بالتخلق بأخلاقه، أي اجعلنِي من المهتدين به المتبعين لسنته في أقواله وأفعاله وأحواله، إذ بذلك يحصل كمال الوصول ويثبت مقام المحبوبية الذي هو غاية الأماني ومنتهى السؤل، بشهادة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، وقد استجاب الله تعالَى للشيخ نفعنا الله به، فقد تغلغل في علوم القوم التِي مدارها على التخلق المذكور، ونال الحظ الأوفر من مقام المعرفة الذي لا سبيل له إلا باتباع ما أنزل معه من النور. ومِن كلامه رضي الله عنه: الزم الطهارة من الشكوك، كلما أحدثت تطهرتَ، ومِن دنس حُب الدنيا كلما ملتَ إلَى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالْهوى أو كدتَ، وعليك بِمحبة الله على التوقير والنّزاهة وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو كلما أفقت أو تيقظت شربت، حتّى يكون سكرك وصحوك به، وحتّى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشراب والشرب والكأس بِما يبدو لك من نور جماله وقدس كمال جلاله، ولعلي أحدث من لا يعرف المحبة ولا الشراب ولا الكأس ولا السكر ولا الصحو. قال له القائل: أجل، وكم من غريق في الشيء لا يعرف بغرقه، فعرفنِي ونبهنِي على ما أنا به جاهل، أو ما مَنَّ به علي وأنا عنه غافل. قلت لك: نعم المحبة أخذة من الله قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله وقُدس كمال جلاله، وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والأسماء

بالأسماء والنعوت بالنعوت والأفعال بالأفعال، ويتسع فيه النظر لمن شاء الله تعالى، والشرب: سقي القلب والأوصال والعروق من هذا الشراب، ويكون الشرب بالتدريب بعد التدريب والتهذيب، فيسقى كل على قدره، فمنهم من يسقى بغير واسطة والله تعالى يتولى ذلك منه له، ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين، ومنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئا، فما ظنك بعد بالذوق وبعد بالشرب وبعد بالري وبعد بالسكر بالمشروب. ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى، كالسكر أيضا كذلك. والكأس: معرفة الحق، يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافي لمن شاء من عباده المخصوصين من خلقه، فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، وتارة يشهدها معنوية، وتارة يشهدها علمية، فالصورة حظ الأبدان والنفوس، والمعنوية حظ القلوب والعقول، والعلمية حظ الأرواح والأسرار، فيا له من شراب ما أعذبه، فطوبى لمن شرب منه ودام ولم ينقطع عنه، نسأل الله العظيم من فضله ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، وقد تجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة، وقد يسقون من كؤوس كثيرة، وقد يسقى الواحد بكأس وبكؤوس، وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الكؤوس، وقد يختلف الشرب من كأس واحدة وإن شرب منه الجم الغفير من الأحبة. انتهى.

فتأمل هذا الكلام لتعرف قدر المتكلم به. أشار رضي الله عنه إلى أن حضرة محبة الله تعالى مقام رفيع مطهّر لا يدخله إلا متطهّر من جنابة الغفلة المعنوية وهي الشك وحب الدنيا، فالشك هو ضيق الصدر عند إحساس النفس بمكروه يصيبها من فقر أو غيره، فإذا ضاق صدره أظلم قلبه وأصابه الغم والحزن، ويترتب على ذلك الشرك الخفي وهو التعلق بالأسباب والاستناد إليها، والطهارة منه إنّما تحصل باليقين بأن الله تعالى هو متولّي ذلك في الحقيقة والخلق مسخرون ومستعملون ومدفوعون، فينقطع القلب له ويثق به، فيتسع الصدر وينشرح ويزول عنه الحرج والضيق، وعند ذلك يجد القلبُ الروح والفرح بالله تعالى، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في السخط والشك). فإن قلتَ: غير المعصوم لا يخلو من عروض ذلك المعنى له وخطوره على قلبه، فإذا كان دخول الحضرة متوقفاً على التخلص منه تعذر. قلتُ: إنّما يتوقف على سُكونه في القلب لا على خطوره فيه، والذي لا يخلو غيْر المعصوم منه الثاني لا الأول. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: سمعتُ الحديث المرْوي عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَنْ سَكن خوف الفقر قلبَه قلّما يُرفَع له عمل) فمكثتُ سنة أظن أنه لا يرفع عملي أقول ومَنْ يسلم من هذا، فرأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول لِي يا مبارك أهلكتَ نفْسك فرق بَين خطَر وسَكن المؤمن يخطر في قلبه ولا يسْكُن. انتهى.

وأما حب الدنيا فهو رأس كل خطيئة، إذا الداعي له الميل إلَى الشهوات التِي تقضى بِها، وهي أغراض نفسانية مبعدة عن الله تعالَى، وفي ذلك مراتب متفاوتة، والطهارة منه توبة عن الشهوات، فكلما انقطعت شهوة انتقص من حب الدنيا بقدر ذلك.

فإن قلت: القواطعُ عن الحضرة كثيرة فلِمَ اقتصر الشيخ على الشك وحب الدنيا؟

قلتُ: هي وإن كثرت متنشئة عن ثلاثة أصول: هم الرزق وخوف الخلق والرضا عن النفس، وهي التِي أشار لَها الشيخ رضي الله عنه، فإن الرضا عن النفس في ضمن ما ذكر إذ لولاه ما تعلق بالأسباب ولا أحب الدنيا، فإذا لزم العبد الطهارة منهما تأهّل لدخول حضرة المحبة، فحينئذ يوصى بالعكوف عليها. وقوله على التوقير والنَّزاهة احتراز مِما قد يعرض للمحب من الانبساط والإدلال في الحضرة فإن ذلك مزلة أقدام الرجال كما في لطائف المنن، وقد قيل: قف على البساط وإياك والانبساط، وكثير أُخِذَ من هذا الباب، ومنهم من تعدى حدود الشريعة فأُقيمت عليه حدودها وأصاب مقيمُها عليه وإن كان هو محقّاً في باطن الأمر، قالوا ومِثال ذلك مثال ملِك أوقفَ أحدَ عبيده على بابه وأمره بلزوم مقامه وأن لا يتجاوز خده وأمره أن من تعدّاه وأراد الدخول على الملِك أن يقتله أو يؤدبه ثم اختص عبداً آخر وأذن له في الدخول عليه بغير إذن ولا مشاورة فلما أراد الدخول منَعه المأمور بالمنْع فلما دخل وتجاوز الحد قتله، فالقاتل في الحقيقة مجتهد مصيب بإمْضاء أمْر الملِك، والمقتول شهيد مرحوم مقرّب من أجل الإذن له. وقد بيّن الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه الشراب ما هو عند القوم، فقال: الشراب هو النور الساطع من جمال المحبوب، أي وذلك يقتضي غيبة المحب عن غيره وفناءَه فيه، وهذا معنَى قول الشيخ رضي الله عنه "شراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف" أي تغيب المحبوب أوصاف المحب في أوصافه فيفنَى عن أوصاف نفسه، قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: إن لله عباداً مَحا أفعالَهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتَهم بذاته وحملهم من أسراره ما يعجز عامة الأولياء عنه، وهم الذين غرقوا في بحر الذات وتيار الصفات، فهي إذاً فناءات ثلاثة: أن يفنيك عن أفعاله بأفعاله وعن أوصافك بأوصافه وعن ذاتك بذاته، ولذلك قال قائلهم:

وقومٌ تاهوا فِي أرْض بقفر وقوم تاهوا في ميدان حبه

فــأفنوا ثُــم أفنــوا ثُــم أفنــوا وأبقــوا بالبقَــا مــن قُــرب قربــه

وفي الحديث القدسي إشارة لهذا من قوله كنتُ له سمعاً وبصراً، الخ. فإذا ثبتت المحبة قوِي سلطان المحبوبية على سلطان المحببة فأفناه عما ذكر، فغيبت الصفات بالصفات وقام الوجود بالوجود ولا يخرجك عن الوصف إلا شهود الموصوف، فجاءت خِلع الجود على يد (فَبِي يسْمع وبِي يبصر) الخ.

فإن قلتَ: إدمان الشرب مع الصحو واضح، وكيف يتصور إدمانه مع السكر والسكر غائب.

قلتُ: قد تعرض للسكران إفاقة ما لا تبلغ حقيقة الصحو، فأوصاه الشيخ بالشرب عندها، ولذا قال (كلما أفقت أو تيقظت).

فإن قلتَ: أما غيبة المُحب بالجمال عن المحبة وعن الشرب والكأس فبيِّنة، وأما غيبته عن الشراب فمشكلة، إذ الشراب هو النور الساطع من جمال المحبوب كما سبق، فكيف يغيب عن الشيء بنفسه؟

قلتُ: المراد أن يغيب عن معنَى كونه شراباً لا عن حقيقته، إذ تصور كونه شراباً يستدعي تصور كون المحب شارباً وذلك شعور بنفسه وهو مضاد للفناء في جمال المحبوب. قوله أخذه أي قرّبه إليه وجذبه له بمواجهة الجمال الذي منه كل جمال حتّى لا تبقى فيه بقية لغير المحبوب. قوله: والشرب سقي القلوب الخ، أي وقبله الذوق والشوق، قال الشيخ أبو الحسن: فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظي بشيء منه نفساً أو نفسين ثم أرخى عليه الحجاب فهو الذائق المشتاق، ومن دام له ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقّاً، ومن توالَى عليه الأمر ودام له الشرب حتّى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك هو الريّ، وربّما غاب عن المحسوس والمعقول فما يدري ما يقال له وما يقول فذلك هو السكر.

وأما قوله: فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة الخ، فمتوقف على الذوق، منّ الله علينا بكرمه.

فهذه إشارة إجمالية لبيان كلامه رضي الله عنه، وأما شرحه على الحقيقة فلا تفي به الدفاتر، وبالجملة فعُلو منصبه وعظيم خصوصيته شهير لا يحتاج إلَى استدلال، لكن جعل الله كلام الرجل علامة على حاله فقال تعالَى ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ فلذلك ذكرنا شيئاً منه.

وقال الشيخ أبو الحسن أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين

به على طاعة الله، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقيناً وقليلٌ ما هم.

وقال أيضاً رضي الله عنه أوصاني أستاذي فقال: ألله ألله والناس نزّه لسانك عن ذكرهم وقلبك من التماثيل من قبلهم وقُل اللهم ارحمني بن ذكرهم ومن العوارض من قبلهم ونجني من شرهم واغنني بخيرك عن خيرهم وتولني بالخصوصية من بينهم إنك على كل شيء قدير.

وقال رجل للشيخ رضي الله عنه: يا سيدي وَظِّف عليّ وظائف وأوراداً أعمل بها، فقال: أرسول أنا، الفرائض مشهورة، والمحرمات معلومة، فكن للفرائض حافظاً وللمعاصي رافضاً، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا وحُب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات، واقنع من ذلك بما قسم الله لك، إذا خرج لك مخرج الرضا فكُنْ لله شاكراً، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عليه صابراً، وحبُ الله قطبٌ تدور عليه الخيرات وأصلٌ جامع لأنواع الكرامات، وحصول ذلك كله أربعة: الورع وحسن النية وإخلاص العمل ومحبة العلم، ولا تتم لك هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح.

وقال رجل: يا سيدي أستأذنك في مجاهدة نفسي، فقال له رضي الله عنه ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أوصاني أستاذي رحمه الله فقال: لا تصحبْ من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قلَّ ما يدوم، واصحبْ من إذا ذكر ذكر الله، فالله يغنِي به إذا شهد وينوب عنه إذا فقد، ذكرُه نور القلوب، ومشاهدته مفاتيح الغيوب.

قال: وسألتُ أستاذي رضي الله عنه عن قوله عليه الصلاة والسلام (يسّرُوا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا) فقال: يعني دلّوهم على الله ولا تدلوهم على غيره، فإن من دلّك على الدنيا فقد غشّك، ومن دلّك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد نصحك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه كنتُ في سياحتي في مبدأ أمري حصل لِي تردد هل ألزم البراري والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار، أو أرجع إلَى المدائن والديار لصحبة العلماء والأبرار، فوُصِف لِي ولِي هنالك وكان برأس جبل، فصعدتُ إليه ليلاً فقلتُ في نفسي لا أدخل عليه في هذا الوقت، فسمعتُه وهو يقول: مَنْ دخل المغارة اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لَهم خلقك فرضوا منك بذلك اللهم إنّي أسألك اعوجاج الخلق عليّ حتّى لا يكون ملجئي إلا إليك. قال فالتفتُ إلَى نفسي وقلتُ يا نفسي انظري من أي بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبحت دخلتُ عليه فارتعبتُ من

هيبته فقلت يا سيدي: كيف حالك؟ فقال: أشكو إلَى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار، فقلتُ: أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا؟ فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتُهما عن الله تعالَى، فقلت: يا سيدي سمعتك البارحة تقول اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لَهم خلقك فرضوا منك بذلك اللهم إنّي أسألك اعوجاج الخلق عليّ حتّى لا يكون ملجئي إلا إليك، فتبسّم ثُم قال: يا بُنَي عوض ما تقول سخرْ لِي خلقك قُلْ يا رب كُنْ لِي أترى إذا كان لك أيفوتك شيء فما هذه الجبانة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه كنت يوماً بين يدي أستاذي فقلتُ في نفسي: ليت شعري هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم، فقال ولد الشيخ وهو في آخر المكان الذي أنا فيه: يا أبا الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم الشأنُ من يكون هو عين الاسم، فقال الشيخ من صدْر المكان: أصاب وتفرّس فيك ولدي. انتهى. قيل وكان الولد المذكور من ثلاث سنين.

فهذه نبذة كافية في معرفة علو قدره وجلالة منصبه، ويرحم الله القائل:

واطلبْ بسر ابن مشيش ما تريد تنالـه وإن يكـن عنـك بعيـد

أخذ رضي الله عنه ونفعنا به الطريقة عن الشيخ أبي محمد عبد الرحمن ابن الحسَن الشريف العطّار المدنِي الشهير بالزيات لسكناه بِحارة الزياتين، وكان في صغره انقطع للعبادة في مغارة بجبله المعروف بعد أن أدركه الجذب وهو ابن سبع سنين، فدخل عليه بعد مدة رجل عليه سيما أهل الخير والصلاح فقال له أنا شيخك الذي كنت أمدك، ووصف له ما وصل إليه على يده من المنازلات والمعارف مضافاً إلَى زمانه. وسئل رضي الله عنه بعد ذلك: هل كان يأتيك أو كنت تأتيه؟ فقال: كل قد كان، فقيل له" طيّاً أو سفراً؟ فقال: طيّاً. وأخذ شيخه المذكور عن عارف وقته الشيخ تقي الدين الفقير لقُب نفسه تُقي الفُقير بالتصغير فيهما وهو من أرض العراق، وهو عن القطب فخر الدين، عن القطب نور الدين أبِي الحسن علي، عن القطب تاج الدين، عن القطب شمس الدين بأرض الترك، عن القطب زين الدين القزويني، عن القطب أبي إسحاق إبراهيم البصري، عن القطب أبِي القاسم أحمد المرواني، عن القطب أبِي محمد سعيد، عن القطب سعد، عن القطب أبِي محمد فتح السعود، عن القطب سعيد الغزواني، عن القطب جابر، عن أول الأقطاب أبِي محمد الحسن بن علي بن أبِي طالب سبط سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. هكذا ذكره سبط الشيخ أبِي الحسن الشاذلي رضي الله عنه. وقال الشيخ أبو العباس المرسي في طريقة سيدي عبد الرحمن المدنِي إنه متصلة

الخ، المتضمن معرفته تعالَى، وأيضاً فإن معرفته تثمر مقام المحبوبية عند الله تعالَى، وذلك أن محبة الله تعالَى للعبد على حسب محبة العبد له صلى الله عليه وسلم ومتابعته إياه، ومحبة العبد على قدر معرفته به واطلاعه على جماله وإحسانه، إذ لا سبب للمحبة إلا الجمال والإحسان، ولا شك أن لا جمال يشبه جماله كما تقدّم في المقدمة الأولَى للكتاب، ولا إحسان يقارب إحسانه، إذ كل نعمة واصلة إلَى منعم غيره أيّاً كان فهي على يده وبواسطته صلى الله عليه وسلم كما سبق بشطه، فلأجل ذلك طلب الشيخ معرفته أي دوامها وزيادة الترقي فيها، فمطلوبه المعرفة الخاصة الموصلة لِما سبق، ولذا خصصها بالصفتين المتعاطفتين، وفي ضمن سؤال هذه المعرفة المخصوصة سؤال القرب والرضا، فإن المعرفة التِي لا جهل يضر معها لا تكون إلا مع القرب والتقريب، وهي في حقه صلى الله عليه وسلم إطلاع على الأسرار المكنونة والأنوار المصونة، فتستلزم الرضا عن العارف، وللاستلزام وجة آخر وهو أن الإطلاع على تلك المحاسن والكمالات يضطر المطلع إلَى تعظيمه وإجلاله صلى الله عليه وسلم لِما يشهده مِما يبهر قلبه ويسْبي لُبّه، ولله در القائل:

تكامل حسْن الخلق فيما أحبه   فلله كم عقل لنا حسْنه سبَا

وحينئذ يسارع إلَى خدمته لكل ما يمكنه ويقدر عليه، ويؤثر استرضاءه على هوى نفسه، ويشتاق إلَى كل ما له رائحة من جنابه وانتساب إليه. قال سيدي أحمد المرابِي: كنا يوماً مع سيدي رضوان فجاء رجل شريف من مكة فأراد زيارته فأخبرناه به وقرب الرجل منه ليسلم عليه فأخذ رأسه وضمّه إليه وقبّله بين عينيه وهو يبكي، والرجل بين يديه مطأطئ الرأس، وكان يقول في بكائه: يا رب هذه رائحة مكة، ويكررها مرات، هذا جاء من نحو الحبيب يا رب إنِّي أحب هذه الرائحة الطيبة. ثم أرسله وأخذ يسأله، فكان الرجل يخبر عن تلك المعاهد، وهو يبكي وبكى كثير من الحاضرين. وأنشدوا في هذا المعنَى:

أيا قادماً من نَحْو مكّة مرحبا   شَممتُ عليك الطيب من ساكني قبا
عن الجذْع حدثني وكيف نسيمه   وكيف غصون البان قال بِها الصبا
أيحسب سكان الحجاز بأنني   سلوْتُ الذي قد حلّ في ذلك الْخِبا
فلا ووِدادٍ بيننا ما سلوْته   ولا كان لِي قلبٌ إلَى غيره صَبَا
تَحلل منّي مسْلك الروح حبُّه   ألفتُ هواهُ والصبابة فِي الصبا
تكامل حسْنُ الخلق فيمن أحبه   فلله كم عقل لنا حسْنه سَبا

وفِي آل عادٍ شاع من قبلُ حسْنه ... وآل ثَمودَ والقبائلِ مِنْ سَبا

رفعتُ على العشاق رايةَ حبه ... سَيظهر لِي فِي الحشر من حبه نَبا

ثم إن الشيخ رضي الله عنه طاب قلبه وتحرك وشرَع في مدحه صلى الله عليه وسلم وذكر شمائله، ونظَّم في تلك الساعة هذه الأبيات وأمَر أهل المجلس أن يعملوا بِها وقطعنا بذكرها ساعة، وهي هذه:

وكان رسول الله أكرم عشرة ... وكان رسول الله أكرم نسْبه

وكان إذا ماشى الطول يطولُهم ... ونعْته رائيه بسناه برفعه

فصَلى عليه الله ملء جنانه ... وسَلم تسليماً بغير نهايه

انتهى. وإذا استحضر العارف به أوصافه الجليلة وحُلاه الجميلة تَمنّى أن لو كان معه في عصره وأنفق عليه ماله وقوته وروحه، وفدَاه بنفسه وأولاده وأهله، فيكون له ثواب ذلك لِخبَر (مَنْ هَمّ بِحسنة فلم يعملها كتبتْ له حسنة). وفي الإسرائيليات أن رجلاً مرّ بكثبان رمل في مجاعة فقال في نفسه لو كان لِي هذا الرمل طعاماً لقسمته على الناس، فأوحى الله إلَى نبيهم أن قل له إن الله قد قبل صدقتكَ وشكر حسْن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به. ويرحم الله سيدي رضوان حيث قال فِي هذا المعنَى:

فلو كنتُ يوم الغار كنا ثلاثة ... ولو كنتُ فِي بدْر لكنتُ من الْمدد

ويوم حُنَين لو حضرت فدَيْتكم ... بنفسي وأولادي وأهلي وما ولَدْ

وما أنا ما أهلي وما قدْر قيمتِي ... ولكن مَمدوحي لأفضل من قصدْ

ومن هذا القبيل قضية الزبير رضي الله عنه، ذكر غير واحدٍ أنه أوّل مَنْ سلّ سيفاً في الإسلام، وذلك أنه نفحت نفحة من الشيطان أن قد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل الزبير فشق الناس بسيفه والنبِي صلى الله عليه وسلم بأعْلى مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لَك يا زبير؟ قال الطبري فقال: سمعتُ أنك قد قتلت، قال: فما كنت صانعاً؟ قال: أردت والله أن أستعرض أهل مكة وأجْري دماءهم كالنهر لا أترك أحداً منهم إلا قتلته حتّى أقتلهم عن آخرهم، قال فضحك النبِي صلى الله عليه وسلم وخلع رداءه وألبسه، فنزل جبريل عليه السلام وقال: إن الله يقرئك السلام ويقول أقرِئ منّي على الزبير السلام وبشره أن الله أعطاه ثواب كل من سلّ سيفاً في سبيل الله منذ بعثت إلَى أن تقوم الساعة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً لأنه أول مَنْ سلّ سيفاً في سبيل الله عز وجل. انتهى. فانظر ما أنتجت له نيته في تعظيم

جانب النبي صلى الله عليه وسلم. ومن هذا المعنى أيضاً تمنّى سيدنا أبو بكر مثل حال سيدنا طلحة يوم أُحُد، قالت عائشة رضي الله عنها: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال ذلك يوم كان كله لطلحة كنت أول من فاء فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم دونه فقلتُ كن طلحة حيث فاتني فإذا بطلحة وبه بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة وإذا قد قطعت يده فأصلحنا من شأنه. انتهى. فهذا من ثمرات المحبة الناشئة عن المعرفة، وعن موسى بن طلحة قال وما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتّى قال لِحسّان قُل في طلحة، فقال:

وطلحة يوم الشعب آسى مُحمداً ... على ساعة ضاقت عليه وشقّت
يقيه بكتفه الرماح وأسلمَت ... أساجعه تَحت السيوف فشلّتِ
وكان أمام الناس إلا مُحمداً ... أقام رحى الإسلام حتّى استَقلتِ

وقال فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

حَمَى نبِيّ الْهدى والخيل تتبعه ... حتّى إذا ما لقوا حامَى على الدين
صبْراً على الطعْن إذ ولت جماعتُهم ... والناس ما بين مهزومٍ ومفتون
يا طلحة بن عبد الله قد وجبتْ ... لك الْجنان وكم زوجت مِنْ عِين

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

حَمَى نبِيّ الله بالسيف منصلتاً ... لَما تولّى جَميع الناس وانكشفوا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صدقت. خرجه ابن عساكر. ويفْرح أيضاً بِهلاك أعدائه ويحمد الله على ذلك كما إذا سمع قول الهمزية:

وكفاه الْمستهزئين وكَم ساءَ ... نبيّاً من قَوْمِه استهزاءُ
ورماهُمْ بدعوة من فناء البيت ... فيها للظالمين فَناءُ

الخ، ويتمنّى لو قتلهم فيكون له ثواب ذلك، وأيضاً فالمعرفة به وبأحواله وبسيره يمكن معها مدْحه والثناء عليه بالنثر والنظم، وهو من أجل القرب، وقد قال صلى الله عليه وسلم (مَنْ مدحَنِي ولو ببيتٍ واحدٍ كنت له شفيعاً يوم القيامة) وقال في حق حسّان (إن روح القدس ليؤيده ما دام ينافح عن نبيه)، ولَما أنشد قصيدته التِي يقول فيها لبعض كفار قريش:

هَجوتَ مُحمداً وأجَبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الْجزاء

قال صلى الله عليه وسلم (جزاؤك الجنة يا حسّان)، ومدحَه صلى الله عليه وسلم عباس بن مرداس بقوله:

رأيتُــك يــا خيــر البريــة كلهــا ... نَشرت كتابــاً جــاء بــالْحق مغلمَــا

سَنَنتَ لنــا فيــه الْهــدى بعْــد جَوْرنــا ... عــن الْحــق لَمــا أصبح الــدين مظلمَــا

فكساه حُلة، ولَما مدحه كعب بن زُهَيْر رضي الله عنه ووصل قوله:

إن الرســـول لَســـيْفٌ يسْتـــضاءُ بـــه ... مُهنَّــــدٌ مـــن سُـــيوف الله مَـــسْلولُ

والله أعلم أعطاه بزدته، وذكر جماعة أنه أعطاه مع البردة مائة من الإبل. وقد قال الأحوص يذكر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عطية رسول الله صلى الله عليه وسلم كَعْباً وقد توقَّف في إعطاء الشعراء:

وقَبلـــك قـــد أعْطَـــى هُنَيْـــدَة جِلّـــة ... علـى الـشعر كعبـاً مـن سَـديس وبـازل

رَســـول اللـــه الْمستـــضاء بنـــوره ... عليــه الــسلام بالــضحى والأصــائل

والهنَيْدَة المائة من الإبل وغيرها، والجلة من الإبل المسانّ جمع جَليل مثل صَبِي وصبْيَة. ولَما كان يفرح صلى الله عليه وسلم بالمدح ويثيب عليه في حياته، فإنه يبلغه ويفرح به ويثيب عليه بعد موته لأنه حيّ في قبره كما سبق، ومن هذا ما اشتهر في شأن القصيدة البردة لشرف الدين البوصيري فيما أملاه على نور الدين علي بن جابر الهاشمي أن سبب إنشائه لَها أنه أصابه خلط فالج أبطل نصفه قال ففكرتُ ذات ليلة أن أضع قصيدة في مدْح النبِي صلى الله عليه وسلم وأتشفع بِها إلَى الله عز وجل اقتداء بقول النبِي صلى الله عليه وسلم (من مدحني ولو ببيتٍ كنتُ له شفيعاً يوم القيامة) فبادرتُ وأنشدت هذه القصيدة ونمت فرأيت النبِي صلى الله عليه وسلم في المنام فمسح بيده المباركة عليّ فعُوفيتُ لوقتِي، فخرجتُ من بيتِي أول النهار فلقيني بعض الفقراء فقال لِي يا سيدي أريد أن أسمع القصيدة التي مدحتَ بِها النبِي صلى الله عليه وسلم، ولَم أكن أعلمتُ بِها أحداً، فقلت له وقد حصل منه عندي شيء وأي قصيدة تريد فإنّي مدحتُ النبِي صلى الله عليه وسلم بقصائد كثيرة، فقال التِي أولها (أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بِذِي سَلَمٍ) فلقد رأيتها البارحة تنشد بين يدَي منْ عملت فيه ورأيته صلى الله عليه وسلم يتمايل كما يتمايل القضيب، فأعطيته القصيدة فذهب بِها وذكر ما جرى بيني وبينه للناس، فبلغت الصاحب بَهاء الدين وزير الملك الظاهر فاستنسخ منها نسخة ونذر أن لا يسمعها إلا واقفاً حافياً مكشوف الرأس، وكان يحب سماعها كثيراً ويتبرك بِها هو وأهل بيته، ورأوا من بركتها أموراً كثيرة عظيمة في دينهم ودنياهم. ومن هذا أيضاً أن الإمام أبا العباس بن الخلُوف من أهل تونس لَما توجه لِحج الفريضة، بعَث معه أمير تونس أبو سعيد الحفْصي ألْف سُلطانِي أي دينار وأمره أن يُبلغها لشيخ الحرم الشريف

يصرفها في الصدقة هناك على العادة، ثم إن ابن الخلوف المذكور احتاج لَها في الطريق فصَرفها في مصالح نفسه عن آخرها محتجّاً بأنّها صدقة ولا أحوج منه في الناس إليها، والعادة أن من حمل صدقة لبلد الحرمين ودفعها لصاحبها لا بد أن يكتب له بذلك كتاباً ليأتي به إلَى رب الصدقة الباعث، ثم إن الإمام ابن الخلوف المذكور لَما وصل إلَى المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام أنشد قصيدته التِي أولها:

اللــه أكبــر حَـسْبُ العبــد مــولاه ... إن الــذي قــد سَــمعناه شــهَدْناه

هـذا الضريح الذي فيه الحبيب ثوى ... أكـرم بـه مـن حبيـب طـابَ مثـواه

وهي قصيدة طويلة تزيد على مائة وخمسين بيتاً فأكملها إنشاء تجاه الروضة الشريفة، فوقَف صلى الله عليه وسلم على شيخ الحرم وقال له اكتبْ لابن الخلوف بأنه بلَّغ ما بعث معه الحفْصي من الصدقة وهي كذا وكذا ووقفَ على الحفصي وقال له الأمانة التِي بعثت لنا مع ابن الخلوف بلغت جزاك الله خيراً، فسُرَّ بذلك السلطان غاية السرور، فلما قدم ابن الخلوف لحضرة تونس بكتاب شيخ الحرم لقيه السلطان ببشارة عظيمة وسرور عظيم وأخبره برؤية النبِي صلى الله عليه وسلم وبإعلامه له بقبول الصدقة ووصولها انتهى.

وعلى الجملة فالمحب متكلم بالحبيب أبداً إما في سره أو جهره، إن سكت سكتَ عليه، وإن تكلمَ تكلم به، ولَهَج ذكره فائضة من قلبه على جوارحه.

وأيضاً فالمعرفة به يتيسّر معها استحلاء حديثه وأخباره لفهم العارف لَها فيستطيبها ويحصل له بسماعها من التعظيم والاحترام والشوق ما لا يكيف. قال سيدي رضوان رضي الله عنه:

ومـــا سَــمِعَتْ أذنٌ كلامــاً ونغمــةً ... ألــذّ وأحلــى مــن حــديث مُحمــد

وقال بعض العاشقين رحمه الله تعالَى:

ومـــا شـــرب الإيمـــان إلا فــؤاد مَــنْ ... بأخبــار خَيْــر الخلــق قــد مــلأ الأذنَ

وأيضاً فإن المعرفة به تحضر عند سماع اسمه من التلذذ والطرب بحسبها، إذ العارف يستحضر عند سماع الاسم من المشخصات والصفات وعظمة المسمّى ما لا يستحضره غيره، وراجعْ ما تقدّم من بعض ما تضمنه اسم محمد وأحمد صلى الله عليه وسلم، وأيضاً فإن المعرفة التامة به تستلزم القرب منه كما سبق، ومن قرب منه وولاه كان صلى الله عليه وسلم هو المتوَلّي له والكافِي له لا يكله لنفسه ولا لغيره، قال سيدي عبد الوهاب الشعرانِي رحمه الله تعالَى: ما في الوجود مَنْ جعل الله تعالَى له

الحل والربط دنيا وآخرة مثل النبي صلى الله عليه وسلم، فمن خدمه على الصدق والمحبة دانت له رقاب الجبابرة وأكرمه جميع المؤمنين، كمن ترى ذلك فيمن كان مقرّباً عند ملوك الدنيا، ومن خدم السيد خدمته العبيد، وكما أن غلام الوالي لا يتعرض له إذا سكر مثلاً إكراماً للوالي، فكذلك خدام النبي صلى الله عليه وسلم لا تتعرض لَهم الزبانية يوم القيامة إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد فعلت الحماية مع التقصير ما لا تفعله كثرة الأعمال الصالحة مع عدم الاستناد لرسول الله صلى الله عليه وسلم الاستناد الخاص. انتهى.

وأيضاً فإن المعرفة به تسهل تشخص صورته الظاهرة عند ذكره وسَماع حديثه وأمره ونَهيه، وذلك أقوى الأسباب لرؤيته، ويتصوره العارف له على هيئات عظيمة وحالات كبيرة، فتارة يتصوره أمام المؤمنين ببدر وهم يلوذون به في جهاد أعدائه ويستحضر أن ملائكة الله تتبعه وتقاتل معه، وتارة يتصوره يوم الفتح معه جنود الله قد أحدق به الأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد وهو على ناقته القصوى وسيدنا أبو بكر أسيد بن حضير وهو بينهما يتحدث معهما، وتارة يتصوره داخلاً للمدينة من هجرته وقد خرجت ذوات الخدور والولائد والصبيان يقلْن:

طلع البدرُ علينا	من ثنية الوداع
وجب الشكرُ علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع

ويجعل نفسه يقول ذلك ويفرح، وتارة يتشخصه تحت شجرة الرضوان والصحابة يبايعونه على أن يموتوا دونه ويستحضر قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾، وتارة يستحضره ساجداً عند العرش وهو يقال له ارفع رأسك وسلْ تُعط واشفع تشفع، وتارة يستحضره يقرع باب الجنة والمؤمنون يتبعونه إليها، وهكذا.

فإن قلتَ: معرفته صلى الله عليه وسلم تكتسب من مطالعة سيَره والبحث عن صفاته وأخباره وذلك مبسوط في كتب السير، فمن أرادها فليشتغل بذلك، فما معنَى طلبها؟

قلتُ: معرفته صلى الله عليه وسلم قسمان: معرفة صفاته الظاهرة وأخلاقه الباطنة التي دلت عليها أحواله وأفعاله وهذه كسبية موصلة لِمقام الإيمان، ومراتبها متفاوتة بتفاوت الإيمان بحسبها، وهي التي تكفلت بِها مطالعة كتب السير، لكن ذلك متوقف

على الإلهام له والإقدار عليه، قال تعالى ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، مع أن العبادة كسبية. ومعرفةُ معناه وملكوتيته، فقد تقدّم أنه كان بشري الظاهر ملكوتِي الباطن، وهذه وهْبية لا مدخل للكسب فيها، فظهر وجه الطلب في القسمين، ووصف المعرفة المسؤول بِما يفيد كمالَها، والواو في قوله (وأكرع بِها من موارد الفضل) للترتيب، ولذلك قدّم الصفة الأولَى إذ هي مفيدة للتخلية عن رذيلة الجهل، والثانية مفيدة للتحلية بفضيلة العلم، والتخلية سابقة على التحلية.

فإن قلتَ: السبقية غير معقولة لا بحسب الحصول ولا بحسب التعقل، أما الأول فلأنّهما متلازمان كالجوهر والعرض، إذ لا يحصل انتفاء عدم العلم بدون حصول العلم، ولا يحصل العلم بدون حصول انتفاء عدم العلم. وأما الثاني فلجواز أن يتعقل حصول العلم أولاً ثم يتعقل انتفاء عدمه ثانياً.

قلتُ: أما على أن الجهل وجودي، وهو تصور الشيء على خلاف ما هو به، وأن التقابل بينه وبين العلم تقابل الأضداد، فغير متلازمَين حصولاً لِجواز حصول انتفاء تصور الشيء على خلاف ما هو به بدون حصول العلم به، كما في حق الغافل عنه، وأما على أنه عدمي أي عدم العلم بالشيء وأن التقابل بينه وبين العلم تقابل العدم والملكة الذي بنيت السؤال عليه فالسبقية معقولة بحسب التصوير في صناعة الإلقاء والخطاب، فتصور التخلية أولاً ثم التحلية ثانياً على مقتضى الترتيب الطبيعي، وهي التِي سلك المؤلف رضي الله عنه، وعلى الرأي الأول في الجهل فالعطف من قبيل عطْف أحد المتغايرَين دون تلازم على الآخر، وعلى الثاني فمن قَبيل عطْف أحد المتلازمَين على الآخر، وعمم في الجهل ليشمل مركبه وبسيطه، وعمّم في الموارد المضافة له ليشلم من جميعها.

فإن قلتَ: كيف صحَّ له ذلك مع قوله صلى الله عليه وسلم (لا يعلمنِي حقيقة غير ربّي) فالعلم الذي لا جهل معه أصلاً لا يحصل لِمخلوق بشهادة الحديث.

قلتُ: الاستغراق في مدارك الجهل إضافِي لا حقيقي، أي هو بحسب ما يليق بالعبد، ودلّ على ذلك إدخال من التبعيضية في المعطوف فإنه يفيد أنه لم يسأل العلم كله أي المحيط، إذ معنَى (أكرع) أشْرب بالفم بلا واسطة يد ولا آنية فمن بعده تبعيضية على جر شربت من النهر.

فإن قلتَ: لا يصح في موضعها بعض إذ لا معنَى لقولنا أكرع بعض موارد الفضل فلم يُوجد ضابطها.

قلتُ: العبارة على تقدير مضاف اقتضاه معنَى الشرب، إذ المشروب منه ماء الموارد

لا ذاتُها، فالمعنى وأكرع بِها من ماء موارد الفضل، فيصح حُلول بعضٍ فِي محلها.

فإن قلتَ: حينئذ ينعكس السؤال فيقال التبعيض في العلم المسؤول يدفع العُموم الذي تفيده إضافة موارد الفضل مع أنه مراد.

قلتُ: التدافع مشروط باتحاد المحل، وهو هنا مختلف، فمحل التبعيض ما في الموارد الذي يفيده المضاف المقدّر، ومحل التعميم نفس الموارد، ولا يلزم من التعميم فيه التعميم في الأول، ومن الداخلة على موارد الجهل لإفادة العموم، إذ هي بعض النفي ضمناً، فإن معنَى أسْلم لا أقع، ومدخولها نكرة معنًى، إذ هو مضاف لذي أل الجنسية، وفي كل من موارد الجهل وموارد الفضل استعارة مكنية وتخييلية، شبّه الجهل بالماء الضار، ودلّ على ذلك بإثبات الموارد، وشبّه العلم بالماء النافع ودلّ على ذلك بالموارد.

فإن قلتَ: كيف دلّ إثبات الموارد على متنافيين في الصفة أي الضرر والنفع، فإن التابع لأحد المتنافيين غير تابع للآخر.

قلتُ: خصوص الصفة، أعنِي الضرر والنفع، مستفاد من جوهر لفظ الجهل والفضل، والذي أفاده إثبات الموارد هو التشبيه بالماء فيهما، وأفاد الجهل المضاف إليه والعلم أن المشبه به الماء الضار والنافع، فافهم قوله (من موارد الجهل) أي به، وقوله (من موارد الفضل) أي العلم به، وعبّر عن العلم به بالفضل لِتمحضه أي الفضل في الوهبِي وأصالته فِي الكسْبِي. ويحتمل أن يراد من موارد الجهل بالله ومن موارد الفضل أي العلم بالله، لأن معرفته صلى الله عليه وسلم سببٌ في معرفة الله تعالَى. ويحتمل أن يراد معاً وهو أفيد. ويحتمل أن يكون أشار بقوله (أسْلم بِها من موارد الجهل) إلَى أنه سأل المعرفة التامة المتضمنة للقرب وهي التِي لا جهل مضر معها، وأشار بقوله (وأكرع بِها من موارد الفضل) أي في الكرم والنوال والعطاء إلَى الرضا والمحبوبية.

قوله نفعنا الله به (واحملني على سبيله إلى حضرتك حملاً محفوفاً بنصرتك)

الناس في القرب من الله تعالَى أي مشاهدة قربه تعالَى منهم بواسطته صلى الله عليه وسلم على ثلاثة مراتب: الأولَى موقف أهلها شهود شريعته، فهم يشهدون ما في التكليف من تحمل الأثقال، فتطول عليهم المسافات، ويبعد في حقهم الوصول، لأنّهم حاملون في الطريق، ويلازمهم الكمد والحزن لِحملهم ما فرت منه السموات والأرض وأشفقن منه، وصاحب هذه المرتبة وإنْ كان ذا حظ من القرب والخصوصية لكن غيره أكمل منه، لأنه يشهد ما منه إلَى الله من أعمال وأقوال، فهو مثبت لنفسه يشاهدها

ويشاهد الأقوال والأفعال. المرتبة الثانية موقف أهلها شهود ذاته المطهرة، فمعرفته أتم من معرفة الأول، نفذ إلى ما ينفذ إليه، وصاحب هذه المرتبة يشهد ما يجري على يده من الطاعات من الله إليه تفضلاً وإحساناً، ويرى ضعف نفسه وسقوط حوله وقوته، فيمده الله تعالى بالعون والنصرة، ويلازمه الفرح والسرور لأنه يشهد الهدايا من ملك الملوك إليه، ويخف عليه السير ويستحليه، لأنه محمول في محفات المنن، مروح عليه بنفحات اللطف، وخدمة هذا جبلة لا تعمّل بخلاف الأول، ثم صاحب هذه المرتبة وإن كان أكمل ممن قبله، فغيْرُه أكمل منه، لأنه مشاهد لنفسه حيث رأى الهدية من الله إليها، وإن كان لا يشهد الأعمال منها فقد بقيتْ فيه بقية. المرتبة الثالثة موقف أهلها شهود روحه، وهم أهل الفناء التام، فهم يشاهدون ما من الله إلى الله، فهُمْ بالله وفي الله وإلى الله، قد حفتْ بهم نصرته ولازمتهم حياطته، رزقنا الله من بركات الجميع ما ينفعنا في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه آمين.

وحاصل الفرق بين المراتب الثلاثة قوة التعظيم الناشئة عن كثرة المعرفة، فإن لأهل شهود الروح من المعرفة ما ليس لأهل شهود الذات، فلهم من التعظيم ما ليس لغيرهم، وهكذا أهل شهود الذات مع أهل شهود الشريعة، وبقدر التعظيم تحسن النية ويسهل الإتباع. قال عبد الله بن المبارك: رُبَّ عمل صغير كبّرته النية، ورُبَّ عمل كبير صغَّرته النية. ومثال ذلك من كانت نيته عند القوم أن يقوم بالليل ويصلي، ثم إنه غلبه النوم فما أفاق حتى قارب الفجر فصلّى ركيعات فإنه يكتب له ما نواه، وآخر قام يصلي بالليل وفي ظنه أن الصبح قريب وإذا هو باق فقال في نفسه لو علمْت أن الصبح باق لَم أقم في هذه الساعة وكان قد صلى ما شاء الله، فالأول عمله صغير كبّرته نيته، والثاني بالعكس. ومِن هذا أن بشر بن الحارث رضي الله عنه مرَّ برقعة على وجه الأرض فرفعها فإذا فيها اسم الله فأخذ درهماً كان معه واشترى به طيباً وطيبها وجعلها في جيبه، فرأى قائلاً في النوم يقول: طيّبتَ اسمنا فقد طيبنا اسمك في الدنيا والآخرة. وقال بعض العارفين رضي الله عنه: بقدْر ما يدخل في القلب من التعظيم والحرمة تنبعث الجوارح للخدمة. انتهى.

وأيضاً فإن المعرفة تنشأ عنها المحبة لِما فيها من الاطلاع على المحاسن والكمالات، وقد قالوا: يقطع المحب على فراشه ما يقطعه العابد في سبعين سنة، وفي صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الصحيح عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المرءُ مع مَنْ أحبّ)، وذكر الواحدي في أسباب النّزول والبغوي في تفسيره أن ثوبان مولَى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد

الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لوْنه يعرف الحزن في وجهه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما غيّر لونك؟ فقال: يا رسول الله ما بي من مرض ولا وجع غير أنّي إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتّى ألقاك ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك لأنك ترفع مع النبيين وإنّي إن دخلت الجنة في منْزلة أدنى من منْزلتك وإنّي إن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً، فنَزل قوله تعالَى ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ الآية، وروى الحافظ أبو نُعيم عن مسعر بن كدام عن عطية قال: كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما جالساً فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددتُ أنّي رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له ابن عمر: فكنت تصنع ماذا؟ فقال: كنت والله أؤمن به وأقبّل بين عينيه، فقال له ابن عمر: ألا أبشرك؟ قال: بلى يا أبا عبد الرحمن، قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما اختلط حبّي بقلب أحدٍ فأحبني إلا حرّم الله جسده على النار)، وأخرج الطبراني في الكبير والضياء المقدسي عن أبي قرضابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ أحبّ قوماً حَشَره الله في زمرتهم)، وأخرج الخطيب عن جابر مرفوعاً (مَنْ أحب قوماً على أعمالهم حشر يومِ القيامة في زمرتهم وإن لَم يعمل أعمالَهم)، وأخرج ابن النجار والديلمي عن محمد بن علي عن أبيه عن جده (من أحب عمل قوم شرّاً كان أو خيراً فهو كمن عمله).

وأما المشاهدون لسره فلا خبر لنا عنهم كما سبق، والمؤلف رضي الله عنه سأل المقام الثالث، فاحترس عن الأول بقوله (واحملني على سبيله) فسأل أن يكون محمولاً لا حاملاً، واحترز عن الثاني بقوله (حملاً محفوفاً بنصرتك)، إذ حمل مَنْ فيه بقية حمل مصحوب بالنصرة لا محفوف بِها من كل جانب، فافهم.

ومعنَى الاستعلاء على سبيله أن يكون متمكناً منه قوياً على سلوكه، وهذه حقيقة الحمل على سبيله، لا ما يقتضيه ظاهر اللفظ، وفي الكلام استعارة مكنيّة وتخييلية حيث شبّه السبيل بالبراق في التوصيل إلَى حضرة الله تقدّس اسمه، ودلّ على ذلك برديفه وتابعه أعني الحمل، ولم يقل بالنصرة على نفسي وعلى الشيطان، لأن طلب النصرة على ذلك شأن أهل البدايات، وأما أهل النهايات فيقولون نحن عرفنا الله فكفانا من دونه، وحذف المتعلق للتعميم أي على كل شيء، حتّى تنفعل له المكوّنات وتطيعه الأشياء، ومكوّن إرادته تابعة لإرادة الله تعالَى، ويندرج في العموم النصرة له وبه للمريدين والإخوان ومن يحتاج إليها، وتلك مرتبة الخلافة ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيصير الفقير بهم غنياً والخائف آمناً والذليل عزيزاً والضعيف قوياً، قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: (واجعلنا سبب الغنَى لأوليائك وبرزخاً بينهم وبين أعدائك). طلب تلقي الغنَى من حضرة القدس بلا واسطة من الأولياء، وكونه واسطة وسبباً في الإمداد بذلك لسائر الأولياء على ما هو شأن القطب من كونه مظهر الحق من خَلقه ومرآة تجليه؛ فهو لذلك في الكون بمنْزلة إنسان العين من العين، عليه المدار، ومن فيض نوره تستمد جميع الأنوار، وأن يكون حاجزاً لَهم ومانعاً من تسلط أنفسهم وأهوائهم وشياطينهم وسائر قواطعهم عن كمالِهم واتصالِهم بربّهم، وذلك بقدرة ربانية وبصيرة نورانية، كما هو شأن أهل التمكين والرسوخ في الهوية ومرتبة أهل الإمامة ومقام أهل الإرشاد والهداية ومحل الحفظ والرعاية، إما للكافة وهي مرتبة القطب، أو للبعض وهي رتبة من دونه من الخلفاء والأمناء أهل الغنَى بالله رضي الله عنهم، وقد قالوا: ليس الرجل من كمل في نفسه بل كمل به غيره ولا من زال الخوف عنه في نفسه ولكن من زال به الخوف عن غيره، وقد قال الشيخ سيدي عبد القادر رضي الله عنه:

أنـا مـن رجـال لا يخـاف جليـسهم ... ريـبَ الزمـانِ ولا يـرى مـا يرهـب

وقال أيضاً رضي الله عنه:

أنـا قطـب أقطـاب الوجـود حقيقـة ... علـى سـائر الأقطـاب قـولِي وحرمتِـي

تَوسّـل بنـا فِـي كـل هـول وشـدة ... أغيثـك فِـي الأشـياء طـرّاً بِهمتِـي

وقال الشيخ سيدنا زروق رضي الله عنه:

فـأرفع قـدْراً ثُـم أخفـض رتبـةً ... لأرفـع مقـداراً بـأرفع حكمتِـي

وأغـزل قومـاً ثُـم أولّـي سـواهم ... وأعلـي منـار الـبعض فـوق الْمنـصة

إلَى أن قال:

فإن كنتَ فِي كرْب وضيق ووحشة ... فنـادِ أيـا زرُوق آتِ بـسرعة

فكـمْ كربـة تجلّـى بِمكنـون عزنـا ... وكـم طرفـةٍ تجنَـى بـإفراد صـحْبةِ

قوله رضي الله عنه ونفعنا الله به وبأمثاله آمين

(واقذفْ بي على الباطل فأدمغه)

القذفُ بالشيء دفعه والرمي به، والباطل كل ما خلا الله حتّى المقامات والأنوار، وقد مرّ قريباً قول الشيخ: (أشكو إليه من برد الرضا والتسليم) ووجْه ذلك، وفي الحِكَم: (ما أرادت همةُ سالكٍ أن تقف عندما كشف لَها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب

أمامك، وأن إلَى ربك المنتهى)، قال الله ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾، فمن ثَم أعرض العارفون عن كل شيء سوى الله وقصروا هِممهم على الله، ومن كلام سيدي رضوان رضي الله عنه: وكنْ مِمن لا تشغله المحبة عن المحبوب، ولا الصفة عن الموصوف، ولا المعرفة عن المعروف، ولا تكن كقيس ليلى فإنّها لقيته يوماً في هيامه وقد كلمتها صواحبه أما ترى ما به من سببكِ، فتعرضتْ له فلم يلتفت إليها فقالت له أنا ليلى فقال لَها إليكِ عنّي فقد شغلنِي عنكِ ما بِي منكِ، ثم قال: لبيك ربّي وسعديك، والخيرُ كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركتَ وتعاليتَ، أستغفرك وأتوب إليك. انتهى. ولأبي الحسن الششتري:

فلا تلتفتْ فِي السير غيراً وكل ما ... سوى الله غير فاتّخذْ ذكره حصْنا

وكل مقام لا تقمْ فيه إنه ... حِجاب فجد السير واستنجد العونَا

ومهما ترى كل الْمراتب تُجتَلى ... عليك فحُل عنها فعَنْ مثلها حُلنا

وقلْ ليس لِي فِي غير ذاتك مطلبٌ ... فلا صورةٌ تجلى ولا طرفة تجنَى

وفي الحِكَم (العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره).

الله قلْ وذرِ الوجود وما حوى ... إنْ كنتَ مرتاداً بلوغ كمالِ

فالكل دون الله إنْ حقّقتَه ... عدمٌ على التفصيل والإجمالِ

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: أصدق كلمةٍ قالَها الشاعر كلمةُ لبيد: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)، وقال سيدي رضوان رضي الله عنه مُصدراً له:

أأشْغل شيء لا وقد قال قائل ... ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ

أترغب فِي الدنيا وقد قال قائل ... ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ

تضيّع أيام وهي قلائل ... ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ

أتشغل نفساً بالسوى وهو آفل ... ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ

ومن كلامه رضي الله عنه:

تركُ السوى هُو الدّوا ... وأنت ذاك فاقبل دَواكَ

فإنك إنّما تحب السوى لك أي لأجل نفسك، لأنك تتوهم أن يصلك منه شيء وتنتفع به نفسك من شهواتِها ومطالبها، وقد أخطأ وهمُك، فإن النافع إنّما هو الله تعالَى الذي خلق النفوس والحاجات والشهوات، فارْض به ربّاً. ثُم قال بعد هذا: رضيتُ الله لنفسي ربّاً وجعلتُ نفسي لله أمَةً وعبداً، هو الخالق وأنا المخلوق، هو الكافل وأنا المكفول، هو الرازق وأنا المرزوق، سبحانه لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. فسأل الشيخ

رضي الله عنه أن يقذف الله به على الأغيار ويدفعه على الأكوان حتّى تنمحي عن مشاهدته وتضمحل في نظره، أي طلب من الله دوام ذلك واستمراره.

وهنا وجهٌ آخر، وهو أن يكون سأل الله أن يدفع به على الأغيار بالنسبة لِمن تعلق به وانتسب إليه، ويصيره كالحق الدامغ للباطل المهلك له، فيُطهِّر بواطن المنتسبين إليه منها، وأتى بـ عَلى التِي الاستعلاء إشارة إلَى أن يكون الدفع به من علو لأنه أقوى في الدفع، وأسند الدفع إلَى الله تعالَى ليكون مدفوعاً بالله.

قوله نفعنا الله به **(وزُجَّ بي في بحار الأحدية)**

الأحدية مبالغة في معنَى الوحدة، لأنّها لا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يمكن أن تكون أشد ولا أكمل منها، قاله سيدي محمد بن عبّاد. شبّهها المؤلف بالماء المزوي العظيم المستبحر المتلاطم الأمواج تشبيهاً مضمراً في النفس، ودلّ على ذلك بإضافة البحار إليها، وذلك أنه لَما تحقق بِمشاهدة روحه صلى الله عليه وسلم أنتج له ذلك من المحبة ما حملة على سؤال الرمي في بحار الأحدية التِي هي محل الفناء الكامل الذي تحصل معه الغيبة عن كل شيء حتّى عن نفسه وعن فنائه وعن توحيده إياه، إذ من شهد نفسه موحداً غيرُ موحد عند أهل هذا الشأن، كما قال قائلهم:

ما وَحَّد اللـه مـن واحـد … إذ كـل مَـن وَحَّـدهُ جاحـدُ
توحيـدُ مـن ينطـق عـن نعتـه … عاريـةٌ أبطلهـا الواحـد
توحيـدُه إيـاه توحيـدُه … ونعـتُ مَـنْ ينعتُـه لا عـد

وقد تقدّم قريباً قول الشيخ أبِي العباس: إن لله عباداً محَا أفعالَهم فِي أفعاله، الخ. وسأل ذلك غير مبالٍ بِما يُفضي إليه من التلف، لأن من كان في الله تلفُه كان على الله خلفُه.

إنْ كان سفْكُ دمِي أقْصى مُرادكم … فما غلت نظرةٌ منكم بسفْك دمي

غيره:

إن الـذين أحـبهم أهـلُ الوَفـا … مـن مات فيهم عاش عيش وفاء
تلَفي بهم سببُ الحياة بروحِهم … يـا حبـذاك منيتِـي بِمُنـائي

غيره:

سـقْمي فِـي الْحُـب عـافيتي … ووجـودي فِـي الْهـوى عـدَمي
وعـذاب ترتـضون بـه … فِـي فمـي أحلـى مـن الـنعم
مـا لـضري فِـي مَحبـتكم … عنـدنا واللـه مـن ألَـم

وهذا هو الوجود الحقيقي عند هذه الطائفة حتّى قال إمامُهم أبو القاسم الجنيد نفعنا الله به:

وجودي أن أغيب عن الْموجود بما يبدو عليّ من الشهود

قوله نفعنا الله به **(وانشلني من أوحال التوحيد)**

تأدُّبٌ منه في سؤال خوض بحار الأحدية واحتراز مما عَرض من الاعتقادات الردية لِمَنْ لَم يصحبه التأييد. عَلِمَ أن لا عاصِم عند ركوب البحر من أمر الله إلا مَن رحم، فاحترز في طلبه عن حالِ مَنْ حالَ بينه وبين السنة المحمدية الموْج فكان من المغرقين، وذلك أن من الناس من لبس عليهم الأمر فقالوا بالحلول والاتحاد، ومنهم من غلبت عليه الحقيقة فادّعى الجبْر ونفى الحكمة والأحكام، ويحتمل أن يكون سأل بقوله (وزُجَّ بِي في بحار الأحدية) حالَ أهلِ الجذب المستدلين بالله على الأشياء، أي دوام ذلك، وبقوله (وانشلني من أوحال التوحيد) دوام التخلص مما يعرض للسالكين المستدلين بالأشياء على الله من الشبهات.

قوله نفعنا الله به **(واغرقني في عين بحر الوحدة)**

رجوع إلَى سؤال البقاء بعد الفناء ليصلح للخلافة، وذلك أن صاحب الفناء الأكبر وإن كان كاملاً فهو غير أكمل لعدم صلاحه لتكميل غيره، قال في الحِكَم (وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملِك الحق وفنِيَ عن الأسباب، فهذا عبدٌ مواجَهٌ بالحقيقة ظهَر عليه سناها، سالكٌ للطريقة قد استولَى على مَداها، غيرَ أنه غريق الأنوار مطموس الآثار، قد غلب سُكره على صحوه وجمعه على فرْقه وفناؤه على بقائه وغيبته على حضوره، وأكْملُ منه عبدٌ شرب فازداد صحْواً وغاب فازداد حضوراً، فلا جمعُه يحجبه عن فرْقه، ولا فرْقه يحجبه عن جمْعه، ولا فناؤه يصده عن بقائه، ولا بقاؤه يصده عن فنائه، يقضي كل ذي حق حقه، ويُوفِّي كل ذي قسْط قسطه. انتهى.

ولا شك أن الغريق في بحر الأنوار الذي هو معاني الأسماء والصفات لَم يقف بِساحل الآثار الذي هو موقف النجاة، كما أشار إليه أبو يزيد بقوله (خُضْنا بحراً وقف الأنبياء بساحله)، وهو اعتراف منه بالنقص والتقصير، لأن خوض البحر من الجهل بهوْله، والوقوف بساحله من المعرفة بقدْره، فالخائض ألقى بنفْسه للهلكة، والواقف قائم مع النجاة ويمكنه استخراج حليته وطعامه ما لا يمكن الخائض، قاله سيدي زروق نفعنا الله به.

وأيضاً فإن مَنْ غلب سُكره على صحوه قد يتعدّى حدود الشريعة، ومن مزَج شراب الحقيقة بِماء الشريعة كان صحوه حافظاً له عن ذلك، كما قيل:

ومَـــنْ فهـــم الإشـــارة فليـــصنْها وإلا ســــوْف يُقْتَــــل بالــــسّنان
كحــــلّاج الْمحبــــة إذ تبــــدّتْ لـــه شَــمْسُ الحقيقــة بالتــداني
فقــال أنــا أنــا الْحــق الــذي لا يغيـــرُ ذاتَـــه مـــر الزمـــان

فلهذا سأل المؤلف الإغراق في العيْن التِي هي لِبحر الوحدة منشأ ومددٌ، لأنه يحصل معه الري ولا يخشى على صاحبه التلف.

ويحتمل أن يكون أراد بالزج في بحار الأحدية الدفع على وجه الإغراق بل على سبيل الركوب والمرور ولعلم ما فيها من الذخائر، وأراد بالنشل من أوحال التوحيد التخلص من كونه من أهل شهود التوحيد لِما مرّ من أن مشاهده مغروق، إذ هو مصدر وَحّدَ فيقتضي مُوَحِّداً ومُوَحَّداً بصيغتَي اسم الفاعل والمفعول، وأوحاله حينئذ شهود الأغيار لأن أهله يستدلون بالأشياء على الله تعالَى، وأراد بالإغراق في عين بحر الوحدة الفناء الكامل الذي هو دهليز البقاء، وطلبه في عين بحر الوحدة دون نفْس بَحرها ودون بِحار الأدوية ليكون من أهل جمْع الجمْع، فيكون الجمع في باطنه موجوداً، والفرْق على ظاهره مشهوداً، وأضاف للوحدة البحرَ، وللأحدية البحارَ، لما سبق من أن الأحدية مبالغة في معنَى الوحدة، وهذا الوجه أظهر، والله أعلم.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به **(حتى لا ارى ولا اسمع ولا اجد ولا احس إلا بها)**

هذا غاية الإغراق المذكور ونتيجته وهي الغيبة عن الأكوان بِشهود مكوّنِها، وحينئذ يصير القلب واحداً بالله تعالَى، وقد فسّر قوله عليه الصلاة والسلام (إن الله وِتْرٌ يحب الوتْر له) يعنِي القلب المنفرد له بحيث لا يرى في الدارين إلا هو ولا يُعرج على غيره وينسى ذكر كل شيء عند ذكره، وبِهذا يصح له التخلق بِمعنَى هذا الاسم الشريف فيكون واحداً في عصره بين أبناء جنسه، وأنشدوا في هذا الْمعنَى:

إذا كـان مَنْ تَهـوى فِي الْحُسْن واحـداً فكُنْ واحداً فِي الْحب إن كنتَ تَهـواهُ

قوله نفعنا الله به **(واجعل الحجاب الأعظم حياةَ روحي)**

أشار بِهذا ما قبلهُ إلَى أن العارف إذا وصل إلَى حضرة القدس ومورد الأنس وفنِيَ عن وجوده في هيْبة مشهوده ثم فنِي عن فنائه وصار مَحْواً صرفاً لا غنًى له عن وساطة النبِي صلى الله عليه وسلم، وقد تقدّم مبسوطاً قبل هذا فراجعه، وها هنا أمر يتأكد أن ننبه عليه وهو أن الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعرانِي رضي الله عنه قال فِي دُرَر الغواص ما نصه: وسألته- يعنِي سيدي علِيّ الخواص رضي الله عنه- هل أقرأ وأصوم وأجعل ثواب ذلك لآدم عليه السلام ليكون ذلك وصلة بينِي وبينه في المعرفة في

الآخرة لسببٍ أعلمتُه به؟ فقال: لا تجعلْ بينك وبين الله واسطة أبداً من بني آدم وغيره، فقلتُ له: كيف ذلك؟ فقال: لأن الرسول إنّما هو واسطة بين العبد وبين الله في الدعوى إلَى الله لا إلَى نفسه، فإذا وقع الإيمان الذي هو مراد الله تعالَى من عباده ارتفعت وساطة الرسول عن القلب إذ ذاك وصار الحق تعالَى أقرب إلَى العبد من نفْسه ومن رسوله ولم يبق للرسول إلا حكم الإفاضة على العبد من جانب التشريع والإتباع، كما في حال المناجات في السجود سواه، فنفس الرسول يغر من الله أن يقفوا معه دون الله تعالَى، فإنه يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك، كما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها) الحديث، وانظر يا أخي غيرة الحق تعالَى على عباده بقوله لِمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فأعلمنا تعالَى أنه أقرب إلينا من أنفسنا ومن رسولنا الذي جعله واسطة لنا في كل خير، مع أنه تعالَى بالَغ في مدحه صلى الله عليه وسلم حتّى كاد أن يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال في نحو قوله تعالَى ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ وبقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾، ومع ذلك قال ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ الآية فأخرجه عن حال الخلق ونفاه عنهم. انتهى.

قلتُ: لا يهولنك أحدٌ في هذا الكلام مع ما حققناه. أما مسألة إهداء الثواب للنبِي صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والأولياء فقد تقدمت أدلتها من الحديث وفعل الأئمة المقتدى بِهم، وتقدّم ما قاله سيدي الشيخ زروق والكلام معه بالمناقشة والتوفيق في آخر شرح قوله (صلاةً تليق بك منك إليه) الخ. وأما الاستغناء عن وساطته صلى الله عليه وسلم فلا سبيل لأحدٍ إليه وإنْ وصل ما وصل، كما سبق تفصيله وبيانه في كلام الشيخ المحقق سيدي عبد الرزاق العثماني، وهذا سيدنا الشيخ أبو العباس المرسي الذي لا نشك في قطبانيته كما شهد له الشيخ أبو الحسن الشاذلي وغيره بذلك قال: (لو احتجب عنّي رسول الله صلى الله عليه وسلم طرْفة عيْن ما عددتُ نفسي من المسلمين)، وقد تقدّم غير مرة عن غير واحد ما معناه أن كل من حصَلت له رحمة في الوجود أو خرج له قسم من رزق الدنيا والآخرة والظاهر والباطن والعلوم والمعارف والطاعات فإنّما خرج له ذلك على يديه وبواسطته صلى الله عليه وسلم، وهو الذي يقْسم الجنة بين أهلها، ولأجل هذا عدّوا من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه أعطي مفاتيح الخزائن، قال بعض العلماء وهي خزائن أجناس العالَم فيخرج لَهم بقدْر ما

يطلبون، فكل ما ظهر في هذا العالَم فإنّما يعطيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي بيده المفاتيح، فلا يخرج من الخزائن الإلٰهية شيءٌ إلا على يديه صلى الله عليه وسلم وهو معنَى اسمه الخليفة وخليفة الله، وقد سبق أنه لا طاقة لأحد بالتلقي والشهود بدون واسطته صلى الله عليه وسلم وأنه المرآة الكبْرى والمجلى الأعظم وأن أقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف به، والمعرفة لا نِهاية لَها، فما دام الإنسان يترقى فيها فهو يغترف من بحره ويستمد منه حتّى الأنبياء والمرسلون

وكلهُم مِن رسول الله ملتمسٌ غرفاً من البحر أو رشْفاً من الديمِ

غاية الأمر أن صاحب الفناء لا يشعر بذلك وقت فنائه في الله لغيبته فيما فنِي فيه، فالمنتفَى إنّما شعوره، وأما استمداده منه وتوجه الفتح له على يديه فثابتٌ في نفْس الأمر، فإن نبه لذلك بعد إفاقته اعترف به بدليل ما مَرَّ أنه لا يخرج شيء من الخزائن إلا على يديه، وسبق من كلام غير واحد من أئمة الطريق المقتدى بهم أن الاشتغال بالصلاة عليه طريق الفتح وأنّها من ذكْر الله تعالَى، وكوْن الله تعالَى أقرب إلَى العبد من نفسه ومن رسوله صلى الله عليه وسلم مِما لا إشكال فيه ولا ينافِي شيئاً مِما ذكرناه، وبعد ثبوت الإيمان للعبد لا يستغنِي عن خلفائه ووسائطه صلى الله عليه وسلم من المشايخ المستمدين في التوصيل إلَى المعرفة. نعَمْ بعد الوصول التام يستغنِي عنهم ولا يستغني عنه صلى الله عليه وسلم. وقد سُئل الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه فقيل له: مَنْ شيخُك يا سيدي؟ فقال: كنتُ أنتسب إلَى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب إلَى أحد بل أعوم في عشرة أبحر خمس من الآدميين النبِي صلى الله عليه وسلم وأبِي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين وخمسة من الروحانيين جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح. وقد سبق في كلام أويس القرنِي رضي الله عنه وكلام الشيخ أبِي الحسن أن الخلفاء الأربعة تفاوتوا في معرفته وأن معرفتهم بالله على حسب ذلك. ولعل المقصود من هذا الكلام الذي قاله سيدي علي الخواص التنبيه على الاحتراز من الغلط في شهوده صلى الله عليه وسلم بأن يجعل المشاهَد الواسطة كالمقْصد فيقف عندها ولا ينفذ إلَى المقصد، وهذا إنّما يقع لبليد قاصر، إذ الدلالة لأحواله وأقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم على الله تعالَى ثابتة، والوقوف عند الدال مع عدم فهم دلالته غاية فِي القصور وفِي الجهل بالدال، ولا يستغرب هذا فإن مصائب الجهل لا تنحصر، وقد حكِي عن بعض المشايخ أن مريداً صدَق فِي محبته والاقتداء به لكنه توغل في التمسك به والوقوف معه فصار ذلك له

كالحجاب، فضعد معه يوماً على سطح فأمرَ بطرحه من فوق السطح فجاء يلوذ به فدفعه عنه فطرحوه، فحين كان نازلاً في الهواء انقطع رجاؤه منه ففُتح له، وكثيرٌ يقع لَهم الغلط في صحبة المشايخ فيرؤن النفع والضر منهم غافلين عن جانب الربوبية حتّى إن بعضهم ينقطع عنهم عند ظهور عجزهم له عن قضاء ما يريده، وأل في الحجاب للعهد والمعهود.

قوله (واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي) أي اجعله حجاباً في حقي، أي حاجباً لروحي عما فيه هلاكها، فتكون حيّة به متنعمة في معرفتك بسببه، فإن من لَم يحتجب بالنبي صلى الله عليه وسلم وقع في المهالك وابتدع وضلّ وماتت روحه. وها هنا سؤالان: أحدهما هلّا قال "واجعله" لتقدّم مَرجع الضمير، ثانيهما حيث أظهر فليكتف بالعهد على إعادة الوصف بالأعظم.

وجواب الأول أنه لَما كان حياة الأرواح من حيث أنه حجاب لَها، فالمناسب لكوْنه حياةً التعبير بخصوص اسمه الحجاب ولَم يتقدّم ذكره وحده حتّى ينصرف الضمير له، بل تقدّم كثير من صفاته صلى الله عليه وسلم.

وجواب الثاني أنه صرح بها للإشارة إلَى أن مطلوبه ليس مطلق الحياة، بل الحياة المناسبة للأعظمية مع ما في التصريح من تكرير المدح في مقام الثناء، وها هنا وجه رقيق الحواشي وهو أن الأنبياء كلهم حجبٌ كما سبق، ونبينا صلى الله عليه وسلم أعظمُهم، وما مِنْ ولِي إلا وهو على قدم نبِي، فمنهم الموسوي والعيسوي والإبراهيمي وهكذا، ومنهم المحمدي وهو أفضلهم، فسأل المؤلف رضي الله عنه أن يكون على قدمه صلى الله عليه وسلم حتّى يكون جامعاً لخصوصية الأولياء. قال الإمام الخروبِي رحمه الله تعالَى: جميع أوصاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجموعة في نبينا صلى الله عليه وسلم، وكل ولِي على قدم نبِي اتصف بصفاته، والولِي المحمدي هو الكامل الذي اجتمعتْ فيه أوصاف الأنبياء، كما اجتمعت أوصاف الأنبياء فيمن هو على قدمه صلى الله عليه وسلم. انتهى. فلو لَم يأت بالوصف لاحتمل اللفظ غيره ولَم يعلم أن أل للعهد، والله تعالَى أعلم.

قوله نفعنا الله به **(وروحَه سرُّ حقيقتي)**

حقيقة الإنسان، المراد بها اللطيفة الربانية التي كان بِها الإنسان إنساناً، وتسمى نفْساً وقلباً وروحاً وسِرّاً وباطناً، فهي أسماء لِمُسمى واحد، واختلاف الأسامِي باختلاف الصفات، فإن مالت لِجهة النقص سميت بالنفس، وإن تخلصت من مقام الإسلام إلَى مقام الإيمان سميت بالقلب، وإن تخلصت منه إلَى مقام الإحسان ولكن بقي فيها أثر

من النقص كأثر الجراحات بعد البرء سميت بالروح، وإن ذهبتْ تلك الآثار وصفتْ سميت بالسر، وإن أشكل الأمر سميت بالباطن، هكذا ذكره الإمام الساحلي رضي الله عنه، وبه تتبين صحة الإضافة. ويظهر أن الشيخ رضي الله عنه طلب أن لا تبقى حقيقته نفساً في مقام الإسلام ولا قلباً في مقام الإيمان ولا روحاً في المرتبة الأولَى من رتبتي الإحسان وهي أن تعبد الله مستحضراً أنه يراك، بل تصير بواسطة شهود روح النبي صلى الله عليه وسلم سِرّاً في المرتبة الثانية من مرتبتَي الإحسان وهي أن تعبد الله كأنك تراه، وهذه نكتة التعبير بالسر.

وقوله واجعل روحه على حذف مُضاف وكذا قوله سر على حذف مضاف أيضاً أي شهود روحه شغل سر حقيقتي حتّى تصير حقيقتي سرّاً.

قوله نفعنا الله به **(وحقيقتَه جامع عوالمي)**

العوالِم هي النفس والقلب والروح والسر، سأل أن تكون كلها منصرفة إلَى شهود حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم الصادقة بعوالِمه الشريفة ومتوجهة إليها، أي اجعلْ شهود حقيقته جامعاً لعوالِمي.

قوله نفعنا الله به **(بتحقيق الحق الأول)**

يحتمل أن يكون الباء للتعدية متعلقة بحال مقدرة أي معين لِي على شهوده الآن في عالَم الأجسام بأن تحقق لِي الشهود السابق في عالَم الأرواح يومَ ألستُ بربكم، فقد تقدّم أن نوره أشرق على الأرواح وشاهدوه وهو أول من أجاب ببلَى إذ ذاك، أي حققه لِي الآن حتّى أستحضره وأستعين به على دوام الشهود، وذلك أن الإنسان يستعين بالسابق المعهود على ما هو مِنْ جنسه، حتّى إنه إذا حصلت له رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في النوم يبقى مستحضراً لَها أياماً مستحلياً إياها متشخصاً بسبب ذلك للصورة المشرفة، فالمراد بالحق الأول الشهود السابق.

ولنَزد هذا التقرير وضوحاً فنقول المراد بالحق الأول المعرفة والإدراك وغلبة الروح، وهو الواقع يومَ ألستُ بربكم، فإن الأرواح دراكة لكن لَما أودعت في هذا القالب الجسماني انقسمتْ قسمين: أحدهما وهو الغالب قلة قوته من الذكر والفكر فضعف حاله وغلبه الجسم فصار في حقه حجاباً وسجناً وانسَدت عنه أبواب الغيوب، وعلى هذا يتْزل قول الحكَم: (الكائن في الكون ولم يفتح له ميادين الغيوب مسجونٌ بمحيطاته ومحصورٌ في هيكل ذاته). وثانيهما كثرت قوته من الذكر والفكر فعظمت قوته وغلب على الجسم فلم ينحجب به وفتحت له أبواب الغيوب، وعليه يتنَزل مفهوم ولم تفتح الخ، فالمعنَى بأن تحقق لِي الحق الأول في الحالة الثانية وهي إيداع الروح

في الجسم حتّى أصير من أهل الحق الثاني وهو الشهود مع ذلك الإيداع كما كان حال التجرد.

ويحتمل أن تكون الباء للمعية والحق الأول هو شهود الربوبية والاستغراق في الوحدانية المشار له بقوله (وزُجَّ بي في بحار الأحدية) الخ، فيكون احترازاً عن حال من يقع له الغلط في شهود الواسطة حتّى يجعلها كالمقصد كما سبق، وجعله أول باعتبار الذكر وباعتبار الهداية لشهود الرسول ومعرفته، إذ لولا تعريفه تعالَى لَهم به ما عرفوه، اللهم لولا أنت ما اهتدينا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ويحتمل أن تكون الباء للقسم، على حدّ أقسمتُ عليك ببسط يديك، والحق الأول هو الله تعالَى إذ هو السابق على حل حق، ومنه كان كل حق وهو حق الحق سبحانه تعالَى، وفيه التفات من الخطاب إلَى الغيبة لَما تضمنه لفظ الحق الأول من العظمة والجلال.

قوله نفعنا الله به (يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن)

استغاث الشيخ نفعنا الله به في سؤال شهوده صلى الله عليه وسلم بهذه الأسماء الحسنَى لِما فيها من الدلالة على الإحاطة والتنْزيه والقيومية. قال بعض المشايخ: الأول والآخر من أسماء الإحاطة، لتقدّم الأول على كل أول، وإحاطة الآخر بكل آخر، فيه البدء وإليه الانتهاء، فليس قبله شيء ولا بعده شيء. قال: وإنّما عطفا في القرآن بالواو لتباعد ما بين موقعي معناهما. انتهى. أي فالعطف لدفع توهم التقابل المانع من الاجتماع، ويفيد أن التنَزه عن العدم سابقاً ولاحقاً، وأنه القائم بكل شيء، والظاهر الواضح الربوبية بالدلائل، المحتجب عن الكيفية والأوهام، فهو الظاهر من جهة التعريف، الباطن من جهة التكييف، والكلام في تعاطفيهما كسابقيهما.

قوله نفعنا الله به (اسمعْ ندائي بما سمعتَ به نداء عبدك زكرياء)

أي أسْمعه سماع قبول وإجابة. وأراد الله أعلم بِهذا طلب الوارث لسره حتّى ينتفع به المؤمنون ويكونون في ميزانه، ولذلك خصّ زكرياء من بين النبيين لطلبه الوارث بقوله ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي ﴾ وقوله ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾، وقد استجاب الله تعالَى للشيخ رضي الله عنه بتلميذه سيدي أبِي الحسن الشاذلِي رضي الله عنه فانتشرت طريقته وكثر أتباعه وعمّ النفع به، والحمد لله تعالَى. قال ابن الصباغ عن الشيخ أبِي الحسن أنه قال: دخلتُ العراق واجتمعت بالشيخ الصالِح أبِي الفتح الواسطي فما رأيتُ مثله وكنتُ أطلب القطب، فقال لِي بعض الأولياء: تطلب القطب بالعراق وهو ببلادك ارجعْ إلَى بلادك تجده، فرجعتُ إلَى بلاد المغرب إلَى أن

اجتمعت بأستاذي وهو الشيخ الولي العارف الصديق الغوث أبو محمد عبد السلام بن مشيش الشريف الحسني. انتهى. قال الشيخ زروق: وقد تَمت كلمة الإجماع على استحسان طريقة الشيخ أبي الحسن وشكر حالته لولا ما وقع لابن تيمية في أحزابه مع ذكره إياه بما فيه من جميل أوصافه، لكن ابن تيمية مسلم له في الحفظ والإتقان، مطعون عليه في عقائد الإيمان، وقد كان بعض مشايخنا من أهل الورع يقول: للحالف أن يحلف ولا يستثني على أن طريق الشاذلية عليها كانت بواطن الصحابة، أو كلاماً هذا معناه. وقال أيضا: وقد توفرت الشروط في الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وأحزابه فلا وجه لإنكارها، ولا نعدم الاقتداء به، وشواهد ذلك فيما ينقل من أحواله وما يتلقى من علومه وما اشتهر من كراماته، مع اعتناء علماء وقته فمن بعدهم بشأنه كعز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء وآخر المجتهدين في عصره. انتهى. وقال في حقه الشيخ الإمام العارف بالله داوود الباخلي نفعنا الله به: فهو السيد الأجل الكبير. القطب العارف الوارث، المحقق الرباني، صاحب الإشارات العلية، والعبارات السنية، والحقائق القدسية، والأنوار المحمدية، والأسرار الربانية، والهمم العرشية، والمنازلات الحقيقية، الحامل في زمانه لواء العارفين، والمقيم فيه دولة علوم المحققين، كهف قلوب السالكين، وقبلة همم المريدين، وزمزم أسرار الواصلين، وجلاء قلوب العارفين، منشئ معالم الطريقة بعد خفاء آثارها، ومبيح علوم الحقائق بعد خُلو أنوارها، ومظهر عوارف المعارف بعد خفائها واستتارها، الدال على الله وعلى سبيل جنته، والداعي على علم وبصيرة إلَى جنابه وحضرته، أوْحد أهل زمانه علماً وحالاً ومعرفة ومقالاً، قطب الورى غوْثهم وجامعهم، زين طريق الرجال سيدها، قطب رحاها رئيس مجلسها، جملة تفاصيلها وواحد شمس ضحاها، هلال ليلتها در تقاصيرها، زَبَد جَدها، الشريف الحبيب، ذو النسبتين الطاهرتين الجسدية والروحانية، والسلالتين الطيبتين الغيبية والشاهدية، والولايتين الكريمتين المُلْكِيَة والملكوتية، المحمدي الفاطمي، الصحيح النسبتين، والكريم العنصرين، فحل الفحول، إمام السالكين، جاء في طريق الله تعالَى بالأسلوب الغريب والمنهج العجيب، والمسلك العزيز القريب، جمع في ذلك بين العلم والحال، والهمة والمقال، اشتملت طريقته على السلوك والجذب والمجاهدة والعناية، واحتوت على الأدب والقرب والرعاية، تشيدت بالعلمين الظاهر والباطن من سائر أطرافها، وقرنت بصفات الكمال شريعة وحقيقة من جميع أكنافها، تيامنتْ عن ذكر يؤدي إلَى تصدي الآداب الشرعيات، وتياسرتْ عن مَحو يفضي إلَى حجاب الألباب عن ملاحظة حقائق التوحيد وأسرار المشاهدات، وتسامت على انقباض يوقع

في الانكماش وسوء الظن ويحجب عن روح الرجاء ولذاذة الشوق والطلب، وترامتْ عن انبساط ينْزل بصاحبه عن مقام الاحتشام والحياء ويؤول به إلَى سوء أدب، فاستوتْ بتوفيق الله تعالَى في نقطة الاعتدال، وظفرتْ بِهداية الله تعالَى دون كثير من الطرق بوصف التوسط والكمال. انتهى.

ومَدَحه الإمام البوصيري رضي الله عنه بقوله:

أمـا الْمحبـة فهـي بـذْل نفـوس بتنعمـي يـا مُهجتِـي بـالبؤس

بـذل الْمحـب لِمـن أحـب دموعـه وطـوَى حـشاه عـن أجـل رسـيس

إلَى أن قال:

صـدق وقـل مـن لَـم يقـم كقيامـه لَـم ينتفـع منـه امـرؤ بِجلـوس

قبِـل الإلـه تقربِـي بِمديحـه وتـوجّهي لِجنابـه الْمحـروس

رمـت الْمسير لـه فـأعجزني السرى وأبـاحنِي مـرآه غيـر بُـؤس

أكـرم بيَـوم الأربعـاء زيـارة لكنـه عنـدي كـألْف خَميـس

كـل اتـصالات الـسعيد سـعيدة بِمثابـة التثليـث والتـسديس

إلَى أن قال:

شـرف بـشاذلة ومرسـية سـرت لَهمـا الرياسـة مـن أجـل رئـيس

مـا إن نـسبت إلأيهمـا شـيخيهما إلا جلوتـهما جـلاء عـروس

وقال أيضاً:

إن الإمـام الـشاذلي طريقـة فِـي الفـضل واضحة لعـين الْمقتـدي

فانقـلْ ولـو قـدماً علـى آثـاره فـإذا فعلـتَ فـذاك أخـذ باليـد

وقال أيضاً فيه وفي تلميذه الشيخ أبِي العباس المرسي رضي الله عنه شرف: ولَدَ الشيخ أبو الحسن نفعنا الله به سنة إحدى وتسعين وخمسمائة. وقال الشيخ أبو عبد الله القصار في تاريخ وفاته:

الـشاذلي مـات عـام ونـخ وهـو ابـن نحـو جـص احفظـه أخِ

قوله (اسمعْ ندائي) يرجع إلَى ما قبله من سؤال دوام الشهود، وما بعده من التلميح بطلب الوارث.

قوله نفعنا الله به (**وانصرني بك لك**)

طلب أن ينصره الله وأن تكون نصرته به، أي منه إليه، لا على أيدي الوسائط والأسباب، حتَى لا يقع نظر منه إليهم، وليتخلص من رقية إحسانِهم والاحتياج إلَى

مكافأتهم، ولأن النصرة منه أتم وأكبر، وقد تقدم قوله للشيخ أبِي الحسن: (عوض ما تقول يا رب سخر لِي خلقك، قلْ يا رب كن لِي، أترى إذا كان لك يفوتك شيء)، وأن تكون نصرته لله، للقيام بحقوقه وخدمته لا لحظوظ نفسه، وذلك أن العارف تكون حظوظه حقاً لله تعالَى لأنه يتصرف بالنية، والنية إكسير الأعمال يقلب أعيانَها، فإن كل ما أباحه الشرع للعباد من المملكة إلَى حَمل الأزبال له وجه فِي الاستقامة على تقوى الله، عرف ذلك من عرفه، وهم المتفطنون لتوقف الأعمال على أقسام النية وآداب المقاصد، وجهله مَنْ جهله، وهو الواقفون على مجرى العوائد، فأهل المعرفة ليست الأوراد عندهم محصورة فِي الصلاة والصيام والزكاة وما جرى مجراها، بل حركاتُهم وسكناتُهم كلها أوراد، وإنّما الأعمال بالنيات.

ومن النصرة نصرتُهم فِي فِي وقت هيجان الفتن حتَى لا تؤثر فيهم، وإنْ كثر المؤذون لَهم، بإلقاء السكينة فِي قلوبِهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانِهم، قال الشيخ أبو الحسن (وانصرنا باليقين والتوكل عليك)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فِي النوم للشيخ أبِي الحسن: مِنْ علامة الصديقية كثرة أعدائها ثُم لا يبالِي بِهم. وفِي لطائف المنن: سَمعتُ شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: رجال الليل هم الرجال، وإن أولياء هذا الوقت ليؤيدون بشيئين: بالغنى واليقين، فالغنى لكثرة ما عند الناس من الإفلاس، واليقين لكثرة ما عند الناس من الشكوك. وقال بعض العارفين: إن لله رجالاً كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم، فَمثلهم كمثل الكواكب كلما قويتْ ظلمة الليل قوي إشراقها، وأين أنوار الكواكب من أنوار قلوب الأولياء، أنوار الكواكب تنكدر، وأنوار قلوب أوليائه لا تنكدر، وأنوار الكواكب تَهدي فِي الدنيا إلَى الدنيا، وأنوار قلوب أوليائه تَهدي إلَى الله عز وجل. وفِي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: إن لله عباداً يغَذيهم برحمته ويحييهم فِي عافية تمر بِهم الفتن كقِطع الليل المظلم لا تضرهم.

قوله نفعنا الله به (وأيدْنِي بك لك)

طلب، والله أعلم، قوة اليقين وحفظ التوحيد عند نزول المرادات القهرية، وحصول الروح والرضا حتَى تصير البلية عطية. كان الأستاذ أبو علي رضي الله عنه يقول: جربت مرة وكنت فِي صورة وحشة من ذلك، فدخلت الحمام ففتح على قلبِي شيء من الرضا فكنت ألثم كل واحدة من القروح، فخرجت ولَم يبق منها أثر. وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه يقول سَمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رضي الله عنه يقول فِي آخر عمره وقد اشتدت به العلة: مِنْ أمارات التأييد حفظ التوحيد فِي أوقات الحكم. ثُم

قال كالمفسر لقوله مشيراً إلَى ما كان فيه من حاله: هو أن يقرضك بِمقاريض القدرة فِي إمضاء الأحكام قطعةً قطعة وأنت ساكن حامد. وكان سيدي رضوان رضي الله عنه كثيراً ما يُردد هذا البيت:

ولـــو بيـــد الْحبيـــب ســـقيت سُـــمّاً لكـــان الـــسم مـــن يـــده يطيـــب

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه (ولا نسألك دفع ما تريد، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد، كما أيدتَ أنبياءك ورسلك وخاصة الصديقين من خلقك، إنك على كل شيء قدير). وانظر حكاية الذي جاع يومئين فقال: لئن جوعتني يوماً آخر لأصلين لك ألف ركعة. وفي حاشية الحزب قال في القصد: رأيت كأنّي مع النبيين والصديقين فأردتُ الكون معهم، ثم قلت: اللهم أسألك سبيلهم مع العافية مِما ابتليتهم به فإنّهم أقوى ونحن أضعف منهم، فقيل لِي: قلْ وما قدرت من شيء فأيدنا كما أيدتَهم. انتهى.

وفي نوادر الأصول بعد ذكر التأييد بروح اليقين: قال له القائل: ما روح اليقين؟ قال: برد القربة من الرحمة والعطف فراحت بِهما من فورة النفس وحرارتِها، وليس فيما قلت شفاء لك لأنك لم تصل إليه، والشفاء لِمن وصل واحتظى منه، وذلك أن النفس خرجت من هوى المخلوقين إلَى هوى القربة، فكل الطيب هناك. انتهى. وقال الكواشي في تفسير الآية ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ عن بعضهم: حياة الروح بالتأييد، وحياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة الذكر بالذاكر، وحياة الذاكر بالمذكور. ثم قال: وأيدهم بروح منه أي قوّاهم بنصره الحسن، سمّى النصر روحاً لأن أمرهم يحيى به، أو الروح الإيمان، أو القرآن وحججه، أو الرحمة، أو جبريل أيدهم الله به. انتهى.

قوله نفعنا الله به **(واجمعْ بيني وبينك)**

أي أدمْ ذلك الجمع، وهو استغراق العبد في نور الشهود، فلا يبقى له حظ في غير محبوبه، ويحصل له بشهوده انجماع مطلوبه كما قيل:

لـــو قيـــل لِـــي مـــا تَمنّـــى والعبـــد يعطـــى منـــاه
لقلـــتُ منيـــةُ قلبِـــي فِـــي أن يطـــول بقـــاهُ

ويرحم الله القائل:

مُحـال صـلاحي إن فقـدتك لَمحـة ومـنْ غـاب عنـه بـدره فهـو مظلـم

وحينئذ فلا يعترضهم شيء من الهموم، ولا يطرقهم شيء من الأحزان والغموم، وأنشدوا:

كانـــت لقلبـــي أهـــواء مفرقـــة فاستجمعتُ إذ رأتـك العين أهـوائي
فـصار يحسدني مَـنْ كنـتُ أحـسده وصرت مؤلَى الورى إذ صرتَ مولاءي
تركـت للنـاس دنيـاهم وديـنهم شـغلاً بـذكرك يـا دينـي ودنيـاءي

وانظر قول إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: لو عرف الملوك ما نحن فيه لَجالدونا عليه بالسيوف.

قوله نفعنا الله به **(وحُلْ بيني وبين غيرك)**

أي أدم تلك الحيلولة. قال فِي لطائف المنن: اعلم أن الحق سبحانه إذا تولّى وليّاً صان قلبه من الأغيار، وحرسَه بدوام الأنوار، حتّى لقد قال بعض العارفين إذا كان الله سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كي لا يسترق السمع منها فقلبُ المؤمن أولَى بذلك لقول الله سبحانه فيما يحكيه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (لَم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلبُ عبدي المؤمن) فانظر رحمك الله هذا الأمر العظيم الذي أعطيه القلب حتّى صار لِهذه المرتبة أهلاً. ويرحم الله سيدي أبا الحسن الششتري حين قال:

لأخلعـن عـذاري فِـي محبـتكم بِحـولكم لا بِحـولِي لا ولا حيَلِـي
وأتـرك الكـون حتّـى لا أراه ولا أرى اللحـوظ لتـرك التـرك مـن قبلِـي
الخلـق خلقكـم والأمـر أمـركم فـأي شـيء أنـا لا كنـت مـن طلـل
الحـق قلـت ومـا فـي الـدير غيـركم أعـوذ بـالله مـن علمـي ومـن عملـي
مـا للحجـاب مكـان فِـي وجـودكم إلا بـسر حـروف انظـر إلَـى الجبـل
أنـتم دللـتم علـيكم مـنكم لكـم ديمومـة عبـرت عـن غـامض الأزل
عـرّفتم بكـم هـذا الخبيـز بكـم أنـتم هُـمُ وحيـاة القلـب يـا أملـي

وها هنا سؤالان: أحدهما أن مقتضى سبقية التخلية على التحلية أن يقول وحُلْ بيني وبين غيرك واجمع بيني وبينك، وكذا هو في الواقع، فإن شرط الظفر بالمعرفة والوصول إلَى الشهود تطهير القلب من الأغيار، والشرط سابق على المشروط. قال في الحِكَم: كيف يشرق قلبٌ صورُ الأكوان منطبعة في مرآته، وفيها أيضاً: ربّما وردت الأنوار فوجدت القلب مشحوناً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت، فرّغْ قلبَك من الأغيار تَملأه بالمعارف والأسرار. وفِي المعنَى قال قائلهم:

فـاطرح الكـوْن عـن عيانـك وامـح نقطـة الغَـين إنْ أردت ترابـي

ثانيهما أن قوله: وزُجَّ بِي فِي بحار الأحدية وأغرقنِي فِي عين بحر الوحدة حتّى لا

أرى الخ، مغن عن هذا.

وجواب الأول أن الترتيب الذي في السؤال إنما هو في طريق السلوك، لا في طريق الجذب فإن الأمر فيها بالعكس، فيفجأ القلب تجلي الحق فيذهب به ويأخذ بمجامعه ولا تبقى فيه بقية لغيره، فالشهود الذي بُدئ به هو المذهب للأغيار، والمجذوب السالك أتم، قال سيدي عبد الرزاق العثماني:

وأكمل الرجال دونَ ريب مَن سلك الطريق بعد الجذب

فلم يطلب الشيخ إلا الأكمل، وهكذا وقع له فإنه أدركه الجذب وهو ابن سبع سنين كما سبق، فطلب دوام الكمال ثم الغيبة على الأغيار وإنْ كانت سابقة في طريق السلوك، فهي متأخرة بمعنًى آخر، وذلك أنها أولاً مكتسبة ومتكلفة، فإذا حصل الشهود صارت كالجبلة، إذ لا مستحسن مع التجلي غير المتجلي، فالتجلي ناشئ عنها ومثمر لها، كالورد والوارد، فإن الورد سبب الوارد، والوارد مثمر للورد يصيره جِبلة لا تعمّلاً.

وإذا حلتِ الهداية قلباً نشطتْ للعبادة الأعضاءُ

وجواب الثاني أنه لَما لَمح لطلب الوارث كما تقدّم، بيّن أنه لَم يطلبه ليتصر به ولا ليتأيد به ولا ليأنس به، وأن طلبه لا ينافي الجمع على الله بل يحققه لأنه وارث المعرفة بالله، فليس المراد منه إلا إيداع الجمع فيه وإبقاؤه مستمراً، مع ما في كلامه من تكرير الدعاء وهو من آدابه كما في الحصن الحصين.

قوله رضي الله عنه ونفعنا به **(الله الله الله)**

اعلم أن هذا الاسم الشريف هو قطب الأذكار ومعدن الأسرار، لا تصلح المعرفة إلا به، ولا تظهر العجائب إلا منه، ولا تنتهي الغايات إلا إليه.

قال الجنيد رضي الله عنه: ذاكر هذا الاسم ذاهب عن نفسه، متصل بربه، قائم بأداء حقه، ناظر إليه بقلبه، قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته، وصفى شرابه من كأس خصوصيته، قد تجلى له المذكور في الذكر، فغاب إحساسه في الفكر، فإن تكلم فبالله، وإن سكت فعلى الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله ومن الله وإلى الله، وله بعد هذا ما تضمحل عنه الإشارة وتنقطع عنه العبارة، قال الله العظيم ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ انتهى.

قالوا: ومن تم له الحضور فليذكر الاسم المفرد، ومهما دخل عليه شيء من الوسوسة في باطنه بادر إلى لا إله إلا الله حتى يذهب عنه ذلك ويعود إلى الله.

قال أبو سعيد الخراز: مِن الناس من نسيَ حاجته إلى الله فلو تكلمتْ جوارحه وأعضاؤه لقالت ألله. وقال أبو علي الدقاق: إن رجلاً كان يقول ألله ألله دائماً فأصاب

حجر رأسه وشجه فوقع دمه على الأرض فكتب ألله ألله.

وقال رجل للشبلي: لِم تقول ألله ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: لا أبغي به ضداً، فقال: أريد أعلى من ذلك، فقال: أخشى أن أموت قبل تَمامها فأؤخذ في وحشة النفي، فقال: أريد أعلا من هذا، فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾، فزعق السائل ووقع ميتاً، فتعلق أولياؤه بالشبلي وادعوا عليه بدمه وحملوه للخليفة، فسأله الخليفة عن دعواهم، فقال الشبلي: روحٌ حنّتْ فرنّت فدعيت فأجابت فما ذنبي، فقال الخليفة: خلوه لا ذنب له.

وبقي النوري رحمه الله في منزله سبعة أيام لم يأكل ولم يشرب ولم ينم وهو يقول ألله ألله، فأخبر الجنيد بذلك فقال: انظروا أمحفوظة عليه أوقاته أم لا، فقيل له: إنه يصلي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان عليه سبيلاً قوموا بنا إليه فإما نستفيد منه وإما نفيده، فلما دخل الجنيد قال: يا أبا الحسن ما الذي دهاك؟ فقال: أقول ألله ألله زيدوا علي وقولوها معي، فقال الجنيد: حتّى نرى قوله ألله ألله، أبالله أم بنفسك؟ إن كنتَ قائلها بالله فلست القائل، وإن كنت قائلها بنفسك فما معنَى الوله؟ فقال له: نعْمَ المؤدب أنت يا أبا القاسم، وسكن ولَهه.

وصاح الشبلي في مجلس الجنيد وهو في ولَهه بذكر الله، فقال له الجنيد: يا أبا بكر الغيبة حرام، إن كنت غائباً عنه حال ذكرك فهي غيبة، وإن كنت معه حاضراً فقد هتكت الحرمة.

وصاح شاب في مجلس الجنيد، فقال له الجنيد: أمسكْ وإن عدت لِمثلها لا تحضر مجلسنا، فأمسك الشاب على نفسه وإذا به قد سقط ميتاً.

وعن ابن مسعود: إن الله عز وجل خلق ملائكة على عدد الحروف وسماهم بأسماء الحروف، ثم قال لَهم: قدّسوني وعظموني فإنّي أنا الله لا إله إلا أنا، فتضاءلت تلك الملائكة بين يديه، فأول من سجد الملَك الذي خُلق على صورة الألِف وسمّي باسمه، فلما سجد صار على هيئة الهمزة، فقال له المولَى: وعزتي وجلالي لأجعلنّ حرف الألِف أول الحروف ولأجعلنه أول اسْمي العظيم الأعظم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا قال العبد ألله شهد له كل من سمعه.

وقال بعضهم: إذا قال العبد ألله خلق الله من قوله ملَكاً مقرباً لا يزال يصعد حتّى يغيب في علم الله وهو يقول ألله ألله ويترك على موضع صعوده عموداً من النور وقد سدّ الآفاق يغلب نوره على نور الشمس، ثم لا يزال ذلك العمود يتسع حتّى يَملأ الكون طولاً وعرضاً، فلا يمر بشيطان إلا أخنسه وأذله وربّما أحرقه، ويقول الله تعالَى:

وجرّد الاسم الشريف من حرف النداء لِما فيه من الإشعار بالبعْد استغراقاً في الله وفناء فيه، وقال قبْل هذا: يا أول يا آخر الخ، بحرف النداء تأدباً مع الله تعالَى بإظهار بعْد نفسه، والله تعالَى أعلم.

تنبيه: قال الحطاب في باب الردة: سئل الشيخ عز الدين عن الرجل الذي يذكر ويقول ألله ألله ويقتصر على ذلك، هل هو مثل قوله سبحان الله والحمد لله والله أكبر وما أشبه ذلك أم لا؟ وإذا لَم يكن بِمثابته فهل هو بدعة لَم تنقل عن السلف أم لا؟

فأجاب: هذه بدعة لَم تنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من السلف وإنّما يفعله الجهلة، والذكر المشروع كله لا بد أن يكون جملة فعلية أو اسْمية وهو مأخوذ من الكتاب والسنة وأذكار الأنبياء، والخير كله في إتباع الرسول وإتباع السلف الصالِحين دون الأغبياء الجاهلين. انتهى.

قلت: هو وإن سلمَه الحطاب مُخالف لكلام أئمة الصوفية رضي الله عنهم، ونصوصهم في المسألة كثيرة، وقد تقدمتْ حكاية الشبلي وأبِي الحسن النوري وقوله في الحديث: إذا قال العبْد ألله، وغير ذلك. وقال الشيخ الإمام القدوة المعتمد سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه في المنن: مِما منَّ الله به علي مواظبتِي أول دخولِي في محبة طريقة القوم على ذكر الله تعالَى بلفظ الجلالة أربعاً وعشرين ألْف مرة في كل يوم وليلة عدد الأنفاس الواقعة في الثلاثمائة وستين درجة، وكنت أذكرها تارة في مجلس وتارة في مجالس، على نية أن الله يبسطها لِي على جميع الأنفاس الواقعة في الليل والنهار ليكون حكمي إن شاء الله تعالَى حكْم من لم يغفل عن الله تعالَى نفَساً واحداً. ثم قال: قال الشيخ محيي الدين: وينبغي لِمن يذكر الله تعالَى بالجلالة أن يحقق الهمزة ويسكن الهاء، فإن فتح الهاء وأسقط الهمزة ووصل الهاء باللام المدغمة كان تلفظه بِها كتلفظه بكلمة هلا، فلا تفتح له شيئاً لأنه تعالَى ما هو مسمّى بذلك الاسم، ثم قال: وصورة الذكر بالجلالة أن يقول ألله ألله ألله حتّى ينقطع نفَسه. انتهى المراد، وفيه مع ما في الصلاة المشروحة مقنع، فلنقصر عليه.

والذكر تعظيم لله تعالَى، فالمعنَى أعظم الله، فالجملة مقدّرة، والله تعالَى أعلم بالصواب.

قوله نفعنا الله به **(إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)**

قال في الكشاف: أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به، يعنِي إن الذي حملك صعوبة هذا التكليف لَيثيبك عليه ثواباً لا يحيط به الوصف ولرادك بعد الموت إلَى معاد أيِّ معاد ليس لغيرك من البشر، وتنكير المعاد لذلك، وقيل المراد به مكة ووجهه أن

يراد رده إليها يوم الفتح، ووجه تنكيره أنّها كانت في ذلك اليوم معاد له شأن ومرجعاً به اعتداد لغلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وقهره لأهلها ولظهور الإسلام وأهله وذُل الشرك وحزبه، والسورة مكية، فكان الله وعده وهو بمكة في أذىً وغلبة من أهلها أنه يهاجر به منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً، وقيل نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم فنزل جبريل وقال له تشتاق إلَى مكة فقال نعم فأوحاها الله إليه.

قلت: تعريف المسند إليه بالموصولية على التفسير الأول ظاهر، لِما في الصلة من الإشارة إلَى وجد بقاء الخبَر وأنه من جنس الثواب، حيث رتب على فرض تلاوته وتبليغه والعمل به على حد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾، والتلويح بتعظيمه للترتيب المذكور ولأنه فعل من فرض القرآن على حد

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعز وأطول

ولأن المثاب به النبي صلى الله عليه وسلم كما أفهمه الخطاب وأكد ذلك بتنكير المعاد، وأما على الثاني فمشكل إذ فرض التلاوة وتبليغه والعمل به لا يشعر بالرجوع إلَى مكة والظهور على أهلها، نعم إنزال الله إياه على النبي صلى الله عليه وسلم واعتناؤه بوحيه إليه مشْعر بالظهور والظفر، إذ هو أعظم مواصلة من ملك الملوك جل وعلا، ومذكر بمكة إذ فيه عهد نزوله قبل ذلك، فالظاهر على الوجه الثاني تفسير فرض بأنزل، وهو الواقع في تفسير الجلالَيْن مع الاقتصار عليه، وعلى تفسير المعاد بمكة وهو صالح على التفسير الأول أيضاً، ويُرجحه قوله بعده ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ فإنه يشير إلَى أن الكلام في الإنزال، وحكى ابن جزي تفسير فرض بأنْزل وبأوْجب.

فإن قيل: المشعر بأحد الأمريْن لا يشعر بالآخر على التعيين وإلا لَما أشعر بالأول، قلتُ: الإشعار بشيء واحدٍ من جهة المعنَى وهو المكافأة والجزاء وهو ضرْبان أخروي ودنيوي يَجُر إلَى أخروي، وهذا الاختلاف لا يضر. وهنا سؤالان، وهو أن يقال: ما وجه الإتيان بأن التوكيدية التِي هي لدفع الشك أو الإنكار مع أن خبَره تعالَى يستحيل عليه الخلف وعدم الطباق ولا يتعقل إلا مطابقاً للواقع، فهو مقطوع به ليس مظنة للشك والإنكار فضلاً عن عروضهما له بالفعل، وهذا الإشكال لا يختص بهذا الموضع بل جميع إخباراته المشتملة على التوكيد يأتي فيها ذلك نحو ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ الآية، وهذا مِما فاتني التنبيه عليه في شرْح الفريدة. وجوابه أن الأمر المستغرب المستعظم أن تأكيد الخبر لا ينظر فيه إلَى جانب المخبِر بالكسْر، وإنّما ينظر

فيه إلَى ذات الخبر مع جانب المخبر بالفتح، فإذا كان مضمون الخبر من حيث ذاته قابلاً لأن يشك فيه المخاطب أو ينكره اقتضت البلاغة توكيده، وهنا الأمر كذلك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن عنده علم بالرجوع إلَى مكة والظفر بأهلها قبل إعلامه بذلك. فإن قيل: سلمنا أنه لم يكن عنده علم لكن ليس عدم العلم هو المقتضي للتوكيد لثبوته لِخالِي الذهن مع أن الكلام يلقى إليه مجرداً وهل تقول يشك أو ينكر لو أخبر. قلت: نعم لو أخبره غير الله وتقدّم أنه لا ينظر لِجانب المخبِر بالكسر لا سيما والحالة التي كان فيها من الهجرة وغلبة أهل مكة وجرأتهم وطلبهم قتله وإتباعهم إياه لذلك وتفتيشهم عليه تقتضي ذلك، وفي هذا التأكيد أيضاً تقوية للمؤمنين التالين للآية لأنهم وإن علموا أن لا خلف في إخباره تعالَى لكن الأمر المستبعد عند النفوس إنّما تُذعن إليه في أول أوقات إخبار الصادق به من غير استغراب ولا تأمل ولا تثبت ولا خطور خواطر نفوس خاصة الخاصة المؤيدة بالطمأنينة وصفو اليقين، وغيرهم يذعن مستغرباً ذلك متعجباً منه الإذعان التام وبعد تأمله وتثبته يزول استغرابه، فإذا أريد إذعانه أولاً بدون شيء مما ذكر نبه بالتأكيد، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم لَما أخبر بكلام البقرة قالوا سبحان الله بقرة تتكلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم آمنتُ أنا وأبو بكر وعمر، فإن المتعجبين لم يكذبوه وإلا لكفروا ولكنهم استغربوا ذلك، وبيان الاستغراب في هذا الخبر سواء قلنا نزلت الآية بِمكة أو بالجحفة أن ذلك كان وقت غلبة الأعداء وظهورهم وتَمكنهم من تلك الأفعال الشنيعة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بصدد الخروج أو قد خرج بالفعل فقيل له في هذه الحالة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾، فأخبر في تلك الحالة بالظهور والظفر والنصر، والخطاب وإن كان معه صلى الله عليه وسلم لكن ليس الإخبار له وحده بل له وللمؤمنين، ففي التأكيد رفقٌ بِهم وتقوية لَهم وتحقيق لِما تبعده الحالة الحاضرة لديهم، ويزيدك لِهذا وضوحاً قضية سيدنا عمر رضي الله عنه يوم الحديبية قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله ألستَ نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى، قلتُ: فلِم نعطي الدنية في ديننا، قال: إنّي رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري، قلتُ: أوليس كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به، قال: أوأخبرتك أن تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال: فأتيتُ أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل، قال: بلى، قلت: فلِم نعطي الدنية في ديننا، قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصيه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق، قلت: أوليس كان

يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال عمر: فعلمت لذلك أعمالاً. أخرجه البخاري ومسلم.

فإن قلتَ: ما قرّرته من الجواب ظاهر على التفسير الثاني دون الأول لأنه لم يزل يعلم أنه في الجنة منذ بعثه الله تعالى، وقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ ﴾ معناه في الدنيا على أظهر الأقوال، فنقول حينئذ: ما وجه إلقاء الخبَر والإعلام به مع أن المخاطَب عالِم به، فكيف أكّد ذلك؟

قلتُ: فائدة الإخبار لا تنحصر في الإعلام بمضمونه كما هو مقرر في محله، فهو هنا للبشارة وإدخال السرور على المخبر بإحضاره عنده اعتناء بشأنه، ولَما كان الخبر المؤكد من حيث ذاته أقوى من غيره اختير في مقام التبشير ومخاطبة الحبيب حبيبه لما يتضمنه من زيادة الإقبال والاعتناء، قال تعالى ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ مع ما يختص به هذا المقام من تأكيد الإعلام بموته صلى الله عليه وسلم إزالة لاستبعاد الناس بذلك، وقد فسر ابن عباس وأبو سعيد الخدري المعاد بالموت، ولهذا أيضاً قال تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٞ ﴾ وقال ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ ﴾ بقصر القلب تنْزيلاً لاستبعادهم موته منْزلة ادعاء خلوده.

قلت: ووجه التفسير الأول من طريق المعنى أن برد العيش إنّما يحصل بحر التعب، والعز تحت ثوب الكد، وعلى قدر الجهاد تعلو الرتب كما قيل:

بقدْر العز تكتسبُ المعالي ومَنْ رام العلا سهرَ الليالي
تُريد العز ثُم تنام ليلاً يغوص البحر مَنْ طلب اللئالي

فجعل الله نبيه للمؤمنين في ذلك قدوة ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾، ويقال: إن أول ما يرى أهل الجنة في الجنة مكتوباً:

وهذا السرورُ بتلك الكروب وهذا النعيم بذاك التعب

وقال الشاعر:

لا راحة قط إلا قبلها تعب أتعب تَجِدْ راحةً تنجيك من تعَب

قال الله تعالى ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾، ويقول الله تعالى يوم القيامة لأهل الجنة: أدخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم، ومن كلام سيدي رضوان رضي الله عنه:

على قناطر المحن جازوا إلى كل المنن

ووجه التفسير الثاني أن البداية علامة النهاية، مَنْ أشرقتْ بدايته أشرقتْ نهايته،

والكريم إذا ابتدأ كمل وإذا أعطى خول وإذا وعد أنجز.

ووجه الثالث الترويح عن القلب من ألم الفراق بالتصريح بالوغد بالتلاق، فإن النبي صلى الله عليه وسلم اشتاق إلى مكة لما لها من النسبة، إذ هي بيت الله تعالى ومزار الأنبياء ومنزل الرحمة ومحل التعظيم والإجلال، ومن هنا جبلت نفوس المؤمنين على الشوق لها والحنين إليها، وفيها يقول سيدي رضوان رضي الله عنه:

عجبتُ إليها على بعدها ... تحن إليها نفوس الكرام

حنين الرضيع إلى أمه ... أوان الرضاع قُبيل الفطام

إلى أن يقول:

تذل الملوك لعزتها ... فهم عندها هيبة كالخدم

إلى أن قال:

أقول إذا ما بدا خالها ... أيا طلعة الشمس بعد الغمام

ملكتِ النفوس جلوت الكروب ... محوت الذنوب عن أهل الغرام

وكما اشتاق لها صلى الله عليه وسلم للمعاني السابقة اشتاقت هي إليه حقيقة على الصحيح، إذ حنين الجمادات إليه أمر معلوم، قال في الهمزية:

ونحى المصطفى المدينةَ واشتاقت ... إليه من مكةَ الأنحاءُ

ويرحم الله سيدي رضوان حيث قال في هذا المعنى:

ولما دنت هجرة المصطفى ... وأفجع مكة منه انصرام

فصاحتْ وعجّت ورنّت بُكا ... بَكى لبكاها جميع الأكام

وقالت أتفجعني بالفراق ... فيا ليتني ذُقتُ قبلُ الحمام

ألستُ بأم وأنت الوليد ... ألستُ بمهدك قبل الفطام

وفيّ ربيت وفيّ نشأت ... وفي أتاك رسول الكرام

وفيّ أتاك الرسول الأمين ... بوحي الإله العزيز السلام

فيا ربّ صبراً لفقد الحبيب ... تصدّع قلبي حُرمتُ المنام

فؤادي تفتت من كمد ... دموعي جرت مثل صب الغمام

عليك بني ومصباح قلبي ... فمن عاذري من جميع الأنام

أألصبر لا والذي خصّه ... بخير الحيا ورفيع المقام

سأبكي عليه بطول الحياة ... وبعد الممات بكا المستهام

وتبكي القبور بطول الدهور ... وزمزم يبكي ويبكي المقام

ومـــزوة تبكـــي ويبكـــي الـــصفا ويبكـــي الْمطـــاف مـــع الْملتـــزام
ومكـــــة تبكـــــي وآطامهـــــا كـــذا البيـــت يبكـــي ويبكـــي الْحـــرام
ويبكـــي الْمحـــصّب يبكـــي الفـــلا كـــذا عرافـــات بطُـــول الـــدوام
علـــى مثـــل ثكلـــي تبكـــي الثكـــالا وقـــد فـــاق ثكلـــي ثكـــل بكـــل الأنـــام
فـــلا صـــبر لا صـــبْر يـــا كبـــدي فكيـــــف وللنـــــار فيـــــه انـــــضرام
أكلـــف صـــبراً علـــى ذا الْمـــصاب ومـــا مثلـــه شـــمة فِـــي الأنـــام
ولكـــن إلَـــى الـــصبر مرجعنـــا قـــضاء الإلـــه العزيـــز الـــسلام

وما تقدّم من عدم اعتبار جانب المخبر في التأكيد هو الغالب، ولا ينافِي قول عبد القاهر أن إن قد تكون للدلالة على أن الظن كان من المتكلم في الذي كان أنه لا يكون.

إذا تَمهد هذا فاعلم أن المؤلف رضي الله عنه وقع بالآية الكريمة ليشعر بالرجوع إلَى الشهود الحقيقي بعد الموت اختياراً للتفسير الأول، فإن النبي صلى الله عليه وسلم إذا وعد بأمر دخل أتباعه على حسب مراتبهم، وذلك أن الشهود هو المقصود بالذات عند العارفين من الثواب، وفي الحِكَم: النعيم وإنْ تنوعتْ مظاهره فإنّما هو بشهوده واقترابه. قال الجنيد رضي الله عنه: كنت ليلة نائماً عند السري فأنبهني وقال لِي: يا جنيد رأيت كأنّي وقفتُ بين يديه فقال لِي يا سري خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتِي، فخلقتُ الدنيا فهرب منّي تسعة أعشارهم وبقي معي العشر، فخلقت الجنة فهرب منّي تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العُشر، فسلطتُ عليهم ذرة من البلاء فهرب منّي تسعة أعشار عشر العشر، فقلت للباقين معي: لا الدنيا أرتم ولا الجنة أخذتم ولا من البلاء هربتم فماذا تريدون؟ قالوا: إنك تعلم ما نريد، فقلت: إنّي مُسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم أتصبرون، قالوا: إذا كنت أنت المبلي فافعلْ ما شئت، فقلت: أنتم عبادي حقا. انتهى. وكان سيدي رضوان رضي الله عنه كثيراً ما يردد هذا البيت:

ولـــوْ بيـــد الْحبيـــب ســـقيتُ سُـــمّاً لكـــان الـــسم مـــن يـــده يطيـــبُ

وموتُ العارفين نفعنا الله بِهم مجرد انتقال إلَى النعيم المقيم. وفي ما ينسب إلَى الإمام أبِي حامد الغزالِي رضي الله عنه:

قـــلْ لإخـــوان رأونِـــي ميتـــاً فبكـــوني ورثـــوني حزنـــا
أتخـــالون بـــأنّي ميـــتكم لـــيس ذاك الْميـــت واللـــه أنـــا

إلى أن يقول:

كنت قبل اليوم ميتاً بينكم فحييت وخلعت الكفنا
وأنا اليوم أناجي ملئاً وأرى الله جهاراً علنا

إلى أن يقول:

لا ترعكم هجمة الموت فما هي إلا نقلة من هاهُنا
لا تظنوا الموت موت إنه لحياة هو غاية المنا
فاخلعوا الأجسام عن أنفسكم تبصروا الحق جهاراً علنا

وذكر عن رجل يسمّى عبد الكريم بن حسَن من بلاد المغرب لَما قرب أجله وأطلعه الله عليه أمر صاحباً له أن يأتي عند صلاة الظهر لِمنْزله ليغسله ويكفنه ويدفنه، فقال له: لو كان معي آخر، قال له: ستجده ينتظرك هنا، فلما جاء الظهر جاء الرجل لِمنْزل عبد الكريم فوجده قد مات ووجد الرجل ينتظره فغسلاه وجهزاه، فلما فرغا من ذلك قال ذلك الرجل: لا إله إلا الله عبد الكريم بن حسن روحه غسلَ البدن، ثم طلبه فلم يجده فعلِم أن ذلك الشخص روحه تطور في صورة هيكله.

ولكوْن حقيقة الأمر على ما ذكر كانوا يتمنون الموت لِما فيه من اللقاء حتى كان عندهم أحلى من الشهد، ولقد أصاب من عبّر عن حالِهم:

فاسمغ مقالاً صادقاً مقبولا إن الأولى ماتوا على دين الْهوى
وجدوا الْمنية منهلاً معسولا

ويقول قائلهم عند نزول الموت:

حبيب جاء على فاقة لفلا أفلح اليوم من ندمَا

وانظر قول سيدنا بلال رضي الله عنه: (واطرباه غداً ألقى الأحبة محمداً وأصحابه)، وجاء رجل إلَى عبد الله بن منازل فقال: رأيت في المنام أنك تموت إلَى سنة، فقال: أجلتنا إلى أمد بعيد. وقال الجنيد: المحب يكون مشتاقاً إلَى مولاه، ووفاته أحب إليه من البقاء، إذ علم أن فيه الرجوع إلَى مولاه، فهو يتمنَّى الموت أبداً، وذلك قوله تعالَى ﴿ إن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ ﴾ الآية، وأنشدوا:

كان السرور يَتم لِي لوْ كان أحبابِي حضورا

ووجد عند سيدي رضوان في مرض وفاته كاغد بخطه بكتابة غير بينة كتبه بتكلف من الْمرض فتهجوه فإذا فيه:

قَرب الرحيل إلَى الْحبيب فمرحبا أهلاً به وسهلاً مَرحبا

ويحتمل أن يكون التوقيع بالآية على التفسير الثاني، إشارة إلَى الظفر بالتلاق من

باب ذكر النظير على قاعدة تفسير الصوفية رضي الله عنهم، ففي التوقيع بالآية ترويح على قلب الشيخ رضي الله عنه بذكر ما يتضمن انتظار اللقاء، إذ كل ما دون اللقاء عندهم بعاد، ولذا كان حياتهم كما مر، وقد أنشد ناس بحضرة سيدنا رضوان رضي الله عنه المقطّع الذي أوله:

البعاد من يحمله إلا قلبي المبْلَى
كم يلي تتبع هواك من صغر ليس عندي لولا

فلما سَمع بذلك بكى بكاء عظيماً، فما زالوا يعيدونه وهو يبكي ويعلو صوته حتى بكى جميع من حضر، ثُم غشي على الشيخ وسقط على وجهه حتّى ظن به الموت، ثم رفع رأسه وعيناه تهملان، فقال: يا أصحاب ارْجعوا إلى قراءة البردة لترجع إلينا عقولنا، فأنشد بعض الحاضرين:

لا تذكروا زمن البعاد فإنكم إنْ تذكروه تُجددوا أحزانِي
إنّي ضعيف لا أطيق بعاد مَنْ أهوى وقد أسكنته أجفانِي
ووهبته قلبي على أنّي به فِي حيرة اللهفان والولهان
فلترفقوا رَفقَ الإله برفقه بِجميعكم يا معشر الإخوان
يكفيكم مدح النبِي ببردتِي رفقاً بقلبِي الْمستهام العانِي

ولله در القائل:

ذكرَ الْحمى وعهوده وعِهادَه فبكى وأبكى رحْمةً حُسّاده
فابتاغ منه الوجدَ فغدَى حاضراً يوم النوى وابتاع منه فؤاده
واستل من جفنيه نصلَ مُجُوده وأعاره بعد الرماد سُهاده
نزح البُكا يا نازحين مدامعي وَصدُودكم من بَعْد ذلك زاده
ورحلتم بالقلب بَيْنَ رحالكم وجعلتم الشوق الْمبَرحَ زادَه
ردوه أوْ فَخُذوا الْمخلَّف بعده إنْ لَم تكونوا تَمنعوه مراده
يا مَنْ لطرفِي قد ملكتم دمعه بين الْهوى وبياضه وسوَاده
أخذ الْهوى عهد الْمنام بأنه بعد الترفق لا يزور وساده
للهِ أحشاءٌ عرتْها حُرقَة بِحراقها قدح الغرام زِناده
يا ساكنِي نَجد متَى أنْجدتُمُ مشتاقكم وَوفيْتم ميعاده
هل زاره منكم خيال طارق فرآه فِي فرش الضنا أو عاده

فإن قلتَ: هلا خرجتم التوقيع على التفسير الثاني إشعاراً بالرجوع بعد الموت إلى الشهود الروحاني الذي هو السابقُ يومَ ألستُ بربكم ويكون من باب ذكر النظير بالنظير، على قاعدة تفسير الصوفية، وقد بسط القول فيه في لطائف المنن، ومن أبيات الغزالي المتقدمة:

أنا فِي الصور وهذا بدني كان جِسمي وقميصي زَمنا

أنا در قد حواه صدف طرتُ عنه فتنحّى وانثنا

أنا كنْز وحِجابِي طلسم من تراب فتخلّى للفَنا

أنا عصفورٌ وهذا قفصي كان سِجني فألفتُ السجنَا

أشكر الله الذي خلصني وبنى لِي فِي الْمعالِي وَطَنا

إلى أن يقول:

فاخْلعوا الأجسام عن أنفسكم تبصروا الْحقَّ جهاراً علنا

قلتُ: الخطاب في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم، والتنظير في حقه لا يصح، لأن الأنبياء أحياء في قبورهم حقيقة، ووصف النبوءة باق للروح والجسد معاً، وقال السبكي في طبقاته عن ابن فوْرك أنه قال إنه عليه السلام حيٌ في قبره رسول الله أبد الأبد على الحقيقة لا المجاز.

قوله نفعنا الله به **(ربنا آتنا من لدنك رحمةً وهيئ لنا من أمرنا رشداً)**

هذا دعاء أهل الكهف حين إيوائهم إليه وانقطاعهم إلى الله تعالى بترك بلادهم وأموالِهم وعشائرهم لِما حصل لَهم من الأنس بالله الذي أشرقه في قلوبِهم مِما أفاضه عليهم من معرفته أقبلوا حين إيوائهم إلى الكهف على خطابه تعالى والتوجه إليه وطلب زيادة الهداية والتثبيت عليها لِحصول أصلها لَهم، وقدِّم نعت النكرة وهو (من لدنك) عليها فانتصب حالاً، لأن مقصودهم إذ ذاك الستر والإخفاء وعدم اطلاع الخلق عليهم، فكانت قوة طلبهم متوجهة إلى كون الرحمة من ربِهم إليهم بلا واسطة، ولعدمِ تعلق القصد بالستر والإخفاء جيء بالظرف على أصل التأخير فِي آتيناه رحمةً من عندنا، وعبّر هنا بلَدُن دون عند، لأنهما وإنْ تقاربا لكن لدن أخص من جهة دلالتها على الملاصقة المعنوية، كما قال أبو حيان فِي بحره ونقله السيوطي في شرح ألْفيته، فجيء بها دون عند لتأكيد نفي الواسطة ولعدم الحاجة لما ذكر لم يُؤت بها في آتيناه رحمة من عندنا، نعمْ جيء بِها مقدمة في جانب العلم لأن المعهود فيه أن يكون بمعلم فاشتد الاهتمام بالتنبيه على نفيه فسلكت طريق الاحتراس، وجيء بِما يمنع أصل توهم

خلافه، وإشارة إلى أن المراد العلم المختص وهو المغيبات لا المطلق، والتنكير في (رحمة) و(رشد) للتعظيم، ومعنى هيئ لنا اجعل لنا من أمرنا أي مِما نزل بنا من تضييق الملك الجائر علينا وبعثه في طلبنا هداية أي اهدنا إلى وجه المخرج من ذلك، كأنّهم ثم يظهر لهم وجه المخرج وقت الإيواء، وقد قال وهب بن منبه رضي الله عنه أنّهم لما دخلوا الكهف قالوا نبيت هاهنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله تعالى ثم ترون رأيكم. أو المعنى اجعل لنا في أمرنا أي فرارنا ومفارقة قومنا هداية وخيراً، أو اجعل أمرنا كله خيراً، فيكون تجريداً نحو رأيت منك أسداً، أي اجعل أمرنا رشداً أي غاية الرشد حتى يتهيأ لأن ينتزع منه الرشد، فالتنكير التعظيم والله أعلم.

إذا تمهد هذا، فاعلم أن المؤلف رضي الله عنه وقع بالآية الشريفة ليشعر بمفارقة الخلق وهجرانهم والفرار منهم وإطراحهم ونبذ الأغيار كلها تعلقاً بالله وإقبالاً عليه وإيواء إليه، طالباً أن تَهب عليه نفحات الرحمة من ربه ويكون أمره كله في ذلك رشداً وخيراً، وأن يكون له حظ من حال أهل الكهف في الخفاء عن الأضداد وعدم اطلاع الأغيار، لأن ذلك اعتناء من الله بهم وإعزاز لهم. قال في لطائف المنن: فأولياء الله أهل كهف الإيواء فَقليل من يعرفهم، قال أبو يزيد رضي الله عنه: أولياء الله تعالى عرائس، ولا يرى العرائس إلا من كان محرماً لهم، وأما غيرهم فلا، وهم مخذورون عنده في جمال الأنس لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة.

وعن أبي عبد الله البسري قال: سألت رجلا بالمقام: ما الذي أجلسك في هذا الموضع؟ فقال لي: وما سؤالك عن شيء إنْ طلبته لا تدركه وإن لحقته لم تقع عليه، قلت: تخبرني ما هو، قال: علمي بأن مجالسة الله تستغرق نعيم الجنان، ثم قال: أو أن قد كنت أظن نفسي ظفرت ومن الخلق هربت فإذا أنا كذاب في مقالتي، لو كنت مُحبّاً لله تعالى صادقاً ما اطلع عليّ أحد، فقلت له: أما علمت أن المحبين خلفاء الله في أرضه مستأنسون بخلقه يحثونهم على طاعته، فصاح صيحة وقال: يا مخدوع لو شممتَ رائحة المحبة وعاين قلبك ما وراء ذلك من القرب ما احتجتَ أن ترى فوق ما رأيت، ثم قال: يا سَماء ويا أرض اشهدا أنه ما خطر على قلبي ذكر الجنة والنار قط إنْ كنتُ صادقاً فأمتني. فوَالله ما سمعت له كلاماً بعدها، وخفْت أن يسبق إلَيّ الظن من الناس من قتله، فتركته ومضيت، فبينما أنا على ذلك الحال إذا بِجماعة قالوا: ما فعل الفتى؟ فكنيت عن ذلك، فقالوا: ارجع فإن الله قد قبضه، فصليتُ معهم عليه وقلت لَهم: منْ هذا الرجل ومن أنتم؟ قالوا: هذا رجل به كان يُمطر المطر، قلبُه على قلب إبراهيم عليه السلام، أما رأيته يخبر عن نفسه أن ذكر الجنة والنار ما خطر على قلبه فهل كان

أحدٌ هكذا إلا إبراهيم الخليل، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن السبعة المخصوصون من الأبدال، قلت: علموني شيئاً، قالوا: لا تحب أن تعرف ولا تحب أن يعرف أنك مِمن لا يحب أن يعرف. انتهى.

فهذا هو العز، وهذا هو الملْك، فهم الملوك وإن لم تخفق عليهم البنود، والأعزاء وإن لم تسر أمامهم الجنود.

لله تَحت قباب العز طائفة ... أخفاهم فِي رداء الْحق إجْلالا
هم السلاطين فِي أطمار مسكنة ... استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا
شُعثٌ مرافقهم غبر ملابسهم ... جرّوا على ذلك الخضراء أذيالا
هذي الْمناقب لا ثوبان من عدن ... خيطا قميصا فعادا بَعْد أسمالا

وقال الشيخ عز الدين المقدسي رحمه الله:

فهُم خواص الله أيةَ يَمَّمُوا ... والذاكرون اللـه فِي الآصال
القانتون الْمخبتون لربّهم ... والناطقون بأصدق الأقوال
التاركون حظوظهم ونفوسهم ... الْمؤثرون بخالص الأحوال
ما شانَهم فِي شأنِهم دعوى ولا ... عملوا لقصْد مِرا ولا لِجدال
عملوا بِما علموا فَجادُوا بالذي ... وجدوا وما بَخلوا بفضل نوال
يَمشون بين الناس هوناً كلما ... صد الْجهول فدوه بالإجمال
وإذا بدا ليل سَمعنا أنينهم ... وحنينهم بتضرع وسؤال
وعيونُهم تَجري بفيض دموعهم ... مِثل انْهمال الوابل الْبطّال
متفاوتون بِقربِهم وبِحبهم ... كتفاوت العُمّال فِي الأعمال
فِي الليل رهبان بِخدمة ربِّهم ... وتَخالهم فِي الْجود كالأبطال
تاهوا على كل الْملوك وإنَّهم ... لَهم الْملوك بعزة الإقبال
ولرُبَّ أشعث حقرته ذُلوقه ... ولدى الْمليك هو العزيز الغال
بوجوههم أثر السجود لربّهم ... وبِها أشعة نوره الْمتلالِي
خمص البطون لِما بهم من فاقة ... شعْثُ الرؤوس لروعة الأهوال
لَم تَخل أرض منهم قد حكموا ... ذات اليمين بِها وذات شمال
لا ينظرون إلَى سوى مَحبوبِهم ... شغلاً به عن سائر الأشغال

وكما لدى التنكير في (رحمة) للتعظيم قبل التوقيع، فكذا بعد قصد التوقيع أي (آتنا

من لدنك رحمة) عظيمة تعم أتباعنا وتنسحب على من استند إلينا وتعلق بنا، كما وقع لأهل الكهف الذين نزلت فيهم الآية حيث انسحبت الرحمة على كلبهم فحسب عليهم وصار يذكر بذكره. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه في تفسيره: ذكره كما ذكرهم- أعني الكلب- ومن أحب أحداً أحب من ينتسب إليه، ويقال كلب خطى مع أحباب الله خطوات فإلى يوم القيامة يقول الصبيان وغيرهم بل الحق يقول بقوله العزيز ﴿ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ ترى أن مسلماً يصحب أولياءه من شبابه إلى مشيبه يرده يوم القيامة خائباً إنه لا يفعل ذلك. ويقال في التفسير أنهم قالوا للراعي الذي كان تبعهم والكلب معهم: اصرف عنا هذا الكلب، فقال الراعي: لا يمكنني لأنّي أنا ربيته. ويقال أنطق الله الكلب معهم فقال: لِم تضربوني؟ فقالوا: لتنصرف عنا، فقال: لا يمكنني أن أنصرف عنه لأنه ربّاني. ويقال كلب بسط يده على وصيد الأولياء فإلى يوم القيامة يقال ﴿ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ﴾ فيدٌ يرفعها مسلم إلى ربه خمسين سنة ترى يردها خائبة هذا لا يكون. ويقال لما صحبهم الكلب لبركات صحبتهم لم تضره نجاسة صفته ولا خساسة قيمته. ويقال لما كرر ذكرهم كرر ذكر كلبهم. وجاء في القصة أن الكلب لما لم ينصرف عنهم قالوا: سبيلنا إن لم ينصرف عنا أن نحمله على أعناقنا حتّى لا يستدل علينا بأثر قدمه، فحملوه، فكانوا في الابتداء للكلب بلاياه، وصاروا في الانتهاء مطاياه، كذلك من اقتفى أثر الأحباب. ويقال في القصة إن الله أنطق الكلبَ معهم، وبنطقه ربط على قلوبهم بأن ازدادوا يقيناً بسماعه فقال لِمَ تضربوني؟ قالوا: لتنصرف، فقال: الذي أخذكم أخذني، فقالوا: وما علامة صحته؟ فقال: أنتم تخافون بلاء يصيبكم في المستقبل وأنتم بلائي في الحال، ثم إن بلاءكم الذي تخافون أن يصيبكم من الأعداء، وبلائي منكم وأنتم الأولياء. ويقال لما لزم الكلب محله وما جاوز حده فوضع يديه على الوصيد بقي مع الأولياء، كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوصلة. انتهى.

وقال الإمام السلمي رضي الله عنه في تفسيره: قال أبو بكر الوراق رضي الله عنه: مجالسة الصالحين ومجاورتُهم يؤثر في الخلق وإن كانوا أجناساً، ألا ترى كيف ذكر أصحاب الكهف وذكر كلبهم معهم لمجاورته إياهم. انتهى.

ومما أنشده سيدي أحمد زروق في آخر شرحه لحزب البحر عن شيخه الحضرمي رضي الله عنهما:

تعـــرض لنفحـــات الإلـــه وبابـــه ... أدم قرعَـــه فالبـــاب يوشـــك يفـــتح

إلى أن قال:

ولو طردوني وكنت عبداً لعبدهم كبعض كلاب في المزابل ينبح

وقد تقدّم حديث (مَنْ أحبَّ قوماً حشر في زمرتهم). ورأى رجل النبيّ صلى الله عليه وسلم في نومه فقال له: يا رسول الله إنّي متطفل في طريق القوم، فقال له: اقرأ كلام القوم فإن المتطفل عليهم هو الولي وأما العالِم منهم فهو النجم الذي لا يُدرك.

وقال صلى الله عليه وسلم (مولَى القوم من أنفسهم)، وهو حديث صحيح. وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم لِمَوْليَيْن له حبشي وقبطي: (إنّما أنتما رجلان من آل محمد) رواه الطبراني بإسناد حسن. وخرج ابن عساكر عن الحسن بن الحسن قال: كان حي من الأنصار لَهم دعوة سابقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مات منهم ميت جاءت سحابة فأمطرت قبره، فمات مولَى لَهم فقال المسلمون لننظرن اليوم إلَى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (مولَى القوم من أنفسهم)، فلما دفن جاءت سحابة فأمطرت قبره. انتهى. أي لننظرن هل يظهر أثره حتّى في مثل هذا، فيحمل أيضاً عليه، ويرحم الله سيدي رضوان حيث يقول في هذا المعنى:

قَنعتُ بذلّي عند باب أحبتي وإنّي أعد من كلاب حِمى نَجد

وكلب الْحمى يا صاح قد نال عزة بنسبته حقا إلَى ساكني نَجد

أتى فِي كتاب الله رفعَةُ قدْره بنسبته حَقّاً إلَى فتية الكهف

وقد قال خَير العالَمين مُحمد بأن موالِي القوم منهم بلا ريب

حديث صحيح فِي الصحيحيْن قد أتى فأكرمْ بِها من نسْبة لذوي الذكر

نسبتُ إلَى نَجد نسبتُ إلَى الْحمى فيا برد أحشائي ويا نجح مطلبِي

وقال أيضاً رضي الله عنه:

فنحنُ كلاب الدار طبْعاً ولَم نزل نُحب مواليها ونَحْرس بابَها

نُسبْنا لَهم إذ كانوا أهل عناية لأنّ كرام العُرب تَحمي كلابَها

إذا طُردت يوماً كلاب قبيلة فقومي كرامٌ لا تهين كلابَها

وما أحسن البيت الذي أنشده العارف بالله سيدي محمد بن عبّاد رضي الله عنه عند موته وهو:

ما عوّدوني أحبابِي مُقاطعةً بل عوّدوني إذا قاطعتهم وصلوا

وأنشد سيدي رضوان رضي الله عنه عند زيارة سيدي السياح خارج باب الفتوح نفعنا الله به آمين:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فِي الْمنْزل الْخشن

وشفعه بعضهم فقال:

لا تَحسبن إذا زرت الكرام هنا — أن يُهملوك غداً فِي الْموضع الْحسن

وزاد آخر:

حاشاهم يُهملوا من كان يألفهم — وكيف والْجود منهم جاد كالدمن

وفي الحديث عن أنس عن النبِي صلى الله عليه وسلم قال: أَكْرِمُوا الفقراء فإن لَهم يوم القيامة دولة، قالوا: وما دولتهم يا رسول الله؟ قال: ينادي مناد من بطنان العرش يا جبريل قربْ أحبائي، فيقول يا رب ومن أحباؤك، فيقول فقراء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قال فيجمعهم الله في صعيد واحد فيطلع المولَى سبحانه عليهم فيقول لَهم ادخلوا الجنة بلا حساب عليكم، فيقولون إلَهنا ومَنْ أحبّنا فيك ومن بَرّنا لك وأكرمنا لأجلك، فيقول الله تعالَى دوروا الجميع فمن أحبّكم فِي وبرّكم لِي وأكرمكم لأجلِي ولو بلقمة أو شربة ماء فأدخلوه معكم الجنة.

وعن بعض الصالِحين أنه رأى رجلاً بعد وفاته في النوم فقال له: ماذا فعل الله بك وماذا لقيت؟ فقال له: لَما أُدخلت القبر جاءني زبانية العذاب وأرادوا الانصراف بِي إلَى جهنم، فقلتُ لَهم: أما تعرفونني، قال لِي واحد منهم: ومن أنت؟ فقلت: أنا خديم أبِي يزيد البسطامي، فقال لأصحابه: دعوه حتّى نرى أبا يزيد فإنْ كان كما يقول خلّينا سبيله وإن كان غير ذلك أخذناه، فأتوا أبا يزيد فقالوا له: إن هذا الرجل ادعى صحبتك، فقال لَهم: إن هذا لَم أعرفه وليس كما قال، فقال له الرجل: سبحان الله ما أسرع ما نسي الناس أما تذكر يوم كنت خارجاً من باب المسجد الفلانِي وتحت إبطك ثوب وأردت أن تنتعل نعلك فمنعك الثوب من ذلك فناولتنيه وانتعلت، فقال له: نعم، فخلى وترك ومضوا عنه. فأدنَى انتساب لَهم، وأقل قرب منهم، نافع غاية النفع، حتّى مصافحتهم وملاقاتهم، ولله در القائل:

شابكتهم متبركاً بأكفهم — إذ شابكوا كفّاً علَى كريمه

ولربّما يكفي الْمحب تَعَللاً — آثارهم ويعدّ ذاك غنيمه

ويرحم الله ابن وفا حيث يقول فِي بعض أزجاله:

فاحرض عليهم بكل جهد — ومل إليهم تظفر بسَعْد

ولا تكن كسلان — تسلم من الْهجران

وانظر إلَى أبيات القطب سيدي أبِي مدين رضي الله عنه التِي يقول فيها:

ما لذةُ العيش إلا صحبة الفُقَرا — هم السلاطين والسادات والأُمَرا

وانظر آخر شرحنا للنصيحة ففيه مسائل من هذا النمط.

وقد استجاب الله للمؤلف رضي الله عنه ونفعنا به آمين، فبلّغه من الخفاء مراده حتّى لم يعرفه إلا الشيخ أبو الحسن الشاذلي، ومن أجل ذلك لازم رضي الله عنه قنة الجبل المسمّى بالعَلَم، مبالغة في الانفراد عن الأغيار، واستجاب له أيضاً في انسحاب الرحمة التي رحمه بها على أتباعه وأصحابه حتّى صارت الطريقة تُنسب لتلميذه الذي تخرّج على يديه. ووجد بخط المؤلف الشهير أبي حفص سيدي عمر بن عيسى بن عبد الوهاب دفين جبل العلَم قرب جده مولاي عبد السلام، وهو من أصحاب الشيخ القطب أبي محمد سيدي عبد الله الغزواني رضي الله عنهم أجمعين، ومن خطه بواسطة نقلت أن مولانا عبد السلام كان يوماً بإزاء خلوته جالساً يتلو القرآن ومعه تلميذه ووارث حاله الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه حتّى وصل في سورة الأنعام إلَى قوله تعالَى ﴿ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ ﴾ فورد عليه وارد إلَهي ونزل به حال قوي اقتطعه عن حسه واستغرق فيه مدة، فلما أفاق رفع يديه إلَى السماء داعياً، وكان من جملة ما دعَى به أن من سبق له الشقاء والحرمان لا يصل إليه وأنَّ من وصل إليه يكون له شفيعاً يوم القيامة. هذا معنَى ما وجد بخط الشيخ المذكور.

وقريبٌ من هذا ما حدثنا به بعض شيوخنا الثقات عن السيد الصالح مولاي عبد الله بن إبراهيم الشريف العلمي اليملحي نزيل جبل وزان ودفينه رحمه الله أنّهم سألوه عن هذا فقال لَهم: الذي تلقيناه مِمن أدركناه من كبراء شرفاء تازروت الريسونيين أو الرحمونيين الشك منّي لطول العهد أن الشيخ سيدي عبد السلام كان من جملة ما دعَى لـه: اللهـم لا تبعـث لنا من حكمت بشقائه. انتهى. هكذا وجدته بخط شيخنا وبركتنا الإمام المحقق العلامة أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد بن المسناو كان الله لنا وله في الدارين بمنه آمين.

ووقعت حكايات تشهد لِهذا من إسلام بعض الكفرة حين قارب الضريح المذكور، ورجوع بعض الفسقة الذاهبين بقصد الزيارة بعد أن لَم يبق بينهم وبين الضريح المذكور إلا مسافة يسيرة لأسباب اتفقت لَهم، نسأل الله السلامة والعافية بِمنه وكرمه آمين.

قال مقيده عبيد ربه محمد بن عبد الرحمن بن زكري كان الله له وليّاً ونصيراً: هذا آخر ما تيسر من التقييد على كلام سيدنا الشيخ أبي محمد عبد السلام رضي الله عنه ونفعنا به آمين، مستغفراً من التجاسر على كلام مثل ذلك الإمام، راجياً أن يكون لِحظ من الاعتناء بالتوجه لكلام أمثاله وقسط من محبتهم وخدمتهم والتعلق بأذيالِهم، ولو

إلا من جهة نزول الرحمة عند ذكرهم بالترضي عنهم والتملق بِجانبِهم، وذلك من منن الله العظيمة وعطاياه الفاخرة الجسيمة، وكيف لا وهم عبيده حقاً، ومَنْ عظَّم عبد الملك وأحبه انبسط عليه من جانب الملك ما يناسب قدره، فهدايته تعالَى إذاً إيانا لذلك من أعظم المنن، وأجل ما عودنا من فعله الجميل الحسن، تمّم الله لنا ذلك بالتثبيت عليه وتَنميته حتّى نَموت ونبعث عليه، مع العافية التامة بِمنه وكرمه آمين، ووافق الفراغ من تأليفه وقت صلاة عصر يوم الخميس الرابع عشر ذي الحجة الحرام عام تسعة وعشرين بعد الألف والمائة).

فهرس المحتويات

RIYĀḌ AR-RAQĀ'IQ WA ḤIYĀḌ AL-ḤAQĀ'IQ 'ALĀ ṢALĀT AL-QUṬB AL-FĀ'IQ MAWLĀNĀ 'ABDULSALĀM BIN MAŠĪŠ

By
Dr. Mohammed ben Mohammed
Al-Mahdi Al-Timsamani

